

الصياغة الجديدة

لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام^(١)

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي

قدس سره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الفصل الأول: هل العالم سليم الصياغة

معرفة الحالة

كيف تعرف الأشياء؟

هناك قاعدتان مشهورتان في الفلسفة:

القاعدة الأولى تقول: (تعرف الأشياء بأمثالها).

والقاعدة الثانية تقول: (تعرف الأشياء بأضدادها).

وكلتا القاعدتين صحيحتان، فإن الإنسان لا يعرف خصوصيات النهار إلا إذا جاء الليل، ولو كان النهار مستمراً لم يعرف الإنسان حقيقة النهار، والعكس صحيح أيضاً، كما أن الإنسان لا يعرف حقيقة العطش إلا بعد معرفة حقيقة الارتواء، وبالعكس، إلى غير ذلك من الأمثلة.

ومن هنا قيل في قاعدة أخرى: (حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد) فالأمور المتماثلة كلها تجوز عليها أشياء معينة، كما لا تجوز عليها أشياء معينة، فالأبيض والأبيض كلاهما يفرق نور البصر وكلاهما لا يقبض نور البصر، كما أن الأسود والأسود كلاهما يقبض نور البصر وكلاهما لا يفرق نور البصر، إلى غير ذلك من الأمثلة. ومن هنا.. فإننا إذا أردنا أن نعرف عاقلاً فقد نعرفه بالقياس إلى عاقل آخر، فكلاهما موزون الحركات، وكلاهما لا تبدو عليه ملامح الاضطراب والفوضى في الكلام والسكون والحركة والأكل والشرب والمشى وغير ذلك.

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولا بد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

وقد نعرف العاقل بالجنون، كما أن الجنون يعرف بالعاقل، فإذا رأينا عاقلاً متّرن الحركات علمنا أن الجنون هو ما ليس كذلك، وإذا رأينا مجنوناً فوضوي الحركة علمنا بأن العاقل ليس كذلك.

عالم العقلاء، أم عالم المجانين؟

إذا عرفنا هذه (المقدمة) القصيرة نقول: هل العالم في عصرنا هذا عالم عقلاء أم عالم مجانين؟ ولعلّ هذا السؤال يثير الاستغراب، إذ واضح أن العالم عالم العقلاء، وإن المجانين هم أفراد قلائل يعيشون في دور المجانين ومستشفيات الأعصاب.

لكن هذا هو السطح الظاهر من الأمر، ولعلّ التعمّق في الأمر يفيد غير ذلك. ولنتساءل: الجنون من هو؟ حتى نعرف أن العالم بمجموعه مجنون أو عاقل، والعاقل من هو؟ حتى نعرف هل أن العالم بمجموعه عاقل، أم لا؟! إن الجنون: - هو الذي يمارس الأعمال الاعتيادية، مما يضرّ نفسه ويضرّ الآخرين، والعاقل: - هو الذي يمارس الأعمال بحكمة مما ينفع نفسه وينفع الآخرين، أليس كذلك؟! إذا كان الجواب بالإيجاب، فهل العالم يقوم بالأعمال المفيدة لنفسه ولغيره أو يقوم بالأعمال الضارة؟ واضح أن كل فرد يجيب عن هذا السؤال بقوله: أنا عاقل! وكذا كل شركة شركة، وكل حكومة حكومة.

ولكن: إذا كان العالم عالم العقلاء، فلماذا قتل الملايين خلال نصف قرن في حربين عالميتين، تركت العالم شظايا ورماداً ودماء ودموعاً وأشلاء ومعوقين وما إلى ذلك. ولماذا نصدّق بالأمم المتحدة وهي أوضح مثال للانحراف، حيث نرى منظمة الأمم المتحدة مكاناً لهدر الحقوق، فالأمم المتحدة تجعل الدولة الكبيرة ذات الألف مليون إنسان والدولة الصغيرة ذات مائة ألف إنسان على قدم المساواة في إعطاء الأصوات، فهل صحيح أن نساوي بين مائة ألف إنسان وبين ألف مليون إنسان؟ أليس هذا هدرًا لحقوق ألف مليون. إلا مائة ألف. لأن مائة ألف من حكومة ذات ألف مليون تساوي مائة ألف من الحكومة الصغيرة ذات مائة ألف، فأين حق البقية؟ أوليس ذلك يشبه أن تعطي لألف إنسان طعاماً وتعطي لإنسان واحد بقدر ذلك الطعام، بل النسبة أبعد من ذلك، لأن نسبة مائة ألف نسبة العشر، فهو مثل أن نعطي (عشرة أقراص من الرغيف) لإنسان واحد، و(رغيفاً واحداً) لألف إنسان!

مثال ثالث: - لماذا يتكدّس المال حتى يملك بعض الأفراد مليارات، بينما الملايين جائعون، وبينما الملايين من الأطفال يموتون جوعاً وهل هذا من التعقل؟ فلو كان والد عائلة يعطي لولد من أولاده عشرة أقراص من الخبز ويترك عشرة آخرين من أولاده جائعين إلى حد الموت، فهل يعد هذا الوالد عاقلاً، وإن كان هذا الوالد يعدّ عاقلاً، فمن هو الجنون!!

إذاً، ليس الجنون خاصاً بمن يقفز في الشارع، ويتسلّق الجدران ويشقّ ملابسه ويلوّث بدنه، فإن الجنون أيضاً هو من يضرّ نفسه ويضرّ الآخرين.

وإذا كان العالم عالم العقلاء لماذا نبي المستشفيات للعناية بالصحة، ونريّ الأطباء الحاذقين، ونكدح ليل نهار لعلاج عين، أو قلب أو شفاء حمّى أو ما أشبه، ثم في قبال كل ذلك نهبى وسائل التدمير الجماعية التي تخلف ملايين الجرحى والمصابين والمعتوهين؟ هل هذا عمل العقلاء؟!

هل الوالد الذي يذهب بولد له أصابته وعكة إلى الطبيب ويعتني به عناية فائقة حتى يبرأ، ثم يأخذ السكين ويقطع يد ولده الآخر، أو يقلع عينه، أو يصلم أذنه، أو يجدع أنفه، أو يبتز رجله، هل يعد هذا عاقلاً؟
إذا كان العالم عالم العقلاء، فلماذا تحرق المحاصيل الزراعية أمثال القمح والسكر والأرز، وتلقى في البحر ملايين الأطنان من الحليب المجفف والأدوية؟

بينما هناك ملايين من الناس يموتون جوعاً، أو لسوء التغذية، أو بمرضون من جهة عدم كفاية الدواء والغذاء والعناية الصحية.

أليست هذه الأمور وأمثالها دليلاً على أن العالم الذي نعيش فيه قد فقد الموازين؟
القرآن الكريم يصوّر عالم الجنون

وقد ألمع القرآن الحكيم في آيات متعدّدة إلى هذه الحقيقة، فقد قال سبحانه: (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) (سورة البقرة: ١٣٠).
فالذي يرغب عن ملة شخص مصطفى في الدنيا وصالح في الآخرة سفيه حقاً.
وفي آية أخرى يقول الله تعالى: (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (البقرة: ١٤٢).

فمن ينقد الصالحين والمصلحين هو إنسان سفيه، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العقل إلا السفاهة؟
وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً) (النساء: ٥).

فالناس الذين يتصرفون في الأموال تصرفاً غير حكيم هؤلاء سفهاء، ويحظر على الإنسان أن يعطي المال لهؤلاء، وإن كان المال لهم شرعاً، وقد سمى الله سبحانه وتعالى هذه الأموال (أموالكم) لأن مجموع المال لمجموع البشر، فإذا أعطي المال للسفيه وتصرف فيه تصرفاً غير صحيح كان معنى ذلك حدوث نقصان في مجموع أموال البشر، ولنفرض أن هنالك ألف إنسان وألف دينار، وبعض هؤلاء يتصرفون تصرفاً سيئاً فإذا أعطيناهم مائة دينار وألقوها في البحر بقي ألف إنسان بتسعمائة دينار فقد نقص من الأموال بهذا العمل.

ويقول الله تعالى في آية أخرى: (وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً) (الجن: ٤).
فالذي يقول على الله الشطط هو سفيه.

وفي رواية: (مرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، على جماعة، فقال: على جماعة، فقال: على ما اجتمعتم؟ فقالوا: يا رسول الله هذا مجنون يصرع فاجتمعنا عليه، فقال: ليس هذا بمجنون ولكنه المبتلى، ثم قال: ألا أخبركم بالمجنون حق المجنون؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفه... يتمنى على الله جنته وهو يعصيه) (١).

نتائج الانحراف

ومن الواضح أن معصية الله سبحانه وتعالى انحراف عن الطريقة المستقيمة في الحياة، وكل انحراف يسبب نتائج سيئة، فالذي يشرب الخمر يسبب لنفسه انحرافاً في الصحة، والذي يقامر يسبب لنفسه خسارة وانهاياراً، والذي يزيني يسبب لنفسه أمراضاً نفسية وجسمية واجتماعية، أليس هذا نوعاً من أنواع الجنون؟ والفرق أن المجنون قليل الأذى، لأن أذى المجنون لا يتعدى غالباً دائرة خاصة صغيرة، أما مجنون الشهرة أو مجنون القدرة أو مجنون السيطرة، فهؤلاء يضرّون أنفسهم ويضرّون ملايين الناس، ولذا ورد في الحديث: (إذا فسد العالم فسد العالم).
والعالم المنحرف لا يضر آخرته فحسب، وإنما يضر دنياه قبل آخرته، كما يضر الآخرين أيضاً وعلى هذا القياس. إذاً فعالم اليوم عالم المجانين وليس بعالم العقلاء، عالم المرضى وليس بعالم الأصحاء، عالم المنحرفين وليس بعالم المستقيمين.

ملامح المجتمع المريض

وبذلك ظهر أنه لا يمكن أن يقال: (ان الاجتماع يسير) (وكل مجتمع واصل السير، وأدام قطع المراحل فهو مجتمع سليم) إذ يجب ملاحظة الروح العامة السائدة في الاجتماع، وهل إنها مطابقة للمقياس الصحيح أم ليست مطابقة له؟ فإن كانت مطابقة للمقياس الصحيح كان المجتمع سليماً، وأما إذا لم تكن مطابقة كان المجتمع منحرفاً ومريضاً ومجنوناً.

ولا يحتاج الأمر إلى أن نرجئ الأمر مدة ونقول: هذا الاجتماع السائر سوف يصطدم ويتحطم كالسيارة المعطوبة التي تسير الآن سيراً معتدلاً، لكن بعد برهة من الزمن تصطدم وتحترق وتعطب! بل هنالك علامتان للمجتمع المريض:

العلامة الأولى: أن نرى المجتمع وقد ظهرت فيه نواقص.

والعلامة الثانية: أنه سوف يتحطم.

وكلا الأمرين موجودان في الاجتماع الحاضر فمثله مثل سيارة في حالة الاحتراق، وبعد مدّة من الزمن تصطدم وتتحطم وتتلاشى.

فهذا الاجتماع الذي نعيش فيه يمرّ الآن بحالة الاحتراق، فهناك حروب، هناك ثورات، هناك جنون التسابق إلى التسلّح، هناك اللف والدوران والمكر والخداع والغش والاحتكار، والرأسمالية المنحرفة، والشيوعية الجنونية، هناك تمايز طبقات إلى حد أن بطوناً تتختم وبتوناً تحرم، قسم يذهبون إلى القبور بسبب التخمة، وقسم يذهبون إلى القبور بسبب الفقر والجوع، هذا واقع الاجتماع الآن..

أما المستقبل فالاجتماع أخذ في طريق الوصول إلى نقطة النهاية والتحطم، حيث تفنى الحضارة التي وصل إليها الإنسان منذ قرون وقرون.. أليس ذلك دليلاً على انحراف الاجتماع وعدم تعقله، أليس هذا الواقع يلجّ على عقلاء العالم للتفكير في كيفية العلاج والخلاص لكل العالم، لا لأمة خاصة أو مدينة خاصة أو جماعة خاصة أو ما أشبهه؟..

١ . بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٣٣، دار المعارف . بيروت.

أسباب الانحراف العالمي

محدودية الثقافة

١ . نقص الثقافة، ولا نقصد نقص ثقافة خاصة كثقافة الاقتصاد أو ثقافة الاجتماع أو ثقافة التربية أو ثقافة الجيش أو ثقافة الإمارة أو ثقافة الحكم أو ثقافة الزراعة أو ما أشبهه، وإنما نقصد نقص ثقافة الحياة بمجموعها، فإن من الضروري:

أولاً: أن نعرف طبيعة الإنسان.

وثانياً: أن نعرف ماذا يلائم طبيعته، وماذا ينافرها؟

وثالثاً: أن ننظر هل الاجتماع مكوّن من الملائم أو المنافر؟ فليس من الصحيح أن نقول: يجب اتباع الأكثرية، كما أنه ليس من الصحيح أن نقول: يجب الحياد بعدم الاتباع والمخالفة، كما أنه ليس من الصحيح أن نقول: يجب المخالفة، فإن كل شيء في موضعه حسن، فإذا كانت الأكثرية مستقيمة يجب اتباعها، وإن كانت منحرفة يجب مخالفتها، وإن لم تكن مستقيمة ولا منحرفة، وإنما بين ذلك سبيلاً، فالواجب اتباع الصحيح ومخالفة المنحرف. تبديل الفطرة

بينما نرى أنه قد سحقت مسألة الفطرة في الجهة الأولى (معرفة طبيعة الإنسان) وقد قال الله سبحانه وتعالى: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) (الروم: ٣٠).

فكما أن لكلّ شيء في الحياة فطرة وخاصية حسب ما قرره الله سبحانه وتعالى، كذلك نرى في الإنسان فطرة خاصة، وهذه الفطرة هي التي تملي على الإنسان ما يلائمها وما ينافرها، وقد قال سبحانه: (قل كلّ يعمل على شاكلته) (الإسراء: ٨٤).

فكما أن فطرة الحيوانات تختلف عن فطرة الأشجار.. وكما أن فطرة الأشجار تختلف بعضها عن بعض، فكذلك للإنسان فطرة خاصة، بينما نرى الآن في العالم جماعة من المفكرين والسياسيين وهم يظنون أن الإنسان صفحة بيضاء يمكن أن ينقش فيها أي نقش، ولذا يتهافتون على قضايا غسل المخ وعلى مسائل الدعاية والتبليغ كيفما شاءوا.

فمثلاً ترى في البلاد الغربية كل الأجهزة منصّبة على توجيه الناس الوجهة الرأسمالية، وفي البلاد الشرقية ترى كل الأجهزة منصّبة على توجيه الناس الوجهة الشيوعية، وفي بعض البلدان التوجيه إلى الوجهة القومية أو ما أشبهه، وذلك يسبب انفصاماً في الشخصية، فمن ناحية للإنسان نداء ضمير وصياح فطرة، ومن ناحية يعمل الإعلام على خلاف ذلك، فهؤلاء الساسة والمفكرون . الذين يرون أن الإنسان صفحة بيضاء يمكن أن ينقش فيها أي نقش أو أرض خالية يمكن أن يزرع فيها أي زرع . من هذا المنطلق يأخذون بزمام الإنسان مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال، مما يسبب الانفصام في الشخصية العالمية، فصار الإنسان أجنبياً عن نفسه، وقد نَبّه على هذا

القرآن الحكيم بعبارة دقيقة حيث قال سبحانه: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) (الكهف: ٢٨).

إن الهوى لا استقامة له، فالرياح تهب مرة نحو الجنوب، وأخرى نحو الشمال، وثالثة نحو الغرب، ورابعة نحو الشرق، ويكون حال الإنسان المتبع لهواه حال العنقود إذا انفطرت الأعناب منه فإنه لا يبقى قوام لحبات الأعناب المنفردة حين الرفع والوضع والنقل وما أشبهه.

العودة إلى الفطرة

ولذا من الضروري على الإنسان أن يلاحظ فطرته القويمة الخالية عن الأهواء الداخلية والمضلالات الخارجية، فإذا نمت تلك الفطرة نمواً طبيعياً كان الإنسان سليماً وكان المجتمع المحتوي على هؤلاء الأفراد مجتمعاً سليماً، وإلا . (بأن لم تنم الفطرة كما هي هي، وإنما زرع فيها غير المناسب لها) . يكون الإنسان مريضاً ويكون المجتمع الذي يحتوي على هذه اللبنة الإنسانية مجتمعاً مريضاً كما ابتلى العالم المعاصر بذلك.

الوثاق بين الفطرة والسلوك

.. ثم بعد أن عرفنا الأمر الأول . وهو طبيعة الإنسان وفطرته لا الألوان المفروضة عليه من الداخل أو من الخارج . يأتي دور الأمر الثاني وهو أن نعرف ماذا يلائم هذه الطبيعة، وماذا لا يلائمها؟ حتى نصنع الوثاق بين الطبيعة وبين النفس، وفي هذا المجال نلمح انحرافاً آخر.. وهو: أن يكون الإنسان مع الناس كيفما كانوا، وقد اشتهر عند جماعة من الناس قديماً وحديثاً (حشر مع الناس عيد) بينما الحشر مع الناس المستقيمين عيد، أما الحشر مع المنحرفين فهو عزاء وضلال، أتري أن الإنسان إذا ذهب إلى الشرق هل يحشر معهم؟ ثم إذا ذهب إلى الغرب هل يحشر معهم؟ وهل يمكن أن يكون عيدان للإنسان: عيد إلى أقصى اليمين وعيد إلى أقصى اليسار؟ إن هذا هو معنى أن الإنسان ينخلع عن نفسه بنفسه.

الفطرة الخالقة بين الهدم والبناء

ثم لما تبين أن الانعزال يزيد الإنسان انكماشاً حول نفسه، كما أن العلاقة المنحرفة تسبب عطباً وخبالاً نقول: إن الإنسان إذا لم يصرف فطرته الخالقة في البناء، لا بد وأن يصرف فطرته في الهدم، سواء في هدم نفسه أو هدم مجتمعه، فإن أفراد الإنسان والحيوان والنبات كلها خالقة: النبات يخلق الأوراق والأزهار والأثمار والأغصان وما أشبهه، والحيوان أيضاً يخرج الذرية والبيض والريش والصوف ونحوها، والإنسان أيضاً له الحالة الخلاقية، لكن الفرق بين خلاقية الإنسان وخلاقية أخويه: أن خلاقية الإنسان خلاقية واعية، بينما خلاقية الحيوان والنبات غريزية كما هو المعروف في علم الحيوان وعلم النبات (وإن كان هناك قول بوجود شعور في النبات والحيوان أيضاً بل هنالك قول: بأن كل الأشياء تشعر) وقد استدل على ذلك ببعض الآيات الكريمة كقوله سبحانه: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) (الأحزاب: ٧٢).

وكقوله سبحانه: (يا جبال أوبي معه) (سبأ: ١٠).

وفي آية ثالثة: (فإذا هم بالساهرة) (النازعات: ١٤).

وعلى أي حال، نترك الحديث عن النبات والحيوان إلى مجاله، وإنما كلامنا في خلاقية الإنسان، فالإنسان بفطرته خلاق، وهذه النفس الخلاقة إما أن تخلق الحياة، وإما أن تخلق الدمار، والحياة المخلوقة للنفس إما أن تكون حياة مستقيمة أو حياة منحرفة.

مثلاً: الذي يقتل إنساناً أو يهدم داراً فإنه يخلق الدمار أما من يوجد الولد فقد يوجده مستقيماً عن طريق حلال، وقد يوجده منحرفاً عن طريق حرام، وكذلك من يبني الدار قد يبنيها بناية هندسية معتدلة، وقد يبنيها بناية منحرفة غير مطابقة للقوانين والاحتياجات، والإنسان إذا لم يصرف خلاقته في البناء لا بد وأن يصرفها في الدمار، والدمار يشمل حتى دمار نفسه، فإن الإنسان المنعزل يصرف خلاقته في الانعزال والاجتناب عن الناس مما يسبب له الدمار، وحتى ما نشاهده في بعض الناس من تمني الموت أو الانتحار، فإنما مبعثه النفس الخلاقة، لأن ذلك قد يكون خلقاً للفناء والدمار فيما إذا انتحر انتحاراً محرماً أو تمنى الموت وهو لا يعتقد بالآخرة، وأما أن يكون خلقاً للحياة والاستقامة إذا أراد الانتقال إلى مكان أحسن، حيث يعتقد أن بعد الموت حياة دائمة كما قال سبحانه: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) (آل عمران: ١٦٩).

ولذلك نشاهد أن من أولياء الله سبحانه وتعالى من يتمنى الموت، وقد قال الله سبحانه وتعالى حول اليهود: (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) (الجمعة: ٦، ٧).

المضاعفات الخطيرة للانفصام

والواقع أن المجتمع الذي يحتوي على هذه اللبنة الإنسانية . المنخلعة عن نفسها بنفسها . مجتمع منحرف ومريض مما يسبب أن يكون الإنسان في ضيق من الحياة وضنك من العيش كما قال سبحانه: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) (طه: ١٢٤، ١٢٦).

وإنما يبتلى الإنسان في الحياة بضعك العيش لأن داخله شيء وخارجه شيء وهنالك تمزق وانفصام بين الداخل والخارج هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية: وجود القوانين الوضعية التي تقيد الإنسان وتجعل الأثقال على كاهله تسبب له ضيقاً وضحكاً، فهنالك ضيق وضحك نفسي، وضيق وضحك جسدي. فسفره محذور، وإقامته محظورة، وعمارته محظورة، وكذلك قُل في سائر حرياتِه فإنها كلها مكبوتة ومقيدة كما نشاهد في عالم اليوم، ففي الدنيا يعيش في ضنك العيش وفي الآخرة هو أعمى.

ولذا كان القادة الإسلاميون في أول الإسلام عندما يواجهون الأمم الأخرى التي يدعونها إلى الدخول في الإسلام يقولون لهم: جئنا لإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن ضيق الأرض إلى سعتها.

نعم الإنسان الذي يعبد الحجارة يعيش في ضنك نفسي، وأزمة روحية وانفصام، ففطرته تكفر بالحجارة وبالصنم وبالآلهة البشرية، بينما مجتمعه . الذي فرض هذا الإنسان على نفسه اتباعه (إما خوفاً وإما رغبةً وإما جهلاً) . يعبد

الحجارة.. وهنا يكون الانقسام والخروج من موازين الحق والعدل والفضة، ثم ضنك العيش وذنك الحياة، كما نشاهد هذين الأمرين في زمننا الحاضر في العالم حيث رجع العالم إلى الجاهلية، لكن: لهذه الجاهلية لون آخر غير اللون الذي كان للجاهلية قبل الإسلام.

معرفة التركيبية الاجتماعية

وبعد هذين الأمرين. أي معرفة طبيعة الإنسان، ومعرفة ماذا يلائم طبيعته. نأتي إلى الأمر الثالث: - وهو هل أن الاجتماع مكون من الملائم أو من المنافر أو من الخليط بينهما؟ فإذا كان الاجتماع ملائماً، فهذا اجتماع سليم ويجب الانساق معه، وإذا كان الاجتماع منافراً فهذا اجتماع مريض ويجب مخالفته، وإذا كان الاجتماع خليطاً منهما فهذا اجتماع صحيح وسقيم مخلوط منهما، وكما قال الله سبحانه وتعالى: (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) (التوبة: ١٠٢).

فيلزم اتباع الملائم واجتناب المنافر، فلا يمكن إطلاق القول بالاتباع، كما لا يمكن إطلاق القول بالاجتناب والمخالفة وهكذا لا يمكن إطلاق القول بعدم الاتباع وعدم المخالفة، أي العيش حيادياً لهم دينهم، وله دينه، وإنما يلزم اتباع الصحيح ومخالفة الباطل.

بين الإنسان والطبيعة

.. ثم إننا نشاهد أن المواليد الثلاثة حسب المصطلح الفلسفي (النبات والحيوان والإنسان) تختلف من حيث أن النبات بقي جزءاً من الطبيعة غير مطرود عنها، ولذا فهو مرتبط بالأرض وهو جزء منها، وإنما اهتزت الأرض وربت حتى صارت في شكل النبات.

أما الحيوان فلم يطرد عن الطبيعة طرداً مطلقاً، ولم يبق على الطبيعة بقاءً مطلقاً، ولذا فهو نصف مربوط بالطبيعة، ليس له لا كل شؤون المنفصم الفطيم، ولا كل شؤون المرتبط الرضيع.

أما الإنسان. ثالث المواليد. فهو: مطرود عن الطبيعة طرداً مطلقاً بسبب عقله ومعرفته وتسارعه على ذاته وتسارعه على الطبيعة، وقابليته للنمو العقلي والعاطفي والفكري.

أربعة أنواع من التنسيق

لذا كان اللازم على الإنسان أن يهتم لأن يعرف كيف ينسق بين نفسه (لأن الإنسان ينقسم عن نفسه أحياناً كما ذكرنا) ويعرف كيف ينسق بين نفسه ومجتمعها؟ ويعرف كيف ينسق بين نفسه والطبيعة؟

وحيث يدرك الإنسان بفطرته أن له إلهاً حكيماً يلزم عليه تنسيق رابع بين نفسه وبين إلهه؟ فإذا توافقت كل التنسيقات الأربعة عاش الإنسان في مجبوحة الخير والرفاه والسعادة النفسية والجسدية، وإن تعوقت بعض التنسيقات حصل الانهدام بقدر ذلك الانقسام.

أقسام الانقسام في الشخصية

وتتدرج الانقسامات بين انقسامات أربعة، وانقسامات ثلاثة، وانقسامين اثنين، وانقسام واحد.

وهناك قسم آخر من الانفصام وهو الانفصام في أحد الأمور الأربعة في الجملة، إذ التنسيق والانفصام ليس (بسيطاً) حتى يكون التنسيق مطلقاً أو الانفصام مطلقاً، وإنما التنسيق والانفصام قد يكون في أحد الأمور الأربعة وقد يكون في بعض كل واحد من الأمور الأربعة على اختلاف المراتب، ولذا نشاهد في الآيات الكريمة الإشارة إلى هذين الأمرين.

يقول القرآن الحكيم: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) (المائدة: ٦٦).

فإذا حدث التنسيق بين كل الأمور . والذي يتلخص في إقامة التوراة والإنجيل والقرآن . لكانت الحياة للإنسان رغداً هنيئاً وكان الإنسان سعيداً، أما إذا لم يحدث التنسيق فإن الأمر يكون بالعكس، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (الروم: ٤١).

فالفساد إنما يكون بسبب عدم التنسيق بين الأمور الأربعة، والإنسان إنما يتسلم ثمرة عمله، ولذا يقول الله تعالى في آية أخرى: -

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) (الروم: ٤٢).
إنهم بسوء أعمالهم والانفصام في الأمور التي يجب التنسيق بينها ذاقوا وبال أمرهم، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين) (الروم ٤٣-٤٤-٤٥).

الإنسان يخون الأمانة!

وعلى هذا، فالإنسان لا يقاس بالنبات الذي هو جزء من الطبيعة ولا بالحيوان الذي هو نصف مطرود عن الطبيعة، وإنما يجب أن يلاحظ نفسه منفصلاً عن الطبيعة منفلاً من مخالبتها وعلى ذلك يبني حياته وأنه كيف يعيش في هذه الحالة، أما إذا صار الإنسان في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وما أشبه تابعاً للحيوان ناسياً إنسانيته فإنه يصبح حينئذ كالبهائم بل أسوأ منها لأنه ملك شيئاً فهدره، بينما البهيمة لا تملك ذلك الشيء، يقول الله سبحانه وتعالى مشيراً إلى هذه الحقيقة وبأن الكفار كيف يصبحون كالبهائم في كيفية العيش والارتباط بالطبيعة: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (محمد: ١٢).

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار) (محمد: ١٢).
إنهم في الحياة أنعم، والأنعام لا تكون مستحقة لكرامة الجنة، فينتهي أمرهم إلى النار حيث إنهم ضيعوا سمومهم وارتفاعهم أما الأنعام فتصبح تراباً كما ورد في تفسير قوله تعالى: (ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) (النبأ: ٤٠).
حيث يرى الكافر أن الأنعام تبدلت إلى تراب، أما هو فلا يتبدل إلى تراب، حيث إنه ملك شيئاً فضيعه فيجب عليه أن يذوق وبال أمره.

هذا من ناحية كيفية العيش في الحياة، أما من ناحية أنه أضاع الشيء الذي منح فلم يعبأ به، فقد قال سبحانه وتعالى: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً).

ويشير القرآن الحكيم إلى تضييع الإنسان ما شرفه الله سبحانه وتعالى به وظلم نفسه وجعل قدره، مما سبب له الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة حيث يقول: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (الأحزاب: ٧٢).

الفارق بين الإنسان وسائر الكائنات

إن النبات ليس محتاجاً إلى التعب والنصب في توفير اللوازم بنفسه وإنما خلقه الله سبحانه وتعالى بحيث تتكفل السماء والأرض ونحوهما بتزويده بحاجاته تلقائياً.

أما الحيوان فإنه محتاج إلى ما يكفيه بأن يتعب وينصب لأجل شبعه جوعته وإرواء ظمأه وقضايا جنسه إلى غير ذلك، لأنه ليس بمنزلة النبات.

أما الإنسان فلأنه أبعد عن الطبيعة كان محتاجاً إلى كل قضاياه، فحيث إنه ليس كالملائكة بعيداً عن الطبيعة كل البعد فإنه يحتاج إلى توفير مسكنه وملبسه ومأكله ومشربه وغير ذلك، وليس هذا هو الفارق بينه وبين الحيوان، وإنما الفارق ما يحتاجه الإنسان من الأمور النابعة من نفسه وروحه وكونه مرتبطاً بالسماء كارتباطه بالأرض، فإذا تمكن من تصحيح التنسيق والارتباط بين هذه الجهات المتخالفة كان الإنسان إنساناً سليماً، والمجتمع المحتوي على مثل هذه اللبنة الإنسانية مجتمعاً سليماً بينما إذا لم يتمكن من تصحيح مسيره كان الفرد فرداً غير سليم. إما مريضاً غاية المرض إذا حصل الاختلال في كل التنسيقات، وإما مريضاً بعض المرض إذا حصل الاختلال في بعض الجهات المحتاجة للتنسيق -.

أبعاد التركيبة الإنسانية في نهج البلاغة

وقد أشار أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة إلى هذه الاحتياجات الإنسانية النابعة من كيفية خلقته فقال: (ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنهها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلية حتى لزبت، فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت لوقت معدود وأمد معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها، وجوارح يخدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة والأضداد المتعادية والأخلاق المتباينة من الحر والبرد والبلية والجمود).

إلى أن يقول (عليه السلام): (وأهبته إلى دار البلية وتناسل الذرية، واصطفى سبحانه من ولده أنبياءً أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أماناتهم لما بدل أكثر خلق الله عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق

فطرته ويذكروهم منسيّ نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويشيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع ومهاد تحتهم موضوع ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب تهرمهم وأهداف تتابع عليهم(١). فالإنسان في منطلق الواقع الذي بيّنه الإمام عليه الصلاة والسلام:

أولاً: مركّب من جسد ومن روح.

وثانياً: جسده مختلط من أشياء، كما أن روحه أيضاً مختلطة من أشياء. كما في أحاديث أخرى. فإن الجسم كما هو مختلط مما ذكره الإمام (عليه السلام) كذلك الروح مختلطة من أشياء ذكرها الأئمة عليهم السلام في مسألة (جنود العقل) و(جنود الجهل) على تفسير مذكور في كتب الأحاديث، وبالفعل يجد الإنسان في داخله ما ذكره وان كنا لم نعرف بعد غور النفس وخصوصياتها. وإن كنا تمكنا أن نصل إلى آفاق السماء وأعماق الأرض - . وثالثاً: يذكر الإمام عليه الصلاة والسلام كيفية التنسيق بين هذين المتضادين (الجسم والروح) ثم يبيّن متضادات الجسم ومتضادات الروح ما هي؟. وهذا هو الذي نحن بصدد الآن. حيث إنه يبقى سؤال بعد ما تقدم وهو أنه كيف ينسق الإنسان بين هذه الأمور الأربعة سواء بعضها مع بعض أو التنسيق في داخل كل وحدة وحدة من هذه الوحدات الأربع المذكورة؟

فإنه إذا تمكن الإنسان من هذين التنسيقين بين الوحدات وبين كل وحدة وحدة، فقد أصبح الإنسان سليماً، والمجتمع الذي يحتوي على هذه اللبنة الإنسانية مجتمعاً سليماً، بينما إذا لم يتمكن من التنسيق وحدث الانفصام والافتراق يصبح الفرد والمجتمع المبني عليه سقيماً، إما بنحو متطرف في السقم أو بنحو خفيف في السقم.

ألوان من الانفراط

.. وإذ قد عرفنا كبرى الانفصام والتنسيق يأتي الكلام هنا في أمرين: -

الأول: الانفراط على أقسام: -

أولاً: الانفراط عن النفس:

وهو قد يكون في جانب النفس، وقد يكون في جانب الجسد، مثلاً: - كل من المتهور والجبان منفرط في جهة النفس، وكذلك كل ممن يأكل أكثر من المتعارف أو أقل منه منفرط في جهة الجسد، وقد أشار القرآن الحكيم إلى الانفراط عن النفس بقوله سبحانه: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) (الحشر: ١٩).

فالذي ينسى الله سبحانه وتعالى ينتهي نسيانه لله إلى نسيانه نفسه، ويكون منفرطاً عن ذاته، إما في جهة الجسد، وإما في جهة الروح، وفي كل واحد منهما إما أن يكون الانفراط في جهة الإفراط، أو في جهة التفريط.

ثانياً: الانفراط عن المجتمع:

وهو أن لا ينسق الإنسان مع المجتمع، وقد قال سبحانه في صدد التنسيق مع المجتمع: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).

وقال سبحانه: (وقولوا للناس حسنا) (البقرة: ٨٣).

إلى غيرها من الآيات التي وردت بصدد التنسيق بين الإنسان وبين المجتمع، فإذا لم يفعل ذلك فقد انفرط عن المجتمع وحصل بينهما انفصام، وقد قال سبحانه بصدد ما يكون بين الإنسان والمجتمع من الانفصام: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (آل عمران: ١٠٣).

إلى أن قال: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران: ١٠٥).

ثالثا: الانفراط عن الطبيعة:

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى سخر الطبيعة للإنسان، فإذا اتخذ الإنسان الطبيعة معبودا فصار المسخر مسخرا كان معنى ذلك الانفصام عن الطبيعة.

يقول الله سبحانه وتعالى بصدد أن الطبيعة مسخرة للإنسان وان الإنسان الذي يمتطي الطبيعة هو الذي لا ينفصم عنها، وإنما يستعملها في شأنها كمن يستعمل المركوب في الركوب عليه.

(الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) (إبراهيم: ٣٢-٣٣-٣٤).

أما بصدد المنفصم فيقول الله سبحانه وتعالى: (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال: لا أحب الافلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون) (الأنعام: ٧٦-٧٧-٧٨).

إلى غيرها من الآيات التي تدل على أن أناسا اتخذوا الأصنام أو الطبيعة أو نحوها إلها لهم.

رابعا: الانفراط عن الله:

وبصدده فقد قال سبحانه: (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين) (المجادلة: ١٩-٢٠).

وهكذا إذا تبدل التنسيق وحصل الانفراط يعود ذلك بالوبال على الإنسان.

كيف يتم التنسيق؟

وإذ قد عرفنا الانفراط في الأمور الأربعة في جزئيات كل واحدة واحدة من هذه الأمور على سبيل المثال يأتي دور الجواب عن السؤال الثاني وهو كيف يحصل التنسيق حتى يكون الفرد سليما؟ ويكون المجتمع . المتكون من اللبنة الإنسانية . مجتمعا سليما؟

والجواب: إن التنسيق إنما يحصل باتباع أوامر الله سبحانه وتعالى، لأن الله هو الذي خلق الإنسان والمجتمع والطبيعة، وهو يعرف داء هذه الأمور ودواءها وقد قال سبحانه: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك: ١٤).

فالاتباع لمناهج السماء هو الذي يتكفل التنسيق بين الوحدات المذكورة، وبين كل وحدة ووحدة في داخلها، أما إذا أعرض الإنسان عن هداية السماء فانه يقع في تيه من القوانين والأنظمة والأفكار والعقائد التي لا تمت إلى الحقائق بصلة، وقد اعترف العلماء بأن العلم . رغم تقدمه واكتشافاته . لم يستطع أن يعرف حتى أجهزة الجسم كاملة، فكيف بالذات؟، كما أنهم يعترفون بأن العلم لم يصل إلى حقائق الطبيعة، بل يعترفون بأن هناك بوناً شاسعاً بين العلم وبين معرفة كنه الأشياء، وما وصل إليه العلم هو شيء طفيف من المعلومات المودعة في داخل الإنسان جسماً ونفساً، وفي خارج الإنسان سماءً وأرضاً وطبيعة.

١ . نهج البلاغة: ص ٢٤، من خطبة له (عليه السلام) في ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم (عليه السلام)، طبع دارالمعرفة، بيروت.

القانون أساس التكوين الاجتماعي السليم

ضرورة وجود القانون

.. وحيث انقطع الإنسان عن الطبيعة لم تعد الطبيعة قادرة على إعطائه حاجاته المادية والمعنوية تلقائياً بدون العمل والجهد، (بينما الطبيعة تتمكن من إمداد النبات والحيوان).

ومن هنا كان لا بد للإنسان من إيجاد روابط جديدة لجسمه وروحه معاً، ووضع قوانين خاصة لاستمراره في الحياة، ولا يمكن ذلك إلا بأن يتبع الإنسان قوانين تربطه بالطبيعة من ناحية، وبالمجتمع من ناحية ثانية، وهذه القوانين اما أن تكون موضوعة من قبل نفس الإنسان . سواء من قبل الشعب أو من قبل الأشراف أو من قبل الدكتاتور . أو أن تكون موضوعة من ناحية السماء حيث إن الإنسان بدون قوانين لا يتمكن أن يعيش:

أولاً: من ناحية التعاون.

وثانياً: من ناحية دفع التباغض.

فإن الاجتماع الذي يحتاج إليه الإنسان يحتوي على جهتين:

جهة التعاون: حيث كل واحد من أفراد الإنسان يحتاج إلى غيره في مأكله ومشربه ومسكنه ودوائه وسائر شؤونه. وجهة دفع التباغض والتحاسد والعداء. حيث إن الاجتماع بحاجة إلى قوانين تدفع مشكلاته، وحيث إن الإنسان بكل أصنافه (أي الشعب والأشراف، والدكتاتور) لا يتمكن من وضع القوانين الصحيحة، فلا بد أن يكون الواضع للقوانين الصحيحة هو الله سبحانه وتعالى، وبذلك يتمكن الإنسان من أن يعيش حياة سعيدة.

مواصفات القانون السليم

القانون الذي يوضع لأجل الإنسان يجب أن يكون مشتملاً على أمور: -

١- أن يكون عاماً للجميع:

أي أن يكون عاماً لكل الناس وإلا لزم التدافع . أولاً . وكان القانون ناقصاً ثانياً، وذلك لأنه إذا وضع لجماعة من الناس قانون، وجماعة من الناس قانون، أو وضع لجماعة من الناس قانون، ولم يوضع لجماعة من الناس قانون أورث التدافع بين الطائفتين، فإن القانون هو (حدود خاصة) فإذا كان هنالك حدود في هذا الجانب، وحدود في جانب آخر، أو كان هناك حدود في هذا الجانب، ولا حدود في الجانب الآخر (أي الفوضى) لزم التدافع بين الجانبين.

مثلاً إذا قال القانون: إن الإنسان حر في أن يتزوج ما يشاء من الزوجات، أو في أن تتزوج المرأة ما تشاء من الأزواج، وحدد قانون آخر هذه الحرية، فقال: (لا يحق للرجل إلا أن يتزوج واحدة ولا يحق للمرأة أن تتزوج إلا واحداً) فمن الطبيعي أن يحدث التصادم بين هذين القانونين فالرجل يريد التزوج بالثانية والمرأة تمنع، أو المرأة تريد التزوج بالثاني والرجل يمنع، وهكذا في سائر القوانين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها.

هذا بالإضافة إلى أن القانون لو لم يكن عامًا لكان ناقصًا، إذ فطرة الإنسان فطرة واحدة كما هو المشاهد، كما أن فطرة الأفراد المختلفة المجتمعة في جامع واحد . في النبات والحيوان . أيضا فطرة واحدة، مثلا: فطرة شجرة الرمان واحدة في جميع أفرادها والاختلافات بينها اختلافات جزئية، وكذلك فطرة الغنم فطرة واحدة وان كانت هنالك جزئيات مشخصة، وحيث إن الفطرة في كل الأنواع واحدة بالنسبة إلى بني النوع، فمن الطبيعي أن تكون فطرة الإنسان واحدة بالنسبة إلى نوعه، والفطرة هي مبعث القانون سواء القانون الذي يضعه الإنسان أو القانون الذي تضعه السماء، مع فارق أن مصدر القانون في الأول هو الإنسان المحدود، ومصدر القانون في الثاني هو الله سبحانه وتعالى غير المحدود، فإذا لم يكن القانون قانونا واحدا بالنسبة إلى جميع الناس لزم التدافع والتناحر والحروب...، وما يشاهد في العالم من الحروب والتنازع فهو في كثير من الأحيان بسبب اختلاف القانون في بلد عن بلد، فهذا البلد يريد الاستعمار ويعطي الحق لنفسه أن يستعمر الآخرين، وذلك البلد لا يريد الاستعمار، أو يريد الاستعمار أيضا للبلد الذي يريد البلد الأول استعمار، وبذلك يقع التدافع بين الجانبين وينتهي الأمر إلى التحارب.

٢- أن يستوعب كل أبعاد الإنسان:

يلزم أن يكون القانون مستوعبا، بأن يعطي حوائج الإنسان الجسدية والعقلية والعاطفية، سواء منها الحوائج الفردية أو الحوائج الاجتماعية في مختلف أبعاد الإنسان، فلو لم يكن القانون كذلك يحصل الاصطدام والتبعثر والانقسام من ناحية، والنقص والفراغ من ناحية ثانية، فإن الإنسان مركب من جسد له حوائجه، وعقل له موازينه، وخصوصياته ومزاياه، وعاطفة لها شروطها وملائماتها ومنافراتها، فإذا لم يكن القانون بهذا النحو من الاستيعاب والشمول يكون قانونا ناقصا، وقانونا مصطدما، من غير فرق بين أن يكون القانون في جهة الوضع، أو في جهة التطبيق، لأن القانون يلزم أن يراعى فيه أمران:

الأول: القانونية.

والثاني: التطبيق.

فإن القانون مهما كان صحيحا يكون له طرق في الإجراء، بعضها صحيحة وبعضها غير صحيحة، فاللازم أن يلاحظ القانون من كلتا الناحيتين، من الناحية القانونية ومن الناحية الإجرائية والتطبيقية.

٣- أن يوازن بين الأخذ والعطاء:

يلزم أن يكون القانون متوسطا بين إعطاء الحاجة بقدر، وسلب الحرية بقدر، فمن الواضح أن كل قانون يسلب بقدره من حرية الإنسان، ولذلك يجب أن يلاحظ في وضع القانون (الأهم والمهم) وتقدير كل جانب من الجانبين، سواء بالنسبة إلى حرية الإنسان ملحوظا فيها حرية الآخرين، أو بالنسبة إلى حرية الإنسان ملحوظا فيها الصالح لنفس الإنسان، مثلا: (قانون حرمة الزواج فوق الأربع) يحدد من حرية الإنسان في أن يتزوج ما يشاء، فاللازم أن تلاحظ مصلحة الإنسان من ناحية تقييد الحرية ومصلحة الإنسان من ناحية الحرية، وبالجمع بين

هاتين المصلحتين يوضع القانون الذي يقول مثلاً كما في القرآن الحكيم: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) (النساء: ٣).

وكذلك يجب أن تلاحظ مصلحة الفقراء والمصالح العامة من ناحية، ومصلحة كون الإنسان هو الذي يتولى استخراج المال لنفسه بالتجارة أو الزراعة أو ما أشبه من ناحية ثانية، فيوضع قانون: (الضريبة) بحيث لا يححف بهذا الطرف، ولا بذلك.

والإنسان حرّ في أن يعمل في داره ما يشاء من فتح المذباغ وما أشبه، لكن تنتهي حرية الإنسان حيث تبتدئ حرية الجيران، فلا يحق للإنسان أن يفتح المذباغ بصوت عالٍ يزعج الجيران.

فالميزة الثالثة، التي يجب أن يتصف بها القانون ميزة إعطاء الحاجة بقدر، وسلب الحرية بقدر، فإذا لم يكن القانون متوسطاً بين الأمرين كان ناقصاً، أما في جهة الإفراط، وأما في جهة التفريط، وأوجب خبالاً أما على الفرد أو على الاجتماع، إما على الجسد، وإما على العاطفة وأما على العقل، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (البقرة: ١٤٣).

وفي الحديث: (خير الأمور أوسطها) (١).

ثمانية أسئلة يجيب عنها القانون

.. وحيث قد سبق في البند الثاني أنه يلزم أن يكون القانون استيعابياً ذا جوانب لا خاصاً بالجانب الاجتماعي أو غيره فقط. فانه حينئذٍ يصبح مبتوراً ومتناقضاً مع طبيعة الإنسان وموجبا للترقيع في جهات حياته. فاللازم أن يجيب القانون عن ثمانية أسئلة بادئ ذي بدء:

السؤال الأول: من أوجدنا؟

السؤال الثاني: كيف أوجدنا؟

والسؤال الثالث: لماذا أوجدنا؟

ومن الواضح أن الأديان السماوية تجيب على هذه الأسئلة الثلاثة بشكل يختلف عما يجيب به الطبيعيون كما أنه هناك اختلاف في الخصوصيات بين نفس أجوبة الأديان وبين نفس أجوبة الطبيعيين.

ثم يأتي دور السؤال الرابع: ما هو المصير؟

والخامس: ولماذا المصير؟

والسادس: وكيف المصير؟

وهذه أسئلة ثلاثة لا إثنان، مثلاً إذا قال الأب: يلزم علينا أن نسافر فهناك أسئلة تثار من قبل العائلة، إلى أين نذهب؟ ولماذا نذهب؟ وكيف نذهب هل بالطائرة؟ أو بالسيارة؟

وبعد هذه الأسئلة الستة يأتي دور سؤالين أساسيين في حياة الإنسان مرتبطين بحياته الحاضرة وهما:

السؤال السابع: لماذا نستمر في الحياة؟

والسؤال الثامن: وكيف نعيش بسلام لنحظى بالرفاه الحاضر والتقدم في المستقبل؟ إذ من الواضح أن الإنسان فيه فطرة التقدم، فهو لا يريد العيش بسلام فقط، وإنما يضيف إلى ذلك الطموح إلى مستقبل أفضل. والإنسان . رغم فطرته التقدمية . قد يتقهقر أحيانا إلى الوراء بسبب عوامل خاصة. فهناك ثلاثة أمور بالنسبة إلى الإنسان (التقدم) و(الوقوف) و(التأخر).

لكن التقدم مخوف، إذ لا يعلم الإنسان أنه يتقدم إلى ماذا؟ وهل أنه إذا ترك حياته الحاضرة لتقدم مرجو في المستقبل هل ينجح؟ أو يسقط؟ أو أنه يبدل شيئا بشيء مماثل؟ أما الوقوف: فهو خلاف فطرة الإنسان وخلاف نفسيته التقدمية. وأما التقهقر فهو انتكاس.

يضاف إلى ذلك أن الوقوف وإن كان أسلم من الأمرين الآخرين . بما ذكرنا من التخوف من التقدم والانتكاس في التأخر . إلا أن الوقوف يستتبع التأخر، فإن النفس الخلاقة تموت بذلك، والموت تأخر، ولذا ورد في الحديث: (من ستوى يومه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرها فهو ملعون...)(٢).

ثلاث طرق لتكوين المجتمع

.. ثم إنه حيث يحسّ الإنسان احتياجه إلى الاجتماع، لا بد وأن يشكل الاجتماع بأحد طرق ثلاث:

الأولى: أن يربط نفسه بالآخرين.

الثانية: أن يربط الآخرين بنفسه.

الثالثة: أن يرتبط هو والآخرين تحت لواء قانون عام، كجماعة يريدون الانضمام بعضهم إلى بعض ليعيشوا بسلام.

وفي الحالات الثلاث يحس الإنسان بنوع من الهدوء والسكينة في باطنه، وإن كان هنالك فرق بين الحالتين الأوليين والحالة الثالثة، حيث أنه في الحالتين الأوليين . اللتين سببت القدرة فيهما الارتباط والاسترباط . يكون وضع الطرفين سيئا، مثلاً:

فرعون ربط الناس بنفسه بالقوة وادعى أنه إله لهم، وانه هو مصدر القوانين فسواء كان فرعون هو الذي استلحق الناس بنفسه أو كان الناس هم الذين إلتحقوا بفرعون، فإن الجميع ما كانوا يحسون بالراحة والطمأنينة التي كانوا يجدونها فيما إذا جعلوا أنفسهم أمثالا ووضعوا قوانين تساوي بينهم أو دخلوا تحت مظلة قوانين سماوية ترى التساوي بين الجميع وان كان فرق بين قوانين السماء وقوانين البشر بما لا يخفى، لأن الارتباط بين القوي والضعيف ارتباط خوف ورهبة، خوف الضعيف من القوي، لأنه يفعل ما يشاء، وخوف القوي من الضعيف لأنه يخاف أن يثور الضعفاء عليه ويذهبوا بسلطانه، ولذا يقول الله سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الصورة الأولى: (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) (القصص: ٤).

ويقول بالنسبة إلى الصورة الثانية: (إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنّا لجميع حاذرون) (الشعراء: ٥٤

وفي آية أخرى: (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) (غافر: ٢٦).
بينما يقول الله سبحانه وتعالى في الحالة الثالثة: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من
الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم) (المائدة: ١٦).

معطيات الانضمام إلى المجتمع

ثم إن الإنسان الذي ينضم إلى الاجتماع يوفر لنفسه ثلاثة أمور:
الأول: خروجه عن الوحدة التي يحس بها في باطنه، فإن الإنسان يحس في باطنه بالوحدة والانفراد في هذا الكون
الرحب، فإذا انضم إلى غيره حققت حدة هذا الإحساس.
والثاني: تكون أعماله حينئذ موجهة في وجهة خاصة، وضمن الإطار الاجتماعي الذي قبله الجميع قانونا، وتخرج
أعماله حينئذ عن كونها فرطا وفي هذا أيضا رغبة إنسانية إذ يميل الإنسان بفطرته إلى النظام في قبال الانفرات
والانفصام.

والثالث: يحصل على التعاون المحتاج إليه في تعليمه وتعلمه وصحته ومرضه وزواجه ومسكنه ومأكله ومشربه
ومركبه، وغير ذلك من حاجيات الإنسان الكثيرة والتي لا تعد ولا تحصى.

آثار الانضمام إلى المجتمع

ثم إنه إذا تمّ الانضمام إلى الجماعة حصل أمران:
أولهما: تقوية الإنسان باطنا حيث يرى الإنسان أنه في داخل كل إنسان كما يجد كل أفراد الإنسان في داخله،
وهذا ما يسمى بـ(المشاركة الوجدانية) فكأنهما إنسانان في جسد واحد أو كأن الاجتماع بكله إنسان واحد وهذا
غير (الوحدة الاعتبارية) التي تحصل خارجا من الانضمام وإنما هي (وحدة باطنية).
وقد فسّر بعض المفسرين قوله تعالى: (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن
أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) (المائدة: ٣٢).

بهذه الحقيقة، فالإنسان وحدة واحدة فمن أحياها أحيا هذه الوحدة، ومن قتلها قتل هذه الوحدة، ولا يحتاج
الأمر إلى قتل الجميع أو إحياء الجميع، فالمجموع كثوب يخرق الإنسان بعضه أو يخيط بعضه، فإن الثوب لو انخرق
جزء منه يصبح منخرقا، وإن خيط جزء منه يصبح غير منخرق.

وعلى أي حال، ففي هذا الانضمام تضعيف الإنسان حيث يجد كل إنسان أن الكل في باطنه وانه في باطن
الكل.

وثانيهما: يسبب هذا الانضمام تضعيف الإنسان حيث ان فرديته واستقلاله تقل وتضعف فليس الفرد المنفرط
كالفرد المنضم إلى غيره في الاستقلال فإن الفرد المنفرط كامل الاستقلال في ما يعمل ويأكل، ويتصرف، أما الفرد
المنضم فإن كل شيء منه مقيد، (فهو مقيد في أكله وشربه، في لبسه وزواجه، في مسكنه ومركبه، في ذهابه
ومجيئه، صحيح أن التقييد ليس كليا لكنه تقييد على أي حال وهذا يسمى بـ(التقييد الإطاري).

مثلاً: الفرد الذي ينضم إلى المسلمين يتقيد في مأكله ومشربه، بأن لا يتناول خمرًا أو خنزيرًا، وفي ملبسه بأن لا يكون ملبسه ينهى عنه الإسلام كالذهب والحريز للرجال، وفي زواجه بأن لا يتزوج أكثر من أربع، إلى غير ذلك. وهكذا الفرد المنضم إلى المسيحيين يتقيد في حياته بأن يصلي في الكنيسة كل أسبوع مرة، وفي زواجه بأن لا يتزوج أكثر من واحدة، وفي طلاقه بأن لا يطلق زوجته.

وهكذا بالنسبة إلى سائر الانضمامات الإنسانية سواء كان الدين دينا سماويًا أو قانونًا أرضيًا، وسواء كان القانون قد وضعه الأشراف أو الدكتاتور أو الشعب بمجموعه. كما يزعم في الحكومات الديمقراطية من أن مصدر القانون هو الشعب وحده -.

وحيث إن الانضمام يوجب تقويةً وتضعيفاً فاللازم أن يزن الإنسان الانضمام، بأنه كم يأخذ منه؟ وكم يعطي له؟ فيعطي من استقلاله، ويأخذ من فوائد انضمامه.

وعليه: فالعلاقة الاجتماعية نقيض للوحدة والفردية وهي في نفس الوقت توجب الوحدة الاجتماعية، وهي تضعف الأناية الفردية في حال إنها توجب الأناية الاجتماعية، فإن الانضمام الاجتماعي نوع من التواضع، إذ معناه إنك تحب نفسك وتحب غيرك، وكونك في داخله، وكونه في داخلك، بخلاف عدم الانضمام حيث يكون الإنسان في تلك الحالة أنانيا لا يجب إنسانية الغير وحياته، وإنما يجب نفسه فقط، ولذا تكون الأناية نوعاً من العجب والوحشة.

وفي كلام للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (وأوحش الوحشة من العجب) (٣).

فإن الإنسان الأناني لا يشارك المجتمع في شؤونه، لكنه بنفس القدر يظل غريباً عن المجتمع وتطوقه الوحدة والوحشة وإن كان في المجتمع، بخلاف المتواضع الاجتماعي الانضمامي حيث لا يحسن بهذه الوحشة، وإنما يحس بالألفة وإن كان في خارج الاجتماع.

(التجمع) بين الأخذ والعطاء

ثم إن الانضمام على قسمين:

انضمام أخذ وعطاء، وانضمام أحدهما فقط.

مثلاً: انضمام الأخوين انضمام أخذ وعطاء كل واحد يعطي الآخر ويأخذ منه، أما انضمام الأب والأم والطفل فهو انضمام الأخذ فقط من جانب الطفل والعطاء فقط من جانب الأبوين، فإن الأبوين يجبان الولد ويقومان بخدمته ويعطيانه حوائجه، أما الولد فهو أخذ في كل ذلك، صحيح أنه في كثير من الأحيان يعطي الأبوان حتى يأخذوا في المستقبل، كعمل النسبئة، لكنه من الصحيح أيضاً أنه في كثير من الأحيان يكون عطاءً بدون أخذ من جانب الأبوين، كالأبوين الهرمين الذين لا يرجوان أخذاً من جانب الولد، بالإضافة إلى أنه إذا وصل الولد إلى مرحلة العطاء يكون أخذه وعطاءه متساويين في كثير من الأحيان، إذ يصبح الأبوان والولد مثل الأخوين: كل يعطي للآخر ويأخذ من الآخر.

إذا لاحظنا الانضمام والانفراط، فقد يكون الانضمام من العدم إلى الوجود، وفي عكسه يكون الانفراط من الوجود إلى العدم، ومثال الأول: الزوجان فإنهما يتحولان من الانفراط إلى الاجتماع، بينما الطلاق مثال عكسه حيث ينفطر الزوجان من الاجتماع إلى الانفراط.

أنحاء علاقة الإنسان بالخارج

ثم إذا لاحظنا علاقة الإنسان بالخارج نراها على خمسة أقسام:
الأول: أن لا تكون له علاقة بالخارج إطلاقاً، وذلك بالانكماش على نفسه.

والثاني: أن تكون العلاقة أقل من القدر المتعارف.

والثالث: أن تكون العلاقة أكثر من القدر المعتاد.

والرابع: أن تكون علاقة بقدر المعتاد، لكنها منحرفة.

والخامس: أن تكون العلاقة معتادة.

ونستطيع أن نمثل للأمور الخمسة بالزواج.

فقد لا يتزوج الرجل، وقد يتزوج. دون القدر الذي تحتمه القاعدة -، وقد يتزوج أكثر من القاعدة، مثلاً:

رجل ضعيف المزاج تكفيه امرأة واحدة يتزوج أكثر، أو - إذا كان غير متدين. يتزوج عشرين أو ثلاثين زوجة، كما كان معتاداً في أيام الجاهلية ويعتاد أيضاً الآن في بعض البلاد الإفريقية.

وقد تكون العلاقة منحرفة، كما إذا بدلت علاقة الزواج بعلاقة الزنا واتخاذ الخليلات والأخلاء.

وهؤلاء الأربعة كلهم مرضى باستثناء العلاقة المعتادة.

وهذه الأمور الخمسة كما تأتي في الزواج تأتي في الصداقة، وتأتي في الانضمام إلى الاجتماع في وحدات خاصة كالحزب أو المنظمة أو الهيئة أو الجماعة أو الجمعية أو المؤسسة أو الشركة أو ما أشبه، وكذلك تأتي هذه الأمور في الأمة بما هي أمة بالنسبة إلى سائر الأمم، حيث قد تكون للأمة علاقة مع سائر الأمم بأقسامها الأربعة، وقد لا تكون للأمة علاقة بأية أمة أخرى.

تحرّي العلاقة السليمة

والإنسان يجب أن يتحرى دائماً العلاقة المستقيمة، لا الأقسام الأربعة الأخرى، فإن كل تلك الأقسام الأربعة الأخرى - بالإضافة إلى وضوح أنها حالات مرضية سواء في الفرد أو المؤسسة أو المجتمع أو الدولة أو ما أشبه - لا يمكن أن

تجتمع مع العلاقة المعتادة في كون كلها حقاً، وفي القرآن الحكيم: (فماذا بعد الحق إلا الضلال) (يونس: ٣٢).

ومن الواضح فلسفياً أنه لا يمكن تعدد الحق في غير المصاديق الداخلة تحت كَلْبِي واحد، فإن الحق واحد، وفي قبالة أباطيل كثيرة، مثلاً: الطريق بين المدينتين في خط مستقيم طريق واحد أما سائر الطرق فإنها إما أن لا توصل إلى المدينة، وإما أن توصل بطريق أطول وأتعاب أكثر حيث إن بين كل الأشياء خطين: خط استقامة، وخط انحراف (وبعبارة أخرى تناقض) ولا يمكن أن يكون الانحراف استقامة، كما لا يمكن الجمع بين النقيضين، وقد قرر في

الفلسفة أن المحالات . حتى استحالة جمع الضدين، أو رفع الضدين اللذين لا ثالث لهما أو ما أشبهه . كلها ترجع إلى التناقض، والتناقض بديهي الاستحالة.

نماذج من العلاقة المريضة

ثم إن العلاقة المريضة التي لا تميل إلى الخارج ميلاً معتدلاً على أقسام:

منها: ميل الإنسان للزواج بمحارمه كالأم والأخت والعمة والخالة، وذلك حيث إنه يستوحش من الارتباط بالخارج، وكذلك ميل المرأة للزواج بمحارمها، إذ أن العلاقة المستقيمة هي العلاقة التي تكون خالية من الحروب والتخفي والانكماش داخل الإطار محدود، بينما العلاقة المنحرفة بعكس ذلك.

والشدوذ الجنسي أيضاً من الظواهر المرضية للعلاقة الخارجية، حيث يخشى كل من الطرفين من الانبساط إلى الجنس المؤنث.

وكذلك الحال في المساحقة حيث يخشى الطرفان من الانبساط إلى الجنس المذكور.

هذا كله على نحو الأصل والقاعدة الكلية، وأن كان هناك شواذ وشاذات يمارسون الانحراف مع وجود العلاقات المستقيمة لهم مع الجنس الآخر.

والزنا أيضاً من العلاقات المنحرفة، حيث يكون هروباً عن مسؤوليات شريك الحياة.

وكل هذه الأمور . بالإضافة إلى كونها علاقات مرضية بالنسبة إلى استقامة العلاقة الخارجية . هي أمور تخدم حياة العائلة، والعائلة كما نعلم هي اللبنة الصالحة لبناء الاجتماع الصالح، بينما هذه الأمور لبنات منحرفة تنتهي إلى بناء الاجتماع المنحرف.

كما أن من العلاقات المنحرفة: (القومية والوطنية واللونية واللغوية والقبلية وما أشبهه، فإنها كلها أيضاً علاقات منحرفة، حيث يميل الإنسان إلى الرجوع إلى أصله وما اعتاده، ويخاف ويهرب من الانبساط إلى خارج هذه الإطارات التي يدور ضمنها، بينما الأخوة والانبساط إلى الآخرين والسير وراء الكفاءات هي علاقات معتدلة مستقيمة لا تعطي أكثر من أخذها ولا تأخذ أكثر من عطائها.

وفي عكس ذلك أيضاً تكون العلاقة منحرفة، كما إذا ترك الإنسان قومه وقبيلته وما أشبهه وانبسط إلى الخارج كلية، أو إذا ترك قبيلته واتخذ قبيلة ثانية أو ترك قومه واتخذ قوماً آخرين وهكذا، فإن هذا أيضاً انحراف في العلاقة، حيث لم يتمكن أن يعطي الكفاءة حقها، فإن الكفاءة كما تكون في الخارج تكون في الداخل، فمن يحصر الأمر في الخارج فهو كمن يحصر الأمر في الداخل، كلاهما انحراف عن العلاقة المستقيمة وعن تحكيم الكفاءات.

١ . بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ١٦٦، دارالمعارف . بيروت.

٢ . بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ١٧٣.

٣ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ١١ . طبع دارالمعرفة، بيروت.

العوامل المؤثرة في تكوين شخصية الإنسان

الخلاقية والجذور الأربعة

ثم إن الإنسان ينقسم . بملاحظة الجذور - إلى أربعة أصناف فله جذور في الطبيعة توجب ارتباطه بها بنوع من الإرتباط، وان لم يكن كارتباط النبات الشديد وارتباط الحيوان المتوسط، بل إرتباط من حيث الاحتياج في الغذاء والكساء والمسكن وما أشبهه.

وله جذور بالأبوين توجب ارتباطه بهما، وله جذور في الاجتماع الصغير وهي العائلة.

وله جذور في الاجتماع الكبير وهو المجتمع الذي يعيش الإنسان فيه.

والخلاقية الإنسانية التي ذكرناها - سواء في الهدم أو في البناء - ترتبط ارتباطاً كبيراً بهذه الجذور، فالإنسان الذي يعيش بين أبوين خلاقين يكون مثلهما غالباً، وكذلك إذا كان الأبوان هادمين، ولذا ورد في الحديث: (الولد سر أبيه) وكذلك بالنسبة إلى الاجتماع الصغير، والاجتماع الكبير.

بل والخلاقية ترتبط ارتباطاً ما بالطبيعة أيضاً فبعض الطباع التي يعيش الإنسان فيها تنفخ في الإنسان خلاقية الهدم، وبعض الطباع تنفخ فيه خلاقية البناء على مختلف مراتبهما، مثلاً: البلاد الحارة تخلق الطبيعة الحادة في الهدم أو في البناء، بينما البلاد الباردة بالعكس من ذلك كما قرر في علم الاجتماع وعلم النفس.

الأرضية الصالحة لنمو الخلاقية

والخلاقية غالباً إن وجدت التشجيع والعناية والأرضية الصالحة نمت من غير فرق بين الهدم والبناء، وان لم تجد التشجيع والعناية والأرضية الصالحة لم تنم.

نعم في بعض الأفراد - وهم قلائل - تنمو الخلاقية سواء وجد التشجيع والعناية أم لا، كما أنه في بعض الأفراد لا ينفع التشجيع والعناية والأرضية، وقد ورد في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، أنه قال: (لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة) (١).

وذلك واضح، لان الخلاقية الموجودة في مثل الإمام (عليه السلام) خلاقية طبيعية وأصيلية، فلا يؤثر التشجيع وعدم التشجيع في الزيادة والنقيصة فيها.

آثار الجذور الأربعة

وعلى أي حال، فلكل واحد من جذور الإنسان . في الطبيعة أو في الأبوين أو في الاجتماع الصغير أو في الاجتماع الكبير - خصوصيات وآثار، ولنكتفي بمثال واحد في المقام، وهو جذور الإنسان في الأبوين، فالأب حيث لا يلد ولادة كولادة الأم، وحيث أنه مشرف وقوام كما في الآية الكريمة: (الرجال قوامون على النساء) (النساء: ٣٤).

لذلك فإن جذور الإنسان بالنسبة إلى أبيه جذور قانونية، وهذه الجذور القانونية تقتضي:

أولاً: ولاية الأب.

وثانياً: لا يكون الولد والبنت متساويين من جهة الإرث.

حيث يلاحظ القانون، والقانون يرجح الذكر على الأنثى، لأن التكليف على الذكر.

وثالثاً: لوازم الحياة العائلية من المأكل والمشرب والمسكن وما أشبهه، سواء للأم أو للولد على الأب، كما قال

سبحانه: (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) (البقرة: ٢٣٣).

ورابعاً: تكون الدية على أقرباء الأب في الخطأ مما يسمى بـ(العاقلة) في الشريعة الإسلامية.

أما الأم فحيث إنها تحمل وتلد وولادة صعبة وترضع وتكون الجذور بالنسبة إليها جذوراً عاطفية، والجذور العاطفية تقتضي:

أولاً: عدم الولاية لها لأن الولاية تقتضي نوعاً من الخشونة، والخشونة لا تناسب العاطفية.

وثانياً: يكون برها مؤكداً، حيث ورد: أن رجلاً سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك.

ثم قال له ثانياً: من أبر؟ قال: أمك.

ثم قال له ثالثاً: من أبر؟ قال: أمك.

ثم قال له رابعاً: من أبر؟ قال: أبك.

وثالثاً: يكون الإرث متساوياً لتساوي العاطفة بين الابن والبنت، ولذا يكون الإرث متساوياً في الشريعة الإسلامية بالنسبة إلى من يرتبط بالأم كالحال والحالة ومن أشبهه.

رابعاً: لوازم الحياة ليست عليها.

خامساً: العاقلة ليست من طرفها.

وما ذكرناه إنما هو من الناحية القانونية، والقانون لا يلاحظ العلة وإنما الحِكم (على الاصطلاح الأصولي) حيث لا يلزم (الاطراد) و(الانعكاس) في (الحكمة) وإنما تلاحظ الأغلبية، بينما يلاحظ في (علة) كل فرد فرد، فإن ضرب القانون يجب أن يكون على نحو العموم وإلا لزم الانفراط في القانون، فحيث تكون الحكمة العامة يكون القانون، وإذا خرج من الحكمة إيجاباً أو سلباً فرد أو أفراد، فإن القانون يجري عليه، مثلاً: قانون (التأشيرة) عند الخروج عن البلد في العالم الغربي إنما وضع لأجل التنسيق العام والإحصاء وعدم التهريب وما أشبهه، لكن هذا القانون يشمل رئيس الدولة أيضاً إذا أراد الخروج، فإن اللازم عليه أن يحصل على التأشيرة، مع العلم بأن تلك الحِكم غير موجودة في رئيس الدولة مثلاً، وإنما يشمله القانون لأنه يجب أن يكون عاماً فلا ينخرم حتى لا يتمكن أحد من خرق القانون بدعوى أنه خارج عن العلة التي وضع القانون بسببها.

وقد روي أن رجلاً قال لعلي عليه الصلاة والسلام: (هل يتنجس بدن رسول الله بالموت كما يتنجس بدن سائر الناس؟ فقال علي عليه الصلاة والسلام): لا. فقال له الرجل: فلماذا غسلتموه؟ فأجاب علي عليه الصلاة والسلام): (لجريان السنة).

والمراد بـ(جريان السنّة) في هذا الحديث هو أن القانون إذا ضرب ووضع يلزم أن يشمل الكل، سواء كانت تلك الحكمة التي وضع القانون من أجلها موجودة في هذا الفرد الخاص أو لا.

الطفل بين عقلانية الأب وعاطفية الأم

وكيف كان: فمن عقلانية الأب وقيمومته، وعاطفية الأم ورحمتها تنشأ في الإنسان هاتان الصفتان صفة (الآمرية والزاجرية) وصفة (العطف والحنان)، فالأب يقول للأولاد: يجب أن تعملوا هذا العمل ويجب أن تتركوا ذلك، وإذا خالفتم حقّ عليكم العقاب، أما الأم فإنها تعطف على أبنائها أطاعوا أو عصوا. وإن لم تكن بعض الأمهات كذلك، كما أن بعض الآباء لا يمتلكون الحزم والصرامة فإن الأم قد تستأسد، والأب قد ينقلب إلى حمل ودبيع! إلا أن الشواذ لا توجب انحرافاً للقانون.

لماذا تتبدل أحوال المرأة؟

ثم إن تبدل أحوال الأم العاطفية تابع لتبدل قسم من الإفرازات الغددية التي قررها الله سبحانه وتعالى في الأم لأجل عدم انسياق حياة الأم العاطفية مما يوجب خللاً وخبالاً في الحياة، فقد ثبت في العلم الحديث: أن المرأة - بالإضافة إلى تغيّر حالاتها النفسية والبدنية أثناء الحمل والحيض كما ألمع إليهما القرآن الحكيم- تطرأ عليها تغيرات بسبب الإفرازات التي تفرزها الغدد مرتين في كل شهر، فإنه تفرز في كل شهر هرمونات تسمى بـ(هرمونات الأمومة) وتبقى فاعليتها لمدة أربعة عشر يوماً أو خمسة عشر يوماً وتصل إلى ذروتها في الأيام الأخيرة حيث نرى المرأة تعامل الجميع كأنهم أولادها الصغار وتكأ لهم بحنانها وعطفها، ثم بعد ذلك تنقلب نفس المرأة إلى امرأة أخرى، حيث تفرز الغدد هرمونات الأنوثة فترة شبيهة بفترة هرمونات الأمومة السابقة وعندما تصل هرمونات الأمومة ذروتها ينقلب البيت جحيماً لا يطاق، إذ تعمل الغيرة النسائية عملها وتعكر الجو العائلي، وكثيراً ما يأخذ العجب الرجال والأولاد من أن تلك الأم الوديدة والزوجة الحنونة كيف انقلبت هكذا شرسة شديدة الحساسية والانفعال والتهجم؟! بينما الغالب يغفلون عن حقيقة أن تغير الحالات المزاجية تابع لتغير إفراز الهرمونات الداخلية مما قد جعله الله سبحانه وتعالى لأجل عدم إنسياق جو عاطفي عام حتى يفسد الأمر عليها وعلى العائلة، فالإنسان محتاج إلى يدين: يد الشدة، ويد اللين، وهذه الحالة موجودة في ذات المرأة أيضاً على تفصيل مذكور في الكتب المعنية بهذا الشأن.

فوارق بين الرجل والمرأة

وعلى أي حال، فحذور الإنسان إلى أبيه وأمه تولّد له حالة وجدانية متوسطة بين (الوجدان الأصولي) و(الوجدان العاطفي) حيث إن كلاهما ضروري في الحياة، لكن هذين الوجدانين في داخل الرجل يختلف عنهما في داخل المرأة، حيث إنه في داخل الرجل يترجح الوجدان الذكوري، بينما في داخل المرأة يترجح الوجدان الانثوي، ولذا نجد عند الآباء أيضاً بعض العاطفة، كما نجد عند الأمهات أيضاً بعض القوانين والضوابط.

أعمال لا تنسجم مع طبيعة المرأة

وتبعاً لوجدان الأم العاطفي لم يجعل الإسلام للمرأة منصب (القضاء) و(الامارة) و(الولاية) ونحوها، بينما جعل هذه المناصب للرجل، وقد اثبتت المرأة بنفسها عدم انسجامها مع هذه المناصب، ولذا نشاهد في عالم اليوم أن المرأة لم تخترق حواجز الرئاسات والوزارات والامارات ودور القضاء وما أشبه . إلا نادراً . مع أن غالب البلاد رفضت قوانين السماء وقررت التساوي بين الرجل والمرأة في كل الشؤون وليس السبب: أن هناك حائلاً قانونياً يحول دون تسلم المرأة تلك المناصب، وإنما الحائل نفسي طبيعي مودع في داخل المرأة، فإنها غير منسجمة مع مثل هذه الأعمال، كالسيارة الصغيرة التي هي كاملة في حد ذاتها لكنها لا تطبق حمل الحديد والإسمنت وما أشبه، بينما السيارة الكبيرة تطبق ذلك علماً بأنها ليست صالحة لنقل المسافرين، لا من جهة نفسها، وإنما من جهة المسافرين حيث أن ركوبها يسبب لهم عطباً ورضوضاً وصعوبات، فكل واحدة من السيارتين كاملة في جهاتها لكن كمال هذه يلائم نقل المسافرين، وكمال تلك يلائم حمل الحديد وما أشبه.

الجدور الروحية في الإنسان

ثم أن هناك في الإنسان جذوراً من قسم آخر تابعة للروح، حيث قال سبحانه: (ونفخت فيه من روحي) (الحجر: ٢٩).

وتبعاً لهذه الجدور كان الإنسان أفضل من الملائكة، ولذلك أيضاً أمر الله سبحانه الملائكة بالسجود لآدم وبهذه الجدور السماوية يميل الإنسان إلى فوق، وقد قال سبحانه في صفة من مال إلى الأرض وترك جذوره السماوية: (ولكنه أدخل إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) (الأعراف: ١٧٦).

طبيعة الأرض، وطبيعة السماء

ثم إن طبيعة الأرض طبيعة الكلاب المتهاوشة، لأن المادة محدودة، والمحدود يتنازع عليه الناس، بينما الروح لها آفاق واسعة جداً، ولا تنازع في الآفاق الواسعة.

وقد ورد في الدعاء بهذا الصدد الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى والشكاية إليه (من دنيا قد استكلبتني) . يعني: أن الدنيا تجعل الإنسان كالكلب ..

وفي حديث آخر: (الدنيا جيفة وطلابها كلاب).

فكما أن الكلاب تتشاجر على الجيفة، فكذلك من تتناقل إلى الأرض وقطع علاقته بالسماء، أما الطبيعة فهي طبيعة السماء: الوحدة والصفاء والخير والوثام والانسجام، ولذا ورد في الحديث: (تخلقوا بأخلاق الله) (٢).

فإن التخلق بأخلاق الله سبحانه وتعالى يجعل الدنيا دنيا صفاء وسلامٍ ووثام، بالاضافة إلى الآخرة التي يجزها الإنسان بسبب هذا التخلق وهي الجنة: (عرضها السماوات والأرض) (آل عمران: ١٣٣).

فلا ضيق ولا ضنك ولا تنازع، وبهذا الصدد يقول أحد فلاسفة الشعراء:

(أرواح الخنازير والكلاب متفرقة، أما أرواح الأسود المرتبطة بالله فهي متحدة).

وفي القرآن الكريم نجد التمثيل لهذه الجذور الصاعدة ولتلك الجذور الهابطة حيث يقول الله سبحانه: (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم، عيناً يشرب بها المقربون) (المطففين: ١٨-٢٨).

فالأبرار الذين يبرّ بعضهم بعضاً ويرتبطون بالسماء كتابهم في عليين، وهو مكان يشهد فيه المقربون من الله سبحانه وتعالى.

ويقول سبحانه بالنسبة إلى من قطع جذوره بالسماء: (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم) (المطففين ٧: ٨).

وهنا ليس مقربون يشهدون الكتاب، لأن الكتاب لا يذهب إلى المقربين، وإنما يذهب إلى الأسفل. وفي وصف أصحاب الجنة يقول الله تعالى: (إلا قليلاً سلاماً سلاماً) (الواقعة: ٢٦). فهنا سلام وصفاء.

(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) (يونس: ١٠). فالارتباط هنا بالله وحمده.

يقول سبحانه وتعالى في وصف أصحاب النار: (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) (ص: ٦٤). فأهل النار يتخاصمون، فكما كانوا في الدنيا متخاصمين كذلك هم في الآخرة، لأن الآخرة هي آخر مطاف الدنيا، فالدنيا إذا كانت صفاءً ووثاماً وسلاماً انتهى كل ذلك إلى الآخرة الرفيعة، والعكس بالعكس، وكلما قويت هذه الجذور النابتة من الروح ساد الوثام والصفاء.

أما إذا قويت جذور الجسم - بكل أقسامها الأربعة التي ذكرناها. قوي التشاجر والتخاصم. هكذا يصنع الأنبياء (عليهم السلام)

ولذا نشاهد أن الأنبياء عليهم السلام يؤيد بعضهم بعضاً، بخلاف الملوك المرتبطين بالدنيا، قال الله سبحانه وتعالى في وصف الأنبياء (عليه السلام): (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (البقرة: ١٣٥).

حيث إن اليهود والنصارى فرقوا دينهم ولم يكونوا على ملة إبراهيم (عليه السلام)، ولذا يقول الله تعالى عقيب هذه الآية: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم

شهادة عنده من الله وما الله بغافلٍ عما تعملون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون) (البقرة: ١٣٦-١٤١).

فالأنبياء أخوة من أمهات شتى - كما قاله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - وإنما ذكر الأمهات دون الآباء احتراماً لعيسى المسيح عليه الصلاة والسلام، حيث لم يكن له أب، والوحدة بينهم هي صبغة الله. (ومن أحسن من الله صبغة) (البقرة: ١٣٨).

فإن الصبغة في قبال صبغة الله هي صبغة التفرق، وعلى هذا فإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام لم يكونوا يهوداً ولم يكونوا نصارى، وإنما كانوا على صبغة الله، صبغة الوحدة والإخلاص والواقعية. وعلى أي حال: تلك أمة قد ذهبت ومضت وأما أنتم أيها البشر المعاصرون فإنكم مكلفون بأن تهتدوا بنحو تلك الهداية من الوحدة والصفاء والوئام.

.. وهكذا يصنع الملوك

أما بالنسبة إلى الملوك التابعين لجذور الأرض القاطعين لجذور السماء فيقول الله تعالى: (إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون) (النمل: ٣٤).

والملوك لا يجارب بعضهم بعضاً فحسب، ولا يسببون الانشقاق في الخارج فحسب، وإنما يسري ذلك إلى الداخل، يقول الله تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) (القصص: ٤).

منطق التجزئة، ومنطق التوحيد

وهاتان طبيعتان في الإنسان: (طبيعة التجزئة) و(طبيعة التوحيد) فطبيعة التوحيد تقول (جاري مثلي) و(الشارع الثاني مثل هذا الشارع الذي أنا فيه) و(المدينة الأخرى مثل المدينة التي أنا أسكنها) و(القطر الذي أنا فيه كالقطر الذي لست فيه) وكذلك يوحد.. ويوحد.. ويوحد..

بينما التجزئة تقول: (قطري خير من قطر غيري) و(بلدي خير من بلد آخر في قطري) و(شارعي خير من الشارع الآخر الذي ليست فيه) و(سكتي في هذا الشارع خير من السكة الأخرى) ثم (داري خير من دار جاري) و(أنا خير من غيري) وهكذا تنتهي التجزئة إلى الفردية، بينما تنتهي الوحدة إلى وئام كل العالم.

الإنسان بين التأثير الأرضي وتأثير السماء

أثر الانقطاع عن السماء

وما نشاهده في عالم اليوم من الحروب والدمار والمنازعات والمهاترات وما أشبه ليست إلا وليدة قطع جذور السماء والارتباط بجذور الأرض، كما قال الله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) (التوبة: ٣٨).

فالارتباط بالأرض إرتباط بالحياة الدنيا والارتباط بالسمااء ارتباط بالآخرة، والبشر حيث خرج عن مظلة الأنبياء وقع في هذا التخاصم والتناحر، والله يبين هذه الحقيقة، حيث يقول: (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) (المائدة: ١٤).

فإن قطعهم جذورهم السماوية سبب أن يكون بينهم العداة والبغضاء إلى يوم القيامة. وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) (الكهف: ٤). فإن القول باتخاذ الله ولداً معناه الانقطاع عن جذور السماء، والخلود إلى جذور الأرض. باتباع الهوى وعدم اتباع هداية السماء. يسبب هذه التفرقة، ولذا يقول الله تعالى في فردٍ منحرف: (ولكنه أدخل إلى الأرض واتبع هواه) (الأعراف: ١٧٦)، كما تقدم.

النفس.. هي المنبع

وإذا لاحظنا الإنسان نرى أن الأمور المرتبطة به خمسة: النفس، والجسد، والتاريخ، والمحيط الاجتماعي، والمحيط الطبيعي.

والنفس هي مبعث فساد الكل، أو صلاح الكل، فهي إن ارتفعت عن جذورها المادية صلح الكل، وإن انحطت إلى جذورها المادية وقطعت جذورها الفوقية فسد الكل.

فالإنسان الفاسد النفس تكون نفسه بؤرة للحقد والحسد والتفرقة والنفاق والبغضاء والشحناء وما إلى ذلك.

النفس والجسد

كما أن الإنسان الفاسد النفس يكون جسده معرضاً للآلام والمصائب سواء من داخله أو من خارجه، أما من داخله فإن النفس إذا صارت علية أثرت على البدن، لأن كلاً من النفس والبدن يتفاعل مع الآخر، فالجسم إذا مرض مرضت النفس، والنفس إذا مرضت مرض الجسم، ولذا نرى أن الخائف يصفّر لونه حيث تؤثر نفسه في جسمه، كما نرى أن المضروب على جسمه كتيب النفس حيث يؤثر جسمه في نفسه.

النفس والتاريخ

وبالنسبة إلى ثالث الأمور وهو التاريخ، فالإنسان قد يفسد التاريخ، وقد يصلح التاريخ، مثلاً: فرعون أفسد التاريخ، أما موسى عليه الصلاة والسلام فقد أصلح التاريخ، لأن التاريخ عبارة عن الناس الذين يعيشون في قطعة من الزمان عيشاً حسناً أو عيشاً سيئاً.

النفس والمحيط الطبيعي

والمحيط الطبيعي أيضاً تابع للإنسان، فيمكن للإنسان أن يصلح المحيط الطبيعي فيعمر الأرض ويجري الأنهار إلى غير ذلك، كما أنه يتمكن أن يفسد المحيط الطبيعي.

النفس والمحيط الاجتماعي

والمحيط الاجتماعي أيضاً تابع للإنسان، لأن المحيط الاجتماعي إنما يتكون من لبنات انسانية، فإن صلحت تلك اللبنة صلح المحيط الاجتماعي والعكس بالعكس، ولذا نرى أن المجتمع الصالح هو المجتمع الذي صلح أفراده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (خير القرون قرني)(٣).

وذلك لأن الصحابة كانوا على الأغلب أناساً صالحين، صحيح أنه كان فيهم المنافق، لكن المنافق كان شاذاً، والشاذ لا يتمكن من صبغ الاجتماع بصبغته، وإنما الذي يتمكن من صبغ الاجتماع بصبغته هم الأكثرية بصورة مطلقة.

أما إذا كانت اللبنة الإنسانية فاسدة فيكون المحيط فاسداً.

المحيط الاجتماعي يحدد طبيعة الحكم

ومن المحيط . فاسداً كان أو صالحاً . تنشأ الحكومات أيضاً، ففساد أو صلاح الحكومات تابع من صلاح أو فساد المحيطات، ولذا ورد في الحديث، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (كيفما تكونوا يولى عليكم)(٤). إذ من الطبيعي أن المحيط الصالح ينشئ الأفراد الصالحين الذين يصلون إلى الحكم، والمحيط الفاسد ينشئ الأفراد الفاسدين الذين يصلون إلى الحكم.

فالحكم أيضاً أمر سادس في هذا السُّلم: سُلّم النفس، والبدن، والتاريخ، والمحيط الاجتماعي، والمحيط الطبيعي، وهو جزء من المحيط الاجتماعي، فبصلاح المحيط الاجتماعي التابع لصلاح النفس يصلح الحكم، وبفساده يفسد الحكم.

نتائج الخلود إلى الأرض والارتباط بالسماء

ثم إن من يقطع جذوره بالسماء ليخلد إلى الأرض، ومن يقطع جذوره من الأرض ليطمأن إلى السماء يتلقى كل واحد منهما . فرداً أو جماعةً أو أمةً . جزاءه الطبيعي المناسب له، فإن هنالك خمسة أنواع من الجزاء يتلقاها الإنسان . فرداً أو اجتماعاً - : الجزاء الشخصي، والجزاء التاريخي، والجزاء البرزخي، والجزاء المحشري، والجزاء بالجنة أو النار.

فالجزاء الشخصي هو أن الإنسان المحسن يُحسن إليه، والإنسان المسيء يساء إليه، فمن أهان الناس أهين، ومن إحترم الناس احترم.

يقول الشاعر:

ومن هاب الرجال تهيئوه ومن وهن الرجل فلن يهابا

فهذا هو جزاء الإنسان الشخصي الذي يتلقاه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وفي الشعر المعروف:

لا يجتني الجاني من الشوك العنب ولا من الحنظل يجتني الرطب

وكذلك الإنسان هو الذي يصنع تاريخه، إن تاريخ رحمة وخير أو تاريخ لعنة وشر.

والبرزخ . وهو الفاصل بين الدنيا والآخرة . والحشر . وهو محل الحساب . والنار أو الجنة - وهو المحطة الأخيرة للإنسان . أيضاً تابعة للإنسان نفسه، والجزء الأوفى يكون في الآخرة، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: (ثم يُجزأه الجزء الأوفى) (النجم: ٤١).

لأن الدنيا قطعة صغيرة، والبرزخ والحشر أيضاً قطعتان صغيرتان بالنسبة إلى المحطة الأخيرة، أي النعيم أو الجحيم. ولذا نشاهد في التاريخ أن ما من مسيء إلا وقد أسىء إليه على الأغلب، ولا محسن إلا وقد أحسن إليه على الأغلب.

نعم: كان هنالك شواذ من الجانبين، لكن ذلك لقانون ثانوي أهم من القانون الأول، حيث إن الأهم يقدم على المهم، مثلاً: نشاهد ابن زياد والإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، فابن زياد قتل شر قتلة شخصياً، ولعن شر لعنة تاريخياً من يومه إلى هذا اليوم، أما الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام فله تاريخ مشرق جميل. وربما يقال: فلماذا قتل الإمام الحسين؟ فهل جوزي الحسين بإحسانه أم قُتل؟ أليس هذا نقيضاً للقاعدة المذكورة؟ والجواب: إن الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام اختار القتل بنفسه ولذا كان يفرق الناس من حوله ويقول لهم: (وهذا الليل قد غشيكم فاتخذة جملاً وتفرقوا في سواده فإن القوم إنما يطلبونني)(٥).

فهل رأيتم من يريد البقاء والحياة أنه يفرق الناس من حوله؟

إن الإمام الحسين (عليه السلام) بنفسه أراد أن يقتل تبعاً لإرادة الله سبحانه وتعالى، لأمر أهم، حيث ورد في الحديث: (إن الله شاء أن يراك قتيلاً، وشاء أن يرى أهلك سباياً)(٦).

فالحسين (عليه السلام) إختار عمله الصعب لأجل أن ينقذ، ولأجل أن يكون أسوة، (فالجيش الذي يختار العمل الصعب في ميادين الحرب هو إختار ما إختار لأجل الإنقاذ ولأجل أن يكون أسوة).

فهل يقال إن الجيش أسىء إليه؟ إن مثال هذا هو مثال الطبيب والمهندس والفقير والخطيب الذين يختارون العمل الصعب بالدراسة والسهر وحرمان النفس عن الملذات لأجل علو المنزلة أو لأجل إنقاذ الناس من مشاكل الحياة.. أو لغير ذلك.

وعليه فليست الجذور التي ذكرناها . السماوية والأرضية . مجرد طائفتين من الجذور، وإنما لكل طائفة آثارها الحسنة أو آثارها السيئة على الإنسان نفسه: شخصاً وتاريخاً وبرزخاً ومحشراً وجنة أو ناراً.

ولا تنس نصيبك من الدنيا

ولا يتوهم من الكلام السابق أن الجذور الأرضية يجب قطعها قطعاً كاملاً، فإن الجذور الأرضية يحتاج إليها في حدودها، وإنما الكلام في عدم تحكيم الجذور الأرضية وقطع الجذور السماوية فكل جذر من الجذرين يجب ملاحظته في حدوده المقررة له، فالجذور الأرضية هي لإعطاء حاجات الجسد ولإنماء الروح كالأرض التي تنمي الإنسان والنبات والحيوان.

أما الجذور السماوية فهي للأخوة والصفاء والرقية وعدم الامتيازات المكذوبة من اللون واللغة والقطر والقوم وما أشبهه، وإنما الامتياز يكون بالكفاءات فقط، والكفاءات لا توجد الامتياز المححف بالآخرين وإنما يتم الأمر في

حدود الكفاءة، فالطيب له مكانه، والعامل له مكانه، وليس معنى تقدّم الطيب بسبب الكفاءة أنه يجحف على العامل، كما أنه ليس معنى كون العامل غير ذي كفاءة أنه يجحف على الطيب بالثورة عليه، كما نشاهد التناقض في هذه الناحية بين الشرق والغرب، ففي الغرب تطغى الكفاءات على العمال والفلاحين ومن أشبهه، وفي الشرق طغى العمال والفلاحون على الكفاءات في أول ثورة الشيوعيين، وإن أخذت الكفاءات الحكومية المنحرفة أيضاً امتيازات ضد العمال والفلاحين بعد مرور برهة من الزمن.

لماذا التفاوت بين الأفراد؟

ومن هنا يأتي سؤال فلسفي هو: لماذا خلق الله الكفاءات المختلفة، فهذا أكثر استعداداً وذاك أكثر بنية، والثالث أكثر فطنة وذكاءً وهلمّ جرا.. ألم يكن من الأفضل أن يخلق الله سبحانه وتعالى الأشياء متساوية حتى لا تكون هذه الامتيازات الكفائية أيضاً؟

والجواب: إنما خلق الله الكفاءات المختلفة لأمرين نشعر بهما نحن. ولعل هناك أموراً أحر أيضاً -:

أولاً: لانه جمال الكون، فالجمال إنما هو بالتنوع لا باللون الواحد، فالحديقة ذات الأزهار الحمراء أو الصفراء أو البيضاء أو الزرقاء فقط لا ترضي الشعور الجمالي للإنسان بقدر ما ترضيها حديقة ذات أزهار مختلفة، وألوان متنوعة، وعطور مختلفة، فإن الأولى لوحظ فيها التساوي، لكن لم يلاحظ فيها الجمال، فإن الجمال بالكبر والصغر، والألوان المختلفة والأحجام المتباينة، والروائح المتنوعة.

ثانياً: لأن كل شيء. مما يعبر عنه في لسان الفلسفة ب(المهية). يطلب الوجود بلسان الحال، ومن جود الفياض المطلق أن يفيض الوجود على كل ما يتطلب الفيض، فيما لم يكن هنالك محذور يصادم ذلك، فطلب الوجود من (المهيات) يقتضي إعطاء كل مهية حقها، ومثل ذلك: أفراد يأتون إلى ساقى الماء، وكل يطلب الماء، لكن هذا إناءه صغير، وذلك إناءه كبير وثالث إناءه مربع ورابع إناءه مدور وخامس إناءه مستطيل إلى غير ذلك من الاختلافات، فالمهيات. بلسان الحال. تطلب من الله سبحانه وتعالى إفاضة الجود، والله يفيض الجود على الجميع لأنه الجواد الكريم كما ألمع إليه في الآية الكريمة: (أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها) (الرعد: ١٧).

فالأودية تحتل كل واحدة منها بقدرها من الماء النازل من السماء، وهكذا حال ماء الوجود المفاض على المهيات المختلفة التي هي مثل أودية الماء المختلفة.

وعليه، فهل من الصحيح عدم إعطاء كل ذي حق حقه؟ أو عدم التنويع الموجب للجمال؟

الله سبحانه لا يخلق الشر

وقد ذكرنا في كتاب (الأصول) أنه حتى ما نجده شيئاً فإن له نوعاً من الجمال، مثلاً: كل من العقرب والحية وما أشبه له نوع من الجمال، أما الإنسان الشرير، فإن الله سبحانه وتعالى لم يخلقه شريراً، وإنما يخلق الله الجيد في كل شيء، منتهى الأمر أنه يخلق الجيد والأجود، وإنما الإنسان بنفسه يحول الطيب شيئاً، ويبدل النعمة كفراً، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (الناس معادن كعادن الذهب والفضة)(٧).

ويقول القرآن الحكيم بصدد من يبذل الخير شرا: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار) (إبراهيم: ٢٨).

فالنعمة بما هي نعمة قد تبدل بالنقمة والكفر، كالذي يصنع من الرطب الطيب خمرة خبيثة وسيئة. وقد ذكر قسم من الفلاسفة: إن الوجوه المتصورة في الخلقة خمسة، والله سبحانه يخلق منها اثنين لوجود المخدور في الثلاثة الأخر، لأن الشيء إما خير محض، وإما شر محض، وإما متساوي الخير والشر، وإما خيره أكثر من شره، وإما شره أكثر من خيره، والله سبحانه وتعالى إنما يخلق (ما هو خير محض) و(وما خيره أكثر من شره) أما الأقسام الثلاثة الأخر. من (متساوي الأمرين) و(ما شره أكثر) و(ما هو شر محض). فإن الله سبحانه وتعالى وإن كان قادرا على خلقها، لكن الحكمة مانعة عن خلق مثل ذلك، فإن من صفات الله سبحانه وتعالى صفة (الحكمة) الموجبة لصد سائر الصفات عن الفيضان (٨).

مثلا: الله سبحانه وتعالى مُعطي ورزاق وخالق وما أشبه، فإذا لم تكن (الحكمة) آخذة بأزمة تلك الصفات لكانت كل تلك الصفات (على فرض الخال) تتجاوز حدودها، مثلا يخلق الله عوض مليار من المجرات مليارات مليارات من المجرات إلى غيرها من الأمثلة.

لا.. للتطرف في حب الجذور الأرضية

.. وعلى هذا، فكل طغيان في محبة الجذور الأرضية ممنوع، لأنه يسبب:

أولا: الفساد والتمايز.

وثانيا: الجمود والسكون وعدم تقدم الحياة، فإن تقدم الحياة إنما هو بالكفاءات، والطغيان في محبة الأرض والجذور الأرضية يوجب عدم ظهور الكفاءات، ولذا قال سبحانه: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترتبوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (التوبة: ٢٤).

إن محبة هذه الأمور زائدا عن المتعارف هو فسق وخروج عن الاعتدال، والله لا يهدي الذين يخرجون عن الاعتدال عن علم وعمد، فانه سبحانه وتعالى إنما يهدي من يريد الاعتدال، ويسلك الطريق المستقيم لا من يسلك الطريق المنحرف، وقد قال علي عليه الصلاة والسلام في شعر منسوب إليه:

تفرج هم واكتساب معيشة وعقل وآداب وصحبة ماجد

فإن قيل في الأسفار ذل ومحنة وقطع الفيافي وارتكاب شذائد

فموت الفتى خير له من قيامه بدار هوان بين واث وحاسد

إن الخلود إلى الأرض. سواء الخلود إلى بلد واحد من غير سبب أو الخلود إلى الأرض باعتبار الجذور القومية والجغرافية وما أشبه. مانع عن تقدم الإنسان وتعالیه ورفقيّه، ولذا قرر في الإسلام (المهجرة) أما من لم يكن يجب الهجرة لمشكلاتها فقد قال الله في شأنه: (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) (المائدة: ٢٦).

فالإنسان الذي يخلد إلى الأرض ولا يحب التقدم والرقى والموازن الإنسانية يبقى يتيه في الأرض حتى ينقلع عن تلك الجذور المنحرفة، وقد ذكر بعض المفسرين أن مدة تبدل الأمم من حالة إلى حالة هي أربعون سنة، حيث يذهب القوم السابقون في ظرف يقارب عشرين سنة، وينمو القوم الذين بعدهم خلال عشرين سنة، وتكون النتيجة (أربعين سنة).

وعلى كل حال، فالجذور الأرضية واجبة بقدر، وباقي الطاقات والقدرات يجب أن تصرف إلى الجذور السماوية، ولذا قال سبحانه: (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (القصص: ٧٧).

فللدنيا والجذور الأرضية نصيب ما، واللازم على الإنسان أن يصرف طاقاته في الجذور السماوية. وهذا الأمر صعب جدا لأن الإنسان يميل إلى قومه ووطنه وداره وأبويه وما أشبهه، ويجب المفاخرة بها، كما كان الجاهليون يفاخرون بذكر آبائهم في منى فنهاهم الله سبحانه وتعالى عن ذلك وقال: (فادكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) (البقرة: ٢٠٠-٢٠٢).

حيث نرى في هذه الآية الكريمة أن قسما من الناس يريدون الدنيا والآخرة، لكن إرادتهم للدنيا أضعف من إرادتهم للآخرة، حيث قال سبحانه: (ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (البقرة: ٢٠١).

فجعل حسنة الدنيا حسنة واحدة، أما ما يرتبط بالآخرة فجعله جزئين: جزءا إيجابيا (حسنة) وجزءا سلبيا (وقنا عذاب النار).

وبعد ذلك قال سبحانه: (أولئك لهم نصيب مما كسبوا) (البقرة: ٢٠٢).

ثم أردف ذلك بقوله: (والله سريع الحساب) (البقرة: ٢٠٢).

حيث إن الدنيا تطوى بسرعة، وإنما البقاء للآخرة، والجذور السماوية هي المحكمة في الآخرة الطويلة العريضة، مثلا: الإنسان يعيش في الدنيا خمسين سنة، أما في الآخرة فمليارات من السنوات والى ما شاء الله: (خالدين فيها أبدا) (النساء: ٥٧).

ترويض النفس

والإنسان وإن كان يميل بطبعه إلى مباحج الدنيا والجذور الأرضية، لكن يجب أن يجبر نفسه على الالتصاق بالجذور السماوية.

قال علي عليه الصلاة والسلام: (وإنما هي نفسي أروّضها بالتقوى) (٩).

يعني: إن الإنسان يجب عليه أن يروّض نفسه ويربيها، وهذا ما نراه في كل متقدم حسب كفاءاته من فقيه وعالم ومهندس وطبيب وخطيب ومؤلف وما أشبهه حيث إنه يجبر نفسه على ذلك الجانب، وهو إن كان ثقيلًا وضعبا،

لكن النتائج في الدنيا والآخرة مغرية، بخلاف الإنسان إذا أسلس نفسه للجذور الأرضية، ولذا ورد في الحديث:
(حَقَّتْ الجَنَّةُ بالمكَّارِ، وحفَّتْ النار بالشهوات) (١٠).

وفي حديث آخر: (أفضل الأعمال أحزمها) (١١).

. أي أصعبها . فالإنسان إذا أجبر نفسه على الصعاب يكون كالأب الرؤوف الذي يجبر ولده على الذهاب إلى المدرسة والانقطاع عن الأشرار، وليس ذلك إلا لمصلحة نفس الولد ورفقه وارتفاعه، والولد، وان توهم أن الأب يضغط عليه ويجبره بلا مبرر، لكن الواقع أن الضغط والجبر لهما مبررهما الوجيه عند العقل والشرع وسيدركه نفس الولد إذا كبر وعقل.

المقياس هو الكفاءة

ثم إن تساوي الناس . إلا من جهة الكفاءات . هو الذي جاءت به الأديان . مثلاً: صار المسيح عليه الصلاة والسلام بلطف الله أولاً وأتعبه ثانياً في عداد خيرة الله، قبال اليهود الأثرياء المستكبرين الذين قالوا: (نحن أبناء الله وأحباؤه) (المائدة: ١٨).

وهكذا لما جاء المسيح جعلت الإنسانية على قدم المساواة، فلا فضل لبعض على الآخر إلا بالتقوى ورجع اليهود إلى الوراء، لكن لم يمض زمان حتى انخرقت المسيحية فصار المسيح أيضاً (ابن الله) وصارت الروحانية المسيحية في صفوف الدولة المستكبرة وشرعوا قانون: (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله).

وقد أشير إلى ذلك في القرآن الحكيم في آيات متعددة:

قال سبحانه: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) (النساء: ١٧١-١٧٣).

وقال سبحانه: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) (المائدة: ٧١-٧٥).

ويقول الله سبحانه وتعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) (التوبة: ٣٠-٣١).

إلى غيرها من الآيات وهكذا نجد أن كل الموازين التي جاء بها المسيح عليه الصلاة والسلام . لأجل إرجاع الناس إلى واقعهم الإنساني . انقلبت، ولذا جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليردّ الأمور إلى نصابها الواقعي، وجعل المؤمنين أخوة وقد قال الله سبحانه: (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم) (الحجرات: ١٠).
ونقرأ في التشهد: (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله).
كما صار الميزان الكفاءة: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).
وحكمت الاستشارية كما قال تعالى: (وشاورهم في الأمر) (آل عمران: ١٥٩).
وقال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: ٣٨).
وأصبح تعيين القيادة . الجامعة للشرائط . في زمان الغيبة بيد الناس، وسيأتي في هذا الكتاب موضوع الانتخابات من قبل الأمة للقائد الذي يحكم المسلمين.

- ١ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٦٢، طبع دارالمعارف، بيروت.
- ٢ . بحار الأنوار: ج ٥٤، ص ١٢٩.
- ٣ . المبسوط، للسرخسي: ج ١، ص ٣، طبع دارالمعرفة، بيروت.
- ٤ . كنز العمال: ج ٦، ص ٨٩، طبع مؤسسة الرسالة.
- ٥ . بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣١٦.
- ٦ . بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٣٦٤.
- ٧ . المراد أنه قابل لهما، لا أنه سبحانه يخلق الشر، ولذا قال (صلى الله عليه وآله): (كمعادن الذهب والفضة).
- ٨ . هذا من باب التشبيه وضيق التعبير.
- ٩ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٧١، طبع دارالمعرفة بيروت.
- ١٠ . المبسوط، للسرخسي: ج ٣٠، ص ٢٥٤، طبع دارالمعرفة، بيروت.
- ١١ . بحار الأنوار: ج ٦٣، ص ١٩١.

القيمة الإنسانية بين الإسلام والآراء المغايرة

نتائج فساد النظام الاجتماعي في الغرب

ثم إنه كان في الغرب الكبت الشديد من طبقة الحكام للشعوب، وحيث وجدت الطبقات المتفاوتة المتعددة بعضها عن بعض فبعضها فوق القمة وبعضها تحت الحضيض وحيث كانت الكنيسة تتشدد تشددا دينيا غريبا حتى أنها أحرقت ألوف العلماء وعشرات الألوف من الناس وحظرت العلم . حتى ترجمة التوراة والإنجيل وما أشبهه . وحيث كانت تسلط بعض الأقوام على أقوام آخرين نتج عن كل ذلك أمور:

منها: الإفراط في الحرية، فإن كل (فعل) له (رد فعل) يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه، وقد يكون أحيانا أكثر منه (بمناسبات مذكورة في علم الاجتماع وغيره) وهذه الحرية الإفراطية هي التي سببت المشاكل التي يرتطم فيها الغرب إلى هذا اليوم، كما أن الطبقات المتباعدة سببت رد فعل بالتساوي الإفراطي بين الناس حتى بين الرجل والمرأة اللذين لم يكن بينهما تساو لا حلقة، ولا عاطفة، ولا عقلاً . إلا في جوامع مشتركة بينهما . كما أن تشدد الكنيسة سبب رد فعل بالتحلل من الدين والفضيلة جملة وتفصيلاً، وتفشي الإلحاد والرذيلة بشكل مخيف، وكذلك تسلط الأقوام الآخرين سبب القومية المرتبطة باللغة واللون والأرض والقبيلة وما أشبه إلى حد الإفراط البعيد عن موازين العقل، فيرجح جاهل القوم على عالم الأقوام الآخرين وصارت القومية الصنم الجديد الذي يعبد من دون الله ومن دون الموازين الإنسانية، ومن القومية نشأت النازية والفاشية اللتين أغرقتا العالم في حربين عالميتين مدمرتين خلال نصف قرن فقط.

وحيث انهزم الدين عن الساحة وأخذت المادة مكانه حدث (الاستعمار) و(الاستغلال) للشعوب الأخرى، لأن المادة (كما تقدم) ضيقة فتوجب التشاجر والتناحر والاستغلال والاستعمار، أما الدين الحق فهو رحب يسع صدره مختلف الأقوام والشعوب.

وحيث حدث التطرف في رأس المال وجد رد فعل متمثل ب(الشيوعية) حيث إن الشيوعية . بزعمها . ضد رأس المال! وإن سقطت الشيوعية في بؤرة رأس المال بشكل أفضع، حيث جمعت بين (رأس مال الدولة) و(دكتاتورية الدولة) ففي الغرب كان رأس المال بيد أفراد والدولة بيد أفراد آخرين وبين هاتين المجموعتين يتوفر شيء من الحرية مما بسببه يتمكن العامل والفلاح وذو الدخل المحدود من التنفس ولو بقدر قليل، لكن في الشيوعية جمعت جماعة خاصة بين (الدولة) و(رأس المال) فسحقوا كل الطبقات، وجرأوا على الشعوب الويلات المعروفة.

سلامة النظام الإسلامي

أما الإسلام فحيث توفرت فيه الحريات المعقولة، ولم تكن فيه طبقات يسندها القانون، ولا تشدد من الدين ورجاله . بل عفو وسماح ودعوة بالتي هي أحسن . ولم يكن فيه تسلط أقوام على أقوام بل كان من دخل في الإسلام يصبح كسائر المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وإنما الكفاءات تصل إلى أرقى المناصب سواء في

الحكم أو في العلم أو في القضاء أو في غيرها ولذلك نرى مثلاً أن سلمان الفارسي نصب حاكماً على الإمبراطورية الفارسية لما فتحت إيران... لذلك كله لم يكن في الإسلام استعمار ولا استغلال ولا ردود فعل... وهكذا امتد الإسلام وزحف إلى الأمام باستثناء بعض الفترات التي سيطر فيها حكام منحرفون خرجوا عن الموازين الإسلامية جملة وتفصيلاً فأوقفوا زحف الإسلام الإصلاحية، وباستثناء الفترة الأخيرة حيث ابتعد كثير من المسلمين عن القرآن الكريم الذي كان هو خلق المسلم مما سبب تمكن الغرب والشرق من الزحف عليهم وتنصيب حكام عملاء عليهم وتبديل القوانين الإسلامية إلى القوانين الوضعية الكابطة. وهكذا فقدت الدنيا القيادة الرشيدة، وولدت مشكلات عالمية لها أول وليس لها آخر، ارتطم الأرقام كلهم فيها. وإن كانت على نسب مختلفة..

الجاهلية الجديدة

والحالة التي تعيشها الدنيا في الوقت الحاضر هي حالة مرضية. بكل خصائص المرض. وما لم ترفع هذه الحالة إلى حالة صحية فستظل الدنيا تتخبط في دياجير وظلمات ومشاكل أسوأ من المشاكل التي كانت الدنيا تتخبط فيها قبل ظهور الإسلام، فهي (جاهلية ثانية) أسوأ من (الجاهلية الأولى).

إن الدنيا الحاضرة دينا مغلفة بالأنانية، والأثرة، والتفاوت الطبقي، والموازين التي تحكمها هي موازين (القومية) و(الوطنية) و(المادة) و(اللغة) وما أشبه لا الموازين الإنسانية، ولذا تجد كل إنسان لا يرتبط بالوطن الخاص والشعب الخاص. ونحو هذين الأمرين. غريباً ليس له أي حق في الحياة، فهو يولد في العالم الحاضر دون حق، وينظر إليه بالشبهة والريبة، لا يزوج، ولا يتزوج منه، ويطرده من البلاد، ولا حق له في البيع والشراء إلى غير ذلك، إلا في نطاق خاص وتحت شروط قاسية جداً، لم يكن لها مثيل حتى في الجاهلية الأولى.

وما دامت الدنيا لا تضع الحب مكان الكراهية، والأخوة مكان الطبقية والوطنية والقومية ونحو ذلك، وحسن الظن بدل سوء الظن، وحب الإنسان بما هو إنسان بدل الروابط الأنانية والأرضية ونحوها، والتعاون بدل التقاطع، وأصالة الصحة. في عمل الإنسان وفي قوله. بدل أصالة الفساد، وأصالة البراءة حتى تثبت الجريمة بدل أصالة الشبهة، وأصالة الحرية في كل شيء بدل أصالة الكبت.. لم يكن للعالم خلاص من المشاكل، بل أنها تزداد ضيقاً يوماً بعد يوم، حاله حالها المريض فإنه إذا لم يستعمل الدواء يزداد مرضه يوماً بعد يوم حتى ينتهي به إلى الموت.

آفاق ضيقة

ولما ذكرناه. من ضيق الأفق الذي يحكم على بلاد عالم اليوم. نرى أن الإنسان الغربي والشرقي إذا قال لزملائه: (إني لا أحب بلادي) يقابل بالاستنكار، أما إذا قال: (إني أريد استعمار سائر البلاد أوإني أريد الاستيلاء على خيرات سائر البلاد، أو إني أريد قتل الطائفة الفلانية التي هي خارجة عن بلادي) أو ما أشبه لا يقابل بالاستنكار، إلا عند فئة خاصة.

إن مردّ ذلك إلى عدم إنسانية الفكر، وضيق الفكر. سواء في القومية أو في الوطنية أو في اللغوية أو في اللونية أو ما أشبه ذلك..

الأديان السماوية توسّع آفاق الفكر الإنساني

وقد ورد في الإسلام سعة مثل هذا الأفق وهكذا في كل الأديان السماوية، بل نقل عن المسيح عليه الصلاة والسلام، أنه قال: (أحبوا أعداءكم).

وفسر البعض بأن حب الأعداء هو حب للنفس، لوجود الجذور الإنسانية في كل إنسان سواء كان عدواً أو صديقاً، وفي القرآن الحكيم: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة: ٨). وورد في الحديث: (إنصاف الناس من نفسك)(١).

وفي حديث آخر: (فاحب لغيرك ما تحب لنفسك)(٢).

وفي حديث الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: (الناس إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

كما أنه ورد عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله): (لا فضل للعربي على العجمي إلا بالتقوى)(٣). إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الأديان السماوية.

والإنسان لا ينقلع عن هذا الضيق في أفقه الفكري . الذي يتبعه أيضاً عمله الخارجي . إلا إذا توسعت آفاقه الذهنية ورأى الإنسانية وحدة واحدة، وكما قال الشاعر:

(بنو الإنسان أعضاء جسم واحد) (لأنهم مخلوقون من جوهر واحد)

(فإذا سبب الزمان لبعضهم ألماً) (يتألم سائر الأفراد لألمه)

(فإذا لم تحزن لمصائب الآخرين) (فلا ينبغي أن تسمى إنساناً)(٤)

هذا هو منطق الأديان السماوية، منطق العقل، والرشد الفكري وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعي سائرته بالسهر والحمى)(٥).

وفي عكسه قال شاعر آخر معبراً عن منطق أمثال الغربيين والشرقيين الذين يحصرون الأمور في القوميات ونحوها: (الناس بعضهم أعداء بعض لأنهم في الخلقة سيئ فأسوأ فإذا سبب الزمان لبعضهم ألماً فيألى جهنم! فما بال سائر الأعضاء؟ إنك إذا لم تحزن لمصائب الآخرين فمن الحق أن تسمى آدمياً).

فإذا تمكن الإنسان أن يدخل تحت مظلة الأنبياء عليهم السلام وأن يجعل جذوره إنسانية لا عنصرية أو طائفية.. أو.. فعندئذ يسود الوثام والسلام، وتتبدل معامل صنع السلاح إلى معامل صنع الأغذية، ولا تجد ألف مليون إنسان يتضورون جوعاً بينما أفراد آخرون يسبحون في اللبن . كما نشاهد في عالم اليوم . كما لا تجد في ذلك اليوم السجون المفتحة والحاجات المعطلة، ولا تجد بعض الناس يسكنون القصور الباذخة بينما السواد الأكبر يسكنون الأكواخ ويعيشون نصف عراة، وقد جاء في نهج البلاغة عن علي عليه الصلاة والسلام قال: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلا بما متع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك)(٦).

وروى الأمدى في الغرر، عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام قال: (زكاة العلم نشره، زكاة الجاه بذله، زكاة الحلم الاحتمال، زكاة المال الأفضال، زكاة القدرة الإنصاف، زكاة الجمال العفاف، زكاة الظفر الإحسان، زكاة البدن الجهاد والصيام، زكاة اليسار برّ الجيران وصللة الأرحام، زكاة الصحة السعي في طاعة الله، زكاة الشجاعة الجهاد في

سبيل الله، زكاة السلطان إغاثة الملهوف، زكاة النعم إصطناع المعروف، زكاة العلم بذله لمستحقه وإجهاد النفس في العمل به(٧).

إلى غيرها من الآيات والروايات التي تعطي للإنسان آفاقاً إنسانية واسعة حتى بالنسبة إلى الكافر كما قال النبي (صلى الله عليه وآله): (لكل كبد حرى أجر)(٨).

وإذا لم تحكم هذه الموازين في المجتمع فسيكون مجتمعاً مريضاً، ولا يرجى برؤه إلا بعودته إلى مظلة الأنبياء كي يرجع إلى جذوره الإنسانية.

الإنسان على مفترق الطرق

إن الإنسان يعيش على مفترق ثلاثة طرق (أنا) و(نحن القوم أو العشيرة أو الوطن) و(نحن البشر)، ومن المعلوم أن الإنسان . بحكم العقل والمنطق . يجب عليه اتباع الطريق الثالث، فإن (أنا) وما يشتق منه (الأناية) أفق ضيق إلى أبعد حد و(نحن الوطن أو القوم أو ما أشبه) أيضاً أفق ضيق، وإن كان أوسع من الأفق السابق. أما (نحن البشر) فإنه يعبر عن آفاق إنسانية واسعة رحبة.

مضاعفات النظرات الضيقة

ولا يعود الضرر في مقولتي (أنا) و(نحن الوطن) وما أشبه إلى الأطراف الأخر فقط، بل يعود أولاً وبالذات إلى الدكتاتور نفسه في (أنا) والى (الوطن والقوم والقبيلة وما أشبه) في (نحن الوطن أو القوم أو نحو ذلك)، ولذا ورد في الآية الكريمة: (قد أفلح من زكاها) (الشمس: ٩).

وورد أيضاً: (ونهى النفس عن الهوى) (النازعات: ٤٠).

وفي الآية الكريمة: (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) (الأنبياء: ٥٢).

فإن صنم (أنا) وصنم (نحن الوطن) يشبه (الأصنام الحجرية) في العمل على تضيق دائرة الإنسان.

وفي آية أخرى: (اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) (التوبة: ٣١).

وفي آية أخرى: (ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) (المائدة: ١١٦).

إن كل تضيق في أفق الإنسان يسبب تضيقاً على الذات في الحياة، ويفقد الإنسان المجالات الرحبة للسير والتقدم، كما يشاهد في أحوال الدكتاتوريين الذين يقولون (أنا) وفي أحوال القوميون والوطنيين والإقليميين وما أشبه الذين يحصرون دائرة أفقهم في أقوام خاصة.

وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام استحباب السكن في المدن الكبيرة الواسعة.

فإن هذا أيضاً نابع من نفس المنطلق، فإن المدينة الصغيرة تضيق دائرة النشاط الإنساني سواء أراد الزواج أو أراد العمل أو أراد النشاط أو غير ذلك، أما المدينة الكبيرة فتتسع دائرة الإنسان فيها بقدر سعة المدينة، مثلاً: إذا عاش الإنسان في قرية تحتوي على عشر عوائل انحصرت الفتاة التي يريد الزواج منها في عشرة أو ما أشبه، أما إذا سكن مدينة تحتوي على مليون إنسان فإنه يستطيع أن ينتخب زوجته من بين ما يقارب مائة ألف فتاة، ومن الطبيعي أنه كلما اتسعت خيارات الإنسان في الانتخاب كان اختياره أفضل وأجود، وهكذا في سائر الأمور.

فعلى الإنسان أن لا يحصر نفسه في دائرة (أنا) أو (نحن القبيلة أو نحن أهل البلد أو ما أشبهه)، فإن ذلك يعود بالضرر أولاً وبالذات على نفسه، وثانياً وبالعرض على غيره.

والاجتماع العالمي اليوم حيث أصبح هكذا مريضاً، بكل فروعهِ وشعبهِ وقومياته ولونياته ولغاته ورأسمالياته، ولا يتخلص العالم من هذا المرض إلا بتبديل (أنا) و(نحن الوطن ونحوه) إلى (نحن البشر).

(الرأسمالية) الصنم الجديد

وحتى أن حصر النفس في الرأسمالية المنحرفة التي ينتهجها الغرب والشرق هو أيضاً نوع من عبادة الأصنام وتضييق لآفاق النفس، فإن معاني الرحمة والإنسانية والعطف والحنان وما أشبه كلها تموت في نفس الرأسماليين، حيث إنهم يرون ألوف الجائعين والأطفال الذين سقطوا ضحية الأمراض بسبب سوء التغذية، ومع ذلك لا يتعطفون عليهم، والأسوأ من ذلك أنهم يبنون معامل السلاح لقتل الإنسان وجرحه وتعويقه مجرد أن ذلك يدّر عليهم المال الوفير، وكذلك البنوك الربوية والمرابون ونحو ذلك، فإنها كلها نابعة من ضيق الأفق الذي يعود على الإنسان أولاً بالشر ثم على غيره، وقد قال سبحانه: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً) (طه: ١٢٤).

أليس سباق التسلح حالة مرضية أخذت بخناق العالم في الوقت الراهن، وكلما كان السلاح أفتك يكون سرور الرأسماليين به أكثر، لأنه أكثر إبادة لمن يتصورون من الأعداء وأكثر درأً للأرباح.

الإسلام يحترم الآخرين

أما الإسلام فإنه يحترم حتى الكفار، ويحرم حتى على القتل، فقد ورد في الحديث أن رجلاً سب مجوسياً بحضرة الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام، فزجره الإمام (عليه السلام) ونهاه فقال له الرجل: إنه تزوج بأمه؟ فقال عليه السلام: (أما علمت أن ذلك عندهم النكاح؟) (٩).

وفي حديث آخر: أن الإمام الصادق قال لبعض أصحابه ما فعل غريمك؟ قال: ذاك ابن الفاعلة؟ فنظر إليه أبو عبد الله عليه الصلاة والسلام نظراً شديداً قال: فقلت: جعلت فداك إنه مجوسي نكح أخته؟ قال عليه السلام: أوليس ذلك في دينهم نكاحاً؟ (١٠).

وفي وصايا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسن عليه السلام لما ضربه ابن ملجم قال (عليه السلام): (وأطعموه وأحسنوا أساره...) (١١).

النفس الإنسانية وآفاق التصحيح

ألوان من الأنانية

ثم إنه لا فرق في (أنا) الضيق بين أي لون من ألوان الاجتماع نحو (أنا العالم) (أنا المهندس) (أنا العراقي) (أنا التاجر) (أنا الشرطي) (أنا الموظف) إلى غيرها، فإن كل ذلك إذا كان سبباً للتعارف كان سليماً، ولذا قال سبحانه: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات: ١٣).

أما إذا كان سبباً للامتنياز والطبقية كان خاطئاً.

ولا يظن إن (أنا..). ليس بمهم، فإن الإنسان يخاطر حتى بجريته وأمواله وأهله بل وحياته في سبيل إبراز (أنانيته)، فإذا كان (أنا) صحيحاً كان معناه صحة الأمور كلها، وإلا كان معناه الكبرياء والعدوان.

لا يقال: ف(أنا المسلم) أيضاً كذلك؟

لأنه يقال: كلا، فإن الإسلام هوية الصحة البشرية، فهو مثل (أنا البشر)، مضافاً إليه البرمجة السليمة لأنه لا يوجد في (البشر) البرمجة، فإن البشر عبارة عن هذه الأفراد المتناثرة التي تجمعها جامعة تسمى بالبشر، أما أن هذا البشر كيف هو؟ شقي أو سعيد؟ خير أو شرير؟ مستقيم أو منحرف؟ عالم أو جاهل؟. والى غير ذلك. فليس في (البشر) أي لون من هذه الأمور، أما إذا أردنا تحويل البشر إلى (البشر الصحيح المستقيم المحب للخير والمحترم للإنسان)... الخ صار لونه (الإسلام).

قال سبحانه: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً) (البقرة: ١٣٨).

ففرق بين (أنا المسلم) وبين (أنا البشر) وبين (أنا التاجر) أو ما أشبهه.

ثلاثة أسئلة

ثم إن هناك ثلاثة أسئلة تعطي نتائج مختلفة حسب الأجوبة المختلفة:

السؤال الأول: ما هو الإنسان؟

السؤال الثاني: من هو الإنسان؟

السؤال الثالث: في أي جهة يسير الإنسان؟

(الإنسان) روح وجسد

ففي جواب السؤال الأول: قد يقال: (الإنسان جسم فقط) وقد يقال: (الإنسان جسم وروح).

ولا نقصد بـ(الروح) الروح التي في الحي في قبال الميت، لأن كل البشر يقرّون بها، وإنما المراد بـ(الروح) الروح

المنفوخة في الإنسان من قبل الله سبحانه وتعالى، فإن الإنسان مركب من ثلاثة أشياء:

١. جسم سفلي.

٢. وروح علوية.

٣. ونفس بين ذلك قد تميل إلى فوق وقد تميل إلى تحت.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم هذه الأمور الثلاثة.

أما الجسم فهو مخلوق من: (حَمِيمًا مسنون) (الحجر: ٢٦ و ٢٨ و ٣٣).

ومن: (صلصال كالفخار) (الرحمن: ١٤).

وأما الروح، فإن الله تعالى يقرنها بالتعظيم فيقول: (ونفخت فيه من روحي) (الحجر: ٢٩).

وأما من جهة النفس، فإن الله سبحانه وتعالى يجعلها بين الأمرين. الجسم الثقيل الأرضي، والروح الخفيفة

السماوية. فيقول: (قد أفلح من رزأها وقد خاب من دساها) (الشمس: ٩ - ١٠).

ويقول: (وهديناه النجدين) (البلد: ٩٠).

ويقول: (إذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبترزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) (النازعات: ٣٤ . ٤١).

وعلى هذا، فاللازم أن يعرف الإنسان أنه جسم وروح ولكل واحد منهما مقوماته ومتطلباته وحاجاته. تحديد الخصوصيات

ثم يأتي دور السؤال الثاني وهو: إن هذا الإنسان الذي عرفناه . بجوهره وماهيته . ما صفته؟ مثلاً هل هو عالم أم تاجر؟ هل هو حاكم أم شعب؟ وإلى آخره، فخريج الجامعة إذا فكر بأنه ليس بعالم فإنه يكون بعيداً عن الواقع، أما إذا فكر بأنه خريج ثانوية فقط، فإنه يكون أقرب إلى الواقع.. وهكذا.. فكلما كان تفكير الإنسان مطابقاً لواقعته كان في خط الصواب، وكلما كان تفكيره أقرب إلى لونه الواقعي كان أقرب إلى الصواب.

وليس التفكير بالخصوصيات والكيفيات مجرد تفكير وإنما له آثاره، مثلاً: إذا تصور الجاهل نفسه عالماً قديراً فعرض نفسه للامتحان سقط وسبب له الفشل والمهانة، وكذلك إذا فكر الضعيف الجبان بأنه قوي وشجاع ثم عرض نفسه لمواقع الهلكة سقط وأودى بحياته.. وهكذا.

فليس الجواب عن السؤال الأول أو الثاني مجرد أمر فكري وجواب علمي، وإنما يؤثران في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

تبيين وجهة السير

ثم يأتي دور السؤال الثالث وهو: إن الإنسان في أية جهة من الجهات؟ هل هو يمشي في الجهة الصحيحة أو يمشي في الجهة المغلوطة؟ مثلاً من يقول: (لا إله) أو من يقول: (بتعدد الإله) أو من يقول بأن (الصنم إله) أو من يقول بأن (الله هو الإله) هؤلاء تختلف سبل حياتهم وخصوصيات سيرهم، فالمصيب فيهم يصل إلى الهدف، ويكون مستقيماً، ولا يبتلى بالمشكلات وما أشبهه، بينما الشخص المخطئ يبتلى بالمشكلات، فإن الأمور الفكرية تنتهي إلى الأمور الخارجية كما أن المقدمات الخارجية تنتهي إلى نتائج خارجية فكما أن الإنسان إذا سار قاصداً بلداً ما لكن من غير طريقه، فإنه لا يصل إلى ذلك البلد، كذلك الحال في كل جهات الحياة، فالمهم أن تكون للإنسان (فرضية) ثم يفكر في أن هذه الفرضية مطابقة للعقل والمنطق والواقع أم لا؟ أما لباس الجهة التي يسير الإنسان فيها بالعقل والمنطق الادعائيين فليس بمنتهى، وقد قال سبحانه: (كل حزب بما لديهم فرحون) (المؤمنون: ٥٣).

ومن لا يراعي المنطق والعقل والواقع في قرارة نفسه، وإنما يلاحظها بالإدعاء فقط يكون ممن قال الله سبحانه وتعالى في شأنه: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) (فاطر: ٨).

والعمل السيء يراه الإنسان حسناً اعتباطاً وادعاءً ينتهي بالأخرة إلى العطب والهلاك، ولذا قال سبحانه: (وكذلك زين لفرعون سوء عمله) (غافر: ٣٧).

وكانت نتيجة هذا العمل السيء ما يقوله الله تعالى في آية أخرى: (أغرقوا فأدخلوا ناراً) (نوح: ٢٥).

وإنه يوم القيامة: (يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار) (هود: ٩٨).

... وهكذا أفنى فرعون نفسه، وأفنى أهله وبقوا لعنة للتاريخ منذ أكثر من أربعين قرناً، وأخرتهم أيضاً على ذلك المنوال السيئ.

وعليه فاللازم على الإنسان أن يلاحظ (شخصه) ويلاحظ (أنه من هو) ويلاحظ (جهة سيره) حتى يأمن الهلاك والعطب، فإذا كان أحد هذه الأمور غير صحيح فالإنسان غير مستقيم، والاجتماع الذي يتكون من مثل هذه اللبنة الإنسانية . اجتماع غير مستقيم أيضاً.

نصوص في النهي عن التعصب لغير الحق

عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (من تعصب أو تعصب له فقد خلع رقة الإيمان من عنقه)(١٢).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)(١٣).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (من تعصب عصبه الله بعصاة من نار)(١٤).

وعن حبيب بن ثابت، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: (لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب وذلك حين أسلم غضباً للنبي (صلى الله عليه وآله) في حديث السلا(١٥) الذي ألقى على النبي (صلى الله عليه وآله)(١٦).

وعن داود بن فرقد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم، وكان في علم الله أنه ليس منهم، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب وقال: (خلقتني من نار وخلقته من طين) (الأعراف: ١٢).

وعن علي بن اسباط رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إن الله يعذب الستة بالسته: العرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والأمرء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهل)(١٧).

وعن الزهري قال: سئل علي بن الحسين (عليهما السلام) عن العصبية التي يأثم عليها صاحبها فقال: (أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم)(١٨).

العناصر المشتركة بين الإنسان وسائر الكائنات

للإنسان جهات مشتركة مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان، كما أن للإنسان جهة مختصة به بما هو إنسان.

فهو يشترك مع الجماد في الطول والعرض والعمق.

ومع النبات في الاحتياج إلى الغذاء والهواء والنور ونحوها.

ومع الحيوان في الحس والحركة والاحتياج إلى الأكل والشرب والوقاية من الحرّ والبرد وغير ذلك.

خصائص الإنسان

أما مختصاته بما هو إنسان فإنه وحده بحاجة إلى ما يرتبط بالروح الإنسانية من (الفرضية) التي ذكرناها في الفصل السابق و(الاجتماع) و(الهوية) و(إعمال الخلافة) و(درك الحقائق) ونحو ذلك، فإذا لم يعط الإنسان حاجاته الروحية والجسدية كان مريضاً وكان الاجتماع. المكوّن من هذه اللبنة المريضة. اجتماعاً منحرفاً. الطريق إلى المجتمع السليم

أما طريق صحة الإنسان . فرداً أو اجتماعاً . فهو أن يعطى للإنسان كل حاجاته الجسمية والروحية والإعطاء للحاجات الجسمية والروحية صحيحاً أو سقيماً منوطاً بأمرين:
الأول: النظام السائد وهو ما يسمى بالدين أو الطريقة أو الفرضية أو ما أشبهه.
الثاني: المؤسسة الاجتماعية التي ركبت تركيباً صحيحاً أو سقيماً.

- ١ . بحار الأنوار: ج ٦٢، ص ٣٨١.
- ٢ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٤٥، دارالمعارف . بيروت.
- ٣ . بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٣٤٨، دار المعارف . بيروت.
- ٤ . أصل الآيات باللغة الفارسية.
- ٥ . بحار الأنوار: ج ١٠٣، ص ١٧٣، دار المعارف . بيروت.
- ٦ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ٧٨، دارالمعرفة . بيروت.
- ٧ . مستدرك الوسائل: ج ٧، ص ٤٦، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليهم السلام).
- ٨ . بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٧٠، دار المعارف . بيروت.
- ٩ . وسائل الشيعة: ج ١٧، ص ٥٩٦، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ١٠ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ٤٣٠، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ١١ . وسائل الشيعة: ج ١٩، ص ٩٦، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ١٢ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٦٩، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ١٣ . نفس المصدر: ص ٢٩٦.
- ١٤ . نفس المصدر: ص ٢٩٧.
- ١٥ . السلا: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من المواشي، وقصة السلا المذكورة في باب مولد النبي (صلى الله عليه وآله) في الكافي: ج ١، ص ٤٤٩.
- ١٦ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٩٧.
- ١٧ . نفس المصدر: ص ٢٩٧.
- ١٨ . نفس المصدر: ص ٢٩٨.

المؤسسية وإشباع الحاجات الإنسانية

التأثير المتقابل بين الفرضية والمؤسسة الاجتماعية

فإذا كانت المؤسسة الاجتماعية قد ركبت تركيباً صحيحاً وكانت (الفرضية) التي ينتهجها الإنسان في حياته فرضية صحيحة كان الفرد صحيحاً وكان الاجتماع . المركب من اللبنة الفردية الإنسانية الصحيحة . صحيحاً أيضاً، وإلا كان الفرد والاجتماع منحرفين ومريضين.

مثلاً إذا كانت هنالك آلهة متعددة . كما قال الكفار عن الرسول (صلى الله عليه وآله): (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) (ص: ٥).

فمن الطبيعي أن يقع بين عبّاد هذه الآلهة التحارب والتضارب، لأن هذا يقول: إلهي أفضل، وذلك يقول: إلهي أفضل.

وكذلك إذا لم يكن الإنسان يعتقد بالآله واليوم الآخر، ولم ير رقيباً على نفسه وعمله فإنه يكون منحرفاً تلقائياً، فلا مانع عنده من السرقة أو القتل أو الاغتصاب للفتيات وما أشبه.

فالفرضية الفكرية المنحرفة تأتي أخيراً بالانحراف، والفرضية الفكرية المستقيمة تأتي أخيراً بالاستقامة، فإن كلاً من (الفرضية الفكرية) و(المؤسسة الاجتماعية) يؤثر أحدهما في الآخر.. فالفرضية الفكرية تؤثر في المؤسسة الاجتماعية لأن الإنسان يبني اجتماعه حسب فكره، كما أن المؤسسة الاجتماعية تؤثر في الفرضية الفكرية . مستقيمة كانت أو منحرفة . فمن يولد في بلاد المسيحيين يكون مسيحياً على الأغلب، ومن يولد في بلاد المسلمين يكون مسلماً على الأغلب.. وعلى هذا المعدل، ولذا ورد في الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرّانه)(١).

ومعنى الفطرة طبيعة الإنسان حيث يفكر أن للكون إلهاً وخالقاً، وأن هنالك يوماً يعاقب فيه الإنسان على سيئاته ويثاب فيه على حسناته، وأنه لا بد أن يكون لخالق الكون سفراء، هذه هي الفطرة على تفصيل مذكور في علم الكلام.

وعلى أي حال، فالمجتمع هو الذي يهود أو ينصر أو يمجس.

هذا بالنسبة إلى صحة الفرضية أو بطلانها.

المؤسسة الاجتماعية بين المرض والسلامة

وأما بالنسبة إلى صحة المؤسسة الاجتماعية أو مرضها فإننا نشاهد أن المؤسسة الاجتماعية إذا كانت صحيحة تعطي للإنسان الحريات المعقولة كحرية الزراعة والتجارة والصناعة والسفر والإقامة وتحصيل العلم والزواج واتخاذ المسكن والاستفادة من المباحات، ومثل هذه المؤسسة توجب صحة الأفراد جسماً وتوفير العمل لهم حتى لا يكونوا عاطلين، كما أنها توفر للإنسان المسكن والملبس والمأكل والمشرب والزواج أو الزوجة وغير ذلك.

أما إذا كانت المؤسسة الاجتماعية منحرفة فإنها لا توفر الحريات للإنسان أو توفر له حريات منحرفة . كحرية الزنا وحرية الربا وحرية الاحتكار وما أشبه . وفي كلا الحالين يسبب ذلك مرض الاجتماع، ومرض الاجتماع يسري إلى الفرد، فإنه قد ثبت في (علم الاجتماع) أن كل واحد من الفرد والاجتماع يؤثر في الآخر، فمثلاً: الفرد الصحيح في مؤسسة تعليمية يسبب رقي الطلاب، كما أن العكس كذلك، فإذا كان الاجتماع فاسداً فإنه يؤثر في أفرادها تأثيراً سيئاً.

فمن هاتين الناحيتين . ناحية (الفرضية الذهنية) وناحية (النظام الحاكم على المؤسسات الاجتماعية) . تفرز صحة الاجتماع أو فساده، فإذا كانت الروح السائدة في المجتمع حب الآخرين والتعاون معهم وساد في الاجتماع القانون الصحيح عاش الاجتماع بخير جسماً وروحاً وأخذ في التقدم وإلا كان العكس.

منهج الأنبياء (عليهم السلام) حول الفرضية والمؤسسة الاجتماعية
مثلاً: الأنبياء عليهم السلام هم الذين أعطوا النظام الصحيح للجسم والروح، أما للروح فلأنهم يحكمون العقل والاستدلال والبحث الحر، لا التقليد والعادات الباطلة كما كان يقول المشركون والمنحرفون.
(إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (الزخرف: ٢٢).

ولذا كان القانون في الإسلام الحكيم قانون العقل والبحث الحر والتفكير والتدبر.
وكذلك بالنسبة إلى قانون المؤسسة الاجتماعية فإنه مبني في عرف الأنبياء (عليهم السلام) على الحب.
(فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك)(٢).

. حباً ناشئاً عن حب الإنسان بما أنه إنسان، لا حب الإنسان للاستنفاع من ورائه . كما أنه مبني على الكفاءات.
(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).

وعلى احترام الآخرين وعدم إهانتهم حتى إذا كان الآخر مجرماً، فإن المجرم يعاقب بقدر جرمته . إذا لم يعف عنه . ولا يهان، وفي الحديث أن أحد الصحابة قال عن شخص مجرم (إنه عقص كما يعقص الكلب) فنهزه النبي (صلى الله عليه وآله).

وتدعو النبوات إلى توسعة حدود العلم كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)(٣).

وقال: (اطلبوا العلم ولو بالصين)(٤).

وتوسعة العقل بإنماء الملكات الصالحة، فإن الأرضية الموجودة في النفس قابلة للنمو، كالأرض القابلة لزراعة النبات فيها..

فإذا سادت في المجتمع هذه القوانين العقلية والاجتماعية تقدم الإنسان إلى الأمام وكان المجتمع مجتمعاً سليماً، ولذا ورد في القرآن الحكيم: (ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (البقرة: ٢٠١).

ما لله لله، وما لقيصر لقيصر!

أما ما تقوله المسيحية الحاضرة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فإنه قانون منحرف إذ (ما لقيصر) و (ما لله) كله لله سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى أنه يولد التناقض (فما لقيصر) هو الذي أخذ عيسى المسيح وأراد أن يقتله لولا أن رفعه الله سبحانه وتعالى فكيف يكون المائز بين (ما لقيصر) و (ما لله)؟ إلا أن يخضع (ما لله) ل(ما لقيصر)!! كما نشاهد ذلك بالفعل في العالم الغربي، حيث إن الكنائس المسيحية خاضعة للحكومات في قوانينها، فإن الحكومات هي التي تضع القوانين كافة، وعلى الكنائس اتباعها. إلا في بعض القوانين الشاذة النادرة مما لا يمكن أن يسمى (ما لله لله). ولذا فإن هذا القانون غير صحيح ونسبته إلى السيد المسيح عليه السلام غير تامة. أنتم أعلم بأمور دنياكم!!

ومثل هذا الكلام ما رواه بعض المسلمين عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث زعموا أنه قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، ولكن: كيف يكون الناس أعلم بأمور دنياهم من الرسول المرتبط بالوحي؟ وكيف كان، فالصحة في الفرد وفي الاجتماع إنما تكون بسلامة (الفرضية الذهنية) من ناحية، وسلامة (النظام المسيطر على المؤسسة الاجتماعية) من ناحية أخرى.

سعة مدلول المؤسسة الاجتماعية

وليس مرادنا بالمؤسسة الاجتماعية علم الاجتماع في مقابل علم الاقتصاد وعلم السياسة وما أشبه بل مرادنا بالمؤسسة الاجتماعية: الاجتماع بالمعنى العام الشامل للاقتصاد والسياسة والتربية والثقافة وغير ذلك من الأمور التي تحكم الاجتماع. تصورات خاطئة

ومن ذلك ظهر أن تصور (أن المؤسسة الاجتماعية بالمعنى الواسع هي الكل في الكل، ولا مجال بعد ذلك للفرضية الذهنية إطلاقاً) تصور غير تام فقول (فرويد) بذلك، بل وتضييق مبعث دائرة المؤسسة الاجتماعية في الجنس فقط، وإن الجنس هو الذي يسير كل شيء من الدين والأخلاق والقانون وغيرها خال من الدليل وكذا قول (ماركس) يمثل ذلك. مع تفاوت أن ماركس يرى حركة المجتمع خاضعة للعامل الاقتصادي تماماً، بينما (فرويد) يبني الاقتصاد على الجنس لا الجنس على الاقتصاد..

وقول ثالث بأن المسير للاجتماع بكل خصوصياته (حب الرئاسة).

وقول رابع بأن المسير (لاقتصاد الخاص) لا الاقتصاد بصورة مطلقة، فالذين يعيشون على الزراعة تسيّر الزراعة حياتهم في كل شؤونها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والعسكرية وغيرها كما في فرعون مصر، حيث إن الزراعة كانت هي الأصل، وبنيت على الزراعة ألوهية فرعون وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية.. الخ. والذين يعيشون على الماء يسيّر الماء حياتهم بكل شؤونها كما في سد مأرب، ولذا لما اتهم السد تفرقوا شيعاً واتهم القانون والدين وكل شيء عندهم... إلى غير ذلك من الأقوال التي يجدها الإنسان في مختلف الكتب.

فكل هذه الأقوال لا دليل عليها، بل الدليل على خلافها، فإن الذي سبب صحة الاجتماع هي (الفرضية) و(المؤسسة الاجتماعية). بمعناها الواسع. وعلى هذا فاللازم أن نجد أصول الأمراض العالمية التي ابتلي العالم بها في هذين الأمرين (الفرضية العقلية) و(المؤسسة الاجتماعية).

وحيث انحرف كلا الأمرين في العالم (انحرفت الفرضية في أكثر العالم، وانحرفت المؤسسة الاجتماعية في كل العالم) نجد أن العالم ابتلي بأمراض لا قبل له بها من الحروب والثورات والأمراض والفقر والجهل والفوضى والعداء والشحناء، وما إلى ذلك.

الاستدلال التنزيه طريق المعرفة

أما معرفة صحة (الفرضية) أو بطلانها، وصحة (النظام الحاكم على المؤسسة الاجتماعية) وبطلانه، فإن ذلك لا يكون إلا بالاستدلال المجرد عن الأهواء، وبالبحث الحر التنزيه، ولذا نجد القرآن الحكيم يبيّن كل أمره سواء في (الفرضيات الذهنية) أو في (الأمر الاجتماعي). بالمعنى الواسع. على الاستدلال.

مثلاً: قال سبحانه وتعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) (البقرة: ٢٥٨).

ف(إبراهيم) (عليه السلام). وهو من الأنبياء العظام. بنى استدلاله مع (نمرود). الذي كان يدعي الألوهية لنفسه. على الاستدلال والاحتجاج، وعندئذ بهت الذي كفر.

ويقول القرآن الحكيم بالنسبة إلى ادعاء المسيحيين ألوهية عيسى المسيح (عليه السلام) أو بنوته لله سبحانه. باعتبار أنه ولد من غير أب.: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (آل عمران: ٥٩ - ٦١)..

فلو كان عيسى إلهاً أو ابن إله لأنه ولد من غير أب لكان آدم أجدر أن يكون إلهاً أو ابن إله، لأنه خلق من غير أب ولا أم، وحيث انقطع المسيحيون في الاستدلال ولجأوا إلى العناد، طرح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عليهم مسألة (المباهلة) والكل يعرف بأن مسألة المباهلة انتهت بانسحاب المسيحيين... فهم قد سقطوا في كلتا المرحلتين: مرحلة (الاحتجاج) ومرحلة (المباهلة) ولذا وافقوا على أن يقدموا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) الجزية.

وهكذا نجد القرآن الحكيم في كل (الفرضيات العقلية). والتي تسمى (أصول الدين). يأتي بالاحتجاج العقلي،

ويقول في قبال المشركين الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (الأنبياء: ٢٢).

ويقول أيضاً: (إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) (المؤمنون: ٩١).

وبالنسبة إلى عصمة الإمام يقول القرآن الكريم: (قال لا ينال عهدي الظالمين) (البقرة: ١٢٤).

في قصة معروفة.. إلى غير ذلك.

بل وحتى في الأمور الأخلاقية والفروع يأتي القرآن الحكيم بالاستدلال، مثلاً: يقول بالنسبة إلى بعض ما كان اليهود يجرّمونه وينسبون تحريمه إلى الأنبياء يقول تعالى: (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (آل عمران ٩٣ - ٩٥).

فإنكم أيها اليهود إذا لم تجدوا هذا الحكم في التوراة فمن أين تأتون به؟ ثم إنه كان حلالاً في شريعة إبراهيم، والحلال باق على حليته حتى يأتي الوحي بحرمته ولما لم يأت الوحي بذلك لأنه لم يكن التحريم موجوداً في التوراة فنسبة التحريم إلى الله سبحانه وتعالى افتراء بحت، وفي آية أخرى: (والله أذن لكم أم على الله تفترون) (يونس: ٥٩).

وعلى أي حال، فتصحيح الفرضيات الباطلة كتصحيح الاجتماعات السقيمة إنما يكون بالبحث الحرّ الخالي عن الهوى والأغراض والشهوات، وعند ذلك يصل الإنسان . بعقله السليم . إلى (الواقعيات) في الفرضيات، وفي الأنظمة التي يجب أن تحكم المؤسسة الاجتماعية، وحينئذٍ يخرج العالم عن المرض إلى الصحة.

مقاييس الصحة والمرض

... وحيث إننا نتوخى التجمع السليم ونريد الابتعاد عن العالم المريض وتبديله إلى عالم صحيح فهنا سؤال يطرح نفسه: وهو أن ميزان الاجتماع ما هو حتى يقاس به الصحة والمرض؟.

والجواب: إن مرض الاجتماع يكون إما بمرض الفرضية، أو بالنقص في الجسم، أو بالنقص في حاجات الجسم. سقم الفرضية

أما مرض الفرضية فهو أن تكون الفرضية غير مطابقة للقواعد العقلية، مثلاً: القاعدة العقلية تقول: (لا يمكن أن يكون الجزء أعظم من الكل) (أو مساوياً له) (أو أن يجتمع النقيضان) (أو أن يرتفعا) (أو أن يجتمع الضدان) (أو أن يرتفع الضدان للذات لا ثالث لهما) (أو يتسلسل الشيء إلى غير النهاية) (أو يكون معلولاً بلا علة) (أو يدور موجودان دوراً مصرحاً) (أو دوراً مضمراً) إلى غيرها من القواعد فإذا رأينا الفرضية مخالفة لمثل هذه القواعد نعرف أن الفرضية مريضة، ومرض الفرضية معناه مرض الروح والفكر والذهن، وقد تقدم أن مرض الروح يسري إلى الجسد ومرض الجسد والروح يسريان إلى الاجتماع، لأن الاجتماع مكون من لبنات إنسانية.

نقص الأعضاء

وأما نقص الجسم، فهو بأن يكون الشخص فاقداً بعض الأعضاء أو القوى أو الألوان، أو لا يستطيع تحريك جسمه تحريكاً معتاداً أو ما أشبهه.

عدم إشباع الحاجات

وأما نقص الحاجات فبأن لا يكون له مأكلاً، أو لا يكون له مأكلاً ملائماً، وهكذا في المسكن والملبس والمركب والمنكح وغير ذلك.

فإذا كان الاجتماع أو الفرد يشتكي من إحدى هذه الأمراض، فإن المجتمع والفرد مريض، ويجب علاجه بإرجاعه إلى الحالة الطبيعية المطابقة للعقل والمطابقة للمعتاد في الخلق.

ظواهر مرضية

وبذلك يظهر، أنه لو نما جسم الإنسان ولم ينم عقله، أو بالعكس، أو لم ينم كل واحد منهما، فهو مريض، مثلاً: لو كان للإنسان البالغ عقلية الطفل ذي السنة، أو كان للطفل عقلية الإنسان البالغ أربعين سنة مثلاً، فإن هذا خارج عن المعتاد ويوجب انحرافاً في صحته.

أما بالنسبة إلى الأطفال الذين هم أنبياء أو أئمة حيث إنهم يتكلمون ويعقلون.

كما قال عيسى (عليه السلام) وهو في المهدي: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً) (مریم: ۳۰ - ۳۲).

إلى غيره فهم وإن لم تنم أجسامهم بعد وكان لهم عقل الإنسان الكامل إلا أن كمال عقولهم لم يكن يسبب تقويض النظام، فإننا نقول: (الجسم غير المكتمل إذا كان فيه عقل مكتمل يكون مريضاً) فيما إذا كانت عقلانية الطفل توجب تقويض النظام، مثلاً: الرضيع ذو العقل الكامل لا يرتضع من الثدي ولا يستعد لأن يجري عليه ما يجري على سائر الأطفال لحنجته وحيائه وهكذا.

أما إذا لم يوجب كمال العقل في الصغير تقويض النظام، فهو من المحاسن لا المساوي، ومن المعجزات أحياناً، إذ أنه أمر خارق للعادة.

تعريف ناقصة

وعلى كل حال، فقول بعض الفلاسفة في تعريف مرضية الاجتماع بأنها (كون المجتمع نظير المجتمع البدائي بعد مرور عشرات الألوف من السنوات على الإنسان) أو (رجوع الإنسان بعد الحضارة إلى البداية)، إنما هو من باب المثال، وإلا فقد عرفت أن الميزان في الصحة والسقم ليس هذا فحسب، وإنما هو كلي ينطبق على هذا المثال وعلى غيره أيضاً.

لا يمكن إرضاء الأهواء

إذاً فالمجتمع السليم هو الذي يعطي حاجات الروح والبدن في نطاق الطاقة الإنسانية والطاقة الكونية، لا في نطاق الهوى والميل، فإن إرضاء الهوى والميل غير ميسور في عالم الدنيا وسرّ أنه غير ميسور: إن الدنيا أضيق من إرضائهما حيث إن الإنسان خلق للآخرة، وإنما الدنيا قنطرة فقط، مثلاً: لا يمكن أن يكون في بلد واحد مائة رئيس جمهورية كما لا يمكن أن ينال الإنسان منتهى أمانيه في العلم بأن يحصل - مثلاً - على مائة شهادة دكتوراه في علوم مختلفة، أو في المادة: بأن يكون كل إنسان صاحب الملايين أو يكون كل إنسان سيداً، إذ الطاقة البدنية تأتي تحصيل مائة شهادة دكتوراه، والمادة ليست بقدر أن يكون كل إنسان صاحب ملايين، والحاجات المتنوعة

للإنسان تأبى تساوي الناس في السيادة، بل هناك حاجة إلى الكناس والعمار والخباز والخدام مهما تدخلت الآلة في حياة الإنسان، فالحاجة إلى هؤلاء كالحاجة إلى العالم والوزير والرئيس والسفير ومن إليهم، وقد أشير في القرآن الحكيم:

أولاً: إلى عدم يسر الأمرين . إعطاء كل حاجات الروح والجسد . بقوله تعالى: (ياخذوا بأحسنها) (الأعراف: ١٤٥).

حيث لا يمكن الأخذ بالكل: الحسِن والأحسن.

وثانياً: إلى لزوم التفاوت بقوله تعالى: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً) (الإسراء: ٢١).

وقال سبحانه: (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) (الزخرف: ٣٢).

الحضارة الحديثة لا تلي الحاجات

ثم إن نظرة واحدة إلى عالم اليوم تفيد عدم إعطائه الحاجات، لا بالنسبة إلى الأمم الفقيرة والمستعمرة (بالفتح) ولا بالنسبة إلى الأمم الغنية والمستعمرة (بالكسر) كالبلاد الغربية في الوقت الحاضر حيث إنها لم تتمكن أن تعطي

للناس حاجاتهم، فهل كل الناس في الغرب يتمكنون أن يصلوا إلى الجامعة ويتخرجوا منها؟

وهل كل الناس في الغرب أغنياء؟

وقد جاء في تقرير على أنه يوجد في أمريكا . زعيمة الرأسمالية والاستعمار في عالم اليوم . أكثر من ثلاثين مليون من الفقراء الذين لا يجدون حتى أوليات العيش إلا بصعوبة بالغة وبمعمونة الجمعيات الخيرية وما أشبه مما لا يناسب

الكرامة الإنسانية، وكذلك جاء في تقرير: إن سبعة ملايين عانس توجد في أمريكا، ومن الواضح أن المرأة التي لا زوج لها . سواء لم تتزوج أصلاً كالعانس أو التي تزوجت ثم ترملت . تعيش في أزمة نفسية شديدة، فهل الدنيا

تمكنت أن تعطي حاجات الإنسان؟

هذا بالإضافة إلى الخوف والقلق المسيطرين على كل العالم مما بيّنه الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في كلمة له في أحوال الجاهلية، حيث قال: (وشعارها الخوف ودثارها السيف)(٥).

فالخوف في باطن الإنسان، والسيف في ظاهره، والسيف في هذا اليوم هو الأسلحة الذرية والنترونية والكيمياوية وغيرها، وأيضاً: فإن أكثر أهل العالم . اليوم . يعيشون في حاجة مستمرة، لا العالم الثالث فحسب، وإنما البلاد

الشيوعية أيضاً كالصين والاتحاد السوفيتي وما أشبه فالناس لا يحصلون فيها على أوليات الحياة.. إلى غير ذلك من الأمثلة.

ومن الواضح، أنه إذا لم تعط حاجات الإنسان تبدل المجتمع إلى مجتمع العدا والبغضاء، وصرفت الخلاقية البنائية في الإنسان إلى خلاقية الهدم، وابتلى الإنسان بالقلق والأمراض، كما نشاهد كل ذلك في عالم اليوم.

علماء.. في خدمة الأنظمة الفاسدة!

والغريب في الأمر أن كثيراً من العلماء الذين يجب عليهم الدفاع عن المجتمع وإرجاعه إلى الصحة يسبغون في ركاب الحكام والسياسيين والرأسماليين وأمثالهم من المنحرفين، فيدافعون عن هؤلاء، لا عن المجتمع، فيظهرون أن المجتمع سليم، وأنه لا يمكن أن يكون أكثر سلامة من هذا الذي نشاهده اليوم! وقد انطبق على هؤلاء العلماء قوله سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (التوبة: ٣٤ - ٣٥).

وفي آية أخرى مثل سبحانه وتعالى الذين يميلون إلى المادة وإلى الحكام ويتركون هدى السماء بعالم كان في بني إسرائيل مال إلى السلطان والمادة وترك الرحمن والحق فقال عنه سبحانه: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون. من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٩).

فمثل هؤلاء الأفراد الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى العلم فأخذوا يخدمون الضلال والانحراف بدل أن يخدموا الرشد والهدى والإنسانية كمثل الكلب فإن الكلب سواء حملت عليه أو تركته يلهث ويلهث..

وهكذا العلماء الذين يلهثون ضد الطبقة المحتاجة والفقيرة والمستعمرة، سواء تكلمت ضدهم أو لم تتكلم ضدهم لأنهم يخدمون السلطان والمادة، وبالنتيجة أمثال هؤلاء العلماء يظلمون أنفسهم لأنهم كذبوا بآيات الله وسلكوا طريق الانحراف وهم غير مهتدين بل ضالون وإضلال الله سبحانه وتعالى لهم عبارة عن تركهم وشأنهم وبعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى إن عاقبة هؤلاء أنهم يصلون إلى النار.

(ولقد ذرأنا لجهنم) واللام للعاقبة يعني: إن عاقبتهم الذهاب إلى النار إذ لهم قلوب لكن لا يستعدون أن يفقهوا بها، ولهم أعين لكن لا يستعدون أن يبصروا بها، ولهم آذان لكن لا يستعدون أن يسمعوها بها، بل يصرفون قلوبهم وتفكيرهم في الدفاع عن الطبقة المستعمرة المستعيلة المستكبرة، ويصرفون أعينهم عن النظر إلى المآسي، كما أنهم يضمنون آذانهم عن سماع أنين البشرية حتى لا يساعدهم.

تبريرات فاشلة

إن قسماً من علماء الغرب نسبوا المشاكل الموجودة في المجتمعات إلى الاختلاف الطبيعي بين الإنسان وبين الاجتماع، فمثلاً (فرويد) يقول: طبيعة الإنسان تقتضي الميول الجنسية. و(ريكارد) يقول: طبيعة الإنسان تقتضي الاقتصاد الرأسمالي. و(دارون) يقول: طبيعة الإنسان من جهة البيئة توجب تنازع البقاء. و(مكيافيلي) يقول: إن

طبيعة السلطة تولد المشكلة والتدافع، وكل هذه الطبايع الموجودة في الأفراد تصادم طبيعة المجتمع مما يسبب المآسي والمشكلات ولهذا لا يمكن رفعها.

هكذا يقولون بينما نرى أن الواقع خلاف ذلك كله فإن الإنسان بفطرته خلق للتعارف لا للتحارب، ولذا قال سبحانه: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) (الروم: ٣٠). وقال في آية أخرى: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات: ١٣). فالفطرة هي التي تقتضي التعارف لا التناكر، والتعاون لا التحارب.

ثم لننظر هل أنه يكون لكل إنسان زوج أو زوجة يستريح إلى إلفه، ودار يسكنها، وعمل محترم يختاره ويدّر عليه معاشه، وحرية معقولة توجب نموه في مختلف الأبعاد؟

وهل لكل إنسان إمكانية التعليم إلى حيث يريد من مراتب العلم الراقية، ومركب يليق به وتكافل اجتماعي لأحوال ضعفه وشيخوخته، وإمكانية العلاج إبان مرضه، وأمن يستريح بسببه عن القلق؟ وهل إرادته محترمة في انتخاب من يشاء من الرؤساء؟.

إلى غير ذلك من سائر شؤونه؟ وهل اكتمال هذه الأمور يناهز الحالة الفردية أو الحالة الاجتماعية؟ إن الجواب سلبياً طبعاً.

وعليه فالذي سبب مشكلة الإنسان هو انحراف (التفكير) و(النظام) الذي وضعه العلماء المغرضون والساسة المنحرفون إرضاءً لشهواتهم الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو ما أشبه ذلك.

إذاً فالمشكلة ليست وليدة التدافع بين الفرد والاجتماع، بل هي وليدة التفكير والنظام الفاسد، ولذا نشاهد أنه كلما كان التفكير والنظام أقرب إلى الإستقامة في مجتمع كان المجتمع أقرب إلى السلامة، أما إذا كان التفكير والنظام سليماً مطلقاً كما كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزمان علي عليه الصلاة والسلام، فترى أنه لم تكن هناك مشكلة. وإن كانت هناك مشكلة حروب يشعلها المنحرفون من الكفار، أو المنحرفون من المسلمين، كما حدث القسم الأول في أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والقسم الثاني في أيام علي عليه الصلاة والسلام..

نعم لا شك أن مشاكل الأمم تختلف زيادة ونقصاً، فمشاكل البلاد التي لا تعيش تحت الاستعمار ولا تحت الأنظمة الدكتاتورية البحتة أقل من مشاكل البلاد التي يسيطر عليها المستعمرون، ولذا نشاهد أن مشاكل الغرب أقل من مشاكل العالم الثالث والعالم الشيوعي، حيث إن هذين العالمين تغمرها المشاكل التي لا قبل للبشرية بها. ثم إنه يمكن أن يوجه إلى القائلين بالتناقض بين الفرد والاجتماع السؤال التالي: هل الاجتماع في ضرر الفرد، أو في نفعه؟

لا شك أن الاجتماع في نفع الفرد، ولكن نظرية التناقض تعطي عكس ذلك، نعم لا ريب في أن نشاط الفرد يحدّ في الاجتماع بقدر استفادته من الاجتماع، وهذا غير أن يكون الاجتماع ضاراً للفرد لحصول التناقض بين الفرد والاجتماع.

وعلى كل حال، فليست الكلية في أحد الجانبين . سواء جانب الفرد إلى الاجتماع أو جانب الاجتماع إلى الفرد

..

- ١ . وسائل الشيعة: ج ١١ ، ص ٢٩٦ .
- ٢ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٤٥، دار المعرفة - بيروت .
- ٣ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ١٣، دالر إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٤ . نفس المصدر ص ١٤ .
- ٥ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ١، ص ١٥٧، دار المعرفة - بيروت .

تفاعل العوامل المؤثرة في المجتمع

الأسلوب الاجتماعي

ثم إن (الأسلوب الاجتماعي) عبارة عن حالة في الاجتماع ترى في أفرادها، وتختلف تلك الحالة في أفراد اجتماع آخر، ويكون ذلك الأسلوب وليد خصائص معينة، كما أن ذلك الأسلوب يوجب آثاراً خاصة. مثلاً: العقيدة المعينة، والثقافة الخاصة، والأخلاق الخاصة، والعوامل السياسية والاقتصادية. من زراعة وصناعة وغيرها. كل هذه الأمور. متفاعلة بعضها في بعض. تولد أسلوباً خاصاً في الاجتماع وهذا الأسلوب يكون غالباً ذا ثبات ودوام نسبي، وإن كان يطرأ عليه التغيير في مدد طويلة بسبب تغير مبناه.

وكل فرد في المجتمع إنما يعمل في نطاق ذلك الأسلوب في كل شؤونه، تاركاً الأسلوب الذي يريده لنفسه في كثير من الأحيان، وإلا كان (شاذاً). وإن كان (الشذوذ) قد يكون صحيحاً بنفسه لأن الاجتماع اجتماع منحرف، إذ الشذوذ معناه الانفراد بأعمال خاصة، والانفراد الذي يسمى بالشذوذ متعاكس مع الأسلوب العام للاجتماع، وإن كان الأسلوب العام للاجتماع صحيحاً كان الشذوذ غير صحيح، إذا لم يكن منحرفاً في جهة أخرى.

مكونات الأسلوب الاجتماعي

والأسلوب دائماً يكون مزيجاً من تفاعل متطلبات الفطرة والعقيدة والحاجة والاقتصاد وما أشبه، فمثلاً: فطرة الحرية والاعتقاد بوحدة الأله، والحاجة إلى الكساء والزواج والمسكن والاقتصاد الزراعي أو التجاري أو الصناعي.. هذه الأمور كلها تتفاعل بعضها مع بعض حتى تعطي أسلوباً خاصاً للاجتماع، وعلى وفق ذلك التفاعل توضع القوانين والأعراف والعادات، حتى أن القوانين السماوية إنما وضعت على طبق ذلك التفاعل الذي يكون بين الفطرة والعقيدة والحاجة والاقتصاد وما إلى ذلك، فلا فرق في وضع القوانين من هذه الجهة بين أن يكون الواضع هو الله سبحانه وتعالى، أو يكون الواضع هو الإنسان. بعد وضوح أن قانون الله كامل وقانون الإنسان ناقص. ومن غير فرق في وضع الإنسان بين أن يكون الواضع فرداً دكتاتوراً، أو جماعة من الأشراف، أو الشعب بكامله.

(انحياز البنى) يعني انحياز الأسلوب الاجتماعي

وعلى أي حال، فإذا تغيرت العقيدة أو الاقتصاد. مثلاً. أخذ الأسلوب الاجتماعي في الانحياز لبنى أسلوباً آخر من جديد وفق تفاعل جديد بين العوامل المؤثرة للاجتماع.

مثلاً: إذا انحرفت عقيدة التوحيد إلى العقيدة بالطبيعة، أو تحول الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي، أو غير ذلك.. اختلف الأسلوب الاجتماعي بسبب ذلك. فمثلاً: روسيا القيصرية في أيام عقيدتها بالمسيحية كان لها أسلوب خاص من الحياة، ثم لما تحولت عقيدتها إلى العقيدة الشيعية الطبيعية كان لها أسلوب آخر من الحياة، والغرب لما كان الاقتصاد الزراعي محكماً فيه كان له أسلوب خاص وليد من مزيج من العقيدة بالكنيسة والاحتياج إلى الزراعة، وتحول متطلبات الحياة في تلك البلاد من الزراعة إلى الصناعة تحول الأسلوب الخاص، وإن كانت العقيدة المسيحية باقية.

(الأنماط السلوكية) حلقة الوصل

ثم إن (الأسلوب الاجتماعي) يوصله الآباء إلى الأبناء عن طريق (النمط السلوكي) الذي يراه الأبناء من آباءهم، فإن (أنماط السلوك) تصوغ ذهنية وأعمال الأبناء وفق النمط الذي يسلكه الآباء، كما يصاغ من طريق التعليم الشفوي ضمن النصائح والقصص والصدقات والعداوات طرق معالجة الأمور.. إلى غير ذلك من الأمور التي تسبب نقل الأسلوب الاجتماعي من قبل الآباء إلى الأبناء.

النموذج الأول؛ محورية المادة:

مثلاً: الغرب يرى أن المحور هو (المادة) فكلما يجلب المادة فهو أمر قانوني وإن كان بسبب الربا، والاحتكار، وفتح المواخير، وتجارة الأفيون، وصنع السلاح، والاستعمار، والإبادة الجماعية للشعوب، وغير ذلك.. بينما الإسلام يرى أن المحور هو (الإنسان) فكل ما يسعده هو القانون اللازم الاتباع، ولذا فكل تلك الأمور (القانونية) في الغرب المادي خلاف (القانون) في المنطق الإسلامي.

النموذج الثاني؛ فصل الدين عن الدنيا:

مثال آخر: المسيحية الحالية تقول: (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) فكل أمر مرتبط بالعبادة والكنيسة مرتبط بالله. من صلاة ودعاء، وقراءة الإنجيل وما أشبهه. أما الأمور الدنيوية فكلها يجب أن تكون برضى (قيصر) وحسب قوانينه، بينما الإسلام يرى ما ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم: (إن الحكم إلا لله) (الأنعام: ٥٧) (يوسف: ٦٧).

(ألا له الخلق والأمر) (يوسف: ٤٠).

فالحكم يجب أن يكون صادراً عن الله سبحانه وتعالى، وليس لأحد من الأمة أو للدكتاتور أو للأشراف أو للشعب حق وضع القوانين، بل يلزم أن يؤطر عمل الإنسان برضى الله سبحانه وتعالى وبقوانينه، لا برضى قيصر وقوانين قيصر، ومن الواضح الفرق الشاسع بين القوانين التي يضعها قيصر، سواء قيصر الفردي أو الاشرافي أو الشعبي، والقوانين التي وضعت من قبل الله سبحانه وتعالى.

النموذج الثالث؛ دكتاتورية الأنظمة:

وهكذا. في مثال ثالث. نرى أن العالم الشيوعي يرى الدكتاتورية في الحكم، أي جمع رأس المال والسلطة بيد إنسان واحد أو جماعة واحدة وهو الحزب الشيوعي مثلاً (وإنما قلنا بيد إنسان واحد أو جماعة لأن من طبيعة الدكتاتورية جمع القدرات إلى أن تصل إلى القمة كما حدث في أيام ستالين).

وعليه: فكل قانون يوضع في البلاد الشيوعية فإنما يصدر عن هذا المنطلق أي منطلق الدكتاتور سواء كان فرداً أو حزباً، بينما الإسلام يرى لزوم ملاحظة حرية الإنسان في كل قانون يوضع طبقاً لقوله سبحانه: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (الأعراف: ١٥٧).

ولقول علي عليه الصلاة والسلام: (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً) (١).

والقانون: (الناس مسلطون على أموالهم)(٢) فأى قانون يوضع ضد هذه الحرية فهو باطل في نظر الإسلام، بينما هو صحيح في نظر الشيوعية.

وحيث إن من المعلوم أن: (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة)(٣). هو المحكم في كل الأمور، فليس مرادنا بوضع القانون في الإسلام . الذي يجب أن يكون مطابقاً للحرية . وضع القوانين الأصولية، وإنما مرادنا تطبيق القوانين الكلية في الإسلام على الصغريات الخارجية، فإن التطبيق بالنسبة إلى الصغريات المنافية للحرية غير جائز، بينما التطبيق على الصغريات الملائمة للحرية جائز في الشريعة الإسلامية. مثلاً: لو كانت المصلحة الاجتماعية في (رخص البضاعة) وأمكن ذلك بطريق تسعير الحاكم للبضاعة مما يسلب التاجر حرته، وبطريق استيراد الحاكم البضاعة وبيعها رخيصة مما يفتح أبواب التنافس الحر فيرخص التاجر بضاعته لم يجز للحاكم سلوك الطريق الأول، لأن ذلك خلاف قانون: (الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم) وإنما الواجب عليه سلوك الطريق الثاني حيث إن الطريق الثاني لا يوجب سلب التاجر حرته في التسعير .

وفي مثالٍ ثانٍ: إذا اضطر الحاكم إلى جعل قانون ينافي حرية الناس المالية أو البدنية، وكانت هناك صغريان: صغرى تعطي ضغطاً أقل للمال أو للنفس، وصغرى تعطي ضغطاً أكثر فاللازم وضع القانون الذي يعطي الضغط الأقل لأن: (الضرورات تقدر بقدرها) فإن قانوناً يزيد في سلب الناس حرياتهم لا يوضع في وقت يمكن فيه الأقل من ذلك.. وهكذا في سائر القوانين التي توضع بالنسبة إلى تطبيق الكبريات على الصغريات، ولذا ذكرنا في كتبنا (السياسة) أن البرلمان الذي يسمى في الغرب السلطة التشريعية لا يمتلك عندنا سلطة (التشريع) بل له قدرة (التطبيق والتأطير) أي أن للبرلمان الحق في تطبيق القوانين الإسلامية على الصغريات الخارجية مع ملاحظة (الأسهل فالأسهل) و(الأكثر حرية فالأكثر حرية) و(الأهم فالمهم) وهكذا.. بينما في الغرب ونحوه يكون للبرلمان الحق في تشريع القوانين، لأنهم يقولون: (دع ما لقيصر لقيصر) فالقوانين الأرضية كلها تابعة لقيصر ولا تتبع السماء.

أما في الشيوعية فالأمر أفضح حيث إنهم لا يعترفون بالإله إطلاقاً فليس عندهم بند (دع ما لله لله) وإنما كل منطقتهم يتلخص في أنك يجب أن تكون تابعاً لقيصر في كل ما يقول ويعمل ويضع.. فهناك . إذاً . فرق ظاهر بين هذه الأنظمة الثلاثة: (إن القانون كله لله) (إن القانون بعضه لله وبعضه للناس) (إن القانون كله للدكتاتور).

تأثير الأنماط الفكرية في حياة الإنسان

ومن الواضح: إن هذه الأنماط الفكرية والعملية تؤثر في حياة الناس وأسلوب عيشتهم، فالاقتصاد في منطق الإسلام هو في خدمة الإنسان لأن (الإنسان) هو المحور، بينما صار الإنسان في النظام الغربي والشرقي في خدمة الاقتصاد.

كما أن العلم والعلماء في المنطق الإسلامي في خدمة الإنسان بينما هم في الشرق والغرب في خدمة الاقتصاد . الذي أصبحت أزمته بيد الرأسماليين سواء من التجار كما في الغرب أو من الحكام كما في الشرق . ولذا حرم

الإسلام كل اقتصاد وكل علم يضر الإنسان، بينما أباحهما الغرب والشرق، حيث يدّران المال الوفير للرأسماليين الغربيين والشرقيين، مثلاً: الإسلام يحرم . بالنسبة إلى العلم . السحر والشعوذة والغناء والقيافة والكهانة وكتب الضلال وما أشبهه، كما أن الإسلام . بالنسبة إلى الاقتصاد . يحرم الربا والاحتكار وصنع المواد الضارة والأسلحة المدمرة على الأسلوب الغربي، بينما الغرب والشرق يبيحون كل ذلك، بل ويجعلون الأنظمة والقوانين التي تدعم كل هذه الأمور .

مستلزمات الرفاه العام

وإذا كان (الإنسان) هو المحور، والعلم والعلماء والاقتصاد وسائر الأمور في خدمة هذا المحور تكون نتيجة أعمال الإنسان الاقتصادية كافية لكل البشر بحيث يعيش الكل في رفاه وسعادة واكتفاء، لكن ذلك بحاجة إلى أمرين: الأول: عدالة القانون:

القانون العادل الذي يعطي نتيجة عمل كل إنسان له، ويبيح له الاستفادة من خيرات الأرض، كما قرر ذلك الإسلام حيث قال سبحانه: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم: ٣٩). وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من سبق إلى فهو أحق به يومه وليله)(٤). الثاني: نزاهة الحكام:

أي أن يكون إجراء القانون بيد العدول من الأمة كما قرره الإسلام أيضاً، حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (اللهم ارحم خلفائي، قيل: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي)(٥).

وفي الأحاديث: لزوم أن يكون الحاكم . أو الحكام في شورى المراجع . عدولاً، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه)(٦).

جور القوانين الأرضية

بينما نشاهد في القوانين الأرضية . سواء في السابق أو في الحال . ظواهر معاكسة..

منها: إن القانون منحرف، حيث إن القانون لا يعطي نتيجة عمل كل إنسان له، ففي القانون الغربي تُعطى أكثر النتائج للرأسماليين من التجار ومن إليهم، وفي القانون الشرقي تعطى أكثر النتائج للحكام، بينما يعيش الناس في فقر مدقع وسوء تغذية وما إلى ذلك.

الحكام يتلاعبون بالقوانين

وأما بالنسبة إلى الحكام فحيث لا يشترط الديمقراطيون والشيوعيون في الحكام (العدالة) والخوف من الله سبحانه وتعالى يكون القانون أيضاً ألعوبة بيد الحكام حتى إذا فرض أن في القانون شيئاً من العدالة، فإن الحكام لا يطبقون تلك العدالة الموجودة في القانون ولو بقدر ضئيل.

ففي السابق كانت القدرة المباشرة من الحكام تحول دون توزيع البضائع الاستهلاكية وسائر الحاجيات توزيعاً عادلاً، فبينما كان للحكام مئات المقاطعات وألوف الزوجات كان كثير من الناس يعيشون في جوع وفقر وعري وليس لهم حتى زوجة واحدة..

أما في الوقت الحاضر فإن القدرة غير المباشرة . الموجودة بيد الحكام والمغلطة بستار (قانوني) من الرأسمالية والشيوعية . تعمل من وراء الكواليس نفس العمل السابق وتخلق بين الطبقات فجوة سحيقة، فيعيش حفنة من الناس في ببحوحة من الرفاه والعيش الرغيد إلى حد التخمرة في كل شيء بينما يعيش أكثرية الناس في أحضان الفقر والمرض والجهل والتأخر والتخلف وعدم التملك حتى لأوليات الحياة . مثل المأكل والمشرب والمسكن والمنكح والمركب والرفاه والتعليم والأمن والصحة وما أشبه ..

وهكذا تظهر النتائج بين جعل (الإنسان) هو المحور وبين جعل (المادة) هي المحور.

بين الإسلام والأنظمة البشرية

وهذه الأمور الثلاثة . وهي (مخورية الإنسان أو المادة) و(استقامة القانون أو انحرافه) و(عدالة الحاكم أو جوره) تؤثر . بالنتيجة . الأثر البالغ في إعطاء الحاجيات لكل البشر أو عدمه .

وقد وضع الإسلام القوانين الصحيحة الكفيلة بتوفير كل هذه الأمور، بينما انخرقت كل هذه الثلاثة في الغرب والشرق مما أدى إلى ضرر الإنسان وشره مع تفاوت أن الشرق أسوأ من الغرب، حيث إن بعض الحرية الموجودة في الغرب، وبعض القوانين التي تسهل لعامة الشعب الحصول على شيء من لقمة العيش غير موجودة في الشرق . المضاعفات الخطيرة لمخورية المادة

وقد أوجبت مخورية المادة آثاراً سيئة بالإضافة إلى عدم حصول الإنسان على لقمة العيش . فمن تلك الآثار:

١ . الاستعمار: وذلك لإرضاء الجشع الرأسمالي الذي وظّف نفسه في سبيل فتح الأسواق في العالم بهدف تحصيل المواد الأولية بأرخص القيم وبتصدير أكبر قدر من المصنوعات بأعلى الأثمان، حتى أن بعض الإحصاءات تدل على أن الفرق بين المادة البسيطة وبين المادة المصنوعة يصل أحياناً إلى أكثر من خمسمائة ضعف!

٢ . فقدان الحريات: فإن الغرب يزعم أنه عالم حر، إلا أن الحرية عندهم في الواقع ثوب مهلهل على جسد الدكتاتورية، فإن القوانين هي التي تجعل شروط العمل وقدر الأجر وساعات العمل وما أشبه، كل ذلك على نحو أمور مسبقه بحيث تضر بالاجتماع وملزمة لمن يريد العمل من العامل والفلاح والموظف وغير ذلك من ذوي الدخل المحدود ولا مجال لهم للتخلص من هذه القوانين وإن زعم هؤلاء . (لبساطة في تفسيرهم للأمور) . بأنهم أحرار بينما هم (في الواقع) ليسوا بأحرار، حتى أن النقابات التي يشكلها العمال هي الأخرى لا فائدة كبيرة فيها، حيث إن القوانين التي يمتلك أزمتهما الرأسماليون على ما ذكرنا تفصيله في كتاب (الفقه السياسي) تكون لصالح الرأسماليين على طول الخط، سواء الرأسماليون الحكوميون كما في الشرق أو الرأسماليون التجاري كنا في الغرب.

٣ . تحطيم القيم: حيث إن محورية (المادة) تجعل كل شيء فداءً لها، بالإضافة إلى أن التنافس لجمع أكبر قدر من المادة يسبب إزالة كل عائق عن طريق سير المادة إلى الأمام، ومن الواضح أن الدين والأخلاق والعائلة والفضيلة وما أشبه من عوائق التقدم العشوائي للمادة، فمثلاً:

الدين والأخلاق والفضيلة تحرم قتل الناس وصنع السلاح لأجل التجارة من غير ملاحظة الموازين الدينية والأخلاقية وإشاعة الفحشاء والمنكر وإباحة الخمر والميسر والهروئين وما أشبهه، لكن المادة الحاكمة على هذه الأمور تكسح من طريقها كل ذلك، كما أن العائلة تحرم الفحشاء والمنكر وما أشبهه من الأعمال الجنسية المشينة لأنها ضد كيان العائلة، فالعائلة عبارة عن الوحدة المحافظة الشريفة، بينما الفحشاء والمنكر والبغاء وما أشبه كلها على خلاف ذلك، حيث عن طريق المادة تُفْتَحُ المواخير ومحلات الشذوذ الجنسي وما أشبهه مما يسبب هدم العوائل:

أولاً: من حيث التصادم بينها.

وثانياً: من حيث أن أولاد العوائل وبنات العوائل ينزلقون . بسبب هذه الأمور . إلى مهاوي الرذيلة والفساد.

بحوث حول الاكتساب

إن الإنسان لا حق له إلا:

١ . في عمله الجسمي .

٢ . وفي عمله الفكري، بشرط أن يكونا على الطريقة المحللة، أي أن يكون العمل والفكر حلالاً، وأن يكون متعلق العمل والفكر حلالاً أيضاً.

٣ . وإلا في مقدار ما يرث، مع ملاحظة أن يكون المورث قد حصل المال من الحلال من جهة العمل والفكر ومن جهة متعلقيهما.

وبعد ذلك يلزم على الإنسان الذي يكتسب . فكراً أو جسدياً . أن يلاحظ:

أولاً: عدم الإجحاف بالآخرين:

لأن الإجحاف محرم في شريعة الإسلام تبعاً لشريعة العقل .

وثانياً: عدم عمله في أجواء إكراهية:

لأن الإكراه الأجوائي كالإكراه الفردي كلاهما محرمان، فلا فرق بين أن يكره الإنسان عاملاً على أن يعمل في داره بقدر كذا، أو أن يهين أجواءً يكون العامل مكرهاً فيها على أن يعمل ذلك العمل بنفس تلك الأجرة.

وثالثاً: عدم استغلال الآخرين المعاصرين له بأن يأخذ أكثر مما يستحق.

ورابعاً: عدم تضييع حقوق الأجيال الآتية.

مثلاً: المعادن المودعة تحت الأرض إنما هي حق الأجيال الحاضرة والآتية، كل بقدر أن يعيش عيشاً متوسطاً بلا تقتير ولا تبذير، فإذا أخذ هذا الجيل من المعادن أكثر من حقه . بقدر الإسراف والتبذير . كان معنى ذلك أنه أتلف حق الأجيال الآتية.

وخامساً: عدم الاستفادة الضارة

مثلاً: إذا كان مائة صياد على شاطئ البحر، يحصل كل واحد من البحر مقدار قوت يومه من الأسماك لم يحق لأحد الصيادين أن يسبق إلى البحر ويأخذ قوت نفرين أو ثلاثة أشخاص، مما يوجب أن يبقى الآخرون جائعين، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الخيرات للكل، فاللازم أن يستفيد الكل، لا أن يستفيد البعض ولا يستفيد البعض الآخر، قال سبحانه: (خلق لكم) فالكون للجميع لا للبعض فهو (لكم) لا (له).

وعن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: (ما رأيت نعمة موفورة إلا والى جانبها حق مضيع).

والمراد ب(الموفورة) ليست الوفرة بمعنى العيش الرغيد، بل بمعنى الأكثر من الحق حتى يكون في قبالة الحق المضيع.

كيف تكون الخيرات للجميع؟

وإذا لوحظت كل هذه الأمور الخمسة . بالإضافة إلى ما ذكرناه من أن للإنسان الحق في العمل الفكري والجسدي والإرث . كل ذلك بشرط الحلية . لم يبق هناك محتاج، سواء في المسكن أو الملبس أو المركب أو الزوجة أو الزوج أو غير ذلك، كما لم يبق رأسمالي واحد على الأسلوب الغربي، أو على الأسلوب الشرقي، وإنما تكون الخيرات للجميع، وغن كان هنالك تفاوت حسب تفاوت الكفاءات، فبعضهم يكتسب كثيراً لقوته الجسدية أو لفطنته الفكرية، وبعضهم يكتسب قليلاً لضعفه الجسدي أو لعدم تفوقه الفكري، لكن هذا الفرق لا يوجب الفجوة الطباقية الهائلة التي تشاهد في عالم اليوم، مما انتج أن اقل من ربع العالم يعيشون عيشة رفاه أو عيشة رغد، بينما بقية أهل العالم لا يجدون حتى الأوليات.

١ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٣، ص ٥١، دار المعرفة . بيروت.

٢ . بحار الأنوار: ج ٢، ص ٢٧٢، دار المعارف . بيروت.

٣ . المصدر السابق: ج ٢٦، ص ٣٥.

٤ . وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٥٤٢، دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٥ . المصدر السابق: ج ١٨، ص ٦٥.

٦ . بحار الأنوار: ج ٢، ص ٨٨، دار المعارف . بيروت.

محورية المادة في الاقتصاد العالمي

الموازنة بين السعي والريح

هناك سؤال ملح، وهو: لماذا يأخذ الرأسمالي والطبيب ونحوهما أكثر من حقه، بينما اللازم أن يكون المال بقدر سعي الإنسان الجسدي والفكري بالإضافة إلى الإرث، كما ذكرناه، فيما تقدم؟
الرأسماليون يجيبون

هناك أجوبة أعدها الرأسماليون ومن إليهم للتخلص من هذا السؤال.

مثلاً: يقولون لأن الرأسمالي عرض رأسماله للخطر، والإنسان الذي خاطر بماله يجب أن يأخذ في قبالة شيئاً. ويقولون: لأن الرأسمالي قد زهد في أكله وشربه وما أشبه قبل ثرائه، وتعب ليل نهار حتى تمكن من جمع هذا المال، فاللازم أن يكون الريح له في قبالة أتعابه وقناعاته السابقة في مأكله ومشربه وما إلى ذلك.

ويقولون: لأن المال عمل متراكم، فالريح في قبالة العمل، وليس الريح اعتباراً.

ويقولون: لأن المعمل الذي يملكه الرأسمالي يستهلك بالعمل، فاللازم أن يعطي من الريح في قبالة الاستهلاك.

ويقولون: لأن المال بحاجة إلى مخزون كبير للمصارف الثقيلة، وإلا فمن بيني المطارات والمستشفيات وغير ذلك مما يحتاج إلى الأموال الكبيرة؟ فاللازم أن يكون للمال مخزون كبير بيد الرأسماليين حتى يتمكنوا من قضاء الحاجات التي هي حاجات لكل الناس وتستفيد منها الطبقات السفلى كما تستفيد منها الطبقات العليا.

وبشأن الطبيب ونحوه يقولون: لأنه استهلك ما مضى من عمره. عشرين سنة أو أكثر أو أقل. في التعلّم، وأتعب نفسه، وأسهر ليله وأجهد نهاره، حتى صار طبيباً ينفع الناس، فله أن يأخذ أموالاً ضخمة من المراجعين ليكون كفاءً ووفاءً لما فاته من عمره.

ردود

لكن هذه الأعدار غير وجيهة لوضوح الأجوبة عنها.

فالجواب عن الأول: إنه لا خطر بعد التأمين (أولاً).

وإنه إذا كان المعيار (الخطر) فلماذا لا نرى مثل ذلك الخطر للعامل الذي يعمل في المنجم الذي هو أخطر على جسمه من الخطر على رأس المال للثري؟.

وأبي الخطرين أكبر: خطر أن يموت الإنسان أو خطر أن يخسر ماله؟ (ثانياً).

وعن الثاني أن يقال: إن للرأسمالي الحق في أن يأخذ بقدر ما فاته، بينما نشاهد أن الرأسمالي يأخذ أكثر وأكثر وأحياناً تصل الزيادة إلى ألوف الأضعاف، إذا لم تكن ملايين الأضعاف.

وعن الثالث أن يقال: إن له أن يأخذ بقدر حق العمل الذي تجسّد في المال، لا أن يكون له الأكثر من ذلك، صحيح أن المال عمل متراكم، لكن: كم للعمل من المقابل؟ هل هو هذا المقابل الهائل الذي يستفيدة الرأسمالي ويأخذه من العمال ومن إليهم؟

وعن الرابع: إن حق العمل إنما هو بقدر استهلاكه لا أكثر من ذلك، بينما نشاهد أن الرأسمالي يستولي على ما يربو. ألوف المرات. على قدر الاستهلاك (ولا مانع) من أن يأخذ بقدر استهلاك المعمل مثلاً: قيمة المعمل مائة ألف دينار فيكون للشري الحق في أن يأخذ بقدر مائة ألف دينار إلى زمان وفاته، أما أن يأخذ الرأسمالي الملايين من الدنانير، فإن ذلك خارج عن نطاق الاستهلاك.

وعن الخامس: إنه إذا صح الاحتياج إلى المخزون فلماذا يكون المخزون لجماعة خاصة من الرأسماليين سواء من الرأسماليين الشرقيين وهي الحكومة، أم الرأسماليين الغربيين وهم التجار، ولماذا لا يكون المخزون مشتركاً بين الجميع؟ فالدليل لا يفي بالمقصود، فإن المقصود أن يكون هنالك مخزون، وهذا صحيح، أما أن يكون المخزون للرأسماليين فحسب دون كل الناس فهذا غير صحيح، فاللازم أن يعطى لكل إنسان حقه، وهذه الحقوق تتجمع، وتتجمعها يكون المخزون الذي يعطى الحاجيات الكبيرة.

وعن السادس أولاً: إنه إذا صح قول الطبيب، فلماذا لا يكون للمعلم مثل الطبيب، مع أنه أيضاً قد استهلك وقته؟ وكذلك: لماذا لا يكون ذلك لموظف الدولة وهو أيضاً قد درس وتخرج من الجامعة؟ وثانياً: ما تقدم من أن للإنسان أن يأخذ بقدر ما استهلك من وقته لا أكثر، وهل الطبيب ونحوه يأخذون بقدر ما استهلكوا من أوقاتهم؟

والواقع أن الطبيب إنما يأخذ كثيراً لأمرين:

أحدهما: أمر ترسبي، وثانيهما: أمر مستجد.

أما الأول: فإن الأطباء كانوا قليلين في السابق، ولكثرة الاحتياج إليهم كانوا يتقاضون من واقع أجورهم. حسب قانون العرض والطلب. وهذا الأمر باق إلى الآن، وقد اعتاد الناس على ذلك، فالأطباء لا يستعدون للتنازل عما اعتادوا عليه مثلاً: عملية جراحية تستغرق ساعة يتقاضى الطبيب في قبالتها أجر مائة دينار، بينما غاية الأمر أن يكون للساعة أجر دينار مثلاً.

أما الحالة الترسيبية الباقية من العادات والتقاليد فهي التي تعطي للطبيب الحق في أن يأخذ مائة دينار، وقد أخذ الناس يتململون من هذا الشيء، وأخذت بعض البلاد التي تسمي نفسها ب(الاشتراكية) تقف دون هذا الشيء. لكن وقوفاً تفريطياً في مقابل إفراط الأطباء الرأسماليين. فجعلت الطب مؤمماً، بينما التأميم أيضاً غير صحيح، وإنما الصحيح أن يكون الطبيب حراً في عمله لكنه يتقاضى بقدر أجره لا أكثر من ذلك.

والأمر الثاني المستجد: هو قلة الأطباء في كثير من البلدان في الوقت الحاضر مما سبب أن يكون عرض الطبيب قليلاً وطلب المرضى كثيراً، ومن الطبيعي أنه إذا قل العرض وزاد الطلب ترتفع القيمة، وهذا غير صحيح أيضاً، إذ قلة العرض وكثرة الطلب لا توجب أن يأخذ الإنسان أكثر من قدر حقه، لكن هذا هو الشيء الموجود فعلاً، ويجب معالجة الأمرين ومعالجتهما إنما تكون بالأخلاقيات الاجتماعية العمومية، ونسف التقاليد والعادات التي. وإن ذهبت مبرراتها لكنها. ظلت باقية.

ضرورة تحديد رأس المال

ثم إن ترك (رأس المال) يفعل ما يشاء على حساب الآخرين حاله حال ترك (الجاه) يعمل ما يشاء على حساب الآخرين، فإن الجاه يجب أن يكون موزعاً بين الجميع، كل بقدره، كما أن الثروة يجب أن تكون موزعة على الجميع كل بقدر حقه، وهما (المال والجاه). إن تركا. لم يعودا يعرفان حداً للوقوف، فإن هناك فرقاً بين الأمور الجسمية والأمور غير الجسمية، فالأمور الجسمية. كالأكل والزوجة والشرب واللباس وما أشبه. لها حد تقف عنده لأن الجسم لا يتحمل أكثر من ذلك، مثلاً: الإنسان لا يستطيع أن يأكل في اليوم مائة كيلو غراماً من الطعام والشراب، وجسمه لا يتحمل أن يلبس مثلاً عشرين ثوباً وهكذا... فالجسم هو الذي يحول دون تكديس هذه الأمور، وإن كان المترفون يفعلون ذلك أحياناً، مثلاً: يحكى عن أحد الحكام العباسيين أنه كان له أربعة ملايين من الملابس، وهكذا حاكم آخر كانت له أربعة آلاف من الجواربي، وإلى غير ذلك.. إلا أن الغالب أن الإنسان لا يتحمل بالنسبة إلى الأمور الجسمية أكثر من طاقة الجسم الاستهلاكية.

أما الأمور غير الجسمية فلا حد يقف لها، وهي ممتدة امتداداً كبيراً، فالإنسان ذو الثروة يريد صبّ كل ثروات الدنيا في كيسه والإنسان ذو الجاه يريد تكديس كل أقسام الجاه حول نفسه، ولذا وردت أحاديث كثيرة في هذا الشيء، مثل قولهم عليهم الصلاة والسلام: (ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها بأضر في دين المسلم من حب الرئاسة)(١).

فاللزام أن يقف الاجتماع بقوانينه الصحيحة دون تمكن فرد أو جماعة من الناس من استقطاب الأموال والثروات، ومن استقطاب الجاه والمنصب والرفعة الاعتبارية.

هذا بالإضافة إلى أن في إطلاق الثروة. التي تتقدم وتتقدم على حساب الآخرين. ضرراً أخلاقياً كبيراً فإنه لا وجه لأن يعيش إنسان في غاية الرفاه، بينما ألوف الناس يعيشون عيشة فقر وذل وليست لهم حتى الأوليات، ومن الواضح أن المجتمع الذي يدوس على الأخلاق مجتمع يؤذن بالفناء، وقد قال الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

حيث إن الروابط بين الناس إنما هي روابط أخلاقية. من التعاون والحب والمشاركة الوجدانية وما أشبه. وكل شيء يضر بهذه الأمور الأخلاقية ويبيث على العدا والبغضاء وتباعد الطبقات بعضها عن بعض وغضب هؤلاء على هؤلاء، وهؤلاء على هؤلاء ينتهي أخيراً إلى تحطيم وتفسخ الاجتماع، مما يتضرر بذلك الكل، من غير فرق بين الأغنياء وبين الفقراء.

العمال بين الإقطاع والرأسمالية والشيوعية

وحيث كان الفلاحون مرتبطين بالإقطاعي كان الالتزام متقابلاً فان المالك كان يستثمر تعب الفلاح، لكن الفلاح في قبال ذلك كان يتمتع بحماية المالك وتسهيل المالك شؤون الحياة له، وإن كان (الإقطاع) بهذا المعنى غير صحيح في نظر العقل والشرع على ما ذكر تفصيله في الكتب المعنية بالشؤون الاقتصادية.

أما في الرأسمالية العالمية في الوقت الحاضر فالرأسمالي يستغل العمال في قبال أجر مجرد بدون التزام بالدفاع وتهيئة وسائل الحياة.

ووجه عدم استقامة كلتا المعاملتين: إن الفلاح في القسم الأول كان مجبوراً لأنه كان مرتبطاً بالأرض ولا إرادة له من نفسه، وكانت الاستفادة الأكثر للمالك حيث إن الفلاح كان يعيش على لقمة عيش فقط، بالإضافة إلى سائر المفاسد التي كانت مترتبة على الإقطاع.

أما في الثاني فالأجير وإن لم يكن مرتبطاً بالأرض ذلك الارتباط الذي كان بالنسبة إلى الفلاح إلا أنه أيضاً مجبور جبراً أجوائياً، فإنه إذا لم يعمل الأجير للمالك يموت من جراء عدم وإيجاده الأجرة التي يعيش بها، كما أنه إذا لم يريد الرأسمالي العمل يبقى العامل عاطلاً حتى الموت، بالإضافة إلى أن المالك يستفيد من الأجير أكثر من حقه بينما يلزم أن يكون الحق موزعاً بينهما كل بحسب إدارته أو عمله، لكن الرأسمالي لا يقتنع بهذا القدر.

ثم حدثت النقابات ووضعت القوانين، وبذلك استراح الفلاح والعامل من بعض مظالم الإقطاعيين والرأسماليين، فتحسنت الأجور، كما تحسنت ظروف العمل بالنسبة إلى الفلاح، وصار الجبر الأجوائي أقل، وحصل العامل والفلاح على كفالتهم الاجتماعية، لكن بقي قدر كبير من الظلم يتطلب العلاج.

هذا بالنسبة إلى البلاد الرأسمالية أما في البلاد الشيوعية فالعمال والفلاحون إنما هم آلة بسيطة في معمل كبير لا شيء لهما إطلاقاً إنما كل الخيرات في كيس السادة الحكام الذين جمعوا بين (الرأسمالية) و(الحكم).

وعلى أي حال، فالرأسمالي في الغرب والشرق بقي نفس الرأسمالي، يستفيد أكثر من حقه ألوف المرات، بينما يعطي شيئاً قليلاً بمقدار لقمة العيش، بالإضافة إلى بقاء الجبر الأجوائي أو المباشري.. إلى سائر مفاسد رأس المال على ما تقدم الإلماع إلى بعضها، وذكرنا تفصيلها في كتبنا الاقتصادية.

التعاون أو التسخير؟

لا يقال: العمل الاجتماعي يستلزم أن يكون هنالك رأسمالي، وأن يكون هنالك عامل، وكما قال سبحانه: (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) (الزحرف: ٣٢).

لأنه يقال: أولاً: لماذا يأخذ الرأسمالي أكثر من حقه، ويأخذ العامل الأقل، ثم يستخدم رأس المال الإنسان، بينما اللازم أن يستخدم الإنسان رأس المال، فالإنسان في قانون الرأسمالية خرج عن المحورية وصار خادماً للشيء، بينما يجب أن يكون الإنسان هو المحور وأن يكون مستخدماً للشيء.

وثانياً: يجب أن لا يشتري الرأسمالي عمل العامل، بل يشتركان في العمل، والربح لهما، حتى لا يكون أمر ومأمور، ولذا نهي الإسلام عن عمل الأجير (ولا نقصد بالأجير هنا الأجير في مثل البناء بيني دار غيره أو الخياط يخيط ثوب غيره بل نقصد الأجراء عند الرأسماليين) فأن يصبح الإنسان أجيراً مكروه شرعاً كما وردت بذلك جملة من الروايات وإن كان جائزاً في نفسه.

فقد روى الكليني بسند صحيح عن مفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (من آجر نفسه فقد حظر على نفسه الرزق)(٢).

قال: وفي رواية أخرى: (كيف لا يحظره؟ وما أصاب فيه فهو لربه الذي آجره)(٣).

نعم إذا لم يكن إكراه فردي ولا أجوائي، وكان ما يأخذه العامل عدلاً لا يكون الإيجار وسيلة لتكديس رأس المال أما في الإكراه الفردي والإكراه الأجوائي الذي هو المتعارف الآن عند الرأسماليين فإن معناه عدم إعطاء الأجراء حقهم، بالإضافة إلى كون الإنسان خادماً لرأس المال لا كون المال خادماً للإنسان.

نقض غير وارد

لا يقال: ما ذكرتم. من أنه من الخطأ أن تكون هنالك بين الرأسمالي وبين العامل علاقة الأمر والمأمور، والواجب أن يكون بينهما تعاون واشتراك في الريح. منقوض، فإن الرابطة بين المعلم والتلميذ أيضاً رابطة أمر ومأمور ومتفوق ومتفوق عليه.

لأنه يقال: الرابطة بين المعلم والمتعلم رابطة الاحترام، ورابطة قصد المعلم ترفيع مستوى المتعلم، ورابطة أن المتعلم تضيق الشقة بينه وبين المعلم تدرجاً حتى يصل إلى مرتبة المعلم.. وكل هذه الروابط الحسنة معكوسة في رابطة الأمر بالمأمور في رأس المال، فإن رابطة الأمر بالمأمور رابطة السيد بالعبد، فكما أن السيد يريد استغلال العبد وليست الرابطة بينهما رابطة احترام، والشقة بين العبد وبين السيد تزداد بعداً. حيث إن السيد يرتفع أكثر فأكثر والعبد ينخفض أكثر فأكثر. كذلك الرابطة بين الرأسمالي والعامل فإنها:

أولاً: ليست رابطة احترام، وإنما رابطة استغلال.

وثانياً: ليست رابطة ترفيع للأجير، وإنما رابطة جافة تنتهي بالأخيرة إلى الضرر.

وثالثاً: تزداد الشقة بين الرأسمالي وبين الأجير كل يوم، فالرأسمالي يزداد ارتفاعاً، ويقدر زيادة ارتفاعه في الثروة يزداد الأجير نزولاً، فكما أنه كلما زادت ثروة السيد ابتعد عن العبد أكثر، كذلك كلما زادت ثروة الرأسمالي ازداد اقتداره، وصار ذلك سبباً للكراهة بين الجانبين، بينما رابطة المعلم والتلميذ رابطة حب.

أما ما ذكرناه. من الشروط الإسلامية في الأجير. فليس فيه أي من هذه المحاذير، فالرابطة ليست رابطة اقتدار وإنما رابطة حب، ولا تزداد الشقة بين المستأجر والأجير، وليست الرابطة رابطة الأمر بالمأمور وإنما رابطة اشتراك في المنفعة، وكل واحد منهما ينظر إلى الآخر بنظر الاحترام والحب لأنه يرى أن الآخر سبب لتقدمه.

أنواع من الاستئجار

والحاصل: إن هنا أموراً ثلاثة يجب ملاحظتها:

الأول: ليس الكلام في الاستئجارات الشخصية لبناء عمارة أو خياطة أو ما أشبه.

الثاني: أن يكون الإيجار على النحو الرأسمالي المستغل للعمال.

الثالث: أن يكون الإيجار على النحو الشرعي الذي ليس فيه استغلال ولا استعباد.

وكما أن الإسلام كره أن يؤجر الإنسان نفسه كما تقدم في بعض الروايات كذلك ذكر الإسلام استحباب الإيجار الذي ليس بهذه المثابة، كما أن إيجار الإنسان لغيره لأجل أن يكتسب الشيء غير مكروه في الإسلام، وفي هذا الصدد نقراً قسمين من الروايات. كما قرأنا قبل ذلك قسماً آخر مما يفيد أن الأقسام ثلاثة..

فعلن علي (عليه السلام) في بيان معاش الخلق قال: (وأما وجه الإجارة فقلوه عز وجل (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) (الزخرف: ٣٢).

فأخبرنا سبحانه أن الإجارة أحد معاش الخلق، إذ أنه سبحانه بحكمته بيّن هممهم وإرادتهم وسائر حالاتهم، وجعل ذلك قواماً لمعاش الخلق، وهو الرجل يستأجر الرجل في ضيعته وأعماله وأحكامه وتصرفاته وأملاكه، ولو كان الرجل منا يضطر إلى أن يكون بناءً لنفسه أو نجاراً أو صانعاً في شيء من جميع أنواع الصنائع لنفسه ويتولى جميع ما يحتاج إليه من إصلاح ما يحتاج إليه من الملك فمن دونه ما استقامت أحوال العالم ولا اتسعوا له ولعجزوا عنه، ولكنه اتفق تدييره لمخالفتهم بين هممهم، وكلما يطلب مما تنصرف إليه همته مما يقوم به بعضهم لبعض ويستغني بعضهم ببعض في أبواب المعاش التي بها صلاح أحوالهم.

وقد ورد في الروايات في تحريم ظلم الأجير.

١. ما يشمل ظلمه أولاً.

٢. أو ظلمه أخيراً بأن يجحف عليه أو يكرهه.

٣. وأنه يجعل الأمر عادلاً في الإيجار، ثم ينقص من أجرته، فإن الظلم شامل لكل ذلك.

فقد روى الصدوق، عن الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من ظلم أجيراً أجرته أحبط الله عمله وحرّم الله عليه ربح الجنة، وإن ربحها ليجود من مسيرة خمسمائة عام)(٤).. إلى غيرها من الروايات الكثيرة المذكورة في باب الإجارة من الفقه الإسلامي.

والحاصل: إن الرأسمالية المنحرفة توجب:

أولاً: ظلم الأجراء حقهم.

وثانياً: كون الاستيجار بالإكراه الأجوائي أو المباشري، فالأجير مكره على أن يؤجر نفسه.

وثالثاً: إن الأجراء يحسون بنوع من المهانة مما يسبب البغضاء والتدافع بين الجانبين..

بالإضافة إلى سائر مفاسد الرأسمالية في الأسلوب الغربي والشرقي، وكل ذلك خلاف العقل والشرع.

وليست الرابطة بين المعلم والتلميذ كهذه الرابطة، فإنه لا إكراه، كما أن الظلم ليس بموجود، والتلاميذ يحسون بنوع من الاعتزاز لأنهم يتبعون من هو أكثر منهم علماً وكفاءة، والإنسان لا يحس بالمهانة إذا اتبع الأكثر علماً وكفاءة وتقوى وفضيلة، وإنما يحس بالمهانة إذا أراد شخص السيادة عليه بسبب اقتداره المالي أو بسبب اقتداره السلاحى مما ليس من جهة الفضيلة والكفاءة، فإن نفس الإنسان خاضعة للفضيلة والكفاءة، بينما لا تخضع لمن هو مثلها أو دونها ولمن يريد أن يتطول عليها بسبب سلاح أو عشيرة أو ثروة أو ما أشبه.

وهذا الحس بالمهانة - بالإضافة إلى سائر المفاسد - هو من أسباب هروب الناس عن التقليد إلى الاستدلال والمنطق في الأمور العقائدية والعلمية، حيث إن التقليد فرض وتحميل، وفيه إهانة لكرامة الفكر الإنساني، وهذا الحس أيضاً من أسباب هروب الناس من الحكام الدكتاتوريين إلى الانتخابات - أولاً - وإلى لزوم استشارتهم بعد اختيارهم

حكامهم . ثانياً . إذ أن التحميل من الحكام عليهم أو انتخايم للحكام ثم استبداد الحكام بالحل والفصل بدون استشارتهم منهم كلاهما إهانة لكرامة الإنسان .. ولذا نجد في الإسلام ذم (التقليد) كما نجد فيه مدح (الشورى).

كل شيء في خدمة الإنسان

ثم إن كون الإنسان محوراً يعطي له كل قيمة، والحقيقة أن الإنسان له قيمة أما سائر الأشياء فلا قيمة لها إلا بقدر خدمتها للإنسان واستفادة الإنسان منها، ولذا ورد في الحديث القدسي عن الله سبحانه وتعالى: (خلقت الأشياء لأجلك)(٥).

وقد تقدمت بعض الآيات القرآنية التي تدل على أن الكون مسخر لأجل الإنسان، فإذا لم يكن (الإنسان) فأى قيمة لكل هذا الكون الفسح الواسع؟

وإذا كان الإنسان فأى نقص إذا لم يكن كل الكون . فرضاً . بأن كان الإنسان يعيش وحده؟

وإذا كان للإنسان قيمة فهو محترم بنفسه، وتوزن قيمة كل شيء بقدر فائدته للإنسان وخدمته له، كما يقاس ضرر كل شيء بقدر ضرره للإنسان، وإلا فلا فائدة ولا ضرر إذا استثنينا الإنسان عن الكون، فلتجف البحار أو فلتتشقق الأرض، أو تحزّ الجبال هدأً فأى ضرر يحدث إذا لم يكن الإنسان في مجموعة هذه الأشياء التي في الكون؟.

الأنظمة البشرية ومحورية المادة

أما في العالم الرأسمالي . سواء الشرقي منه أو الغربي . فنرى الأمر بالعكس، فقد خرج الإنسان عن المحورية، وبقيت المحورية للمادة والمال، فالإنسان يراد لأجل الربح، فإذا أراد الشاب مثلاً الزواج سألوه عن ماله لا عن دينه وأخلاقه، كما أن الشاب نفسه يسأل عن مال المرأة وإرثها في المستقبل إذا مات أبوها أو أمها مثلاً، ولا يسأل عن أخلاقها ودينها، بالعكس من الإسلام تماماً حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته يحطب إليكم فزوجوه)(٦).

بل نشاهد في العالم الغربي والشرقي أنه إذا حدثت كارثة لا يلاحظ أن كم إنساناً هلكوا؟ وكم إنساناً جرحوا؟ وكم يداً ورجلاً بترت؟ وكم عيناً فقئت؟ وكم طفلاً أيتموا؟ وكم امرأة رملت؟ وكم إنساناً ذعروا؟ وكم قلباً وجل؟ وكم مرضاً حدث؟ وإنما يقدر كل ذلك بالمال فيقال: ضرر الحرب الفلانية أو السيل الفلاني أو البركان الفلاني مائة مليون أو عشرين مليون أو ألف مليون، نعم يذكرون أرقام الخسائر مجرد العلم كما يذكرون أرقام الدور وأرقام السيارات وما أشبهه.

وإذا كان الإنسان قد فقد جماله وقيمه الإنسانية في عالم المادة فكيف بسائر الأشياء؟ ولذا لا ينظر إلى الأشياء بما أنها أشياء، وإنما ينظر إلى روحها العامة وهي المادة، مثلاً لا ينظر إلى الدار والبستان والكتب وما أشبه بما أنها أشياء ذات حقائق، وحقائقها هي الخور، وإنما ينظر إليها باعتبار القيمة، فيقال الدار الفلانية تسوى مليون دينار، والكتاب الفلاني يساوي عشرة دنانير .. وهكذا.

- ١ . بحار الأنوار: ج٦٦، ص١٥٤، دار المعارف . بيروت.
- ٢ . الكافي: ج٥، ص٩٠، دار الكتب الإسلامية . طهران.
- ٣ . المصدر السابق.
- ٤ . وسائل الشيعة: ج١٣، ص٢٤٧، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ٥ . رسائل المحقق الكركي: ج٣، ص١٦٢، مؤسسة النشر الإسلامي . قم.
- ٦ . وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٢، دار إحياء التراث العربي . بيروت.

الإنسان والمادة والحضارة

فقدان قيمة الإنسان الحقيقية

وقد عطفت المادة كل فكر الإنسان إلى نفسها، فأصبح الخادم مخدوماً، والسيد عبداً، وسبب أن يعمل الكل حتى على حساب صحتهم وراحتهم ومستقبلهم وعائلاتهم وأولادهم لأجل المادة، فالمهم أن يكون للإنسان مال أكثر، أما أن يفقد صحته لأجل ذلك . بل وأحياناً بعض أعضائه وأحياناً عمره . فليس بهمهم، وإنما المهم أن يحصل الرأسماليون على أكبر قدر ممكن من المادة، بل وليس بهمهم أن يفقد الإنسان شرفه وعائلته وروابطه التي توجب له روحاً وراحة!

وكذلك نجد أن الإنسان يعيش في العالم الحاضر في أكبر أزمة وفي شدة قلق ومرض وحروب وثورات وفقر لم يعرف مثلها العالم في أي زمان من الأزمنة السابقة، ولا يحدثنا التاريخ بمثل هذه المآسي التي انصبت على الإنسان، فالإنسان لما كان المحور كما في تعاليم الأنبياء (عليهم السلام) كان الإنسان كل شيء، وكان كل شيء يفدى لأجل الإنسان، وكان كل شيء تلاحظ قيمته الذاتية (لا قيمته باعتبار تحوله إلى المادة) وكان يخفف يوماً بعد يوم من فقر الإنسان ومرضه وآلامه.

أما في هذا اليوم فالإنسان يفدى لأجل المادة، فبينما في تعاليم السماء تخفف آلام الإنسان يوماً بعد يوم تبعاً لإعطائه حاجياته . لأن كل شيء في خدمته . نرى في المجتمع المادي ازدياد آلام الإنسان، لأن الحاجات تعطى لأجل المزيد من المادة، لا لأجل الإنسان، فالإنسان يعطى لأجل المادة، وليس المهم بعد ذلك أن يكون أكثر أهل العالم جائعين، كما ليس المهم أن يموت كل عام خمسون مليوناً من البشر لفقدانهم الغذاء والدواء والعناية، كما ليس المهم أن يقتل ملايين الناس بالوسائل الحديثة، ولا أن يتلى ملايين الناس بمختلف العاهات والأمراض من جرّاء استعمال الأسلحة الفتاكة الكيماوية وغيرها، وكذلك ليس المهم أن يبقى المرضى مرضى، أو أن تشتد أمراض المرضى لأجل استعمال الأدوية الضارة، ولا المهم أن يمرض الملايين لأجل استعمال الأغذية والمساحيق والألوان الضارة، وهكذا بالنسبة إلى سائر الأمور، وإنما المهم أن يحصل الرأسماليون . الحكام كما في الشرق أو التجار كما في الغرب . على أكثر قدر ممكن من المادة! وهذه حالة مرضية ابتلي بها العالم الغربي، ثم الشرقي، ثم صدّروا أمراضهم إلى العالم الثالث، فابتلي العالم الثالث أيضاً بمثل هذه الأمراض الفتاكة التي هي أسوأ وأسوأ من القنابل الذرية والنترونية.

موقف الإنسان تجاه الغرائز الداخلية، والأشياء الخارجية

ثم إن في داخل الإنسان غرائز، ولكل منها متطلبات كغريزة الجنس، حيث تريد القضايا الجنسية، وغريزة المال حيث تحرك الإنسان إلى تحصيل الثروة، وغريزة الجاه حيث تسيّره نحو طلب الجاه، وغيرها من سائر الغرائز الموجودة في البشر، كما أن في الخارج أشياء، يستحق بعضها الاحترام، ولا يستحق بعضها الآخر الاحترام، ومراتب الاستحقاق . فيما يستحق . مختلفة حيث يستحق بعضها الاحترام إلى حد التآليه والعبودية كالله سبحانه

وتعالى، أو إلى حد التواضع المتزايد كالعالم العادل وكالأبوين، وقد يستحق بعضها الاحترام إلى حد ما كاحترام الإنسان للإنسان بما هو إنسان، كما أن بعضها لا يستحق أي احترام كالحیوان والنبات وما أشبهه. فإذا أعطى الإنسان غريزة من الغرائز أكثر من حقها أحدث ذلك انفصاماً للإنسان عن نفسه وابتعاداً عن شخصه، لأن النفس غير المنفصمة تعطي كل شيء حقه، لا أن تزيد في حق على حساب حق آخر، وكذلك الحال إذا عبد الإنسان ما لا يستحق العبادة وألّه ما لا يستحق الألوهية.

وهذا الانفصام الذي يحصل في الإنسان . سواء بالنسبة إلى الغرائز أو بالنسبة إلى الأشياء الخارجية المستحقة للاحترام بقدر أو احتراماً متزايداً أو عدم استحقاق الاحترام إطلاقاً. يعود بالضرر على الإنسان نفسه، ولذا قال سبحانه: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) (الجاثية: ٢٣).

أي أنه يعبد هواه، فكيفما يكون هواه يسير.

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى: (اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) (التوبة: ٣١).

فإن الأبحار والرهبان والمسيح ابن مريم إنما يستحقون قدراً من الاحترام، لا احترام الآلهة، فالمسيح (عليه السلام) يستحق احترام النبي العظيم، والعدول من الأبحار والرهبان يستحقون احترام الإنسان للعالم، لا اتخاذهم آلهة وأرباباً وأخذ الأحكام منهم وإن كانت مخالفة لأحكام الله سبحانه وتعالى.

كما أن الله سبحانه وتعالى يقول بالنسبة إلى الانفصام في شخصية الإنسان وأن ذلك يعود بالضرر إلى الإنسان نفسه: (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (الحشر: ١٩).

يعني: إن الإنسان الذي ينسى الله ولا يتبع أوامره فإنه لا يستقيم في أمره، وبالآخرة يكون ناسياً لخير نفسه وينفصم بنفسه عن نفسه.

وكل هذه الأقسام التي فيها انحراف عن جادة الصواب تدخل في (عبادة الصنم) سواء صنم الجنس، أو صنم المال، أو صنم الجاه، أو صنم الحجر، أو صنم البشر أو غير ذلك من أقسام الأصنام.

انفصام الشخصية في العالم المعاصر

وقد وقع العالم المادي المعاصر في هذا الانفصام فأخذ يسير إلى حيث حتفه، وقد أودى بكل منطق وعقل وبرهان، وبذلك أصبح العالم المعاصر كالإنسان المسحور الذي يتبع هدف الساحر لا هدف نفسه.. وتلك حالة مرضية خطيرة إذا لم تعالج تنتهي إلى الفناء والدمار، ولذا قال سبحانه: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) (طه: ١٢٤).

فهو يقع في ضنك العيش، والضنك ينتهي أخيراً بالفناء والدمار في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وأما في الآخرة فله عذاب شديد، ولهذا نسمي هذه الحالة: (الانفصام عن الشخصية) ونقول: إن هذا الشخص أجنبي عن نفسه، وهل هناك نفران حتى ينسى أحدهما الآخر كما في التعبير القرآني؟ الجواب: إن الأجنبي في الاصطلاح هو الذي نبت في بلد آخر ويعمل لا لصالح البلد الذي وجد فيه، بل لصالح بلد آخر، وهكذا مثل هذا الإنسان المنفصم

الذي يتبع إحدى غرائزه أو يحترم من لا يستحق الاحترام إطلاقاً، أو من لا يستحق الاحترام المتزايد الذي يضيفه عليه فيحترمه احتراماً متزايداً، فإنه لو كان نابتاً من نفسه كان يسير في طريق كل الغرائز لا غريزة واحدة، وكان يتجه الإتجاه الصحيح، وكانت فوائده تعود لنفسه، بينما كل ذلك بالعكس بالنسبة إلى هذا الإنسان المنفصم، فهو ينبت لا عن كل غرائزه، ويسير في اتجاه غير اتجاهه المستقيم وذلك يعود عليه بالضرر لا بالنفع، فإن سائر الغرائز تكبت ولا تنمو ولا تُعطى متطلباتها مما يؤدي إلى الدمار والمهلك.

الإنسان يعبد الجاه والمال

ومن جملة هذه الكلية: الإنسان الذي يعبد المال، أو يعبد الجاه أو لا يعطي الفقير والمسكين والأجير والفلاح وسائر الناس حقهم، كما حدث كل ذلك في العالم المعاصر، فالعالم المعاصر يعبد المال عبادة متزايدة كما أنه يريد الجاه إرادة لا تحد، صحيح إن الديمقراطية الصورية موجودة في الغرب، لكن هذه الديمقراطية (كما تقدم) غلاف مهلهل لدكتاتورية بشعة من أبشع الدكتاتوريات، سواء بالنسبة إلى داخل بلادهم أو بالنسبة إلى خارج بلادهم. وإن كانت الدكتاتورية بالنسبة إلى خارج البلاد أفضح. وأما في البلاد الشيوعية، فإن هذا الثوب المهلهل أيضاً غير موجود، والعالم الثالث منقسم بينهما فقسماً يأخذ من الغرب وقسم يأخذ من الشرق.

هذا بالنسبة إلى عبادة الجاه.

أما عبادة المال فهي أوضح، فالعالم منقسم أيضاً إلى من يعبد المال عبادة مطلقة كالبلاد الشيوعية، حيث إن الحكام هم الرأسماليون، أو عبادة شبه مطلقة كالبلاد الغربية، حيث إن المال بيد التجار فلم يجتمع الحكم والمال في أيد واحدة. وإن كان بينهما تنسيق وتعاون من أغرب أقسام التعاون. كما ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الاقتصاد من الفقه.

نسيان الأخلاق النبيلة

وأما بالنسبة إلى نسيان الصفات النبيلة. كالرحم والمروءة والإنسانية ومراعاة حقوق الإنسان واحترام الآخرين والعطف على البائس والمسكين وعدم أكل حق الناس بالباطل. فإن هذه كلها غرائز في داخل الإنسان، وقد حرم منها العالم ككل، نعم أفراد قلائل يوجدون هنا، أو ليس هناك بتلك المثابة وليس الكلام فيهم، وإنما في الاتجاه العام والإطار الموضوع على عالم هذا اليوم، ولذا فقد أصبح العالم منفصماً عن نفسه وأجانباً عن ذاته وحصل على أثنينية بين (الواقع الإنساني) وبين (الاتجاه) الذي يسير فيه، واتخذ أهل العالم آلهتهم أهواءهم، والأصنام التي يعبدها أهل العالم في هذا العصر أسوأ من الأصنام التي كان المشركون يعبدونها، لأن المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام ويوجد أشباههم الآن في الهند وغيرها لا يضرون العالم هذا الضرر البالغ. وإن كانت كل أقسام عبادة الصنم توجب ضرر الإنسان، ومن ثم توجب ضرر الآخرين، لارتباط الاجتماع بعضه ببعض، فإذا تضرر فرد تضرر الآخرون، وإذا تضرر الاجتماع تضررت سائر الاجتماعات المرتبطة بذلك الاجتماع. إلا أن التاريخ لا يحدثنا بمثل هذا الضرر الكبير الذي حدث في العالم المعاصر، حيث هذه العبادة الغربية للأصنام المالية والمنصبية والغرائزية المنحرفة.

حضارة في بيت العنكبوت!

وقد اتهدمت إنسانية الإنسان بسبب هذا الصنيع الذي صنعه هو بنفسه، فأصبح المربوب رباً والمخلوق خالقاً، وبل اتهدمت إنسانية الإنسان لأنه أصبح بدون اختيار يسيّره الجهاز الصناعي الذي حاكه حول نفسه كمن يجيك حول نفسه شبكة من السلاسل ثم يتتلي بها، حاله حال دود القز حيث ينسج حول نفسه وينسج وينسج ثم يبقى هناك بلا حول ولا طول حتى يأتيه الموت فيجرعه غصة بعد غصة، فالرأسمالي يعمل للمال، والسياسي يعمل للمنصب، وسائر الناس . من المدير والعامل والفلاح والمؤسسة ومن إليهم . يتتلون بهذه الشبكة الواسعة من المال والمنصب فكلهم إنما يريدون مزيجاً من المال ومن الارتفاع السياسي ولا يعرفون لا مصدر المال، ومصرف المال، ولا مصدر المواد الخام، ولا مصرفها، ولا أسواقها، ولا أي شيء منها، ولا البائع، ولا المشتري، وإنما كل يعمل في موضعه من شبكة مستحكمة حوله لا يجد مخلصاً منها كما إن السياسي أيضاً يعمل في شبكة مشابهاة دون أن يعرف المصدر والمورد والمصب وغير ذلك، وإنما معلومات عامة عن أشياء لا يعرف أولها ولا آخرها، وقد صدق الله سبحانه في تشبيهه أمثال هؤلاء بالعنكبوت، فقد قال سبحانه: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (العنكبوت: ٤١).

فإن من خصائص بيت العنكبوت أنه شبكات متداخلة بعضها في البعض الآخر، لا تجد الفريسة فيها خلاصاً، وكذلك نجد المال والجاه في العالم الحاضر شبكات بعضها فوق بعض وبعضها دون بعض حتى تستحكم هذه الشبكات حول الإنسان، فهو في هذه الشبكات ليل نهار، يصرف تفكيره وطاقاته وشبابه وعلمه وسائر شؤونه فيها، وليس ذلك فقط، بل إنه يحكم إحاطة هذه الشبكات حول نفسه كدود القز الذي لا يزال يحكم القز حول نفسه حتى يصبح المصنوع هو الذي يقرر مصيره، وإنما كان موهوناً (على حسب تعبير القرآن الحكيم) لأنه مبني على الخيال لا على الواقع، كالبيت المبني على الرمال . وإذا بقنبلة ذرية تهدم كل هذه الحضارة التي بنوها في عشرات السنين بمليارات من الأموال وأبجر من الجهود والطاقات.

ولم يكن العالم سابقاً هكذا، وإنما كان (الإنسان) هو السيد آنذاك، ولم تكن أية قوة تستطيع هدم الحضارة الإنسانية في الزمان السابق، أما في الوقت الحاضر فقد غدى الأمر بالعكس حيث تتمكن الأسلحة الفتاكة أن تهدم كل الحضارة وكل الروابط المادية المصنوعة في ساعات قلائل.

ولا علاج للإنسان ولا خروج له عن هذا المأزق إلا أن يرجع إلى نفسه، ويكون سيد الموقف، ويترك الضار، ويأخذ بالنافع، وينمي الغرائز كلها بشكل معتدل.

الشبكة تحيط بالجميع

وليست الثروة والسياسة جعلتا من رجال المال والسياسة مكبلين فحسب، بل حتى الإنسان العادي الذي لا يرتبط بهما صار مكبلاً أيضاً بسبب نمط الحياة، حيث فرض هذا النمط على كل العالم.

نعم، هناك فرق بين أحجام التكبير وزيادة ونقيصة فالمنتصرون إلى الأحزاب مكبلون أكثر من غيرهم، ورجال الشركات والأسهم والثروات الكبيرة مكبلون أكثر من غيرهم أيضاً أما التكبير العام فهو للجميع.

طريق الخلاص

وليس للعالم نجاة من هذه المآسي إلا بما يلي:

١ . إعادة الإنسان إلى الاعتقاد بالله واليوم الآخر، والخوف من ربه، ومراقبته، وتطبيق قوانينه على كافة أجزاء الحياة.

٢ . وبذلك يرد المال إلى موضعه الذي يكون فيه خادماً لا مخدوماً، وكذلك يرد الجاه إلى موضعه فيكون مسؤولاً لا غروراً واستعلاءً.

٣ . تلقائياً بعد الأمرين السابقين ترجع الصناعة إلى موضعها الصحيح حيث يجتنب الانسان الضار منها ويأخذ النافع، فإن الصناعة كالماء يضر وينفع وكانار تضر وتنفع، فحيثما أخذت السياسات المنحرفة والثروة المنحرفة بأزمة الصناعة دفعت بها إلى حيث الدمار والوبال وخطر إبادة الحضارة، أما إذا أخذت الثروة الصحيحة والسياسة السليمة بزمام الصناعة صرفتها إلى الطريق السليم، كالنار حيث تكون بيد مجنون أو بيد عاقل، فالعاقل يستفيد منها في طبخه وأكله ودفئه وغير ذلك، أما المجنون فإنه يحرق نفسه وغيره بالنار.

فروق بين الثروة الحرة والثروة المكبلة

ثم إنه يمكن أن نفرّق بين الثروة الحرة العقلانية والثروة المكبلة . التي نشاهدها في العالم الحاضر، والتي انحرفت عن طريقها المستقيم . بالأمر التالية:

١ . المالك هو الذي يحدد الإطار:

في الثروة الحرة يعطي المالك الصورة للثروة فهو يخلق لها الإطار السليم بخلاف الثروة في العالم الحاضر حيث إن إطارها وصورتها ليست بيد المالك، وإنما بيد الشبكة الوسيعة التي يكون المالك جزءاً صغيراً فيها، يرتفع بارتفاعها، وينخفض بانخفاضها، ويميل نحو اليمين والشمال حيث مالت الثروة بصورة عامة، فهو أصبح كالطائر في القفص الذي لا يتمكن أن يطير إلا في مكان محدود جداً، بينما الثروة الحرة يكون المالك كالطائر خارج القفص يتمكن أن يطير حيثما يشاء.

٢ . المالك هو المسؤول عن الأرباح والخسائر:

إن المالك في نظام الثروة الحرة هو المسؤول عن الربح والضرر، أما الثروة في العالم المعاصر فلا مسؤولية للمالك، لا في الربح، ولا في الضرر، وإنما المسؤولية على المدراء الذين يجلبون المواد الخام أو الذين يصنعونها أو الذين يستوفونها.

٣ . القيمة بيد المالك:

في نظام الثروة الحرة تكون القيمة بيد المالك، بينما في نظام الثروة المكبلة لا تكون القيمة بيد المالك، وإنما بيد السوق، فإذا شاء المالك الحر أن يبيع غالياً أو رخيصاً لهذا أو لهذا فالاختيار بيده، أما المالك المكبّل فلا اختيار له في ذلك وإنما الاختيار للشبكة الكبيرة المكونة من ألوف المدراء والخبراء والأسواق، بل ومواقف الزعماء وتوجيهاتهم وحروبهم..

وعلى أي حال، ففي الثروة الحرة تكون القيمة بيد المالك، بينما في الثروة المكبلة ليست كذلك..

٤ . الثبات النسبي للقيم:

في الثروة الحرة تكون القيمة شبه ثابتة، بينما في الثروة المكبلة تضطرب القيمة وتكون في ارتفاع وانخفاض.

٥ . التسعير بيد المالك:

التسعير في الثروة الحرة بيد المالك، أما في الثروة المكبلة فيبذل السوق والبورصة والشبكة الاقتصادية ومن المعلوم إن في العصر الحديث تتحكم الموازين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية وغيرها بالأسواق.

٦ . حرية الاستفادة المطلقة من الأرض:

في مثل الأرض يتحكم السوق في تبديلها بالمال فقط أو تركها أرضاً كما هي هذا في نظام الثروة المكبلة، أما في نظام الثروة الحرة فليس الأمر كذلك، وإنما صاحب الأرض يتمكن من الاستفادة من الأرض في أي شيء أراد فهو يستطيع أن يجعلها بناءً أو حديقة أو معملًا أو أن يهبها لإنسان أو يعطيها للفقراء والمساكين أو غير ذلك، أما في نظام الثروة المكبلة فالمالك لا يستطيع إلا على تبديلها إلى المال فحسب، يعني أن خياراته بين أمرين فقط، أما خيارات الثروة الحرة فبين أمور، وكم فرق بين أن يختار الإنسان أحد مكانين أو أن يكون حرًا طليقاً يذهب حيث يشاء؟

٧ . لا قلق على الأسواق:

في الثروة الحرة لا قلق على السوق من المالكين، بينما في الثروة المكبلة قلق دائم على السوق حيث التنافس الخاطئ الشديد بين أصحاب الأموال.

٨ . القدرات بيد المالك:

في الثروة المكبلة تكون كل قدرات المالك إلا ما شذ بيد غيره فهو لا سلطة له على أمواله، كما أن السياسي لا قدرة له على السياسة فإن كل القدرات تنحصر في أيدي المدراء والبورصات والأسواق وغيرها، سواء في قدرة البيع أو الشراء أو التسويق أو نحوها، أما في الثروة الحرة فإن كل القدرات بيد المالك.

٩ . المالك يتصرف كما يريد:

القوانين قد حالت دون تصرف المالك المكبّل كيف يشاء في ثروته، إذ اللازم عليه أن يتصرف حسب القوانين الموضوعية وما أكثر تلك القوانين وأعقدها؟ بينما يكون المالك الحر متمكناً من التصرف في أمواله دون التدخل من القوانين.

نعم في الشريعة الإسلامية قوانين قليلة جداً تحول دون تصرف المالك كيف يشاء، مثلاً: المالك في الشريعة الإسلامية لا يتمكن أن يتصرف في ماله بتبديله إلى الخمر والخنزير والمواد الضارة.

أما في هذا اليوم، فإن القوانين الكابطة التي تحول دون تصرف المالك كيف يشاء كثيرة جداً.

١٠ . ثبات الضرائب وقتلتها:

إن قوانين الضرائب المتأرجحة تجعل الثروة في اضطراب دائم، بينما في الثروة الحرة لا يكون الأمر كذلك، فإن الضرائب في الإسلام أربعة فقط وهي ليست مجتمعة في مكان واحد، فبعض الأموال عليها (الخمس) وبعضها الآخر عليها (الزكاة) وبعض الناس عليهم (الجزية) وبعض الأراضي عليها (الخراج) ..

هذه فحسب هي قوانين الضرائب الثابتة التي كان الملاكون الأحرار يعرفونها في نظام الإسلام اليوم، وفي ظل نظام الثروة المكبلة فقد تأرجحت قوانين الضرائب وحسب أهواء الساسة والاقتصاديين، ومن يتحكمون بمصائر الأمم المستضعفة، ولذا نشاهد: إن الضرائب تزداد وتنقص حسب الشهوات والأهواء، وأنه إذا جاء رئيس جديد إلى الحكم يضع الأثرياء أيديهم على قلوبهم خوفاً من برنامجه الاقتصادي، وأنه ماذا يريد أن يصنع؟.

١١ . الثروة والأخلاق:

أصبحت الثروة غير أخلاقية لأنها تقتنن بالكذب والخداع .. وتحتل بدموع الفقراء ودماء المحرومين، وكثيراً ما يكون السلاح في خدمة الثروة حيث إن المنافس يقتل منافسه ليخلو له الجو، وأحياناً تكون الثروة بأيدي الساسة بمعنى أن السياسيين يحدثون انقلاباً في بلد مستضعف فقير حتى يمتصوا دماء الناس، كما هو المشاهد في عالم اليوم، بينما لم يكن هذا الشيء بالنسبة في ظل نظام الثروة الحرة.

١٢ . وأخيراً ..:

وأخيراً لو فرض أنه صار للثروة المحللة والثروة المحرمة لوان لرأى العالم آثار الدموع والدماء، ولرأت الشركات وأصحاب الأسهم ورؤوس الأموال الكبيرة على مواثدhem آثار الدم والدمع، وإذا تحولت ثروتهم إلى أصولها ومنابعها لوجدوا أنها لم تصلهم إلا بعد سقوط الأيدي المقطوعة والأرجل المبتورة والعيون المفقأة والآذان المصلومة والأنوف المجدوعة والأحشاء المتناثرة والعظام المتكسرة، كما رأوا كل تلك الولايات مجسمة أمام أعينهم عوض جدران بيوتهم وستائرهم والكراسي التي يجلسون عليها والطاولات التي يكتبون عليها، بل والأقلام والأوراق التي بأيديهم، والورود النابتة في حدائقهم، ولرأوا النيران المشتعلة في بطونهم وفي سائر أعضائهم وفي جوانب بيوتهم، وقد قال سبحانه وتعالى: (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (التوبة: ٤٩).

وقال تعالى: (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) (النساء: ١٠). وقال سبحانه بالنسبة إلى أكل الربا: (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) (البقرة: ٢٧٥). فإذا انفتحت بصائر الأثرياء الذين انخرت ثروتهم . بسبب الربا ونحوه . لرأوا أنفسهم في حالة مجنون لا يتمكن أن يقوم، وإنما إذا أراد القيام سقط على وجهه.

(لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) (البقرة: ٢٧٥).

فإن هذه الثروات في الحقيقة جمعت من هذه الأمور، والصورة فقط هي التي تبدلت، وأما الصورة الواقعية فهي تلك الأمور التي ذكرناها، وكما في الشجرة مثلاً فهي تتكون من التراب وتتحول بعد مدة إلى التراب، إذ الشجرة هي التراب، وإنما تغيرت صورتها إلى صورة الشجرة وإذا مضى زمان فإنها تتحول إلى التراب كالسابق وهكذا الثروات تتحول إلى واقعياتها بعد قليل من الزمن (كما هو المعتقد في باب تجسم الأعمال).

الطريقة السليمة للإنتاج والاستهلاك

ثم إن من مظاهر انفصام الإنسان عن نفسه وأنه أصبح غريباً عن الكون والمجتمع، طريقته في الإنتاج والاستهلاك، فالإنتاج الصحيح هو ما كان عن طريق:

١ . المالك الخصوصي .

٢ . الأكثرية .

أما إذا كان عن طرق الأقلية أو المدراء أو القانون فهو إنتاج غير مستقيم لعدم سيطرة المالك على الإنتاج . وأكثر الإنتاج في العالم المادي . الغربي أو الشرقي . إنما يكون عن الطرق الثلاثة الأخيرة، فصاحب المال ليس مسلطاً على عمله، وهذا الأمر حصل على طريق (الإكراه الأجوائي) وإن زعم صاحب المال أنه يتصرف بملاء رضاه .

أما من ناحية التصرف فلا يكون صحيحاً إلا بما يلي :

١ . أن يكون المال في مقابل العمل، سواء العمل الفكري أو الجسدي من الإنسان نفسه أو من مورثه . فيما إذا كان الإرث صحيحاً ..

٢ . وأن يكون التصريف لأجل الحاجة الواقعية لا الحاجة الخيالية التي هي نوع من الإسراف والتبذير والانحراف، والحاجة الخيالية إما صرف للمال بدون عنوان، وإما تزييف وإسراف في صرف الوقت، وإما حرق لحياة الإنسان وطاقاته فداءً لرأس المال، وإما تبديل للحب الواقعي إلى الحب المزيف .

نماذج خاطئة

وهنالك أمثلة كثيرة لذلك :

١ . شهادات فخرية :

كما يشتري الثري الدكتوراه الفخرية .

٢ . كتب المباهاة :

كما يشتري مكتبة كاملة لأجل المباهاة وإن لم يكن محتاجاً إليها .

وبذلك انخرفت شهادة (الدكتوراه) عن واقعها، كما انخرفت المكتبة عن واقعها الذي هو الاستفادة، ومن المعلوم أن الانحراف في الدكتوراه يعني إعطاء الإنسان شيئاً ليس مستحقاً له، والانحراف في شراء المكتبة يعني تجميد الكتاب عن فائدته، ولذا ورد في الأحاديث: (إنه لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيت؟) (١) .

٣ . أدوات .. لإرضاء الغرور :

كما يشتري الدار الواسعة لأجل العنوان والمباهاة، لا لأجل الاحتياج، فالصرف للدار صرف تخيلي لا واقعي، وكذلك في اشتراء السيارة والأثاث والبستان وغير ذلك مما ليس لأجل الصرف حسب الحاجة، بل لإرضاء حس الغرور والاستعلاء والمباهاة .

٤ . حاجات كاذبة:

مثل إن رأس المال يوجد في الإنسان احتياجاً إلى أشياء ليست أولاً وبالذات حاجات له، فالتصريف الصحيح هو الذي يكون وسيلة للراحة، لا هدفاً لأجل إشباع الغرور، فإن ذلك يوجب أن يُرهق الإنسان ليل نهار لأجل شيء خيالي ومكذوب وهو ملء غروره وتمكينه من المباهاة.

٥ . الانفصام بين الشعار والواقع:

هو نوع آخر من الغرور تمليه الأهواء على الإنسان، فيصرف الحاجة بدون جعل عنوان لها، مثل إن الثري يزوج ابنته بمهر خمسين فلساً مثلاً ثم يشتري لها عشرة آلاف دينار من الأثاث العصري لأجل زواجها، فإنه يريد بجعل المهر خمسين فلساً إظهار نفسه بأنه فوق المال، بينما هو من أكثر الناس عبادةً للمال، فإن الحقائق تظهر بالأعمال لا بالأقوال.

٦ . رأس المال يحدد ساعات العمل والفراغ:

كما يعين رأس المال أوقات العمل والفراغ، مثل أن يعين كيفية صرف الوقت في الفراغ، مثلاً: يجعل وقت عمل العامل نصف الليل في تقسيم وجبات العمل (الشفقات) بين طائفتين أو ثلاث من العمال، أو يجعل لوقت فراغه أفلاماً حربية أو خليعة أو لعب كرة القدم أو ما أشبهه، بدون ملاحظة أن الأهم أن يصرف العامل وقته في ماذا؟ وإنما يلاحظ رأس المال ما هو الأكثر دتراً للربح وإن كان بضرر المتفرج فكيف بنفعه؟

٧ . حروب تفرض على الشعوب:

كالحروب التي يفرضها الرأسماليون الغربيون والشرقيون على الشعوب، بينما يلزم أن تكون الحرب إما بآراء الكل، أو الأكثرية، ومن المعلوم كيف تمهد الحرب كل طاقات الإنسان في الدمار والفناء والمهلك!

٨ . علاقات تجارية:

العلاقات الإنسانية وبالذات مبنية على حب الإنسان للإنسان، لأن كل إنسان يجد نفسه في داخل الآخرين ورأيهم فيه كما الآخرين في داخل نفسه ورأيه فيهم، فإن الإنسانية شيء واحد موزع على الأفراد، ولذا ورد في الأحاديث: (فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك)(٢).

وورد قبل ذلك في الآية الكريمة: (من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

وقد أشرنا إلى ذلك في حديث سابق، أما في العالم الرأسمالي فالإنسان لا يجب أخاه الإنسان، وإنما يجب ما يتمكن أن يستفيد منه، ولذا صارت العلاقات رياءً وخواءً، حتى أن مسألة الأخلاء والخليعات أصبحت علاقات ريائية مكذوبة، فكل واحد منهما يريد الآخر للذة وإشباع رغباته الجنسية فحسب، وليس هناك أي حب بينهما، وإن أظهرها الحب العميق في أقوالهما، ومن المعلوم أن الحب أساس الاجتماع لا اللذة العابرة والشهوة المشتعلة، ولذا نرى في العالمين الغربي والشرقي انهدام العوائل بشكل هائل، وقد ورد في الحديث الشريف: (هل الدين إلا الحب)(٣).

إشارة إلى ما بنيت عليه فطرة الإنسان المكونة للحياة السعيدة، فالحب عبارة عن حب الله، وعن حب رسوله، وعن حب الأئمة عليهم الصلاة والسلام، وعن حب العلماء والصالحين.. والحياة إنما هي لأجل الله سبحانه وتعالى والآخرة لا للذات، لأن حب الحياة للذات يوجب الفساد، كما نشاهد ذلك في العالمين الشرقي والغربي وكذلك حب العائلة وحب الإنسانية وحب الحيوان..و..، من أقسام الحب والتي هي الجذوة الأولى في الإنسان وهي التي تسبب استقامة الحياة.

٩ . العمل فوق القدرة:

كصرف الإنسان وقته أكثر من طاقته، حيث إنه انحراف عن النهج المستقيم المودع في فطرة الإنسان التي هي ذات حد: إن زاد عليه كان إفراطاً وإن نقص كان تفريطاً، وذلك كأن يصرف الإنسان اثني عشرة ساعة في العمل لأنه يريد أجرة متزايدة أو ست عشرة ساعة مثلاً فإنه انحراف عن الحد المقرر للإنسان.

١٠ . طاقات معطلة:

مثل الاستغناء عن الشيء الذي فيه بعض الطاقة بعد، بإلقائه في النفايات كما نشاهد في كثير من البلاد المترفة أمثال فرنسا وأمريكا، فإن الناس لإرضاء غرورهم والمزيد من التجميل وصراف المال يلقون بالأشياء من فرش وكراسي وملابس و...، في الشارع استغناء عنها، بينما هي طاقات قابلة للاستعمال.

١١ . الاعتناء بجانب وإهمال جوانب أخرى:

الارتفاع في جانب من الحياة على حساب الانخفاض في جانب آخر، كالإسراف بإطعام وسقي الكلاب والهررة الحليب واللحم وغيرها من المأكولات، وإلباسها وجعل المسكن لها، والوصية ببعض الأموال لأجلها، وتسهيل راحتها وفتح الدكاكين لأجل إصلاحها، و...، على حساب ملايين الجائعين الذين لا يجدون لقمة خبز، أو لا يجدون ملابساً ولا مسكناً.

١٢ . الانحراف في تنظيم الاقتصاد:

الانحراف الموجود في تنظيم الاقتصاد بحيث يحرم كثير من الناس وتسرف كثير من المواد الاستهلاكية، فبينما نجد إن مئات من الناس يعيشون في حالة جوع وعري وفقير وسوء تغذية لعدم وجود الدواء والكساء اللازم لهم والعناية الصحية بهم، نرى أن كثيراً من البلاد المترفة تلقي بأطنان من الحليب والقمح والرز والفواكه في البحر بحجة تنظيم الاقتصاد، وليس ذلك إلا انحرافاً في المنهج العام في الاقتصاد.

١٣ . عدم توزيع العمال:

تثقيف كاهل فرد على حساب التخفيف عن فرد آخر، بتنظيم الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحيث إن جماعة تمثلها الدولة تقبض على أزمة كل شيء بينما تخفف كاهل الشعب من الاشتراك في الأعمال، فالتجارة والزراعة والمواصلات.. كلها ترتبط بالدولة، وهي كقطرات قليلة في بحر الناس الكثيرين، بينما الناس يمنعون عن مزاوله الأعمال في المنهج المسمى (بالاشتراكي) والموجود غالباً في العالم الثالث تبعاً للشيوعية القائمة في شرق

العالم، فإن ذلك إنحراف عن المنهج القويم، إذ المنهج القويم يقسم الأعمال والأرباح، فإذا اختص جماعة بالأعمال وجماعة بالأرباح كان هذا انحرافاً عن المنهج السليم.

١٤ . القرارات بيد النواب:

إنّ جعل القرارات بيد وكلاء الأمة في العالم الديمقراطي انحراف كامل عن منهج الواقع لأنه كثيراً ما يختلف أكثرية الشعب عن أكثرية الوكلاء الذين يتخذون القرارات، بل اللازم أن يكون الوكلاء ذوي رأي خاص فيما ليس للشعب نظر خاص، أما إذا كان للشعب رأيه فاللازم أن يؤخذ بآراء أكثر الشعب مثلاً: قرارات الحروب أو الاقتصاد أو ما أشبه كثيراً ما يبت فيها الوكلاء بأكثرية آرائهم، بينما إذا عرضت على الشعب نرى أن أكثرية الشعب يخالفون أمثال هذه القرارات، وهذا سلب للإنسان عن قدرته بسبب أجواء مكذوبة فرضت عليه، وكيف يمكن أن يعمل الوكيل كل شيء بدون رضی الأصيل؟

أما في الإسلام فإن معنى إعطاء المشورة . الواردة في القرآن والسنة . لولي الأمر إنه مع كونه ولي الأمر لا يحق له الخروج عن رأي الأكثرية . بالنسبة إلى غير الرسول (صلى الله عليه وآله) والإمام المعصوم (عليه السلام) . حيث إنه إذا كان يحق له أن يستبد برأيه بعد المشورة لم تكن للمشورة ثمرة إلا ثمرة تلطيف الجو أو تلقي المشورة في ذهن الحاكم شيئاً لم يكن بباله فيأخذ به، بينما ظاهر المشورة أنها تعني الأخذ بأكثرية الآراء لا أنها مجرد تلطيف الأجواء أو إلقاء رأي جديد في ذهن الحاكم لم يكن في ذهنه قبل المشورة.

١٥ . التناقض بين الرابطة الاجتماعية والرابطة الفردية:

اختلاف (الرابطة الاجتماعية) و(الرابطة الفردية) مع أنّهما نابعان عن حسّ واحد هو (إنسانية الإنسان) وبذلك انفصم الإنسان عن نفسه، وصار غريباً عن ذاته، يحكم هنا بشيء ويحكم هناك بشيء آخر، بينما الحكمان يجب أن يصدرا عن مصدر واحد هو (الفطرة).

فالحب بين الأفراد منهدم والاجتماع هو الذي يحترم، ولذا نشاهد أن كل واحد منا يعطي الضرائب للدولة . حيث إنه يحترم الدولة ويحترم القوانين الموضوعة . بل وفوق ذلك فإنه يعطي دمه في ظروف الحرب لوطنه وهل هذه الأمور إلا لاحترامه للاجتماع . ولكنه هل يساعد الأرملة والفقير والمحتاج؟ كلا بل نشاهد أنه منقطع عن قريبه وجاره ولا يتعامل بالحب مع مشترية وتلميذه ومعلمه و....

وكيف يمكن أن يجمع بين إعطاء الدم وبذل المال وصرف الوقت والطاقة بالنسبة إلى الاجتماع العام، وعدم إعطاء حتى الشيء القليل لأية مشكلة فردية؟

رأي القرآن الكريم

وقد ألمع إلى ذلك القرآن الحكيم في وصف اليهود الذين كانوا ماديين في وقت نزول القرآن قبل أن يفرضوا سيطرتهم الرأسمالية على العالم بقوله سبحانه: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم

هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصون (البقرة: ٨٣ - ٨٦).

نشاهد في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى أخذ ميثاق بني إسرائيل . على لسان أنبيائهم وفي الكتب المنزلة عليهم . عبادة الله وبالإحسان إلى الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين، وأن يقولوا لجميع الناس حسناً، وأن يخلصوا العبادة لله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، كما أنه أخذ ميثاقهم أن لا يسفكوا الدماء ولا يخرجوا بعضهم من الديار، ولكن بني إسرائيل خالفوا أوامر الله سبحانه وتعالى، فبعضهم يقتل بعضاً، وفريق منهم يخرج فريقاً من الديار، ويتظاهر البعض على البعض الآخر بالإثم والعدوان، لكنهم إذا وجدوا بعضهم أسارى عند أناس آخرين فدوهم بأموالهم! فكيف يمكن الجمع بين الأمرين، فإذا كان حب بالنسبة إلى الأفراد كان معناه أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً، ولا يظاھر، بعضهم ضد بعض، ويفادي بعضهم بماله البعض الآخر الأسير في أيدي الآخرين، وإن لم يكن حب فلماذا المفاداة؟ أفليس هذا دليلاً على انفصام في الشخصية وغربة النفس عن النفس، حيث تحكم النفس في مكان حسب الإنسانية، وتحكم في مكان آخر حسب القساوة وانقطاع الحب والوحشية؟

وهذه الحالة التي كانت في بني إسرائيل إبان نزول الآيات عمّت الآن العالمين الشرقي والغربي، لكن لا بالنسبة إلى النطاق المذكور في الآيات المذكورة فحسب بل بالنسبة إلى كل شيء كما ألمعنا إلى جملة من ذلك في هذه البنود الخمسة عشر.

والمثال المعروف: (الدين لله والوطن للجميع) إن صح أصله يلزم أن يراد به أن المقتن لجميع القوانين هو الله تعالى، لأن الدين هو مجموع القوانين، وإن الجميع لهم الحق أن يعيشوا بسلام وحب في الوطن الكبير الذي هو كل الأرض، سواء كانوا مسلمين أو كفاراً، كما نجد في القوانين الإسلامية، ولذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما دخل (المدينة) ووجد فيها المهاجرين والأنصار والمشركون واليهود جعل عهداً بين الجميع بالدفاع عن البلد مجتمعين وعدم اعتداء بعضهم على بعض.

أما المعنى الذي قد يراد من تلك الكلمة المشهورة من أن المراد بالدين هو ما بين الإنسان وبين الله كما التزم المسيحيون وإن المراد بالوطن هو الوطن القومي والجغرافي.. فهذا معنى انفصامي أيضاً أي أنه انفصام الدين بعضه عن بعض، والوطن بعضه عن بعض، ومعنى انفصام الدين والوطن هو انفصام الإنسان، لأن الإنسان المنفصم ينفصم في الدين وفي الوطن أيضاً.

وعلى كل حال لو كان المهم الإنسان لشخصه الخاص فلماذا إعطاء الضريبة من المال والوقت والدم للدولة وللمجتمع؟ وإن كان المهم الإنسان بما أنه إنسان لا بما أنه شخص، فلماذا عدم العطف على البائس والفقير والمحتاج؟

الانحراف في الإنتاج والاستهلاك

والحاصل: إننا نشاهد في عالم اليوم أن كثيراً من الإنتاج والاستهلاك . سواء للإنسان أو لأوقاته أو لحاجاته . من قبيل الباطل، مما معناه انحرافه عن الطريق المستقيم فليس الإنسان سيد الموقف، وإنما الأجواء والأهواء. وحيث تبين لزوم أن يكون العمل في قبال العمل ظهر بطلان كون النقد في قبال العمل، أو النقد في قبال النقد، لأن النقد حوالة فقط، وربما كان النقد قد حصل من أتعاب الآخرين كما في الرأسمالية على قسميها الشرقي والغربي حيث يحصل النقد بسبب الإكراه الفردي أو الإكراه الأجوائي، ولذا نشاهد ما وقع في العالم . اليوم . من المفاسد والشرور، ولا علاج إلا بأن ترجع الأمور إلى نصابها الصحيح من الإنتاج والاستهلاك والصرف الصحيح سواء للإنسان عملاً، أو للإنسان فراغاً، أو لحاجياته التي يصرفها لأجل استمراره في الحياة. وإلا فالانحراف لا يولد إلا الانحراف.

وهناك أمثلة أخرى للإنتاج الصحيح والفاسد، وللإستهلاك الصحيح والفاسد. ومن المعلوم أن الإنتاج الصحيح واحد وإنما الإنتاج الفاسد له شُعب كما أن من المعلوم أن الاستهلاك الصحيح واحد والاستهلاك الفاسد له شُعب. وإنما ألمعنا إلى أمرين في كل منهما إلماعاً لا على طريق الحصر والتعداد. النتائج الخطيرة

وعلى أي حال فإن ما ذكرناه هنا من الانحراف إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإنسان يعيش في حالة غربة عن الكون وعن المجتمع وعن نفسه، وصدق قوله سبحانه وتعالى: (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (الحشر: ١٩). فإن الإنسان الذي ينسى الله تعالى ينسى نفسه أولاً، ثم جسده ثانياً، ثم مجتمعه ثالثاً، ثم العالم الطبيعي الذي يعيش فيه رابعاً، بينما إن لم ينس الإنسان الله سبحانه أخذ بقوانينه فلا ينسى نفسه، ولا جسده، ولا مجتمعه، ولا عالمه الطبيعي الذي يعيش فيه.

فإن هناك أربعة أمور:

الأول: الفطرة..

الثاني: الحاجة..

الثالث: الطبيعة..

الرابع: العالم المصنوع..

فالفطرة في داخل الإنسان.

والحاجة إنما تكون للجسد والنفس أيضاً.

والطبيعة هي العالم الذي صنعه الله سبحانه وتعالى، والذي يعيش فيه الإنسان سواء كان (عالمًا طبيعيًا) أو (عالمًا اجتماعيًا) أي سائر الناس الذين يكون الإنسان معهم من مجتمع واحد يتبادلون الحاجات والعواطف والمتطلبات، والعالم المصنوع هو الذي يصنعه الإنسان من الطبيعة لأجل أن يلائم حاجاته ومتطلباته.

مثلاً: الإنسان بحاجة إلى الأكل واللباس والمسكن والزوجة، فهو يزرع ويحصد ويخبز ليلائم أكله لا كالحَيوان يأكل العشب ويلتقط الحب وكذلك يربي الأغنام ليتخذ من صوفها ملابس بعد الغزل والنسج لا كالطيور والبهائم حيث تكتفي بما خلق عليها من الريش والوبر والشعر، وهكذا يصنع الآجر والجص والأبواب الخشبية والحديدية من تراب الأرض ومن الأشجار التي زرعها أو نبتت في الغابات أو المعادن ليسكن فيها بصورة الدار، أو يعملها بصورة حمام ليتنظف فيها، أو بصورة دكان ليجلس فيه ويبيع بضائعه، وليس كالحَيوان الذي يعيش على الطبيعة في مسكنه أو بتطوير بسيط لها.

فلو استفاد الإنسان من العالم الطبيعي بشكل مستقيم، وصنعه معتدلاً، وأخذ منه حاجاته الحقيقية بغير إفراط ولا تفريط وتبديل واختلاف في الكم أو في الكيف كان قد صرف الفطرة لأجل الحاجة، وأخذ من الطبيعة بقدر الواقع، وصنع للعالم المصنوع المحتاج إليه المتوسط بين الإنسان وعالم الطبيعة طبقاً لحاجاته، وإلا كان انفصاماً في الفطرة، وتحريفاً لعالم الطبيعة، كما أنه تحريف للصنع والاستهلاك أيضاً..

مثلاً: لو أخذ ملابس كثيرة، أو أقل من المحتاج إليه، حتى أصبح عاراً عليه أمام أنظار الناس أو لم يُخط الثوب أو خاط الثوب خياطة بدقة متزايدة، أو خاطه بدون إتقان، أو لبس الثوب المهلهل، أو الثوب الضيق. بأن صنع الثوب على أحد النحويين. وكذلك إذا غالى في قيمة الثوب. بأن صنعه مطرزاً بالذهب واللالئ. أو سفً في القيمة. بأن يكون من جلد الحمير!! . كان ذلك كله خلاف الفطرة وصرفاً غير صحيح لأنه أما قلة أخذ من الطبيعة، أو كثرة أخذ منها، أو تشديد زائد في الصنعة، أو إسفاف فيها، أو الأخذ من العالم المصنوع بقدر أزيد من حاجاته، أو بقدر أقل منها، فكل ذلك زيادة ونقيصة وتبديل وتحريف.

وكذلك الحال مع الزوجة والمعاشرة مع المجتمع فإن كان هناك إسفاف ومغالاة فكلاهما انحراف، وكل ذلك معناه الانفصام في الإنسان عن الواقع وأنه يصبح الإنسان غريباً عن نفسه وغريباً عن الطبيعة، وغريباً عن مجتمعه.. كما ابتلي بكل ذلك عالم اليوم، ففي جانب منه ارتفاع مغالياً فيه، وفي جانب آخر انخفاض مغالى فيه، وبين ذلك تبديل وتحريف.

البحث عن الجذور

وغير خفي إن ما يشاهد في عالم اليوم من المظاهر السيئة في الانحراف والانفصام إنما هي وليدة جذور منحرفة، فلا يمكن التخلص من هذه المظاهر السيئة إلا بتقويم الجذور وتعديلها، فإن كل ظاهرة لا بد لها من خلفية، والظاهرة لها آثار حسنة إن حسنت الخلفية، أو سيئة إن ساءت الخلفية، ولنمثل لذلك بمثال ملموس في جانب من جوانب الحياة وجدناه في العراق قبل الحرب العالمية الثانية، ورأينا خلافه بعد الحرب، وعلى ذلك تقاس سائر الأمثلة، علماً بأن الاختلاف بين ظاهرتين حسنة وسيئة ليس من جهة وجود الحرب وكون الحرب فاصلاً بين السابق واللاحق، وإنما في كل مكان من العالم كانت الظاهرتان سابقة، ولاحقة أما السابقة فهي حسنة على الأغلب للجذور الحسنة وأما اللاحقة فهي سيئة على الأغلب لتبديل الجذور من الحسنة إلى السيئة، وبعد ذلك أعطت الظاهرتان آثاراً حسنة وسيئة، كل منها بحسبها.

ونتكلم حول ذلك في أربعة أمور:
الظاهرة الحسنة المبنية على الخلفية الحسنة.
والظاهرة السيئة المبنية على الجذور السيئة.

- ١ - بحار الأنوار: ج ٣٥، ص ٣٠٠، دار المعارف - بيروت.
- ٢ - نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٤٥، دار المعرفة.
- ٣ - بحار الأنوار: ج ٦٢، ص ٢٣٧، دار المعارف - بيروت.

الإغناء الاجتماعي والاقتصادي بين الإيجاب والسلب

الظاهرة الحسنة

الأول (الظاهرة الحسنة): منزل متواضع في بنائه يحتوي على عشر غرف يسكنها أب وأم لهما من الأولاد خمسة ومن البنات ثلاث وزوجوا الأولاد بخمس فتيات، كما زوجوا البنات بأكفاء وقد خرجت البنات من المنزل بدون احتياج إلى معونة الأب والأم. إلا معونات بسيطة. كان الأبوان قد جمعها لهن تدريجياً من بعض الملابس والأواني والفرش.

وأما الأولاد فعندما تزوجوا اتخذ كل منهم مع زوجته غرفة من غرف البيت، لأن المهور كانت بسيطة في غاية البساطة، والأثاث كان بسيطاً في غاية البساطة، فاكتمى كل ولد مع زوجته بغرفة من غرف البيت، وبقيت غرفتان للأب والأم، وغرفة للضيوف وغرفة للأكل يجتمع الكل فيها على مائدة واحدة مع حفظ الحجاب، وغرفة للمخزن، وكان في البيت مطبخ هو مخزن للوقود كالحطب والفحم ومحفظة خشبية للأواني وكان في الدار ثلاثة سراديب سردابان كبيران وسرداب صغير: الصغير للأب والأم، وأحد السردابين الكبيرين للأولاد مع زوجاتهم. مع ستر بين كل ولد عن الولد الآخر. وسرداب لأجل صنع المخملات والخواري وما أشبهه، وفي البيت حوض يسحبون إليه الماء من البئر لأجل الاستعمال، أما ماء الشرب فيأتي به سقاؤون، ولا يوجد في البيت كهرباء، وإنما كانت المصابيح النفطية المتعارفة في ذلك الزمان وكانت هنالك بئر مشتركة بين جارين كل واحد منهما ينضح منها الماء، وكان عمل العائلة صنع المخملات. وكانت الظروف مصنوعة من السفال وهناك بعض الظروف الصغيرة للمحلات كالأكواب والخواري، وكانوا يتخذون الخل من التمر والفواكه التي كانت تزرع في نفس البلاد كالقثاء والشلغم والثوم وما أشبهه، والكل يتعاونون في الطبخ والكنس وغسل الملابس وغسل المنزل وغزل المغزل لأجل اللباس وغير ذلك..

وكان أبو العائلة يشتري أول العام الأرز والسكر والشاي والفحم والدهن والحبوب والطحين لأجل حوائج السنة أو ستة أشهر، أما اللحم والفواكه والخبز فيأخذها تشتري يوماً بعد يوم، مع أنه كان في البيت أيضاً تنور يجزون فيه أحياناً لاسبوعهم.

وكانت حياتهم حياة عفاف وكفاف وقناعة، والرجال والنساء يتعاونون لأجل صنع المخملات اشتراءً وعملاً وبيعاً في دكانهم المتواضع، وفي أيام الجمعة والأعياد والوفيات كانوا يذهبون إلى الحرم الشريف والمزارات المقدسة، ويزورون بيوت الأقرباء والأصدقاء، وأحياناً كانوا يزورون المقابر. كما أنهم كانوا يحضرون مجالس الوعظ والإرشاد. وكان الأب يعطي الخمس الزائد في رأس كل عام لمرجهه كما أن الأب والأم والأولاد والزوجات كانوا يحضرون صلاة الجماعة في أكثر الأيام. وقد أصبحوا أثرياء بعد مدة، فاشتروا بستاناً كانوا يستعملون حطبه في وقودهم، وثماره في أكلهم ومخللاتهم، وكانوا يبيعون من البستان للانتفاع بأثمان المبيعات، ويتنزهون فيه جملة من الأيام في كل عام، وإذا اجتاحتهم مرض كانوا يعالجونه بالأدوية البسيطة الرخيصة جداً، وعند الولادة يستخدمون بعض نساء العائلة

كقابلة وإذا صعب الأمر جاؤوا بقابلة محترفة، وفي كل عام في أشهر الربيع كان الأب يغلق دكانه ليذهب هو وعائلته إلى زيارة الكاظمية وسامراء والمراقد المقدسة الأخرى.

وهكذا كانوا يعيشون عيشة رغيدة مرفهة بحنان ولطف وتعاون.

أما الحمام فلم يكن في البيت، وإنما كانوا يستحمون في أغسالهم الواجبة والمستحبة وتنظيف أجسامهم في أشهر الصيف في داخل البيت، وفي الأشهر الأخرى كانوا يذهبون إلى الحمامات العمومية.

وكان أثاثهم غالباً أثاثاً بسيطاً يقتنعون به مدة سنوات، سواء في الملابس أو الفرش أو الملاحف أو غيرها مما يحتاج إليها الإنسان.

وكانوا يعيشون نظيفين حيث إنهم يعتقدون (النظافة من الإيمان) (١) حسب الحديث الوارد فكانوا نظيفين في أجسادهم وبيوتهم وأثاثهم.

الخلفية

وكانت الخلفية لهذه الظاهرة التي شاهدناها في هذه العائلة . ومثلهم كثيرون غيرهم . مبنية على خمسة أمور:
أولاً: الإيمان بالله:

الإيمان بالله واليوم الآخر، والخشية من الله في ارتكاب المعاصي أو ترك الواجبات ولذا كانوا يلتزمون بالطاعة ويجتنبون المعصية، وكانوا يلتزمون حسب المقدور بالمستحبات ويتركون المكروهات، مثلاً: يلتزمون بغسل الجمعة، كما أنهم كانوا يتركون النوم بين الطلوعين، وبعض منهم يعرف القراءة والكتابة فيقرأ القرآن في كل صباح بصوت مرتفع لما ورد من أن ذلك يوجب الثواب في الآخرة والصحة والسلامة والثروة في الدنيا.

ثانياً: الفضيلة:

فقد كانوا يتمتعون بالفضائل الخلقية كالقناعة، والتعاون، وحسن الخلق، واحترام الصغير للكبير، وعفو الكبير عن الصغير، والكفاف، والعفاف، وعدم الحرص والحسد، وغير ذلك، ولهذا تمكنوا أن يتعاونوا بينهم في صفاء ووفاء ووثاق. وقد حصل للعائلة بعد سنوات عدة من الأولاد. فمن الأول ثلاثة ومن الثاني اثنان، ومن الثالث اثنان أيضاً، ومن الرابع واحد، ومن الخامس أربعة.

وقد حصلوا بسبب الأصهار والأنساب . سواء من أبنائهم أو من بناتهم . على صداقات كثيرة مع عوائل متعددة كانت ثمان عوائل، فكان بينهم التزاور والتضاييف والتعاون على مختلف الأصعدة.

ثالثاً: الاقتصاد السليم:

فقد كان الاكتفاء الذاتي سائداً على البلاد وكل إنسان يمد رجله بقدر بساطه (كما يقول المثل المشهور) والرخص حاكم على المجتمع.

رابعاً: الخلفية السياسية:

فقد كان في الناس نوع من الرشد، فما كانت الضرائب المرهقة، كما كانت الحريات الواسعة، ولم يكن الربا والاحتكار والغش والمفاسد الاقتصادية الأخرى.. في البلاد مما تساعدها السياسة والاقتصاد المنحرف.

خامساً: المجتمع المستقيم:

حيث لم يكن في المجتمع التنافس الحقود وإنما كان تنافس شريف في التقدم، وما كان السخط على العيش، بل كان المجتمع مجتمع رضا، ولم يكن المتعارف بين الناس هضم حقوق الآخرين، وإنما كان كل واحد يعرف إن سحق حق الآخرين محرم.

وإنه لا يجوز أكل أموال الناس بالباطل والتعدي على حقوق الآخرين، سواء في الأموال أو في الأعراض أو غيرها.. فهذه الخلفية التي كانت مهيمنة على أذهان كل المجتمع كانت من أسباب تلك الظاهرة.

تبدل الجذور

١ . ضعف الإيمان والخوف من الله سبحانه وتعالى، وارتقاب ثوابه والخشية من عقابه.

٢ . ضعفت الفضيلة فتبدل التعاون إلى التداير، وأخذ الحرص والطمع والتجمل المتزايد والسرف والتبذير والأنانية والكبرياء والغرور مكان الفضيلة.

٣ . صار الاقتصاد مرتبطاً بالخارج، من الخلل الذي كان يأتي في قناني، إلى أنابيب الماء وأسلاك الكهرباء والقماش والمعلبات والغاز . الذي تبدل الحطب إليه . أو النفط المتزايد الذي لم يكن في السابق معروفاً بهذه الكيفية والكمية، وإنما كانت العائلة تشتري النفط لأجل المصاييح بثمان زهيد، كما استوردت الأدوية الحديثة بكثرة.

٤ . أخذ الربا والاحتكار والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل في الظهور، ولذا احتاج الناس إلى الثبت وتسجيل عقد النكاح وغير ذلك، بينما كان الإنسان يكتفي سابقاً بتسجيل العقد في ورقة صغيرة إذا باع داره أو بستانه، منتهى الأمر أن يزينوه بتوقيع عالم وشاهدين من كبار المنطقة، كما كانت القضايا تحل عند عالم المنطقة أو الصنف، أما بعد ذلك وما حصل من تبدل الجذور فالقضايا لا تحل إلا بالمحاكم والمحامين والرشوات و...

٥ . تبدل السياسة: فجعلت الدولة الضرائب المرهقة مما سحب كثيراً من واردات الناس، وتضخم الجهاز الحكومي تضخماً كبيراً جداً، وكبتت الحريات مما أوجب عدم إمكان التحرك الاقتصادي بسهولة.

٦ . تبدل الأخلاق: فقد حل التباغض والحسد مكان التعاون وحب الخير للآخرين، وحل التجمل والحرص محل الكفاف والعفاف.

فكل شاب ينظر إلى شاب آخر تزوج قبله مثلاً فيقول: المهر الذي دفعه فلان ألف دينار فلا يمكن أن يكون المهر الذي أدفعه أقل من ذلك، وداره أحسن وضيافته أدمم ودكانه أفضل وأثائه وسيارته أجمل فتغيرت كل الجذور والخلفيات، وحتى أن أصوات القرآن التي كانت تسمع من البيوت والدكاكين، والأدعية التي كانت تتلى في الصباح والمساء والعصر كلها اختفت، وأصبح مكانها المديع والتلفزة والموسيقى والرقص والمجون، وتقلص الحجاب تقلصاً سريعاً، وانتشرت الخمور ومحلات القمار ونوادي الفساد، وصار الشباب والشابات جيلاً منفصلاً عن الآباء والأمهات فلم يكونوا يحترمون الآباء والأمهات إطلاقاً، وإنما يرمونهم بالخرافة والرجعية والجمود، كما أن الآباء أيضاً عجزوا عن نصح الأولاد لأنهم رأوا أن الأولاد يقابلونهم بالسوء.

الآثار السيئة

أما الأمر الرابع فهو: الآثار السيئة التي ترتبت على تلك الجذور التي تبدلت من الجذور الحسنة إلى الجذور السيئة فهي كبيرة وكثيرة منها . مثلاً . بقاء البنين والبنات عزاباً وعوانس إلى سن متأخرة، وبذلك تفسى الاستمناة والعلاقات الجنسية اللامشروعة والأمراض التابعة لها كما كثر الفساد واختطاف البنات أو الأولاد لأغراض سيئة، وأخذ الشباب يسافرون مع زملائهم وزميلاتهم إلى مناطق الفساد كما كثرت البطالة حيث لم تكن الأعمال المرجوة لهؤلاء الشباب. فالشباب غير مقتنعين بعمل الآباء، وإنما يذهبون إلى المدارس ويريدون الوظائف، وكذلك ازدادت السرقة، وارتفعت أسعار البضائع، وإيجارات الدكاكين والبيوت، وأخذت تجمعات التخريب من الشباب . الذين يجدى بهم من الخارج . في الظهور، وكثر العداة والبغضاء والطبقات المتباعدة. ولذلك توترت العلاقات مع الأنظمة فلم يتعاون معها أحد.

وتبعاً لكل ذلك كثرت الجرائم والقتل، وامتألت السجون، وبدأ التعذيب في السجون لانتزاع الاعتراف من جمعيات التخريب أو السراق والقتلة وأمثالهم.. وإذا بالجمتمع تبدل من الحسن إلى السيئ، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن مثل ذلك: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (الروم: ٤١).

فظهر الفساد في البر والبحر إنما هو بما كسبت أيدي الناس، لأنهم بدلوا نياتهم وعقائدهم وأخلاقهم وأسلوبهم في الاقتصاد والسياسة والاجتماع فظهر الفساد.

وهكذا كانت الظاهرة السليمة مستندة إلى خلفية سليمة، كما حصلت الظاهرة المنحرفة ذات الآثار السيئة من جذور منحرفة.

الظاهرة السلبية تعم

وقد أصبح الاجتماع في الوقت الحاضر هكذا في كل العالم، مع تفاوت انحراف الخلفيات زيادة ونقصية مما سبب تفاوت في انحراف الظواهر الاجتماعية قلة وكثرة ولا علاج إلا بالرجوع إلى الجذور وتعديلها وتصحيحها حتى تستقيم الظواهر.

ثم إن الظاهرة التي ذكرناها في التفاوت بين الأسرة السابقة . المبنية على الصحة . والأسرة الحديثة . المبنية على السقم . ليست خاصة بالأسر فقط، وإنما كان ذلك مثلاً، بل ظهرت نفس الظاهرتين في المدارس والمستشفيات والمستوصفات والمعامل ودور الحكومة والشركات والدكاكين، بل ومحلات العبادة أحياناً وغيرها مع تفاوت بعضها عن بعض، فالصلاح كماء المطر إذا جاء سالت أودية بقدرها، والفساد كالنار إذا شبت كان لكل مكان نصيبه من النار، ولذا قال سبحانه: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) (الأعراف: ٥٦، ٨٥).

وقال سبحانه في آية أخرى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبيس المهاد) (البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦).

الإسلام يعالج الجذور

ولذا نرى أن الإسلام عالج الجذور أولاً وبالذات، وبنى الأسس الكفيلة لسعادة الإنسان وعمارة الأرض، ونذكر من هذه الأصول عشرين:

١ . أصالة الإيمان: وهي (العقيدة).

٢ . أصالة الخضوع لله: وهي (العبادة).

٣ . أصالة الخضوع للرسول (صلى الله عليه وآله)، ونوابه (عليهم السلام): وهي (الطاعة) وتتبعها (البيعة).

٤ . أصالة الأخوة:

بأن يجب كل أحد لغيره ما يجب لنفسه وذلك يوجب الوحدة فيما بين الأفراد.

٥ . أصالة التعاون:

وبذلك تتشكل الأمة الواحدة التي ذكرها الله تعالى في قوله: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران: ١١٠).

٦ . أصالة المساواة أمام القانون.

٧ . أصالة المسؤولية:

وذلك بأن يسأل الإنسان عن كل شيء من أفكاره وأعماله وأقواله.

٨ . أصالة الجزاء:

وذلك بأن يجازى كل إنسان بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٩ . أصالة العدالة:

فإن لكلٍ حقه السياسي والاجتماعي والاقتصادي وحقوقه الأخرى.

١٠ . أصالة العقوبة:

وذلك بمجازاة الإنسان المتعدي على إنسان آخر نفساً أو ماله أو عرضاً فالزنا جزاؤه الجلد، والقتل جزاؤه القتل وهكذا..

١١ . أصالة الإحسان:

وذلك بإعطاء الإنسان أكثر مما يأخذ. وذلك مأمور به في الشريعة الإسلامية لأجل استقامة الحياة. قال سبحانه:

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) (النحل: ٩٠).

١٢ . أصالة الحرية:

وذلك عبر انطلاق الكفاءات.

١٣ . أصالة الصحة:

في عمل المسلم وقوله وسائر شؤونه.

١٤ . أصالة الطهارة:

أي نظافة الإنسان وأشياءه وكل شيء في الحياة ما لم يعلم أنها قدرة.

١٥ . أصالة الإباحة:

وتعني إباحة الأشياء للإنسان إلا ما خرج بالدليل.

١٦ . أصالة البراءة :

أي أن كل إنسان لا يتحمل مالملاً أو جرماً أو ما أشبه مما لم يثبت.

١٧ . أصالة احترام الإنسان في كل شؤونه:

وهي: (الحرمة).

١٨ . أصالة الفضيلة:

أي التخلق بالأخلاق الحسنة فكراً وقولاً وعملاً. قال سبحانه: (إلا من أتى الله بقلب سليم) (الشعراء: ٨٩).

وقال في ضده: (نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة) (الهمزة: ٦ . ٧).

وقال سبحانه أيضاً: (إنه عليم بذات الصدور) (الملك: ١٣).

هذا بالنسبة إلى الفكر.

وأما بالنسبة إلى القول، فقد قال سبحانه: (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) (النور: ١٥).

إلى غير ذلك مما ورد في المؤاخذة على القول أو كون القول الحسن فضيلة، كما قال سبحانه: (ألم تر كيف ضرب

الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) (إبراهيم: ٢٤ .

٢٥).

وقال بالنسبة إلى الكلام السيئ: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار)

(إبراهيم: ٢٦).

وأما بالنسبة إلى الأعمال الجوارحية كأعمال العين والأذن والقدم والبطن والفرج واليد والرجل وغيرها، فقد قال

سبحانه: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم

تعملون) (التوبة: ١٠٥).

وقال سبحانه: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم: ٣٩).

فأصالة التخلق بالأخلاق الحسنة واجتناب الرذائل هي: (الفضيلة).

١٩ . أصالة الملكية:

أي كون الإنسان مالكاً لآثاره وما يحصله بسبب الأعمال وحياسة المباحات وما أشبه.

٢٠ . أصالة الارتباطات الاجتماعية:

أصالة الارتباطات النسبية والسببية كالزوجية والقربانية وهي (الصلة).

وبهذه الأصول العشرين التي ألمعنا إليها إلماعاً نظف الإسلام الجذور تنظيفاً كاملاً، وتبعاً للجذور النظيفة ظهرت

الظواهر الحسنة، ولو سادت هذه الجذور في العالم . (وكلها عقلية قبل أن تكون شرعية لأنها كلها نابعة من الفطرة

الإنسانية كما ذكرناها). لصلح المجتمع، وساد الوثام والصفاء، ورفرف الخير على المجتمع وعلى الفرد.

١ . نهج الفصاحة: ص٦٣٦.

مجتمع الإيمان والعمل

بين مجتمع الإيمان ومجتمع الكفر

وعلى هذا، فالمجتمع السليم هو المجتمع المؤمن بالله واليوم الآخر، الخاضع لأحكام الله ورسوله، ويكون الجميع فيه أخوة متساوين أمام القانون، والكل حرٌّ مسؤول عن عمله بدون إكراه فردي أو أجوائي، وله أجره بدون استغلال إنسان لإنسان آخر، ولكل حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قدم المساواة، وبقدر الكفاءات، ولو تعدى إنسان على إنسان آخر عوقب المتعدي، وإن كان المتعدي عليه عفاً، فالإنسان محترم، متخلق بالفضيلة وليس عبداً لشهوة أو مال أو جاه، وهو يملك كل آثاره مما حصله، فهو مسلط على نفسه وماله في إطار عدم الإضرار بالآخرين من جيله المعاصر والأجيال الآتية، وتُحفظ في مثل هذا المجتمع أواصر العائلة والأقرباء، والأصل في هذا المجتمع بالنسبة إلى كل فرد فرد (البراءة) حتى تثبت إدانته أو دينه، والأصل في عمله الصحة فلا يحمل عمله على الفساد، وكل شيء للإنسان في هذا المجتمع ظاهر حلال حتى يثبت خلافه، ومثل هذا المجتمع يصبح الفرد فيه كالمجتمع العام أيضاً باطنه الأمن والحب وظاهره التمتع والتقدم وليس مثل هذا المجتمع أجنبياً عن نفسه ومنفصلاً عن ذاته، ولا له وجهان: ظاهر وباطن متخالفان، بل الظاهر والباطن والفرد والمجتمع كلها وحدة واحدة تسير إلى الأمام، وفي مثل هذا المجتمع يكون (الإنسان) المحور وسائر الأشياء خدام له.. فهو مجتمع إتمام الكفاءات والتعالى، وتبادل الحب، وتقديم الأفضل فالأفضل.

لكن مثل هذا المجتمع لا يوجد إلا تحت مظلة الأنبياء (عليهم السلام) أما المجتمع العالمي الحاضر الذي وجد تحت مظلة المادة والشهوة فليس إلا المجتمع الذي يتأخر يوماً بعد يوم، وهو مجتمع تحطيم الكفاءات، وتبادل البغضاء وتقديم الأسوأ فالأسوأ.. الخ.

الفقر في ظل الأنظمة المعاصرة

والصياغة الجديدة التي تريد أن تقضي على الفقر والانحراف العالمي يجب أن تخدم هذا النظام الرأسمالي . الذي يمارسه الغرب والشرق والبلاد الدائرة في أفلاكهما . فإن هذا النظام سبب الفقر في الغرب لسببين، وفي الشرق لثلاثة أسباب، وفي العالم الثالث لأربعة أسباب، فما دام هذا النظام موجوداً فالفقر ضارب بأجرانه على كل العالم.

أما سبب الفقر في الغرب فهو:

أولاً: سرقة الرأسماليين ثروات الفقراء تحت ستار مختلف القوانين والأنظمة، كأنظمة البنوك الربوية وأنظمة الاحتكارات الجماهيرية وعدم إعطاء حق العامل والفلاح والموظف ومن اليهم بقدر ما يعملون.

ثانياً: عدم إعطاء (رأس المال) المجال لأكثرية الشعب حتى يتمكن الإنسان من استثمار مواهبه، مثلاً: المثقف له من الحق أكثر من حق العامل البسيط الجاهل، والإنسان إذا هُيئت له الأجواء أصبح طبيباً ومهندساً ومحامياً وأستاذاً وغير ذلك، لكن الرأسمال لا يعطي المجال لهؤلاء حتى تنطلق مواهبهم وحتى يكونوا في مستوى عالٍ من

القوم، فيتأخرون، ولذا يجرمون من استثمار مواهبهم وعائدات التي تعود إليهم، مثلهم في ذلك مثل إنسان يعيش على معدن ويتمكن من استخراج المعدن حتى يرفع حالته ويحسن معيشته، لكن الأنظمة التي وضعها الدكتاتوريين تمنع من استخراج المعدن.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في جملة حكمة بعثة الأنبياء (عليهم السلام): (ويثيروا لهم دفائن العقول)(١).

يعني: أن الأنبياء (عليهم السلام) يثيرون للناس دفائن عقولهم حتى يتمكنوا من الاستمتاع الكامل بالحياة ورؤية الطريق.

هذا بالنسبة إلى الفقر في الغرب.

أما الفقر في الشرق فيضاف إلى السببين الموجودين في الغرب سبب ثالث، وهو: إن الدولة المستبدة تستنفذ آخر قطرة من ثروات الناس، وليس هناك في الشرق من يدافع عن العمال والفلاحين والموظفين وسائر طبقات الشعب، بينما في الغرب ديمقراطية مهلهلة، ودفاع صوري يوقف الرأسماليين والدولة عند حددهما ولو بقدر، وهذا الشيء مفقود في الشرق الشيوعي.

أما في العالم الثالث (حسب المصطلح) فيضاف إلى الأسباب الثلاثة سبب رابع هو: إن المواد الخام التي هي ملك طبيعي للناس يشترتها الشرق والغرب منهم بأقل قدر ممكن، وليست القيمة عادلة، لكنهم مضطرون من البيع للشرق والغرب، ثم إذا صنع الشرق والغرب تلك المواد باعاً المصنوع للعالم الثالث بأكثر من الثمن. والأنظمة الموجودة في العالم الثالث. وهي أنظمة تابعة للشرق أو الغرب إما بشكل صريح أو مغلف. تساعد ذلك.

الحدود الجغرافية والطبقية المقيتة

ثم إنه إذا كان اختلاف سطح الثروة في بلدٍ ما سابقاً، يسبب فقر جماعة وغنى جماعة كان الفقراء يعالجون المشكلة بالذهاب إلى بلاد الغنى، لأن الثروة للكل، والله سبحانه وتعالى لم يخلق البشر لأن يكون بعضهم رأسماليين كبار وأصحاب مليارات وملايين، وبعضهم يتضورون جوعاً ولا يجدون حتى لقمة العيش وغذاءً كافياً ودواءً ينقذهم من الأمراض، ولذا كان السطح يتعادل، مثلاً: لما وجدت الثروة في أوروبا نزحت جماعات كبيرة من الآسيويين إلى هناك، ولما ظهرت أمريكا نزحت الملايين من أوروبا إلى أمريكا.

أما في الوقت الحاضر فقد جعلت الأنظمة المنحرفة للبلاد سياجاً محكماً لا يتمكن الفقير من دخولها، ولذا بقي الفقراء فقراء بل ازدادوا فقراً ووصل الأغنياء إلى فوق حد التخمّة، بينما كان مقتضى القاعدة أن يتمكن الإنسان (وهو عيال الله سبحانه وتعالى كما في الأحاديث) أن يذهب إلى أي مكان شاء من الأرض ويكتسب ويكد ويجتهد ويستخرج ثروات الأرض.

وعلى هذا، فقد حدث شيان كلاهما خلاف فطرة الإنسان وخلاف شرائع السماء.

السبب الأول: إن البلاد الغنية لا تتقبل الفقراء، فهناك سياج بين البلاد الغنية والبلاد الفقيرة يمنع دخول الفقراء في بلاد الأغنياء.

والسبب الثاني: إن البلاد الغنية تمتص الثروة من البلاد الفقيرة . كما تقدم . بمختلف الوسائل والسبل والأنظمة والحكومات العميلة، بسبب الخبراء، بسبب تصدير المصنوعات، بسبب نهب الخيرات والمواد الخام، وغير ذلك، فبينما كان الفقراء يذهبون في السابق إلى البلد الذي يزداد غنى ليكونوا أغنياء (كما هو غني أيضاً) نشاهد في الوقت الحاضر أنه لا يسمح للفقير بدخول أراضي الله الواسعة، وبالإضافة إلى ذلك تمتص البلاد الغنية بقايا الثروة الموجودة في بلاد الفقراء وتكدسها فوق ثرواتها، ولذا تجد في الغرب وفي البلاد الغنية أصحاب المليارات، وتجد في البلاد الفقيرة مئات الملايين من الجائعين.

الفقراء يتحسسون واقعهم!

ثم إن الفقراء في العالم السابق ما كانوا يحسون بمشكلة فقرهم بمقدار ما يحسون بها في الزمن الحاضر، فقد زاد إحساس الفقراء بفقرهم حساً متزايداً مما سبب لهم عقداً نفسية ومشاكل جمّة، وإنما زاد إحساس الفقراء بفقرهم لأسباب:

الأول: الوسائل العالمية التي أوصلت العالم بعضه ببعض، من راديوات وتلفزيونات ومدارس وكتب ومجلات وجرائد وسينمات وأفلام وأشرطة وغير ذلك.

الثاني: الأسفار التي سببت اتصال الفقراء بالأغنياء، واتصال الأغنياء بالفقراء، فوجد الفقراء العيشة المرفهة عند الأغنياء، فازدادوا حساً بفقر أنفسهم.

الثالث: الحروب خصوصاً الحرب العالمية الثانية، حيث احتاج الغرب والشرق إلى المال، فجاؤوا لنهب معادن البلاد الفقيرة، فعرف الفقراء كيفية عيش الأغنياء، وبذلك ازدادوا حساً بالفقر والظلم والاضطهاد والتأخر.

الرابع: فضح كل من القدرتين العظيمتين ومن في فلكتهما . يعني أمريكا ومن في فلكتها . كالبلاد البريطانية والفرنسية والألمانية واليابانية وغيرها من هذا الجانب، وروسيا والبلاد التي في فلكتها من الجانب الآخر، فضح كل منهما القدرة الأخرى، حيث إن كل قدرة . أزدت استعمار الناس . فضحت القدرة الأخرى بأنها تعيش في رفاة وبجبوحه من الخير، بينما البلاد الفقيرة تعيش فقراً مدقعاً، حتى تسببت هذه القدرة في سحب أنظار البلاد الفقيرة إلى نفسها، مما سبب تفتح عيون الفقراء والمضطهدين، ومعرفتهم كيفية تحطمهم وفقرهم وذلمهم وتأخرهم ولم يكن هذا الشيء موجوداً في السابق.

الخامس: أنظمة بلاد الفقراء سببت تفتح عيون الفقراء، حيث إن الحكومات التي تسيطر على تلك البلاد على الأغلب دول دكتاتورية تهيم لنفسها كل الخيرات، فترى الشعوب كيفية حياتها المترفة، مما يوجب طلب الشعوب لمثل تلك الحياة، لكن حيث لا يتمكنون منها يقع بين الدولة والشعب التنازع والتنافر والخصام، وينتهي إلى الثورات والحروب والانقلابات وغير ذلك، مما يسبب إحساس الفقراء بالفقر أكثر فأكثر.

فالفقراء . بالإضافة إلى أن الفقر أنه أمر واقعي في بلادهم . فهو شيء ملموس لهم، وفرق بين مريض لا يعلم بأنه مريض، وبين مريض يعلم بأنه مريض فهذه المعرفة تسبب له آلاماً نفسية بالإضافة إلى واقعه الخطير . وعلى أي حال، فالفقراء يزدادون فقراً بصورة مستمرة لحساب تقدم بلاد الأغنياء وبصورة مستمرة.

نتائج الفقر

أما نتائج الفقر والتأخر فهي كثيرة نذكر منها عشرين:

الأول: ضعف العقيدة وانتشار الرذيلة، وقد ورد في الحديث: (كاد الفقر أن يكون كفراً)(٢).

وفي حديث آخر: (الفقر سواد الوجه في الدارين)(٣).

ومن الطبيعي أن الكفر والرذيلة مقترنان.

الثاني: ارتفاع نسبة الأمراض وكثرة الموت، ولذا نشاهد أن الأمراض في البلاد الفقيرة أكثر من الأمراض في البلاد الغنية، كما أن الموت المبكر يوجد في البلاد الفقيرة بصورة مذهلة، وكثير من الأطفال يموتون جوعاً أو لسوء التغذية أو لعدم استقامة البيئة، بينما هذه الأمور ليست موجودة في بلاد الأغنياء بهذا الشكل.

الثالث: قلة الزواج وكثرة العزاب والعوانس، فإن الزواج له تكاليفه، بحيث إن الفقير لا يتمكن من تحملها، فيبقى عازباً وعازبة، ومن الواضح إن عدم الزواج يسبب الآلام النفسية كما يسبب الآلام الجسدية والأمراض وغير ذلك. الرابع: سوء التغذية.

الخامس: تلوث البيئة.

السادس: ارتفاع نسبة الجهل ارتفاعاً كبيراً.

السابع: كثرة النزاع، فإن الفقر - بالإضافة إلى أنه بنفسه يسبب النزاع بين جانبين يتجادبان شيئاً من الثروة - فهو يسبب سوء الخلق، وسوء الخلق ينتهي إلى النزاع والشقاق، والطلاق في بلاد الفقراء أكثر منه في بلاد الأغنياء. الثامن: كثرة البطالة.

التاسع: العقد النفسية.

العاشر: قلة وسائل الراحة، فإن الفقير لا يتمكن من أوليات حياته فكيف يتمكن من تهيئة وسائل الراحة لنفسه ولعائلته؟

الحادي عشر: تأخر المرأة تأخراً فظيماً، وسقوط جملة منهن في بؤرة الرذيلة، أما حقوقهن السياسية والاجتماعية والاقتصادية فليس منها أثر.

الثاني عشر: قلة الاستهلاك تبعاً لقلة الدخل.

الثالث عشر: استخدام الأطفال قبل السن المقررة للخدمة، لأن الفقراء يضطرون إلى استخدام أطفالهم في خدمات شاقة وبأجور زهيدة، لعلهم يتمكنون من سد بعض حاجاتهم الملحة الضرورية.

الرابع عشر: الدكتاتورية في الحكم، ولذا لا تجد في البلاد المتأخرة حتى بلداً واحداً ديمقراطياً ولو بقدر ديمقراطية الغرب.

الخامس عشر: قلة الوعي، والوعي الموجود شاذ نادراً حتى يصح أن يقال بأنه كالعدم.

السادس عشر: يباب الصحارى، لأن الصحارى لا يمكن أن تثمر إلا بالوسائل، وبالمال، هذا بالإضافة إلى قانون (الإصلاح الزراعي!) الذي يفرض في أمثال هذه البلاد لأجل تحطيم الزراعة واللحوم والألبان ومنتجاتها حتى يبيع الغرب والشرق مثل هذه البلاد: الحبوب ومنتجاتها واللحوم ومشتقاتها.

السابع عشر: قلة النظام، فإن الإنسان الذي لا يتمكن من سد جوعه أو ستر جسده، هل يمكن أن يفكر في جعل النظام أو أن يلتزم بالنظام؟

الثامن عشر: قلة النظافة:

أولاً: لقلة الوعي.

وثانياً: لقلة الماء.

وثالثاً: لقلة الوسائل.. إلى غير ذلك.

التاسع عشر: عدم التمتع بخيرات الصناعة، فالصناعة في تلك البلاد قليلة جداً لأنهم لا يملكون القوت فهل يتمكنون من شراء السيارة والثلاجة والغسالة وغيرها؟

العشرون: عدم نمو الكفاءات، لأن الكفاءات إنما تتفتق في بيئة علمية حرة مشجعة لنمو الكفاءات، وكل هذه المؤهلات غير موجودة.

إلى غير ذلك من العلام والآثار والأضرار النازلة بالعالم المتأخر.

وليس علاج تأخر العالم الثالث بالمعونات وتغيير الأنظمة بالانقلابات وما أشبهه، والمؤتمرات ونحوها، وإنما العلاج: تغيير النظام العالمي من الرأسمالية . الغربية والشرقية . إلى النظام المالي المعتدل الذي يعطي لكل إنسان حقه، ولكل إنسان عمله، وكل إنسان فيه حر في أن يكتسب ما يشاء بحيث لا يضر الآخرين، وان يتعلم، وان يسير وأن يتقدم كما يريد.

عاملان أساسيان وراء المشكلات

وأخيراً: فإن كل مشاكل العالم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها ناشئة عن أمرين أساسيين:

أحدهما: عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى بالنسبة إلى كثير من الذين يقولون: (إنا مؤمنون) فإن الإيمان أحياناً شعار ولفظ وأعمال مبتورة، وأحياناً يكون ناشئاً عن قلب الإنسان وعمقه بأن يكون الإيمان مخالطاً لحمه ودمه وظاهره وباطنه، فإن الإنسان المؤمن هو الذي يتقي الله في الظلم والتعدي وأكل حقوق الآخرين ويتقي الله أيضاً حتى من البطالة والإسراف والتبذير والتقتير وغير ذلك.

والثاني: الجهل، فإنه ربما يكون الإنسان مؤمناً واقعاً، لكنه جاهل، والجهل يوجب عدم تمكن الإنسان من فهم الحياة (أي فهم الاقتصاد وفهم السياسة وفهم الاجتماع).

ولا نقصد بالجهل أن يكون الإنسان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، إذ في كثير من الأحيان (كما نشاهد في العالم الثالث وفي غير العالم الثالث) يكون خريج الجامعة والمهندس والدكتور والمحامي والطبيب وغيرهم أميين جهلاء بأسلوب الحياة، فإن معرفة الطب شيء ومعرفة كيفية تسيير الحياة شيء آخر، ولذا نجد في العالم الثالث

ألف الدكاترة والمهندسين والعلماء والأطباء وغيرهم من ذوي الشهادات الراقية ومع ذلك لا يتمكنون أن يفهموا كيف يعيشون؟

ومن الواضح، إن من لا يفهم كيف يعيش يعدّ جاهلاً، وإن كان يعرف الكتابة والتأليف وعلاج المرضى والدفاع عن أطراف الدعاوي، وإلى غير ذلك.

نحو تعميم الإيمان والعلم

فمن الضروري تعميم الإيمان وتعميم العلم إذا أردنا اجتثاث جذور الفقر من العالم كله لا في بلادنا فحسب، بل في بلاد الشيعيين بطريق أولى لأنهم أجهل بطرق الحياة من العالم الثالث، وفي بلاد الغربيين أيضاً لأنهم أيضاً جهلاء بطرق العيش والحياة لأنهم لو كانوا يعلمون بطرق العيش والحياة لم تتحكم فيهم الرأسمالية الجائرة ولم يتحكم فيهم الاستعمار والاستغلال، لوضوح إن الإنسان بفطرته المدعومة بالإيمان والعلم يأبى حتى عن استعمار الآخرين واستغلالهم.

ولذا ورد في الأحاديث الكثيرة . تبعاً للآيات الشريفة . تأكيدات على الإيمان وعلى العلم، وإنا نذكر طائفة من الروايات الواردة في هذا الباب حول العلم تميمياً للمقصد.

فقد قال الإمام علي بن الحسين (عليه السلام): (... فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله)(٤).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (طلب العلم فريضة)(٥).

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه الصلاة والسلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يحب بغات العلم)(٦).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)(٧).

وروى محمد بن علي القتال عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٨).

وعن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الشاخص في طلب العلم، كالجاهد في سبيل الله، إن طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٩).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من تعلم باباً من العلم عمن يثق به كان أفضل من أن يصلي ألف ركعة)(١٠).

وروي أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (طلب العلم فريضة من فرائض الله)(١١).

وروى الجاشعي، عن الرضا عن آبائه عن علي صلوات الله عليهم أجمعين قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العالم بين الجهال كالحي بين الأموات . إلى أن قال .: فاطلبوا العلم فإنه السبب بينكم وبين الله عز وجل وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم)(١٢).

وعن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم فاطلبوا العلم من مظانه واقتبسوه من أهله)(١٣).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا أو أضلوا) (١٤).

ومن الواضح، إن الإفتاء بغير علم ليس خاصاً بموازين القضاء والمرافعات والشكايات، بل يشمل كل أقسام العلم كالعلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والحيوية وغيرها.

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (أربع يلزم من كل ذي عقل وحجى من أمي قيل: يا رسول الله ما هن؟ قال: استماع العلم وحفظه ونشره عند أهله والعمل به) (١٥).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه الصلاة والسلام قال: (اطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار) (١٦). إلى غيرها من الروايات الكريمة.

تعاليم إسلامية في الكسب والتجارة
الإسلام يدعو إلى التجارة والكسب

عن المعلى بن خنيس قال: رأيتني أبو عبد الله (عليه السلام) وقد تأخرت عن السوق فقال: (اغد إلى عرك) (١٧). وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (تسعة أعشار الرزق في التجارة) (١٨).

وعن عبد المؤمن الأنصاري، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (البركة عشرة أجزاء تسعة أعشارها في التجارة والعشر الباقي في الجلود) (١٩).

قال الصدوق يعني بالجلود الغنم، واستدل بما عن الحسين بن زيد، عن أبيه زيد بن علي، عن آبائه (عليهم السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (تسعة أعشار الرزق في التجارة، والجزء الباقي في السابيا) (٢٠) يعني الغنم.

(أقول: ذلك محمول على زمان ورود الرواية).

وعن علي (عليه السلام) . في حديث الأربعمائة . قال: (تعرضوا للتجارات فإن لكم فيها غنى عما في أيدي الناس، وإن الله عز وجل يحب المحترف الأمين، المغبون غير محمود ولا مأجور) (٢١). أي لا يحمده الناس ولا يعطيه الله الأجر.

وعن علي (عليه السلام) في بيان معاش الخلق (إلى أن قال) (وأما وجه التجارة فقولته تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) (البقرة: ٢٨٢).

فعرّفهم سبحانه كيف يشترتون المتاع في السفر والحضر وكيف يتجرون إذ كان ذلك من أسباب المعاش) (٢٢). عن محمد الزعفراني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من طلب التجارة استغنى عن الناس، قلت: وإن كان معيلاً؟ قال: وإن كان معيلاً إن تسعة أعشار الرزق في التجارة) (٢٣).

وعن أبي بكير عمير حدثه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (التجارة تزيد في العقل) (٢٤). (لوضوح أن العقل العملي في العمل).

وعن هشام بن أحمد قال: كان أبو الحسن (عليه السلام) يقول لمصادف: (أغد إلى عرك) (٢٥) يعني السوق.

وعن الفضل بن أبي قرّة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث: إن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال للموالي: (اتجروا ببارك الله لكم، فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: الرزق عشرة أجزاء تسعة أجزاء في التجارة وواحدة في غيرها)(٢٦).

وعن علي بن عقبة قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) لمولى له: (يا عبد الله احفظ عزك) قال: وما عزي جعلت فداك؟ قال: (غدوك إلى سوقك، وإكرامك نفسك)(٢٧).

وقال لآخر مولى له: (ما لي أراك تركت غدوك إلى عزك؟) قال: جنازة أردت أن أحضرها، قال: (فلا تدع الرواح إلى عزك)(٢٨).

وعن عبد الأعلى قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام)، عن قول الله: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (البقرة: ٢٠١).

قال: (رضوان الله والجنة والسعة في المعيشة وحسن الخلق في الدنيا)(٢٩).

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال: (رضوان الله والتوسعة في المعيشة وحسن الصحبة وفي الآخرة الجنة)(٣٠).

(وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه مرّ في غزوة تبوك بشاب جلد يسوق أبرة سماناً، فقال أصحابه: يا رسول الله لو كانت قوة هذا وجلده وسمن أبعرته في سبيل الله لكان أحسن، فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: رأيت أبعرتك هذه، أي شيء تعالج عليها؟ فقال: يا رسول الله لي زوجة وعيال فأنا أكسب بها ما أنفقته على عيالي وأكفهم عن الناس، وأقضي ديناً علي، قال: لعل غير ذلك؟ قال: لا، فلما انصرف قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لئن كان صادقاً إن له لأجرًا مثل أجر الغازي وأجر الحاج وأجر المعتمر)(٣١).

وفي المقنع، قال الصادق (عليه السلام): (من لزم التجارة استغنى عن الناس)(٣٢).

وروى علي بن إبراهيم في تفسيره، رسالة في سياق قصة مريم وولادة عيسى (عليه السلام) (إلى أن قال): ثم استقبلها قوم من التجار فدلوها على النخلة اليابسة فقالت لهم: (جعل الله البركة في كسبكم وأحوج الناس إليكم)(٣٣).

وعن أبي إمامة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الخير عشرة أجزاء أفضلها التجارة، إذا أخذ الحق وأعطى الحق)(٣٤).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (تسعة أعشار الرزق في التجارة)(٣٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (أطيب ما أكل الرجل من كسبه وولده من كسبه)(٣٦).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث أنه قيل له: وبم الافتخار؟ قال: (بإحدى ثلاث، مال ظاهر وأدب بارع، وصناعة لا يستحي المرء منها)(٣٧).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام)، أنه سأل بعض أصحابه عما يتصرف فيه؟ فقال: جعلت فداك إني كففت يدي عن التجارة؟ قال: ولم ذلك؟ قال: انتظاري هذا الأمر، قال: (ذلك واعجب لكم يذهب أموالكم لا تكف عن التجارة والتمس من فضل الله، افتح بابك، وابسط بساطك، واسترزق ربك، وإذا كنت في تجارتك وحضرت

الصلاة فلا يشغلك عنها متحرك، فإن الله وصف قوماً ومدحهم فقال: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) (النور: ٣٧).

وكان هؤلاء القوم يتجرون، فإذا حضرت الصلاة تركوا تجارتهم وقاموا إلى صلاتهم وكانوا أعظم أجراً ممن لا يتحرّف ويصلي) (٣٨).

وفي المقنع عن الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (لا تترك التجارة، فإن تركها مذهب العقل) (٣٩). وعن ابن عباس، أنه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: له حرفة؟ فإن قالوا: لا، قال: سقط من عيني، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: (لأن المؤمن إذا لم يكن له حرفة يعيش بدينه) (٤٠).

وعن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين (عليه السلام) يدع خلفاً لفضل علي بن الحسين (عليه السلام) حتى رأيت ابنه محمد بن علي (عليه السلام) فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيت محمد بن علي (عليه السلام)، وكان رجلاً بديناً وهو متكئ على غلامين له أسودين، أو موليين له، فقلت في نفسي شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا والله لأعظنه، فدنوت منه فسلمت عليه فسلم علي بنهر وقد تصبب عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة في طلب الدنيا لو جاءك الموت وأنت في هذه الحال؟ قال: فحلى عن الغلامين من يده ثم تساند وقال: (لو جاءني والله الموت وأنا في هذه الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله، أكف بما نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف الموت لو جاءني وأنا على معصية من معاصي الله) فقلت: يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني (٤١).

وعن ابن فضال عن الصادق، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله)، قال: (الشاحص في طلب الرزق الحلال كالمجاهد في سبيل الله) (٤٢).

وعن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العبادة سبعون جزءاً أفضلها جزء طلب الحلال) (٤٣).

وفي رواية أخرى قال (صلى الله عليه وآله): (العبادة عشرة أجزاء تسعة أجزاء في طلب الحلال) (٤٤). أقول: الجمع بينهما بمراتب الفضل.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (ما عدوة أحدكم في سبيل الله بأعظم من غدوته يطلب لولده وعياله ما يصلحهم) (٤٥).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (إنه ليأتي الرجل منكم لا يكتب عليه سيئة وذلك أنه مبتلى بالمعاش) (٤٦).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا صدقة، قيل: يا رسول الله فما يكفرها؟ قال: الهموم في طلب المعيشة)(٤٧).

وفي لب الباب، عن الصادق (عليه السلام)، أنه قال: إني لأركب في الحاجة التي كفاها الله، ما أركب فيها إلا لالتماس أن يراني أضحي في طلب الحال، أما تسمع قول الله: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) (الجمعة: ١٠)(٤٨).

وفي الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الرحال تفيد المال)(٤٩).

وعن الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل جلس عن طلب الرزق ثم يقول: اللهم ارزقني، يقول الله تبارك وتعالى: ألم أجعل لك طريقاً في الطلب؟) (الخير)(٥٠).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: (أربعة لا يستجاب لهم دعاء: رجل جالس في بيته يقول: يا رب ارزقني، فيقول له: ألم أمرك بالطلب) (الخير)(٥١).

(ذكر الثلاثة مرة وأربعة مرة) باعتبار اختلاف محل الحاجة بالنسبة إلى السائل.

وفي الحديث أنه لما نزل قوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) (الطلاق: ٢ - ٣). إنقطع رجال من الصحابة في بيوتهم واشتغلوا بالعبادة وثوقاً بما ضمن لم فعلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك، فعاب ما فعلوه، وقال: إني لأبغضه الرجل فاغراً إلى ربه يقول: اللهم ارزقني ويترك الطلب.

وعن عبد الله عن محمد، عن موسى قال: حدثنا أبي عن أبيه عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (نعم العون على تقوى الله الغنى)(٥٢).

وعن ذريح قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (نعم العون الدنيا على الآخرة)(٥٣).

وعن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنا لنحب الدنيا! فقال لي: تصنع بها ماذا؟ قال: أتزوج منها، وأنفق على عيالي، وأنيل أخواني، وأتصدق، قال لي: (ليس هذا من الدنيا، هذا من الآخرة)(٥٤).

وعن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: كان لقمان يقول لابنه: (يا بني إن الدنيا بحر، وقد غرق فيها جيل كثير (إلى أن قال): يا بني خذ من الدنيا بلغة، ولا تدخل فيها دخولاً تضر فيها بآخرتك، ولا ترفضها فتكون عيلاً على الناس) (الخير)(٥٥).

ومن كلام لعلي (عليه السلام) بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده، فلما رأى سعة داره قال: (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا، أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة. تقرى فيها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة)(٥٦).

وروى الراوندي في لب الأبواب، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من طلب الدنيا حلالاً استغفافاً عن المسألة وسعيّاً على عياله وتعطفاً على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر)(٥٧).

وفي الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (ألا وإن من النعم سعة المال، وأفضل من سعة المال صحة البدن، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب)(٥٨).

وعن زياد القندي قال: كان أبو عبد الله (عليه السلام) إذا رأى إسحاق بن عمار واسماعيل بن عمار قال: (وقد يجمعهما لأقوام)(٥٩) يعني الدنيا والآخرة.

وروى علي بن إبراهيم (في تفسيره) قال: وذكر رجل عند أبي عبد الله (عليه السلام) الأغنياء ووقع فيهم، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): (اسكت، فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمه، وباراً بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين، لأن الله يقول: (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) (سبأ: ٣٧)(٦٠).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (هلك المثرون، قلنا: يا رسول الله إلا من فأعادها ثلاثاً، ثم قال: إلا من فرّقه في حياته في أعمال الخير، قال: هكذا هكذا وقليل ما هم)(٦١).

وروى الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (القبر خير من الفقر) وقال (عليه السلام): (إن إعطاء هذا المال في طاعة الله أعظم نعمة، وإن إنفاقه في معاصيه أعظم محنة)(٦٢).

وفي (نهج البلاغة) قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في كلام له: (وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسينين، أما داعي الله فما عند الله خير له، وأما رزق الله فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه إن المال والبنين حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام)(٦٣).

فضل كسب اليد

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، في قول الله تبارك وتعالى: (وأنه هو أغنى وأقنى) (النجم: ٤٨).

قال: (أغنى كل إنسان بمعيشتته وأرضاه بكسب يده)(٦٤).

وفي مجمع البيان، روي أنهم (يعني الحواريين) اتبعوا عيسى (عليه السلام)، وكانوا إذا جاعوا قالوا: يا روح الله جعنا، فيضرب بيده على الأرض سهلاً كان أو جبلاً فيخرج لكل إنسان منهم رغيفان يأكلانه، فإذا عطشوا قالوا: يا روح الله عطشنا فيضرب بيده على الأرض، سهلاً كان أو جبلاً فيخرج ماء فيشربون، قالوا: يا روح الله من أفضل منا إذا شئنا أطعمنا، وإذا شئنا سقينا، وقد آمنا بك واتبعناك، قال: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه، فصاروا يغسلون الثياب بالكراء)(٦٥).

وفي نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ولقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله) كاف لك في الأسوة (إلى أن قال): وإن شئت ثلثت بداود صاحب المزامير وقارئ أهل الجنة، فلقد كان يعمل سفاسيف الخوص بيده، ويقول جلسائه (أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص الشعير من ثمنها))(٦٦).

وفي جامع الأخبار عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من أكل من كد يده مر على الصراط كالبرق الخاطف)(٦٧).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (من أكل من كد يده حلالاً فتح له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء)(٦٨).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من أكل من كد يده نظر الله إليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبداً)(٦٩).
وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (من أكل من كد يده يكون يوم القيامة في عداد الأنبياء ويأخذ ثواب الأنبياء)(٧٠).

وعن عامر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل حين أهبط آدم (عليه السلام) من الجنة أمره أن يحرث بيده فيأكل من كدها بعد نعيم الجنة) (الخبز)(٧١).
وعن نجم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن فاطمة (عليها السلام) ضمنت لعلي (عليه السلام) عمل البيت والعجين والخبز وقم البيت، وضمن لها علي (عليه السلام) ما كان خلف الباب نقل الحطب وأن يجيء بالطعام)(٧٢).

وروى الحسن بن أبي الحسن الديلمي في إرشاد القلوب قال: (روي أنه . يعني أمير المؤمنين (عليه السلام) . لما كان يفرغ من الجهاد يتفرغ لتعليم الناس والقضاء بينهم، فإذا فرغ من ذلك اشتغل في حائط له يعمل فيه بيديه وهو مع ذلك ذاكر لله تعالى)(٧٣).

وفي دعائم الإسلام، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أنه كان يعمل بيده ويجاهد في سبيل الله، إلى أن قال: وأقام على الجهاد أيام حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومنذ قام بأمر الناس إلى أن قبضه إليه، وكان يعمل في ضياعه ما بين ذلك فأعتق ألف مملوك كل من كسب يده)(٧٤).

وعن أبي عمر قال: كان سلمان يسفّ الخوص وهو أمير على المدائن ويبيعه ويأكل منه ويقول: لا أحب أن أكل إلا من عمل يدي، وقد كان تعلّم سفّ الخوص من المدينة.

وفي كتاب سلمان (إلى أن قال): وأما ما ذكرت إني أقبلت على سفّ الخوص وأكل الشعير فما هما مما يعير به مؤمن ويؤنب عليه، وأيم الله يا عمر لأكل الشعير وسفّ الخوص والاستغناء به عن رفيع المطعم والمشرب وعن غضب مؤمن وادعاء ما ليس له بحق أفضل وأحب إلى الله عز وجل وأقرب للتقوى، ولقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أصاب الشعير أكله وفرح به ولم يستخط) (الخبز).

وروى أبو عمرو الكشي في رجاله قال: كان محمد بن مسلم، رجلاً موسراً جليلاً، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): (تواضع) فأخذ قوصرة فوضعها على باب المسجد وجعل يبيع التمر فجاء قومه، فقالوا: أفضحتنا، فقال: أمرني مولاي بشيء فلا أبرح حتى أبيع، فقالوا: أما إذا أبيت إلا هذا فاقعد في الطحانين، ثم سلموا إليه رحي فقعده على بابه وجعل يطحن.

وروى يوسف بن يعقوب عن صالح بياح الأكسية أن جدّته لقيت علياً (عليه السلام) بالكوفة ومعه تمر يحمل، فسلمت عليه وقالت له: أعطني يا أمير المؤمنين أحمل عنك إلى بيتك، فقال: أبو العيال أحق بحمله(٧٥).

الزراعة في الإسلام

جعفر بن أحمد القمي في كتاب الغايات، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سأله رجل عنده فقال: جعلت فداك اسمع قوماً يقولون إن الزراعة مكروهة فقال: (ازرعوا واغرسوا والله ما عمل الناس عملاً أجلاً ولا أطيب منه) (٧٦).

وعنه (عليه السلام) أيضاً قال: (ما في أعمال شيء أحب إلى الله تعالى من الزراعة، وما بعث الله نبياً إلا زارعاً إلا إدريس، فإنه كان خياطاً) (٧٧).

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوماً في بستان أم سعيد فقال: هذه الغروس غرسها كافر أم مسلم؟ فقالت: يا رسول الله غرسها مسلم، فقال: (ما من مسلم يغرس غرساً يأكل منه إنسان أو دابة أو طير إلا أن يكتب له صدقة إلى يوم القيامة) (٧٨).

١. نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ١، ص ٢٣، دار المعرفة - بيروت.
٢. الكافي: ج ٢، ص ٣٠٧، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الرابعة.
٣. بحار الأنوار: ج ٦٥، ص ٣٠، دار المعارف - بيروت.
٤. وسائل الشيعة: ج ٥، ص ٣٩٤، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٥. الكافي: ج ١، ص ٣٠، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الثالثة.
٦. المصدر السابق.
٧. بحار الأنوار: ج ١، ص ١٧٧، دار المعارف - بيروت.
٨. وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ١٤، دار إحياء التراث العربي.
٩. المصدر السابق.
١٠. المصدر السابق.
١١. المصدر السابق.
١٢. بحار الأنوار: ج ١، ص ١٧٢، دار المعارف - بيروت.
١٣. المصدر السابق: ص ١٧١.
١٤. المصدر السابق: ج ٢، ص ١١٠.
١٥. المصدر السابق: ج ١، ص ١٦٨.
١٦. الكافي: ج ١، ص ٣٦، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الثالثة.
١٧. وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٨. الكافي: ج ٥، ص ١٤٨، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الثالثة.
١٩. وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٢٠. المصدر السابق.

- ٢١ . المصدر السابق: ص ٤ .
- ٢٢ . بحار الأنوار: ج ٨٦، ص ٤٨، دار المعارف . بيروت .
- ٢٣ . الكافي: ج ٥، ص ١٤٨، دار الكتب الإسلامية . طهران، الطبعة الثالثة .
- ٢٤ . المصدر السابق .
- ٢٥ . المصدر السابق: ص ١٤٩ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٣١٩ .
- ٢٧ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٥، دار إحياء التراث العربي . بيروت .
- ٢٨ . المصدر السابق .
- ٢٩ . مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ٧، مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام) . لاهياء التراث، بيروت .
- ٣٠ . المصدر السابق .
- ٣١ . المصدر السابق: ص ٨ .
- ٣٢ . المصدر السابق: ص ٩ .
- ٣٣ . المصدر السابق .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق .
- ٣٦ . المصدر السابق .
- ٣٧ . المصدر السابق: ج ١٢، ص ٩٢ .
- ٣٨ . المصدر السابق: ج ١٣، ص ١٠ . حرف واحترف الرجل: كدّ على عياله .
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ١١ .
- ٤٠ . المصدر السابق .
- ٤١ . المصدر السابق: ص ١٢ .
- ٤٢ . المصدر السابق .
- ٤٣ . المصدر السابق .
- ٤٤ . المصدر السابق .
- ٤٥ . المصدر السابق: ص ١٣ .
- ٤٦ . المصدر السابق .
- ٤٧ . المصدر السابق .
- ٤٨ . المصدر السابق: ص ١٤ .
- ٤٩ . المصدر السابق .

- ٥٠ . المصدر السابق.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق: ص ١٥.
- ٥٣ . المصدر السابق.
- ٥٤ . المصدر السابق: ص ١٦.
- ٥٥ . المصدر السابق.
- ٥٦ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ١٨٧، دار المعرفة . بيروت.
- ٥٧ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ١٧، مؤسسة أهل البيت لاحياء التراث . بيروت.
- ٥٨ . المصدر السابق.
- ٥٩ . المصدر السابق: ص ١٨.
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ١٩.
- ٦١ . المصدر السابق: ص ٢٠.
- ٦٢ . المصدر السابق.
- ٦٣ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ٥٨، دار المعرفة . بيروت.
- ٦٤ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٣، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لاحياء التراث . بيروت.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٢٣.
- ٦٦ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ٥٨، دار المعرفة . بيروت.
- ٦٧ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٣، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لاحياء التراث . بيروت.
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ٢٤.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق.
- ٧١ . المصدر السابق.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٢٥.
- ٧٣ . المصدر السابق.
- ٧٤ . المصدر السابق.
- ٧٥ . بحار الأنوار: ج ٣٧، ص ١٣٨.
- ٧٦ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٦، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لاحياء التراث . بيروت.
- ٧٧ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٢٥، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
- ٧٨ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٦، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لاحياء التراث . بيروت.

إرشادات في طلب الرزق والعمل

النهي عن الحرص، وطلب الحرام

عن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع فقال: (أيها الناس أنه والله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، واجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بغير حق، فإنه لا يدرك شيء مما عند الله إلا بطاعته)(١).

وعن محمد، عن موسى قال: حدثنا أبي، عن أبيه، عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من سره أن يستجاب دعوته فليطيب كسبه)(٢).

وعن فقه الرضا (عليه السلام): (اتق في طلب الرزق واجمل في الطلب واخفص في الكسب واعلم أن الرزق رزقان: فرزق تطلبه ورزق يطلبك، فأما الذي تطلبه فاطلبه من حلال، فإن أكله حلال إن طلبته في وجهه وإلا أكلته حراماً وهو رزقك لا بد لك من أكله)(٣).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لو كان العبد في حجر لأتاه رزقه فاجملوا في الطلب)(٤).
وعن أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، قال: (خذ من الدنيا ما أتاك، وتولى عما وتولّ عنك، فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلب)(٥).

وعن رسائل الكليني: أن علياً (عليه السلام) قال في وصيته لولده الحسن (عليه السلام): (فاعلم يقيناً أنك لم تبلغ أملك، ولا تعدوا أجلك، فإنك في سبيل من كان قبلك، فخفض في الطلب وأجمل في المكسب، فانه رب طلب قد جر إلى حرب، وليس كل طالب بناج، ولا كل مجمل بمحتاج، وأكرم نفسك عن دنية، وإن ساقطت إلى الرغب فإنك لن تعترض بما تبذل شيئاً من دينك وعرضك بثمن وإن جل (إلى أن قال): ما خير بخير لا ينال إلا بشر، ويسر لا ينال إلا بعسر)(٦).

وعن أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام)، أنه قال: (ادفع المسألة ما وجدت التحمل يمكنك، فإن لكل يوم رزقاً جديداً، واعلم أن الإلحاح في المطالب يسلب البهاء، ويورث التعب والعناء، فاصبر حتى يفتح الله لك باباً يسهل الدخول فيه فما أقرب الصنع إلى الملهوف، والأمن الهارب المخوف، فرمما كانت الغير نوع أدب من الله، والحظوظ مراتب، فلا تعجل على ثمة لم تدرك، وإنما تنالها في أوانها، واعلم أن المدبر لك أعلم بالوقت الذي يصلح حالك، ولا تعجل بجوائحك قبل وقتها فيضيق قلبك وصدرك ويغشا القنوط)(٧).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أيها الناس إن الرزق مقسوم لن يعدو امرؤ ما قسم له فاجملوا في الطلب، وإن العمر محدود لن يتجاوز أحد ما قدر له، فبادروا قبل نفاذ الأجل)(٨).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (... وإن لكل امرئ رزقاً هو يأتيه لا محالة، فمن رضي به بورك له فيه ووسعته، ومن لم يرض به لم يبارك له فيه ولم يسعه، إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله)(٩).
وعن إسماعيل بن كثير، رفع الحديث إلى النبي (صلى الله عليه وآله)، قال مما نزلت هذه الآية: (واسألوا الله من فضله) (النساء: ٣٢).

قال: فقال أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله): ما هذا الفضل؟ أيكم يسأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن ذلك؟ قال: فقال علي بن أبي طالب (عليه السلام): أنا أسأله، فسأله عن ذلك الفضل ما هو؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله تعالى خلق خلقه وقسم لهم أرزاقهم من حلها، وعرض لهم بالحرام، فمن انتهك حراماً نقص له من الحلال بقدر ما انتهك من الحرام وحوسب به)(١٠).

وعن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن أبي جعفر (عليه السلام)، أنه قال: (ليس من نفس، إلا وقد فرض الله لها رزقاً حلالاً يأتيها في عافية، وعرض لها بالحرام من وجه آخر، فإن هي تناولت من الحرام شيئاً قاصها به من الحلال الذي فرض الله لها وعند الله سواهما فضل كثير)(١١).

وعن القطب الراوندي في لب الألباب، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لو أن عبداً هرب من رزقه لاتبعه رزقه حتى يدركه كما أن الموت يدركه)(١٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من طلب الدنيا حلالاً مكاتراً مفاخرراً مرئياً لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان)(١٣).

وعن الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (الرزق يسعى إلى من لا يطلبه)(١٤).
وقال (عليه السلام): (الأرزاق لا تنال بالحرص والمغالبة)(١٥).

وقال (عليه السلام): (ذلل نفسك بالطاعة، وحلها بالقناعة، وخفض في الطلب، واجمل في المكتسب)(١٦).
وقال (عليه السلام): (رزقك يطلبك فأرح نفسك من طلبه)(١٧).

وقال (عليه السلام): (سوف يأتيك أجلك فأجمل في الطلب سوف يأتيك ما قدر لك فخفض في المكتسب)(١٨).

وقال (عليه السلام): (سته يختبر بها دين الرجل (إلى أن قال): والإجمال في الطلب)(١٩).

وقال (عليه السلام): (عجبت لمن علم أن الله قد ضمن الأرزاق وقدرها، وإن سعيه لا يزيده فيما قدر له منها وهو حريص دائب في طلب الرزق)(٢٠).

وقال (عليه السلام): (لكل رزق سعي فأجملوا في الطلب)(٢١).

وقال (عليه السلام): (لن يفوتك ما قسم لك فأجمل في الطلب لن تدرك ما زوي عنك فأجمل في المكتسب)(٢٢).

وقال (عليه السلام): (ليس كل مجمل محروم)(٢٣).

وعن عبد الله بن سليمان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إن الله عز وجل أوسع في أرزاق الحمقى لتعتبر العقلاء، ويعلموا أن الدنيا لا تنال بالعقل ولا بالحيلة) (٢٤).

وعن هشام بن الحكم، عن الكاظم (عليه السلام) قال: (يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته يا هشام من أراد الدنيا بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين فليتضرع إلى الله عز وجل في مسألته بان يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً) (٢٥).

وعن الكراجكي في كنز الفوائد، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (من رضي باليسير من الرزق رضي الله منه باليسير من العمل) (٢٦).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأتته أذاك).

وعن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام)، عن قول الله عز وجل: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) (الطلاق: ٢ - ٣).

قال: (في دنياه) (٢٧).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: فيما وعظ به لقمان ابنه أنه قال: (يا بني ليعتبر من قصر يقينه وضعف تبعه في طلب الرزق: إن الله تعالى خلقه في ثلاثة أحوال من رزقه، وآتاه رزقه ولم يكن في واحدة منها كسب، ولا حيلة إن الله سيرزقه في الحالة الرابعة).

أما أول ذلك، فإنه كان في رحم أمه يرزقه هناك في قرار مكين، حيث لا برد يؤذيه ولا حر، ثم أخرجته من ذلك وأجرى له من لبن أمه يربيه من غير حول به ولا قوة، ثم فطم من ذلك فأجرى له من كسب أبويه برأفة ورحمة من قلوبهما، حتى إذا كبر وعقل واكتسب ضاق به أمره، فظن الظنون بربه، وجحد الحقوق في ماله وقتر على نفسه وعياله مخافة الفقر) (٢٨).

وعن محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (يا بن آدم لا يكن أكبر همك يومك الذي إن فاتك لم يكن من أجلك فإن همك يوم، فإن كل يوم تحضره يأتي الله فيه برزقك).

واعلم أنك لن تكتسب شيئاً فوق قوتك إلا كنت فيه خازناً لغيرك تكثر في الدنيا به نصيبك وتحظي به وارثك ويطول معه يوم القيامة حسابك، فاسعد بمالك في حياتك وقدم ليوم معادك زاداً يكون أمامك، فإن السفر بعيد والموعود القيامة والمورد الجنة أو النار) (٢٩).

وعن الديلمي في أعلام الدين، عن الحسين (عليه السلام)، إنه قال لرجل: (يا هذا لا تجاهد في الرزق جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر إتكال مستسلم، فإن ابتغاء الرزق من السنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليس العفة بممانعة رزقاً ولا الحرص بمجالب فضلاً، وإن الرزق مقسوم والأجل محتوم، واستعمال الحرص جالب المآثم) (٣٠).

وعن الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (إذا أحب الله عبداً ألهمه الطاعة وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وقواه باليقين واكتفى بالكفاف، وأكتنى بالعفاف، وإذا أبغض الله عبداً حبب إليه المال وبسط له وألهمه دنياه ووكله إلى هواه فركب العناد وبسط الفساد وظلم العباد)(٣١).

وعن علي بن مهزيار رفعه قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (قربوا على أنفسكم البعيد وهونوا عليها الشديد، واعلموا إن عبداً وإن ضعفت حيلته ووهنت مكيدته أنه لن ينقص مما قدر الله له، وإن قوي عبد في شدة الحيلة وقوة المكيدة أنه لن يزداد على ما قدر الله له)(٣٢).

وعن جامع الأخبار، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (ما نظمه الشاعر) :

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المالا فلا تدري لمن تجمع
ولا تدري أفي أرضكا أم في غيرها تصرع
فإن الرزق مقسوما وكد المرء لا ينفع
غني كل من يقنعا فقير كل من يطمع(٣٣)

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الدنيا دول، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك، ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه، ومن رضي بما رزقه الله قرت عينه)(٣٤).

وعن فقه الرضا (عليه السلام) أنه قال: (وليكن نفقتك على نفسك وعيالك قصداً، فإن الله تعالى يقول: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (البقرة: ٢١٩).

والعفو الوسط، قال الله: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) (إلى آخره) (الفرقان: ٦٧).

وقال العالم (عليه السلام): (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)(٣٥).

وعن ابن الهذيل، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله قسم الأرزاق بين عباده وفضل فضلاً كثيراً لم يقسمه بين أحد، قال الله: (واسألوا الله من فضله) (النساء: ٣٢)(٣٦).

أقول: الرزق الحلال هو بقدر سعي الإنسان وكفايته، فعدم السعي مذموم، وعدم تهيؤ الأسباب لتحصيل مستوى كفاية الإنسان دليل على فساد الاجتماع والسعي أكثر من الطاقة غير صحيح، والسلوك في مسالك الحرام موجب لحرمان الإنسان خير الدنيا والآخرة. والروايات المختلفة تشير إلى هذه الجوانب، والله العالم.

الدعاء لطلب الرزق

عن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل من أصحاب البادية فقال: يا رسول الله إن لي بنين وبنات وأخوة وأخوات وبنين وبنات وبني أخوة وبني أخوات والمعيشة علينا خفيفة، فإن رأيت يا رسول الله أن تدعو الله أن يوسع علينا، وبكى، فرق له المسلمون، فقال له رسول الله (صلى

الله عليه وآله): ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين، من كفل بهذه الأقوات المضمونة على الله رزقها صب الله عليه الرزق صباً كاملاً المنهمر إن قليل فقليل، وإن كثيراً فكثير. قال: ثم دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمن له المسلمون.

ثم قال أبو جعفر (عليه السلام): فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن حاله؟ فقال: من أحسن من حوله حالاً وأكثرهم مالاً(٣٧).

وعن مسعدة بن صدقة، عن الصادق (عليه السلام)، عن أبيه (عليه السلام) قال: إذا غدوت في حاجتك بعد أن تصلي الغداة بعد التشهد فقل: اللهم إني غدوت التمس من فضلك كما أمرتني فارزقني من فضلك رزقاً حلالاً طيباً، وأعطني فيما ترزقني العافية (تقول ذلك ثلاث مرات).

قال وسمعت جعفرًا (عليه السلام) يملئ على بعض التجار من أهل الكوفة في طلب الرزق، فقال له: صل ركعتين متى شئت، فإذا فرغت من التشهد، قلت: توجهت بحول الله وقوته بلا حول مني ولا قوة، ولكن بحولك يا رب وقوتك ابرأ إليك من الحول والقوة إلا ما قويتني اللهم إني أسألك بركة هذا اليوم وأسألك بركة أهله وأسألك أن ترزقني من فضلك رزقاً واسعاً حلالاً طيباً مباركاً تسوقه إلي في عافية بحولك وقوتك وأنا خافض في عافية (تقول ذلك ثلاث مرات)(٣٨).

وعن الصادق (عليه السلام) (قال، تقول): (اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأظهره وإن كان بعيداً فقربه، وإن كان قريباً فاعطني، وإن كان قد أعطيتني فبارك لي فيه، وجنبي عليه المعاصي والردى)(٣٩).

عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) قال: (من لم يسأل الله من فضله افتقر)(٤٠). ومن دعائهم (عليهم السلام): (اللهم إني أسألك من فضلك الواسع الفاضل المفضل: رزقاً واسعاً حلالاً طيباً بلاغاً للأخرة والدنيا هنيئاً مريئاً صباً صباً من غير منٍّ من أحد إلا سعة من فضلك، وطيباً من رزقك، وحلالاً من وسعك تغنيني به، من فضلك أسأل، ومن يدك الملائى أسأل، ومن خيرك أسأل، يا من بيده الخير وهو على كل شيء قدير)(٤١).

وعن الصادق (عليه السلام) إطلب الرزق (بهذا الدعاء): (يا الله يا الله يا الله أسألك بحق من حقه عليك عظيم أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن ترزقني العمل بما علمتني من معرفة حقلك، وأن تبسط علي ما خطرت من رزقك)(٤٢).

وفي حديث: أن رجلاً جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وقال: يا رسول الله إني كنت غنياً فافتقرت، وصحيحاً، وكنت مقبولاً عند الناس فصرت مبعوضاً، وخفيفاً على قلوبهم فصرت ثقيلاً، وكنت فرحاناً فاجتمعت عليّ الهموم، وقد ضاقت علي الأرض بما رحبت، وأحول طول نهارني في طلب الرزق، فلا أجد ما أتقوت به، كأن اسمي قد محي من ديوان الأرزاق (إلى أن قال): فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): إتق الله واخلص ضميرك، وادع بهذا الدعاء وهو دعاء الفرج: (بسم الله الرحمن الرحيم: إلهي طموح الآمال قد خابت إلا لديك، ومعاكف

الهمم قد تقطعت إلا عليك، ومذاهب العقول قد سمت إلا إليك، فأليك الرجاء وإليك الملتهج، يا أكرم مقصود ويا أجود مسؤول، هربت إليك بنفسي يا ملجأ الهارين بأثقال الذنوب أحملها على ظهري، وما أجد لي إليك شافعاً سوى معرفتي بأنك أقرب من رجاء الطالبون، ولجأ إليه المضطرون، وأمل ما لديه الراغبون، يا من فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده، وجعل ما امتن به على عباده كفاية لتأدية حقه صل على محمد وآله، ولا تجعل للهموم على عقلي سبيلاً، ولا للباطل على عملي دليلاً، وافتح لي بخير الدنيا يا ولي الخير(٤٣).

فلما دعا به الرجل وأخلص النية عاد إلى حسن الإجابة.

أثر الطهارة في سعة الرزق

عن النبي (صلى الله عليه وآله)، أنه شكى إليه رجل قلة الرزق، فقال (صلى الله عليه وآله): (أدم الطهارة يدم عليك الرزق)(٤٤) ففعل الرجل ذلك فوسع عليه الرزق.

وعن عبد الله بن سلام قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من توضع لكل حدث، ولم يكن دخالاً على النساء في البيوتات، ولم يكن يكتسب مالاً بغير حق، رزق من الدنيا بغير حساب)(٤٥).

النهى عن الاهتمام للرزق

عن حفص بن غياث النخعي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من اهتم لرزقه كتب عليه خطيئة. إن دانيال (عليه السلام) كان في زمن ملك جبار فأخذه وطرحه في الحب وطرح معه السباع لتأكله... فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من دعائه والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاة)(٤٦).

ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): (أبى الله أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون، وأبى الله أن يقبل شهادة لأوليائه في دولة الظالمين)(٤٧).

أقول: حرية العمل توجب عدم معرفة الإنسان مكان رزقه، وقبول الظالم شهادة المؤمن دليل على الاقتراب بينهما فليس هناك كمال الإيمان.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا بن مسعود لا تهتمن للرزق فإن الله تعالى يقول: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) (هود: ٦).

وقال: (وفي السماء رزقكم وما توعدون) (الذاريات: ٢٢).

وقال: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) (الأنعام: ١٧)(٤٨).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يغسل قميصه وليس له بدل، ورجل لم يطبخ على مطبخ قدرين ورجل كان عنده قوت يوم ولم يهتم لغد).

لا.. للنوم والكسل

عن نهج البلاغة، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما أنقض النوم لعزائم الأمور)(٤٩).

وعن الآمدي في الغرر، عنه (عليه السلام): (ويح النائم ما أحسره أقصر عمله وقل أجره)(٥٠).

وقال (عليه السلام): (بئس الغريم النوم يفني قصير العمر ويفوت كثير الأجر)(٥١).

وعن ابن أبي حمزة قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام): إن أباك أخبرنا بالخلف من بعده، فلو أخبرتنا به، فأخذ

بيدي فهزها، ثم قال: (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) (التوبة: ١١٥).

قال: فحفظت فقال: (مه لا تعود عينيك كثرة النوم فإنها أقل شيء في الجسد شكراً)(٥٢).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إني لأبغض الرجل يكون كسلان عن أمر دنياه فهو

عن أمر آخرته أكسل)(٥٣).

عن أبي جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام):

(للكسلان ثلاث علامات يتواني حتى يفرط، ويفرط حتى يضيع، ويضيع حتى يأثم)(٥٤).

وعن الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (الكسل يفسد الآخرة)(٥٥).

وقال (عليه السلام): (آفة النجاح الكسل)(٥٦).

وقال (عليه السلام): (من دام كسله خاب أمله)(٥٧).

وقال (عليه السلام): (من التواني يتولد الكسل)(٥٨).

وعن عجلائ بن أبي صالح قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد (عليه السلام) في حديث: (وإياك والكسل

والضجر، فإن أبي بذلك كان يوصيني، وبذلك كان يوصية أبوه وكذلك في صلاة الليل، إنك إذا كسلت لم تؤد

إلى أحد حقاً وعليك بالصدق والورع وأداء الأمانة، وإذا وعدت فلا تخلف)(٥٩).

كراهة الاعتماد على الأماني والتضجر من الأمور

عن عمرو بن أبي المقدم عن أبي جعفر (عليه السلام)، أنه قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لولده

الحسن (عليه السلام): (إياك والإتكال على المنى فإنها بضائع النوكى وتتبط عن الآخرة والدنيا)(٦٠).

وقال (عليه السلام): (أشرف الغنى ترك المنى)(٦١).

وعن محمد، عن موسى قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن

الحسين، عن أبيه، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا تمنى إلا في خير

كثير)(٦٢).

أقول: أي كن عالي الهمة.

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من تمنى شيئاً هو الله تعالى رضى لم يمت من الدنيا حتى

يعطاه)(٦٣).

وعن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: (إذا تمنى أحدكم فليكن مناه في الخير وليكثر، فإن الله واسع

كريم)(٦٤).

وعن علي (عليه السلام) قال: (من تمنى شيئاً من فضول الدنيا من مراكبها وقصورها أو رياشها عني نفسه ولم يشف غيظه ومات بحسرتة)(٦٥).

وعن الصادق (عليه السلام)، أنه قال لعبد الله بن جندب في وصيته له: (ولا تنظر إلى ما عندك، ولا تتمن ما لست تناله، فإن من قنع شيع ومن لم يقنع لم يشيع)(٦٦).

وعن الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (الأماني شيمة . أو قال (عليه السلام): (الأماني بضائع النوكى، والآمال غرر الحمقى)(٦٧).

وقال (عليه السلام): (الأماني همة الجهال)(٦٨).

وقال (عليه السلام): (الأماني تحدعك، وعند الحقائق تحذلك)(٦٩).

وقال (عليه السلام): (إياك والمنى فإنها بضائع النوكى)(٧٠).

وقال (عليه السلام): (أقبح العي الضجر)(٧١).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إنه قال لرجل من بني تميم: (ولا تضجر، فإن الضجر يمنعك من الآخرة والدينا)(٧٢).

انتهزوا الفرص

عن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي بادر بأربع قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك)(٧٣).

وعن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن آبائه عن علي (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (ولا تنس نصيبك من الدنيا) (القصص: ٧٧).

قال: (لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة)(٧٤).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (قرنت الهيبة بالخبية والحياء بالحرمان والفرصة تمرّ مرّ السحاب فانتهزوا فرص الخير)(٧٥).

وقال (عليه السلام): (إضاعة الفرصة غصة)(٧٦).

وقال (عليه السلام): (من الخرق المعالجة قبل الإمكان، والأناة بعد الفرصة)(٧٧).

العمل في البيت للرجل والمرأة

عن أبي البخترى، عن أبي عبد الله، عن أبيه (عليه السلام) قال: تقاضى علي وفاطمة (صلوات الله عليهما) إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الخدمة، فقضى على فاطمة بخدمة ما دون الباب، وقضى على علي (عليه السلام) بما خلفه قال: فقالت فاطمة (عليها السلام): فلا يعلم ما داخلني من السرور إلا الله بإكفائي رسول الله (صلى الله عليه وآله) تحمل رقاب الرجال(٧٨).

وعن جامع الأخبار، عن علي (عليه السلام) قال: (دخل علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفاطمة (عليها السلام) جالسة عند القدر وأنا أنقي العدس، قال: يا أبا الحسن؟ قلت: لبيك يا رسول الله، قال: اسمع وما أقول إلا ما أمر ربي ما من رجل يعين امرأته في بيتها إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها (إلى أن قال): يا علي من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب، يا علي خدمة العيال كفارة للكبائر ويظفي غضب الرب، ومهور حور العين، ويزيد في الحسنات والدرجات، يا علي لا يخدم العيال إلا صديق أو شهيد أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة)(٧٩).

إصلاح المال وترميم المعاش

عن هشام بن الحكم، عن موسى بن جعفر، أنه قال، قال الحسن بن علي (عليه السلام) في حديث: (واستثمار المال تمام المروءة)(٨٠).

وعن أبي حمزة السعدي، عن أبيه قال: أوصى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الحسن بن علي (عليه السلام)، فقال فيما أوصى به إليه: (يا بني لا فقر أشد من الجهل (إلى أن قال): وليس للمؤمن بد من أن يكون شاخصاً في ثلاث: مرمة لمعاش، وخطوة لمعاد، ولذة في غير محرم)(٨١).

وعن الحارث الأعور قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) للحسن ابنه (عليه السلام): يا بني ما المروءة؟ فقال: (العفاف واستصلاح المال)(٨٢).

وفي نهج البلاغة في وصيته للحسن (عليه السلام): (وحفظ ما في يدك أحب إلي من طلب ما في يد غيرك)(٨٣).

وعن فقه الرضا (عليه السلام): (واجتهدوا أن يكون زمانكم أربع ساعات، ساعة لله لمناجاته، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان الثقاة... الخ)(٨٤).

الإسلام يدعو إلى الاقتصاد

عن موسى قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: (وما عال امرئ في اقتصاد)(٨٥).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا أراد الله بأهل بيت خيراً فقهمهم في الدين ورزقهم الرفق في معاشهم والقصد في شأنهم)(٨٦) الخبر.

وعن ابن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في قوله تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) (الإسراء: ٢٩).

قال فضم يده وقال: هكذا فقال: (ولا تبسطها كل البسط) (الإسراء: ٢٩).

وبسط راحته، وقال هكذا(٨٧).

وعن عامر بن جذاعة قال: دخل على أبي عبدالله (عليه السلام) رجل فقال: يا أبا عبد الله قرضاً إلى ميسرة، فقال أبو عبدالله (عليه السلام): إلى غلة تدرك؟ فقال: لا والله، فقال: إلى تجارة تؤدي؟ فقال: لا والله، فقال: فألى عقدة تباع؟ فقال: لا والله فقال: (فأنت إذاً ممن جعل الله له موالنا حقاً) فدعا أبو عبدالله (عليه السلام) بكيس فيه دراهم فأدخل يده فناوله قبضة، ثم قال: (اتق الله ولا تسرف ولا تقصر وكن بين ذلك قواماً إن التبذير من الإسراف، قال الله تعالى: (ولا تبذر تبذيراً) (الإسراء: ٢٦).

إن الله تعالى لا يعذب على القصد(٨٨).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إن المؤمن أخذ من الله أدباً إذا وسع عليه اقتصد، وإذا اقتص عليه اقتصر)(٨٩).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لا يصلح المرء إلا على ثلاث: التفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على النائية)(٩٠).

وعن عيسى بن موسى: قال الصادق (عليه السلام): (يا عيسى المال مال الله جعله ودائع عند خلقه وأمرهم أن يأكلوا منه قصداً، ويشربوا منه قصداً، ويلبسوا منه قصداً، وينكحوا منه قصداً، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين، فمن تعدى ذلك كان أكله حراماً وما شرب منه حراماً وما لبسه حراماً وما نكحه منه حراماً، وما ركبوا منه حراماً)(٩١).

وعن حماد بن عيسى، عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: قال لقمان لابنه في حديث: (وكن مقتصداً، ولا تمسكه تقثيراً، ولا تعطه تبذيراً)(٩٢).

وعن فقه الرضا (عليه السلام): وليكن نفقتك على نفسك وعيالك قصداً، فإن الله يقول: (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) (البقرة: ٢١٩).

والعفو الوسط، وقال الله تعالى: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) (الفرقان: ٦٧)(٩٣).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (الكمال كل الكمال: الفقه في الدين، والصبر على النائية، والتقدير في المعيشة)(٩٤).

وعن الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الاقتصاد ينمي القليل)(٩٥).

وقال (عليه السلام): (الاقتصاد ينمي اليسير)(٩٦).

وقال: (الاقتصاد نصف المؤونة)(٩٧).

وقال (عليه السلام): (لن يهلك من اقتصد)(٩٨).

وقال (عليه السلام): (ليس في الاقتصاد تلف)(٩٩).

وقال (عليه السلام): (من لم يحسن الاقتصاد أهلكه الإسراف)(١٠٠).

وقال (عليه السلام): (من اقتصد خفت عليه المؤن)(١٠١).

وقال (عليه السلام): (من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر)(١٠٢).

وقال (عليه السلام): (من صحب الاقتصاد دامت صحبة الغنى له، وجبر الاقتصاد فقره وحلله)(١٠٣).

وقال (عليه السلام): (من المروءة أن تقتصد فلا تسرف، وتعد فلا تخلف)(١٠٤).

الكد لأجل المعيشة

عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (ما غدوة أحدكم في سبيل الله بأعظم من غدوته يطلب لولده وعياله ما يصلحهم)(١٠٥).

وعن الصدوق في الهداية قال روي: (إن الكاد على عياله من حلال كالمجاهد في سبيل الله)(١٠٦).

وعن فقه الرضا (عليه السلام): (واعلم أن نفقتك على نفسك وعيالك صدقة، والكاد على عياله من حل كالمجاهد في سبيل الله)(١٠٧).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (من طلب الدنيا حلالاً استغفافاً عن المسألة، وسعيًا على عياله، وتعطفًا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر)(١٠٨).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله)(١٠٩).

وعن ثوبان قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أفضل دينار دينار أنفقه الرجل على عياله، ودينار أنفقه على دابته في سبيل الله، ودينار أنفقه على أصحابه في سبيل الله)(١١٠).

ثم قال: (وأي رجل أعظم أجرًا من رجل سعى على عياله صغارًا يعفهم ويغنيهم الله به)(١١١).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (ومن سعى في نفقة عياله ووالديه فهو كالمجاهد في سبيل الله)(١١٢).
استحباب شراء العقار، وكرهية بيعه في الجملة

وعن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: حدثني أبي عن جده (عليه السلام): (إن بائع الضيعة محقوق، ومشتريها مرزوق)(١١٣).

وعن حذيفة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من باع داراً فلم يجعل ثمنها في مثلها لم يبارك له في ثمنها، أو قال لم يبارك له فيها)(١١٤).

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قيل: يا رسول الله أي المال خير (إلى أن قال) قيل (فأي المال بعد البقر أفضل؟ قال: الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، نعم المال النخل، من باعها فلم يخلف مكانها، فإن ثمنها بمنزلة رماد على رأس شاهقة اشتدت به الريح في يوم عاصف)(١١٥).

كرهية شراء الأشياء الصغيرة للإنسان الرفيع الشأن

عن أبي عبد الله (عليه السلام)، أنه أوصى بعض أصحابه فقال: (لا تكن دواراً في الأسواق، ولا تل شراء دقائق الأشياء بنفسك، فإنه لا ينبغي للمرء المسلم ذي الدين والحسب أن يشتري دقائق الأشياء بنفسه خلا ثلاثة أشياء الغنم والإبل والرقيق)(١١٦).

ونظر علي (عليه السلام) إلى رجل من أصحابه يحمل بقلأ على يده، فقال: (إنه يكره للرجل السري أن يحمل الشيء الذي لثلا يتجرى عليه)(١١٧).

وعن موسى بن إسماعيل قال: حدثنا أبي عن أبيه، عن جده جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل جواد يحب الجود ومعالي الأمور ويكره سفاسفها)(١١٨).

الدنيا والآخرة معاً

عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: كان لقمان يقول لابنه: (يا بني إن الدنيا بحر وقد غرق فيها جيل كثير (إلى أن قال): يا بني خذ من الدنيا بلغة ولا تدخل فيها دخولاً تضر فيها بأخرتك ولا ترفضها فتكون عيلاً على الناس)(١١٩) (الخبر).

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت)(١٢٠).

وعن جنادة بن أبي أمية، عن الحسن بن علي (عليه السلام)، أنه قال: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)(١٢١) (الخبر).

وعن علي الأحمصي، عن أخبره، عن أبي جعفر (عليه السلام)، أنه كان يقول: (نعم العون الدنيا على الآخرة)(١٢٢).

الاغتراب والتبكير في طلب الرزق

عن أبي عبد الله، عن أبيه، عن آباءه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إذا أعسر أحدكم فليضرب في الأرض بيتغي من فضل الله ولا يغم نفسه)(١٢٣).

وعن محمد بن هلال قال: قال لي جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام): (إذا كانت لك حاجة فاغد فيها، فإن الأرزاق تقسم قبل طلوع الشمس، وإن الله تبارك وتعالى بارك لهذه الأمة في بكورها، وتصديق بشيء عند البكور، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة)(١٢٤).

قال وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (اللهم بارك لأمتي في بكورها وسبتها وخميسها)(١٢٥).

وعن (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (إن الله تبارك وتعالى بارك لأمتي في خميسها وسبتها لأجل الجمعة)(١٢٦).

حرمة اكتساب المال من غير حله

في الخبر: (الحلال لا يأتي إلا قوتاً، والحرام يأتي جرفاً جرفاً).

أقول: (فإن الرأسمالية المحرمة تجمع أموال الناس بالطرق الملتوية).

وعن أبي قلابة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، في حديث: (من كسب مالا من غير حله أفقره الله تعالى)(١٢٧).

وعن الحسن بن علي بن شعبة في (تحف العقول) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل: (طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالاً من غير معصية) (١٢٨).

وعن حذيفة بن اليمان رفعه، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن قوماً يجيئون يوم القيامة ولهم من الحسنات أمثال الجبال، فيجعلها الله هباءً منثوراً، ثم يؤمر بهم إلى النار فقال سلمان: صفهم لنا يا رسول الله، فقال: أما أنهم قد كانوا يصومون ويصلون ويأخذون أهبة من الليل، ولكنهم إذا أعرض لهم بشيء من الحرام وثبوا عليه) (١٢٩).

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: (بائع الخبيثات ومشتريها في الإثم سواء) (١٣٠).

وعن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، عن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أخوف ما أخاف على أمتي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والربا) (١٣١).

وعن سماعة قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (ليس بوليّ لي من أكل مال مؤمن حراماً) (١٣٢).

وعن عبد الله بن القاسم الجعفري، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (تشوفت الدنيا لقوم حلالاً محضاً فلا يريدوها فدرجوا ثم تشوفت لقوم حلالاً وشبهة، فقالوا: لا حاجة لنا في الشبهة وتوسعوا في الحلال، ثم تشوفت لقوم حراماً وشبهة، فقالوا: لا حاجة لنا في الحرام وتوسعوا في الشبهة، ثم تشوفت لقوم حراماً محضاً فيطلبونها فلا يجدونها والمؤمن يأكل الدنيا بمنزلة المضطر) (١٣٣).

وعن داود الصرمي قال: قال أبو الحسن (عليه السلام): (يا داود إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لم يبارك له فيه، وما أنفقته لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار) (١٣٤).

وعن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في قول الله عز وجل: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) (الفرقان: ٢٣).

قال: (إن كانت أعمالهم لأشدّ بياضاً من القباطي فيقول الله عز وجل لها: كوني هباءً وذلك أنهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه) (١٣٥).

الاحتكار

عن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (الحكرة في الخصب أربعون يوماً، وفي الشدة والبلاء ثلاثة أيام، وما زاد على الأربعين يوماً في الخصب فصاحبه ملعون، وما زاد على ثلاثة أيام في العسرة فصاحبه ملعون) (١٣٦).

وعن الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن الرجل يحتكر الطعام ويتربص به هل يصلح ذلك؟ قال: (إن كان الطعام كثيراً يسع الناس فلا بأس به، وإن كان الطعام قليلاً لا يسع الناس فإنه يكره أن يحتكر الطعام ويترك الناس ليس لهم طعام) (١٣٧).

وعن ابن القداح، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون)(١٣٨).

وعن غياث، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ليس الحكرة إلا في الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن)(١٣٩).

أقول: إذا أضر الناس عدم البيع: حق للحاكم الشرعي الجبر على البيع بدون إجحاف من البائع في السعر، من غير فرق بين الأمور المذكورة في هذه الرواية، وغيرها).

وعن أبي مرثد، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أبما رجل اشترى طعاماً فكبسه أربعين صباحاً يريد به غلاء المسلمين ثم باعه فتصدق بثمنه لم يكن كفارة لما صنع)(١٤٠).

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا يحتكر الطعام، إلا خاطئ)(١٤١).

قال: (ونهى أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الحكرة في الأمصار).

وعن ورام بن أبي فراس في كتابه، عن النبي (صلى الله عليه وآله)، عن جبرئيل (عليه السلام) قال: (اطلعت في النار فرأيت وادياً في جهنم يغلي، فقلت: يا مالك لمن هذا؟ فقال: لثلاثة: المحتكرين، والمدمنين الخمر، والقوادين)(١٤٢).

وفي نهج البلاغة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه إلى مالك الأشتر قال: (فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا يحجف بالفريقتين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل وعاقب في غير إسراف)(١٤٣).

وعن الحلبي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سألت عن الحكرة؟ فقال: (إنما الحكرة أن تشتري طعاماً وليس في المصر غيره فيحتكره، فإن كان في المصر طعام أو متاع (بياع) غيره فلا بأس أن تلتمس بساحتك الفضل)(١٤٤).

وعن أبي الفضال سالم الحنط قال: قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): ما عملك؟ قلت خياط وربما قدمت على نفاق، وربما قدمت على كساد فحبست، قال: فما يقول من قبلك فيه؟ قلت: يقولون محتكر، فقال: يبيعه أحد غيرك؟ قلت: ما أبيع أنا من ألف جزء جزء، قال: (لا بأس إنما كان ذلك رجل من قريش يقال له حكيم بن حزام، وكان إذا دخل الطعام المدينة اشتراه كله، فمر عليه النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا حكيم بن حزام إياك أن تحتكر)(١٤٥).

وعن حذيفة بن منصور، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: نفذ الطعام على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأتاه المسلمون، فقالوا: يا رسول الله قد نفذ الطعام ولم يبق منه شيء إلا عند فلان فمره ببيعه، قال، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (يا فلان إن المسلمين ذكروا أن الطعام قد نفذ إلا شيء عندك فأخرجه وبعه كيف شئت ولا تحبسه)(١٤٦).

وعن الحسين بن عبيد الله بن ضمرة، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال: (مرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالمحتكرين فأمر بحكرتهم أن تخرج إلى بطون الأسواق وحيث تنظر الأبصار إليها، فقبل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): لو قومت عليهم، فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى عرف الغضب في وجهه فقال: أنا أقوم عليهم، إنما السعر إلى الله يرفعه إذا شاء ويخفضه إذا شاء)(١٤٧).

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لو سعرت لنا سعراً فان الأسعار تزيد وتنقص؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (ما كنت لا لقي الله ببدعة لم يحدث لي فيها شيئاً، فدعوا عباد الله يأكل بعضهم من بعض، وإذا استنصحتهم فانصحوها)(١٤٨).

أقول: الرفع والخفض بسبب العرض والطلب، والظاهر إنه لم يكن هناك ترفيع من صاحب الطعام ولذا لم يسعّر (صلى الله عليه وآله).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل وكل بالسعر ملكاً يدبره بأمره)(١٤٩).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: ذكر عند علي بن الحسين (عليه السلام) غلاء السعر فقال: (وما علي من غلائه؟ إن غلا فهو عليه. أي الله. وإن رخص فهو عليه)(١٥٠).

وعن يعقوب بن يزيد، عن ذكره، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الله وكل بالأسعار ملكاً يدبرها)(١٥١).

وعن حفص بن غياث، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كان سنين يوسف الغلا الذي أصاب الناس ولم يتمن الغلا لأحد قط قال: فأتاه التجار فقالوا: بعنا، فقال: اشتروا، فقالوا: نأخذ كذا بكذا، فقال: خذوا وأمر فكالوهم فحملوا ومضوا حتى دخلوا المدينة فلقاهم قوم تجار، فقالوا: كيف أخذتم؟ قالوا: كذا بكذا وأضعفوا الثمن، قال: فقدم أولئك على يوسف فقالوا: بعنا؟ قال: اشتروا، قالوا: بعنا كما بعنا بكذا، فقال: ما هو كما يقولون، ولكن خذوا فأخذوا ثم مضوا حتى دخلوا المدينة فلقاهم آخرون فقالوا: كيف أخذتم؟ فقالوا: كذا بكذا وأضعفوا الثمن، قال: فعظم الناس ذلك الغلاء وقالوا اذهبوا بنا حتى نشترى، قال: فذهبوا إلى يوسف، فقالوا: بعنا؟ فقال: اشتروا، فقالوا بعنا كما بعنا؟ فقال: وكيف بعنا؟ فقالوا: كذا بكذا فقال: ما هو كذلك ولكن خذوا، قال: فأخذوا ورجعوا إلى المدينة فأخبروا الناس، فقالوا: تعالوا فيما بينهم حتى نكذب في الرخص كما كذبنا في الغلاء) الحديث. وفيه: انهم فعلوا عكس ما مر.

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طرق طائفة من بني إسرائيل ليلاً عذاب وأصبحوا وقد فقدوا أربعة أصناف: الطبالين، والمغنين، والمحتكرين للطعام، والصيافة أكلة الربا منهم)(١٥٢).

وعن الحسن بن أبي الحسن البصري (إلى أن قال): ثم مشى حتى دخل سوق البصرة فنظر إلى الناس يبيعون ويشترون فبكى (عليه السلام) بكاءً شديداً، ثم قال: (يا عبيد الدنيا وعمال أهلها إذا كنتم بالنهار تحلفون

وبالليل في فرشكم تنامون، وفي خلاف ذلك عن الآخرة تفعلون، فمتى تحرزون الزاد وتفكرون في المعاد؟ فقال له رجل: أنه لا بد لنا من المعاش، فكيف نصنع؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن طلب المعاش لا يشغل عن عمل الآخرة، فإن قلت لا بد لنا من الاحتكار لم تكن معذوراً)(١٥٣).
فولى الرجل باكياً (الخبز).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (المحتكر آثم وعاص)(١٥٤).

وعنه (عليه السلام) قال: (وكل حكرة تضر بالناس وتغلي السعر عليهم فلا خير فيها)(١٥٥).
وفي نهج البلاغة في عهده (عليه السلام) للأشتر حين ولّاه مصر: (ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات . إلى أن قال . واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاية، فامنع الاحتكار فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) منع منه . إلى أن قال .: فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقب من غير إسراف)(١٥٦).

وقال النبي (صلى الله عليه وآله): (من حبس طعاماً يتربص به الغلاء أربعين يوماً فقد برئ من الله وبرئ منه)(١٥٧).

وقال: (من احتكر على المسلمين طعاماً ضربه الله بالجذام والإفلاس)(١٥٨).

وعن الأمدى في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (المحتكر محروم نعمته)(١٥٩).

وقال (عليه السلام): (الاحتكار شيمة الفجار)(١٦٠).

وقال: (المحتكر البخيل جامع لمن لا يشكره، وقادم على من لا يعذره)(١٦١).

وعن سلم أبي الفضيل قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): إني أجد الطعام إلى الكوفة فأحبسه رجاء أن يرجع إلى ثمنه أو أربح فيه فيقال: أنت محتكر وان الحكرة لا تصلح. قال: فسألني هل في بلادك غير هذا الطعام؟ فقلت: نعم كثير فقال: (لست بمحتكر إن المحتكر أن يشتري طعاماً ليس في المصر غيره)(١٦٢).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام)، أنه قال: (إنما الحكرة أن يشتري طعاماً ليس في المصر غيره فيحتكر، فإن كان في المصر طعام أو متاع غيره أو كان كثيراً يجد الناس ما يشترون فلا بأس به، وإن لم يوجد فإنه يكره أن يحتكر)(١٦٣).

وعن دعائم الإسلام، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه كتب إلى رفاعة (إنه عن الحكرة، فمن ركب النهي فأوجعه ثم عاقبه بإظهار ما احتكر)(١٦٤).

الربا

عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (درهم ربا عند الله أشد من سبعين زنية كلها بذات محرم)(١٦٥).

وعن سعد بن طريف، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (أخبث المكاسب كسب الربا)(١٦٦).

وعن سماعة قال: (قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): إني قد رأيت الله تعالى قد ذكر الربا في غير آية وكرره؟ قال: أتدري لم ذاك؟ قلت: لا، قال: (لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف)(١٦٧).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (درهم ربا اشد عند الله من ثلاثين زنية بذات محرم مثل عمه وخالة)(١٦٨).

وعن سعيد بن يسار قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (درهم واحد ربا أعظم من عشرين زنية كلها بذات محرم)(١٦٩).

وأقول: الاختلاف باعتبار المرابين واختلاف من يعطي الربا وسبب هذه الشدة فإن الربا يوجب اختلاف الطبقات المنتهي إلى ذهاب الدين والدين كما ذكرناه في (الفقه . الاقتصاد).

وعن زرارة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قلت له: إني سمعت الله يقول: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) (البقرة: ٢٧٦).

وقد أرى من يأكل الربا يربو ماله؟ فقال: (أي محق أمحق من درهم ربا يمحق الدين، وإن تاب منه ذهب ماله وافتقر)(١٧٠).

وعن هشام بن الحكم، أنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام)، عن علة تحريم الربا؟ فقال: (إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه، فحرم الله الربا لتنفر الناس من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات من البيع والشراء فيبقى ذلك بينهم في الفرض)(١٧١).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إنما حرم الله الربا كيلا يمتنعوا من صنائع المعروف)(١٧٢).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إنما حرم الله عز وجل الربا لئلا يذهب المعروف)(١٧٣).
وعن محمد بن سنان: أن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) كتب إليه فيما كتب من جواب مسأله: (وعلة تحريم الربا لما نهى الله عز وجل عنه، ولما فيه من فساد الأموال، لأن الإنسان إذا اشتري الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمان الآخر باطلاً فبيع الربا وشراؤه وكس على كل حال على المشتري وعلى البائع، فحرم الله عز وجل على العباد الربا لعله فساد الأموال، كما حظر على السفهيه أن يدفع إليه ماله لما يتخوف عليه من فساده حتى يؤنس منه رشد فلهم هذه العلة حرم الله عز وجل الربا وبيع الدرهم بالدرهمين، وعلة تحريم الربا بعد البينة لما فيه من الاستخفاف بالحرام المحرم، وهي كبيرة بعد البيان، وتحريم الله عز وجل لها لم يكن إلا استخفافاً منه بالحرام والاستخفاف بذلك دخول في الكفر، وعلة تحريم الربا بالنسبة لعله ذهاب المعروف وتلف الأموال ورغبة الناس في الربح وتركهم القرض والقرض صنائع المعروف، ولما في ذلك من الفساد والظلم وفناء الأموال)(١٧٤).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في وصيته لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي الربا سبعون جزءاً فأيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه في بيت الله الحرام، يا علي درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام)(١٧٥).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (شر المكاسب كسب الربا)(١٧٦).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله)، في حديث قال: (ومن أكل الربا ملأ الله بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل وإن اكتسب منه مالاً لم يقبل الله منه شيئاً من عمله، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده (منه) قيراط (واحدة))(١٧٧).

وعنه (عليه السلام): (إذا أراد الله بقوم هلاكاً ظهر فيهم الربا)(١٧٨).

وعن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (الربا رياءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل، فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل وهو قول الله عز وجل: (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عز وجل عنه وأوعد عليه النار)(١٧٩).

أقول: الإمام (عليه السلام) أشار إلى آخر الآية.

وعن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في قوله: (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) (الروم: ٣٩).

قال: (هو هديتك إلى الرجل تريد منه الثواب أفضل منها فذلك ربا يؤكل)(١٨٠).

وعن علي (عليه السلام) قال: (لعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الربا خمسة: آكله وموكله وشاهديه وكتبه).

وعن البراء بن عازب قال: كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في منزل أبي أيوب الأنصاري فقال معاذ: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) (النبأ: ١٨).

فقال: يا معاذ سألت عن أمر عظيم من الأمر، ثم أرسل عينيه ثم قال: (تحشر عشر أصناف من أممي أشتاتاً قد ميزهم الله تعالى من المسلمين، وبدل صورهم فبعضهم على صورة القرد (إلى أن قال): وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثم يسحبون عليها (إلى أن قال (صلى الله عليه وآله): (وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا)(١٨١).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لما أسري بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا يقولون: ربنا متى تقوم الساعة)(١٨٢).

أقول: كأنه لأن أكل الربا كلما أراد أن يتخلص من شره سقط فيه، لما جُبل عليه من حب المال.

وعن علي (عليه السلام)، أنه قال: (إن خمسة أشياء تقع بخمسة أشياء ولا بد لتلك الخمسة من النار: من أتجر بغير علم فلا بد له من أكل الربا ولا بد لأكل الربا من النار)(١٨٣) (الحديث).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن في هلاكها)(١٨٤). وقال (صلى الله عليه وآله): (من أكل الربا ملأ الله بطنه ناراً بقدر ما أكل منه، فإن كسب منه مالاً لم يقبل الله شيئاً من عمله ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما دام عنده منه قيراط)(١٨٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، (أنه رأى ليلة أسري به رجلاً بطونهم كالبيت الضخم وهم على سابلة آل فرعون، فإذا أحسوا بهم قاموا ليعتزلوا عن طريقتهم فمال كل واحد منهم بطنه فيسقط حتى يطأهم آل فرعون مقبلين ومدبرين، فقلت لجبرئيل: من هؤلاء؟ قال: أكلة الربا)(١٨٦).

وقال (صلى الله عليه وآله): (لا يقبل الله صلاة خمسة نفر: الآبق من سيده، وامرأة لا يرضى عنها زوجها، ومدمن الخمر، والعاق، وأكل الربا)(١٨٧).

وقال (صلى الله عليه وآله): (يأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصابه من غباره)(١٨٨).

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره في قوله تعالى: (يحقق الله الربا ويربي الصدقات) (البقرة: ٢٧٦). قال: قيل للصادق (عليه السلام): قد نرى الرجل يربي وماله يكثر؟ فقال: (يحقق الله دينه وإن كان ماله يكثر)(١٨٩).

أقول: (الربا يحق أخيراً، كما ذكر في علم الاقتصاد ولعله (عليه السلام) أراد ضرره القريب، أو أن السائل ما كان يدرك نتيجة أكل الربا، ولذا ذكر الإمام (عليه السلام) ما يفهم).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه لما قبل الجزية من أهل الذمة لم يقبلها إلا على شروط افترضها عليهم، منها: أن لا يأكلوا الربا، فمن فعل ذلك برئت منه ذمة الله وذمة رسوله(١٩٠).

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) (البقرة: ٢٧٨).

فإنه كان سبب نزولها أنه لما أنزل الله: (الذين يأكلون الربا) (البقرة: ٢٧٥).

قام خالد بن الوليد إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله ربا أبي في ثقيف وقد أوصاني عند موته بأخذه فأنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا

فأذنوا بحرب من الله ورسوله) (البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩). قال: من أخذ الربا وجب عليه القتل)(١٩١).

أقول: أي مستحلاً.

وعن جامع الأخبار، عن النبي (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (لعن الله عشراً: أكل الربا وموكله و كاتبه وشاهده والمحلل والمحلل له) (الحديث)(١٩٢).

- ١ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٧.
- ٢ . المصدر السابق.
- ٣ . المصدر السابق.
- ٤ . المصدر السابق: ص ٢٨.
- ٥ . المصدر السابق.
- ٦ . المصدر السابق: ص ٢٩.
- ٧ . المصدر السابق.
- ٨ . المصدر السابق.
- ٩ . المصدر السابق: ص ٣٠.
- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . المصدر السابق: ص ٣١.
- ١٢ . المصدر السابق.
- ١٣ . المصدر السابق: ص ٣٢.
- ١٤ . المصدر السابق.
- ١٥ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٣٢، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث . بيروت
- ١٦ . المصدر السابق.
- ١٧ . المصدر السابق.
- ١٨ . المصدر السابق.
- ١٩ . المصدر السابق: ص ٣٣.
- ٢٠ . المصدر السابق.
- ٢١ . المصدر السابق.
- ٢٢ . المصدر السابق.
- ٢٣ . المصدر السابق.
- ٢٤ . المصدر السابق.
- ٢٥ . المصدر السابق.
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٣٤.
- ٢٧ . المصدر السابق.
- ٢٨ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٣٤، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث العربي . بيروت.
- ٢٩ . المصدر السابق: ص ٣٥.

- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق: ص ٣٦.
- ٣٢ . المصدر السابق.
- ٣٣ . المصدر السابق.
- ٣٤ . المصدر السابق: ص ٣٧.
- ٣٥ . المصدر السابق.
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ٣٨.
- ٣٧ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٣٩، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث العربي . بيروت.
- ٣٨ . المصدر السابق.
- ٣٩ . المصدر السابق.
- ٤٠ . المصدر السابق.
- ٤١ . المصدر السابق: ص ٤٠.
- ٤٢ . المصدر السابق.
- ٤٣ . المصدر السابق: ص ٤٢.
- ٤٤ . المصدر السابق: ص ٤١.
- ٤٥ . المصدر السابق.
- ٤٦ . المصدر السابق: ص ٤٢.
- ٤٧ . المصدر السابق: ص ٤٣.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . المصدر السابق.
- ٥٠ . المصدر السابق: ص ٤٤.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق.
- ٥٤ . المصدر السابق: ص ٤٥.
- ٥٥ . المصدر السابق.
- ٥٦ . المصدر السابق.
- ٥٧ . المصدر السابق.
- ٥٨ . المصدر السابق.

- ٥٩ . المصدر السابق.
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٤٦ .
- ٦١ . المصدر السابق.
- ٦٢ . المصدر السابق.
- ٦٣ . المصدر السابق.
- ٦٤ . المصدر السابق.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٤٧ .
- ٦٦ . المصدر السابق.
- ٦٧ . المصدر السابق.
- ٦٨ . المصدر السابق.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق.
- ٧١ . المصدر السابق.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٤٨ .
- ٧٣ . وسائل الشيعة: ج ١١ ، ص ٣٦٦ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٤ . المصدر السابق.
- ٧٥ . المصدر السابق.
- ٧٦ . المصدر السابق.
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ٣٦٧ .
- ٧٨ . مستدرك الوسائل: ج ١٣ ، ص ٤٨ ، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث - بيروت.
- ٧٩ . المصدر السابق.
- ٨٠ . المصدر السابق: ص ٤٩ .
- ٨١ . المصدر السابق.
- ٨٢ . المصدر السابق: ص ٥٠ .
- ٨٣ . المصدر السابق.
- ٨٤ . المصدر السابق.
- ٨٥ . المصدر السابق.
- ٨٦ . المصدر السابق.
- ٨٧ . المصدر السابق: ص ٥١ .

- ٨٨ . المصدر السابق.
- ٨٩ . المصدر السابق: ص ٥٢.
- ٩٠ . المصدر السابق.
- ٩١ . المصدر السابق.
- ٩٢ . المصدر السابق.
- ٩٣ . المصدر السابق: ص ٥٣.
- ٩٤ . المصدر السابق.
- ٩٥ . المصدر السابق.
- ٩٦ . المصدر السابق.
- ٩٧ . المصدر السابق.
- ٩٨ . المصدر السابق.
- ٩٩ . المصدر السابق.
- ١٠٠ . المصدر السابق: ص ٥٤.
- ١٠١ . المصدر السابق.
- ١٠٢ . المصدر السابق.
- ١٠٣ . المصدر السابق.
- ١٠٤ . المصدر السابق.
- ١٠٥ . المصدر السابق.
- ١٠٦ . المصدر السابق.
- ١٠٧ . المصدر السابق.
- ١٠٨ . المصدر السابق: ص ٥٥.
- ١٠٩ . المصدر السابق.
- ١١٠ . المصدر السابق.
- ١١١ . المصدر السابق.
- ١١٢ . المصدر السابق.
- ١١٣ . المصدر السابق.
- ١١٤ . المصدر السابق: ص ٢٩٥.
- ١١٥ . المصدر السابق: ص ٥٦.
- ١١٦ . المصدر السابق.

- ١١٧ . المصدر السابق.
- ١١٨ . المصدر السابق: ص ٥٧.
- ١١٩ . المصدر السابق: ص ١٦.
- ١٢٠ . المصدر السابق: ص ٥٨.
- ١٢١ . المصدر السابق.
- ١٢٢ . المصدر السابق.
- ١٢٣ . المصدر السابق: ص ٥٩.
- ١٢٤ . المصدر السابق.
- ١٢٥ . المصدر السابق.
- ١٢٦ . المصدر السابق.
- ١٢٧ . المصدر السابق: ص ٦٣.
- ١٢٨ . المصدر السابق.
- ١٢٩ . المصدر السابق.
- ١٣٠ . المصدر السابق: ص ٦٤.
- ١٣١ . المصدر السابق: ص ٦٧.
- ١٣٢ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٥٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٣٣ . المصدر السابق.
- ١٣٤ . المصدر السابق.
- ١٣٥ . المصدر السابق.
- ١٣٦ . المصدر السابق: ص ٣١٢.
- ١٣٧ . المصدر السابق: ص ٣١٣.
- ١٣٨ . المصدر السابق.
- ١٣٩ . المصدر السابق.
- ١٤٠ . المصدر السابق: ص ٣١٤.
- ١٤١ . المصدر السابق.
- ١٤٢ . المصدر السابق.
- ١٤٣ . المصدر السابق: ص ٣١٥.
- ١٤٤ . المصدر السابق.
- ١٤٥ . المصدر السابق: ٣١٦.

- ١٤٦ . المصدر السابق: ص٣١٧.
- ١٤٧ . المصدر السابق.
- ١٤٨ . المصدر السابق: ص٣١٨.
- ١٤٩ . المصدر السابق.
- ١٥٠ . المصدر السابق.
- ١٥١ . المصدر السابق.
- ١٥٢ . مستدرک الوسائل: ج١٣، ص٢٧٣، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث . بيروت.
- ١٥٣ . المصدر السابق: ص٢٧٤.
- ١٥٤ . المصدر السابق.
- ١٥٥ . المصدر السابق.
- ١٥٦ . المصدر السابق: ص٢٧٥.
- ١٥٧ . المصدر السابق.
- ١٥٨ . المصدر السابق.
- ١٥٩ . المصدر السابق: ص٢٧٦.
- ١٦٠ . المصدر السابق.
- ١٦١ . المصدر السابق.
- ١٦٢ . المصدر السابق.
- ١٦٣ . المصدر السابق.
- ١٦٤ . المصدر السابق: ص٢٧٧.
- ١٦٥ . وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٢٣.
- ١٦٦ . المصدر السابق.
- ١٦٧ . المصدر السابق.
- ١٦٨ . المصدر السابق.
- ١٦٩ . المصدر السابق: ص٤٢٤.
- ١٧٠ . المصدر السابق.
- ١٧١ . المصدر السابق.
- ١٧٢ . المصدر السابق.
- ١٧٣ . المصدر السابق: ص٤٢٥.
- ١٧٤ . المصدر السابق: ص٤٢٦.

- ١٧٥ . المصدر السابق.
- ١٧٦ . المصدر السابق.
- ١٧٧ . المصدر السابق: ص ٤٢٧.
- ١٧٨ . المصدر السابق.
- ١٧٩ . المصدر السابق: ص ٤٢٩.
- ١٨٠ . المصدر السابق.
- ١٨١ . مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ٣٣٠.
- ١٨٢ . المصدر السابق: ص ٣٣١.
- ١٨٣ . المصدر السابق.
- ١٨٤ . المصدر السابق: ص ٣٣٢.
- ١٨٥ . المصدر السابق.
- ١٨٦ . المصدر السابق.
- ١٨٧ . المصدر السابق.
- ١٨٨ . المصدر السابق: ص ٣٣٣.
- ١٨٩ . المصدر السابق.
- ١٩٠ . المصدر السابق.
- ١٩١ . المصدر السابق: ص ٣٣٤.
- ١٩٢ . المصدر السابق: ٣٣٦.

دور التنمية المالية في المجتمع الإسلامي

نصوص في بيت المال الإسلامي

التسوية في العطاء

الإسلام يساوي بين الناس في قسمة العطاء فإن أموال الدولة (التي هي الخمس والزكاة والحراج والجزية) إذا زادت عن الموظفين ومن إليهم قسمها الوالي بين الناس بالتسوية واليك جملة من الروايات في ذلك:

فعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: لما ولي علي (عليه السلام) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما أني والله ما أرزئكم من فيئكم هذا درهماً ما قام لي عذق بيثرب، أفتروني مانعاً نفسي ومعطيكم؟

قال: فقام إليه عقيل (كرم الله وجهه) فقال: فتجعلني وأسود في المدينة سواء؟

فقال (عليه السلام): (اجلس ما كان ههنا أحد يتكلم غيرك؟ وما فضلك عليه إلا بسابقة أو تقوى) (١).

وعن أبي مخنف الأزدي قال: أتى أمير المؤمنين (عليه السلام) رهط من الشيعة فقالوا: يا أمير المؤمنين لو أخرجت هذه الأموال ففرقتها في هؤلاء الرؤساء والأشراف وفضلتهم علينا حتى إذا استوثقت الأمور عدت إلى أفضل ما عودل الله من القسم بالتسوية والعدل في الرعية.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أتأمروني . ويحكم . أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن وليت عليه من أهل الإسلام؟ لا والله لا يكون ذلك ما سمر السمير، وما رأيت في السماء نجماً، والله لو كانت أموالهم ملكي لساويت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟) (٢).

أقول: الانحراف يجب أن يقوّم وإن كره أقوام، كما قوم الرسول (صلى الله عليه وآله) الانحراف إلى الكفر وإن حاربه أقوام، والتقويم هو الذي سبب بقاء الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وتحطّم أبي جهل ومعاوية وأضرابهما.

وعن عاصم، عن أبيه قال: أتى علياً (عليه السلام) مال من أصفهان، فقسّمه فوجد فيه رغيفاً فكسره سبع كسر ثم جعل كل جزء منه كسرة ثم دعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم أيهم يعطيه أولاً وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً (٣) (أي سبع محلات، أو سبع قبائل).

وعن عاصم، عن أبيه، أنه قال: كنت عند علي فجاءه مال من الجبل فقام وقمنا معه واجتمع الناس إليه فأخذ حبلاً وصلها بيده وعقد بعضها إلى بعض ثم أدارها حول المتاع، ثم قال: لا أحل لأحد أن يجاوز هذا الجبل قال: فقعدنا من وراء الجبل ودخل علي (عليه السلام) فقال: أين رؤوس الأسباع؟ فدخلوا عليه فجعلوا يحملون هذا الجوالق إلى هذا الجوالق وهذا إلى هذا حتى قسموه سبعة أجزاء، قال: فوجد مع المتاع رغيفاً فكسره سبع كسر ثم وضع على كل جزء كسرة، ثم قال:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

قال: ثم أقرع عليها فجعل كل رجل يدعو قومه فيحملون الجوالق (٤).

وروي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، أنه أمر عمار بن ياسر وعبيد الله بن أبي رافع وأبا الهيثم بن التيهان أن يقسموا مالاً من الفيء بين المسلمين وقال: (اعدلوا بينهم ولا تفضلوا أحداً على أحد) فحسبوا فوجدوا الذي يصيب كل رجل من المسلمين ثلاثة دنانير فأتوا الناس، فأقبل عليهم طلحة والزبير ومع كل واحد ابنه، فدفعوا إلى كل واحد منهم ثلاثة دنانير، فقال طلحة والزبير: ليس هكذا كان يعطينا عمر فهذا منكم، أو عن أمر صاحبكم؟ قالوا: هكذا أمرنا أمير المؤمنين (عليه السلام). فمضيا إليه (عليه السلام) فوجداه في بعض أحواله قائماً في الشمس على أجير له يعمل بين يديه، فقالا له: ترى أن ترتفع معنا إلى الظل؟ قال: نعم.

فقالا له: إنا أتينا إلى عمالك على قسمة هذا الفيء فأعطونا كما أعطى سائر الناس.

قال: فما تريدان؟

قالا: ليس كذلك كان يعطينا عمر.

قال (عليه السلام): فما كان يعطيكم رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فسكتا.

فقال (عليه السلام): أليس كان النبي (صلى الله عليه وآله) يقسم بين المسلمين بالسوية؟

قالا: نعم.

قال: فسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أولى بالاتباع عندكما أم سنة عمر؟

قالا: سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولكن لنا يا أمير المؤمنين سابقة وعناء وقرابة، فإن رأيت أن لا تسوينا بالناس فافعل.

قال: سابقتكما أسبق أم سابقتي؟

قالا: سابقتك.

قال: فقرابتكما أقرب أم قرابتي؟

قالا: قرابتك.

قال: فعناؤكما أعظم أم عنائي؟

قالا: بل أنت يا أمير المؤمنين اعظم عناءً.

قال: فوالله ما أنا وأجيري هذا في المال إلا بمنزلة واحدة، وأوماً بيده إلى الأجير الذي بين يديه..(٥).

أقول: إن ذلك الانحراف في العطاء أوجب تفرقة المسلمين وإلا فلو عمل كما كان يفعل الرسول (صلى الله عليه وآله) لكان الإسلام اليوم يسود العالم ولم يكن في العالم اليوم ألف مليون جائع.

وفي خبر آخر أنه قام سهل بن حنيف فأخذ بيد عبده فقال: يا أمير المؤمنين قد أعتقت هذا الغلام فأعطاه ثلاثة دنانير مثل ما أعطى سهل بن حنيف.

وفي خبر: أنه كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) في أول خلافته إلى حذيفة بن اليمان بالمداخن، وفيه: (وأمرك أن تجي خراج الأرضين على الحق والنصفة، ولا تتجاوز ما تقدمت به إليك، ولا تدع منه شيئاً، ولا تبتدع فيه أمراً ثم

اقسمه بين أهله بالسوية والعدل)(٦).

أقول إن كل ولاية رسول الله (صلى الله عليه وآله) والإمام (عليه السلام) كانوا يقسمون المال في بلادهم فإذا زاد عن احتياج البلد أرسلوه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام (عليه السلام).

وعن ذازان قال: انطلقت مع قنبر إلى علي (عليه السلام) فقال: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئة.

قال: مما هو؟

قال: قم معي.

فقام؛ فانطلق إلى بيته، فإذا بأسنة مملوءة جامات من ذهب وفضة فقال: أمير المؤمنين إنك لا تترك شيئاً إلا قسمته فادخرت هذا لك.

قال علي (عليه السلام): (لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً) فسل سيفه فضربه فانتشرت من بين إناء مقطوع نصفه أو ثلثه، ثم قال: قسموه بالحصص، ففعلوا فجعل يقول:

هذا جنائي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه (٧)

وفي رواية في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه لما ترك التفضيل لنفسه وولده على أحد من الإسلام دخلت عليه أم هاني بنت أبي طالب، فدفع إليها عشرين درهماً، فسألت أم هاني مولاتها العجمية، فقالت: كم دفع إليك أمير المؤمنين (عليه السلام) فقالت: عشرين درهماً، فانصرفت مسخطة، فقال لها: (انصربي رحمك الله ما وجدنا في كتاب الله فضلاً لإسماعيل على إسحاق) (٨).

وبعث إليه (عليه السلام) من غوص البحرين عقد من غوص من لا ندري ما قيمته فقالت له ابنته أم كلثوم: أتجمّل به ويكون في عنقي فقال: (يا أبا رافع أدخله في بيت المال، ليس إلى ذلك سبيل حتى لا تبقى امرأة من المسلمين إلا ولها مثل مالك) (٩).

وأتى أمير المؤمنين (عليه السلام) سهل بن حنيف بمولى له اسود فقال: كم يؤتى هذا؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): كم أخذت فقال: ثلاثة دنانير وكذلك أخذ الناس، فقال: فأعطوا مولاه مثل ما أخذ ثلاثة دنانير (١٠). وعن حفص بن غياث قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: وقد سألت عن (قسم) من بيت المال - فقال: (أهل الإسلام هم أبناء الإسلام، أسوي بينهم في العطاء، وفضائلهم بينهم وبين الله أجعلهم كبني رجل واحد لا يفضل أحد منهم لفضله وصلاحه في الميراث على آخر ضعيف منقوص). قال: وهذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) (١١).

وعن أبي إسحاق الهمداني: إن امرأتين أتتا علياً (عليه السلام) عند القسمة، إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً وكرراً من الطعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب، وهذه امرأة من العجم، فقال (عليه السلام): (والله لا أجد لبني إسمايل في هذا الفيء فضلاً عن بني إسحاق) (١٢).

وعن ربيعة وعمارة إن طائفة من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) مشوا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن تخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية.

فقال لهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله لا أفعل ما طلعت شمس ولا ح في السماء بنجم، والله لو كان ما لهم لي لواسيت بينهم، وكيف وإنما هو أموالهم؟)(١٣).

تعجيل القسمة

عن هلال بن مسلم، عن جده قال: شهدت علي بن أبي طالب (عليه السلام) أتى بمال عند المساء، فقال: (اقسموا هذا المال).

فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخره إلى غد.

فقال لهم: (تقبلون أني أعيش إلى غد)؟

قالوا: وماذا بأيدينا!

قال: (فلا تؤخروه حتى تقسموه).

قال: فأتى بشمع فقسموا ذلك المال من غنائمهم(١٤).

وعن مجمع: أن علياً (عليه السلام) كان يكنس بيت المال كل يوم الجمعة، ثم ينضحه بالماء ثم يصلي فيه ركعتين ثم يقول: (تشهدان لي يوم القيامة)(١٥).

وعن علي (عليه السلام) قال: (كان خليلي رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يجبس شيئاً لغد، وكان أبو بكر يفعل، وقد رأى عمر في ذلك أن دَوّن الدواوين وأخر المال من سنة إلى سنة، وأما أنا فأصنع كما صنع خليلي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: وكان علي يعطيهم من الجمعة إلى الجمعة وكان يقول:

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه(١٦)

أقول: الظاهر أن هذا التأخير كان عند قلة المال، أما إذا كان يمكن تقسيمه في نفس الوقت فكان (عليه السلام) يقسمه.

وعن مجمع التيمي: أن علي (عليه السلام) كان ينضح بيت المال ثم يتنقل فيه ويقول: (اشهد لي يوم القيامة إني لم أحبس فيك المال على المسلمين)(١٧).

وعن بكر بن عيسى قال: كان علي (عليه السلام) يقول: (يا أهل الكوفة إن خرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن).

وكانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة من ينبع، وكان يطعم الناس الخل واللحم ويأكل من الثريد بالزيت ويجللها بالتمر من العجوة وكان ذلك طعامه وزعموا أنه كان يقسم ما في بيت المال فلا يأتي الجمعة، وفي بيت المال شيء، ويأمر ببيت المال في كل عشية خميس فينضح بالماء ثم يصلي فيه ركعتين)(١٨).

وروى القمي في تفسيره في قوله تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون) (البقرة: ٨٤).

أنه لما أمر عثمان بنفي أبي ذر (رحمه الله) إلى الريدة دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً متوكأ على عصاه وبين يدي عثمان مئة ألف درهم قد حملت إليه من بعض النواحي وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟

فقال عثمان: مائة ألف درهم حملت إليّ من بعض النواحي أريد أن أضم إليها مثلها، ثم أرى فيها رأيي.

فقال أبو ذر: يا عثمان أيهما أكثر مائة ألف درهم أو أربعة دنانير؟

فقال عثمان: بل مائة ألف درهم.

فقال أبو ذر: أما تذكر أنا وأنت دخلنا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) عشاءً فرأيناك كثيراً حزيناً فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام (أي رداً ببشر)، فلما أصبحنا أتيناك فرأيناك ضاحكاً مستبشراً فقلنا له: بأبائنا وأمهاتنا، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كثيراً حزيناً وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكاً مستبشراً؟ فقال (صلى الله عليه وآله): نعم كان عندي من فيء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسمتها وخفت أن يدركني الموت وهي عندي وقد قسمتها اليوم فاسترحت..)(١٩) الخبر.

وعن هارون بن مسلم البجلي، عن أبيه قال: أعطى علي (عليه السلام) الناس في عام واحد ثلاثة أعطية، ثم قدم عليه خراج أصفهان فقال: (أيها الناس اغدوا فخذوا، فوالله ما أنا لكم بخازن) ثم أمر ببيت المال فكس ونضح وصلى فيه ركعتين، ثم قال: (يا دنيا غري غيري) ثم خرج فإذا هو بحبال على باب المسجد، فقال: ما هذه الحبال؟ فقيل جيء بها من أرض كسرى فقال: (اقسموها بين المسلمين)(٢٠).

أقول: (ثلاثة أعطية) أي عامة لكل أما العطايا الأخر فكانت لأجل الجهاد ونحوه.

كيفية تقسيم الغنائم

عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) السرية يبعثها الإمام فيصيبون بها غنائم كيف تقسم؟ قال: (إن قاتلوا عليها مع أمير أمره الإمام عليهم أخرج منها الخمس لله وللرسول وقسم بينهم أربعة أخماس، وإن لم يكونوا قاتلوا عليها المشركين كان كل ما غنموا للإمام يجعله حيث أحب)(٢١).

أقول: وذلك لأن الحرب يلزم أن تكون بأمر الإمام. كما قرر في الفقه..

وعن أبي الحسن (عليه السلام) في حديث قال: (يؤخذ الخمس من الغنائم فيجعل لمن جعله الله له ويقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليه وولى ذلك) قال: (وللإمام صفو المال أن يأخذ الجارية الفارهة والدابة الفارهة والثوب والمتاع مما يجب أو يشتبه فذلك له قبل قسمة المال وقبل إخراج الخمس) قال: (وليس لمن قاتل شيء من الأرضين ولا ما غلبوا عليه إلا ما احتوى عليه العسكر، وليس للأعراب من الغنيمة شيء، وإن قاتلوا مع الإمام، لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صالح الأعراب أن يدعهم في ديارهم ولا يهاجروا على أنه إن دهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) من عدوه دهم أن يستفزه فيقاتل بهم وليس لهم في الغنيمة نصيب، وسنته

جارية فيهم وفي غيرهم، والأرضون التي أخذت عنوة بخيل أو ركاب فهي موقوفة متروكة في يدي من يعمرها ويحييها ويقوم عليها على ما صالحهم الوالي على قدر طاقاتهم من الحق الخراج النصف أو الثلث أو الثلثين على قدر ما يكون لهم صلاحاً ولا يضرهم (إلى أن قال): ويؤخذ بعد ما بقي من العشر فيقسم بين الوالي وبين شركائه الذين هم عمال الأرض وأكثرها فيدفع إليهم أنصبتهم على ما صالحهم عليه ويؤخذ الباقي فيكون بعد ذلك أرزاق أعوانه على دين الله، وفي مصلحة ما بينونه من تقوية الإسلام وتقوية الدين في وجوه الجهاد، وغير ذلك مما فيه مصلحة العامة ليس لنفسه من ذلك قليل ولا كثير(٢٢).

أقول: (الصفايا) للإمام حيث إنه يهدي الناس إلى ما فيه تقوية الإسلام وصلاح حال المسلمين، ولذا لا تقسم الصفايا بين المقاتلين.

وعن عبد الكريم بن عتبة، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في حديث طويل أنه (عليه السلام) قال لعمر بن عبيد: رأيت إن هم أبو الجزية فقاتلهم فظهرت عليهم وكيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس وأقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليه (إلى أن قال (عليه السلام)): رأيت الأربعة أخماس تقسمها بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

قال (عليه السلام): (فقد خالفت رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بيني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم وأسألهم فإنهم لا يختلفون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم ولا يهاجروا على أنه إن دهمهم من عدوه دهم أن يستنفرهم فيقاتل بهم، وليس لهم في القسمة نصيب، وأنت تقول بين جميعهم فقد خالفت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كل ما قلت في سيرته في المشركين(٢٣).

أقول: إنما لزمتم الهجرة لتقوية الدين بكثرة الجماعة ولتعلمهم معالم الإسلام، فإذا لم يهاجروا حرموا من الغنيمة مع وجوب الجهاد عليهم.

وعن ابن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (من الغنيمة يخرج منها الخمس ويقسم ما بقي بين من قاتل عليه وولى ذلك، وأما الفيء والأنفال فهو خالص لرسول الله (صلى الله عليه وآله)(٢٤).

أقول: الفيء ما انجلى عنها أهلها بغير حرب، والأنفال رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام ونحوها.

وعن أبي عبد الله (عليه السلام)، أنه قال: (الغنيمة تقسم على خمسة أخماس فتقسم إلى أربعة أخماس على من قاتل عليها، والخمس لنا أهل البيت في اليتيم منا والمسكين وابن السبيل وليس فينا مسكين ولا ابن السبيل اليوم بنعمة الله فالخمس لنا موفراً ونحن شركاء الناس فيما حضرناه في الأربعة أخماس(٢٥).

أقول: ذلك لمكان القيادة المحتاجة إلى أموال كثيرة لإدارة الشؤون.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ليس للعبيد من الغنيمة شيء، وإن حضر وقاتل عليها فرأى الإمام أو من أقامه الإمام أن يعطيه على بلائه إن كان منه أعطاه من المتاع ما يراه(٢٦).

أقول: وذلك لأن مصارف العبيد على مواليتهم.

وعنه (عليه السلام)، أنه قال: (من مات في دار الحرب من المسلمين قبل أن يحرز الغنيمة فلا سهم له فيها، ومن مات بعد أن أحرزت فسهمه ميراث لورثته)(٢٧).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قسم في النفل للفارس سهمين وللراجل سهماً. وبعث أسامة بن زيد إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يبعث إلي بعطائي، فوالله لتعلم أنك إن كنت في فم الأسد لدخلت معك، فكتب إليه: (إن هذا المال لمن جاهد عليه، ولكن هذا مالي بالمدينة فأصب منه ما شئت)(٢٨).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن الأعراب عليهم جهاد؟ قال: (لا.. إلا أن يخاف على الإسلام فيستعان بهم)(٢٩).

قلت: فلهم من الجزية شيء؟

قال: (لا).

عن سماعة، عن أحدهما (عليه السلام) قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج بالنساء في الحرب يداوين الجرحى ولم يقسم لهن من الفياء شيئاً ولكنه نفلهن)(٣٠).

أقول: أي أعطاهن نافلة من الغنيمة.

وعن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إنما تضرب السهام على ما حوى العسكر)(٣١).

وعن مسعدة بن صدقة، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه: أن علياً (عليه السلام) قال: (إذا ولد المولود في أرض الحرب قسم له مما أفاء الله عليهم)(٣٢).

وعن أبي البخترى، عن جعفر عن أبيه، عن علي (عليه السلام) قال: (إذا ولد المولود في أرض الحرب أسهم له)(٣٣).

وعن المنهال بن عمرو، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: قلت له: قوله تعالى: (ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (الحشر: ٧).

قال: (هم أقبائونا ومساكيننا وأبناء سبيلنا)(٣٤).

أقول: إن الله سبحانه جعل الخمس للسادة والزكاة لمن عداهم، لأجل أن تكون للرسول (صلى الله عليه وآله) شؤون خاصة، في أقبائه، كما له شؤون خاصة أحر، لأجل تذكير المسلمين دائماً به (صلى الله عليه وآله).

١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٨٠.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق: ص ٨٨.

٤ . المصدر السابق.

- ٥ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٩٠.
- ٦ . المصدر السابق: ص ٩٢.
- ٧ . المصدر السابق.
- ٨ . المصدر السابق: ص ٩٣.
- ٩ . المصدر السابق: ص ٩٤.
- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٨١.
- ١٢ . المصدر السابق.
- ١٣ . المصدر السابق: ص ٨٢.
- ١٤ . المصدر السابق: ص ٨٣.
- ١٥ . المصدر السابق.
- ١٦ . المصدر السابق.
- ١٧ . المصدر السابق.
- ١٨ . المصدر السابق.
- ١٩ . تفسير القمي: ج ١، ص ٥٢.
- ٢٠ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٨٤.
- ٢١ . المصدر السابق.
- ٢٢ . المصدر السابق: ص ٨٥.
- ٢٣ . المصدر السابق: ص ٨٦.
- ٢٤ . المصدر السابق: ج ٦، ص ٣١٦.
- ٢٥ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٩٦.
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٩٧.
- ٢٧ . المصدر السابق.
- ٢٨ . المصدر السابق.
- ٢٩ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٨٦.
- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق.
- ٣٢ . المصدر السابق: ص ٨٧.
- ٣٣ . المصدر السابق.

الفصل الثاني: الإيمان ومنابع الحضارة الإسلامية

القرآن أساس الحضارة الإسلامية

(القرآن) أساس الحضارة الإسلامية

لاشك أن أول أساس بنيت عليه الحضارة الإسلامية . التي أنقذت العالم من الويلات، ودفعته إلى التقدم الهائل في أبعاد الحياة . هو القرآن، ولذا فمن الضروري . إذا أردنا إعادة الحضارة الإسلامية . أن نبنينا على القرآن مرة ثانية .

(القرآن) في النصوص الدينية

وهنا نستعرض جملة من الروايات والأحاديث الواردة حول القرآن الحكيم:

فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (عدد درج الجنة عدد آي القرآن، فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: أرق وقرأ، لكل آية درجة، فلا يكون فوق حافظ القرآن درجة)(١).

وعن علي عليه الصلاة والسلام، أنه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (القلوب أربعة: فقلب فيه إيمان وليس فيه قرآن، وقلب فيه قرآن وإيمان، وقلب فيه قرآن وليس فيه إيمان، وقلب لا قرآن فيه ولا إيمان).

فأما القلب الذي فيه إيمان وليس فيه قرآن كالثمرة، طيب طعمها ليس لها ريح.

وأما القلب الذي فيه قرآن وليس فيه إيمان كالأشنة طيب ريحها خبيث طعمها.

وأما القلب الذي فيه إيمان وقرآن كجراب المسك إن فتح فتح طيباً، وإن وعى وعى طيباً.

وأما القلب الذي لا قرآن فيه ولا إيمان كالحنظلة خبيث ريحها خبيث طعمها)(٢).

وفي رواية قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن هذا القرآن مآدبة الله فتعلموا مآدبته ما استطعتم)(٣).

وفي رواية معاذ قال: كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سفر فقلت: يا رسول الله حدثنا بما لنا فيه نفع؟

فقال: (إن أردتم عيش السعداء، وموت الشهداء، والنجاة يوم الحشر، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان)(٤).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أنه قال: (ما من مؤمن ذكر أو أنثى حرّ أو مملوك إلا والله عليه حق واجب أن يتعلم من القرآن ويتفقه فيه، ثم قرأ هذه الآية: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب) (آل عمران: ٧٩) إلى آخر الآية)(٥).

وجاء أبو ذر إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يعذب الله قلباً أسكنه القرآن)(٦).

وعن الجهني: أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لو كان القرآن في أهاب ما مسه النار)(٧).

وعن سعد، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (خياركم من تعلم القرآن وعلمه)(٨).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (تعلموا القرآن وتعلموا غرائبه: وغرائبه فرائضه وحدوده، فإن القرآن نزل على خمسة وجوه: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، ودعوا الحرام، واعملوا بالمحكم، ودعوا المتشابه، واعتبروا بالأمثال)(٩).

وفي رواية: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (أيكم يجب أن يغدوا إلى العقيق أو إلى بطحاء مكة فيؤتى بناقتين كوماوين حسنتين فيدعو بهما إلى أهله من غير مأثم ولا قطيعة رحم؟). قالوا: كلنا نحب ذلك يا رسول الله.

قال: (لأن يأتي أحدكم المسجد فيتعلم آية خير له من ناقة، أو اثنتين، خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث)(١٠).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل)(١١).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أنه قال: (ثلاثة على كتيبان المسك يوم القيامة، رجل قرأ كتاب الله، وأم لله قوماً وهم به راضون)(١٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (معلم القرآن ومتعلمه يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر)(١٣).

وعن أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) أنه قال: (ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الفتنة يوماً، فقلنا: يا رسول الله كيف الخلاص منها؟

فقال: بكتاب الله، فيه نبأ من كان قبلكم، ونبأ من كان بعدكم، وحكم ما كان بينكم، وهو الفصل وليس بالهزل، ما تركه جبار إلا قصم الله ظهره، ومن طلب الهداية بغير القرآن ضل، وهو الجبل المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تلبس على الألسن، ولا يخلق من كثرة القراءة، ولا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لما سمعه الجن قالوا: (إنا سمعنا قرآناً عجيباً)، وهو الذي إن قال صدق، وإن حكم عدل، ومن تمسك به هداه إلى الصراط المستقيم)(١٤).

وفي (نهج البلاغة) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، ونقصان في عمى).

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا أحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والعمى والضلال، فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله.

واعلموا أنه شافع مشفع وقائل مصدق وإنه من شفع القرآن له يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن،

فكونوا من حرثه وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آرائكم واستخشوا فيه أهوائكم(١٥).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (إن أكرم العباد إلى الله بعد الأنبياء العلماء، ثم حملة القرآن، يخرجون من الدنيا كما يخرج الأنبياء، ويحشرون من قبورهم مع الأنبياء، ويمرون على الصراط مع الأنبياء، ويأخذون ثواب الأنبياء، فطوبى لطالب العلم وحامل القرآن مما لهم عند الله من الكرامة والشرف)(١٦).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، من عاداهم فقد عادى الله، ومن والاهم فقد والى الله).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (يوضع يوم القيامة منابر من نور وعند كل منبر نجيب من نجب الجنة، ثم ينادي مناد من قبل رب العزة: أين حملة كتاب الله؟ اجلسوا على هذه المنابر فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، حتى يفرغ الله تعالى من حساب الخلائق، ثم يقال لهم: اركبوا على هذه النجيب واذهبوا إلى الجنة)(١٧).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (من استظهر القرآن وحفظه، وأحل حلاله وحرم حرامه، أدخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته)(١٨).

وعن علي (عليه السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:

ألا أخبركم بالفقيه كل الفقيه.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: (من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم مكر الله، ومن لم يرخص لهم في معاصي الله، ومن لم يدع القرآن رغبة إلى غيره لأنه لا خير في علم لا تفهم فيه ولا عبادة لا تفقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها)(١٩).

سرّ الانطلاقة الأولى

وقد كان القرآن . بما أوجد في المسلمين من الروح المعنوية العالية، والإيمان بالله واليوم الآخر، والخوف من الجنة والنار، والتحلي بالأخلاق الحميدة . أول مبعث لانطلاقة المسلمين، تلك الانطلاقة المذهلة التي اعترف الغرب بأنها كانت وراء النهضة العلمية في الغرب، وبأن المسلمين هم آباء العلم الحديث.

علماء الغرب.. يعترفون

يقول (غوستاق لوبون): إن المكتبات والمخابر والأدوات هي مواد لا بد منها في التعليم وفي البحوث، ولكن هذه الأشياء ليست في النهاية إلا مواد وعناصر، وإن قيمتها تتوقف فقط على الطريقة التي تستخدم فيها، وإن الإنسان قد يستطيع أن يمتلي من علوم الآخرين ويبقى مع ذلك غير أهل لأن يفكر بواسطة شخصه أو أن يوجد شيئاً ما، وقد يستطيع أن يكو تلميذاً من غير أن يقدر على أن يكون أستاذاً.

ويقول: وإن الاكتشافات المشروحة في الفصول الآتية سوف ترينا الفائدة التي عرف العرب أن يستخلصوها من مواد الدراسة وعناصرها المجموعة بواسطتهم، وسوف نقتصر الآن على المبادئ العامة التي وجهت بحوثهم، فبعد أن جعلوا من أنفسهم تلامذة فقط متخذين من مؤلفات اليونان أساتذة لهم عرفوا بعد قليل أن الاختبار

والملاحظة هما أثمن من خيار الكتب، وإن هذه الحقيقة التي أصبحت اليوم من البديهيات لم تكن دائماً كذلك، فإن علماء القرون الوسطى قد عملوا مدة ألف عام قبل أن يفهموها).

ثم يقول: (إن الاختبار والملاحظة هما أسس الطرق العلمية الحديثة، ولقد أسند إلى (باكون) بصورة عامة فكرة وضع (الاختبار) مكان سلطة (الأستاذ) غير أنه يجب اليوم أن نعترف بأن هاتين القاعدتين إنما تعودان بصورة كاملة إلى العرب، وإن هذا الرأي قد صرح به مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مخلفات العرب وبصورة خاصة (هامبولد) فبعد أن برهن هذا الرجل الفذ أن أعلى درجة في العلم إنما تكون عندما تولد بنفسها وحسب إرادتها حقائق علمية وذلك بواسطة الاختبار أن العرب قد رسموا إلى هذه الدرجة غير المعروفة تقريباً عند القدامى).

ثم يقول: (وقال (سيديو): إن الذي أوجد صورة خاصة لمدرسة بغداد في أول نشأتها إنما هي الفكرة العلمية الحقيقية التي تتحكم في دراستها، وأن القواعد التي كانت تدرس سابقاً من قبل الأساتذة هي الانتقال من المعلوم إلى المجهول والفهم الدقيق للحقائق كي ينتقل بعد ذلك من المسببات إلى الأسباب، وأن لا يقبل إلا ما برهن عليه الاختبار، وأن العرب في القرن التاسع من الميلاد كانت لديهم هذه الطريقة الخصبية، وهي التي انتقلت بعد زمن طويل جداً إلى أيدي المحدثين وكانت الوسيلة لأجل ما كان منهم في الاكتشافات).

(المسلمون) آباء العلم الحديث

ولقد كتب (ديلامير) في كتابه (تاريخ الفلك) فقال: إذا عددنا بجهد اثنين أو ثلاثة من الملاحظين فيما بين اليونان، فإنه يرى على العكس من ذلك عدد كبير منهم عند العرب، أما في الكيمياء فإنه لا يستطيع ذكر أحد ما من الملاحظين عند اليونان بينما هم عند العرب يعدون بالمئات، وأن اعتياد العرب على الاختبار قد أسبغ على دراساتهم هذه الدقة وهذا الإبداع اللذين لا يمكن أبداً أن تتوقع وجودهما عند الرجل الذي ما درس الحقائق إلا في كتب، إن دور العرب لم يقتصر فقط على تلقيط العلوم باكتشافاتهم بل عملوا على نشرها بواسطة جامعاتهم وبواسطة مؤلفاتهم وأن التأثير الذي أحدثوه في أوروبا من هذه الناحية الأخيرة قد كان عظيماً جداً، لأن العرب قد كانوا في مدة عصور عديدة هم وحدهم الأساتذة الذين عرفتهم الأمم النصرانية، وإننا إليهم وحدهم مدينون في معرفة العلم القديم اليوناني اللاتيني، وإن التعليم في جامعاتنا لم يتوقف عن الاعتماد على ترجمة الكتب العربية إلا في الأيام الأخيرة.

ويقول (ليبرى) في صدد تأثير الحضارة الإسلامية على الحضارة العالمية في هذا اليوم: (ارفعوا العرب من التاريخ تتأخر النهضة في أوروبا قروناً عدة).

ويقول (سلوربان): (كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكباهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلم والفن ولا نبالغ إذا قلنا إن أوروبا مدينة لهم بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد).

ويقول (ويلز): (كانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق، غير تارك منها شيئاً في ظل الإبهام، وإن هذه الخاصة التي جاءتنا نحن الأوروبيين من اليونان، وهي النور إنما جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين).

ويقول (البارون): إن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركه اليونان، وإن العرب كانوا على خلاف ذلك فقد حفظوه وأتقنوه ولم يقفوا فيه عند هذا الحد، بل تعدوه إلى ترقيته وطبقوه بأذلين الجهد في تحسينه وإتمائه حتى سلموه للعصور الحديثة).

ويقول (سيدوان): إنتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد بأنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء). ويقول (الدكتور سارطون): إن بعض الغربيين الذين يريدون أن يستحقوا بما أسداه الشرق إلى الحضارة يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً ما، هذا خطأ، بل إن العرب والمسلمين كانوا أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة: الثامن والحادي، والثاني عشر للميلاد.

إلى غيرها من تصريحاتهم، فإنهم وإن نسبوا ذلك إلى (العرب) لكنه كان في الواقع من مفاخر الإسلام والمسلمين، فالمسلمون تمكنوا من أن يكونوا أساتذة العالم، لا هذا فحسب، بل تمكنوا أن يبنوا حضارة فنية تنقذ العالم من ويلات وحروبه ومشاكله وكان ذلك في ظل القرآن وما فيه من المبادئ الرفيعة والأخلاق السامية والترغيب إلى الجنة والتخويف من النار، والإيمان بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبما جاء به من عنده.

فإذا أردنا صياغة الحضارة الجديدة في العالم الحاضر لتخليصه من الشرور والمشاكل، فاللازم علينا إحياء القرآن والإيمان بالله وبالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكر الجنة والنار، فإن ذكر الجنة والنار من المحفزات الكبيرة لانطلاق الإنسان واستقامته وخدمته للإنسان.

نموذجان للتأثير القرآني

وهنا نستعرض آيات من سورتين مباركتين إحداهما بالنسبة إلى ذكر الجنة، والأخرى بالنسبة إلى ذكر النار حتى نرى كيف أنها تحفز الإنسان على الاستقامة وصحة العمل والتقدم إلى الأمام، فإن الخوف والرغبة في الإنسان يدفعان الإنسان إلى العمل وإلى الوقوف في مواضع الوقوف، وإلى الانطلاق في مواضع الانطلاق كما هو واضح.

النموذج الأول:

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة بالنسبة إلى الجنة: (وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلث من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحوار عيون كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة

وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أباراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين (الواقعة: ٧ . ٤٠).

النموذج الثاني:

يقول سبحانه بالنسبة إلى النار في سورة الفرقان: (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم قبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً) (الفرقان: ١١ . ١٤).

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً) (الفرقان: ١٧ . ١٩).

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) (الفرقان: ٢٢ . ٢٣).

(ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذٍ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ويوم يعصّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) (الفرقان: ٢٥ . ٢٩).

(الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً) (الفرقان: ٣٤).

(والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً) (الفرقان: ٦٥ . ٦٦).

(يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً) (الفرقان: ٦٩).

وقس على ذلك سائر الآيات القرآنية المتعرضة لذكر الجنة والنار والترغيب والترهيب.

١ . مستدرك الوسائل: ج ٤، ص ٢٣١ .

٢ . المصدر السابق .

٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٢ .

٤ . المصدر السابق .

٥ . المصدر السابق: ص ٢٣٣ .

٦ . المصدر السابق .

٧ . المصدر السابق .

٨ . المصدر السابق .

٩ . المصدر السابق: ص ٢٣٤ .

- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . المصدر السابق.
- ١٢ . المصدر السابق: ص ٢٣٥.
- ١٣ . المصدر السابق.
- ١٤ . المصدر السابق: ص ٢٣٩.
- ١٥ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ٩٢.
- ١٦ . مستدرک الوسائل: ج ٤، ص ٢٤٤.
- ١٧ . المصدر السابق.
- ١٨ . المصدر السابق: ص ٢٤٥.
- ١٩ . المصدر السابق: ص ٢٤٢.

الحديث الشريف

الأحاديث توجه الناس نحو الإيمان

ومن هنا نرى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما يكثران من ذكر الجنة والنار ويخوفان منهما تخويفاً كبيراً!

ومن هنا - أيضاً - نرى في الأحاديث الكثيرة: وجوب الاعتصام بالله، والتوكل عليه، والتفويض إليه، وعدم جواز تعلق الرجاء والأمل بغير الله، ووجوب الخوف منه، والجمع بين خوفه ورجائه، وهذه جملة من تلك الروايات: فعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أيما عبد أقبل قبل ما يجب الله عز وجل أقبل الله ما يجب، ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل الله قلبه وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله تقوى من كل بلية، أليس الله يقول: (إن المتقين في مقام أمين)) (١).

وعن مفضل، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أوحى الله عز وجل إلى داود ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم يكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب المساوات من يديه، وأسخت الأرض من تحته ولم أبال بأي واد يهلك) (٢).

وعن أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه) ؟

قلت: لا.

قال: فهل رأيت أحداً توكل إلى الله فلم يكفه؟

قلت: لا.

قال: فهل رأيت أحداً سال الله فلم يعطه؟

قلت: لا، ثم غاب عني) (٣).

أقول؛ لعله كان الخضر (عليه السلام) أو من ملائكة الله المقربين.

وعن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا) (٤).

وعن علي بن سويد، عن أبي الحسن الأول موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق: ٢ - ٣).

فقال: (التوكل على الله درجات، منها: أن تتوكل في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها)(٥). وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من أعطى ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً: من أعطى الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطى الشكر أعطي الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطي الكفاية، ثم قال: أتلوت كتاب الله عز وجل: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق: ٣).

و (لئن شكرتم لأزيدنكم) (إبراهيم: ٧).

وقال: (ادعوني أستجب لكم) (غافر: ٦٠)(٦).

وعن الحسين بن علوان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قرأ في بعض الكتب: (إن الله تبارك وتعالى يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأخيننه من قربي، ولأبعدنه من فضلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي، ويقرع بالفكر باب غيري ويبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني).

فمن ذا الذي أمني بنائبة فقطعته دونها؟ ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟

جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملاأت سماواتي ممن لا يمل من تسيحي وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني، فما لي أراه لاهياً عني، أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعت عنه فلم يسألني رده وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سألني، أبخيل أنا فيبخلني عبادي؟

أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العطف والرحمة بيدي؟ أوليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلم يخشى المؤمنون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل السماوات وأهل الأرض أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لم عصائي ولم يراقبني)(٧).

وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (يوسف: ١٠٦).

قال: (هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان ما أصبحت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، الا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه).

قلت: فيقول ماذا؟

قال: (يقول: لولا أن منّ الله علي بفلان لهلكت)(٨).

أقول: والمراد أنه لا يرى أن الشخص هو السبب، وإنما السبب ما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً.

وعن حمزة بن حمران قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن مما حفظ من خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (يا أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم،

ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجلٍ قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فيأخذ العبد المؤمن من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعجب، وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار).

وعن الحذاء، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فلا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف)(٩). وعن داود الرقي، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، في قول الله عز وجل: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (الرحمن: ٤٦).

قال: (من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمل من خير أو شر فيحجزه ذلك عن قبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)(١٠).

وعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): يا إسحاق خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك)(١١).

وعن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سحت نفسه عن الدنيا)(١٢).

وقال الصدوق من ألفاظ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (رأس الحكمة مخافة الله عز وجل)(١٣). وقال الصادق (عليه السلام): (من خلا بذنب فراقب الله تعالى فيه واستحى من الحفظة غفر الله له جميع ذنوبه وإن كانت مثل ذنوب الثقلين)(١٤).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن قوماً أصابوا ذنوباً فخافوا منها وأشفقوا فجاءهم قوم آخرون فقالوا: مالكم؟

فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً فخفنا منها وأشفقنا.

فقالوا لهم: نحن نحملها عنكم.

فقال الله تعالى: يخافون ويجترون عليّ! وفأنزل الله عليهم العذاب)(١٥).

وعن الصادق، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: (إن المؤمن لا يصبح إلا خائفاً وإن كان محسناً، ولا يمسي إلا خائفاً وإن كان محسناً، لأنه بين أمرين: وقت قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجلٍ قد اقترب لا يدري ما يصيبه من الهلكات، ألا وقولوا خيراً تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، صلوا أرحامكم وإن قطعوكم، وعودوا بالفضل على من حرمكم، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم وأوفوا بعهد من عاهدتم، وإذا حكمتهم فاعدلوا)(١٦).

وعن الحرث بن المغيرة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: ما كان في وصية لقمان؟

قال: كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لإبنه: (خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك).

ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): كان أبي يقول: (ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا)(١٧).

وعن أحمد بن أبي عبد الله، بسنده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت؟

فقال: (هؤلاء قوم يترجحون في الأمان، كذبوا ليسوا براجين، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه)(١٨).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: (ارج الله رجاءً لا يجرئك على معصية، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته)(١٩).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا أبا ذر إن سرّك أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإن سرّك أن تكون أكرم الناس فاتق الله عز وجل، وإن سرّك أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله عز وجل أوثق منك بما في يديك).

يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بهذه الآية لكفتهم: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) (الطلاق: ٢ - ٣)(٢٠).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (لو أن رجلاً توكل على الله بصدق النية لاحتاجت إليه الأمور ممن دونه فكيف يحتاج هو ومولاه الغني الحميد)(٢١).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من توكل وقنع ورضى كفى المطلب)(٢٢).

وقال الصادق (عليه السلام) لعبد الله بن جندب: (يا جندب يهلك المتوكل على عمله ولا ينجو الجريء على الذنوب الواثق برحمة الله).

قلت: فمن ينجو؟

قال: (الذين هم بين الخوف والرجاء، كأن قلوبهم في محلب طائر شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب)(٢٣).

وقال الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم: (يا هشام لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عالماً لما يخاف ويرجو)(٢٤).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من عرف الله خاف، ومن خاف الله حثه الخوف من الله على العمل بطاعته والأخذ بتأديبه، فبشر المطيعين المتأدبين بأدب الله والآخذين عن الله، إنه حق على الله أن ينجيهم من مضلات الفتن)(٢٥).

وفي رواية عن أبي ذر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا أبا ذر يقول الله تعالى: لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمينين، فإذا أمني أخفته يوم القيامة، وإذا خافني أمنت يوم القيامة).

يا أبا ذر لو أن رجلاً كان له مثل عمل سبعين نبياً لاحتقره وخشى أن لا ينحو من شر يوم القيامة.
يا أبا ذر إن لله ملائكة قياماً من خيفته ما يرفعون رؤوسهم حتى ينفخ في الصور النفخة الأخيرة فيقولون جميعاً:
سبحانك وبحمدك ما عبدناك كما ينبغي لك أن تعبد، فلو كان لرجل عمل سبعين صديقاً لاستقل عمله من
شدة ما يرى يومئذٍ(٢٦).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لرجل يسمى بأبي كاهل: (يا أبا كاهل لن يغضب رب العزة على من كان
في قلبه مخافة، ولا تأكل النار منه هدبة)(٢٧).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (إن الله إذا جمع الناس يوم القيامة نادى فيهم مناد، أيها الناس إن
أقربكم اليوم من الله أشدكم منه خوفاً، وإن أحبكم إلى الله أحسنكم عملاً، وإن أفضلكم عند الله منصباً
أعملكم فيما عنده رغبة، وإن أكرمكم عليه أتقاكم)(٢٨).

وعن السجاد (عليه السلام) أنه قال: (واعلموا عباد الله أنه من خاف البيات تجافى عن الوساد، وامتنع عن
الرقاد، وأمسك عن بعض الطعام والشراب من خوف سلطان أهل الدنيا، فكيف يابن آدم من خوف بيات
سلطان رب العزة وأخذة الأليم وبياته لأهل المعاصي والذنوب مع طوارق المنايا بالليل والنهار، فذلك البيات
الذي ليس منه منجى، ولا دونه ملجأ، ولا منه مهرب، فخافوا الله أيها المؤمنون من البيات خوف أهل اليقين
وأهل التقوى، فإن الله يقول: (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) (إبراهيم: ١٤)(٢٩).

الإيمان: صمام أمان

وعلى هذا، فلو أردنا الحياة السعيدة في الدنيا قبل الآخرة احتجنا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، إذ بدون الإيمان
بالله واليوم الآخر وبدون التقوى وبدون الخوف من الجنة والنار لا يمكن صياغة المجتمع صياغة آمنة عن الأخطار
والمشاكل.

يقول صاحب كتاب الإسلام يتحدى: (إن خوف الشرطة والمحكمة لا يكفي لدرء الجرائم، وإنما لا بد أن يكون
هناك وازع في المجتمع يمنع الناس من ارتكاب الجرائم، إن الرشاوي والمحسوبيات وخدمات المحامين البارعين وشهود
الزور كل هذه العوامل تكفي لحماية المجرم من أية شرطة أو محكمة إنسانية، والمجرم لا يهرب أي عقاب لو استطاع
أن يفلت من أيدي القانون، إن الشرع الإلهي يستوفي كل هذه الأمور، فعقيدة الآخرة التي يحملها الشرع الإلهي
هي خير وازع عن ارتكاب الجرائم وهي تكفي لتبقي إحساساً للحريمة واللوم يعتمل في قرارة ضمير الإنسان لو
أدلى بشهادة كاذبة أمام القاضي).

ثم يقول: (إن واقعة رواها العالم الهندي الدكتور عناية الله المشرقي وهو يقول: كان ذلك يوم أحد من أيام سنة
ألف وتسعمائة وتسعة (١٩٠٩) وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى
الفلكي المشهور (السير جيمس) الأستاذ بجامعة كمبودج ذاهباً إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه،
فدنوت منه فسلمت عليه، فلم يرد عليّ، فسلمت عليه مرة أخرى فسألني ماذا تريد مني؟.

فقلت له: أمرين يا سيدي.

الأول: هو إن شمسيك تحت إبطك رغم شدة المطر!

فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور.

فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك أن تأخذ شاي عندي مساء اليوم.

وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت زوجته في تمام الساعة الرابعة بالضبط وأخبرتني أن السير جيمس ينتظري، وعندما دخلت عليه في غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألتني ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: (يا عناية الله) عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك لعظيم! أجد أن كل جزء من كياني يؤدي في هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين أحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟.

ويضيف عناية الله خان قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آيات كتابي المقدس (يقصد: القرآن) فلو سمحتم لي بقراءتها عليكم.

فهز رأسه قائلاً بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية: -

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر: ٢٧ - ٢٨).

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ مدهش وغريب وعجيب جداً، إن الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبا محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس قائلاً: لقد كان محمد أمياً ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر، مدهش وغريب وعجيب جداً.

تحقق السعادة في ظل الإيمان

نعم بدون الإيمان الحقيقي لا يمكن أن تستقيم الحياة الدنيا. فكيف بالآخرة؟. ولذا نشاهد الحياة الحاضرة. حيث تخلت عن الإيمان بالله إيماناً حقيقياً. وقد صارت بؤرة للمشاكل والحروب ونهب الأموال، والجرائم مما تزخر بها الكتب والمجلات والصحف والإذاعات والتلفزيونات والمحاكم وغيرها.

أما المجتمع المؤمن فهو بالعكس من ذلك، ولذا نشاهد أن الرسول (صلى الله عليه وآله) رغم حكومته الواسعة . والتي تعادل سبع حكومات في خريطة عالمنا الحاضر . لم يبن حتى سجنأ واحداً في تلك الحكومة الشاسعة، والسبب في ذلك: إن الرسول (صلى الله عليه وآله) غرس الإيمان الصادق في النفوس فكان المؤمن يرعوي بنفسه عن ارتكاب الجرائم والموبقات، وكان المجتمع الإسلامي في زمانه (صلى الله عليه وآله) مجتمع تعاون وتحابب وخير ورفاه، وقد قال الله سبحانه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (آل عمران: ١١٠).

وقال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (البقرة: ١٤٣).

- ١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ١٦٥ .
- ٢ . المصدر السابق.
- ٣ . المصدر السابق: ص ١٦٦ .
- ٤ . المصدر السابق.
- ٥ . المصدر السابق: ص ١٦٧ .
- ٦ . المصدر السابق.
- ٧ . المصدر السابق: ص ١٦٨ .
- ٨ . المصدر السابق: ص ١٦٩ .
- ٩ . المصدر السابق: ص ١٧٢ .
- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . المصدر السابق: ص ١٧٣ .
- ١٢ . المصدر السابق.
- ١٣ . المصدر السابق.
- ١٤ . المصدر السابق.
- ١٥ . المصدر السابق: ص ١٧٤ .
- ١٦ . المصدر السابق.
- ١٧ . المصدر السابق: ص ١٦٩ .
- ١٨ . المصدر السابق.
- ١٩ . المصدر السابق: ص ١٧٠ .
- ٢٠ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢١٦ .
- ٢١ . المصدر السابق: ص ٢١٧ .

- ٢٢ . المصدر السابق.
- ٢٣ . المصدر السابق: ص ٢٢٦.
- ٢٤ . المصدر السابق.
- ٢٥ . المصدر السابق: ص ٢٢٨.
- ٢٦ . المصدر السابق.
- ٢٧ . المصدر السابق: ص ٢٢٩.
- ٢٨ . المصدر السابق.
- ٢٩ . المصدر السابق: ص ٢٣٠.

السيرة قدوة وأسوة

بين حكم علي (عليه السلام) وحكم الحجاج
وعلى خطى الرسول (صلى الله عليه وآله) سار الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إبان خلافته الظاهرية حيث
غرس في المجتمع الإيمان والفضيلة والتقوى بحيث إن الكوفة - ونفوسها ما يقارب أربعة ملايين، ومساحتها تقارب
عشرة فراسخ أو أكثر - لم يكن فيها إلا سجن من الأعواد، فكان المسجونون يقلعون بعض الأعواد ويهربون من
السجن.

ولما ملك الكوفة الحجاج بن يوسف الثقفي - الذي كان حكمه مبنياً على أسس مادية بحتة غير مشبعة بروح
الإيمان والفضيلة والتقوى - بنى في الكوفة سجناً يحتوي على مائة وعشرين ألف إنسان - هذا بالإضافة إلى القتلى
الذين كان يقتلهم ليل نهار، بينما أحصى بعض المؤرخين قتلى الحجاج في مدة حكمه بأكثر من مائة وعشرين
ألف، بينما قتلى علي (عليه السلام) - الذين قتلهم بسبب الجرائم كالزنا والارتداد - لا يعدون حتى مائة شخص.
يعترفون على أنفسهم!

وقد كان المجتمع في زمان النبي (صلى الله عليه وآله) وفي زمان الإمام علي (عليه السلام) من الحصانة الإيمانية
بحيث إنه إذا ارتكب أحد منهم جرماً أتى هو وأخبر النبي (صلى الله عليه وآله) أو الوصي (عليه السلام) بأنه
ارتكب الجرم، وطلب منهما إجراء حدود الله عليه، ومع العلم إن بعض الحدود مؤلمة جداً.
وإليكم بعض النماذج في هذا الصدد:

فقد روى أبو العباس قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): أتى النبي (صلى الله عليه وآله) رجل فقال: إني زنيت
فصرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وجهه عنه.
فأتاه من جانبه الآخر ثم قال مثل ما قال، فصرف وجهه عنه.
ثم جاء الثالثة فقال: يا رسول الله إني زنيت، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.
فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أبصاحبكم بأس - يعني جنة - ؟
فقالوا: لا.

فأقر على نفسه الرابعة فأمر به رسول الله أن يرحم (١).
وروى ميثم قال: أتت امرأة مجح (أي قريية الوضع) أمير المؤمنين (عليه السلام). فقالت: يا أمير المؤمنين إني
زنيت، فطهرني طهرك الله، فإن عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة الذي لا ينقطع.
فقال لها: مما أطهرك؟
فقلت: إني زنيت.

فقال لها: وذات بعل أنت إذ فعلت ما فعلت، أم غير ذلك؟
قالت: بل ذات بعل.

قال لها: أفحاضراً كان بعلك إذ فعلت ما فعلت أو غائباً كان عنك؟
قالت: بل حاضراً.

فقال لها: انطلقني فضعي ما في بطنك ثم أتيني أطهرك.
فلما ولت عنه المرأة فصارت حيث لا تسمع كلامه قال: اللهم إنها شهادة.
فلم تلبث أن أتته فقالت: قد وضعت فطهري.
فتجاهل عليها فقال: أطهرك يا أمة الله مماذا؟
قالت: إني زنيت فطهري.

قال: وذات بعل أنت إذ فعلت ما فعلت؟
قالت: نعم.

قال: فكان زوجك حاضراً أم غائباً؟
قالت: بل حاضراً.

قال: فانطلقني فارضعيه حولين كاملين كما أمرك الله.
فانصرفت المرأة فلما صارت منه حيث لا تسمع كلامه قال: اللهم إنهما شهادتان.
فلما مضى الحولان أتت المرأة فقالت: قد أرضعته حولين فطهري يا أمير المؤمنين.
فتجاهل عليها وقال: أطهرك مماذا؟
قالت: إني زنيت فطهري.

فقال: وذات بعل أنت إذ فعلت ما فعلت؟
فقالت: نعم.

قال: فبعلك غائباً كان عنك إذ فعلت؟
فقالت: بل حاضراً.

قال: فانطلقني فاكفليه حتى يعقل أن يأكل ويشرب ولا يتردى من سطح ولا يتهور في بئر.
فانصرفت وهي تبكي، فلما ولت وصارت حيث لا تسمع كلامه. قال: اللهم هذه ثلاث شهادات.
فاستقبلها عمرو بن حريث المخزومي فقال لها: ما يبكيك يا أمة الله وقد رأيتك تختلفين إلى علي (عليه السلام)
تسألينه أن يطهرك؟

فقالت: إني أتيت أمير المؤمنين فسألته أن يطهرني فقال: أكفلي ولدك حتى يعقل أن يأكل ويشرب ولا يتردى من سطح ولا يتهور في بئر وقد خفت أن يأتي علي الموت ولم يطهرني.
فقال لها عمرو بن حريث: إرجعي إليه فأنا أكفله.

فرجعت فأخبرت أمير المؤمنين بقول عمرو بن حريث، فقال لها أمير المؤمنين وهو متجاهل عليها: ولم يكفل عمرو ولدك؟

فقلت: يا أمير المؤمنين إني زويت فطهرني.

فقال: وذات بعل أنت إذ فعلت ما فعلت؟

قلت: نعم.

قال: أفغائباً كان بعلك إذ فعلت ما فعلت؟

قلت: بل حاضراً.

فرفع أمير المؤمنين رأسه إلى السماء فقال: اللهم إنه قد ثبت عليها أربع شهادات (إلى أن قال): فنظر إليه عمرو بن حريث وكأنا الرمان يفتقاً في وجهه، فلما رأى ذلك عمرو قال: يا أمير المؤمنين إني إنما أردت أن أكفله إذ ظننت إنك تحب ذلك، فأما إذا كرهته فإني لست أفعل.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): أبعث أربع شهادات بالله؟ لتكفلنه وأنت صاغر (٢) (إلى آخر الحديث).
أتت برجليها إلى المحكمة!

وفي رواية أخرى عن محمد بن سعيد، عن بعض أصحابنا قال: أتت امرأة إلى عمر فقالت: يا أمير المؤمنين إني فجرت فأقم في حد الله فأمر برجمها وكان علي (عليه السلام) حاضراً، فقال له: سلها كيف فجرت؟
فقلت كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد فرفعت لي خيمة فأتيتها، فأصبت فيها رجلاً أعرابياً، فسألته الماء فأبى عليّ أن يسقيني إلا أن أمكنه من نفسي، فوليت منه هاربة، فاشتد بي العطش حتى غارت عيناى وذهب لساني، فلما بلغ مني أتيته فسقاني ووقع عليّ.
فقال له علي (عليه السلام): هذه التي قال الله عز وجل: (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه) (البقرة: ١٧٣).

هذه غير باغية ولا عادية إليه). فحلى عمر سبيلها.

إلى غيرها من الأحاديث الواردة في مختلف الحدود والجنايات.

فأبى عامل. غير الإيمان. يرفع الإنسان إلى هذا الحد من النزاهة، ويدفعه إلى المثول أمام النبي (صلى الله عليه وآله) أو الوصي (عليه السلام) ليعترف عنده بخطأه.. مع أنه يعلم أن الاعتراف يسبب له خزيًا عند الناس، وعذاباً من قبل المحكمة...

إنه هو الإيمان الذي لا يدخل قلباً إلا ويجعل صاحبه مستقيماً في عمله وسلوكه.

نماذج أخرى

وليس الأمر خاصاً بالزنا بل نرى أشباه هذه القضايا في باب جنایات أخرى، مثلاً ورد أن رجلاً أتى علياً (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين إني سرقت، فانتهره فقال: يا أمير المؤمنين إني سرقت فقال: أتشهد على نفسك مرتين؟ ثم قطعه.

وأتى أمير المؤمنين (عليه السلام) برجل وجد في خربة ويده سكين ملطخ بالدم وإذا رجل مذبوح متشطح في دمه فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): ما تقول يا ذا الرجل؟

فقال: يا أمير المؤمنين أنا قتلته.

قال (عليه السلام): اذهبوا إلى المقتول فادفونوه.

فلما أرادوا قتل الرجل جاء رجل مسرع فقال: يا أمير المؤمنين والله وحق عيني رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنا قتلته وما هذا بصاحبه.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اذهبوا بهما اثنتينهما إلى الحسن ابني فأخبروه بقصتهما ليحكم بينهما. فذهبوا بهما إلى الحسن (عليه السلام) فأخبروه بمقالة أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقال الحسن (عليه السلام): ردوهما إلى أمير المؤمنين وقولوا: إن هذا قتل ونجى بإقراره عن قتل ذلك، يطلق عنهما جميعاً وتخرج دية المقتول من بيت مال المسلمين فقد قال الله تعالى: (ومن أحيها فكأنما أحيانا جميعاً) (المائدة: ٣٢).

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) له: فما حملك على إقرارك على نفسك بقتله؟

فقال يا أمير المؤمنين: وما كنت أصنع وهل ينفعني الإنكار وقد أخذت ويدي سكين متلطح بالدم وأنا على رجل متشحط في دمه وقد شهد على مثل ذلك، وأنا رجل كنت ذبحت شاة بجنب الخربة فأخذني البول فدخلت الخربة والرجل متشحط في دمه وأنا على الحال.

ومن هنا قال الشيخ الطوسي في النهاية: (ومتى اتهم الرجل بأنه قتل نفساً فأقرّ بأنه قتل، وجاء آخر وأقرّ بأن الذي قتل هو دون صاحبه ورجع الأول عن إقراره درء عنهما القود والدية، ودفع إلى أولياء المقتول الدية من بيت المال).

ثم قال: (وهذه قضية الحسن (عليه السلام) في حياة أبيه (عليه السلام)).

ترى: إنه لولا الإيمان بالله واليوم الآخر هل كان الرجل الثاني يأتي ويعترف على نفسه بالقتل، وهو يتصور أنه يقتل بسبب إقراره لينجي الذي اتهم بدون مبرر؟

أبو ذر الغفاري يختار الموت جوعاً

وهنالكَ قضايا أخرى كثيرة من هذا القبيل في مختلف الأبعاد منذ بدء الشريعة الإسلامية والى زماننا هذا مما يكشف عن أن للإيمان الأثر الغريب في حياة الإنسان.

فمثلاً: ما هو العامل الذي دفع أبا ذر إلى مقاومة السلطة القائمة، حتى نُفي إلى الريدة ومات هنالك جوعاً، بينما كان بإمكانه أن يدهن السلطة ويصبح كزيد بن ثابت الذي خَلّف عند موته أكوماً من الذهب قسمت بين ورثته بالفؤوس.

إنه هو الإيمان!

عندما حكم سلمان (المدائن)

وسلمان الفارسي لم يكن يتصرف. إبان حكمه في المدائن. في بيت المال قدر درهم، وإنما كان يعمل الخوص ويأكل من ثمنه، كما أنه لم يكن يجلس في دار الحكومة، وإنما كان قد هيا لنفسه دكة يجلس عليها ويحكم بين الناس. و(مدائن) سلمان هي (المدائن) التي كان كسرى يحكم فيها بتلك الأبهة العظيمة والفخفخة العجيبة.

(المثالية) عند الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام)

وعندما توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو رئيس حكومة كبيرة تنصب عليها الأموال من كل جانب، كان درعه مرهون عند يهودي بخمسين صاعاً من الشعير لقوته وقوت أهله.

وعلي (عليه السلام) يرتجف من البرد لأنه لا يريد التصرف في بيت مال المسلمين ويمنع أخاه من إعطائه قدرأً إضافياً من المال فوق ما أعطى سائر المسلمين، وكما قال (عليه السلام): (حتى استماحي من بركم صاعاً)(٣).
الرسول (صلى الله عليه وآله) يدعو إلى الاقتصاص من نفسه!

وقد روى الصدوق، عن ابن عباس في وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، أنه (صلى الله عليه وآله) أتى إلى المسجد في شدة مرضه وقال: (إن ربي عز وجل حكم وأقسم أن لا يجوز ظلم ظالم فنشدتكم بالله أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة إلا قام فليقتص منه، فالقصاص في دار الدنيا أحب إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء).

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له (سودة بن قيس) فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضاء وبيدك القضيب المشوق فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني فلا أدري عمداً أو خطأ.

فقال (صلى الله عليه وآله): (معاذ الله أن أكون تعمدت).

ثم قال: (يا بلال أخرج إلى منزل فاطمة فائتني بالقضيب المشوق).

فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، فهذا محمد (صلى الله عليه وآله) يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة.

ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لما أتاه بلال بالقضيب المشوق: (أين الشيخ؟).

فقام وقال الشيخ: ها أنا ذا يا رسول الله بأبي أنت وأمي.

فقال: (تعال فاقتص مني حتى ترضى).

فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله.

فكشفت (صلى الله عليه وآله) عن بطنه.

فقال الشيخ بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟

فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله (صلى الله عليه وآله) من النار يوم القيامة.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا سودة أتعفو أم تقتص؟

فقال: بل أعفو يا رسول الله.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اللهم اعف عن سودة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد (صلى الله عليه وآله)

وآله(٤).

ومن الواضح، إن القضيبي لو كان أصاب بطن سواده لم يكن ذلك عن عمد، ومن المعلوم أن الخطأ ليس فيه القصاص وإنما فيه الدية ومع ذلك أراد النبي (صلى الله عليه وآله) أن يعلم الحكام لزوم ملاحظة أمثال هذه الأمور، فإن الله سبحانه لا ينظر إلى الرئيس والحاكم من خلال منصبه ومقامه، وإنما ينظر إليه كفرد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

ولولا مراقبة الله وخوف الآخرة هل كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يقوم بمثل هذا العمل؟ وهل يوجد مثل هذا العمل إلا في من يخاف الله ويراقبه؟

ولذا قال (صلى الله عليه وآله): (القصاص في دار الدنيا أحب إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء).

دونك السوط!

وقد روى ابن شهر آشوب في المناقب أن مولى لعلي بن الحسين (عليه السلام) كان يتولى عمارة ضيعة له فجاء ليطلعها، فأصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً، فغاضه (عليه السلام) ما رآه وغممه، فقرع المولى بسوط كان في يده، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولى، فأتاه فوجد الإمام (عليه السلام) والسوط بين يديه فظن أنه يريد عقوبته، فاشتد خوفه، وأخذ علي بن الحسين (عليه السلام) السوط ومدّه إليه وقال: (يا هذا قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله، فدونك السوط، واقتصص مني).

فقال المولى: يا مولاي والله إني ظننت إنك تريد عقوبتي وأنا مستحق للعقوبة فكيف اقتصص منك؟

قال (عليه السلام): ويحك اقتصص.

قال: معاذ الله أنت في حلّ وسعة.

فكرر ذلك عليه مراراً، والمولى في كل ذلك يتعاضم قوله ويحلله.

فلما لم يره يقتصص قال (عليه السلام): (أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك) (٥) وأعطاه إياها.

إن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) رغم كون عمله وقرعه للعبد بالسوط في موضعه لأنه أفسد وضيع. كما في نفس الحديث. أراد أن يعلم الناس أنه ليس من حق الإنسان أن يضرب الآخرين ولولا إرادة الإمام (عليه السلام) أن يبين للناس الخوف من الآخرة هل كان يقوم بهذا العمل؟

آه! لولا القصاص

وفي رواية أخرى يرويها الشيخ المفيد، عن إبراهيم بن علي، عن أبيه قال: حججت مع علي بن الحسين (عليه السلام) فالتأثت الناقة عليه في مسيرها (أي أبطأت) فأشار إليها بالقضيبي، ثم قال: (آه لولا القصاص) وردّ يده عنها.

وقد أراد الإمام (عليه السلام) بذلك أن يعلم المسلمين احترام حق الحيوان فلا يضرب اعتباطاً مع العلم إن الإمام (عليه السلام) لم يرد أن يضربها اعتباطاً، وإنما أراد التعليم.

وهكذا فإن الإنسان يحاسب حتى على ما يأتيه بالنسبة إلى الحيوان.

وقد روي في الجعفریات عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رأيت في النار صاحب العبادة الذي غلّها، ورأيت في النار صاحب المحجم الذي كان يسرق الحاج بمحجمه، ورأيت في النار صاحبة الهرة تنهشها مقبلة ومدبرة كانت أوثقتها فلم تكن تطعمها ولم ترسلها تأكل من خشاش الأرض، ودخلت الجنة فرأيت فيها صاحب الكلب الذي أرواه من الماء)(٦).

إلى هذا الحد الدقيق يوجب الإيمان بالله واليوم الآخر احترام الحيوان! حتى أن إهانة الحيوان توجب العقاب. ولو كان الحيوان هرة. وإكرام الحيوان يوجب الثواب. ولو كان كلباً.!

حوار بين هابيل وقابيل

وآثر الإيمان والخوف من الله يمكن أن نشاهده في مواقف كثيرة..

نشاهده في موقف هابيل، الذي كان يخاف الله واليوم الآخر مما جعله يقول لأخيه إنه لا يريد قتله وإن أراد أخوه قابيل قتله.

يقول الله تعالى في القرآن الحكيم: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) (المائدة: ٢٧ - ٣٠).

إبراهيم (عليه السلام) يقدم على ذبح ولده

ونشاهد أيضاً في موقف إبراهيم (عليه السلام) حيث رأى في المنام أنه يذبح ولده وان ذلك يوجب تقربه إلى الله، فأقدم على ذبح ولده.

كما نرى إسماعيل (عليه السلام) وقد استعد لأن يقتل بسكين أبيه حيث علم إن ذلك إرادة الله سبحانه. فلولا خوف الله سبحانه وتعالى هل كان الأب يقدم على هذه التضحية الرهيبة؟ وهل كان الولد يتقدم نحو الموت بخطى ثابتة وهو في ريعان الشباب؟

يقول الله تعالى بهذا الصدد: (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين) (الصافات: ١٠٢ - ١٠٦).

يوسف (عليه السلام) يقاوم الإغراءات

ويوسف (عليه السلام) حيث كان هو الآخر يخاف الله تعالى لم يستجب لنداء زليخا بعمل السوء معها، بل لم يستعد للإستجابة للنسوة حتى ابتلي بالسجن سبع سنوات كما في التفاسير.

يقول الله سبحانه وتعالى بهذا الصدد: (ولما بلغ أشجده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح

الظالمون ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر) (يوسف: ٢٢ . ٢٥).

(وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهن وأعدت لهن متكاً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم) (يوسف: ٣٠ . ٣٤).

لاحظوا هذه القطعة: (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) (يوسف: ٢٤).
إنها تصرح بأن الإيمان بالله واليوم الآخر هو الذي عصم يوسف عن زليخا وعن النسوة أيضاً.
إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك!

والقرآن الكريم يشير في آياته إلى الفرق بين من يؤمن، ومن لا يؤمن، فالمؤمن . مثلاً . يؤدي الأمانة ولو كانت كبيرة أما غير المؤمن فلا يؤديها ولو كانت صغيرة.

يقول الله سبحانه: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يُؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يُؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى من أوفى بعهدته واتقى فإن الله يحب المتقين إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم) (آل عمران: ٧٥ . ٧٧).
بين يوسف (عليه السلام) وفرعون

.. ومن المنطلق ذاته . الإيمان بالله أو عدم الإيمان . نلمح الفرق الشاسع بين ملكين، حكم كلاهما في (مصر) لكن أحدهما كان يؤمن بالله واليوم الآخر وهو (يوسف) والآخر لم يكن يؤمن بالله واليوم الآخر وهو (فرعون) فكان يوسف مصلحاً عظيماً وكان فرعون مفسداً كبيراً.

يقول الله سبحانه وتعالى عن فرعون: (يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم) (القصص: ٤).
فكان يقتل الأولاد ويبقي النساء ويأسرهن لجيشه ولدويه.

ويقول الله سبحانه عنه أيضاً: (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أما أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعّلناهم سلفاً ومثالاً للآخرين) (الزخرف: ٥١ . ٥٦).

وأما الحاكم المؤمن . يوسف (عليه السلام) . فلم تبطره السلطة، ولم يصبه الغرور.. بل إنه يتجه . وهو في قمة عظّمته ومجده . إلى الله سبحانه: يشكره، ويستمدّه ويستهديه..

وينقل القرآن الكريم عنه (عليه السلام) قوله: (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) (يوسف: ١٠١).
فيوسف (عليه السلام). باعتباره مؤمناً. لم يكن يفسد أو يقتل. أو يتعدى وإنما هو يرى إن الملك لله سبحانه وتعالى، وإن مصر بعض ملك الله.

(رب قد آتيتني (من) الملك) (يوسف: ١٠١).

وإن الله هو الذي آتاه الملك، وإن الله هو الذي علمه من تأويل الرؤيا الذي سبب أن يصل إلى الملك، حيث فسر رؤيا الملك، فلما رآه الملك وكلمه جعله وزيراً للتموين ثم أصبح بعد موت الملك ملكاً في مصر ثم إنه (عليه السلام) يطلب من الله سبحانه أن يبقى على إيمانه وعمله الصالح حتى يستحق أن يدخل في الصالحين في الآخرة.

لا يسترد أمواله وهو في أمس الحاجة!

وكذا نشاهد أن المؤمن بالله واليوم الآخر لا يتعدى عن أحكام الله سبحانه وتعالى حتى إذا كان بعنوان المستحب أو المكروه، لأنه يخاف ويرجو ثوابه.

وقد روى الصدوق، عن إبراهيم بن هاشم: أن محمد بن عمير كان رجلاً بزازاً فذهب ماله وافتقر وكان له على رجل عشرة آلاف درهم فباع الرجل داراً له كان يسكنها بعشرة آلاف درهم وحمل المال إلى بابه فخرج إليه بن أبي عمير.

فقال: ما هذا؟

فقال: هذا مالك الذي لك عليّ.

قال: ورثته؟

قال: لا.

قال: وهب لك؟

قال: لا.

فقال: هو من ثمن ضيعة بعثها؟

فقال: لا.

فقال: ما هو؟

فقال: بعت داري التي أسكنها لأقضي ديني.

فقال محمد بن أبي عمير: حدثني ذريع المحاربي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لا يخرج الرجل من مسقط رأسه بالدين) ابتعها فلا حاجة لي فيها، وإني محتاج في وقتي هذا إلى درهم وما يدخل ملكي من هذا درهم؟
من الولاية.. إلى العري!

وقد جاء أحد ولاة بني أمية إلى الإمام الصادق (عليه السلام) يسأله طريق التوبة، فقال له الإمام (عليه السلام): إذا أردت التوبة فعليك أن تخرج من جميع أموالك.

فخرج الرجل من جميع أمواله حتى احتاج إلى ملابس يلبسها فأعطاه أصدقائه ملابساً لبدنه.

يتخلى عن ١٧ ألف دينار لأجل شبهة شرعية

ومن قصص العلماء أنه جاء إلى والدي . رحمه الله . رجل وأراد أن يسلمه مبلغاً من الحقوق . وأظن المبلغ (سبعة عشر ألف دينار) . وكان هذا المبلغ يعادل ما يقارب من أربعين شهراً من الرواتب التي كان يدفعها للطلبة والفقراء (قبل أربعين سنة تقريباً) . فلم يقبل الوالد ذلك لإشكال رآه في أخذ المبلغ وكلما (أصرَّ صاحب المال على أن يقبله الوالد (رحمه الله) أبي وامتنع).

ولما ذهب الرجل قلت للوالد: إن هذه حقوق شرعية وإنك إذا تسلمتها تعطيتها للطلاب والفقراء والمؤسسات والمشاريع الخيرية، فما هو المانع من أخذها؟

فنظر (رحمه الله) إلي وقال: يجب علينا أن نفكر نحن في آخرتنا، لا أن يغرنا المال الذي نراه كثيراً.

وهكذا ترك الوالد (رحمه الله) ذلك المبلغ الضخم، لأجل أنه كان يخاف الله واليوم الآخر، وكان يخاف من أن يغر بالدنيا حيث يقول الله سبحانه وتعالى: (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (لقمان: ٣٣).

وقال عز وجل: (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) (الحديد: ١٤).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، وربما اغتررت بمالك وصحة جسدك، لعلك تبقى، ولعلك اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم، وربما اغتررت بجمالك ومينتك وأصابتك وأموالك وهواك فظننت أنك صادق ومصيب، وربما اغتررت بما ترى على الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص، وربما افتخرت بعلمك ونسبك وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى، وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه، وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريد لهم لنفسك أن يميلوا إليك، وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة) (٧).

إلى غير ذلك مما ورد في الغرور وفي طوائف المغرورين.

فالوالد (رحمه الله) كان يخاف الله واليوم الآخر لأن له موقفاً في الآخرة يحاسب فيه على كل شيء، وكان (رحمه الله) يقول لي مرات ومرات: إن الإنسان يجب أن يعمل في الدنيا عملاً لا ينجله إذا فتح حسابه يوم القيامة أمام الناس.

كأن زفير النار في آذانهم

وقد روي في مشكاة الأنوار، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (صلى أمير المؤمنين (عليه السلام) ثم لم يزل في موضعه حتى صارت الشمس على قيد رمح واقبل الناس بوجهه قال: والله لقد أدركنا أقواماً كانوا يبيتون

لربهم سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وركبهم كأن زفير النار في آذانهم، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما يميد الشجر، كأن القوم باتوا غافلين، ثم قال، ثم قام فما رؤي ضاحكاً حتى قبض صلوات الله عليه(٨).
من سير التابعين

تورّع السيد البروجردي (رحمه الله)

وقد نقل أحد المرافقين للسيد البروجردي (رحمه الله) أنه كان يحتاط في مأكله وملبسه ومشربه ومسكنه احتياطاً كبيراً رغم الحقوق الشرعية الكثيرة التي كانت تنهال عليه، وكان له وارد من بعض أملاكه، يصرفه على شؤونه المنزلية، وذات مرة مرض السيد فقال الأطباء بأن سببه الضعف، وإن اللازم أن يأكل اللحم فصنع له خادمه لحماً مقلياً، ولما أن قدم له الطعام ورأى السيد اللحم المقلي على المائدة توجه إلى خادمه وقال له: من أين هذا؟ إن واردنا لا يكفي لإضافة اللحم المقلي في الغداء.
قال الخادم هكذا وصف الأطباء لأجل ضعفكم.

قال السيد (رحمه الله): لا، إحمل اللحم المقلي إلى الفقراء وإذا لم تحمل اللحم المقلي فإني لا أكل الطعام! وهكذا اقتنع السيد بطعامه العادي حيث رأى أن وارده من ملكه. الذي خصصه لنفسه والذي ورثه من آباءه. لا يفني بالمزيد.

لاحظوا: كيف أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى يمنع الإنسان عن التصرف، لا التصرف السيئ فقط، بل حتى عن التصرف المتعارف.

قائد الثورة يرتدي الملابس المرقعة!

كما أنه حكى أيضاً بعض العلماء أن الميرزا محمد تقي الشيرازي (رحمه الله). وهو المرجع الأعلى في زمانه وقائد ثورة الاستقلال ضد بريطانيا في العراق. كان زاهداً في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وإن داره كانت بالإيجار. رغم وصول أموال كثيرة جداً إليه كان يدير بسببها الثورة والحوزات العلمية وغير ذلك، إذ كانت الأموال تجي إليه من إفريقيا ومن الاتحاد السوفيتي (البلاد الإسلامية التي ترزح الآن تحت سيطرة الشيوعيين أمثال: جمهورية آذربيجان وجمهورية قازقستان وغيرهما) ومن إيران والعراق والخليج وسائر البلاد الإسلامية.

قال: رأيت ثوب الشيخ مرقعاً فقلت لولده الميرزا عبد الحسين (رحمه الله) لماذا ثوب الشيخ هكذا مع أن رؤساء العشائر والضباط وكبار العلماء والشخصيات يزورونه فيرون أن ثوبه مرقع وهذا غير مناسب؟

فأجاب الميرزا عبد الحسين: إن لوالدي مزرعة في شيراز متوارثة من آباءه تدر عليه كل سنة مائة تومان والشيخ يرى لزوم تأمين مصارف العائلة من هذه المائة تومان طوال السنة أكلاً وشرباً وملبساً وإيجار دار وغير ذلك، وحيث رأينا أن هذا المبلغ لا يكفي لكل الشؤون اقتصر الشيخ على الملابس المتواضعة المرقعة لأجل أن يكفي المبلغ سائر الشؤون. التي تصطبغ بلون المتواضعة أيضاً..

الشيخ الأنصاري (رحمه الله) والوديعة

وينقل في أحوال الشيخ الأنصاري (رحمه الله) أنه سأل عن أمرٍ فقال في الجواب: كانت لدي وديعة ولم يكن لي مال وكانت زوجتي في حالة الولادة وهي بأمس الحاجة إلى بعض اللوازم المقوية من الأكل والدواء وما أشبه فذهبت إلى الوديعة لأستقرض منها شيئاً حتى أصرفه في شؤونها، لكنني فكرت: لعل صاحب الوديعة لا يرضى فرجعت، وذهبت مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة وأخيراً: توكلت على الله واكتفينا ببعض ما في الدار وسهّل الله فوضعت الزوجة بدون الاحتياج إلى مآكل زائد أو دواء أو ما أشبه.

يحرق رؤوس أصابعه كي لا يقترب من المعصية!

ويذكر في أحوال السيد محمد باقر (المير الداماد): إن فتاة دخلت غرفته ذات ليلة . ضيفة . ولما وسوس إليه الشيطان أحرق رؤوس أصابعه على المصباح حتى يذوق الألم ويفكر في نار جهنم فلا يقترب من العصيان وعندما عرف الملك الصفوي بالقصة زوجه بنته . نفس تلك الفتاة . بعد ذلك، وعلت رتبته عند الناس .

وهكذا تكون العاقبة المحمودة لمن خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى ترى أي حاجز غير الخوف من الله سبحانه وتعالى عصمه عن اقتراف المعصية وهو في ريعان شبابه، والفتاة وحدها في الغرفة، ولا يعلم بهما إلا الله سبحانه وتعالى؟

١ . وسائل الشيعة: ج ١٨ ، ص ٣٧٦ .

٢ . المصدر السابق: ص ٣٧٩ .

٣ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ٢١٧ .

٤ . مستدرك الوسائل: ج ١٨ ، ص ٢٨٧ .

٥ . المصدر السابق: ص ٢٨٨ .

٦ . المصدر السابق: ص ١١٩ .

٧ . بحار الأنوار: ج ٦٥ ، ص ٣١٩ .

٨ . مشكاة الأنوار: ص ٦١ .

الإنسان بين الإيمان والهوى

دور الإيمان في العصر الراهن

وفي الزمن الحاضر نرى أن جمهرة كبيرة من المسلمين . يعدون بمئات الملايين . ينطلقون من منطلق الإيمان بالله سبحانه وتعالى ورجاء ثوابه وخشية عقابه ولولا ذلك لتمكنوا أن يرتكبوا الأعمال اللامشروعة في الأموال والأعراض والدماء وما أشبهه .

وقد ترى إنساناً يتنازع مع آخر حول دينار ويرجعان إلى المحكمة لأجل إحقاق الحق، بينما نفس هذا الإنسان الذي ينازع غيره حول الدينار يأتي إلى المرجع الديني فيعطي ألف دينار وأكثر وأكثر حقوقاً شرعية بدون أي قسرٍ أو جبر .

يعملون الخيرات سرّاً

وهكذا نرى في كثير ممن يعملون الخير سواء بإعطاء الحقوق كالزكاة والمظالم وما أشبهه أو مساعدة الفقراء أو بناء المساجد والمكتبات والمدارس ودور العجزة والمستشفيات والمستوصفات أو غيرها ولا يحبون أن يذكر لهم اسم بل يخفون ذلك اتباعاً لما ورد في أحاديث كثيرة من استحباب إخفاء الصدقة:

ففي الجعفریات، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (صنيع المعروف يدفع ميتة السوء، والصدقة في السر تطفئ غضب الرب، وصللة الرحم تزيد في العمر وتنفي الفقر)(١).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (صدقة السر تطفئ غضب الرب، فإذا تصدق أحدكم بيمينه فليخفها عن شماله)(٢).

وعن أبي جعفر (عليه السلام)، أنه قال: (لما أخذت في غسل أبي علي بن الحسين (عليه السلام) أحضرت معي من رآه من أهل بيته فنظروا إلى مواضع السجود منه في ركبتيه وظاهر قدميه وبطن كفيه وجبهته قد غلظت من أثر السجود حتى صارت كمبارك البعير وكان صلوات الله عليه يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، ثم نظروا إلى حبل عاتقه وعليه أثر قد اخشوشن فقالوا لأبي جعفر (عليه السلام): أما هذه فقد علمنا أنها من أثر السجود، فما هذا الذي على عاتقه؟

قال (عليه السلام): والله ما علم به أحد غيري وما علمته من حيث علم إني علمته، ولو أنه قد مات ما ذكرته، كان إذا مضى من الليل صدره قام وقد هدأ كل من في منزله فأسبغ الوضوء وصلى ركعتين خفيفتين ثم نظر إلى كل ما فضل في البيت عن قوت أهله فجعله في جراب ثم رمى به إلى عاتقه وخرج محتسباً يتسلل لا يعلم به أحد، فيأتي دوراً فيها أهل مسكنة وفقر فيفترق ذلك عليهم وهم لا يعرفونه إلا أنهم قد عرفوا ذلك عنه فكانوا ينتظرونه، فإذا أقبل قالوا: هذا صاحب الجراب وفتحوا أبوابهم له ففرق عليهم ما في الجراب وانصرف فارغاً، يبتغي بذلك فضل صدقة السر وفضل صدقة الليل وفضل إعطاء الصدقة بيده، ثم يرجع فيقوم في محرابه فيصلّي باقي ليله فهذا الذي ترون على عاتقه أثر ذلك الجراب)(٣).

أقول: ورد مثل ذلك عن الحسن (عليه السلام) لما غسّل أباه علياً (عليه السلام) كما ورد مثل ذلك عن الحسين (عليه السلام) بعد أن استشهد.

وفي رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (صدقة السر تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار وتدفع سبعين باباً من البلاء)(٤).

وقال (صلى الله عليه وآله): (في القيامة سبعة يظلمهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . وعد منهم . من يتصدق بيمينه ويخفيها عن شماله)(٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً)(٦).

وفي رواية عنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال لرجل تمنى الموت: (الموت شيء لا بد منه، وسفر طويل ينبغي لمن أراد أن يرفع عشر هدايا (إلى أن قال (صلى الله عليه وآله) في جملة تلك الأمور): البكاء من خشية الله، وصدقة السر، وترك المعاصي، وبر الوالدين)(٧).

الإيمان يزداد رسوخاً بالدعاء

ثم إن الإيمان يزداد رسوخاً وقوة بأمرين: وهما الدعاء والبكاء من خشية الله سبحانه وتعالى ومن هنا ورد التأكيد الشديد في النصوص الدينية عليهما.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أفضل عبادة أمتي بعد قراءة القرآن الدعاء، ثم قرأ (صلى الله عليه وآله): (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (غافر: ٦٠).

ألا ترى أن الدعاء هو العبادة)(٨).

وقال (صلى الله عليه وآله): (لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لم يهلك مع الدعاء، وليسأل أحدكم ربه حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع، واسألوا الله من فضله فإنه يحب أن يسئل)(٩).

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (أن الرزق ينزل من السماء إلى الأرض على عدد كل قطر إلى نفس لما قدر لها ولكن لله فضول فاسألوا الله من فضله)

وقال (صلى الله عليه وآله): (الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين وزين ما بين السماء والأرض)(١٠).

وفي حديث عن الصادق (عليه السلام): (إن الدعاء أنفذ من سلاح الحديد)(١١).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: (إن الدعاء.. يرد القضاء المبرم بعدما أبرم إبراماً فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة، ونجاح كل حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، فإنه ليس من باب يكثر قرعه إلا أوشك أن يفتح لصاحبه)(١٢).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إلا أدلكم على سلاح ينجيكم من عدوكم ويدّر أرزاقكم؟ قالوا: بلى.

قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإن الدعاء سلاح المؤمنين).

وفي نهج البلاغة، عن علي (عليه السلام) في وصيته لابنه الحسن (عليه السلام): (واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، فتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن سألت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يفضحك حيث الفضيحة، ولم يشدد إليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجرمة، ولم يؤيسك بالرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة، وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنك عشراً، وفتح لك باب المتاب وباب الاستعتاب فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فافضيت إليه بحاجتك، وأثبتته ذات نفسك وشكوت إليه همومك، واستكشفته كربوك، واستعنته على أمورك وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار وصحة الأبدان وسعة الأرزاق، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته... إلى أن قال (عليه السلام): فليكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، والمال لا يبقى لك، ولا تبقى له)(١٣).

وفي رواية عن النبي (صلى الله عليه وآله)، عن جبرئيل، عن الله عز وجل: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاسألوني الهداية أهدكم، وكلكم فقير إلا من أغنيته فاسألوني الغنى أرزقكم، وكلكم مذنب إلا من عافيته فاسألوني المغفرة أغفر لكم، ومن علم إني ذو قدرة على المغفرة فاستغفري بقدرتي غفرت له ولا أبالي).

(إلى أن قال سبحانه): ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فيتمنى كل واحد ما بلغت أمنيته فأعطيته لم يتبين ذلك في ملكي، كما لو أن أحدكم مر على شفير البحر فغمس فيها إبرة ثم انتزعها فإني جواد ماجد وأجد عطائي فإذا أردت شيئاً فإنما أقول: كن فيكون)(١٤).

الإيمان يزداد رسوخاً بالبكاء

وأما البكاء فقد ورد في القرآن الكريم آيات حوله:

قال سبحانه: (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ويخرون للأذقان ليكون ويزيدهم خشوعاً) (الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩). وقال تعالى: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) (مريم: ٥٨).

وقال سبحانه: (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون) (النجم: ٥٩ - ٦١).

وهنالك أحاديث كثيرة وردت بهذا الشأن:

فعن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه عن الحسين بن علي، عن علي (عليه السلام) في خبر في حالات النبي (صلى الله عليه وآله): (كان يبكي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يتل مصلاه، خشية من الله عز وجل)(١٥).

وروى السيد ابن طاووس في (فلاح السائل) عن (حبة العريني) قال: بينما أنا ونوف نائم في رحبة القصر إذ نحن بأمر المؤمنين (عليه السلام) في بقية من الليل واضعاً يده على الحائط شبه الواله وهو يقول: (إن في خلق

السماوات والأرض) (البقرة: ١٦٤)

(إلى آخر الآية)، ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر فقال: أراقد يا حبة أم راقم؟
قلت: راقم.

ثم قلت: هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟

فأرخصي عينيه فبكى ثم قال لي: يا حبة إن لله موقفاً ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبة إن الله أقرب إليك وإليّ من حبل الوريد، يا حبة، إنه لن يحجيني ولا إياك عن الله شيء.
ثم قال: أراقد يا نوف؟

قلت: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة.

فقال: يا نوف إن طال بكأوك في هذا الليل مخافة من الله عز وجل قرّت غداً عينك بين يدي الله عز وجل.
يا نوف، إنه ليس من قطرة من عين رجل من خشية الله إلا أطفأت بحاراً من النيران، يا نوف أنه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله وأحب في الله وأبغض في الله، يا نوف من أحب في الله لم يستأثر على محبته ومن أبغض لم ينل مبغضيه خيراً عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان ثم وعظهما وذكرهما (وقال في آخر الحديث)، فكونوا من الله على حذر فقد أنذرتكما، ثم جعل يمر وهو يقول: ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عني أم ناظر إلي وليت شعري في طول منامي وقلة شكري في نعمك على ما حالي؟ (١٦)
قال: فوالله ما زال في هذا الحال حتى طلع الفجر.

وفي رواية عن نوف قال: (لقد رأيت أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض مواقفه، وقد أرخصي الليل سدوله وغارت نجومه وهو قابض بيده على لحيته يتململ كتلملم السليم ويكي بكاء الحزين).
وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (ما من عمل إلا وله وزن وثواب إلا الدمعة فإنها تطفئ غضب الرب، ولو أن عبداً بكى من خشية الله في أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه) (١٧).

الإيمان في النصوص الدينية

هذه هي ملامح الإيمان

عن عمرو بن ثابت، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): (يا علي أوصيك في نفسك بخصال فاحفظها ثم قال: اللهم أعنه.
أما الأولى فالصدق لا يخرجن من فيك كذبة أبداً.

والثانية الورع لا تجترين على خيانة أبداً.

والثالثة الخوف من الله كأنك تراه.

والرابعة كثرة البكاء من خشية الله عز وجل يبني لك بكل دمعة بيت في الجنة.

والخامسة بذل دمك ومالك دون دينك.

والسادسة الأخذ بسنتي في صلاتي وصيامي وصدقي، أما الصلاة فالخمسون ركعة، وأما الصوم فتلاثة أيام في كل شهر خميس في أوله، وأربعاء في وسطه، وخميس في آخره، وأما الصدقة فجهدك حتى يقال: أسرفت ولم تسرف.

وعليك بصلاة الليل وعليك بصلاة الليل، وعليك بصلاة الزوال، وعليك بقراءة القرآن على كل حال، وعليك برفع يديك في الصلاة، وتقليبيهما، عليك بالسواك عند كل وضوء وصلاة، عليك بمحاسن الأخلاق فاركبها، عليك بمساوي الأخلاق فاجتنبها(١٨).

وعن الحسن بن عطية، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (المكارم عشر فان استطعت أن تكون فيك فلتكن فإنها تكون في الرجل ولا تكون في ولده، وتكون في ولده ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في الحر: صدق الناس، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وإطعام السائل، والمكافاة على الصنائع، وصدق اللسان، والتذم للجار، والتذم للصاحب، ورأسهن الحياء(١٩).

وعن عبد الملك بن غالب، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة، أن العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل أمير جنوده، والرفق أخوه، والبر والده(٢٠).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سُئِلَ أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الإيمان، فقال: (إن الله عز وجل جعل الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهد، فالصبر من ذلك على أربع شعب، الشوق والإشفاق، والزهد، والترقب (إلى أن قال) واليقين على أربع شعب، تبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، ومعبرة العبرة، وسنة الأولين، والعدل على أربع شعب، على غامض الفهم، وغمر العلم، وزهرة الحكم، وروضة الحلم (إلى أن قال) والجهد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشتان الفاسقين(٢١).

وعن أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (المؤمن ينصت ليسلم، وينطق ليغنم، ولا يحدث أمانته الأصدقاء، ولا يكتنم شهادته من البعداء، ولا يعمل شيئاً من الخير رياءً، ولا يتركه حياءً، إن زكى خاف ما يقولون، ويستغفر الله لما لا يعلمون، ولا يعزّه قول من جهله، ويخاف إحصاء ما عمله(٢٢).

وعن هشام بن الحكم، عن أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: يا هشام كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (ما عبّد الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرئ حتى تكون فيه خصال شتى: الكفر والشر منه مأمونان، والخير والحسن منه مأمولان، وفضل ماله مبذول، وفضل قوله مكفوف، نصيبه من الدنيا القوت، لا يشبع من العلم دهره، الذل أحب إليه من الله مع العز مع غيره، والتواضع أحب إليه من الشرف، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه، ويرى الناس كلهم خيراً منه، وإنه شرهم في نفسه، وهو تمام الأمر(٢٣).

وعن أحمد بن محمد بن خالد، عن بعض ما رواه، رفعه إلى أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (المؤمن له قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وحرص في فقه، ونشاط في هدى، وبر في استقامة، وعلم في حلم، وكيس في رفق، وسخاء في حق، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وعفو في قدرة، وطاعة لله في نصيحة، وانتهاء في شهوة،

وورع في رغبة، وحرص في جهاد، وصلاة في شغل، وصبر في شدة، وفي الهزاهز وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، ولا يغتاب ولا يتكبر، ولا يقطع الرحم، وليس بواهن ولا فظ ولا غليظ ولا يسبقه بصره، ولا يفضحه بطنه، ولا يغلبه فرجه، ولا يحسد الناس، يعير ولا يعير، ولا يسرف، ينصر المظلوم، ويرحم المسكين، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، لا يرغب في عز الدنيا، ولا يجزع من ذلها، للناس هم قد أقبلوا عليه، وله هم قد شغله، لا يرى في حلمه نقص، ولا في رأيه وهن، ولا في دينه ضياع، يرشد من استشاره، ويساعد من ساعده، ويكيع عن الخنا والجهل(٢٤).

عن أحدهما، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن صفة المؤمن فقال: (عشرون خصلة في المؤمن، فإن لم تكن فيه لم يكمل إيمانه، إن من أخلاق المؤمنين . يا علي . الحاضرون الصلاة، والمسارعون إلى الزكاة، والمطعمون للمسكين، الماسحون لرأس اليتيم، المطهرون أطمارهم، المتزرون على أوساطهم، الذين إن حدثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإن ائتمنوا لم يخونوا، وإن تكلموا صدقوا، رهبان الليل، أسد بالنهار، صائمون النهار، قائمون الليل، لا يؤذون جاراً، ولا يتأذى بهم جار، الذين مشيهم على الأرض هون، وخطاهم على بيوت الأراامل وعلى أثر الجنائز جعلنا الله وإياكم من المتقين)(٢٥).

عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن شيعة علي (عليه السلام) كانوا خصم البطون، ذبل الشفاه، أهل رافة وعلم وحلم يعرفون بالرهبانية، فأعينوا على ما أنتم عليه بالورع والاجتهاد)(٢٦). وعن عمرو بن أبي المقدم، عن أبيه، وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (شيعتنا المتبادلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتزاورون في إحياء أمرنا، الذين إذا غضبوا لم يظلموا، وإن رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاوروا، سلم لمن خالطوا)(٢٧).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين بن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ثلاث خصال من كن فيه استكمل خصال الإيمان: إذا رضي لم يدخل رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرج الغضب من الحق وإذا قرر لم يتعاط ما ليس له)(٢٨).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن لأهل الدين علامات يعرفون بها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، ووفاء العهد، وصلة الأرحام، ورحمة الضعفاء، وقلة المراقبة للنساء . أو قال وقلة المواتاة للنساء . وبذل المعروف وحسن الجوار، وسعة الخلق، واتباع العلم، وما يقرب إلى الله (إلى أن قال) إن المؤمن نفسه منه في شغل، والناس منه في راحة، إذا جن عليه الليل افترش وجهه، وسجد لله بمكارم بدنه، يناجي الذي خلقه في فكاك رقبتة ألا فهكذا كونوا).

وعن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (من أخلاق المؤمن الإنفاق على قدر الاقتار، والتوسع على قدر التوسع، وإنصاف الناس، وابتدأه إياهم بالسلام عليهم)(٢٩).

وعن أبي عبيدة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إنما المؤمن الذي إذا رضى لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإن سخط لم يخرج سخطه من قول الحق، والذي إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق)(٣٠).

وعن مهزم الأسدي قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (يا مهزم شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناه يديه، ولا يمتدح بنا معلنا(٣١)، ولا يجالس لنا عائباً، ولا يخاصم لنا قالياً، وإن لقي مؤمناً أكرمه، وإن لقي جاهلاً هجره إلى أن قال) شيعتنا من لا يهر هرير الكلب، ولا يطعم طمع الغراب، لا يسأل عدونا وإن مات جوعاً(٣٢).

وعن محمد بن عرفة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): (ألا أخبركم بأشبهكم بي؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً، وألينكم كنفاً، وأبركم بقرابته، وأشدكم حباً لإخوانه في دينه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم للغيط، وأحسنكم عفواً، وأشدكم إنصافاً في الرضى والغضب)(٣٣).

وعن إسحاق بن عمار، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (المؤمن حسن المعونة، خفيف المؤنة، جيد التدبير لمعيشته، ولا يلسع من جحر مرتين)(٣٤).

وعن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، في حديث مرفوع إلى النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (جاء جبرئيل فقال: يا رسول الله إن الله أرسلني إليك بمدية لم يعطها أحداً قبلك.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما هي؟ قال: الصبر وأحسن منه.

قال: وما هو؟ قال: الزهد وأحسن منه.

قال: وما هو؟ قال: اليقين وأحسن منه.

قال: قلت: وما هو يا جبرئيل؟ قال: إن مدرجة ذلك التوكل على الله عز وجل.

فقلت: وما التوكل على الله؟ قال: العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا ينفع، واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لا يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله، ولم يطمع في أحد سوى الله، فهذا هو التوكل.

قلت: يا جبرئيل فما تفسير الصبر؟ قال: تصبر في الضراء كما تصبر في السراء، وفي الفاقة كما تصبر في الغنى، وفي البلاء كما تصبر في العافية، فلا يشكو حاله عند المخلوق بما يصيبه من البلاء.

قلت: فما تفسير القناعة؟ قال: يقنع بما يصيب من الدنيا يقنع بالقليل، ويشكر اليسير.

قلت: فما تفسير الرضا؟ قال: الراضي لا يسخط على سيده أصاب من الدنيا أو لا يصيب منها، ولا يرضى لنفسه باليسير من العمل.

قلت: يا جبرئيل فما تفسير الزهد؟ قال: يحب من يحب خالقه، ويبغض من يبغض خالقه، ويتحرج من حلال الدنيا، ولا يلتفت إلى حرامها، فإن حلالها حساب، وحرامها عقاب، ويرحم جميع المسلمين كما يرحم نفسه،

ويتحرج من الكلام كما يتحرج من الميتة التي قد اشتد ننتها، ويتحرج عن حطام الدنيا وزينتها كما يتجنب النار أن يغشاها، وأن يقصّر أمله، وكأن بين عينيه أجله.

قلت: يا جبرائيل فما تفسير الإخلاص؟ قال: المخلص الذي لا يسأل المخلوق فقد أقر الله بالعبودية، وإذا وجد فرضاً فهو عن الله راضٍ، والله تبارك وتعالى عنه راضٍ، وإذا أعطى الله عز وجل فهو على حد الثقة بربه.
قلت: فما تفسير اليقين؟ قال: المؤمن يعمل لله كأنه يراه، فإن لم يكن يرى الله فإن الله يراه، وأن يعلم يقيناً أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهذا كله أعصان التوكل ومدرجة الزهد(٣٥).
النجاة في طاعة الله

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل)(٣٦).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام): (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته)(٣٧).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال لي: (يا جابر أيكثفي من ينتحل التشيع أن يقول بجنابنا أهل البيت فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاود للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير وكانوا أمناء عشائهم في الأشياء، (إلى أن قال): أحب العباد إلى الله عز وجل أتقاهم وأعملهم بطاعته يا جابر والله ما تتقرب إلى الله عز وجل: إلا بطاعته، وما معنا براءة من النار، ولا على الله من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع)(٣٨).

وعن عمرو بن خالد، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (والله ما معنا من الله براءة، ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا نتقرب إلى الله إلا بطاعة فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا ويحكم لا تغتروا ويحكم لا تغتروا)(٣٩).

وعن مروان بن مسلم، عن أبي عبد الله عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: قال الله عز وجل: (أبما عبد أطاعني لم أكله إلى غيري وأبما عبد عصاني وكلته إلى نفسه، ثم لم أبال في أي وادٍ هلك)(٤٠).

وعن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (اتقوا الله حق تقاته) (آل عمران: ١٠٢).

قال: (يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر)(٤١).

أداء الفرائض

عن أبي حمزة الثمالي قال: قال علي بن الحسين (عليه السلام): (من عمل بما افترض الله عليه فهو من خير الناس)(٤٢).

وعن محمد الحلبي عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال الله تبارك وتعالى (ما تحبب إلي عبدي بأحب مما افترضت عليه)(٤٣).

وعن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إعمل بفرائض الله تكن أتقى الناس)(٤٤).

وعن أبي حمزة عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (من عمل بما افترض الله عليه فهو من أعبد الناس)(٤٥).

وعن السكوني، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (اعمل بفرائض الله تكن من أتقى الناس، وارض بقسم الله تكن من أغنى الناس، وكف عن محارم الله تكن من أروع الناس، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مسلماً)(٤٦).
اجتناب المحارم

عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله، وعين فاضت من خشية الله، وعين غضت عن محارم الله)(٤٧).

وعن أبي عبيدة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً ثم قال: لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ثم قال: لا أعني ذكر الله عندما أحلّ وحرّم، فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها)(٤٨).

وعن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً)

قال: (أما والله إن كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم الحرام لم يدعوه)(٤٩).
وعن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من ترك معصية الله مخافة الله تبارك وتعالى أرضاه يوم القيامة).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) في رسالته إلى أصحابه قال: (وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء حرم الله عليكم فإن من انتهك ما حرم الله عليه في الدنيا حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذتها وكرامتها القائمة الدائمة لأجل الجنة أبد الآبدين (إلى أن قال) وإياكم والإصرار على شيء مما حرم الله في القرآن ظاهره وباطنه وقد قال: ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)(٥٠).

وعن أحمد بن محمد بن عيسى، قال: حدثني جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يقول الله تبارك وتعالى لابن آدم إن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين ولا تنظر، وإن نازعك لسانك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه

بطبقين فأطبق فلا تتكلم، وإن نازعك فركك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق ولا تأت حراماً(٥١).

وعن زيد الشحام قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (ما ابتلى المؤمن بشيء أشد عليه من خصال ثلاث قيل: وما هي؟ قال: المواساة في ذات يده، والإنصاف من نفسه، وذكر الله كثيراً، أما إني لا أقول لكم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن ذكر الله عندما أحل له وعندما حرم عليه)(٥٢).

وعن محمد بن حمران، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله)(٥٣).

وعن مسعدة بن زياد، عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه تلاوته للقرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن)(٥٤).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من أشد ما عمل العباد إنصاف المرء من نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كل حال، قال: قلت: أصلحك الله وما وجه ذكر الله على كل حال؟ قال: يذكر الله عند المعصية يهيم بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) (الأعراف: ٢٠١)(٥٥).

وعن أبي بصير قال: قال الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام): (من أقام فرائض الله واجتنب محارم الله وأحسن الولاية لأهل بيته وتبرأ من أعداء الله فليدخل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)(٥٦).

وعن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبدالله (عليه السلام) يقول: (احذروا سطوات الله بالليل والنهار، فقلت وما سطوات الله؟ قال: أخذته على المعاصي)(٥٧).

إيثار رضى الله على هوى النفس

عن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال الله عز وجل: (وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وارتفاعي لا يؤثر عبد مؤمن هوائي على هواه في شيء من أمر الدنيا إلا جعلت غناه في نفسه، وهيمته في آخرته وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر)(٥٨).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول الله عز وجل: (وعزتي وجلالي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هوائي إلا شئت عليه أمره، ولبست عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم آت إلا ما قدرت له، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هوائي على هواه إلا استحفظته ملائكتي، وكفلت السماوات والأرضين رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة)(٥٩).

وعن اسماعيل بن محمد، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: إن الله عز وجل يقول: (إني لست كل كلام الحكمة أتقبل، إنما أتقبل هواه وهمة، فأنا كان هواه وهمة في رضاي جعلت همه تقديساً وتسييحاً)(٦٠).

مسؤولية الجوارح

عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما به أختها (إلى أن قال) فأما ما فرض على القلب من الإيمان فالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وإن محمداً عبده ورسوله (صلى الله عليه وآله) والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو علمه، وهو قول الله عز وجل: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (النحل: ١٠٦).

وقال: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: ٢٨)

وقال: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) (البقرة: ٢٨٤)

فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة فهو عمله، وهو رأس الإيمان.

وفرض الله على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقر به قال تبارك وتعالى اسمه: (وقولوا للناس حسناً) (البقرة: ٨٣)

وقال: (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) (العنكبوت: ٤٦)

فهذا ما فرض الله على اللسان وهو عمله، وفرض على السمع أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله، وأن يعرض عما لا يحل له مما نهى الله عز وجل عنه، والإصغاء إلى ما اسخط الله عز وجل فقال: عز وجل في ذلك: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهنأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) (النساء: ١٤٠).

ثم استثنى موضع النسيان فقال سبحانه: (وإما ينسيك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) (الأنعام: ٦٨)

وقال: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) (الزمر: ١٧-١٨).

وقال تعالى: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون) (المؤمنون: ١-٤).

وقال سبحانه: (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) (القصص: ٥٥).

وقال: (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (الفرقان: ٧٢)

فهذا ما فرض الله على السمع من الإيمان أن لا يصغي إلى ما لا يحل له وهو عمله وهو من الإيمان. وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عليه، وأن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له وهو عمله وهو من الإيمان، فقال تبارك وتعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (النور: ٣٠).

من أن ينظروا إلى عوراتهم، وأن من ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه من أن ينظر إليه وقال: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) (النور: ٣١).

من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليه.

ثم نظم ما فرض على القلب والبصر واللسان في آية أخرى فقال: (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) (فصلت: ٢٢).

يعني بالجلود الفروج والأفخاذ وقال: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) (الإسراء: ٣٦).

وفرض على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ما حرم الله، وأن يبطش بهما إلى ما أمر الله عز وجل وفرض عليهما من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والظهور للصلوات، فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) (المائدة: ٦).

وقال: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا ممّا بعد وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها) (محمد: ٤).

فهذا ما فرض الله على اليدين لأن الضرب من علاجهما.

وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله، وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله عز وجل فقال: (ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) (الإسراء: ٣٧).

وقال: (واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (لقمان: ١٩).

وقال: فيما شهدت به الأيدي والأرجل على أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله به وفرضه عليها: (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) (يس: ٦٥).

فهذا أيضاً مما فرض الله على اليدين، وعلى الرجلين وهو عملهما وهو من الإيمان.

وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة فقال: (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) (الحج: ٧٧).

فهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرجلين، وقال في موضع آخر: (وأنّ المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً) (الجن: ١٨).

(إلى أن قال): فمن لقي الله حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عليها لقي الله عز وجل مستكماً لإيمانه وهو من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها أو تعدى مما أمر الله عز وجل فيها لقي الله ناقص الإيمان (إلى أن قال): وبتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالنقصان دخل المفرطون النار) (٦١).

وعن الحسن بن هارون قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً) (الإسراء: ٣٦).

قال: (يسأل السمع عما سمع، والبصر عما نظر إليه والفؤاد عما عقد إليه) (٦٢).

وعن محمد بن مسلم، عن بعض الأصحاب، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الإيمان إلا بعمل)(٦٣).

عن عبد الله بن مسكان، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من أقر بدين الله فهو مسلم ومن عمل بما أمر الله فهو مؤمن)(٦٤).

وعن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الإيمان فقال: (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً (صلى الله عليه وآله) رسول الله قال: قلت: أليس هذا عمل؟ قال: بلى، قلت: فالعمل من الإيمان؟ قال: لا يثبت الإيمان بالعمل والعمل منه)(٦٥).

التقوى

عن أبي عبيدة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (لا يقل عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتقبل)(٦٦).

وعن مفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبدالله (عليه السلام) فذكرنا الأعمال، فقلت أنا: ما أضعف عملي، فقال: مه، استغفر الله، ثم قال لي: (إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى)، قلت: كيف يكون كثير بلا تقوى؟ قال (عليه السلام): (نعم مثل الرجل يطعم طعامه ويرفق جيرانه ويوطي رحله فإذا ارتفع له الباب من الحرام دخل فيه فهذا العمل بلا تقوى. ويكون الآخر ليس عنده فإذا ارتفع له الباب من الحرام لم يدخل فيه)(٦٧).

وعن الهيثم بن واقد قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول: (من أخرج الله عز وجل من ذل المعاصي إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وأنسه بلا أنيس، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء، ومن رضي من الله باليسير من الرزق رضا منه باليسير من العمل، ومن لم يستح من طلب المعاش خفت مؤنته ونعم أهله، ومن زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وانطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجته من الدنيا سالماً إلى دار السلام)(٦٨).

وقال علي (عليه السلام): (اتق الله بعض التقى وإن قل، واجعل بينك وبين الله ستراً وإن رق).

الورع

عن عمرو بن سعيد بن هلال الثقفي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه)(٦٩).

وعن يزيد بن خليفة قال: وعظنا أبو عبدالله (عليه السلام) فأمر وزهد ثم قال: (عليكم بالورع فإنه لا ينال ما عند الله إلا بالورع)(٧٠).

وعن ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه)(٧١).

وعن فضيل بن يسار قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (إن أشد العبادة الورع).

وعن حديد بن حكيم قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إتقوا الله وصوروا دينكم بالورع)(٧٢).

وعن حنان بن سدير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام) في حديث: (إنما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لحالقه، ورجا ثوابه، هؤلاء أصحابي)(٧٣).

وعن علي بن أبي زيد، عن أبيه، قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فدخل عليه عيسى بن عبد الله القمي فرحب به وقرب مجلسه ثم قال: (يا عيسى بن عبد الله ليس منا ولا كرامة من كان في مصر فيه مائة ألف أو يزيدون وكان في ذلك المصر أحد أروع منه)(٧٤).

وعن ابن أبي يعفور قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية).

وعن عبيد الله بن علي، عن أبي الحسن الأول (عليه السلام) قال: كثيراً ما كنت أسمع أبي يقول: (ليس من شيعتنا من لا تتحدث المخدرات بورعه في خدورهن وليس من أوليائنا من هو في قرية فيها عشرة آلاف رجل فيهم خلق الله أروع منه)(٧٥).

وعن إبراهيم الكرخي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (لا يجمع الله للمؤمن الورع والزهد في الدنيا إلا رجوت له الجنة)(٧٦).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: (لا تنال ولا يتنا إلا بالعمل والورع)(٧٧).
وعن أحمد بن محمد المنصور، عن عم أبيه، عن علي بن محمد، عن آباءه عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (عليكم بالورع فإنه الدين الذي نلازمه وندين الله تعالى به ونريده ممن يوالينا لا تتعبونا بالشفاعة)(٧٨).
العفة

عن منصور بن حازم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما عبادة أفضل عند الله من عفة بطن وفرج)(٧٩).
وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أكثر ما تلج به أمتي النار الأجوفان: البطن والفرج)(٨٠).

وعن أبي بصير قال: قال رجل لأبي جعفر (عليه السلام) إني ضعيف العمل قليل الصيام، ولكني أرجو أن لا آكل إلا حالاً، قال: فقال له (أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج)(٨١).

وعن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: أفضل العبادة العفاف)(٨٢).

وعن محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمحمد بن الحنفية قال: (ومن لم يعط نفسه شهوتها اصاب رشده)(٨٣).

وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من ضمن لي إثنين ضمننت له على الله الجنة، من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجله ضمننت له على الله الجنة يعني ضمن لي لسانه وفرجه)(٨٤).

وفي عقاب الأعمال عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) من خطبة له: (ومن قدر على امرأة أو جارية حراماً فتركها مخافة الله حرم الله عليه النار وآمنه من الفزع الأكبر وأدخله الجنة، فان أصابها حراماً حرم الله عليه الجنة وأدخله النار)(٨٥).

وعن المفضل قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إنما شيعة جعفر من عف بطنه وفرجه واشتد جهاده وعمل لخالقه ورجا ثوابه وخاف عقابه، فإذا رأيت أولئك فأولئك شيعة جعفر)(٨٦).

وجوب الاجتناب عن الكبائر

عن عبد الله بن مسكان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما من عبد إلا وعليه أربعون جنة حتى يعمل أربعين كبيرة، فإذا عمل أربعين كبيرة انكشفت عنه الجنن)(٨٧).

وعن محمد بن علي بن الحسين قال: قال الصادق (عليه السلام): (من اجتنب الكبائر يغفر الله جميع ذنوبه، وذلك قول الله عز وجل: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً) (النساء: ٣١)(٨٨).

وعن عباد بن كثير قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن الكبائر، فقال: (كل ما أوعده الله عليه النار)(٨٩). وعن الحسن بن زياد العطار، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال: (قد سمى الله المؤمنين بالعمل الصالح مؤمنين، ولم يسم من ركب الكبائر وما وعد الله عز وجل عليه النار مؤمنين في قرآن ولا أثر ولا سماهم بالإيمان بعد ذلك الفعل)(٩٠).

وروي أنه سُئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك) (النساء: ١١٦).

دخلت الكبائر في مشية الله؟ قال: (نعم إن شاء عذب عليها وإن شاء عفا)(٩١).

وعن أبي بصير، عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث الإسلام والإيمان قال: (الإيمان من شهد أن لا إله إلا الله (إلى أن قال) ولم يلق الله بذنب أوعده عليه بالنار، قال أبو بصير: جعلت فداك وأينا لم يلق الله بذنب أوعده الله عليه النار؟

فقال: (ليس هو حيث تذهب إنما هو من لم يلق الله بذنب أوعده الله عليه بالنار ولم يتب منه)(٩٢).

وعن سهل بن اليسع قال: سمع الرضا (عليه السلام) بعض أصحابه يقول: (لعن الله من حارب علياً (عليه السلام)، فقال له: (قل إلا من تاب وأصلح) ثم قال: (ذنب من تخلف عنه ولم يتب أعظم من ذنب من قاتله ثم تاب)(٩٣).

وعن إبراهيم بن العباس قال: كنت في مجلس الرضا (عليه السلام) فتذاكرنا الكبائر وقول المعتزلة فيها: أنها لا تغفر، فقال الرضا (عليه السلام): قال أبو عبد الله (عليه السلام) قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة، قال الله عز وجل: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) (الرعد: ٦)، (الحديث)(٩٤).

وعن جندب الغفاري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إن رجلاً قال يوماً والله لا يغفر لفلان، فقال الله عز وجل: (من ذا الذي تألّى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإنّي قد غفرت لفلان وأحببت عمل الثاني بقوله: لا يغفر الله لفلان)(٩٥).

تحريم الإصرار على الذنب ووجوب المبادرة إلى التوبة والاستغفار
عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (لا والله لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه)(٩٦).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من علامات الشقاء جمود العين، وقسوة القلب، وشدة الحرص في طلب الدنيا والإصرار على الذنب)(٩٧).
وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار)(٩٨).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (آل عمران: ١٣٥).

قال الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بالتوبة فذلك الإصرار(٩٩).
إياكم.. ومحقرات الذنوب

عن أبي أسامة زيد الشحام قال أبو عبد الله (عليه السلام): (اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر: قلت وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي إن لم يكن لي غير ذلك)(١٠٠).

وعن سماعة قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: لا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب تجتمع حتى تكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف)(١٠١).

وعن زياد: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه: أيتوا بالحطب.

فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب.

فقال (صلى الله عليه وآله): فليأت كل إنسان بما قدر عليه.

فجاءوا به حتى رموا به بين يديه بعضه على بعض.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هكذا تجتمع الذنوب.

ثم قال: إياكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)(١٠٢).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (أشد الذنوب ما استهان به صاحبه)(١٠٣).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) في حديث المناهي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا تحقروا شيئاً من الشر وإن صغر في أعينكم ولا تستكثروا شيئاً من الخير وإن كثر في أعينكم، فإنه لا كبير مع الاستغفار ولا صغير مع الإصرار)(١٠٤).

وعن محمد بن سليمان، عن رجل، عن محمد بن علي (عليه السلام) أنه قال لمحمد بن مسلم في حديث: (لا تستصغرن حسنة أن تعملها، فإنك تراها حيث يسرك، ولا تصغرن سيئة تعملها فإنك تراها حيث تسوءك)(١٠٥).

وعن ابن أخي الفضيل، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من الذنوب التي لا تغفر قول الرجل: ليتني لا أؤخذ إلا بهذا)(١٠٦).

وعن محمد بن علي الكراجكي قال: روى أحد الأئمة (عليهم السلام) أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله كتم ثلاثة في ثلاثة: كتم رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليه في خلقه، فلا يستخفن أحدكم شيئاً من الطاعات، فإنه لا يدري في أيها رضا الله ولا يستقلن أحدكم شيئاً من المعاصي فإنه لا يدري في أيها سخط الله ولا يزرين أحدكم بأحد من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله)(١٠٧).

قال: ومن كلامه (عليه السلام): (لا تنظروا إلى صغير الذنب ولكن انظروا إلى ما اجترأتم)(١٠٨).

جملة من الأمور المنهي عنها

عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أول ما عصي الله به ستة: حب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الطعام، وحب النوم، وحب الراحة، وحب النساء)(١٠٩).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ألا أخبركم بشرار رجالكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: شرار رجالكم البهات الجري الفحاش الآكل وحده، والمانع رفته والضارب عبده، والملجحي عياله)(١١٠).

وعن يزيد الصائغ، قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): رجل على هذا الأمر إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن ائتمن خان، ما منزلته؟ قال: (هي أدنى المنازل من الكفر وليس بكافر)(١١١).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الناس فقال: ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله، فقال الذي يمنع رفته ويضرب عبده ويتزود وحده، فظنوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شر من هذا)(١١٢).

وعن يونس، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ألا أخبركم بأبعدكم مني شياً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: الفاحش المتفحش البذيء البخيل المحتال الحقود الحسود القاسي القلب والبعيد من كل خير يرجى، غير المأمون من كل شر يبقى)(١١٣).

وعن ميسر، عن أبيه، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (خمسة لعنتهم وكل نبي محاب: الزائد في كتاب الله والتارك لسنتي، والمكذب بقدر الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والمستأثر بالفيء المستحل له)(١١٤).

وعن أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (إن المنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي، إذا قام إلى الصلاة اعترض، قلت: يا بن رسول الله وما الاعتراض؟ قال: الالتفات، وإذا ركع رضى، يمسي وهمه العشاء وهو مفطر، ويصبح وهمه النوم ولم يسهر، إن حدثك كذبك، وإن ائتمنته خانك، وإن غبت اغتابك، وإن وعدك أخلفك)(١١٥).

وعن ابن مسعود، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في وصية طويلة قال: سيأتي أقوام يأكلون طيب الطعام وألوانها ويركبون الدواب، ويتزينون بزينة المرأة لزوجها، ويتبرجون تبرج النساء وزيتهن مثل الملوك الجابرة، هم منافقو هذه الأمة في آخر الزمان، شاربون بالقهوات، لاعبون بالكعاب، راكبون الشهوات، تاركون الجماعات، راقدون عن العنمات، مفرطون في الغدوات، يقول الله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) (مریم: ٥٩)(١١٦).

وعن الصادق جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله تبارك وتعالى كره لكم أيتها الأمة أربعاً وعشرين خصلة، ونهاكم عنها، كره لكم العبث في الصلاة، وكره المرق في الصدقة، وكره الضحك بين القبور، وكره التطلع في الدور، وكره النظر إلى فروج النساء، وقال: يورث العمى، وكره الكلام عند الجماع وقال يورث الخرس، وكره النوم قبل العشاء الآخرة، وكره الحديث بعد العشاء الآخرة، وكره الغسل تحت السماء بغير ميزر، وكره الجامعة تحت السماء، وكره دخول الأنهار إلا بميزر، وقال: في الأنهار عمّار وسكان من الملائكة وكره دخول الحمام إلا بميزر، وكره الكلام بين الأذان والإقامة في صلاة الغداة حتى تنقضي الصلاة، وكره ركوب البحر في هيجانه، وكره النوم فوق سطح ليس بمحجر وقال: من نام على سطح ليس بمحجر فقد برئت منه الذمة وكره أن ينام الرجل في بيت وحده، وكره للرجل أن يغشى امرأته وهي حائض، فإن غشيها وخرج الولد مجذوماً أو أبرص فلا يلومنّ إلا نفسه، فإن فعل وخرج الولد مجنوناً فلا يلومنّ إلا نفسه، وكره أن يكلم الرجل مجذوماً إلا أن يكون بينه وبينه قدر ذراع، وقال: فرّ من المجذوم فرارك من الأسد، وكره البول على شط نهر جار، وكره أن يحدث الرجل تحت شجرة مثمرة قد أينعت، أو نخلة قد أينعت يعني أثمرت وكره الرجل أن ينتعل وهو قائم، وكره أن يدخل الرجل البيت المظلم إلا أن يكون بين يديه سراج أو نار، وكره النفخ في الصلاة)(١١٧).

وعن سعيد بن علقمة، قال: سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (ترك نسج العنكبوت في البيت يورث الفقر، والبول في الحمام يورث الفقر، والأكل على الجنازة يورث الفقر، والتخلل بالطرفاء يورث الفقر، والتمشط من قيام يورث الفقر، وترك القمامة يورث الفقر، واليمين الفاجرة تورث الفقر، والزنا يورث الفقر، وإظهار الحرص يورث الفقر، والنوم بين العشائين يورث الفقر، والنوم قبل طلوع الشمس يورث الفقر، واعتياد الكذب يورث

الفقر، وكثرة الاستماع إلى الغناء يورث الفقر، ورد السائل الذكر بالليل يورث الفقر، وترك التقدير في المعيشة يورث الفقر، وقطيعة الرحم تورث الفقر(١١٨).

ثم قال (عليه السلام): (ألا أنبئكم بعد ذلك بما يزيد في الرزق؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: الجمع بين الصلاتين يزيد في الرزق، وكسح الغناء يزيد في الرزق، ومواساة الأخ في الله عز وجل يزيد في الرزق، والبكور في طلب الرزق يزيد في الرزق، والاستغفار يزيد في الرزق، واستعمال الأمانة يزيد في الرزق، وقول الحق يزيد في الرزق، وإجابة المؤذن تزيد في الرزق، وترك الكلام على الخلاء يزيد في الرزق، وترك الحرص يزيد في الرزق وشكر النعم تزيد في الرزق، واجتناب اليمين الكاذبة يزيد في الرزق، والوضوء قبل الطعام يزيد في الرزق، وأكل ما يسقط من الخوان يزيد في الرزق، ومن سبح الله كل يوم ثلاثين مرة دفع الله عنه سبعين نوعاً من البلاء أيسرها الفقر(١١٩). وعن ابن عباس، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال في حجة الوداع: (إن من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم المال، وبيع الدنيا بالدين، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره).

ثم قال: (إن عندها يكون المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، ويؤمن الخائن ويخون الأمين، ويصدق الكاذب، ويكذب الصادق).

ثم قال: (فعندها أمارة النساء ومشاورة الإمام، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب ظرفاً، والزكاة مغرمًا والفيء مغنماً، ويجفو الرجل والديه وير صديقه).

ثم قال: (فعندها يكتفي الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، ويشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، ويركبن ذوات الفروج السروج فعليهم من أمي لعنة الله).

ثم قال: (إن عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس، وتخلى المصاحف، وتطول المنارات، وتكثر الصفوف والقلوب قباضة، والألسن مختلفة).

ثم قال: (فعند ذلك تحلى ذكور أمي بالذهب ويلبسون الحرير والديباج، ويتخذون جلود النمر صفاقاً).

ثم قال: (فعندها يظهر الربا، ويتعاملون بالغبية والرشا، ويوضع الدين، وترفع الدنيا).

ثم قال: (وعندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حد ولن يضر الله شيئاً).

ثم قال: (وعندها تظهر القينات والمعازف، وتليهم شرار أمي).

ثم قال: (وعندها يحج أغنياء أمي للنزهة، ويحج أوساطها للتجارة ويحج فقراؤهم للرياء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله فيتخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقهون لغير الله، ويكثر أولاد الزنا، ويتغنون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا).

ثم قال: (وذلك إذا انتهكت المحارم، واكتسب المآثم، وتسلبت الأشرار على الأخيار، ويفشو الكذب، وتظهر الحاجة، وتفشى الفاقة، ويتباهون في الناس ويستحسنون الكوبة والمعازف، وينكر الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر (إلى أن قال: فأولئك يدعون في ملكوت السماء الأرجاس الأنجاس) (الحديث)(١٢٠).

احذروا أهواءكم... كما تحذرون أعداءكم
عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: (احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس بشيء أعدى للرجال من
اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم)(١٢١).
وعن يحيى بن عقيل قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إنما أخاف عليكم اثنين: اتباع الهوى وطول الأمل،
أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة)(١٢٢).
وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قال لي أبو الحسن (عليه السلام): (اتق المرتقى السهل إذا كان منحدره
وعراً)(١٢٣).
قال: وكان (عليه السلام) يقول: (لا تدع النفس وهواها، فإن هواها في رذائها، وترك النفس وما تهوى أذاها،
وكف النفس عما تهوى دواؤها)(١٢٤).

- ١ . مستدرك الوسائل: ج ١٥، ص ٢٣٤.
- ٢ . بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٤.
- ٣ . مستدرك الوسائل: ج ٧، ص ١٨٢.
- ٤ . المصدر السابق: ص ١٨٤.
- ٥ . المصدر السابق.
- ٦ . المصدر السابق: ص ١٨٥.
- ٧ . المصدر السابق.
- ٨ . المصدر السابق: ج ٥، ص ١٦٠.
- ٩ . المصدر السابق.
- ١٠ . المصدر السابق: ص ١٦١.
- ١١ . المصدر السابق: ص ١٦٥.
- ١٢ . المصدر السابق: ص ١٦٦.
- ١٣ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٤٨.
- ١٤ . مستدرك الوسائل: ج ٥، ص ١٦٤.
- ١٥ . بحار الأنوار: ج ١٧، ص ٢٩٣.
- ١٦ . فلاح السائل، للشيخ البهائي: ص ٢٦٧.
- ١٧ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٤٠.
- ١٨ . المصدر السابق: ص ١٤٠.
- ١٩ . المصدر السابق.

- ٢٠ . المصدر السابق: ص ١٤٣ .
- ٢١ . المصدر السابق: ص ١٤٤ .
- ٢٢ . المصدر السابق: ص ١٤٥ .
- ٢٣ . المصدر السابق .
- ٢٤ . المصدر السابق .
- ٢٥ . المصدر السابق: ص ١٤٦ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ١٤٧ .
- ٢٧ . المصدر السابق .
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ١٤٨ .
- ٢٩ . المصدر السابق .
- ٣٠ . المصدر السابق: ص ١٤٩ .
- ٣١ . يعني: حين يضر المدح .
- ٣٢ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٥٠ .
- ٣٣ . المصدر السابق .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق: ص ١٥١ .
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ١٨٤ .
- ٣٧ . المصدر السابق .
- ٣٨ . المصدر السابق .
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ١٨٥ .
- ٤٠ . المصدر السابق .
- ٤١ . المصدر السابق: ص ١٨٦ .
- ٤٢ . المصدر السابق: ص ٢٠٥ .
- ٤٣ . المصدر السابق: ص ٢٠٦ .
- ٤٤ . المصدر السابق .
- ٤٥ . المصدر السابق .
- ٤٦ . المصدر السابق: ص ٢٠٧ .
- ٤٧ . المصدر السابق: ص ٢٠٠ .
- ٤٨ . المصدر السابق .

- ٤٩ . المصدر السابق: ص ٢٠١ .
- ٥٠ . المصدر السابق .
- ٥١ . المصدر السابق .
- ٥٢ . المصدر السابق: ص ٢٠٢ .
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ٢٠٣ .
- ٥٤ . المصدر السابق .
- ٥٥ . المصدر السابق: ص ٢٠٤ .
- ٥٦ . المصدر السابق .
- ٥٧ . المصدر السابق: ص ٢٠٥ .
- ٥٨ . المصدر السابق: ص ٢٢١ .
- ٥٩ . المصدر السابق .
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٢٢٢ .
- ٦١ . المصدر السابق: ص ١٢٤ .
- ٦٢ . المصدر السابق: ص ١٢٧ .
- ٦٣ . المصدر السابق .
- ٦٤ . المصدر السابق: ص ١٢٨ .
- ٦٥ . المصدر السابق .
- ٦٦ . المصدر السابق: ص ١٩٠ .
- ٦٧ . المصدر السابق .
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ١٩١ .
- ٦٩ . المصدر السابق: ص ١٩٢ .
- ٧٠ . المصدر السابق .
- ٧١ . المصدر السابق: ص ١٩٣ .
- ٧٢ . المصدر السابق .
- ٧٣ . المصدر السابق: ص ١٩٣ .
- ٧٤ . المصدر السابق: ص ١٩٤ .
- ٧٥ . المصدر السابق: ص ١٩٥ .
- ٧٦ . المصدر السابق .
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ١٩٦ .

- ٧٨ . المصدر السابق.
- ٧٩ . المصدر السابق: ص ١٩٧.
- ٨٠ . المصدر السابق: ص ١٩٨.
- ٨١ . المصدر السابق.
- ٨٢ . المصدر السابق.
- ٨٣ . المصدر السابق: ص ١٩٩.
- ٨٤ . المصدر السابق.
- ٨٥ . المصدر السابق.
- ٨٦ . المصدر السابق.
- ٨٧ . المصدر السابق: ص ٢٥٠.
- ٨٨ . المصدر السابق.
- ٨٩ . المصدر السابق.
- ٩٠ . المصدر السابق: ص ٢٥١.
- ٩١ . المصدر السابق: ص ٢٦٥.
- ٩٢ . المصدر السابق.
- ٩٣ . المصدر السابق: ص ٢٦٦.
- ٩٤ . المصدر السابق: ص ٢٦٧.
- ٩٥ . المصدر السابق.
- ٩٦ . المصدر السابق: ص ٢٦٨.
- ٩٧ . المصدر السابق.
- ٩٨ . المصدر السابق.
- ٩٩ . المصدر السابق.
- ١٠٠ . المصدر السابق: ص ٢٤٥.
- ١٠١ . المصدر السابق.
- ١٠٢ . المصدر السابق.
- ١٠٣ . المصدر السابق: ص ٢٤٦.
- ١٠٤ . المصدر السابق.
- ١٠٥ . المصدر السابق: ص ٢٤٧.
- ١٠٦ . المصدر السابق.

- ١٠٧ . المصدر السابق.
- ١٠٨ . المصدر السابق.
- ١٠٩ . المصدر السابق: ص ٢٦٩.
- ١١٠ . المصدر السابق: ص ٢٧٠.
- ١١١ . المصدر السابق.
- ١١٢ . المصدر السابق.
- ١١٣ . المصدر السابق.
- ١١٤ . المصدر السابق: ص ٢٧١.
- ١١٥ . المصدر السابق: ص ٢٧٢.
- ١١٦ . المصدر السابق.
- ١١٧ . المصدر السابق: ص ٢٧٤.
- ١١٨ . المصدر السابق: ص ٢٧٦.
- ١١٩ . المصدر السابق.
- ١٢٠ . المصدر السابق.
- ١٢١ . المصدر السابق: ص ٣٤٦.
- ١٢٢ . المصدر السابق.
- ١٢٣ . المصدر السابق.
- ١٢٤ . المصدر السابق.

الإيمان ركيزة إصلاح النفس

مضاعفات الذنوب

عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أما إنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه: (ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) (الشورى: ٣٠).

قال: ثم قال وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به(١).

وعن مسمع، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن)(٢).

وعن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب وما يعفو الله أكثر)(٣).

وعن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: كان أبي (عليه السلام) يقول: (ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله)(٤).

وعن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن العبد ليذنب فيزوى عن الرزق)(٥).

وعن الفضيل، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الرجل ليذنب الذنب فيدرء عنه الرزق وتلا هذه الآية: (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) (القلم: ١٧ - ١٩)(٦).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً)(٧).

وعن بن فضال، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)(٨).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج من النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عز وجل: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (المطففين: ١٤).

وعن أبي عمرو المدائني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: كان أبي يقول: (إن الله قضى قضاءً حتماً لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة)(٩).

وعن يونس بن يعقوب، عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: (إن أحدكم ليكثر الخوف من السلطان، وما ذلك إلا بالذنوب فتوقوها ما استطعتم ولا تمادوا فيها)(١٠).

وعن العباس بن هلال الشامي قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: (كلما أحدث العبد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون)(١١).

وعن جعفر الجعفري، عن جعفر بن محمد، عن أبيه (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من أذنب ذنباً وهو ضاحك دخل النار وهو باكي)(١٢).

وعن مفضل بن عمر، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (يا مفضل إياك والذنوب وحذرهما شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المعرة من السلطان وما ذلك إلا بذنوبه، وإنه ليشدد عليه عند الموت وما ذاك إلا بذنوبه)(١٣).

وعن عمرو بن عثمان، عن رجل، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (حق على الله أن لا يعصى في دار أضحاهما للشمس حتى تطهرها)(١٤).

وعن الهيثم بن واقد الجزري قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إن الله عز وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه وأوحى إليه أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون، وقل لهم: إن رحمتي سبقت غضبي، فلا تقنطوا من رحمتي فإنه لا يتعظم عندي ذنب أغفره، وقل لهم: لا يتعرضوا معاندين لسخطي، ولا يستخفوا بأوليائي فإن لي سطوات عند غضبي لا يقوم لها شيء من خلقي)(١٥).

وعن عباد بن صهيب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: يقول الله عز وجل: (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني)(١٦).

كفى بالندم توبة

عن أبي العباس، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (من سرتة حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)(١٧).

وعن عمرو بن عثمان عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة قلت: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: نعم إنه يذنب فلا يزال خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة)(١٨).

وعن أبان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه، إلا غفر الله له قبل أن يستغفر، وما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنها من عند الله إلا غفر الله له قبل أن يحمده)(١٩).

وعن علي الجهمي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (كفى بالندم توبة)(٢٠).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال علي بن الحسين (عليه السلام): (أربع من كن فيه كمل إيمانه، ومحضت عنه ذنوبه: من وفى لله بما جعل على نفسه للناس، وصدق لسانه مع الناس، واستحى من كل قبيح عند الله وعند الناس، ويحسن خلقه مع أهله)(٢١).

لا تدع سيئاتك

عن العباس مولى الرضا (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بالسيئة مغفور له)(٢٢).

التوبة التي لا رجعة فيها

عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إذا تاب العبد توبة نصوحاً أجله الله بستر عليه من الدنيا والآخرة. قلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتب عليه من الذنوب، ويوحى إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه، ويوحى إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب)(٢٣).

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) (التحريم: ٨).

قال: (هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً).

قلت: وأتينا لم يعد؟ فقال: (يا أبا محمد إن الله يحب من عباده المفتن التواب)(٢٤).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ)(٢٥).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (أوحى الله إلى داود النبي (عليه السلام) يا داود إن عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم رجع وتاب من ذلك الذنب واستحى مني عند ذكره غفرت له وأنسيته الحفظة وأبدلته الحسنة ولا أبالي وأنا أرحم الراحمين)(٢٦).

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله فضولاً من رزقه ينحله من شاء من خلقه والله باسط يده عند كل فجر لمذنب الليل هل يتوب فيغفر له ويبسط يده عند مغيب الشمس لمذنب النهار هل يتوب فيغفر له)(٢٧).

وعن الرضا (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مثل المؤمن عند الله تعالى كمثل ملك مقرب وإن المؤمن عند الله لأعظم من ذلك وليس شيء أحب إلى الله تعالى من مؤمن تائب ومؤمنة تائبة)(٢٨).

وعن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (لا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل يزداد في كل يوم إحساناً، ورجل يتدارك ذنبه بالتوبة) الحديث(٢٩).

وعن ابن طاووس عن الرضا، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (اعترفوا بنعم الله ربكم وتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم فإن الله يحب الشاكرين من عباده)(٣٠).

شروط التوبة

عن محمد بن أحمد بن هلال قال: سألت أبا الحسن الأخير (عليه السلام) عن التوبة النصوح ما هي؟ فكتب (عليه السلام): (أن يكون الباطن كالظاهر وأفضل من ذلك)(٣١).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) إن قائلاً قال بحضرتة: استغفر الله.

فقال: ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو إسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى.

والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة.

والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر الله(٣٢).

وعن كميل بن زياد، أنه قال: قلت لأمير المؤمنين (عليه السلام): العبد يصيب الذنب فيستغفر الله، فقال: يابن زياد... أن العبد إذا أصاب ذنباً قال أستغفر الله بالتحريك، قلت وما التحريك؟ قال الشفتان واللسان يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة، قلت وما الحقيقة؟ قال تصديق القلب وإضمار أن لا تعود إلى الذنب(٣٣).

تجديد التوبة وإن تكرر نقضها

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان).

قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة.

قال: (يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته)؟

قلت: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر.

فقال: (كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله)(٣٤).

وعن أبي جميلة قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إن الله يحب العبد المفتن التواب ومن لا يكون ذلك منه كان أفضل)(٣٥).

وعن الديلمي قال: قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إني أذنب فما أقول إذا تبت؟ قال: استغفر الله.

فقال: إني أتوب ثم أعود.

فقال: كلما أذبت استغفر الله.

فقال: إذن تكثر ذنوبي.

فقال: (عفو الله أكثر فلا تزال تتوب حتى يكون الشيطان هو المدحور)(٣٦).

تلافي ما فات.. بدون تأخير

عن أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (إنما الدهر ثلاثة أيام أنت فيما بينهن، مضى أمس بما فيه فلا يرجع أبداً، فإن كنت عملت فيه خيراً لم تحزن لذهابه، وفرحت بما استقبلته منه، وإن كنت فرطت فيه فحسرتك شديدة لذهابه وتفريطك فيه وأنت من غد في غرة، لا تدري لعلك لا تبلغه وإن بلغته لعل حظك فيه التفريط مثل حظك في الأمس (إلى أن قال): وإنما هو يومك الذي أصبحت فيه، وقد ينبغي لك أن عقلت وفكرت فيما فرطت في الأمس الماضي مما فاتك فيه من حسنات أن لا تكون اكتسبتها ومن سيئات أن لا تكون أقصرت عنها، (إلى أن قال): فاعمل عمل رجل ليس يأمل من الأيام إلا يومه الذي أصبح فيه وليلته، فاعمل أو دع والله المعين على ذلك(٣٧).

وعن هشام بن سالم، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن النهار إذا جاء قال: يا ابن آدم اعمل في يومك هذا خيراً أشهد لك به عند ربك يوم القيامة، فإني لم تك فيما مضى، ولا آتاك فيما بقي، فإذا جاء الليل قال مثل ذلك(٣٨).

وعن أحمد بن محمد بن يحيى، بإسناده عن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: (المغبون من غبن عمر ساعة بعد ساعة(٣٩).

تشديد التحفظ عند ازدياد العمر

عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة، فإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله عز وجل إلى ملكيه قد عمرت عبدي هذا عمراً فغلظا وشددا وتحفظا واكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره(٤٠).

وعن أحمد بن محمد بن خالد رفعه عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إذ أتت على الرجل أربعون سنة قيل له: خذ حذرک فإنک غير معذور، وليس ابن الأربعين أحق بالحذر من ابن العشرين، فإن الذي يطلبها واحد وليس براقداً، فاعمل لما أمامك من الهول، ودع عنك فضول القول(٤١).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة(٤٢)).
وعن محمد بن علي بن الحسين قال: سئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) (فاطر: ٣٧).

فقال: (توبيخ لابن ثمانية عشر سنة(٤٣)).

وعن يعقوب بن سالم، عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (ثلاث من لم تكن فيه فلا يرجى خيره أبداً: من لم يخش الله في الغيب، ولم يرع في الشيب، ولم يستح من العيب(٤٤)).

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه، فإذا طعن في واحد وأربعين فهو في النقصان، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع(٤٥).

المبادرة إلى الحسنه بعد السيئه

عن يونس بن ظبيان قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام) في حديث: (من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، ومن خلا بعمل فلينظر فيه، فإن كان حسناً جميلاً فليمض عليه، وإن كان سيئاً قبيحاً فليجتنبه فإن الله أولى بالوفا والزيادة ومن عمل سيئة في السر فليعمل حسنة في السر، ومن عمل سيئة في العلانية فليعمل حسنة في العلانية)(٤٦).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: (ويل لمن غلبت آحاده أعشاره).

فقلت له: وكيف هذا، قال: (أما سمعت الله عز وجل يقول: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها) (الأنعام: ١٦٠).

فالحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له عشرًا، والسيئة الواحدة إذا عملها كتبت له واحدة، فنعوذ بالله ممن يرتكب في يوم واحد عشر سيئات، ولا يكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته)(٤٧).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى (عليه السلام): ما أكرمت خليفة بمثل ديني، ولا أنعمت عليها بمثل رحمتي أغسل بالماء ما ظهر، وداو بالحسنات ما بطن، فإنك إلي راجع شمر، فكلما هو آت قريب، واسمعي منك صوتاً حزيناً)(٤٨).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (ما أحسن الحسنات بعد السيئات، وما أقبح السيئات بعد الحسنات)(٤٩).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وإذا عملت سيئة فاعمل حسنة تحوها)(٥٠).

حكم التوبة في اللحظات الأخيرة

عن بكير، عن أبي عبد الله أو عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث: (إن الله عز وجل قال لآدم (عليه السلام): جعلت لك أن من عمل من ذريتك سيئة ثم استغفر غفرت له.

قال: يا رب زدني.

قال: بسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه.

قال: يا رب حسبي)(٥١).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إذا بلغت النفس هذه . وأهوى بيده إلى حلقة . لم يكن للعالم التوبة، وكانت للجاهل توبة)(٥٢).

وعن أبي فضلا، عن ذكره، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته).

ثم قال: (إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته).
ثم قال: (إن الشهر لكثير، ثم قال (من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته)، ثم قال: (وإن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته).

ثم قال: (إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته)(٥٣).
عن معاوية بن وهب (في حديث) أن رجلاً شيخاً كان من المخالفين عرض عليه ابن أخيه الولاية عند موته فأقر بها وشهق ومات، قال فدخلنا على أبي عبدالله (عليه السلام)، فقال (هو رجل من أهل الجنة) قال له علي بن السري: إنه لم يعرف شيئاً من هذا غير ساعته تلك. قال: (أفتريدون منه ماذا؟ قد والله دخل الجنة)(٥٤).
وعن زرارة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لما أعطى الله إبليس ما أعطاه من القوة، قال آدم: يا رب سلطت إبليس على ولدي، وأجرته منهم مجرى الدم من العروق وأعطيته ما أعطيته. فمالي وولدي؟).
قال: (لك ولولدك السيئة بواحدة، والحسنة بعشر أمثالها).

قال: يا رب زدني.

قال: (التوبة مبسوطة إلى أن تبلغ النفس الحلقوم).

قال: يا رب زدني.

قال: (أغفر ولا أبالي).

قال: حسبي (الحديث)(٥٥).

قال الصدوق: وسئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) (النساء: ١٨).
قال (عليه السلام): (ذاك إذا عاين أمر الآخرة)(٥٦).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دعا رجلاً من اليهود وهو في السياق إلى الإقرار بالشهادتين فأقرّ بهما ومات، فأمر الصحابة أن يغسلوه ويكفونوه ثم صلى عليه، وقال: الحمد لله الذي نجى بي اليوم نسمة من النار)(٥٧).

وعن إبراهيم بن محمد الحمداي قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) لأي علة أغرق الله عز وجل فرعون وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟ قال: (لأنه آمن عند رؤية البأس والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف قال الله تعالى: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) (غافر: ٨٤: ٨٥)(٥٨).

الاشتغال بصالح الأعمال عن الأهل والمال

عن سويد بن غفلة قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة مثل له ماله وولده وعمله فيلتنف إلى ماله فيقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً، فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك).

قال فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محباً وإني كنت عليكم محامياً فماذا عندكم؟
فيقولون: نوديك إلى حفرتك نواريك فيها.

قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً وإن كنت لثقيلاً.

فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض أنا وأنت على ربك (الحديث)(٥٩).

وعن مسعدة بن زياد، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال علي (عليه السلام): (إن للمرء المسلم ثلاثة أخلاء: فخليل يقول له: أنا معك حياً وميتاً وهو عمله وخليل يقول له: أنا معك حتى تموت وهو ماله فإذا مات صار للوارث، وخليل يقول له: أنا معك إلى باب قبرك ثم أخليك وهو ولده)(٦٠).

عرض العمل على الله ورسوله (ص) والأئمة (ع)

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (تعرض الأعمال على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعمال العباد كل صباح، أبرارها وفجارها فاحذروها وهو قول الله عز وجل: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) (التوبة: ١٠٥)، وسكت (عليه السلام)(٦١).

وعن سماعة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (ما لكم تسوؤن رسول الله (صلى الله عليه وآله)(٦٢).

وفي عيون الأخبار عن الرضا عن آبائه، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (إن أعمال هذه الأمة ما من صباح إلا وتعرض على الله تعالى)(٦٣).

وعن سدير، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو في نفر من أصحابه: (إن مقامي بين أظهركم خير لكم، وإن مفارقتي إياكم خير لكم فإن الله يقول: (موا كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) (الأنفال: ٣٣).

(إلى أن قال): وأما مفارقتي إياكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض علي كل اثنين وخميس، فما كان من حسن حمدت الله عليه، وما كان من سيئ استغفرت لكم)(٦٤).

وأقول لعل هناك عرضاً إجمالياً كل يوم، وعرضاً تفصيلاً كل اثنين وخميس).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن أعمال العباد تعرض على نبيكم كل عشية خميس فليستحي أحدكم أن يعرض على نبيه العمل القبيح)(٦٥).

وعن بريد العجلي قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

فقال: (ما من مؤمن يموت ولا كافر فيوضع في قبره حتى يعرض عمله على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلى علي وهلم جراً إلى آخر من فرض الله طاعته على العباد)(٦٦).

وعن عبد الله بن أبان الزيات قال: قلت للرضا (عليه السلام): ادع الله لي ولأهل بيتي.

فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية ساء ذلك فلا تسوؤا.

فقال: (أولست أفعل إن أعمالكم لتعرض علي في كل يوم وليلة).

قال فاستعظمت ذلك.

فقال لي: (أما تقرأ كتاب الله عز وجل: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) (التوبة: ١٠٥).

قال: هو والله علي بن أبي طالب (عليه السلام) (٦٧).

ضرورة جهاد النفس

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: (إن النبي (صلى الله عليه وآله) بعث سرية فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم

قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر فقبل: يا رسول الله ما الجهاد الأكبر قال: جهاد النفس) (٦٨).

وعنه (عليه السلام) أنه قال لرجل: (اجعل قلبك قريناً برأ، وولداً واصلاً، واجعل عملك والداً تتبعه، واجعل

نفسك عدواً تجاهده، واجعل مالك عارية تردّها) (٦٩).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (الشديد من غلب نفسه) (٧٠).

وعن المفضل بن عمر قال: قال الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام): (من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر

من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه) (٧١).

وعن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي قال: (يا علي أفضل

الجهاد من أصبح لا يهيم بظلم أحد) (٧٢).

وعن شعيب العرقوبي، عن الصادق (عليه السلام) قال: من ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا اشتهى وإذا

غضب وإذا رضى حرّم الله جسده على النار) (٧٣).

وقال (عليه السلام): (إن أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه) (٧٤).

ذم النفس وتأديبها ومقتها

عن الحسن بن الجهم قال: سمعت أبا الحسن يقول: (إن رجلاً في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة، ثم قرب قرباناً

فلم يقبل منه فقال لنفسه: ما أتيت إلا منك، وما الذنب إلا لك، قال: فأوحى الله عز وجل إليه: ذمك لنفسك

أفضل من عبادتك أربعين سنة) (٧٥).

وعن عبد الله بن الحسن بإسناده قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من مقت نفسه دون مقت الناس

آمنه الله من فزع يوم القيامة) (٧٦).

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا

عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام) قال: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل

يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه) (٧٧).

وعن أبي حمزة الثمالي: كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: (ابن آدم إنك لا تزال بخير ما كان لك واعظ

من نفسك، وما كانت المحاسبة من همك وما كان الخوف لك شعاراً، والحزن لك دثاراً، ابن آدم إنك ميت

ومبعوث وموقوف بين يدي الله فأعد جواباً) (٧٨).

وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لذكر الله بالغدو والآصال خير من حطم السيوف في سبيل الله عز وجل يعني من ذكر الله بالغدو وتذكر ما كان منه عن ليله من سوء عمله واستغفر الله وتاب عليه انتشر وقد حطت سيئاته، وغفرت ذنوبه، ومن ذكر الله بالآصال وهي العشيات وراجع نفسه فيما كان منه يومه ذلك من سرفه على نفسه وإضاعته لأمر ربه فذكر الله واستغفر الله تعالى وأتاب راح ليله وقد غفرت له ذنوبه)(٧٩).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم)(٨٠).

وعن أبي ذر، في وصية النبي (صلى الله عليه وآله)، إنه قال: يا أبا ذر حاسب نفسك قبل أن تحاسب فإنه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزن، وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض لا تخفى على الله خافية (إلى أن قال): يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلال أو من حرام يا أبا ذر من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار)(٨١).

وعن الحسن بن علي العسكري (عليه السلام) في تفسيره، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت).

فقال رجل: (يا أمير المؤمنين كيف يحاسب نفسه؟).

قال: (إذا أصبح ثم أمسى، رجع إلى نفسه، وقال: يا نفسي إن هذا يوم مضى عليك لا يعود أبداً، والله يسألك عنه بما أفئيتته، فما الذي عملت فيه أذكرت الله أم حمدته، أفضيت حوائج مؤمن فيه أنقست عنه كربة أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده أحفظته بعد الموت في مخلفيه أكففت عن غيبة أخ مؤمن أعنت مسلماً، ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى منه خيراً حمد الله وكبره على توفيقه، وإن ذكر معصية أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك معاودته)(٨٢).

وروى يحيى بن الحسن بن هارون الحسيني عن الحسن بن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا يكون العبد مؤمناً حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه والسيد عبده) الحديث(٨٣).

إصلاح النفس

عن أبي خديجة قال: دخلت على أبي الحسن (عليه السلام) فقال لي: (إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح منه يحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي، ويغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي، فهي معه تهتز سروراً عند إحسانه، وتسبح في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقيناً، وترجوا نفيساً ثميناً، رحم الله إمرأاً هم بخير فعله، أو هم بشر فارتدع منه، ثم قال: نحن نريد الروح بالطاعة لله والعمل له)(٨٤).

وعن أحمد بن محمد بن خالد رفعه قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (أقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك، واسع في فكائها كما تسعى في طلب معيشتك، فإن نفسك رهينة بعملك)(٨٥).
وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له دنياه)(٨٦).
وقال (عليه السلام): (من أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس)(٨٧).

بين الخوف والرجاء

عن الحرث بن المغيرة أو أبيه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له ما كان في وصية لقمان؟ قال: (كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك)(٨٨).
ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): كان أبي يقول: (ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا)(٨٩).

وعن ابن أبي نجران، عن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأمان كذبوا، ليسوا براجين، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه)(٩٠).

وعن الحسين بن أبي سارة قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو)(٩١).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قال الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام): (أرج الله رجاء لا يجرك على معصيته وخف الله خوفاً لا يؤسك من رحمة الله)(٩٢).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال في خطبة له: (يدعي بزعمه أنه يرجو الله كذب والعظيم ما له لا يتبين رجاءه في عمله، وكل راج عرف رجاءه في عمله إلا رجاء الله فإنه مدخول وكل محقق إلا خوف الله فإنه معلول، يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير فيعطي العبد ما لا يعطي الرب، فما بال الله جل ثناؤه يقصر به عما يصنع لعباده أتخاف أن تكون في رجائك له كاذباً، أو يكون لا يراه للرجاء موضعاً، وكذلك إن هو خاف عبداً من عبده أعطاه من خوفه مالا يعطي ربه فجعل خوفه من العباد نقداً وخوفه من خالقه ضمارة ووعداً).

وعن حمزة بن حمران قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إن مما حفظ من خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال (أيها الناس إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضي

فيه، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار(٩٣).

وعن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقى لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك فلا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف)(٩٤).
وعن داود الرقي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (الرحمن: ٤٦).

قال: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر فيجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى(٩٥).

وعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (يا إسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك)(٩٦).

وعن أبي حمزة قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سحت نفسه عن الدنيا)(٩٧).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رأس الحكمة مخافة الله عز وجل)(٩٨).

وعن علي بن غراب قال: قال الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام): (من خلا بذنب فراقب الله تعالى فيه واستحج من الحفظة غفر الله عز وجل له جميع ذنوبه وإن كانت مثل ذنوب الثقلين)(٩٩).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن قوماً أصابوا ذنوباً فخافوا منها وأشفقوا فجاءهم قوم آخرون فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً فخفنا منها وأشفقنا، فقالوا لهم: نحن نحملها عنكم. فقال الله تعالى يخافون ويجترئون علي فأنزل الله عليهم العذاب)(١٠٠).

البكاء من خشية الله تعالى

عن الحسين بن زيد، عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث المناهي فقال: (ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكل قطرة قطرت من دموعه قصر في الجنة مكمل بالدر والجواهر، فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(١٠١).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام): (كان فيما وعظ الله به عيسى بن مريم (عليها السلام) أن قال: يا عيسى أنا ربك ورب آباتك الأولين - إلى أن قال - يا عيسى ابن البكر البتول إبك على نفسك بكاء من قد ودع الأهل، وقلنا الدنيا، وتركها لأهلها، وصارت رغبته فيما عند الله)(١٠٢).

وعن أبي أيوب، عن الرضا (عليه السلام) قال: (كان فيما ناجى الله به موسى (عليه السلام) أنه ما تقرب إلي المتقربون بمثل البكاء من خشيتي، وما تعبد لي المتعبدون بمثل الورع عن محارمي، ولا تزين في المتزينون بمثل الزهد في الدنيا عمّا يهيم الغنى عنه).

فقال موسى: يا أكرم الأكرمين فما أثبتهم على ذلك؟ فقال: يا موسى أما المتقربون لي بالبكاء من خشيتي فهم في الرفيق الأعلى لا يشركهم فيه أحد، وأما المتعبدون لي بالورع عن محارمي فأني أفتش الناس عن أعمالهم ولا أفتشهم حياةً منهم وأما المترينون لي بالزهد في الدنيا فأني أبيعهم الجنة بحذافيرها يتبوؤن منها حيث يشاؤون(١٠٣).

وعن محمد بن مروان، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ما من شيء إلا وله كيل ووزن إلا الدموع، فإن القطرة تظفي بجاراً من نار فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة، فإذا فاضت حرمة الله على النار ولو أن باكياً بكى في أمة لرحموا)(١٠٤).

وعن محمد بن مروان، عن أبي عبدالله (عليه السلام): (ما من عين إلا وهي باكية يوم القيامة إلا عيناً بكت من خوف الله، وما اغرورقت عين بمائها من خشية الله عز وجل إلا حرم الله سائر جسده على النار)(١٠٥).
وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من نظرة أحب إلى الله عز وجل من قطرة دموع في سواد الليل مخافة الله لا يراد بها غيره)(١٠٦).

وعن محمد بن مروان، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كل عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عين غضت عن محارم الله، وعين سهرت في طاعة الله، وعين بكت في جوف الليل من خشية الله)(١٠٧).
(قسوة القلب) دليل على الشقاء

عن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لمتان: لمة من الشيطان ولمة من الملك، فلمة الملك الرقة والفهم، ولمة الشيطان السهو والقسوة)(١٠٨).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): (يا علي أربع خصال من الشقاء: جمود العين وقساوة القلب، وبعد الأمل، وحب البقاء)(١٠٩).

وعن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما جفت الدموع إلا لقسوة القلب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب)(١١٠).

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من الشقاء جمود العين وقسوة القلب، وشدة الحرص في طلب الدنيا، والإصرار على الذنب)(١١١).

الإيمان بالقدر الإلهي

عن صفوان الجمال، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وإن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الضار النافع هو الله عز وجل)(١١٢).

وعن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما) (الكهف: ٨٣).

فقال: (أما أنه ما كان ذهباً ولا فضة، وإنما كان أربع كلمات: لا إله إلا أنا، من أيقن بالمولت لم يضحك سنّة، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله)(١١٣).

وعن زيد الشحام، عن أبي عبدالله (عليه السلام): (إن أمير المؤمنين (عليه السلام) جلس إلى حائط مائل يقضي بين الناس فقال بعضهم: لا تقعد تحت هذا الحائط فإنه معور، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) حرس امرء أجله) فلما قام سقط الجدار(١١٤).

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من صحّة يقين المرء المسلم أن لا يرضى الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يؤتّه الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت، ثم قال: إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن بالشك والسخط)(١١٥).

وعن سعيد بن قيس الهمداني قال: نظرت يوماً من الحرب إلى رجل عليه ثوبان فحركت قوسي فإذا هو أمير المؤمنين (عليه السلام) فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع؟ فقال: (نعم يا سعيد بن قيس إنه ليس من عبد إلا وله من الله عز وجل حافظ وواقية معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل، أو يقع في بحر، فإذا نزل القضاء خلياً بينه وبين كل شيء)(١١٦).

وعن محمد بن الحسين الرضي في (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (كفى بالمولت حارساً)(١١٧).

وجوب الاعتصام بالله

عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أما عبد أقبل قبل ما يحبّ الله عز وجل أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فشملتهم بلية كان في حزب الله بالتقوى من كل بليّة، أليس الله يقول: (إن المتقين في مقام أمين) (الدخان: ٥١)(١١٨).

وعن مفضل، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أوحى الله عز وجل إلى داود، ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نبيته ثم يكيده السماوات والأرض ومن فيهنّ إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نبيته إلا قطعت أسباب السماوات من يديه، وأسخت الأرض من تحته ولم أبال بأي وادٍ يهلك)(١١٩).

التوكل على الله والتفويض

عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي ثم قال: يا علي بن الحسين مالي أراك كثيراً حزناً (إلى أن قال) ثم قال: يا علي بن الحسين (عليه السلام) هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا قال: فهل رأيت

أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم غاب عني(١٢٠).

وعن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الغنى والعز يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه)(١٢١).

وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أعطى ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً: من أعطى الدعاء أعطى الإجابة، ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطى الكفاية، ثم قال: أتلوت كتاب الله عز وجل: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق: ٣).

وقال: (لئن شكرتم لأزيدنكم) (إبراهيم: ٧)، وقال: (ادعوني استجب لكم) (غافر: ٦٠)(١٢٢).
قطع الأمل من غير الله

عن الحسين بن علوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قرأ في بعض الكتب إن الله تبارك وتعالى يقول: (وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤتمل من الناس غيري باليأس ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحيتنه من قربي ولأبعدنه من فضلي أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري، ويقرع بالفكر باب غيري وييدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني؟ فمن ذا الذي أملي لنائبه فقطعته دونها، ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسيحي، وأمرتهم أن لا يغلثوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني، فما لي أراه لاهياً عني أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعت عنه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدء بالعطاء قبل المسألة، ثم اسأل فلا أجيب سألني أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي؟ أوليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤمنون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل السماوات وأهل أرضي أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي عضد ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني)(١٢٣).

وعن أحمد بن فهد قال: روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) (يوسف: ١٠٦).

قال: هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت ولولا فلان ما أصبت كذا أو كذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه.

قلت فيقول: ماذا؟ يقول لولا أن من الله عليّ بفلان لهلكت.

قال: نعم لا بأس بهذا أو نحوه)(١٢٤).

وجوب حسن الظن بالله تعالى، وتحريم سوء الظن به

عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: (أحسن الظن بالله، فإن الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدي المؤمن بي إن خيراً فخير وإن شراً فشرأ) (١٢٥).

وعن أحمد بن عمر، عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: (فأحسن الظن بالله، فإن أبا عبد الله (عليه السلام) كان يقول: من حسن ظنه بالله كان الله عند ظنه به، ومن رضى بالقليل من الرزق قبل منه باليسير من العمل) (١٢٦).

وعن بريد بن معاوية، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: وجدنا في كتاب علي (عليه السلام) إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال على منبره: (والذي لا إله إلا هو ما أعطى مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله، ورجاءه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصير من رجائه له، وسوء خلقه، واغتياب المؤمنين، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن، لأن الله كريم بيده الخير يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه) (١٢٧).

وعن سفيان بن عيينه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا ذنبك) (١٢٨).

وعن محمد بن علي بن الحسين بإسناده إلى وصية علي (عليه السلام) لمحمد بن الحنفية قال: (ولا يغلبن عليك سوء الظن بالله عز وجل فإنه لن يدع بينك وبين خليلك صلحاً) (١٢٩).

وعن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن آخر عبد يؤمر به إلى النار فيلتفت فيقول الله جل جلاله أعجلوه، فإذا أتى به قال له: عبدي لم التفت فيقول: يا رب ما كان ظني بك هذا فيقول الله جل جلاله عبدي ما كان ظنك بي؟ فيقول: يا رب كان ظني بك أن تغفر لي خطيئتي وتدخلي جنتك قال: فيقول الله جل جلاله: ملائكتي وعزتي وجلالي وآلتي وارتفاع مكاني ما ظن بي هذا ساعة من حياته خيراً قط ولو ظن بي ساعة من حياته خيراً ما روعته بالنار، أجزوا له كذبه وأدخلوه الجنة، ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما ظن عبد بالله خيراً إلا كان له عند ظنه، وما ظن به سوء إلا كان الله عند ظنه به، وذلك قول الله عز وجل: (وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) (١٣٠).

وعن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: قال لي: (أحسن الظن بالله فإن الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدي بي فلا يظن بي إلا خيراً) (١٣١).

وعن ابن رثاب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (يؤتى بعبد يوم القيامة ظالم لنفسه فيقول الله ألم أمرك بطاعتي؟ ألم أنهك عن معصيتي؟

فيقول: بلى يا رب، ولكن غلبت علي شهوتي فإن تعذبتني فبذنتني لم تظلمني فيأمر الله به إلى النار فيقول: ما كان ظني بك، فيقول: ما كان ظنك بي؟ قال: كان ظني بك أحسن الظن، فيأمر الله به إلى الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: لقد نفعك حسن ظنك بي الساعة) (١٣٢).

السير وراء العقل

عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملتك إلا فيمن أحب أما إني إياك أمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب)(١٣٣).

وعن الأصمغ بن نباتة، عن علي (عليه السلام) قال: (هبط جبرئيل (عليه السلام) على آدم فقال: يا آدم إني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم: فإني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا ودعاه، فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما) وعرج(١٣٤).

وعن محمد بن عبد الجبار، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قلت له: ما العقل؟ قال: (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، قال: قلت: فالذي كان في معاوية؟ قال: تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل)(١٣٥).

وعن الحسن بن الجهم قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: (صديق كل امرء عقله وعدوه جهله)(١٣٦). وعن إسحاق بن عمار، قال أبو عبدالله (عليه السلام): (من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة)(١٣٧).

وعن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام): (يا هشام إن الله بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) (الزمر: ١٧ - ١٨).

(إلى أن قال): يا هشام إن لقمان قال لابنه: تواضع للحق تكن أعقل الناس، وإن الكيس لدى الحق يسير، يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكانها الصبر، يا هشام إن لكل شيء دليلاً، ودليل العقل التفكير، ودليل التفكير الصمت، ولكل شيء مطية ومطية العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه (إلى أن قال) يا هشام إن لله على الناس حجتيين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة وأما الباطنة فالعقول (إلى أن قال) يا هشام كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك؟ يا هشام إن العاقل رضى بالدون من الدنيا مع الحكمة ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك رحمت تجارتهم، إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض، يا هشام إن العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة)(١٣٨).

ترجيح العقل على الشهوة

عن الحسين بن زيد عن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (في حديث) قال: (من عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها مخافة الله عز وجل حرم الله عليه النار وآمنه من الفرع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه في قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) (الرحمن: ٤٦).

ألا ومن عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدنيا على الآخرة لقي الله عز وجل يوم القيامة وليست له حسنة يتقي بها النار، ومن اختار الآخرة وترك الدنيا رضى الله عنه وغفر له مساوي عمله(١٣٩).

وعن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): (إن الله ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم)(١٤٠).

وعن السكوني، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعده لم يره)(١٤١).

وعن محمد بن الحسين الرضي رحمه الله في (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (كم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً)(١٤٢).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله): (كم أكلة منعت أكالات)(١٤٣).

وعن إسماعيل بن مهران، عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (العقل دليل المؤمن)(١٤٤).

وعن السري بن خالد، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا علي لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل)(١٤٥).

وعن أبي عمر العجمي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (خمس من لم يكن فيه لم يكن فيه كثير مستمتع، قلت: وما هي؟ قال: العقل والأدب والدين والجود وحسن الخلق)(١٤٦).

وعن سهل بن زياد رفعه قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (العقل غطاء ستير والفضل جمال ظاهر، فاستر خلل خلقك بفضلك وقاتل هواك بعقلك، تسلم لك المودة، وتظهر لك المحبة)(١٤٧).

التفكر في ما يوجب الاعتبار والعمل

عن السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (نبه بالفكر قلبك، وجاف عن الليل جنبك، واتق الله ربك)(١٤٨).

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن بعض رجاله، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته)(١٤٩).

وعن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول: (ليس العبادة كثيرة الصلاة والصوم إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل)(١٥٠).

وعن إسماعيل بن بشير قال: كتب هارون الرشيد إلى أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) عظمي وأوجز، قال: فكتب إليه: (ما من شيء تراه عينك إلا وفيه موعظة) (١٥١).

وعن يونس بن عبد الرحمن، عن رجل عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كان أكثر عبادة أبي ذر رحمه الله التفكر والاعتبار).

وعن الحسين الصيقل قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) تفكر ساعة خير من قيام ليلة؟ فقال نعم، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يفكر؟ قال: يمر بالدار والخربة فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين؟

فكر في العاقبة

وعن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن رجلاً أتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): فإني أوصيتك إذا أنت هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك رشداً فامضه وإن يك غياً فانتبه منه) (١٥٢).

وعن محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمحمد بن الحنفية قال: (من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ، ومن تورط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرض لمفضعات النوائب، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم، والعاقل من وعظ بالتجارب، وفي التجارب علم مستأنف، ومن تقلب الأحوال علم جواهر الرجال) (١٥٣).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه) (١٥٤).

وعن أبي قتادة القمي قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (ليس بحازم من لا ينظر في العواقب، والنظر في العواقب تلقيح للقلوب) (١٥٥).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (أتى رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: علمني يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى الحاضر.

قال: زدني يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر.

قال: زدني يا رسول الله.

قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك خيراً ورشداً فاتبعه، وإن يك غياً فاجتنبه) (١٥٦).

لا.. لكفران النعمة

عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) (سبأ: ١٩).

فقال: (هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضها إلى بعض، وأتخار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا بنعم الله وغيروا ما بأنفسهم عن عافية فغير الله ما بهم من نعمة الله، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فأرسل الله عليهم سيل العرم فغرق قراهم وخرّب ديارهم، وأذهب بأموالهم، وأبدلهم مكان جناتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ثم قال: (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور) (سبأ: ١٧). وعن عبد الله بن إسحاق الجعفري، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (مكتوب على التوراة: إشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت) (١٥٧).

١ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٣٧.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٨.

٤ . المصدر السابق.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق.

٧ . المصدر السابق: ص ٢٣٩.

٨ . المصدر السابق.

٩ . المصدر السابق: ص ٢٤٠.

١٠ . المصدر السابق.

١١ . المصدر السابق.

١٢ . المصدر السابق.

١٣ . المصدر السابق: ص ٢٤١.

١٤ . المصدر السابق.

١٥ . المصدر السابق: ص ٢٤٢.

١٦ . المصدر السابق.

١٧ . المصدر السابق: ص ٣٤٩.

١٨ . المصدر السابق.

١٩ . المصدر السابق.

٢٠ . المصدر السابق.

٢١ . المصدر السابق: ص ٣٥٠.

- ٢٢ . المصدر السابق.
- ٢٣ . المصدر السابق: ص ٣٥٧.
- ٢٤ . المصدر السابق.
- ٢٥ . المصدر السابق: ص ٣٥٩.
- ٢٦ . المصدر السابق.
- ٢٧ . المصدر السابق.
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ٣٦٠.
- ٢٩ . المصدر السابق.
- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق: ص ٣٦١.
- ٣٢ . المصدر السابق.
- ٣٣ . المصدر السابق: ص ٣٦٢.
- ٣٤ . المصدر السابق: ص ٣٦٣.
- ٣٥ . المصدر السابق: ص ٣٦٤.
- ٣٦ . المصدر السابق.
- ٣٧ . المصدر السابق: ص ٣٧٥.
- ٣٨ . المصدر السابق.
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ٣٧٦.
- ٤٠ . المصدر السابق: ص ٣٨١.
- ٤١ . المصدر السابق: ص ٣٨٢.
- ٤٢ . المصدر السابق.
- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . المصدر السابق.
- ٤٥ . المصدر السابق.
- ٤٦ . المصدر السابق: ص ٣٨٣.
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . المصدر السابق: ص ٣٨٤.
- ٥٠ . المصدر السابق.

- ٥١ . المصدر السابق: ص ٣٦٩ .
- ٥٢ . المصدر السابق .
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ٣٧٠ .
- ٥٤ . المصدر السابق .
- ٥٥ . المصدر السابق: ص ٣٧١ .
- ٥٦ . المصدر السابق .
- ٥٧ . المصدر السابق: ص ٣٧٢ .
- ٥٨ . المصدر السابق .
- ٥٩ . المصدر السابق: ص ٣٨٥ .
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٣٨٦ .
- ٦١ . المصدر السابق .
- ٦٢ . المصدر السابق: ص ٣٨٧ .
- ٦٣ . المصدر السابق: ص ٣٨٩ .
- ٦٤ . المصدر السابق .
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٣٩١ .
- ٦٦ . المصدر السابق .
- ٦٧ . المصدر السابق: ص ٣٨٧ .
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ١٢٢ .
- ٦٩ . المصدر السابق .
- ٧٠ . المصدر السابق: ص ١٢٣ .
- ٧١ . المصدر السابق .
- ٧٢ . المصدر السابق .
- ٧٣ . المصدر السابق .
- ٧٤ . المصدر السابق: ص ١٢٤ .
- ٧٥ . المصدر السابق: ص ١٨٣ .
- ٧٦ . المصدر السابق .
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ٣٧٧ .
- ٧٨ . المصدر السابق: ص ٣٧٨ .
- ٧٩ . المصدر السابق .

- ٨٠ . المصدر السابق: ص٣٧٩ .
- ٨١ . المصدر السابق .
- ٨٢ . المصدر السابق .
- ٨٣ . المصدر السابق: ص٣٨٠ .
- ٨٤ . المصدر السابق: ص٢٣٥ .
- ٨٥ . المصدر السابق .
- ٨٦ . المصدر السابق: ص٢٣٦ .
- ٨٧ . المصدر السابق .
- ٨٨ . المصدر السابق: ص١٦٩ .
- ٨٩ . المصدر السابق .
- ٩٠ . المصدر السابق .
- ٩١ . المصدر السابق: ص١٧٠ .
- ٩٢ . المصدر السابق .
- ٩٣ . المصدر السابق: ص١٧١ .
- ٩٤ . المصدر السابق: ص١٧٢ .
- ٩٥ . المصدر السابق .
- ٩٦ . المصدر السابق: ص١٧٣ .
- ٩٧ . المصدر السابق .
- ٩٨ . المصدر السابق .
- ٩٩ . المصدر السابق .
- ١٠٠ . المصدر السابق: ص١٧٤ .
- ١٠١ . المصدر السابق: ص١٧٥ .
- ١٠٢ . المصدر السابق: ص١٧٦ .
- ١٠٣ . المصدر السابق: ص١٧٧ .
- ١٠٤ . المصدر السابق .
- ١٠٥ . المصدر السابق: ص١٧٩ .
- ١٠٦ . المصدر السابق .
- ١٠٧ . المصدر السابق .
- ١٠٨ . المصدر السابق: ص٣٣٦ .

- ١٠٩ . المصدر السابق: ص ٣٣٧.
- ١١٠ . المصدر السابق.
- ١١١ . المصدر السابق.
- ١١٢ . المصدر السابق: ص ١٥٧.
- ١١٣ . المصدر السابق: ص ١٥٨.
- ١١٤ . المصدر السابق.
- ١١٥ . المصدر السابق.
- ١١٦ . المصدر السابق: ص ١٥٩.
- ١١٧ . المصدر السابق.
- ١١٨ . المصدر السابق: ص ١٦٥.
- ١١٩ . المصدر السابق.
- ١٢٠ . المصدر السابق: ص ١٦٦.
- ١٢١ . المصدر السابق: ص ١٦٧.
- ١٢٢ . المصدر السابق.
- ١٢٣ . المصدر السابق.
- ١٢٤ . المصدر السابق: ص ١٦٩.
- ١٢٥ . المصدر السابق: ص ١٨٠.
- ١٢٦ . المصدر السابق.
- ١٢٧ . المصدر السابق: ص ١٨١.
- ١٢٨ . المصدر السابق.
- ١٢٩ . المصدر السابق.
- ١٣٠ . المصدر السابق: ص ١٨٢.
- ١٣١ . المصدر السابق.
- ١٣٢ . المصدر السابق.
- ١٣٣ . المصدر السابق: ص ١٦٠.
- ١٣٤ . المصدر السابق.
- ١٣٥ . المصدر السابق.
- ١٣٦ . المصدر السابق: ص ١٦١.
- ١٣٧ . المصدر السابق.

- ١٣٨ . المصدر السابق.
- ١٣٩ . المصدر السابق: ص ١٦٤.
- ١٤٠ . المصدر السابق.
- ١٤١ . المصدر السابق.
- ١٤٢ . المصدر السابق.
- ١٤٣ . المصدر السابق.
- ١٤٤ . المصدر السابق: ص ١٦٢.
- ١٤٥ . المصدر السابق.
- ١٤٦ . المصدر السابق: ص ١٦٣.
- ١٤٧ . المصدر السابق: ص ١٦٢.
- ١٤٨ . المصدر السابق: ص ١٥٣.
- ١٤٩ . المصدر السابق.
- ١٥٠ . المصدر السابق.
- ١٥١ . المصدر السابق: ص ١٥٤.
- ١٥٢ . المصدر السابق: ص ٢٢٣.
- ١٥٣ . المصدر السابق.
- ١٥٤ . المصدر السابق.
- ١٥٥ . المصدر السابق: ص ٢٢٤.
- ١٥٦ . المصدر السابق.
- ١٥٧ . المصدر السابق.

الفصل الثالث: الحرية في الإسلام

الحرية في الإسلام حق قبل كل شيء

الحرية في الإسلام حق قبل كل شيء

حديث الحرية في الإسلام، حديث طويل يحتاج إلى مجلدات من الكتب لبحث مختلف الحريات الممنوحة من قبل الإسلام.

والذي يظهر للمتتبع أن الحريات الممنوحة في الإسلام مائة في المائة، بينما الحريات الممنوحة في العالم المسمى (بالعالم الحر) عشرة في المائة أو أقل منه.

حدود الحرية

فقد أعطى الإسلام للإنسان حرية الفكر، وحرية القول، وحرية العمل، لكن في الإطار المعقول الصحيح . (من عدم الإضرار بالآخرين وعدم الإضرار البالغ بالنفس) . حتى أن الأكل والشرب المضرين ضرراً بالغاً لا يجوز لأنهما إضرار بالنفس، والسبب بالقول، والضرب ونحوهما غير جائزة لأنها إضرار بالآخرين، والاستفادة من مواهب الحياة أكثر من القدر الصحيح لا يجوز، لأنه إضرار بالأجيال القادمة.

وقد حدد رسول الله (صلى الله عليه وآله) كل فكر وقول وعمل بعدم الضرر، وقال (صلى الله عليه وآله): (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) (١) في قصة سمرة.

ففي حديث زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن سمرة بن جندب كان له عذقا في حائط لرجل من الأنصار، وكان منزل الأنصاري في وسط البستان، فكان يمر به إلى نخلته ولا يستأذن، فكلمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبي سمرة، فلما أبا جاء الأنصاري إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فشكاه إليه وأخبره بالخبر، فأشار إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخبره بقول الأنصاري وشكايته، وقال: إذا أردت الدخول فاستأذن، فأبي، فسأومه الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى بلغ به من الثمن ما شاء الله فأبي أن يبيع. فقال (صلى الله عليه وآله): (لك بها عذق نمد لك في الجنة) فأبي أن يقبل، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) للأنصاري: (اذهب فاقلعها وارم بها إليه، فإنه لا ضرر ولا ضرار) (٢).

وفي رواية أخرى، عن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) نحوه، إلا أنه قال: فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إنك رجل مضار، ولا ضرر ولا ضرار على مؤمن) قال: ثم أمر بها فقلعت ورمى بها إليه، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): (انطلق فاغرسها حيث شئت) (٣).

نصوص حول الحرية

وكيف كان، فحديث الحرية في القرآن الكريم، وفي الأحاديث، وفي الفقه الإسلامي متواتر بل وفوق التواتر.

قال سبحانه: (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (الغاشية: ٢١ - ٢٢).

وقال تعالى: (وما أنت عليهم بجبار) (ق: ٤٥).

وقال عزّ من قائل: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (الأعراف: ١٥٧).

وفي آية أخرى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة: ٢٥٦).

وفي آية خامسة، قال سبحانه: (لكم دينكم ولي دين) (الكافرون: ٦).

وفي حديث عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً) (٤).

وفي الشعر المعروف لسيد الشهداء العظيم في كربلاء:

آيت لا أقتل إلا حراً*** وإن رأيت الموت شيئاً نكراً

وقال الإمام الحسين (عليه السلام) للحر بن يزيد الرياحي: (أنت الحر كما سمتك أمك، وأنت الحر في الدنيا في

الآخرة) (٥).

بل إن الإسلام إذا رأى الإنسان لا يقبل الحرية المطلقة في الآخرة يطلب منه أن يكون حراً في الدنيا، فقال قال

الإمام الحسين (عليه السلام) لمن جاء لمحاربتة: (إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في

دنياكم) (٦).

وقال عبد الله بن سنان، سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول:

(الناس كلهم أحرار إلا من أقر على نفسه بالعبودية، وهو مدرك من عبد أو أمة، ومن شهد عليه بالرق صغيراً

كان أو كبيراً) (٧).

وفي حديث عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قضى علي (عليه السلام): (الناس كلهم أحرار إلا من أقر على

نفسه بالملك وهو بالغ، أو من قامت عليه البيعة) إلى آخر الحديث (٨).

الحرية للأديان الأخرى

وفي روايات متواترة نرى إلزام الإسلام كل أهل ذي دين بما يلتزمون به، حيث يقتر لهم الحرية في دينهم، مثلما ورد

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن الأحكام؟ قال: (تجوز على أهل كل ذي دين

بما يستحلون) (٩).

وفي رواية أخرى، عن أبي الحسن (عليه السلام) أنه قال: (ألزموهم بما التزموا به) (١٠).

وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (كل قوم دانوا بشيء يلزمهم حكمهم) (١١).

ولذا نرى أن الإسلام لا يتعرض للمجوسي ونحوه إن نكح أمه وأخته حيث إن ذلك جائز في دينه. وإن كان دينه

في الواقع مزيفاً. لأن الإسلام لا يريد الإكراه، للقاعدة المعروفة: (القسر لا يدوم) وإنما يريد إعطاء الحرية لكل

إنسان فيما يعمل حسب معتقده، وإنما يناقشه بالمنطق، ولذا قال سبحانه: (ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل: ١٢٥).

وفي روايات متعددة، (لا تسبوا أهل الشرك فإن لكل قوم نكاحاً).

فقد روى الكليني (رحمه الله)، عن أبي عمير، عن عبد الله بن سنان، قال: (قذف رجل مجوسياً عند أبي عبد الله) فقال له الصادق (عليه السلام): (مه) فقال الرجل: (إنه ينكح أمه وأخته)، فقال: (ذاك عندهم نكاح في دينهم)(١٢).

وفي رواية الغوالي: (أن رجلاً سب مجوسياً بحضرة الصادق (عليه السلام)، فزيره ونهاه) فقال له: (إنه تزوج بأمه) فقال (عليه السلام): (أما علمت أن ذلك عندهم النكاح؟)(١٣).

وفي رواية أخرى، عن الصادق (عليه السلام)، أنه قال: (لا ينبغي ولا يصلح للمسلم أن يقذف يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً بما لم يطلع عليه منه) وقال: (أيسر ما في هذا أن يكون كاذباً)(١٤).

وفي رواية أخرى، عن الصادق (عليه السلام)، أنه قال لبعض أصحابه: (ما فعل غريمك!) قال: (ذاك ابن الفاعلة، فظنر إليه أبو عبدالله (عليه السلام) نظراً شديداً، قال: فقلت: (جعلت فداك إنه مجوسي نكح أخته)، قال: (أوليس ذلك من دينهم النكاحاً)(١٥).

لا إكراه على الاعتراف

ونرى في القانون الإسلامي: أن الحاكم لا يحق له إكراه أحد على الاعتراف، بل حتى على التكلم.

فقد روى ابن شهر اشوب في المناقب: (إن عمير بن وائل الثقفي أمره حنظلة بن أبي سفيان أن يدعي على علي (عليه السلام) ثمانين مثقالاً من الذهب وديعة عند محمد (صلى الله عليه وآله)، وأنه (صلى الله عليه وآله) هاجر من مكة، وإنك وكيله، فإن طلب بينة الشهود فنحن معشر قريش نشهد إليه وأعطوه على ذلك مائة مثقال من الذهب، منها فلادة عشرة مثاقيل لهند، فجاء وادعى على علي (عليه السلام) فاعتبر (عليه السلام) الودائع كلها ورأى عليها أسامي أصحابها، ولم يكن لما ذكره عمير خبر فنصح له نصحاً كثيراً، فقال: (إن لي من يشهد بذلك وهو أبو جهل وعكرمة وعقبة بن أبي معيط وأبو سفيان وحنظلة)، فقال (عليه السلام): (مكيدة تعود علي من دبرها، ثم أمر الشهود أن يقعدوا في الكعبة، ثم قال لعمير: يا أبا ثقيف أخبرني الآن حين دفعت وديعتك هذه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أي الأوقات كان؟)(١٦).

قال: ضحوة نهار فأخذها بيده ودفعها إلى عبده.

ثم استدعى علي (عليه السلام) أبا جهل فسأله عن ذلك؟ قال: ما يلزمني ذلك!

ثم استدعى أبا سفيان وسأله فقال: دفعها عند غروب الشمس وأخذها من يده وتركها في كفه.

ثم استدعى حنظلة وسأله عن ذلك؟ فقال: كانت وقت وقوف الشمس في كبد السماء وتركها بين يديه إلى وقت انصرافه.

ثم استدعى عقبة، فسأله عن ذلك؟ فقال: تسلمها بيده، وأنفذها في الحال إلى داره وكان وقت العصر.

ثم استدعى عكرمة وسأله عن ذلك؟ فقال: كان عند بزوغ الشمس أخذها فأنفذها من ساعته إلى بيت فاطمة (عليها السلام).

ثم أقبل (عليه السلام) على عمير، وقال له: أراك قد أصفر لونك وتغيرت أحوالك(١٧)!

قال عمير: أقول الحق ولا يفلح غادر، وبيت الله ما كان لي عند محمد (صلى الله عليه وآله) ودبعة، وانهما حملاني على ذلك، وهذه دنانير وعقد هند عليها اسمها مكتوب) إلى آخر الخبر.

فإننا نرى في هذا الخبر أن الإمام (عليه السلام) لما سأل أبا جهل عن الخصوصية، وقال أبو جهل: (ما يلزمني ذلك) لم يجبره الإمام (عليه السلام) على شيء.

شمولية الحرية

فالحرية. إذًا. عامة لجميع الناس حتى الكفار، في مختلف أنواع الحقوق.

منها: الحرية الفكرية. أي حرية البحث والمناقشة في البحوث العلمية والبحوث الدينية..

ومنها الحرية الاقتصادية. أي حرية الاكتساب بجميع أنحائها..

ومنها الحرية الدينية. أي التسامح نحو الأديان الأخرى..

تعيين الحاكم بانتخاب الأمة

ومنها: الحرية السياسية التي تتناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وإن الحاكم يجب أن يكون باختيار الأمة وممن يتوفر فيه رضى الله سبحانه وتعالى وسائر الشروط الإسلامية. وهي كلها شروط يؤكد عليها العقل كأن يكون عالماً بالغاً عادلاً. إلى غير ذلك مما ذكره الفقهاء في أول مباحث التقليد..

وقد ذكرنا جملة من الروايات المرتبطة باختيار الحاكم في كتاب: (الحكم في الإسلام) وفي غيره من بعض كتبنا الإسلامية.

ونكتفي هنا بذكر رواية واحدة رواها سليم بن قيس الهلالي في (كتابه) عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتل ضالاً كان أو مهدياً، أن لا يعملوا عملاً ولا يقدموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة يجي فيهم ويقيم حجهم وجمعهم ويجي صدقاتهم)(١٨) إلى آخر الخبر.

كلمة التوحيد رمز الحرية

وإن من تأمل في كلمة (لا إله إلا الله). التي ذكرت في القرآن والسنة ألوف المرات والتي يرددتها المسلمون في شعائرهم في وقت الصلاة وغيرها. يجد في هذه الكلمة رمز الحرية وجوهرها، فقد كان (كسرى) يعتبر إلهاً من سلالة الآلهة، فكان يقضي بالموث أو يهب الحياة، كما كان (قيصر الرومان) إلهاً، ومخالفته مخالفة لأوامر الله وقد ذكر المسيحيون في كتبهم المقدسة: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فالدين لله والحياة لقيصر والقساوسة في أوربا وغيرها وكانوا يعتبرون أنفسهم الواسطة بين الله وبين الناس ويدعون أن بيدهم صكوك الجنة من شاءوا أدخلوه فيها، ومن شاءوا أخرجوه منها وأدخلوه النار.

وكذلك كان الحال عند البوذيين في الهند، وفي الصين وعند غيرهم، وقد قال بنو إسرائيل لموسى (عليه السلام): (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) (الأعراف: ١٣٨).

وحتى الحجارة كانت إلهاً عند كثير من العرب وغير العرب، ولها خدامها وكذلك كان للتقاليد الباطلة والخرافات سلطة ونفوذ على الإنسان، بل نجد في هذا اليوم ملايين الأصنام في الهند والصين واليابان ونجد في بلاد الشيوعيين أصناماً بشرية كثيرة أمثال لينين وماركس ومن أشبههم، وقد كانت الإنسانية قبل بزوغ الإسلام . كما هو الإنسان المعاصر . تزرع في كثير من البلاد تحت ألف قيدٍ وقيدٍ وشرطٍ وشرطٍ وعبوديةٍ وعبودية، لكن عندما أعلن الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله) شعاره: (لا إله إلا الله).

فجر الثورة على كل هذه القيود، وأعلن أنه لا سيد إلا سيد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ويجب أن لا يطاع إلا هو وحده، وعلى المرء أن يقيم صلة مباشرة بينه وبين الله.

أما الأنبياء والأئمة عليهم السلام فهم سفراء الوحي الذين ينقلون أوامر الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان. ونحن نجد في كتاب لبعض المؤلفين الغربيين المترجم إلى العربية بإسم (تراث فارس) أنه كان الملك عند الإيرانيين القدماء أقرب في اعتقادهم للإله، وكانوا حين يتحدثون إليه لا يذكرون اسمه بل يقولون (أنتم الآلهة). وقد كانت ديانة المجوسية تضيء على الملك تلك القدسية، فأوامره مقدسة وسلالته فوق البشر وحكمه هو حكم الله.

وكذلك نجد هذه الظاهرة عند سائر الحكام قبل الإسلام، بل كانوا يعبرون عن الملك (بالرب)، وحين أرسل كسرى شخصين إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليقتلاه ويذهبا برأسه المبارك إلى كسرى وجدهما الرسول قد حلقا لحيتيهما وفتلا شاربيهما فقال (صلى الله عليه وآله) لهما: من أمركما بهذا؟ قالوا: (ربنا) . يعنيان كسرى . فقال الرسول (صلى الله عليه وآله) لهما: (لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي) (١٩).

فنجد في هذا الحديث وفي غيره التعبير عن الملك ب(الرب) مجازة لهما.

بل نجد في القرآن الحكيم أن اليهود والنصارى كانوا يتخذون أنبياءهم أبناءً لله، وأحياناً شركاء لله، وإنهم كانوا يقولون بالنسبة إلى الأحرار والرهبان مثل تلك المقالة.

قال سبحانه: (وقالت اليهود عذير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُظاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون يريدون أن يُطْفِئُوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (التوبة: ٣٠ . ٣٣).

وكذلك في آيات أخر.

مئة نموذج للحريات الإسلامية

أما في الإسلام فالإله واحد ولا قيود ولا كبت والحريات متوفرة وللإلماع نذكر جملة منها هنا:

فمن الحريات الإسلامية:

- ١ . حرية العبادة في أي مكان، صلاةً وصوماً وطهارةً وذكرًا لله، وقراءة القرآن، ودعاءً لله. أما الصلاة ففيها الحرية المطلقة، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله): (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) (٢٠).
- ٢ . والحرية في البيع.
- ٣ . والحرية في الشراء.
- ٤ . والحرية في الرهن.
- ٥ . والحرية في الضمان.
- ٦ . والحرية في اختراع أي عقد جديد لم يمنع عنه الشارع.
- ٧ . والحرية في الكفالة.
- ٨ . والحرية في الصلح.
- ٩ . والحرية في التأمين.
- ١٠ . والحرية في الشركة.
- ١١ . والحرية في المضاربة.
- ١٢ . والحرية في المزارعة.
- ١٣ . والحرية في المساقاة.
- ١٤ . والحرية في حيازة الأرض.
- ١٥ . والحرية في حيازة المباحة.
- ١٦ . والحرية في الوديعة.
- ١٧ . والحرية في العارية.
- ١٨ . والحرية في الإجارة.
- ١٩ . والحرية في الوكالة.
- ٢٠ . والحرية في الوقف.
- ٢١ . والحرية في الصدقة.
- ٢٢ . والحرية في العطية.
- ٢٣ . والحرية في الهبة.
- ٢٤ . والحرية في السكنى.
- ٢٥ . والحرية في العمران.
- ٢٦ . والحرية في السبق.
- ٢٧ . والحرية في الرماية.
- ٢٨ . والحرية في الوصية.

- ٢٩ . والحرية في النكاح للرجل وللمرأة دوماً وانقطاعاً.
- ٣٠ . والحرية في الطلاق.
- ٣١ . والحرية في الخلع.
- ٣٢ . والحرية في الرضاع.
- ٣٣ . والحرية في السفر.
- ٣٤ . والحرية في الإقامة.
- ٣٥ . والحرية في فتح المحل.
- ٣٦ . والحرية في الإقرار.
- ٣٧ . والحرية في الجعالة.
- ٣٨ . والحرية في الطباعة.
- ٣٩ . والحرية في قدر المهر وسائر الخصوصيات المرتبطة بالنكاح.
- ٤٠ . والحرية في امتهان أية مهنة شاءها الإنسان.
- ٤١ . والحرية في الثقافة بأن يطلب العلم النافع له وللبشر وللحيوان والنبات وغير ذلك فينتهي إلى أن يكون طبيباً أو مهندساً أو محامياً أو خبير سياسة، أو اقتصاد أو غير ذلك، أو أن يكون فقيهاً أو خطيباً أو مؤلفاً أو نحو ذلك.
- ٤٢ . الحرية في العهد.
- ٤٣ . الحرية في اليمين.
- ٤٤ . الحرية في النذر.
- ٤٥ . الحرية في تناول الأطعمة المحللة بأي كيفية شاء.
- ٤٦ . الحرية في إحياء الأموات.
- ٤٧ . الحرية في الأخذ بالشفعة.
- ٤٨ . الحرية في الإرث بأن يكون الإرث للورثة على ما بيّنه الرسول (صلى الله عليه وآله) (حسب الموازين الإسلامية) فقد قال: (من ترك ديناً أو ضياعاً فعليّ، ومن ترك مالا فلورثته) (٢١).
- والمراد بالضياع العائلة التي لا كفيل لها، بينما القوانين الوضعية تجعل جملة من الإرث . قد تصل أحياناً إلى تسعين في المائة . من نصيب الحكومة (كما هو معروف).
- ٤٩ . الحرية في المراجعة إلى أي قاض شرعي.
- ٥٠ . الحرية في الشهادة والاستشهاد.
- ٥١ . الحرية في اختيار الدية، أو القصاص، أو العفو في الموارد الخاصة.
- ٥٢ . الحرية في الزراعة.

- ٥٣ . الحرية في الصناعة.
- ٥٤ . الحرية في العمارة.
- ٥٥ . الحرية في كون الإنسان بدون جنسية ولا هوية ولا ما أشبهه من الرسوم المتعارفة الآن.
- ٥٦ . الحرية في إصدار الجريدة.
- ٥٧ . الحرية في إصدار المجلة.
- ٥٨ . الحرية في امتلاك محطة الإذاعة.
- ٥٩ . الحرية في امتلاك محطة التلفزيون للبيث.
- ٦٠ . الحرية في العمل.
- ٦١ . الحرية في إبداء الرأي.
- ٦٢ . الحرية في التجمع.
- ٦٣ . الحرية في تكوين النقابة.
- ٦٤ . الحرية في إنشاء الجمعيات.
- ٦٥ . الحرية في إنشاء المنظمة.
- ٦٦ . الحرية في إنشاء الحزب.
- ٦٧ . الحرية في الانتخاب.
- ٦٨ . الحرية في الإمارة.
- ٦٩ . الحرية في الولاية.
- ٧٠ . الحرية في السفارة.
- ٧١ . الحرية في انتخاب أية وظيفة من وظائف الدولة.
- ٧٢ . الحرية من جهة عدم جواز رقابة الحكومة على الناس بأجهزة الإنصات والتليفون أو ما أشبهه من أساليب المباحث والبوليس السري.
- ٧٣ . الحرية في إنجاب أي عدد من الأولاد.
- ٧٤ . والحرية في عدد الزوجات إلى أربع على نحو الدوام، أو أكثر على نحو الانقطاع.
- ٧٥ . والحرية في العقيدة: قال سبحانه: (لا إكراه في الدين) (البقرة: ٢٥٦).
- ٧٦ . والحرية في كيفية الأكل والشرب واللباس وما أشبهه.
- ٧٧ . والحرية في الذهاب والرجوع من البيت والى البيت ليلاً أو نهاراً في قبال أن بعض البلاد كموسكو ونحوها من بلاد الشيوعيين لا حرية للإنسان فيها أن يسافر إلا بمقدار خاص، وكذلك لا حرية في أيام منع التحول في سائر البلاد.
- ٧٨ . والحرية في بناء المساجد.

- ٧٩ . والحرية في بناء المدارس .
- ٨٠ . والحرية في بناء الحسينيات .
- ٨١ . والحرية في بناء المستشفيات .
- ٨٢ . والحرية في بناء المستوصفات .
- ٨٣ . والحرية في بناء دور النشر .
- ٨٤ . والحرية في بناء دور الثقافة .
- ٨٥ . والحرية في بناء الخانات والفنادق .
- ٨٦ . والحرية في بناء دور الولادة .
- ٨٧ . والحرية في بناء دور العجزة .
- ٨٨ . والحرية في فتح البنوك .
- ٨٩ . والحرية في الدخول في اتحاد الطلبة .
- ٩٠ . كما أن للإنسان الحرية في الخروج من أية مؤسسة أو وظيفة أو ما أشبهه إلا إذا ربط نفسه بشرط ونحوه .
- ٩١ . الحرية في اختيار نوع أثاث الدكان والمنزل وما أشبهه .
- ٩٢ . الحرية في انتقاء أي نوع من أنواع السيارات ونحوها .
- ٩٣ . والحرية في كيفية المعاملة .
- ٩٤ . والحرية في الاقتراض والاقتراض .
- ٩٥ . والحرية في إعطاء التولية في الوقف ونحوه لأي أحد .
- ٩٦ . والحرية في جعل الإسم لأي شخص، أو لأي محل مرتبط به، فلا يرتبط جعل الإسم بإجازة الدولة كما هو المتعارف في كثير من البلاد الآن .
- ٩٧ . الحرية في فتح حقول الدواجن .
- ٩٨ . والحرية في تقليد أي مرجع شاء جامع للشرائط .
- ٩٩ . والحرية في انتخاب أي خطيب أراد .
- ١٠٠ . والحرية في تسجيل العقد ونحوه عند أي عالم في مقابل عدم الحرية في ذلك بالنسبة إلى غالب الدول حيث يقيدون الإنسان بتسجيل عقده ونحوه عند دائرة خاصة .
- إلى غيرها من الحريات الكثيرة الموجودة في الإسلام .

١ . وسائل الشيعة: ج ١٧، ص ٣٧٦ .

٢ . المصدر السابق: ص ٣٤١ .

٣ . المصدر السابق .

- ٤ . نهج البلاغة، محمد عبدة: ج ٣، ص ٥١.
- ٥ . بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١٤.
- ٦ . المصدر السابق: ص ٥١.
- ٧ . وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٣٣.
- ٨ . مستدرك الوسائل: ج ١٧، ص ٣٧٢.
- ٩ . وسائل الشيعة: ج ١٧، ص ٥٩٨.
- ١٠ . المصدر السابق: ص ٤٨٥.
- ١١ . المصدر السابق: ص ٥٩٧.
- ١٢ . الكافي: ج ٥، ص ٥٧٤.
- ١٣ . وسائل الشيعة: ج ١٧، ص ٥٩٦.
- ١٤ . مستدرك الوسائل: ج ١٢، ص ٨٤.
- ١٥ . الكافي ج ٧، ص ٢٤٠.
- ١٦ . مستدرك الوسائل: ج ١٧، ص ٣٤٨.
- ١٧ . المصدر السابق: ص ٣٨٥.
- ١٨ . المصدر السابق: ج ٦، ص ١٤.
- ١٩ . المصدر السابق: ج ١، ص ٤٠٧.
- ٢٠ . وسائل الشيعة: ج ٣، ص ٥٩٣.
- ٢١ . الكافي: ج ١، ص ٤٠٦.

مقارنة بين القانون الإسلامي والقوانين الوضعية

تقييد الإنسان في القوانين الوضعية

في قبال هذه الحريات نرى الكبت في القوانين الوضعية في بلاد العالم التي تسمى ببلاد العالم الحر، وفي بلاد الإسلام وبقية العالم الثالث.

أما في بلاد الشيوعية فليس للحرية عين ولا أثر، وقد ذكرنا: إن الحريات الموجودة فيما يسمى بالعالم الحر لا تكون إلا بقدر العشر أو أقل من العشر من الحريات الممنوحة في الإسلام، فلا حرية عندهم في الإجارة والعمارة والصناعة والزراعة والتجارة وحياسة المباحات، ولا حرية للإنسان حيث يقيد بالجواز والهوية والجنسية ونحوها، كما يقيد بتأشيرة الدخول والخروج، وكذلك الجمرك والضرائب وقيود دفن الميت وقيود تسجيل الأملاك والزواج، وأيضا تكبت الحريات بسبب أجهزة التجسس، كما أنه لا حرية في فتح المحلات إلا مع إجازات خاصة مسموح بها في ما يسمى بالقانون، وكذلك لا حرية بالنسبة إلى إنشاء المعامل إلا بقيود خاصة، إلى غير ذلك من ألوف القوانين الكابتة لمعاملات الناس من رهن ومضاربة وزراعة وغيرها.

سبق الإسلام وامتياز

الحريات والحقوق الإنسانية الموجودة حالياً في القوانين الوضعية . بالإضافة إلى أنها مقتبسة من الإسلام . حيث لم يكن لهذه الحريات اثر في العالم الغربي والعالم غير الغربي قبل الإسلام، كما يعرف ذلك من يراجع التاريخ إنما هي اقل من الحرية الموجودة في الإسلام.

ويمكن أن يقارن بين الإسلام والقوانين الوضعية ليظهر سبق الإسلام وامتياز.

١ . لا جنسية خاصة للحاكم:

القوانين تنص . على الأغلب . على تجنس رئيس الدولة وأبويه بجنسية تلك الدولة بينما هذا الشرط شرط فاسد في نفسه ولم يذكره الإسلام في قانونه.

أما إنه فاسد في نفسه فلأن المهم الكفاءة لا اللغة واللون والجنسية وما أشبه . فضلاً عن ملاحظة جنسية الأبوين . فإن الإسلام جعل الميزان هو التقوى . بالإضافة إلى الشروط المقررة في الشريعة الإسلامية من العلم ونحوه . فقد قال سبحانه وتعالى: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).

ومن الواضح إن هذا هو الميزان الصحيح العقلي ولذا نجد في زعماء الإسلام (سواء المدراء والرؤساء والعلماء وغيرهم) مختلف الجنسيات واللغات وما أشبه، فرمما كان المرجع عراقياً وربما كان إيرانياً وربما كان من جنسية أخرى. كما أن حكام الدولة الإسلامية كانوا من مختلف الجنسيات كالعربي والفارسي والكردي وغيرهم، وإننا لا نريد أن نقول: إن الملوك والرؤساء الذين حكموا البلاد الإسلامية كانوا جميعاً على حق، وإنما نقول: إن الإسلام لم يشترط هذا الشرط وكون الحاكم ذا جنسية خاصة، ولذا لم يكن المسلمون يريدون من حكامهم سوى أن

يكونوا عدولاً يعملون طبق أوامر الله سبحانه وتعالى، فإن الإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية المصطنعة، والحواجر النفسية والتفرقات العنصرية، وإنما المسلمون أمة واحدة وكلهم أخوة.

قال سبحانه: (إنما المؤمنون أخوة) (الحجرات: ١٠)

وقال تعالى: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (الأنبياء: ٩٢)

ومن هنا قال الشاعر:

وكل أرض بها الإسلام لي وطن وحيث يذكر اسم الله تلقاني

٢. للشعب حق انتخاب الحاكم:

نجد في القوانين الوضعية نصاً على حق الشعب في انتخاب الحاكم أو رئيس الدولة، وهذا ما قرره الإسلام من قبل، حيث قرر انتخاب الحاكم كما ذكرنا تفصيله في الكتب الإسلامية ولكن هذا (الانتخاب) في القوانين الوضعية تقابله (البيعة) في الدساتير الإسلامية.

ومن الواضح الفرق بين الكلمتين (الانتخاب) معناه الموافقة على رئاسة الحاكم، أما (البيعة) فمعناها أن يبيع الإنسان نفسه لله سبحانه وتعالى ويوافق على رئاسة الرئيس مع التعهد له بمعاونته على الحق وبرده عن الباطل وبالجهاد في سبيل الله.

يقول القرآن الكريم: (إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) (الفتح: ١٠)

ويقول سبحانه: (إذا جاءك المؤمنات يباعدنك على أن لا يشركن بالله) (الممتحنة: ١٢)

٣. ضرورة الاشتراك في الانتخابات:

نجد في القوانين الحديثة نصاً بضرورة اشتراك المواطن في الانتخابات الرئاسية ونحوها. وقد سبق الإسلام إلى ذلك حيث ورد في الحديث الشريف: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) (١).

بل قد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) (٢). ومن الواضح إن القوانين الحديثة لم تشترط في انتخابات الرئاسة شروطاً وهي في غاية الأهمية بالنسبة إلى الرئيس، كالعدالة ونحوها، بينما نجد هذا الشرط الهام والمصيري موجوداً في القوانين الإسلامية، فقد قال (عليه السلام): (من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه).

وربما يكون وجه ذكر هذه الشروط في هذا الحديث أن عمل كل من الجوانح والجوارح إما سلبى أو إيجابى فالأقسام أربعة: فإن (صائناً لنفسه) سلب عملي، و(حافظاً لدينه) إيجاب قلبي، و(مخالفاً لهواه) سلب قلبي، و(مطيعاً لأمر مولاه) إيجاب عملي (وإن كان يمكن أن يقال في هذه الأمور الأربعة غير ذلك أيضاً).

٤. حق التصويت للمرأة والطفل:

في كثير من بلدان العالم الى اليوم نص يحرم على المرأة المشاركة في الانتخابات العامة، بينما قد تقدم أن الإسلام جعل الحق لمن في البيعة في الآية المتقدمة.

بل نجد أنه يحق لأولياء الأطفال المشاركة في البيعة نيابة عن أولادهم، لأن الحاكم يتصرف في شؤونهم أيضاً. فمثلاً: الأب الذي له أولاد أربعة له خمسة أصوات: صوت لنفسه وأربعة أصوات للمولود عليهم، فإذا شاء الأولياء كان لهم الحق في ذلك، بينما لا يوجد حق كهذا للآباء في القوانين الحاضرة، وكذلك قرر الإسلام عدم جواز الاقتراب من أموال الأطفال إلا بالتي هي أحسن، كما قال سبحانه: (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) (الإسراء: ٣٤).

إلى غيره من نصوص متعددة.

فبشكل أولى لا يصح انتخاب حاكم الدولة (الذي يتصرف في شؤون الأطفال أيضاً، وفي كل المجالات المتعلقة بالطفل) إلا مع مراعاة مصلحة الطفل بالنحو الأحسن وذلك لا يتم إلا بأن يكون للأطفال أيضاً حق التصويت ويعطى هذا الحق للأب باعتباره ولياً عليهم.

٥ . الرقابة على الحكام:

نجد في القوانين الوضعية (حق محاسبة الحكام والمسؤولين عن تصرفاتهم) فللناس الحق في إعلان الرأي المعارض بالكلام أو الكتابة أو ما أشبهه.

وفي الإسلام نجد أفضل من هذا، فللشعب حق محاسبة الحاكم وهي قرينة ولها أجر وتسمى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال سبحانه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (آل عمران: ١١٠).
وقال تعالى: (وأتمروا بينكم بمعروفٍ) (الطلاق: ٦).

وفي الحديث: (إن الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين) (٣).

والنصيحة معناها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعطاء المشورة والتقويم وغير ذلك.

ومن الواضح، إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة أوسع وأكثر عمقاً، فليس الأمر مجرد محاسبة عابرة، بل محاسبة يسأل عنها إنسان أمام الله وأمام الشعب وأمام الأجيال.

قال سبحانه: (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم لعلمهم يتقون) (الأعراف: ١٦٤).

وقال في آية أخرى: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون).

بل فوق ذلك نجد أن الإسلام يرى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلزم أن يكون هو عاملاً بالمعروف وتاركاً للمنكر، وإلا كان مستحقاً للوم والعقاب، ففي الآية الكريمة: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (الصف: ٢ - ٣).

وقال علي (عليه السلام): (لعن الله الأمرين بالمعروف التاركين له، الناهين عن المنكر العاملين به) (٤).

والوجه واضح، فإن الأمر إذا لم يأت، والناهي إذا لم ينزجر سبب ذلك السخرية بالدين، بالإضافة إلى عدم الائتمار والانتهاؤ.

٦ . حق عزل الحاكم:

في جملة من القوانين العالمية نجد حق الشعب في إسقاط الحاكم أو الحكومة، وقد سبق الإسلام القوانين في ذلك بل جعله واجباً شرعياً، فإذا لم يعمل الحاكم بالقوانين الإسلامية أو سقط من الصلاحية وجب إسقاطه وعزله. وقد ورد الحديث الشهير الذي ذكره المحقق الحلي . قدس سره . في المعتبر: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)(٥).

ومن كتاب رسول الله إلى أهل البحرين عندما ولى عليهم (العلاء بن الحضرمي) . على ما ذكر في بعض التواريخ . أنه (صلى الله عليه وآله) كتب: (وأنا أشهد الله تعالى على من وليته شيئاً قليلاً أو كثيراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أنه لا طاعة له وهو خليع مما وليته، وقد برئت ذمم المسلمين معه من المسلمين). إلى غير ذلك من الأحاديث العامة والخاصة بهذا الصدد.

٧ . وأمرهم شورى بينهم:

جعل الإسلام في موازينه السياسية (الشورى) حين لم تكن ديمقراطية في أي بلدان العالم، حيث قال سبحانه: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: ٣٨)

فما دام النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام المعصوم (عليه السلام) موجوداً فلا حق لأحد في رده . لأنه منصوب من قبل الله سبحانه . كما لا حق لأحد في رد الأحكام الإسلامية كالصلاة والصيام وغير ذلك . وأما في عصر الغيبة . كعصرنا هذا . فإن الحكم يكون بالقيادة المرجعية الجماعية المنتخبة من قبل المسلمين، وقد ذكرنا في جملة من كتبنا: أن (الفقهاء المراجع العدول) هم أعلى قيادة في البلاد الإسلامية، حيث ينتخبهم الناس، فإذا كان في البلاد الإسلامية مثلاً عشرة مراجع للتقليد بأن انتخبهم الناس مراجع لهم، حسب قول الإمام (عليه السلام): (فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا)(٦).

وقول الرسول (صلى الله عليه وآله) . قبل ذلك :: (اللهم ارحم خلفائي)(٧).

فكل هؤلاء قادة للأمة في أمور التقليد، فكل مقلد يرجع إلى مرجعه في الصلاة والصيام والحج ونحو ذلك أما في مصالح المسلمين العامة . كالصلح والسلم وسائر شؤون الدولة . فعلى السلطة العليا في الدولة المكونة من المراجع أن يستشير بعضهم بعضاً كما يستشيرون الأمة (على حسب تفصيل معروف).

وقد جعل علي (عليه السلام) للمسلمين حق المشورة عليه بأن يعطوه الرأي كما قال الله سبحانه وتعالى: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) (آل عمران: ١٥٩).

فإن كانت الآراء مختلفة بين أقلية وأكثرية، فالأكثرية هي المتبعة وذلك حاكم على دليل (التقليد) حسب موازين الحكومة المذكورة في أصول الفقه.

وإذا لم تكن هناك أقلية وأكثرية بأن تساوى العدان . مثلاً . كانوا عشرة قد استقر رأي خمسة منهم على الحرب واستقر رأي خمسة منهم على السلم فمقتضى القاعدة (القرعة) لأنها لكل أمر مشكل حسب ما ورد في روايات عديدة.

ثم اللازم اتباع الأكثرية . فيما لو حدثت هناك أقلية وأكثرية . فليس لأحد من السلطة العليا أو الأمة عدم اتباع الأكثرية، فإن الاستشارة ليست لأجل تطيب خاطر فقط ثم يمشي كل في طريقه وإلا كانت الدكتاتورية بعينها . ولا يخفى أن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في هذا القرن: استبداد الحكام، فأنتون يأتون إلى الحكم إما بالوراثة، أو بالإنقلاب العسكري، أو يأتون بالثورات الشعبية، لكنهم يستبدون بالأمر بعد ذلك، ويحكّمون الدكتاتورية، ويقتلون المعارضين ويسجنونهم في السجون ويعذبونهم ويصادرون أموالهم، إلى غير ذلك مما هو مشاهد في بلاد الإسلام.

بينما نرى نجاح الإسلام سابقاً معتمداً على الاستشارية، حتى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) . على عظمته . كان يستشير وأخذ برأي أصحابه في قصص معروفة .

والاستشارة هي إحدى موازين الحاكم الصالح بأن يستشير في كل شيء، وفي التاريخ أنه نادى أحد الحكام المسلمين فقهاء عصر وطلب منهم الدعاء إلى الله لينصر جيشه على الأعداء، فلما هُزم الجيش اخذ يعاتبهم قائلاً: إنكم غير صالحين وإلا لما رد الله دعاءكم خائباً!! فقال له أحدهم: ليس العيب فينا نحن وحدنا ولكنه فيك أنت أيضاً!! فدهش الحاكم وقال له: لم؟

قال العالم: لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليوشك أن يسلط الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم).

فأنت نشرت الفساد والظلم ونحن قصرنا في إعطاء الرأي وهذه الهزيمة هي غضب الله علينا أجمعين . وفي أثناء الفتح الإسلامي لأرض فارس طلب قائد جيش الفرس أن يلتقي بالقائد المسلم قبل المعركة ليتفاوض معه في قن الدماء، وبعد أن عرض الفارسي مقالته قال المسلم: أمهلني حتى استشير القوم، فدهش القائد الفارسي وقال: ألسنت أمير الجند؟ قال: نعم.

قال الفارسي: لكننا لا نؤمر علينا من يشاور.

فقال له المسلم: لهذا نحن نؤمركم دائماً، أما نحن فلا نؤمر علينا من لا يشاور.

وقضايا استشارات المسلمين موجودة في التاريخ بكثرة، ولو جمعت لكنت كتاباً ضخماً ولنقص هذه القصة بقصة الصهيونية العالمية، فقد قال (موشى دايان) في مذكراته عن (حرب ألف وتسعمائة وسبع وستين ميلادية): أنه كان يتعجب من أمر الجيوش العربية فبعض الوحدات كانت تقاتل بشراسة ورجولة حتى آخر رمق وآخر طلقة، وبعض الوحدات في نفس الجيش كانت تستسلم دون طلقة واحدة، ولم يعرف السر في ذلك، إلى أن استسلم أحد القادة العرب ومعه جنوده وجميع أسلحتهم فأخذ يسأله هل أخذت رأي زملائك الضباط والجنود قبل أن تأمرهم بالاستسلام لنا؟

فقال العربي في كبرياء: إننا لا نستشير من هم دوننا في الرتبة؟

فقال له: ولهذا السبب نحن نهزمكم دائماً.

ثم يستطرد موسى دايان قائلاً: إن الضابط اليهودي مهما علت رتبته يأكل مع جنوده، ويعيش بينهم كأحد منهم، ويحضر معهم دروس الدين ثم هو بعد ذلك دائم الاستشارة لهم والتفاهم معهم ولا يخفى عدم وجود هذه الحالة بهذه الصورة التي يصورها دايان في إسرائيل نعم ذلك موجود في الجملة وهو من أسرار تقدمهم. ولذا قال علي (عليه السلام): (والله الله في القرآن لا يسبقنكم بالعمل به غيركم)(٨).

فإن المراد ليس الصلاة والصيام والحج(٩) وإنما أنظمة الإسلام وقوانينه الموجبة لتقدم المسلمين في ميادين الحياة كالنظام والنظافة والاستشارة والانتخابات الحرة والحرية وما أشبهه، وقد تركها المسلمون جملةً وتفصيلاً إلا بعض بقع بيضاء يجدها الإنسان في حياة المسلمين، بينما غير المسلمين أخذوا بهذه الأمور فتقدموا على المسلمين. ثم إنه إذا فرض حدوث اختلاف بين السلطة العليا والأمة في أمرٍ كان، على الأمة أن يتخذوا منهج الله سبحانه وتعالى في اتباع السلطة العليا العادلة، حيث قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) (النساء: ٥٩)

ومن حسن الحظ أن الأحكام الشرعية واضحة للجميع، وهي إن لم تكن واضحة في بعض خصوصياتها إلا أنها واضحة في أصولها العامة وإذا انحرفت السلطة العليا عن موازين الإسلام. فرضاً. فاللازم على الأمة إصلاحها أو إسقاطها والوقوف بوجهها.

ففي حديث مروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (ألا إن رحا الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا لكم فاذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله)(١٠).

وفي أحاديث متعددة: (من قتل دون مظلمته فهو شهيد)(١١)، (وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر)(١٢).

وقد رأينا أن أبا ذر الغفاري وحجر بن عدي وغيرهما من أكابر أصحاب رسول الله وأصحاب علي وأصحاب الحسن والحسين وغيرهم من الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين قتلوا دون قول الحق، ومن وقوفهم الصامد تمكنوا من تغيير السلطة إلى الأقرب فالأقرب إلى الإسلام.

٨. المقياس: الإيمان والكفاءة:

سبق الإسلام كل الأنظمة في عدم التفرقة والتمييز بين الناس، فالصلاحية لإدارة الحكم والوصول إلى أعلى مراتب الدولة لكل من له الكفاءة والمؤهلات الشرعية مع اختيار أكثرية الأمة له فلا تمييز بين الناس إلا بقدر الكفاءة، والحاكم الذي ينتخب لا يهم أن يكون من أي لون من الألوان، وأية خصوصية من الخصوصيات.

فالإسلام ينفي تمايز الناس بالفقر والغنى، كما نشاهد ذلك في المجتمع الرأسمالي أو الإقطاعي، فلا يكون للأغنياء في الإسلام نفوذ خاص أو فرص أكثر بسبب أنهم أغنياء وأثرياء (لا بسبب الكفاءة) بل قال الله تعالى: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (الحشر: ٧).

فالرأسمالية بالمعنى الإسلامي المذكور في القرآن الحكيم: (فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) (البقرة: ٢٧٩).

صحيحة، أما الرأسمالية بالمعنى الغربي فهي غير صحيحة في الإسلام.

كما أن الإسلام ينفي التمايز الوراثي فكون هذا ابناً للحاكم لا يصحح كونه حاكماً، وكونه من أقرباء الحاكم لا يصحح كونه حاكماً، بل اللازم الانتخاب الحر كما ورد في الأخبار التي ذكرنا جملة منها في كتاب (الحكم في الإسلام).

وقد جاء القرآن الحكيم بهذا المبدأ صراحة في قصة إبراهيم (عليه السلام)، حيث قال: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) (البقرة: ١٢٤).
فإن إبراهيم (عليه السلام) طلب لذريته الإمامة، وأجابه الله على ذلك بالتنبيه على أن الإمامة لا تكون إلا بالكفاءة وأما الظالم مهما كان فإنه لا يصلح للإمامة سواء الإمامة من قبل الله تعالى بالنبوة والوصاية أو بالنيابة عنهما عليهما السلام.

وقد ذكر العلماء في الكتب الأصولية بكلا شقيها (أصول العقائد وأصول الفقه) تفصيلاً في هذه الآية المباركة، كما ذكرنا ذلك أيضاً في (كتاب الأصول).

وكذلك يرفض الإسلام التمايز الطبقي كالنبلاء وأصحاب الدم الأزرق (كما يعبرون بذلك) في القرآن الكريم: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).

بل كل هذه الأمور تعتبر من بديهيات الإسلام، فاللغة والجنس واللون والعشيرة والإقليم وما أشبه لا تسبب تمايز إنسان على إنسان في إدارة الحكم، كما لا تسبب هذه الأمور تمايز إنسان على إنسان في مرجعية التقليد أو القضاء أو الإمارة أو الشهادة أو إمامة الجماعة أو غير ذلك.

٩ . تكافؤ الفرص:

تنص القوانين العالمية على مبدأ (تكافؤ الفرص بين الناس) . كبنود من بنود الحرية العامة . ومؤدى هذا البند أن كل إنسان يمتلك القابلية الذاتية فله الحق في الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بدون تدخل المحسوبية والمنسوبية والقرابة وما أشبه.

وقد سبق الإسلام إلى ذلك، وطبقه المسلمون عملياً فنجد في المسلمين . الذين وصلوا إلى الحكم أو إلى العلم أو إلى الثروة أو إلى القوة . مختلف الجنسيات والقوميات والألوان واللغات وما أشبه.

وقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (من ولي من أمور الناس شيئاً ووئى عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله) (١٣).

١٠ . سيادة القانون:

إن مما يكفل الحرية في دساتير عالم اليوم هو (سيادة القانون) في علاقة السلطة بالشعب، وعلاقة الشعب بالسلطة، فالقانون هو السيّد، لا القدرة والمال والعشيرة وما أشبهه.

ومن الواضح أن منبع الدساتير الإسلامية: القرآن الحكيم، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والروايات الواردة عن الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وفي كل ذلك نجد لزوم سيادة القانون: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (المائدة: ٤٤).

وفي آية أخرى: (فأولئك هم الفاسقون) (المائدة: ٤٧).

وفي آية ثالثة: (فأولئك هم الظالمون) (المائدة: ٤٥).

وفي روايات متواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض انظر كيف تخلفوني فيهما)، مما يدل على أن العترة عدل للكتاب، فقولهم: يجب أن يكون كالكتاب قانوناً عند المسلمين لا يتعدون عنهما.

وأما السنة الطاهرة لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، فهناك روايات متواترة حول وجوب الأخذ بها.

وفي الروايات أنه (صلى الله عليه وآله) قال: (اللهم ارحم خلفائي قيل: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي) (١٤).

فاللزام سيادة القانون على كافة الأمة حتى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) على عظمته محكوم بالقانون، قال سبحانه: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) (الإسراء: ٧٤ . ٧٥).

١١ . المحافظة على (حقوق الإنسان) :

إن الإسلام سبق القوانين الوضعية في إلزام الدولة بصيانة الحقوق الحيوية لكل إنسان، وهي (حق الحياة) (حق الحرية الشخصية) و(حق الملكية الخاصة) وغيرها.

فقد قال سبحانه بالنسبة إلى الحق الأول: (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

وفي رواية: (من أعان على قتل مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة وهو آيس من رحمة الله) (١٥)، وقد قرر في الإسلام القصاص والدية حتى في الغمز بالكف ونحوها.

وأما حق الحرية الشخصية أي أن يكون الإنسان آمناً على حريته، فلا يجبس أو يعتقل أو تحدد إقامته أو ما أشبه ذلك من حقه في كل حرياته إلا في الموارد المنصوصة عليها في القرآن والسنة المطهرة. فذلك واضح لكل أحد، وقد ورد في ذلك متواتر الروايات، وقد اشتهرت قاعدة: (الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم). بل قامت الأدلة الأربعة في الشريعة الإسلامية على ذلك.

وأما حق الملكية الخاصة . بأن يكون الإنسان آمناً على ماله فلا يصادر، وعلى رزقه فلا يضار فيه، وعلى عمله فلا ينقل منه أو يعزل عنه بسبب معارضته للدولة أو ما أشبه ذلك . فالدليل عليه قوله سبحانه: (فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون) (البقرة: ۲۷۹).

وقد قرر الإسلام في المال أربعة حقوق واجبة وهي (الخمس) و(الزكاة) و(الجزية) و(الخراج).
وأما سائر أموال الناس فهي لهم، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في بعض كتبنا الاقتصادية.
ولذا نجد (السجن) نادراً في الإسلام نادرة قليلة جداً، وإذا أخذ الإسلام بالزمام فكل مائة إنسان يجبس في القوانين الدنيوية لا يجبس منهم في الإسلام إلا واحد أو ما أشبهه.
أما التخليد في السجن فليس إلا ثلاثة، حسب ما روي عن علي (عليه السلام) أنه قال: (لا يخلد في السجن إلا ثلاثة: الذي يمسك على الموت، والمرأة ترتد حتى تتوب، والسارق بعد قطع اليد والرجل) (۱۶)، (۱۷).
وفي متواتر الروايات ما جمعه الرسول (صلى الله عليه وآله) في جملة هي قوله المروي عنه: (كل مسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) (۱۸).

ولا يخفى أن تخصيص المسلم في هذه الرواية من باب أن الكلام مع المسلمين، وانه العنصر الذي يهتم به الإسلام أولاً وبالذات لأنه المتبع للحق، وإلا فمن الواضح أن الذمي دمه وماله وعرضه حرام أيضاً حتى ورد في حديث عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من آذى ذمي فكأنما آذاني) (۱۹).
۱۲ . حرية العقيدة والشعائر الدينية:

قوانين الدولة الديمقراطية في الوقت الحاضر تنص على حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية.
وقد سبق الإسلام إلى ذلك في القرآن وسيرة النبي والأئمة (عليهم السلام) فقد قال سبحانه: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة: ۲۵۶).
وقال تعالى: (لكم دينكم ولي دين) (الكافرون: ۶).
وقال جل اسمه: (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (الغاشية: ۲۱ - ۲۲).
وقال جل اسمه: (وما أنت عليهم بجبار) (ق: ۴۵).
وقال تبارك ذكره: (وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (الشورى: ۱۵).

والنبي (صلى الله عليه وآله) لم يجبر أحداً على تغيير عقيدته، كما أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يجبر أحداً على ذلك، والكل يعلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) استولى على عدة دول كانت مشركة أو يهودية أو مجوسية أو مسيحية فلم يجبرهم على تغيير دينهم كما ذكرنا تفصيل ذلك في بعض الكتب الإسلامية، والبلاد إنما دخلت في الإسلام لما رأوا من صحة عقيدة الرسول (صلى الله عليه وآله) وحسن قوانينه.

۱۳ . عدم جواز تفتيش البيوت:

في قوانين عالم اليوم تجدد النص على حرمة المساكن، فلا يجوز دخولها ولا تفتيشها بدون إذن أهلها إلا بأمر اضطراري ثانوي (والضرورات تقدر بقدرها).

وقد سبق الإسلام هذه القوانين في جعل ذلك، ففي القرآن الحكيم: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم) (النور: ٢٧ - ٢٨).

وقصة عمر وتجنسه في الليل ودخوله في دار إنسان من الحائط مشهورة، حيث إنه وجد في دار جماعة يشربون الخمر فتسوّر الحائط ودخل الدار ونهرهم عن عملهم، فقالوا: إنا أخطأنا خطأ واحداً أما أنت فقد أخطأت ثلاثة أخطاء: أخطأت حين تجسست والله يقول: (ولا تجسسوا) (الحجرات: ١٢).

وأخطأت حين تسلقت الدار والله يقول: (وأتوا البيوت من أبوابها) (البقرة: ١٨٩).

وأخطأت حين لم تسلم والله يقول: (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (النور: ٢٧).

١٤. لا تجسس على الأفراد:

وقد نصت القوانين في العالم الديمقراطي على سرية أمور الإنسان التي يريد إخفاءها كالمراسلات والمحادثات التلغرافية، والدور والمحلات التي يجتمع فيها الإنسان مع أصدقائه وأعوانه وغيرهم.

وقد سبق الإسلام إلى ذلك، فقد روى الحلبي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) في حديث قال: (أبما رجل اطلع على قوم في دارهم لينظر إلى عورتهم ففقؤوا عينه أو جرحوه فلا دية عليهم) (٢٠).

وعن عبيد بن زرارة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (اطلع رجل على النبي (صلى الله عليه وآله) من الجريد، فقال له النبي: لو أعلم أنك تثبت لي لقمتم إليك بالمشقص حتى أفقأ به عينيك، قال: فقلت له: وذاك لنا؟ فقال: ويحك. أو ويلك. أقول لك: إن رسول الله فعل، وتقول ذلك لنا!) (٢١).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث المناهي: (أنه نهى أن يطلع الرجل في بيت جاره، وقال: من نظر إلى عورة أخيه المسلم، أو عورة غير أهله متعمداً أدخله الله مع المنافقين الذين كانوا يبحثون عن عورات الناس، ولم يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله إلا أن يتوب) (٢٢).

١٥. حق اللجوء السياسي:

وكذلك نجد في القوانين الوضعية حق اللجوء السياسي وقد سبق الإسلام في ذلك.

فقد قال سبحانه: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) (التوبة: ٦).

بل فوق ذلك فقد ورد في بعض الروايات منع قتل بعض الحيوانات، حيث قال (عليه السلام): (لأنه استجار بك واوى في منزلك، وكل طير استجار ببيتك فأجره) (٢٣).

وفي الإسلام يجب الدفاع عن المستجير ضد أي نوع من أنواع الظلم والاضطهاد يوجهان إليه حتى إذا كان كافراً محترماً، فإن دفع الظلم ورفع الظلم واجب على المسلم، بل في الحديث: (من سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)(٢٤).

وفي حديث عن عيسى (عليه السلام): (التارك مداواة الجريح والجرح له سواء).
١٦ . الحرية السياسية:

وفي قسم من عالم اليوم نرى الحرية السياسية، وذلك عن طريق إبداء الرأي في وسائل الإعلام وإصدار الصحف والكتب، ونصب محطات التلفزيون والإذاعة وغيرها.

وقد سبق الإسلام في هذه الحرية القوانين الوضعية، فقد قرر: (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) و(إرشاد الجاهل) و(تنبيه الغافل) و(النصيحة لأئمة المسلمين) و(كون الإنسان حراً إلا في الحرام) و(إن الإنسان مسلط على ماله ونفسه). والحريات السياسية المتقدمة كلها داخلة في هذه الأمور كما هو واضح.

ومنه يعلم، حق الإنسان في المعارضة الصحيحة، فإن الإنسان له حق أن يعارض الدولة بالمظاهرة والإضراب أو ما أشبه إذا رأى ذلك حقاً، لا أن يعارض الدولة الشرعية لطلب منصب أو جاه أو شبههما من الأغراض غير الشرعية، وعلى الدولة أن تقابل المعارضين بكل لين ولطف.

وفي الحديث: أنه حدث في الكوفة في زمان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إضراب مضاد مرة، ومظاهرة معارضة مرة أخرى فلم يزد الإمام (عليه السلام) إلا أنه أرسل الإمام الحسن (عليه السلام) لينصحهم حيث (كانوا على باطل) فلما أبوا من القبول قرأ الإمام (عليه السلام) هذه الآية: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُؤَلِّهِ ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) (النساء: ١١٥).
واكتفى بذلك!

ومن الواضح، أن المضربين والمتظاهرين ضد الإمام (عليه السلام) كانوا على باطل، وإن الإمام (عليه السلام) كان على حق، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (علي مع الحق والحق مع علي عليه السلام)(٢٥)، و(علي مع القرآن والقرآن مع علي)(٢٦).

إلا أن الإمام (عليه السلام) لم يزد على تذكيرهم بحكم الله سبحانه وتعالى، فلما رأهم يتركون الحكم عامدين لم يمسه بسوء، وإنما بين مصيرهم السيء في الآخرة.

١٧ . حق التجمع والتنظيم:

حق التجمع والاجتماع ونحوهما، وحق تشكيل الجمعيات والمنظمات والأحزاب.. كل ذلك مكفول في الإسلام، وقد سبق الإسلام القوانين الوضعية في ذلك، فقد جعل الرسول (صلى الله عليه وآله) المهاجرين والأنصار جماعتين ويستفاد من أحاديث متعددة أنه كلما ضغطت عليه جماعة منهما كان يلتجئ إلى الجماعة الأخرى.

ففي حديث: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال في قصة مشهورة: (لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار)(٢٧).

وفي حديث آخر أنه عند وفاته (صلى الله عليه وآله) حينما لغط القوم عنده وكانوا من المهاجرين وقال بعضهم (إن الرجل ليهجر) واختلفوا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (قوموا عني)(٢٨).

فلما خرجوا أمر الرسول (صلى الله عليه وآله) بعض الناس بطلب الأنصار فطلبوهم فجاؤوا وتكلم معهم بما أحب أن يوصي.

وفي رواية أن حزين من الأنصار كانا يتزاميان فقال النبي (صلى الله عليه وآله) أنا في الحزب الذي فيه ابن الأدرع(٢٩).

بل يظهر من الروايات وجود المهاجرين والأنصار كحزبين إلى زمان أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث أعطى (قرظة) وهو من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) راية الأنصار يوم صفين. إلى غير ذلك من الموارد المتوفرة في السيرة الطاهرة.

بل إن ذلك هو مقتضى القاعدة المشهورة عند الفقهاء المستنبطة من الآيات والروايات (الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم) يشمل قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران: ١٠٤)

وتشمله أيضاً بدلالة الاقتضاء الآية المباركة التي تقول: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (التوبة: ١٢٢).

١٨ . حرية المرأة:

أما حرية المرأة في الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية وغيرها فهي واضحة.

فقد قال الله سبحانه وتعالى: (وهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف) (البقرة: ٢٢٨).

وفي آية أخرى: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضهم من بعض) (آل عمران: ١٩٥).

وقال تعالى: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين لله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) (الأحزاب: ٣٥ - ٣٦).

إلى غير ذلك من الآيات والروايات التي تدل على المساواة بين الرجل والمرأة في كل الشؤون. إلا ما خرج بالدليل. كما قال سبحانه: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) (النساء: ٣٤).

إلى غير ذلك من الأحكام الخاصة للمرأة، فإنه في غير تلك الأحكام الخاصة يتساوى الرجل والمرأة في كل الشؤون.

وقد كانت النساء يحضرن مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) في صلوات الجماعات، كما كن يحضرن خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ويظهر من بعض الروايات أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر بعض النساء بأن تؤمن النسوة في الصلاة كما ورد في حديث أنه (صلى الله عليه وآله) أمر (أم ورقة) أن تؤمنهن. بل يظهر من كتاب (كامل الزيارة) أن بعض المساجد كانت ترتادها النساء فقط غالباً في زمان أمير المؤمنين (عليه السلام).

فعن مالك بن ضمرة العنبري قال: قال لي أمير المؤمنين (عليه السلام): (تخرج إلى المسجد الذي في جنب دارك تصلي فيه)؟

فقلت له: يا أمير المؤمنين ذاك المسجد تصلي فيه النساء.. إلى آخر الرواية (٣٠). وفي رواية الغوالي عن النبي، أنه قال (صلى الله عليه وآله): (إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها) (٣١).

والمشهور بين الفقهاء أن للزوج حقين على الزوجة: حق الخروج عن الدار. فلا يجوز لها الخروج بدون إذنه. وحق الاستفراش فإذا أراد ذلك يجب عليها بذل نفسها، أما الطبخ والكنس والرضاع وما أشبهه فليس للرجل حق عليها. وقد مارست المرأة في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) أنواعاً من العمل السياسي والتثقيفي وغيرها، وقد تقدم أخذ النبي (صلى الله عليه وآله) البيعة من النساء.

قال تعالى: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزينن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبائعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) (الممتحنة: ١٢).

ولذا بايع رسول الله (صلى الله عليه وآله) النساء، فجعل في إناء ماءً ووضع يده المباركة في الإناء ثم أخرجها منه، وأمر النساء أن يضعن أيديهن في ذلك الإناء دليلاً على البيعة.

وروى في الجعفریات بسند الأئمة إلى علي (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يصافح النساء، فكان إذا أراد أن يبائع النساء أتى بإناء فيه ماء فيغمس يده ثم يخرجها ثم يقول: اغمسن أيديكن فيه فقد بايعتكن) (٣٢)، فالنبي (صلى الله عليه وآله) لم يصرف النظر حتى عن مثل هذا الأمر.

ولذلك أيضاً بايعت المرأة في (غدیر خم) مع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الصورة. وكما آخى الرسول (صلى الله عليه وآله) بين الرجل والرجل من أصحابه، كذلك آخى بين المرأة والمرأة كما هو مذكور في التواريخ.

وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يستصحب النساء حتى في الحروب، وكنّ يقمن بدور المداوي والمسعف والطبيب وكذلك استصحبهن في سفره إلى الحج.

بل يظهر في جملة من الروايات أنه (صلى الله عليه وآله) كان يشترك في اجتماعاته النساء والرجال وكانت النساء تسأل منه المسائل بل وقد يطلبن منه في نفس الاجتماع الزواج.

فقد روى محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (جاءت امرأة إلى النبي فقالت: زوجني فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من لهذه؟ فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله، زوجنيها فقال: ما تعطيها؟ فقال: ما لي شيء! فقال: لا.

فأعادت، فأعاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) الكلام، فلم يبق أحد غير هذا الرجل، فأعادت، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المرة الثالثة: أتحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقال: قد زوجتكها على ما تحسن من القرآن فعلمها إياه(٣٣).

وفي رواية سهل الساعدي: أن النبي (صلى الله عليه وآله) جاءت إليه امرأة فقالت: يا رسول الله إني وهبت نفسي لك، فقال (صلى الله عليه وآله): لا أرى لي في النساء.

فقالت: زوجني بمن شئت من أصحابك؛ فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها؟ فقال: هل معك شيء تصدقها؟ فقال: والله ما معي إلا ردائي هذا؛ فقال: إن أعطيتها إياه تبقى ولا رداء لك، هل معك شيء من القرآن؟ فقال: نعم سورة كذا وكذا؛ فقال (صلى الله عليه وآله): زوجتكها على ما معك من القرآن(٣٤). وفي رواية ثالثة: (ولعلها قصة ثالثة أيضاً) قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): تحسن القرآن؟ قال: نعم سورة؛ قال: علمها عشرين آية(٣٥).

ويظهر من جملة من الروايات أن الزواج في الإسلام كان سهلاً، لأن الأمر ليس أكثر من أن يكون هبة الرجل نفسه للمرأة، وهبة المرأة نفسها للرجل (لا هبة اصطلاحية، وإنما الركبان هما الزوجان حسب الواقع) ولذا كان المهر أمراً ثانوياً.

فعن علي (عليه السلام) أنه أتى رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله أردت أن أتزوج هذه المرأة؟

قال: وكم تصدقها؟ قال: ما عندي شيء؛ فنظر إلى خاتم في يده فقال: هذا الخاتم لك؟ قال: نعم؛ قال: فزوجها عليه(٣٦).

وفي رواية صفوان، عن أبي الحسن (عليه السلام) في حديث أنه قال: (وقد كان الرجل عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتزوج المرأة على السورة من القرآن، والدرهم، وعلى القبض من الخنطة)(٣٧).

إلى غيره من الروايات مما يجب أن يرجع المسلمون إليها إذا أرادوا الخير والسعادة. ويظهر من الروايات أن النساء، كن يسألن عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعن الخلفاء من بعده في مجمع الرجال، وكن يتكلمن ويعلقن على كلام الرسول (صلى الله عليه وآله) والخلفاء.

فقد روى الشيخ الطبرسي في مجمع البيان: أن النبي (صلى الله عليه وآله) بايعهن وكان على الصفا، وكان رجل من الصحابة أسفل وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً أن يعرفها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال (صلى الله عليه وآله): (أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً).

فقال هند: إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال. وذلك أنه (صلى الله عليه وآله) بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله): (ولا تسرقن).

فقال هند: إن أبا سفيان رجل ممسك وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيجل أم لا؟

فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وواله) فعرفها (صلى الله عليه وآله) فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة.

فقال: نعم فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: (ولا تزنين).

فقال هند: أوتزني الحرة؟

فتبسم أحد الصحابة لما جرى بينه وبينها في الجاهلية.

فقال (صلى الله عليه وآله): (ولا تقتلن أولادكن).

فقال هند: ربناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم. وكان ابنها حنظلة ابن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالب (عليه السلام) يوم بدر. فضحك عمر وتبسم النبي (صلى الله عليه وآله).

ولما قال (صلى الله عليه وآله): (ولاتأتينّ ببهتان) قالت هند: والله إن البهتان قبيح، وما تأمرنا إلا الرشد ومكارم الأخلاق.

ولما قال (صلى الله عليه وآله): (ولا يعصينك في معروف) قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك!!

١٩ . حرية انتخاب الرئيس الأعلى للدولة:

حرية انتخاب الرئيس الأعلى للدولة، وقد سبق الإسلام القوانين الوضعية في ذلك.

روى سليم بن قيس الهلالي في (كتابه) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الواجب في حكم الله وحكم الإسلام على المسلمين بعدما يموت إمامهم أو يقتل، ضالاً كان أو مهدياً أن لا يعملوا عملاً ولا يقدموا يداً ولا رجلاً قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً، عفيفاً عالماً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة، ويجي فيئهم ويقم حجهم ويجي صدقاتهم)(٣٨).

وقد ذكرنا جملة من الروايات بهذا الشأن في كتاب (الحكم في الإسلام) وغيره.

٢٠ . انتخاب مرجع التقليد والقاضي:

اختيار القاضي ومرجع التقليد وإمام الجماعة ومن أشبه إنما هو بيد الأمة ومعلم حريتهم.

فقد روى أحمد بن الفضل الكناسي قال: قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): أي شيء بلغني عنكم؟

قلت: ما هو؟

قال: بلغني أنكم أقعدتم قاضياً بالكناسة.

قلت: نعم جعلت فداك، رجل يقال له عروة القتات وهو رجل له حظ من عقل يجتمع عنده وتكلم وتساءل ثم يرد ذلك إليكم.

قال: لا بأس.

وفي رواية التقليد (من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه)(٣٩).

وفي رواية أخرى: (ينظران إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا فليرضوا به حاكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً)(٤٠).

بل وجعل الإسلام للمفتي والقاضي ومن أشبه الحرية في أن يجيب السائل على حسب علمه.

فعن معاذ بن مسلم النحوي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال (عليه السلام): بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس.

قلت: نعم، وأردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج، إني أقعد في المسجد فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، ويجيء الرجل أعرفه بمودتكم وحبكم فأخبره بما جاء عنكم، ويجيء الرجل لا اعرفه ولا أدري من هو، فأقول جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأدخل قولكم فيما بين ذلك. فقال لي: إصنع كذا فإني كذا أصنع.

وقد ذكرنا في بعض كتبنا مسألة الحرية في استئناف القضاء وتميزه لما دل على ذلك من فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، حيث اشترى ناقة من الأعرابي فأنكر الأعرابي إعطاء رسول الله الثمن له فتقاضيا إلى أحد الصحابة، ثم تقاضيا إلى صحابي ثان، ثم تقاضيا إلى علي (عليه السلام) ثالثاً، مما يدل على صحة الاستئناف والتميز المتعارفين في هذا الزمان.

الخلاصة

وهكذا سبق الإسلام القوانين الوضعية في ما ذكرناه وفي غير ذلك من الأمور، فإن الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة من تعاليم الحرية واصطلاحاتها لفظاً ومعنىً وتطبيقاً إلا بيّنها، سواء ما ورد منها في دراسات علم السياسة أو الدساتير الوضعية أو إعلان حقوق الإنسان مع ثلاثة فروق:

الأول: إن الإسلام سبق القوانين الوضعية كلها في إعطاء هذه الحريات، وبيانها، وتقرير العقاب على من خالفها. الثاني: إن الإسلام أكثر حرية وأوسع حتى أن الحريات الموجودة فيما يسمى بالعالم الحر لعلها لا تصل إلى عُشر الحريات الإسلامية (كما ألمعنا إلى ذلك).

الثالث: إن الإسلام يلتقي مع الدساتير الوضعية في كثير من الأمور ويختلف عنها في أمور أخرى.

أما الأمور التي يتفق معها فدائماً يلاحظ أن التعبير الإسلامي . سواء في القرآن أو في السنة . أكثر دقة وأبعد عمقاً وغوراً، وأفضل أداءً للمعنى المقصود من التعبيرات الدارجة والمستعملة في عصرنا هذا، والتي وضعها جملة من العلماء المفتين والمشرعين بعد جهد وتنقيب واقتباس من الإسلام أيضاً إذ لا يخفى أن القوانين الإسلامية انتقلت بسبب علماء الأندلس إلى البلاد الغربية، بالإضافة إلى ما ترجم لهم من الكتب الإسلامية (والتي منها شرائع الإسلام للمحقق الحلبي وغيره).

وأما الأمور التي يختلف الإسلام فيها مع القوانين الوضعية، فدائماً نجد أن رأي الإسلام هو الأسلم والأصلح للفرد والمجتمع، فمثلاً: جملة من القوانين الوضعية تبيح الزنا واللواط والخمر والقمار واستعمال المخدرات كالهروئين، مع وضوح أن كل ذلك ضار ضرراً بالغاً، حتى أن عقلاء الغرب يرفعون أصواتهم بوجوب الكف عن هذه الأمور ومن هنا نرى أن البلاد الغربية بعضها تحلل، وبعضها تحرم، وحتى أن البلد الواحد أحياناً يحرم وأحياناً يحلل، مثلاً: أمريكا حرمت الخمر مدة مديدة ثم حللتها تحت ضغوط كبيرة من الرأسمالية المنحرفة، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة.

ولا علاج للعالم إن أراد أن يسترد كرامته وحرية وسيادته وعزته وإنسانيته إلا بالرجوع إلى الحريات المقررة في الإسلام حسب الموازين المذكورة في الكتاب والسنة الشريفة.

- ١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٩٢ .
- ٢ . بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٢٥٦ .
- ٣ . بحار الأنوار: ج ٦٠، ص ٢٧٤ .
- ٤ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ١٢ .
- ٥ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ١١١ .
- ٦ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ١٠١ .
- ٧ . المصدر السابق: ص ٦٥ .
- ٨ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٧٧ .
- ٩ . فإن غير المسلم لا يعمل بهذه الشرائع الواردة في الإسلام .
- ١٠ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ٥، ص ٢٢٨ .
- ١١ . الكافي: ج ٥، ص ٥٢ .
- ١٢ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٠٠ .
- ١٣ . كنز العمال: ج ٦، ص ٣٨ .
- ١٤ . المصدر السابق: ص ٦٥ .
- ١٥ . مستدرک الوسائل: ج ١٨، ص ٢١١ .

- ١٦ . المصدر السابق: ص ١٩٣ .
- ١٧ . ثم يمكن أن يشمل هؤلاء عفو الإمام . كما ذكرناه في كتبنا السياسية ..
- ١٨ . الحدائق الناظرة: ج ١٨، ص ١٤٧ .
- ١٩ . بحار الأنوار: ج ٣٠، ص ٤٨٦ .
- ٢٠ . وسائل الشيعة: ج ١٩، ص ٤٣ .
- ٢١ . المصدر السابق: ص ٤٩ .
- ٢٢ . المصدر السابق: ص ٤٨ .
- ٢٣ . المصدر السابق: ج ١٦، ص ٢٤٨ .
- ٢٤ . الكافي: ج ٢، ص ١٦٤ .
- ٢٥ . بحار الأنوار: ج ٣٠، ص ٣٣٢ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ج ١٠٤، ص ٢٥٦ .
- ٢٧ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ١٠، ص ٣٢، دارالكتب العلمية - بيروت .
- ٢٨ . بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٤٧٤ .
- ٢٩ . مستدرك الوسائل: ج ١٤، ص ٧٩ .
- ٣٠ . المصدر السابق: ج ٣، ص ٤٤٥ .
- ٣١ . المصدر السابق: ص ٤٤٦ .
- ٣٢ . المصدر السابق: ج ١١، ص ١٢٦ .
- ٣٣ . الكافي: ج ٥، ص ٣٨٠ .
- ٣٤ . مستدرك الوسائل: ج ١٤، ص ٣١٣ .
- ٣٥ . المصدر السابق: ج ١٥، ص ٦١ .
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ٦٠ .
- ٣٧ . المصدر السابق .
- ٣٨ . المصدر السابق: ج ٦، ص ١٤ .
- ٣٩ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ٩٥ .
- ٤٠ . المصدر السابق: ص ٢٢٠ .

الفصل الرابع: السلام والحرب في الإسلام صور عن الحرب

الحرب أسوأ شيء عرفه الإنسان

الحرب أسوأ شيء عرفه الإنسان في تاريخه الطويل، لأنها توجب قتل الإنسان ونقص أعضائه، وفقد قواه وتشويهه، كما توجب هدم العمران، وإثارة البغضاء والشحناء بين البشر، وإيراث الأجيال العقد النفسية، وأيضاً تسبب إلقاء المقاتلين في أسر الحرب، ولذا يكون من اللازم تجنب الحرب بأية قيمة، وإذا اضطر الإنسان إلى الحرب . لأن عدوه جره إليها . كان الواجب أن يقتصر فيها على أقصى درجات الضرورة .

وكذلك اللازم على البشر عامة أن يضعوا حداً للحروب نهائياً حتى لا تقع في المستقبل .

الحرب ظاهرة مرضية

والحرب وإن كانت ظاهرة منذ القديم، بل قيل أنها مؤيدة من قبل القران الحكيم في الجملة، حيث قال سبحانه: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (البقرة: ٢٥١).

بل قال البعض بأنها مظهر من مظاهر (تنازع البقاء) الذي هو وصف طبيعي ملازم لجميع الكائنات الحية لا ينفك عنها، وإنه سُنّة من سنن الاجتماع البشري إلا أن اللازم الحيلولة دون وقوعها، فإن المرض أيضاً ظاهرة بشرية منذ القدم، وكذلك احتراق المدينة أو الدار أو الدكان وكذلك جرف السيل، وسائر العوامل الطبيعية التي تؤذي الإنسان، لكن كل ذلك لا يجعل من الحرب أمراً لا بد منه، فليست الحرب حقيقة أولية، وإنما هي ظاهرة ثانوية تقع بسبب شراسة بعض الأفراد .

ولذا قال جماعة من العلماء: إن الحرب في ذاتها قبيحة لما فيها من قتل النفوس والتخريب والتدمير، وقد قال سبحانه مؤيداً لذلك: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢١٦).

فإن الظاهر من هذه الآية أن القتال لو كان أمراً طبيعياً لما قال سبحانه: (وهو كره لكم).

فالْحَرْبُ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تَمْلِيهَا الْغَرَائِزُ الْفَاسِدَةُ وَليست أمراً طبيعياً في البشر..

خيار الحرب في الإسلام

الحرب هي الخيار الأخير

ولذا نجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يقدم على حرب واحدة، وإنما كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يحارب دفاعاً عن النفس، وكان (صلى الله عليه وآله) لا يلتجأ إلى الحرب الدفاعية أيضاً إلا بعد فقدان الخيارات التي كانت عبارة عن الأمور التالية:

الحياد أولاً: كما حدث بين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين الحبشة (الحياد) هو أول مراحل عدم اعتداء بعض على بعض، ثم بعد الحياد يأتي دور (العهد) أو (معاهدة عدم الاعتداء). على الاصطلاح الحديث. كما عاهد رسول الله (صلى الله عليه وآله). في المدينة المنورة. : اليهود المشركين وكما عاهد (صلى الله عليه وآله): كفار مكة في صلح الحديبية.

الإسلام.. عن قناعة

وبعد هذين الأمرين يأتي دور (الإسلام) فإذا أسلم الطرف الآخر فقد حقن ماله ودمه ولا عدوان إلا على الظالمين.

والإسلام ليس أمراً قسرياً كما هو واضح، وإنما هو عبارة عن الأدلة القاطعة التي توجب اقتناع العقل بصحة المبدأ والمعاد والرسول والشريعة وغيرها.

الجزية.. أخيراً

وإذا لم يكن الأمر حياداً ولا عهداً ولا إسلاماً يأتي دور (الجزية) كما عمله الرسول (صلى الله عليه وآله) مع نصارى نجران، فإن الجزية نوعان:

النوع الأول: جزية أهل الذمة الذين يعيشون تحت لواء الإسلام فالجزية تؤخذ من الكفار كما يؤخذ الخمس والزكاة من المسلمين، وقد ذكرنا في كتبنا الفقهية: إن (الجزية) تؤخذ من مطلق الكافر، خلافاً للمشهور، فإن الكفار الذين يعيشون تحت لواء الإسلام يؤخذ منهم مال لا بعنوان الخمس والزكاة وإنما بعنوان الجزية، سواء كانوا أهل كتاب كاليهود والنصارى والمجوس أو كانوا غير أهل كتاب كالوثنيين والمشركين.

النوع الثاني: ما يؤخذ من الكفار الذين ليسوا تحت لواء الإسلام، وإنما يؤخذ ذلك لأجل عناد أولئك بعد ظهور الحق لهم كما فعل (صلى الله عليه وآله) بنصارى نجران حيث بحث مع علمائهم حول حقيقة الإسلام لكنهم أفحموا، ثم باهل معهم لكنهم أحجموا، فأبي شيء بعد هذين إلا العناد؟ والمعاند يلزم أن يخفف من غلواء عناده بما يرجعه إلى الحق تدريجياً.

يقول الله سبحانه، في قضية نصارى نجران: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (آل عمران: ٥٩ - ٦٤).

حروب الرسول (صلى الله عليه وآله) كانت دفاعية

وإذا انقطعت كل هذه الوسائل والسبل يأتي دور (الحروب الدفاعية) ولذا اتصفت كل حروب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بصيغة (الدفاع).

فمثلاً كان أول اصطدام للمسلمين بقريش حيث تعرضت (سرية) عبد الله بن جحش لقوافل قريش القادمة من الشام بقيادة أبي سفيان رداً على اعتداء المشركين حيث إنهم اعتدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه طيلة عشر سنوات، فقتلوا بعضاً منهم، وشردوا بعضاً إلى الحبشة، وبعضاً إلى المدينة، وعذبوا جملة منهم، وهتكوا أعراضهم كما في قصة سمية أم عمار، وصادروا دورهم وأموالهم في مكة المكرمة، ثم لم يكتفوا بذلك حتى أتوا إلى القبائل العربية المحيطة بالمدينة المنورة وأرشوهم ليمنعوا قوافل رسول الله (صلى الله عليه وآله) من المرور في أراضيهم، أي أنهم ضربوا حصاراً اقتصادياً حول المدينة المنورة مما هدد المسلمين بالموت جوعاً ومن الواضح أن الحصار الاقتصادي الدفاعي من الوسائل المشروعة المستخدمة في الحروب، فالمسلمون أرادوا بهذه السرية وبما تلاها (كغزوة بدر وما أشبهه)، ضرب الحصار الاقتصادي حول أهل مكة المخربين للرسول (صلى الله عليه وآله) من باب المعاملة بالمثل.

أما بقية غزوات الرسول وحروبه وسراياه فكانت إما لنقض العهد من قبل الطرف الآخر، كما فعله يهود بني قينقاع في المدينة ومشركوا قريش في نقض صلح الحديبية. وإما لرد العدوان كما في غزوة أحد والخندق.

أو لشن حرب وقائية كما في قصة مؤتة، حيث إن الفرس والروم أخذوا في الاعتداء على الدولة الإسلامية، فقد أحيط الإسلام بأعداء من الفرس والروم يريدون بالإسلام كل سوء وأخذ هؤلاء ينتهزون الفرص المواتية للانقضاض عليه واجتثاث جذوره وقتل الرسول (صلى الله عليه وآله) في عقر داره وإبادة المسلمين، وقد شرعوا في ذلك بالفعل، فهزق عظيم الروم قتل جماعة من ولاته أسلموا في بلاد الشام.. وكل ذلك أعطى للرسول (صلى الله عليه وآله) الحق الشرعي والعرفي والقانوني في الدفاع.

وكذلك الفرس فإن كسرى عظيم الفرس أمر واليه على اليمن بأن يرسل بعض جلاوزته إلى المدينة المنورة ليأتوا برأس الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى كسرى، لكن الرسل الذين أتوا إلى المدينة المنورة أبوا بخفي حنين حيث رأوا التفاف المسلمين العظيم حول الرسول (صلى الله عليه وآله) وحاجتهم الرسول في قصة مذكورة في التواريخ.

أقل قدر من الضحايا

ثم إن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان يتحرى أقل قدر من القتل والأسر في حروبه بما لا يذكر العالم مثله لا قبل الإسلام ولا بعده.

فمثلاً: يذكر أحد الكتاب إن جميع القتلى من الطرفين (المسلمين والمشركين) لم يتجاوز ألفاً وبضعة أشخاص في كل الحروب التي خاضها الرسول (صلى الله عليه وآله). والتي كانت أكثر من ثمانين حرباً.. ويذكر كاتب آخر إن عدد الذين قتلوا في جميع الحروب هم ألف وثمانية عشر شخصاً. ويذكر مؤلف ثالث: (إن عدد الكفار والمسلمين الذين قتلوا في جميع الحروب لم يتجاوز ألفاً وأربعمائة).

وهذا أكثر عدد ذكر في هذا الموضوع، بينما الدكتور محمد حميد الله في كتاب (محمد (صلى الله عليه وآله) يذكر: إن محمداً (صلى الله عليه وآله) . مع أنه استولى على أكثر من مليون ميل مربع مما يعادل كل أوروبا باستثناء روسيا، ومع أنه كان يسكن هذه المنطقة ملايين من البشر . لم يقتل في كل حروبه . من طرف المسلمين . إلا مائة وخمسون مسلماً.

ويضيف: أن هذا العدد يعادل: قتيلاً واحداً في كل شهر . تقريباً ..
وليس هذا إلا لأجل احترام الإسلام للدماء وتجنبه القتل مهما أمكن.

الحرب عند غير المسلمين

الإسراف في القتل والتعذيب

وعلى عكس حكومة الرسول (صلى الله عليه وآله) نجد سائر الحكومات التي كانت تسرف في إراقة الدماء ما تجد إلى ذلك سبيلاً.

وقد ذكر المؤرخون: إن الآشوريين كانوا قساة غلاظ الأكباد وكانوا يدمرون المدن التي يفتحونها بعد حصارها ويتفننون في القتل والتعذيب والتمثيل، وكانوا يكافئون الجنود عن كل رأس مقطوع يحمل من ميدان المعركة بجائزة، وقد يعمدون إلى قتل جميع الأسرى في ساحة المعركة عند كثرتهم، لكي لا يستهلكوا الطعام والشراب أو لئلا يكونوا خطراً على مؤخرة (الجيش) وكان الملوك والرؤساء يرأسون هذه المجازر، ويبدأون المجازر أولاً بفقأ العيون وقطع الرقاب من الأسرى، أما الأمراء والأشراف من الأسرى فكانوا يعذبون قبل القتل، فتصلم آذانهم، وتجذع أنوفهم، وتقطع ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء، أو تشوى أجسامهم فوق النار، أو يلقي بهم من أبراج عالية.

وكان الملك الذي ارتقى عرش آشور عام سبعمائة وخمس وأربعين قبل الميلاد يصلب الأسرى على الخوازيق، بينما يقوم الرماة بقتلهم بالسهام والمدقات.

وفي بعض الحروب استخدم الأسرى لجر العربات المحملة بالخشب بدلاً من الدواب.

صور رهيبة من وحشية المغول

يقول صاحب كتاب (أسرى الحرب) في قصة المغول: (عرف المغول بالقسوة والوحشية وسفك الدماء، كما اشتهر جنكيز خان مؤسس إمبراطوريتهم بالبطش والقتل وحب التدمير والإبادة.

وفي حروبهم اشتبكوا مع شاه خوارزم علاء الدين فأحرق المغول (بخارى) ونهبوا ثرواتها واغتصبوا النساء وسيق الأسرى إلى (سمرقند)، ولما صعب عليهم اللحاق بالفرسان أمر جنكيز خان بقتل كل من يتخلف عن السير واستحالت (بخارى) إلى أنقاض وخرائب.

ولاقت (سمرقند) المصير نفسه حيث نهب وقاتل السكان وأسروا ثلاثين ألفاً من أمهر الصناعيين، وأرسلهم جنكيز خان إلى أبنائه في الشمال، كما جندوا عدداً كبيراً لاستخدامهم في الأشغال العسكرية والنقل.

وفي (خراسان) جمعوا الأهالي في ساحة واسعة وأمروهم أن يكتف بعضهم بعضاً ثم شرعوا بذبحهم فقتلوا سبعين ألفاً.

ولما احتلوا (مرو) وزعوا سكانها على المحاربين المغول ووزع كل منهم نصيبه، ولم يبقوا إلا على أربعمئة صانع لحاجة الجيش إليهم، وعلى بعض الأفراد لاتخاذهم عبيداً، ولاقت بقية المدن نفس هذا المصير.

ولما سمع المغول أن بعض الأهليين رقدوا بين جثث القتلى أصدر الأوامر بفصل الرؤوس عن أجسادها واتبعوا ذلك في جميع معاركهم اللاحقة.

وكانوا يطاردون الفارين، كما يطارد الصياد فريسته.

واستخدموا شتى أنواع الحيل لإخراج المختبئين من مخابئهم، مثلاً: أرغموا مؤذناً من أسراهم على الأذان للصلاة وخرج المسلمون من مكانهم معتقدين بذلك ذهاب الغزاة الذين كانوا لهم بالمرصاد فأبادوهم.

وكانوا يحرقون الغلات والمحاصيل قبل مغادرتهم المدن ليموت من اختبأ أو فرّ من السكان جوعاً.

وكانت سياسية جنكيزخان في حروبه ذبح جميع جنود الحاميات وسكان المدن والسلب والنهب وغرق الأسرى.

وإذا قاومت مدينة ما (المغول) صنعوا بها الأفضع، فقد قاومت (نيسابور) بضعة أيام فكان جزاؤها ذبح الرجال والنساء والأطفال.

وصنع المغول في (روسيا) ما صنعوا في دولة خوارزم فأبادوا ودمروا وأحرقوا وأسروا عدداً من قواد الروس عن طريق الغدر والخيانة فكلبواهم بالأغلال وأقاموا فوقهم البسط وجلس عليها كبار قادة المغول ليطعموا وليمة النصر بينما كان القادة الروس يموتون اختناقاً.

ثم عاد المغول إلى (منغوليا) فحربوا مدينة (بلغار) ونهبوا جميع مدن (البازان) ودكوا أبنيتها وحرقوا (موسكو) وحاصروا (تلوتير).

ولما قص النبلاء شعورهم واختبؤوا في الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان أمر المغولي بإحراق الكنيسة والمدينة فهلك الجميع ودمرت النيران مدناً أخرى.

وتابع هولاء الزحف في غرب آسيا حتى وصلوا إلى (تبريز) واتجهوا إلى (بغداد) قاعدة القيادة العباسية فحاصروا بغداد أربعين يوماً ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون وأمطروها بالحجارة والنار المشتعلة وأحدثوا ثغرة كبيرة في أسوارها وأحرقوا المنازل، ولما رأى الخليفة أنه لا علاج إلا بالصلح طلب الصلح وأبدى استعداداً للتسليم شريطة الإبقاء على حياته وحياة السكان، وخرج مع ثلاثة آلاف من القضاة والأعيان والأشراف لملافة هولاء، فخان الاتفاق وغدر بهم كما فتك بسكان المدينة، فأمر هولاء بنهب المدينة وذبح سكانها ووطئت أجساد المستغيثين بجوافر الخيل واغتصبت النساء وسالت الدماء في الشوارع مدة ثلاثة أيام حتى أصبح ماء دجلة لعدة أميال أحمر قانياً، واستبيحت المدينة ستة أسابيع، فذبحوا السكان، وانتهكوا الحرمات، وأحرقوا الدور، وتهاوت القصور، وتقوضت الجوامع والأضرحة بسبب النار أو بسبب المعاول، وذبحوا المرضى في المستشفيات، وقتلوا

طلاب العلم والأساتذة في المدارس، ونبشوا قبور الأولياء وأضرحة الأئمة الصالحين، وأحرقوا جثث الأموات، واستمرت المذابح عدة أيام وأمست (بغداد) خراباً بلقماً، وهلك من سكانها أكثر من مليون ونصف.

وعبر المغول الفرات متجهين صوب الجزيرة يطاردون الأهلين فيقتلون ويسلبون فأبادوا جميع سكان (الرها) و(جران) و(نصيبين) وذبحوا في (حلب) خمسين ألفاً وسبوا عشرة آلاف من نساءها وأطفالها.

وفعلوا أيضاً في غالب بلاد الإسلام هذا الفعل، مثلاً: لما علم تيمورلنك بمقتل جماعة من رجاله وجنوده الذين دخلوا مدينة (أصفهان) غضب وأصدر أمره إلى الجيش باقتحام المدينة، وأن يعود كل جندي مع راس قتيل من أهلها، ونفذ الجيش الأمر، وتحولت المدينة إلى مجزرة بشرية مروعة، وتكدست عند المساء سبعون ألف جمجمة من الضحايا، فأمر تيمور أن تقام منها أبراج في شوارع المدينة.

وكذلك لما وصلوا إلى بعض المدن ذبحوا السكان وأشعلوا النار في المدينة.

الحروب الحديثة لا تقل سوءاً

وهكذا نجد الأمر في الحروب الحديثة، بل وأسوأ من ذلك.

فأمريكا قتلت بالقبلة الذرية ربع مليون إنسان في اليابان في ظرف ساعات وأحرقت كل شيء.

ولما جاء البريطانيون إلى العراق عاملوا الناس أسوأ معاملة، وكانوا يقتلون الجرحى، ولا يرحمون الأسير، ويخرجون الجثث من القبور طمعاً في الثياب والملابس.

وفي السودان كانت الجيوش البريطانية تقطع رؤوس المقتولين وترسلها إلى لندن ليجعلوا الجماجم مطفئة سكاثر حقداً على المسلمين.

وفي ليبيا قتل الإيطاليون نصف الشعب الليبي الذي كان يبلغ المليون في ذلك اليوم، فقتلوا منهم نصف مليون بأبشع قتلة، وكانوا يمثلون بالجثث ويعذبون الأحياء تعذيباً بشعاً.

وكذلك صنع الفرنسيون بالجزائر فقتلوا من تسعة ملايين مليوناً ونصف المليون وبعض الإحصائيات تقول إنهم قتلوا منهم مليونين وكانوا يمثلون بالجثث، ويعذبون الأحياء تعذيباً قاسياً قليل النظر.

وفي الحرب بين الهند والباكستان الشرقية (بنغلاديش) قتل من الناس أكثر من ثلاثة ملايين جوعاً وتعذيباً وقتلاً كما مات بعضهم لأجل انتشار الأوبئة.

والروس قتلوا من المسلمين في طاجكستان وتركمنستان وغيرهما من البلاد الإسلامية التي استولوا عليها خمسة ملايين من المسلمين بمختلف أنواع القتل من الإحراق والغرق والتعذيب إلى حد الموت والرمي بالرصاص وغير ذلك.

كما أن الروس في الوقت الراهن قتلوا أكثر من مليون إنسان في أفغانستان، وقد امتلأت سجونهم بالأبرياء وعذبوا الناس بأبشع أنواع التعذيب.

كما قتل الأمريكيون في فيتنام وفي غير فيتنام عدداً هائلاً يُعَدُّ بالملايين وكانوا يعذبون الأحياء ويحرقون المحاصيل.

وهكذا يرى العالم في العصر الحديث أشنع أنواع القتل والتعذيب والحرق والإهانة لكرامة الإنسان، وقصة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية مشهورتان مذكورتان في الكتب.

ازدياد أخطار الحرب في العصر الراهن

وقد ذكرنا في كتاب (فقه الاجتماع) في مبحث أخطار الحرب: إن اللازم على الأمم أن تسعى بكل جدها لتعميم السلام في الزمن الحاضر حيث ازدادت أخطار الحرب زيادة كبيرة غير متصورة، وسبب هذه الزيادة أمور، منها:

الأسلحة الفتاكة التي اكتشفها العلم.. واستعمال هذه الأسلحة في الحروب يوجب نفس الحضارة من غير فرق بين الحروب المحدودة والحروب العالمية فإن الحروب المحدودة تدمر. أيضاً. بقدرها، مثلاً: في حرب لبنان قتل وجرح من البشر زهاء مائة وخمسين ألف، وفي الحرب العراقية الإيرانية قدر مجموع القتلى والجرحى بأكثر من مليون ونصف كما قدرت خسائر الحرب بأكثر من خمسمائة مليار دولار.

أما إذا اتفقت حرب عالمية. لا سمح الله. فإن الحضارة ربما تنتهي، وقد ذكر في تقرير أنه كان مخطط أميركا ضد روسيا أن تدمر في حروب نووية خاطفة خمس وثمانين في المائة من منشآتها الصناعية.

وقد كدست كل من روسيا وأمريكا في مخازنها الأسلحة الفتاكة ما يكفي لإبادة البشر سبع مرات.

وفي تقرير أنه: توجد عند الاتحاد السوفيتي قنابل إذا ألقيت واحدة متوسطة منها على مدينة كنيويورك، أفنت في لحظة واحدة كل ما كان في شعاع مائتين وخمسين ميلاً مربعاً.

إلى غير ذلك من الأسلحة الفتاكة الرهيبة والتي لا تشكل أسلحة الحرب العالمية الثانية في قبالها إلا مثل الأسلحة القديمة اليدوية. كالسيوف والرمح. بالنسبة إلى المدفع والدبابة.

من مضاعفات الحرب

أولاً: تخلف مشوهي الحرب والجرحى الذين سيعانون طوال حياتهم من ويلاتها فإن الأسلحة الفتاكة توجب مختلف الأمراض والتشوهات في الإنسان والحيوان والأرض وغيرها.

وقد جاء في تقرير: إن روسيا اشترت خمسة وعشرين مليون عضواً صناعياً. كاليد والرجل والعين. لأجل المشوهين، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. هذا بالإضافة إلى أن الحرب الذرية تذر الديار بلاقع لا تصلح لإنبات النبات إلى أمدٍ بعيد.

وثانياً: تلتهم الحرب الاقتصاد التهاماً موحشاً، فإن الدول تحول أجهزتها أبان الحرب إلى أجهزة حربية مما يستنفذ المال، ويوجب الفقر سنوات عديدة بالنسبة إلى الدول المتحاربة.

وقد ذكر (غوستاف لوبون) إن (إسبانيا) لم تستعد نشاطها منذ حارب الصليبيون المسلمين، وقد مرت على الحرب زهاء عشرة قرون.

كما ذكر مؤرخ آخر: إن العراق لم يستعد نشاطه منذ تخريب المغول له زهاء سبعة قرون.

وقد صرفت أمريكا في الحرب الباردة عام ألف وتسعمائة وثلاثة وخمسين (م) أربعاً وسبعين في الألف من إنتاجها. فإذا ترتبت هذه النتائج التدميرية في الاقتصاد على الحرب الباردة، فماذا يكون الحال في الحرب الساخنة؟ وبالإضافة إلى الدول المتحاربة تلتهم الحرب اقتصاد سائر الدول المرتبطة بها، حيث إن الاقتصاد في العصر الراهن لا يختص برقعة محددة من الأرض فإن الدول تشابكت في الاقتصاد تشابكاً كبيراً فالبضائع التجارية بمختلف أقسامها تستورد من كافة الدول إلى الدول الأخرى.

وإذا علمنا أن الدول المحايدة اسماً ليست محايدة حقيقة نعرف كيف تلتهم الحرب اقتصاديات كل الدول. والكل يذكر كيف وقع العالم في ضيق شديد إبان الحرب العالمية الثانية سواء في الدول المحاربة أو غير المتحاربة. ثالثاً: كما إن الحرب توجب التخلف الحضاري للبلاد المتحاربة وللبلاد التي ترتبط بها بل ولسائر بلاد العالم، إذ تتحول كل الدول إلى (دولة حرب) وتتوقف الخدمات الثقافية والصناعية والزراعية والتربوية وغيرها توقفاً كبيراً مما يوجب تجمد الحضارة بل وتقهرها، حيث إن الحرب تستقطب جمهرة كبيرة من مختلف العلماء الذين هم محور تقدم الحضارة، وقد ذكرت بعض الصحف أن مصر وحدها خسرت عند تحطيم خط (بارليف) الإسرائيلي زهاء عشرين ألف من المهندسين والخبراء والأطباء ومن إليهم.

وسائل تجنب الحرب

نحو تعميم السلام

ثم اللازم. لأجل إنهاء الحرب في العالم. وتعميم السلام أن تبدل معامل الأسلحة إلى معامل الأغراض السلمية، ولا يقال: إن الأغراض الحربية إنما توجب إشغال ملايين العمال؟ فإن كثيراً من هؤلاء العمال يمكن أن تمتصهم المعامل التي تعمل للأغراض السلمية، كما يمكن جعل مناهج الإسكان وصحة ولوازم كل أهل العالم وكذلك مناهج لغزو الفضاء، وغير ذلك وإذا فرض أنه بقي فائض من العمال ليس لهم عمل فلا يستلزم ذلك بطالتهم لأنهم يشتغلون بالعلم والعبادة وبالتنزه بعد توزيع العمل عليهم وعلى غيرهم.

مثلاً: لنفرض عشرة ملايين عامل كل واحد منهم يشتغل ثمان ساعات في مختلف الشؤون الصناعية والزراعية، وخمسة ملايين منهم يشتغلون في السلاح، فهؤلاء إذا اشتغلوا في الأغراض السلمية يبقى مليونان بلا عمل لأن ثلاثة ملايين من الخمسة تتمكن الأغراض السلمية من امتصاصهم وفي هذه الحالة يوزع العمل على مجموع العشرة، وتخفف من ساعات العمل، ففي المثال: بدل أن يشتغل كل عامل ثمان ساعات حتى يشتغل خمسة ملايين منهم في السلاح يشتغل كل عامل ست ساعات وخمسي ساعة وفي الباقي أي الساعة وثلاثة أخماس الساعة يشتغلون في العلم تعليماً وتعلماً وتجربة، وفي العبادة الموجبة لخير الدنيا والآخرة، وفي التنزه بالأسفار وغيرها.

وليس من الصحيح أن نقول: إننا نضع السلاح فنقتل الناس لكي لا تكون بطالة! فهو مثل أن تكون هنالك عائلة ونصفهم له عمل ونصفهم لا عمل له فنقول: إن النصف الذي لا عمل له يشتغل بقتل هذا النصف الذي له عمل لأجل أن لا يبقى النصف الذي لا عمل له فارغين عن العمل؟

إن هذا منطق لا يقبله عقل أو شرع، بل هو منطق الانحراف فحسب.
فاللازم. إذاً. أن نوجد العمل السلمي للعاملين في مصانع الأسلحة، كما يلزم أن نوجد العمل للذين يشتغلون في
الأمر العسكري من الضباط والقواد، والمراتب والجنود وغيرهم.
نعم يبقى قلة منهم لاحتمال الطوارئ، والآخرون إذا تدرّبوا فإنما يتدربون بقدر، ويكونون كجيش احتياط لا
كجيش متفرغ، وقد ذكرنا في بعض الكتب أن إيران في أيام المجدد الشيرازي وقصة تحريم التتن كان لها زهاء عشرة
ملايين جيش احتياطي. هم كل الناس. وعشرة آلاف مسلح لأوقات السلم.
وعلى أي حال، فاللازم حل مشكلة الحرب بهذه الصورة أو بصورة أخرى.
هذا من ناحية السلاح كماً.

وأما من ناحية السلاح كيفاً، فاللازم أن تخفف الأسلحة، يعني: أن تكون هناك لجان لتبديل الأسلحة المتطورة إلى
الأسلحة الخفيفة. كالبندقية وما أشبه. ثم تبديل الأسلحة الخفيفة إلى الأسلحة البدائية. كالسيف والرمح. فإنه من
الغلط أن يهيئ الإنسان سلاحاً يبيد نفس المسلح وعدوه.

وهذا شيء ممكن إذا تمكنا من التعبئة العامة، لأجل السلام، فتبطل بذلك معامل الأسلحة ويستخدم العمال في
سائر الشؤون، وتحل الجيوش الكبيرة وتدمر الأسلحة المعقدة لترجع إلى أسلحة خفيفة، وربما تنتهي الدنيا إلى
سلاح السيف وقد ورد في بعض الأحاديث المعنية بشأن الإمام المهدي. عجل الله تعالى فرجه. أنه يحمل السيف
. وفي بعض الروايات أنه سيف (ذو الفقار) وهو السيف الذي استخدمه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في
معارك الإسلام، وفي بعض الأحاديث أن هذا السيف نزل من السماء على رسول الله (صلى الله عليه وآله)
فأعطاه علياً (عليه السلام) وأصبح فيما بعد من جملة الموارث المقدسة التي توارثها الأئمة الطاهرون (عليهم
السلام) حتى انتهى إلى الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) ..

ولذا ورد في الأحاديث: إن محور الحرب للإمام (عليه السلام) وأصحابه هو ما بين مكة والكوفة، وهذه مسافة
قصيرة جداً، أما بقية البلاد فإنها ستلتفت تحت لوائه (عليه السلام) بدون حرب.

قلع جذور الحرب

وقد ذكرنا في كتاب (فقه الاجتماع): إن حفظ السلام لا يمكن بمجرد الإعلام ومنظمات السلام، لأن السلام
ليس أمراً سطحياً، كما أن الحرب ليست أمراً سطحياً، بل اللازم قطع جذور الحرب حتى يسود السلام، وجذور
الحرب هي (حرمان الإنسان) مما توجب له الثورة ضد الطبقة التي حرمتها، وأسباب الحرمان هي (الاستعمار)
(والاستغلال) و(الاستبداد في الحكم، أو في المال، أو في العلم) فاللازم لمن يريد قطع جذور الحرب أن يحول بين
مثيري الحرب وبين مآربهم وذلك بإشاعة الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فإن الوعي السياسي يوجب
عدم استسلام الشعب للدكتاتوريين سواء كانت دكتاتوريتهم دكتاتورية صريحة كالحكومات الوراثية والإنقلابية، أو
مغلّفة كالحكومات التي تنادي بالديمقراطية، لكنها في مخابر رأس المال أو مخابر الحزب الواحد، كأمریکا
وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ونحوهم.

والوعي الاقتصادي يمنع كون المال بيد جماعة معينة سواء تسلمت تلك الجماعة بيدها مقاليد الحكم أيضاً .
كروسيا . أو لا . كأمريكا ..

والوعي الاجتماعي يوجب أن يعرف الإنسان تساوي المجتمع في العلم والحكم والمال وإنما: (كل امرئ بما كسب
رهين) (الطور: ٢١).

(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم: ٣٩).

ولا طبقة مختارة، فإذا رأى أن العلم . مثلاً . خاص بجماعة لأن لهم المال أو الحكم أو الحزب علم بانحراف المجتمع
ولزوم تعديله حتى يعم العلم الجميع، وهكذا بالنسبة إلى الحكم والمال.

والعالم أخذ يتوجه . تدريجياً . إلى مثل هذا الوعي، فقد كان الحكم العالمي مدة بيد بريطانيا، ثم بيد أمريكا ثم بين
قوتين: أمريكا وروسيا، لكن الحكم توزع في الوقت الحاضر بيد أكبر قدر من الدول .. توزع بين أمريكا وروسيا
وأوروبا والصين، صحيح أنه لا توجد في المجال العسكري إلا الدولتان إلا أنه توجد مراكز قوى متعددة في المجال
السياسي، ولكل مركز حلف جماعي، وفي المجال الاقتصادي توجد الدولتان بالإضافة إلى أوروبا الغربية والصين
واليابان، وفي المجال الذري توجد الهند وغيرها أيضاً، مما سبب خروج الدنيا تدريجياً عن الاحتكار.

كما أن الشيوعية أخذت تتحطم بسبب انفصال الصين ومحاولة انفصال بولونيا، وتلملم بعض البلاد الأخرى
الدائرة في فلك الشيوعية، بالإضافة إلى أنها افتضحت أكبر افتضاح، وخصوصاً عند غزوها . سابقاً . للمجر
وتشييكوسلوفاكيا وحالياً: أفغانستان. والرأسمالية أخذت تتحطم لبنة لبنة فخرجت اليابان وفرنسا عن
(إمبراطوريتهما) والاستعمار البريطاني والأمريكي أخذاً يترنحان للسقوط هنا وهناك وبالأخص في الشرق الأوسط
حيث ظهرت مفاسد إسرائيل.

وعليه فإن إعطاء الوعي للبشرية صار أسهل، صحيح أن الحياد الآن ليس ممكناً، ولا صحيحاً . حيث إن الإنسان
لا يصح أن يسكت أمام الظالم . إلا أن الوعي المتململ أخذ يعمل لإيجاد الحياد السليم، أما الحياد الذي كان
قبل عشرين سنة فقد كان . في الواقع . تغطية للعملاء فهل كاسترو عميل الشرق محايد؟ وهل ناصر عميل أمريكا
كان محايداً؟ والى غير ذلك.

وعلى أي حال، يلزم زيادة الوعي لتتقلع جذور الحرب والتي هي عبارة عن انحصار العلم والحكم والمال بيد أقلية
البشر في قبال حرمان الأكثرية.

والوعي كما يعطي الثلاثة بيد الكل كذلك يقرب الناس بعضهم إلى بعض، ويكوّن بينهم علاقات أكثر فلا
يتمكن المتعصبون المنحرفون من استغلال البشر في مآربهم الشخصية، ولذا نرى أنه كلما زاد الوعي انكشفت
القوميات، واندثرت الطوائفيات المنحرفة، وقبرت العرقيات واللونيات والجغرافيات وما أشبه.

فضح (الحرب بالوكالة)

كما أن اللازم قبل الوصول إلى النتيجة النهائية وهي السلام الشامل، فضح (الحروب بالوكالة) والحيلولة دون
وقوعها وذلك بعدة وسائل هي:

أولاً: تحجيم العلاقات بين الدول الصغيرة والدول الكبيرة، حتى لا يتمكن الكبار من إيكال الصغار في الحروب كما هي العادة الآن.

ثانياً: فضح القواعد العسكرية للدول الكبيرة في أراضي الدول الصغيرة.

ثالثاً: فضح التحالفات العسكرية بين الدول الصغيرة التي تدور في فلك الكبار، وبيان أن هذه الدول الصغار المتحالفة لا تريد بالأحلاف إلا خدمة تلك الدول الكبيرة.

رابعاً: تقوية العلاقات بين الدول المتجاورة حتى لا تتمكن الدول الكبار من إيقاع الحرب بينها.

خامساً: (وهو الأهم من كل ذلك): إيجاد الوعي للشعوب الصغيرة حتى لا تكون ألعوبة بيد حكوماتها التي تنفذ أوامر الأسياد.

كما أن اللازم إيجاد الوعي للشعوب مطلقاً حتى لا يقعوا فريسة جشع الرأسماليين والحكام الدكتاتوريين، سواء كانوا دكتاتوريين صريحين . كروسيا . أو دكتاتوريين مغلفين بثوب مهلهل من الديمقراطية . كبريطانيا وفرنسا وأمريكا . فإن هاتين الطبقتين من الحكام الرأسماليين هم الذين يشعلون الحروب دائماً، وفي ركابهم العلماء المنحرفون الدينيون كالكنيسة . والمدنيون كأصحاب الخبرات والشهادات .

وصدق رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث روي عنه أنه قال: (صنفتان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمرء)(١).

والظاهر أن الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يذكر (المال) في هذا الحديث لأن كان له دور بسيط في الزمن السابق فلم تكن قد ظهرت هذه الرأسماليات المنحرفة جداً والتي ليست من الإسلام وليس الإسلام منها في شيء، فقد كان مشعلوا الحروب سابقاً: الأمرء المنحرفون، والعلماء المزيفون، فكانوا يتعاونون في ظلم الشعوب، ولهذا تبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى خطرها مع وضوح أنه نُبّه في الإسلام إلى خطر كون المال (دولة بين الأغنياء) كما ذكرنا بعض هذا البحث في موضوع المال.

من هدي الإسلام في الحرب

الإسلام يعتبر الحرب حالة استثنائية

وعلى أي حال، فالإسلام يدعو إلى السلام ويعتبر السلم هو الأصل والحرب هي الاضطرار.

قال الله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) (البقرة: ٢٠٨).

قال الله سبحانه: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (الأنفال: ٦١).

وقال سبحانه: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) (البقرة: ٢١٧).

وقال سبحانه: (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قدير والله غفور رحيم لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (الممتحنة: ٦ - ٩).

فترى أن الإسلام يأمر بمحاربة من لا يزال يقاتل المسلمين ويريد الاعتداء، وينهى عن موادة أمثال هؤلاء، أما الذين لم يقاتلوا المؤمنين ولم يخرجوهم فالله سبحانه يلمح إلى برّهم والإقسط إليهم وإن كانوا كفاراً. إلى غيرها من الآيات القرآنية الكثيرة التي إذا جمعت مع الجهاد تكون النتيجة: إن الجهاد والحرب حكم ثانوي اضطراري، وإن السلم هو الحكم الأوّلي، كما ألمعنا إليه فيما سبق.

وفي حديث قال علي (عليه السلام) لعسكره قبل لقاء العدو بصفين: (لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم عليهم) (١).

وفي كتاب الإمام أمير المؤمنين إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين، قال (عليه السلام): (وكان بدء أمرنا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة لا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا، الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء، فقلنا تعالوا نداو ما لا يدرك اليوم بإطفاء النائرة وتسكين العامة حتى يشتد الأمر ويستجمع فنقوى على وضع الحق مواضعه، فقالوا: بل نداويه بالمكابرة، فأبوا حتى جنحت الحرب وركدت ووقدت نيرانها وحمست، فلما ضرستنا وإياهم ووضعت مخالبتها فينا وفيهم أجابوا عند ذلك إلى التي دعوناهم إليه فأجبناهم إلى ما دعوا وسارعناهم إلى ما طلبوا حتى استبان عليهم الحجة وانقطعت منهم المعذرة) (٢).

وقال (عليه السلام) لولده الحسن: (لا تدعون إلى مبارزة) (٣).

وانظروا إلى هذا الحديث المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أراد أن يبعث سرية (٤) دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا باسم الله والله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا

إليها، وأبما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى احد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبي فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله عليه(٥).

وفي رواية: إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان إذا حضرت الحرب يوصي المسلمين بكلمات فيقول: (تعاهدوا الصلاة وحافظوا عليها واستكثروا منها وتقربوا بها فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)(٦). وكان يقول: (لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم)(٧).

شروط وقيود الحرب في الإسلام

الحرب ضرورة قصوى، والضرورات تقدر بقدرها، خصوصاً في مثل الحرب التي هي الدمار والفناء وإبادة الحياة ولذا نرى الإسلام يجعل للحرب قيوداً وشروطاً، مع أنه أوجب الجهاد الابتدائي والدفاعي كما هو معروف في كتب الفقه، وإنما جعل هذه الشروط والقيود الكثيرة حتى لا تكون الحرب إلا بقدر الضرورة الشديدة، ثم إذا انتهت الحرب يعفو الإسلام، ويغفر، ويطلق سراح الجرمين مهما وجد إلى ذلك سبيلاً كما سنشاهد ذلك في الفصول التالية من هذا الكتاب:

١. اشتراط إذن الوالدين:

عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله إني راغب في الجهاد نشيط.

قال: فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل كنت حياً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت خرجت من الذنوب كما ولدت.

فقال: يا رسول الله إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أقم مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة(٨).

وعن جابر قال: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل فقال: إني رجل نشيط وأحب الجهاد ولي والدة تكره ذلك.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله): إرجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحق لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة(٩).

وروى ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله) جاءه رجل فقال: يا رسول الله أجاهد؟

فقال: (ألك أبوان؟)

فقال: نعم.

فقال: ففيهما فجاهد(١٠).

وروي عن أبي سعيد الخدري: إن رجلاً هاجر من اليمن إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) هل لك أحد باليمن؟

فقال: أبوان.

قال (صلى الله عليه وآله) أذنا لك؟

قال: لا.

فقال: إرجع فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما (١١).

٢ . سقوط الجهاد عن طوائف:

ففي حديث عن الحسن بن محبوب، عن بعض أصحابه قال: كتب أبو جعفر (عليه السلام) في رسالته إلى بعض خلفاء بني أمية . إلى أن قال: في ذم الخلفاء الذين يكلفون ما لم يأمر به الله عز وجل، قال (عليه السلام): ثم كلف الأعمى والأعرج والذين لا يجدون ما ينفقون على الجهاد بعد عذر الله عز وجل إياهم، ويكلف الذين يطيقون ما لا يطيقون (١٢).

أقول: وذلك حسب ما جاء في القرآن الحكيم بهذا الصدد، قال سبحانه: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً درجات منه ومغفرةً ورحمةً وكان الله غفوراً رحيماً) (النساء: ٩٥ . ٩٦).

وقال سبحانه: (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تنولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً) (الفتح: ١٦).

وقد روي عن زيد بن ثابت: (إنه لم يكن في آية نفي المساواة بين المجاهدين والقاعدین استثناء غير أولي الضرر فجاء ابن أم مكتوم وكان أعمى وهو يبكي، فقال: يا رسول الله كيف لمن لا يستطيع الجهاد؟ فغشيه الوحي ثانياً ثم أسرى عنه، فقال (صلى الله عليه وآله): اقرأ غير أولي الضرر فألقناه، والذي نفسي بيده لكأني أنظر إلى ملحقها عند صدع في الكتف) (١٣).

وقد ذكرنا في كتاب (الفقه: الجهاد) إنه يسقط الجهاد عن طوائف ست: الأعمى، والأعرج، والمريض، والذي لا يجد النفقة، والذي يكون الجهاد عليه ضرراً، والذي يكون عليه حرجاً في الجملة.

كما أن الجهاد يسقط عن المجنون والعبد والحرم.

فقال علي (عليه السلام) أما علمت أن القلم يرفع عن ثلاثة؛ عت الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستفيظ؟! (١٤).

وعن علي (عليه السلام) أنه قال: (ليس على العبيد جهاد) (١٥).

وهنالك روايات أخر في هذا الصدد:

٣ . لا جهاد على المرأة:

وعن الأصمغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (كتب الله الجهاد على الرجال والنساء، فجهاد الرجل بذل ماله ونفسه حتى يقتل في سبيل الله، وجهاد المرأة أن تصبر على ما ترى من أذى زوجها وغيرته (عشرته) (١٦)).

وفي حديث آخر: (وجهاد المرأة حسن التبعل) (١٧).

وعن علي (عليه السلام) أنه قال: (ليس على العبيد جهاد ما استغنوا عنهم، ولا على النساء جهاد، ولا على من لم يبلغ الحلم) (١٨).

وعن علي (عليه السلام) أيضاً قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كتب الله الجهاد على رجال أمتي، والغيرة على نساء أمتي، فمن صبر منهن واحتسب أعطاها الله أجر شهيد) (١٩).

وعن السيد علي بن طاووس في اللهوف قال رأيت حديثاً: إن (وهب) كان نصرانياً. إلى أن ذكر مقتله وخروج أمه في المعركة. قال: فقال لهما الحسين (عليه السلام): (ارجعي يا أم وهب، أنت وابنك مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإن الجهاد مرفوع عن النساء) (٢٠).

وعن حفص بن غياث (في حديث): إنه سأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن النساء كيف سقطت الجزية عنهن ورفعت عنهن؟ فقال: لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نهى عن قتل النساء والولدان في دار الحرب إلا أن يقاتلن، فإن قاتلن فأمسك عنها ما أمكنك ولم تحف خللاً. فلما نهى عن قتلهن في دار الحرب كان (ذلك) في دار الإسلام أولى، ولو امتنعت أن تؤدي الجزية لم يمكن قتلها، فلما لم يمكن قتلها رفعت الجزية عنها ولو امتنع الرجال أن يؤدوا الجزية كانوا ناقضين للعهد وحلت دماؤهم وقتلهم، لأن قتل الرجال مباح في دار الشرك، وكذلك لا يقتل المقعد من أهل الذمة والأعمى والشيخ الفاني والمرأة والولدان في أرض الحرب، فمن أجل ذلك رفعت عنهم الجزية.

٤ . لا تجوز الحرب مع غير الإمام العادل أو نائبه:

عن يونس قال: سأل أبا الحسن (عليه السلام) رجل وأنا حاضر فقال له: جعلت فداك إن رجلاً من مواليك بلغه أن رجلاً يعطي سيفاً وقوساً في سبيل الله فأتاه فأخذهما منه (وهو جاهل بوجه السبيل) ثم لقيه أصحابه فأخبروه أن السبيل مع هؤلاء لا يجوز وأمره بردهما.

قال (عليه السلام): فليفعل.

قال: قد طلب الرجل فلم يجده وقيل له: قد قضى الرجل.

قال (عليه السلام): فليربط ولا يقاتل.

قال: في مثل قزوين وعسقلان والديلم وما أشبه هذه الثغور؟

فقال: نعم.

قال: فإن جاء العدو إلى الموضع الذي هو فيه مرابط كيف يصنع؟

قال (عليه السلام): يقاتل عن بيضة الإسلام.

قال: يجاهد؟

قال (عليه السلام): لا، إلا أن يخاف على دار المسلمين.

أرأيتك لو أن الروم دخلوا على المسلمين لم ينبغ لهم أن يمنعوهم.

قال (عليه السلام): يرباط ولا يقاتل وإن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل فيكون قتاله لنفسه ليس للسلطان، لأن في دروس الإسلام دروس ذكر محمد (صلى الله عليه وآله)(٢١). وعن بعضهم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سألته عن رجل دخل أرض الحرب بأمان فغزا القوم الذين عليهم قوم آخرون.

قال (عليه السلام): (على المسلم أن يمنع نفسه ويقاتل عن حكم الله وحكم رسوله، وأما أن يقاتل الكفار على حكم الجور وسنتهم فلا يحل له ذلك)(٢٢).

وعن أبي عروة السلمي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (سأل رجل فقال: إني كنت أكثر الغزو وأبعد في طلب الأجر وأطيل في الغيبة فحجر ذلك عليّ فقالوا: لا غزو إلا مع إمام عادل فما ترى أصلحك الله؟ فقال أبو عبدالله (عليه السلام): إن شئت أن أجمل لك أجملت، وإن شئت أن ألخص لك لخصت. فقال: بل أجمل.

فقال (عليه السلام): إن الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة..)

قال فكأنه اشتهى أن يلخص له قال: فلخلص لي أصلحك الله.

فقال (عليه السلام): هات.

فقال الرجل: غزوت فواقعت المشركين فينبغي قتالهم قبل أن أدعوهم.

فقال (عليه السلام): إن كانوا غزوا وقوتلوا وقاتلوا فإنك تجتري بذلك، وإن كانوا قوماً لم يغزوا ولم يقاتلوا فلا يسعك قتالهم حتى تدعوهم.

فقال الرجل: فدعوتهم فأجابني مجيب وأقرّ بالإسلام في قلبه وكان في الإسلام فجير عليه في الحكم وانتهدت حرمة وأخذ ماله واعتدي عليه فكيف بالمخرج وأنا دعوته؟

فقال (عليه السلام): إنكما مأجوران على ما كان من ذلك وهو معك يحوطك من وراء حرمتك ويمنع قبلتك ويدفع عن كتابك ويحقن دمك خير من أن يكون عليك يهدم قبلتك ويتتهك حرمتك ويسفك دمك ويحرق كتابك(٢٣).

٥ . الدعوة إلى الإسلام.. أولاً:

عن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) بعثني رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى اليمن فقال: (يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي)(٢٤).

وعن دعائم الإسلام، عن علي (عليه السلام) أنه قال: (لا يغز قوم حتى يدعوا)(٢٥).

يعني إذا لم يكن بلغتهم الدعوة، وإن أكدت الحجّة عليهم بالدعاء فحسن.

وعن الغوالي، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (لا تقاتل الكفار إلا بعد الدعاء)(٢٦).

وعن دعائم الإسلام قال: روينا عن أبي عبد الله عن أبيه، عن آباءه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان إذا بعث جيشاً أو سرية أوصى صاحبها بتقوى الله في خاصة نفسه، ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: أغزوا بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا تقاتلوا القوم حتى تحتجوا عليهم بأن تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فإن أجابوكم فأخوانكم في الدين ادعوهم حينئذ إلى النقلة من ديارهم إلى دار المهاجرين (إلى آخر الحديث..)(٢٧).

٦. الاقتصار على القدر الضروري:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم فأجلسهم بين يديه، ثم يقول: سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها، وأما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين وإن أبي فابلغوه مأمناً واستعينوا بالله)(٢٨).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا بعث أميراً على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه، ثم في أصحابه عامة، ثم يقول: إغز بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا متبتلاً في شاهق، ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرن لعلكم تحتاجون إليه، ولا تعقروا من البهائم ما يؤكل لحمه إلا ما لبد لكم من أكله، وإذا لقيتم عدواً للمسلمين فادعوهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوكم إليها فأقبلوا منهم وكفوا عنهم: ادعوهم إلى الإسلام فإن دخلوا فيه فأقبلوا منهم وكفروا عنهم، وادعوهم إلى الهجرة بعد الإسلام، فإن فعلوا فأقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن أبوا أن يهاجروا واختاروا ديارهم وأبوا أن يدخلوا في دار الهجرة كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين يجري عليهم ما يجري على أعراب المؤمنين، ولا يجري لهم في الفياء ولا في القسمة شيئاً إلا أن يهاجروا في سبيل الله، فإن أبوا هاتين فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أعطوا الجزية فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عز وجل عليهم وجاهدهم في الله حق جهاده وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن ينزلوا على حكم الله عز وجل فلا تنزل بهم ولكن أنزلهم على حكمكم، ثم اقض فيهم بعد ما شئتم فإنكم إن أنزلتموهم على حكم الله لم تدروا تصيبوا حكم الله فيهم أم لا، وإذا حاصرت أهل حصن فإن أذنوك على أن تنزلهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على ذمكم وذمة آبائكم وإخوانكم فإنكم أن تخفروا ذمكم وذمة آبائكم وإخوانكم كان أيسر عليكم يوم القيامة من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله (صلى الله عليه وآله)(٢٩).

وعن أبي عبد الله، عن أبيه، عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان إذا بعث جيشاً أو سرية أوصى صاحبها بتقوى الله في خاصة نفسه ومن معه من المسلمين خيراً، وقال: اغزوا بسم الله وفي سبيل الله (إلى أن قال): ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة. يعني إن لم يقاتلوكم. ولا تمثلوا ولا تغلوا ولا تغدروا)(٣٠).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (نهي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يلقي السم في بلاد المشركين)(٣١).

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه عن علي (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نهى أن يلقي السم في بلاد المشركين)(٣٢).

عن علي (عليه السلام) في حديث أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نصب المنجنيق على أهل الطائف وقال (صلى الله عليه وآله): (إن كان معهم في الحصن قوم من المسلمين فأوقفوهم معهم ولا يتعمدهم بالرمي وارموا المشركين وانذروا المسلمين إن كانوا أقيموا مكرهين ونكبوا عنهم ما قدرتم وإلا فإن أصبتم منهم أحداً ففيه الدية)(٣٣).

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا تقتلوا في الحرب إلا من جرت عليه المواصي)(٣٤).

وعن الدعائم، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في وصيته: (لا تقتلوا وليداً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة)(٣٥). وفي الحديث: إن سعد بن معاذ حكم في بني قريظة بقتل مقاتليهم وسي ذراريهم وأمر بكشف مؤثرهم، فمن أئبت فهو من المقاتلة ومن لم يئبت فهو من الدراري وصوبه النبي (صلى الله عليه وآله).

٧. لا حرب مع إعطاء الأمان أو الصلح:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: ما معنى قول النبي (صلى الله عليه وآله): (يسعى بذمتهم أدناهم). قال (عليه السلام): (لو أن جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين فأشرف رجل فقال: أعطوني الأمان حتى ألقى صاحبكم وأناظره فأعطاهم أدناهم الأمان وجب على أفضلهم الوفاء به)(٣٦).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لو أن قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان، فقالوا: لا، فظنوا أنهم قالوا: نعم، فنزلوا إليهم كانوا آمنين)(٣٧).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من ائتمن رجلاً على دمه ثم خاس به فأنا من القاتل برئ، وإن كان المقتول في النار)(٣٨).

وفي عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) للأشتر رحمه الله تعالى: (لا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدو الله فيه رضى، فإن الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة وألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وادع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله سبحانه

شيء للناس عليه أشد اجتماعاً مع تفريق أهوائهم وتشتيت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما أسبلوا عن عواقب الغدر، فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فإنه لا يجتري على الله إلا جاهل شقي وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحرماً يسكنون منعه ويستعيضون إلى جواره فلا إدخال ولا مدالسة ولا خداع فيه، ولا تعقد عقداً يجوز فيه العلل، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكد والتوثقة، ولا يدعوك ضيق أمر لزمه فيه عهد الله إلى انفساخه بغير الحق فإن صبرك على ضيق ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وإن تحيط بك فيه من الله طلبته لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك(٣٩).

وعن علي (عليه السلام)، أنه قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مسجد الخيف فقال: (رحم الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلغها إلى من ليسمعها، فرب حامل فقهه وليس بفقير، ورب حامل فقهه إلى من هو أفقر منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، والزموم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، والمسلمون أخوة تكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، فإذا أمن من أحد من المسلمين أحداً من المشركين لم يجب أن يخفر ذمته(٤٠).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (إذا أوماً أحد من المسلمين أو أشار بالأمان إلى أحد من المشركين فنزل على ذلك فهو في أمان(٤١).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام)، أنه قال: (الأمان جائز بأي لسان كان(٤٢).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أوفوا بعهد من عاهدتم(٤٣).

وعن علي (عليه السلام) قال: (إذا أوماً أحد من المسلمين إلى أحد من أهل الحرب فهو أمان(٤٤).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن قريتين من أهل الحرب لكل واحدة منهما ملك على حدة إقتلوا ثم اصطلحوا، ثم إن أحد الملكين غدر بصاحبه فجاء إلى المسلمين فصالحهم على أن يغزوا تلك المدينة؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): (لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا ولا يأمرؤا بالغدر ولا يقاتلوا مع الذين غدروا، ولكنهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم لا يجوز عليهم ما عاهد عليه الكفار(٤٥).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يجيء كل غادر بإمام يوم القيامة مائلاً شدقه حتى يدخل النار(٤٦).

وعن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ذات يوم وهو يخطب على المنبر في الكوفة: (أيها الناس لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، إلا أن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفر، ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار(٤٧).

وعن علي (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال فيما عهد إليه: (وإياك والغدر بعهد الله والإحفار لذمته، فإن الله جعل عهده وذمته أمناً أمضاه بين العباد برحمته، والصبر على ضيق ترجو انفراجه خير من غدر تخاف أوزاره وتبعاته وسوء عاقبته(٤٨).

وفي حديث قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الوفاء توأم الصدق، ولا أعلم جنة أوفى منه، وما يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة، ما لهم؟ قاتلهم الله، قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها وينتهد فرصتها من لا حريجة له في الدين)(٤٩).

وقال (عليه السلام): (الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر لأهل الغدر وفاء عند الله)(٥٠).
أقول أشار (عليه السلام) إلى قاعدة الأهم والمهم وليس معناه الغدر، بل معناه أن أمر الله أهم من الوفاء للغادر بأن يعتذر عن البقاء مع الغادر لأنه يريد الوقاية.

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (أربع من كن فيه فهو منافق إلى أن قال: وإذا عاهد غدر)(٥١).
وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (أسرع الأشياء عقوبة رجل عاهدته على أمر وكان من نيتك الوفاء به ومن نيته الغدر بك)(٥٢).

٨ . وقف إطلاق النار في الأشهر الحرم:

عن العلاء بن الفضيل قال: سألته عن المشركين أبيتديهم المسلمون بالقتال في الشهر الحرام؟ فقال (عليه السلام): إذا كان المشركون يبتدؤونهم باستحلاله، ثم رأى المسلمون أنهم يظهرون عليهم فيه وذلك قول الله عز وجل: (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) (البقرة: ١٩٤).

والروم في هذا بمنزلة المشركين لأنهم لم يعرفوا للشهر الحرام حرمة، ولا حقاً فهم يبدؤون بالقتال فيه وكان المشركون يرون له حقاً وحرمة فاستحلوه فاستحل منهم أهل البغي يبتدؤون بالقتال)(٥٣).

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره: (الأشهر الحرم رجب مفرد وذو القعدة وذو الحجة ومحرم متصلة، حرم الله فيها القتال ويضاعف فيها الذنوب وكذلك الحسنات)(٥٤).

٩ . الأسير لا يُقتل:

عن الزهري، عن علي بن الحسين (عليه السلام) (في حديث) قال: (إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي ولم يكن معك محمل فأرسله ولا تقتله، فإنك لا تدري ما حكم الإمام فيه)، وقال: (الأسير إذا أسلم فقد حقن دمه وصار فيئاً)(٥٥).

وعن عبد الله بن ميمون قال: أتى علي (عليه السلام) بأسير يوم صفين فبايعه فقال علي (عليه السلام): (لا أقتلك إني أخاف الله رب العالمين) فحلى سبيله وأعطاه سلبه الذي جاء به(٥٦).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (أسر رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم بدر أسارى وأخذ الفداء منهم، فالإمام مخير إذا أظفره الله بالمشركين بين أن يقتل المقاتلة أو يأسرهم ويجعلهم في الغنائم ويضرب عليهم السهام، ومن رأى المنّ عليه منهم منّ عليه)(٥٧).

وعن بشير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: إني رأيت في المنام أني قلت لك: إن القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير فقلت لي: نعم هو كذلك.

فقال أبو عبدالله (عليه السلام): (هو كذلك هو كذلك)(٥٨).

وعن سماعة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لقي عباد البصري علي بن الحسين (عليه السلام) في طريق مكة، فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه، إن الله عز وجل يقول: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) (التوبة: ١١١)).
فقال علي بن الحسين (عليه السلام): (أتم الآية).

فقال: (التائبون العابدون) (التوبة: ١١٢).

فقال علي بن الحسين (عليه السلام): إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج(٥٩).
وعن محمد بن عبد الله السمندي قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): (إني أكون بالباب، يعني باب الأبواب، فينادون السلاح فأخرج معهم؟

فقال لي: أرايتك إن خرجت فأسرت رجلاً فأعطيته الأمان وجعلت له من العقد ما جعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) للمشركين أكان يفون لك به؟ قال:
قلت: لا والله جعلت فداك ما كانوا يفون لي به.
قال (عليه السلام): فلا تخرج(٦٠).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله، عن آبائه (عليهم السلام) قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن على الحكم ولا ينفذ في الفياء أمر الله عز وجل، فإنه إن مات في ذلك المكان كان معيناً لعدونا في حبس حقتنا، والإشابة بدمائنا، وميته مية جاهلية)(٦١).

وعن جعفر بن محمد (عليه السلام) في حديث شرائع الدين قال: (والجهاد واجب مع إمام عادل، ومن قتل دون ماله فهو شهيد)(٦٢).

وعن بشارة المصطفى، عن كميل، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (يا كميل لا غزو إلا مع إمام عادل)(٦٣).

وعن السيد علي بن طاووس في كتاب كشف اليقين، بسنده إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في خبر المعراج: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه (صلى الله عليه وآله): (... والمشي على الأقدام إلى الجهاد معك ومع الأئمة من ولدك...)(٦٤).

وعن الشعبي قال: (لما أسر علي (عليه السلام) الأسرى يوم صفين فحلى سبيلهم أتوا معاوية وقد كان عمرو بن العاص يقول: لأسرى أسرهم معاوية: اقتلهم، فما شعروا إلا بأسراهم قد حلى سبيلهم علي (عليه السلام)، فقال معاوية: يا عمرو لو أطعناك في هؤلاء الأسرى لوقعنا في قبيح من الأمر ألا ترى قد حلى سبيل أسرانا، فأمر بتخلية من في يديه من أسرى علي (عليه السلام)، وقد كان علي (عليه السلام) إذا أخذ أسيراً من أهل الشام حلى سبيله إلا أن يكون قد قتل من أصحابه أحداً فيقتله به، فإذا حلى سبيله فإن عاد الثانية قتله ولم يخل سبيله.
الخبر(٦٥).

أقول: (قتله) في حالات الضرورة لأن الإمام كان يخلي سبيل الأسرى أيضاً كما في التواريخ ويأتي في قصة أصبغ بن ضرار ذلك.

١٠. لا يقتل من أخرج كرهاً:

عن دعائم الإسلام، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم بدر: (من استطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فلا تقتلوهم فإنهم إنما أخرجوا كرهاً) (٦٦).

١١. مزيد من السماح مع غير ذي الففة:

عن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن الطائفتين من المؤمنين إحداهما باغية والأخرى عادلة فهزمت الباغية العادلة؟ قال: (ليس لأهل العدل أن يتبعوا مدبراً ولا يقتلوا أسيراً ولا يجهزوا على جريح) (٦٧).

وفي حديث أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (إن علياً (عليه السلام) كتب إلى مالك وهو على مقدمته في يوم البصرة بأن لا يطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن) (٦٨).

وعن عبد الله بن شريك، عن أبيه قال: لما هزم الناس يوم الجمل قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تتبعوا مولياً ولا تجهزوا على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن) (٦٩).

وعن حسن بن علي بن شعبة، عن أبي الحسن الثالث (عليه السلام): (... وانه يوم الجمل لم يتبع مولياً ولم يجهز على جريح، ومن ألقى سلاحه آمنه، ومن دخل داره آمنه) (٧٠).

وفي رواية: (إذا انهزم أهل البغي وكانت له فئة يلحون إليها طلبوا وأجهز على جرحاهم واتبعوا وقتل ما أمكن اتباعهم وقتلهم، وكذلك سار أمير المؤمنين (عليه السلام) في أصحاب صفين، لأن معاوية كان وراءهم، وإذا لم يكن له فئة لم يطلبوا ولم يجهز على جرحاهم لأنهم إذا ولّوا تفرقوا، وكذلك روينا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه سار في أهل الجمل لما قتل طلحة والزبير وقبض على عائشة وانهم أصحاب الجمل نادى مناديه: (لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبراً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن)، ثم دعا ببغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الشهباء فركبها، ثم قال: تعال يا فلان وتعال يا فلان حتى جمع إليه زهاء ستين شيخاً كلهم من همدان قد شكوا الأترسة وتقلدوا السيوف ولبسوا المغافر فسار وهم حوله حتى انتهى إلى دار عظيمة فاستفتح ففتح له، فإذا هو بنساء يبكين بفناء الدار فلما نظرن إليه صحن صيحة واحدة وقلن: (هذا قاتل الأحبة) فلم يقل لهن شيئاً، وسأل عن حجرة عائشة ففتح له بابها ودخل وسمع بينهما كلام شبيه بالمعاذير (لا والله) و(بلى والله) ثم إنه (عليه السلام) خرج فظفر إلى امرأة فقال لها: (إني يا صافية) فأنته مسرعة فقال: ألا تبعدين هؤلاء يزعمن إني قاتل الأحبة لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة ومن في هذه، ومن في هذه) وأوماً (عليه السلام) إلى ثلاث حجر فذهبت إليهن فما بقيت في الدار صائحة إلا سكنت ولا قائمة إلا قعدت. قال الأصبغ. وهو صاحب الحديث. (وكان في إحدى الحجرات عائشة ومن معها من خاصتها، وفي الأخرى مروان بن الحكم وشباب من قريش، وفي

الأخرى عبد الله بن الزبير وأهله)، فقيل للأصمغ: فهلا بسطتم أيديكم على هؤلاء، أليس هؤلاء كانوا أصحاب القرحة فلم استبقيتموهم؟ قال: ضربنا بأيدينا إلى قوائم سيوفنا وحددنا أبصارنا نحوه لكي يأمرنا فيهم بأمر فما فعل وأوسعهم عفواً(٧١).

وقال الشيخ المفيد في كتاب الكافة في إبطال توبة الخاطئة عن أبي مخنف لوط بن يحيى، عن عبد الله بن عاصم، عن محمد بن بشير الهمداني قال: (ورد كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) مع عمر بن سلمة الأوحى إلى أهل الكوفة فكبر الناس تكبيرة سمعها عامة الناس، واجتمعوا لها في المسجد ونودي الصلاة جامعة فلم يتخلف أحد وقرأ الكتاب، فكان فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى قرظة بن كعب ومن قبله من المسلمين سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإننا لقينا القوم الناكثين - إلى أن قال (عليه السلام) - فلما هزمهم الله أمرت أن لا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح ولا يكشف عورة، ولا يهتك ستر ولا يدخل دار إلا بإذن وآمنت الناس)(٧٢).

وعن حبة العري قال في حديث: فلما كان يوم الجمل وبرز الناس بعضهم لبعض (إلى أن قال): فولى الناس منهزمين فنادى منادي أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبراً ومن أغلق بابه فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن)(٧٣).

وعن محمد بن الفضيل بن عطا مولى مزينة قال: حدثني جعفر بن محمد (عليه السلام)، عن أبيه (عليه السلام)، عن محمد بن علي (عليه السلام) ابن الحنفية قال: كان اللواء معي يوم الجمل (إلى أن قال) ثم أمر مناديه فنادى: (لا يدفعن على جريح ولا يتبع مدبر، ومن أغلق بابه فهو آمن)(٧٤).

وروي أنه كان من أهل الشام بصفين رجل يقال له: الأصمغ بن ضرار وكان يكون طليعة مسلحة فندب له علي (عليه السلام) الأشر فآخذه أسيراً، من غير أن يقاتل، وكان علي (عليه السلام) ينهى عن قتل الأسير الكاف فجاء به ليلاً وشد وثاقه وألقاه مع أضيافه ينتظر به الصباح، وكان الأصمغ شاعراً مفوهماً فأيقن بالقتل ونام أصحابه فرفع صوته وأسمع الأشر أبياتاً يذكر فيها حاله ويستعطفه فغدا به الأشر علي (عليه السلام)، فقال: يا أمير المؤمنين هذا رجل من المسلحة لقيته بالأمس، والله لو علمت أن قتله الحق، قتلته، وقد بات عندنا الليلة وحركنا، فإن كان فيه القتل فأقتله، وإن غضبنا فيه وإن كنت فيه بالخيار فهبه لنا، قال: (هو لك يا مالك، فإذا أصبت أسير أهل القبلة فلا تقتله، فإن أسير أهل القبلة لا يفادى ولا يقتل). فرجع به الأشر إلى منزله وقال: لك ما أخذنا معك، وليس لك عندنا غيره(٧٥).

وعن سلام قال: شهدت يوم الجمل (إلى أن قال): ولما انهزم أهل البصرة نادى منادي علي (عليه السلام): (لا تتبعوا مدبراً، ولا من ألقى سلاحه، ولا تجهزوا على جريح، فإن القوم قد ولوا وليس لهم فئة يلجؤون إليها جرت السنة بذلك في قتال أهل البغي)(٧٦).

وعن دعائم الاسلام، عن علي (عليه السلام)، أنه سأله عمار حين دخل البصرة، فقال: يا أمير المؤمنين بأي شيء تسير في هؤلاء؟ قال (عليه السلام): (بالمؤمن والعفو كما سار النبي (صلى الله عليه وآله) في أهل مكة)(٧٧).

وعن موسى بن طلحة بن عبيد الله . وكان فيمن أسر يوم الجمل وحبس مع من حبس من الأسارى بالبصرة . فقال كنت في سجن علي (عليه السلام) بالبصرة حتى سمعت المناادي ينادي أين موسى بن طلحة بن عبيد الله؟ قال: فاسترجعت واسترجع أهل السجن وقالوا يقتلك . فأخرجني إليه فلما وقفت بين يديه قال لي: يا موسى . قلت: لبيك يا أمير المؤمنين . قال: قل استغفر الله .

قلت: استغفر الله وأتوب إليه ثلاث مرات .

فقال لمن كان معي من رسله: خلّوا عنه وقال لي: اذهب حيث شئت وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع فخذها واتق الله فيما تستقبله من أمرك واجلس في بيتك . فشكرت وانصرفت وكان علي (عليه السلام) قد أغنم أصحابه ما أجلب به أهل البصرة إلى قتاله (أجلبوا به، يعني أتوا به في عسكرهم) ولم يعرض لشيء غير ذلك . الحديث . (٧٨) .

وعن عبد الله بن جعفر الحميري، بسنده عن جعفر، عن أبيه (عليه السلام): (إن علياً (عليه السلام) لم يكن ينسب أحداً من أهل حربته إلى الشرك، ولا إلى النفاق ولكنه كان يقول: هم إخواننا بغوا علينا)(٧٩) .

١٢ . إتمام الحجّة على العدو، وعدم البدء بالهجوم:

روى العياشي بسنده إلى أبي عبد الله (عليه السلام): (إن علياً (عليه السلام) قال لأصحابه يوم البصرة: (لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله تعالى وبينهم) فقام إليهم فقال لأهل البصرة: هل تجدون عليّ جوراً في الحكم؟ قالوا: لا)(٨٠) .

وعن دعائم الإسلام، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه خطب بالكوفة فقام رجل من الخوارج فقال: لا حكم إلا لله، فسكت أمير المؤمنين (عليه السلام) ثم قام آخر وآخر، فلما أكثروا قال: (كلمة حق يراد بها باطل لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد الله أن تصلوا فيها ولا نمنعكم الفياء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بحرب حتى تبدؤونا)(٨١) .

وعن عبد الرحمن بن جندب، عن أبيه: (إن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يأمر في كل موطن لقينا فيه عدونا فيقول: (لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤكم حجة أخرى لكم، فإذا هزمتهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل)(٨٢) .

قال الكليني: وفي كلام آخر له (عليه السلام): (وإذا لقيتم هؤلاء القوم غداً فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فإن بدؤوكم فأنهضوا إليهم)(٨٣) .

وروى الشيخ المفيد في الإرشاد في سياق مقتل أبي عبدالله (عليه السلام) ووصوله إلى نينوى وممانعة الحر قال: فقال له زهير بن القين: إني والله لا أرى أن يكون بعد الذين ترون إلا أشد مما ترون يا بن رسول الله إن قتال هؤلاء القوم الساعة أهون من قتال من يأتينا من بعدهم، ولعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به. فقال الحسين (عليه السلام): (ما كنت لأبدأهم بالقتال) ثم نزل (وساق الحديث إلى أن ذكر قصة يوم عاشوراء) قال: فنأدى شمر بن ذي الجوشن لعنه الله بأعلى صوته: يا حسين أتعجلت بالنار قبل يوم القيامة؟ فقال الحسين (عليه السلام): (من هذا؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن). فقالوا: نعم.

فقال: يا بن راعية المعزى أنت أولى بها صلياً.

ورام مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم فمنعه الحسين (عليه السلام) من ذلك، فقال له: دعني حتى أرميه، فإن الفاسق من أعداء الله وعظماء الجبارين وقد أمكن الله منه. فقال له الحسين (عليه السلام): (لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم بالقتال)(٨٤).
١٣ . عدم التعرض للنساء:

روى الكافي في حديث مالك بن أعين، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال في جملة ما قال: (ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهنكوا سترأ، ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمت أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ناقصات القوى والأنفس والعقول، وقد كنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فيعيّر بها وعقبه من بعده)(٨٥).

أقول: قد ذكرنا في أول كتاب النكاح من شرح العروة معنى قوله (عليه السلام) بأنهن ناقصات العقول والحظوظ والإيمان.

١٤ . عدم قتل الرسل:

روى عبد الله بن جعفر الحميري في قرب الإسناد، عن جعفر بن محمد (عليه السلام)، عن أبيه (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا يقتل الرسل)(٨٦). وعن دعائم الاسلام، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (إذا ظفرتم برجل من أهل الحرب فزعم أنه رسول إليكم، فإن عرف ذلك وجاء بما يدل عليه فلا سبيل لكم عليه حتى يبلغ رسالته ويرجع إلى أصحابه، وإن لم تجدوا على قوله دليلاً فلا تقبلوا منه)(٨٧).

١٥ . تحريم القتال على غير سنة:

عن زيد بن علي عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا التقى المسلمان بسيفهما على غير سنة فالقاتل والمقتول في النار. قيل يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟

قال: لأنه أراد قتالاً(٨٨).

وعن دعائم الإسلام، عن علي (عليه السلام) إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال فيما عهد إليه: (وإياك والتسرع إلى سفك الدماء لغير حلها، فإنه ليس شيء أعظم من ذلك تباعة)(٨٩).

١٦. لا حرب للجبناء:

روي الجعفریان، بسنده إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من أحس من نفسه جيناً فلا يغز)(٩٠).

١٧. عدم قتل الذمي:

روى جعفر بن أحمد القمي عن المطلب أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من قتل رجلاً من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة التي توجد ريجها مسيرة اثني عشر عاماً)(٩١).

١٨. احترام كرماء الكفار:

عن محمد بن جرير الطبري قال: لما ورد سبي الفرس إلى المدينة أراد عمر بن الخطاب بيع النساء، وأن يجعل الرجال عبيداً، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إكرموا كريم كل قوم. فقال عمر: قد سمعته يقول: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وإن خالفكم.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): هؤلاء قوم قد ألقوا إليكم السلم ورجبوا في الإسلام، ولا بد من أن يكون فيهم ذرية، وأنا أشهد الله وأشهدكم إني قد أعتقت نصيبي منهم لوجه الله.

فقال المهاجرون والأنصار: وقد هبنا حقنا لك يا أبا رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فقال: اللهم إني أشهد أنهم قد وهبوا إلي حقهم وقبلته وأشهدك إني أعتقتهم لوجهك.

فقال عمر: لم نقضت علي عزمي في الأعاجم، وما الذي رغبتك عن رأيي فيهم؟

فأعاد عليه ما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في إكرام الكرماء.

فقال عمر: قد وهبت لله ولك يا أبا الحسن ما يخصني وسائر ما لم يوهب لك.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اللهم إني أشهد ما قاله وعلى عنقي إياهم.

فرغب جماعة من قريش أن يستنكحوا النساء، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): هؤلاء لا يكرهن على ذلك ولكن يخيرن ما اخترته عمل به.. الخبر(٩٢).

١٩. استحباب عدم أخذ السلب:

روى علي بن أسباط، عن ابن فضال، عن الصادق (عليه السلام)، عن أبيه (عليه السلام)، عن آبائه (عليهم السلام): (إن علياً (عليه السلام) كان يباشر القتال بنفسه وكان لا يأخذ السلب)(٩٣).

٢٠. عدم قتل الأطفال:

كما يدل على ذلك الأخبار المتقدمة ومنها الواردة في تصديق رسول الله (صلى الله عليه وآله) حكم سعد، حيث أمر أن لا يقتل من لم يبلغ الحلم من رجال اليهود.

٢١. عدم قطع الأشجار، وعدم قطع الماء:

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه نهى عن قطع الشجر المثمر أو إحراقه . يعني في دار الحرب وغيرها .
إلا أن يكون ذلك من صلاح المسلمين، فقد قال الله عز وجل: (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على
أصولها فيبإذن الله وليخزي الفاسقين) (الحشر: ٥)(٩٤).
كما أنه ورد: إن رسول الله لما أراد غزو خيبر دلّه بعض اليهود على ماء كان يجري لهم، وقال له: إن قطعت الماء
عنهم استسلموا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لا أفعل ذلك فلم يقطع الماء عنهم.
كما أن علياً (عليه السلام) لم يقطع الماء عن أصحاب معاوية.

١ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ١٤ .

٢ . المصدر السابق: ص ١١٥ .

٣ . المصدر السابق: ج ٤، ص ٥٢ .

٤ . (السرية) فرقة عسكرية تتكون من حوالي اثني عشر مقاتلاً . غالباً ..

٥ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٣ .

٦ . الكافي: ج ٥، ص ٣٦ .

٧ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ١٤ .

٨ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٢ .

٩ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١٣ .

١٠ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٢ .

١١ . المصدر السابق: ص ٢٣ .

١٢ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٧ .

١٣ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٢ .

١٤ . وسائل الشيعة: ج ١، ص ٣٢ .

١٥ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٤ .

١٦ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١٥ .

١٧ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ٣٤ .

١٨ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٤ .

١٩ . المصدر السابق: ص ٢٥ .

٢٠ . المصدر السابق.

٢١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٠ .

٢٢ . المصدر السابق: ص ٢١ .

- ٢٣ . الكافي: ج ٥، ص ٢١ .
- ٢٤ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٠ .
- ٢٥ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٣٠ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٣١ .
- ٢٧ . المصدر السابق .
- ٢٨ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٣ .
- ٢٩ . المصدر السابق: ص ٤٤ .
- ٣٠ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٣٩ .
- ٣١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٦ .
- ٣٢ . الكافي ج ٥، ص ٢٨ .
- ٣٣ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٤٢ .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق: ص ٤٣ .
- ٣٦ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٤٩ .
- ٣٧ . المصدر السابق: ص ٥٠ .
- ٣٨ . المصدر السابق: ص ٥١ .
- ٣٩ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٤٣ .
- ٤٠ . المصدر السابق: ص ٤٥ .
- ٤١ . المصدر السابق .
- ٤٢ . المصدر السابق: ص ٤٦ .
- ٤٣ . المصدر السابق .
- ٤٤ . المصدر السابق .
- ٤٥ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٥١ .
- ٤٦ . المصدر السابق: ص ٥٢ .
- ٤٧ . المصدر السابق .
- ٤٨ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٤٧ .
- ٤٩ . المصدر السابق .
- ٥٠ . المصدر السابق .
- ٥١ . المصدر السابق: ص ٤٨ .

- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٥٢.
- ٥٤ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٤٨.
- ٥٥ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٥٤.
- ٥٦ . المصدر السابق.
- ٥٧ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٤٩.
- ٥٨ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٢.
- ٥٩ . المصدر السابق: ص ٣٣.
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٣٤.
- ٦١ . المصدر السابق.
- ٦٢ . المصدر السابق: ص ٣٥.
- ٦٣ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٣٣.
- ٦٤ . المصدر السابق: ص ٣٤.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٥٠.
- ٦٦ . المصدر السابق.
- ٦٧ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٥٤.
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ٥٥.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق: ص ٥٦.
- ٧١ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٥٢.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٥٣.
- ٧٣ . المصدر السابق.
- ٧٤ . المصدر السابق.
- ٧٥ . المصدر السابق: ص ٥٥.
- ٧٦ . المصدر السابق: ص ٥٦.
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ٥٧.
- ٧٨ . المصدر السابق.
- ٧٩ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٦٢.
- ٨٠ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٦٣.

- ٨١ . المصدر السابق: ص ٦٥ .
- ٨٢ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٦٩ .
- ٨٣ . المصدر السابق: ص ٧٠ .
- ٨٤ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٨٠ .
- ٨٥ . المصدر السابق: ص ٨٦ .
- ٨٦ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٩٠ .
- ٨٧ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٩٨ .
- ٨٨ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١١٣ .
- ٨٩ . مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ١٥٩ .
- ٩٠ . المصدر السابق: ج ١٣، ص ١٢٥ .
- ٩١ . المصدر السابق: ١٣١ .
- ٩٢ . المصدر السابق: ص ١٣٢ .
- ٩٣ . المصدر السابق: ص ١٢٧ .
- ٩٤ . المصدر السابق .

القتل في منظار الإسلام

القتل في منظار الإسلام

الإسلام جعل القتل والقتال في أقصى درجات الضرورة، ولذا شدد في قتل الناس - ظلماً - تشديداً كبيراً. وفيما يلي عرض لبعض النصوص الواردة في هذا الحقل:

١ - تشدد الإسلام في قتل الناس ظلماً:

عن بعضهم قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام)، عن قول الله عز وجل: (من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

قال: (له في النار مقعد إن قتل الناس جميعاً لم يرد إلا ذلك المقعد).

أقول: مع وضوح أن عذابه أشد كما يأتي وهذا لإفادة أن قتل إنسان واحد ليس أمراً هيئناً.

عن حمزان قال: قلت لأبي جعفر في معنى قول الله عز وجل: (من أجل (١) ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

قال: قلت: كيف كأنما قتل الناس جميعاً، فرمما قتل واحداً؟ فقال (عليه السلام): (يوضع في موضع من جهنم إليه ينتهي شدة عذاب أهلها لو قتل الناس جميعاً لكان إنما يدخل ذلك المكان)، قلت: قتل آخر؟ قال (عليه السلام): (يضاعف عليه)(٢).

وعن أبي أسامة زيد الشحام، عن أبي عبد الله: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقف بمنى حين قضى مناسكها في حجة الوداع (إلى أن قال):

فقال: أي يوم أعظم حرمة؟

فقالوا: هذا اليوم.

فقال: أي شهر أعظم حرمة؟

فقالوا: هذا الشهر.

قال: فأأي بلد أعظم حرمة؟

فقالوا: هذا البلد.

قال: (فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت؟).

قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد. ألا من عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها فإنه لا يحل دم امرئ مسلم ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدي كفاراً(٣).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لا يغرنكم ربح الذراعين بالدم، فإنه له عند الله قاتلاً لا يموت).
قالوا: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما قاتل لا يموت؟
فقال: النار(٤).

وعن جابر بن يزيد، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أول ما يحكم الله فيه يوم القيامة الدماء فيوقف القاتل والمقتول بينهما، ثم الذين يلونهما من أصحاب الدماء حتى لا يبقى منهم أحد، ثم الناس بعد ذلك حتى يأتي المقتول بقاتله فيتشخب في دمه وجهه فيقول: هذا قتلني، فيقول: أنت قتلتني؟ فلا يستطيع أن يكتم الله حديثاً)(٥).

وعن أبي الجارود، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من نفس تقتل نفساً إلا وهي تحشر يوم القيامة متعلقة بقاتله بيده اليمنى ورأسه بيده اليسرى وأوداجه تشخب دمماً يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني، فإن كان قتله في طاعة الله أتيب القاتل الجنة وأهد بالمقتول إلى النار، وإن كان في طاعة فلان، قيل له: أقتله كما قتلك ثم يفعل الله فيهما بعد مشيئته).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) قال: (ولا يوفق قاتل المؤمن متعمداً للتوبة)(٦).
أقول: أي أنه مقتضى لذلك.

وعن عبد الله بن سنان، عن رجل، عن أبي عبد الله قال: (لا يدخل الجنة سافك للدم، ولا شارب الخمر، ولا مشاء بنميم)(٧).

وعن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

قال: (هو واد في جهنم لو قتل الناس جميعاً كان فيه ولو قتل نفساً واحدة كان فيه)(٨).
وعن محمد بن سنان، فيما كتب إليه الرضا (عليه السلام) في جواب مسأله: (حرم الله النفس لعله فساد الخلق في تحليله لو أحل وفنائهم وفساد التدبير).

وعن أبان، عن أخبره، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، سأل عن قتل نفساً متعمداً؟ قال: (جزاؤه جهنم).
وعن حفص بن البختري، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن امرأة عذبت في هرة ربطتها حتى ماتت عطشاً)(٩).

وعن الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن أعتى الناس على الله من قتل غير قاتله ومن ضرب من لم يضربه)(١٠).

وعن سليمان بن خالد قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (أوحى الله إلى موسى بن عمران (عليه السلام)، أن يا موسى قل للملأ من بني إسرائيل؛ إياكم وقتل النفس الحرام بغير حق، فإن من قتل منكم نفساً في الدنيا قتلته مائة ألف قتلة مثل ما قتل صاحبه)(١١).

أقول: ذلك كما ينتج الحب ألوف الحَبَات، فإن الآخرة نتيجة الدنيا.

وعن عبد الرحمن بن مسلم، عن أبيه قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (من قتل مؤمناً متعمداً أثبت الله على قاتله جميع الذنوب، وبرئ المقتول منها، وذلك قول الله عز وجل: (إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار) (المائدة: ٢٩)(١٢).

وعن أيوب بن عطية الحذاء قال: سمعت أبا عبد الله يقول: إن علياً (عليه السلام) وجد كتاباً في قراب سيف رسول الله (صلى الله عليه وآله) مثل الأصبع فيه: (إن أعتى الناس على الله القاتل غير قاتله، والضارب غير ضاربه، ومن والى غير مواليه فقد كفر بما أنزل الله على محمد (صلى الله عليه وآله)، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فلا يقبل منه صرفاً، ولا عدلاً، ولا يحل لمسلم أن يشفع في حد)(١٣).

أقول: المراد الكفر العملي.

وروى السيد المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلاً من تفسير النعماني، بإسناده عن علي (عليه السلام)، في حديث قال: (وأما ما لفظه خصوص ومعناه عموم، فقوله عز وجل: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (المائدة: ٣٢).

فنزل لفظ الآية في بني إسرائيل، خصوصاً وهو جار على جميع الخلق عاملاً لكل العباد من بني إسرائيل وغيرهم من الأمم ومثل هذا كثير).

وعن جعفر بن محمد، عن زيد بن أسلم: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سأل عمن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً ما هو؟ فقال: (من ابتدع بدعة في الإسلام، أو قتل بغير حد، أو من انتهب نهبه يرفع إليها المسلمون أبصارهم، أو يدفع عن صاحب الحدث، أو يعينه)(١٤).

وعن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام)، في وصية النبي لعلي (عليه السلام): (يا علي من اتهمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله، ومن منع أجيراً أجره فعليه لعنة الله، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله.

قيل: يا رسول الله وما ذلك الحدث؟ قال: القتل. إلى أن قال. يا علي (عليه السلام) إن أعتى الناس على الله القاتل غير قاتله، والضارب غير ضاربه، ومن تولى غير مواليه فقد كفر بما أنزل الله عز وجل)(١٥).

وعن أمية بن يزيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل)، قيل: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما الحدث؟

قال: (من قتل نفساً بغير نفس، أو مثل مثله بغير قود، أو ابتدع بدعة بغير سنة، أو انتهب نهبه ذات شرف). فقيل: ما العدل؟ قال: (الفدية) قيل: ما الصرف؟ قال: (التوبة)(١٦).

٢ . تحريم الاشتراك في القتل، والسعي فيه والرضا به:

عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الرجل ليأتي يوم القيامة ومعه قدر محجمة من دم فيقول: والله ما قتلت ولا شرت في دم، فيقال بلى ذكرت عبدي فلاناً)(١٧). (أي عند من قتله).
وعن أبي حمزة، عن أحدهما (عليهما السلام) قال: (أتى رسول الله فقيل له: يا رسول الله قتيل في (جهينه)، فقام رسول الله يمشي حتى انتهى إلى مسجدهم، وتسامع الناس فأتوه فقال: من قتل ذا؟
قالوا: يا رسول الله ما ندري.

فقال: قتيل بين المسلمين لا يدري من قتله!

والذي بعثني بالحق لو أن أهل السماء والأرض شركوا في دم امرئ مسلم ورضوا بذلك لأكبهم الله على مناخرهم في النار، أو قال: (على وجوههم)(١٨).

وعن حماد بن عثمان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (يجيء يوم القيامة رجل إلى رجل حتى يلطخه بالدم والناس في الحساب فيقول: يا عبد الله ما لي ولك؟
فيقول: أعنت علي يوم كذا وكذا بكلمة فقتلت)(١٩).

وعن ابن أبي عمير، عن غير واحد، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من أعان على مؤمن بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله)(٢٠).

وعن مسعدة بن زياد، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إن أشر الناس يوم القيامة المثلث، قيل: يا رسول الله وما المثلث؟ قال: الرجل يسعى بأخيه فيقتله فيهلك نفسه وأخاه وإمامه)(٢١).

٣ . ثبوت الارتداد باستحلال قتل المؤمن:

عن سعيد الأزرقي: عن أبي عبد الله (عليه السلام) في رجل قتل رجلاً مؤمناً؟ قال: (يقال له: مت أي ميتة شئت، إن شئت يهودياً، وإن شئت نصرانياً)(٢٢).

وعن محمد بن سالم، عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: (لما أذن الله لنبيه في الخروج من مكة إلى المدينة أنزل عليه الحدود وقسمة الفرائض وأخبره بالمعاصي التي أوجب الله عليها وبها النار لمن عمل بها، وأنزل في بيان القاتل: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) (النساء: ٩٣).

ولا يلعن الله مؤمناً، قال الله عز وجل: (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً) (الأحزاب: ٦٤ - ٦٥)(٢٣).

وعن علي بن الحسين قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه)(٢٤).

٤ . تحريم الضرب بغير حق:

عن الحلبي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أعتى الناس على الله عز وجل من قتل غير قاتله، ومن ضرب من لم يضربه)(٢٥).

وعن مثنى، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: وجد في قائم سيف رسول الله صحيفة: (إن أعتى الناس على الله القاتل غير قاتله، والضارب غير ضاربه، ومن ادعى لغير أبيه فهو كافر بما أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله) الحديث)(٢٦).

وعن الوشا قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لعن الله من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه)(٢٧).

وعن الثمالي قال: قال (عليه السلام): (لو أن رجلاً ضرب رجلاً سوطاً لضربه الله سوطاً من نار)(٢٨).
وعن الفضيل بن سعدان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كانت فلي ذوابة سيف رسول الله (صلى الله عليه وآله) صحيفة مكتوب فيها لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه، أو أحدث حدثاً، أو آوى محدثاً)(٢٩).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث المناهي قال: (ومن لطم خد امرئ مسلم أو وجهه بدد الله عظامه يوم القيامة وحشر مغلولاً حتى يدخل جهنم إلا أن يتوب)(٣٠).
وعن الرضا، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: (ورثت من رسول الله كتابين: كتاب الله، وكتاباً في قراب سيفي، قيل: يا أمير المؤمنين وما الكتاب الذي قراب سيفك؟! قال: من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه فعليه لعنة الله)(٣١).

وعن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: ابتدر الناس إلى قراب سيف رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد موته، فإذا صحيفة صغيرة وجدوا فيها: (من آوى محدثاً فهو كافر، ومن تولى غير مواليه فعليه لعنة الله، وأعتى الناس على الله من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه)(٣٢).
٥ . لا .. للانتحار:

عن أبي ولاد الحنات قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها)(٣٣).

قال الصادق (عليه السلام): (من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها، قال الله عز وجل: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) (النساء: ٢٩ - ٣٠)(٣٤).

وعن أبي بصير، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ذكر عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل من أصحابه يقال له قزمان بحسن معونته لإخوانه، وذكره فقال: إنه من أهل النار فأتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقيل: إن قزمان استشهد، فقال: يفعل الله ما يشاء ثم أتى فقيل: إنه قتل نفسه، فقال: أشهد إني رسول الله(٣٥).

وعن أبي سعيد الخدري قال: كنا نخرج في الغزوات مرافقين تسعة وعشرة، فنقسم العمل بعضنا في الرجال وبعضنا يعمل لأصحابه ويسقي ركابهم ويصنع طعامهم، وطائفة تذهب إلى النبي (صلى الله عليه وآله)، فاتفق في رحلتنا رجل يعمل عمل ثلاثة نفر يخيظ ويسقي ويصنع طعاماً، فذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله) فقال: ذلك رجل من أهل النار، فلقينا العدو وقتلناهم فخرج وأخذ الرجل سهماً فقتل به نفسه، فقال أشهد إني رسول الله وعبدته (٣٦).

وعن ناجية عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث قال: (إن المؤمن يتلى بكل بلية ويموت بكل ميتة إلا أنه لا يقتل نفسه) (٣٧).

٦ . تحريم قتل الإنسان ولده وإن كان من الزنا:

عن إبراهيم بن أبي البلاد، عمن ذكره، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كانت في زمن أمير المؤمنين (عليه السلام) امرأة صدق يقال لها: (أم قنان) فأتاها رجل من أصحاب علي (عليه السلام) فوافقها مهتمة، فقال لها مالي أراك مهتمة؟

قالت: مولاة لي دفنتها فنبذتها الأرض مرتين.

قال: فدخلت على أمير المؤمنين فأخبرته فقال: إن الأرض لتقبل اليهودي والنصراني فما لها؟ إلا أن تكون تعذب بعذاب الله، ثم قال: أما أنه لو أخذت تربة من قبر رجل مسلم فألقى على قبرها لقرت.
قال: فأتيت أم قنان فأخبرتها فأخذوا تربة من قبر رجل مسلم فألقى على قبرها فقرت فسأل عنها ما كانت؟ فقالوا: كانت شديدة الحب للرجال، لا تزال قد ولدت وألقت ولدها في التنور (٣٨).

٧ . حرمة الإجهاض:

عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام): المرأة تخاف الحبل فتشرب الدواء فتلقي ما بطنها؟ قال: لا، فقلت: إنما هو نطفة، فقال: إن أول ما يخلق نطفة (٣٩).

٨ . عظم جريمة من قتل مؤمناً لأجل إيمانه:

عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (سئل عن المؤمن يقتل مؤمناً متعمداً أهل له توبة؟ فقال: إن كان قتله لإيمانه فلا توبة له، وإن كان قتله لغضب أو لسبب من أمر الدنيا فإن توبته أن يقاد، وإن لم يكن علم به إنطلق إلى أولياء المقتول فأقر عندهم بقتل صاحبهم، فإن عفوا عنه فلم يقتلوه أعطاهم الدية وأعتق نسمة، وصام شهرين متتابعين، وأطعم ستين مسكيناً، توبة إلى الله عز وجل) (٤٠).

أقول: المراد ب(لا توبة له) شدة الذنب حتى كأنه لا توبة له، والا فكل الذنوب لها توبة كما دلت عليه الأدلة.

وعن سماعة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم) (النساء: ٩٣).

قال: ومن قتل مؤمناً على دينه فذاك المتعمد الذي قال الله عز وجل: (وأعدله عذاباً عظيماً) (النساء: ٩٣).

قلت: فالرجل يقع بينه وبين الرجل شيء فيضربه بسيفه فيقتله؟ فقال: ليس ذاك المتعمد الذي قال الله عز وجل(٤١).

٩ . كفارة قتل المؤمن:

عن عيسى الضرير قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): رجل قتل رجلاً متعمداً ما توبته؟ قال: يمكن من نفسه.

قلت: يخاف أن يقتلوه؟ قال: فليعطهم الدية.

قلت: يخاف أن يعلموا ذلك؟ قال: فليُنظر إلى الدية فليجعلها صرراً ثم لينظر مواقيت الصلاة فيلقبها في دارهم(٤٢).

وعن إسماعيل الجعفري قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): الرجل يقتل الرجل متعمداً؟ قال: (عليه ثلاث كفارات يعتق رقبة، ويصوم شهرين متتابعين، ويطعم ستين مسكيناً)، وقال: (أفتى علي بن الحسين (عليه السلام) بمثل ذلك).

وعن أبي المعز، عن أبي عبدالله (عليه السلام) في الرجل يقتل العبد خطأ؟ قال: (عليه عتق رقبة وصيام شهرين متتابعين وصدقة على ستين مسكيناً). قال: (فإن لم يقدر على الرقبة كان عليه الصيام، فإن لم يستطع الصيام فعليه الصدقة)(٤٣).

وعن سماعة قال: سألته (عليه السلام) عمن قتل مؤمناً متعمداً هل له من توبة؟ قال: (لا حتى يؤدي دية إلى أهله ويعتق رقبة، ويصوم شهرين متتابعين، ويستغفر الله ويتوب إليه فيتطوع، فإني أرجو أن يتاب عليه إذا فعل ذلك).

قلت: فإن لم يكن له مال؟ قال: (يسأل المسلمين حتى يؤدي دية إلى أهله)(٤٤).

وعن الحلبي، عن أبي عبد الله في حديث أنه قال في عن رجل قتل مملوكه؟ قال: (يعتق رقبة، ويصوم شهرين متتابعين، ثم التوبة بعد ذلك)(٤٥).

١٠ . عقوبة قتل المؤمن:

عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن في جهنم وادياً يقال: سعيراً إذا فتح ذلك الوادي ضجت النيران منه، أعده الله تعالى للقتالين)(٤٦).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: (أوحى الله إلى موسى بن عمران قل للملأ من بني إسرائيل: إياكم وقتل النفس الحرام بغير حق، من قتل منكم نفساً في الدنيا قتلته في النار مائة ألف قتلة مثل قتلة صاحبه)(٤٧).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال في قول الله حكاية عن أهل النار: (ربنا أرنا اللذين أضلنا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين).

قال: (إبليس وابن آدم الذي قتل أحاه، لأن هذا أول من عصى من الجن، وهذا أول من عصى من الإنس)(٤٨).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه قال: (سفك الدماء بغير حقها يدعو إلى حلول النعمة وزوال النعمة)(٤٩).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ما عجت الأرض إلى ربها كعجتها من دم حرام يسفك عليها)(٥٠).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (لقتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)(٥١).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (يأتي المقتول بقاتله يشخب دمه في وجهه، فيقول الله: أنت قتلتها فلا يستطيع أن يكتم الله حديثاً فيأمر به إلى النار)(٥٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أول ما ينظر الله بين الناس يوم القيامة الدماء)(٥٣).

وعن ابن عباس قال: سمعت (صلى الله عليه وآله) النبي يقول: (يأتي المقتول يوم القيامة معلقاً رأسه بإحدى يديه، ملتبساً بقاتله بيده الأخرى، تشخب أوداجه دماً حتى يرفعا إلى العرش، فيقول المقتول لله تبارك وتعالى: رب هذا قتلتني فيقول الله عز وجل للقاتل: تعست، فيذهب به إلى النار)(٥٤).

وعنه (صلى الله عليه وآله)، أنه قال في حديث: (ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن)(٥٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أبغض الناس إلى الله: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم إمريء بغير حق ليهريق دمه)(٥٦).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (لزوال الدنيا أيسر على الله من قتل المؤمن)(٥٧).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أول ما يقضي يوم القيامة الدماء)(٥٨).

وعن أيوب بن نوح، عن الرضا، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (خمسة لا تطفأ نيرانهم ولا تموت أبدانهم: رجل أشرك، ورجل عق والديه، ورجل سعى بأخيه إلى السلطان فقتله، ورجل قتل نفساً بغير نفس، ورجل أذنب ذنباً وحمل ذنبه على الله عز وجل)(٥٩).

وعن أبي إسحاق السبيعي قال: سمعت البراء بن عازب وزيد بن أرقم قالوا: كنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم غدِير خم ونحن نرفع أغصان الشجر عن رأسه (صلى الله عليه وآله) فقال: (لئن الله من ادعى إلى غير أبيه، ولئن الله من تولى إلى غير مواليه، والولد للفراش، وليس للوارث وصية، وقد سمعتم مني ورأيتموني، إلا من كذب علي متعمداً فليتبوء مقعده من النار، ألا إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا)(٦٠).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه خطب لما أَرَادَ الخروج إلى تبوك بثنية الوداع، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيها الناس إن أصدق الحديث كتاب الله . إلى أن قال . سباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه)(٦١).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه أتى بقتيل وجد في دور الأنصار فقال: هل يعرف؟ قالوا نعم يا رسول الله، قال: (لو أن الأمة اجتمعت على قتل مؤمن لأكبها الله في نار جهنم)(٦٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة وهو آيس من رحمة الله)(٦٣).

وعن أبي سعيد الخدري قال: وجد قتيل على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فخرج مغضباً حتى رقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (يقتل رجل من المسلمين لا يدري من قتله؟ والذي نفسي بيده لو أن أهل السماوات والأرض اجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار، والذي نفسي بيده لا يجلد أحد أحداً إلا جلد غداً في نار جهنم مثله) الحديث(٦٤).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (لو أن أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع اشتروا في دم مؤمن لأكبهم الله جميعاً في النار)(٦٥).

وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: (إن العبد يحشر يوم القيامة وما يدمى دماً فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقول له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب إنك قبضتني وما سفكت دماً، قال: بلى سمعت من فلان كذا وكذا فرويتها عنه فنقلت حتى صار إلى فلان الجبار فقتله عليها فهذا سهمك من دمه)(٦٦).

وفي رواية: إن الخوارج لما خرجوا من (الحرور) استعرضوا الناس فقتلوا العبد الصالح عبد الله بن خباب بن الأرت عامل علي (عليه السلام) على النهروان على شط النهر فوق خنزير وذبحوه وقالوا: ما ذبحنا لك ولهذا الخنزير إلا واحداً، وبقروا بطن زوجته وهي حامل، وذبحوها، وذبحوا طفله الرضيع فوَّقه فأخبروه (عليه السلام) بذلك، إلى أن قال: فرجع (عليه السلام) إلى النهروان واستعطفهم فأبوا إلا قتاله واستنطقهم بقتل ابن خباب فأقروا كلهم كتيبة بعد كتيبة، وقالوا لنقتلنك كما قتلناه، فقال (عليه السلام): والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم. الخبر(٦٧).

أقول: الظاهر أن المراد اشتراكهم في ذنب القتل.

وعن إسحاق بن عمار عن أبي عبدالله (عليه السلام)، إنه تلا هذه الآية: (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (البقرة: ٦١).

فقال: (والله ما ضربوهم بأيديهم ولا قتلوهم بأسياهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلاً واعتداءً ومعصية)(٦٨).

وعن رفاعة النحاس قال: قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): (يا رفاعة ألا أحدثك بأشد أهل النار عذاباً؟) قلت: بلى، قال: (من أعان على مؤمن بشطر كلمة)(٦٩).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الراضي بفعل قوم كالداحل فيه معهم، ولكل داخل في باطل إثم: إثم الرضا به، وإثم العمل به)(٧٠).

وقال (عليه السلام): (من أعان على مؤمن فقد برئ من الإسلام)(٧١).

وعن علي (عليه السلام) قال: (أبغض الخلق إلى الله عز وجل من جرد ظهر مسلم بغير حق)(٧٢).

وعن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أبها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول، وأنزل إليه الكتاب بالحق وأنتم أميون عن الكتاب، ومن أنزله وعن الرسول، ومن أرسله على حين فترة من الرسل وطول محنة من الأمم وانبساط من الجهل . إلى أن قال :. والدنيا متهجمة في وجوه أهلها مكفهرة مدبرة غير مقبلة ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السيف، مزقتهم كل ممزقه وقد أعمت عيون أهلها، وأظلت عليها أيامها قد قطعوا أرحامهم، وسفكوا دمائهم، ودفنوا في التراب المؤودة بينهم من أولادهم، يختارون دونهم طيب العيش ورفاهية خفوض الدنيا، لا يرجون من الله ثواباً ولا يخافون والله منه عقاباً حيهم أعمى يحس وميتهم في النار مبلس) (الخطبة).

وعن علي بن إبراهيم في قوله تعالى: (وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت) (التكوير: ٨ . ٩).

قال: (كانت العرب يقتلون البنات للغيرة، فإذا كان يوم القيامة سئلت المؤودة بأي ذنب قتلت؟) (٧٣).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنه قال: (أكبر الكبائر أن تجعل لله أنداداً وهو خلقكم، ثم أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . الخبر) (٧٤).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله): أي ذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله شريكاً) (٧٥).

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إن أعتى الناس على الله القاتل غير قاتله، والقاتل في الحرم، والقاتل بذحل الجاهلية) (٧٦).

وعن علي بن إبراهيم في تفسيره قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) (النساء: ٩٣).

قال (عليه السلام): (من قتل مؤمناً على دينه لم تقبل توبته، ومن يقتل نبياً أو وصي نبي فلا توبة له لأنه لا يكون مثله فيقاد به، وقد يكون الرجل بين المشركين واليهود والنصارى يقتل رجلاً من المسلمين على أنه مسلم، فإذا دخل في الإسلام محاه الله عنه لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الإسلام يجب ما كان قبله)).

أي يمحو، لأن أعظم الذنوب عند الله هو الشرك بالله، فإذا قبلت توبته في الشرك قبلت فيما سواه فأما قول الصادق (عليه السلام): (فليست له توبة).

فإنه عني من قتل نبياً أو وصياً فليست له توبة لأنه لا يقاد أحد بالأنبياء إلا الأنبياء، وبالأوصياء إلا الأوصياء، والأنبياء والأوصياء لا يقتل بعضهم بعضاً، وغير النبي والوصي لا يكون مثل النبي والوصي فيقاد به وقتلهما لا يوفق للتوبة) (٧٧).

وروى محمد بن علي بن شهر آشوب في المناقب قال: كان الزهري عاملاً لبني أمية فعاقب رجلاً فمات الرجل من العقوبة، فخرج هائماً وتوحش ودخل إلى غار فطال مقامه تسع سنين، وحج علي بن الحسين (عليه السلام) فأتاه الزهري، فقال له علي بن الحسين (عليه السلام) إني أخاف عليك من قنوطك ما لا أخاف عليك من

ذنبك فابعث بديّة مسلّمة إلى أهله وأخرج إلى أهلِكَ ومعالم دينك، فقال له: فرّجت عني يا سيدي، الله أعلم حيث يجعل رسالته ورجع إلى بيته فلزم علي بن الحسين (عليه السلام) وكان يُعد من أصحابه (٧٨).

١ . أي من ذلك الأجل، فإن الأجل بمعنى الوقت.

٢ . وسائل الشيعة: ج ١٩، ص ٣.

٣ . المصدر السابق.

٤ . المصدر السابق: ص ٤.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق.

٧ . المصدر السابق.

٨ . المصدر السابق: ص ٦.

٩ . المصدر السابق.

١٠ . المصدر السابق.

١١ . المصدر السابق.

١٢ . المصدر السابق: ص ٧.

١٣ . المصدر السابق.

١٤ . المصدر السابق: ص ١٧.

١٥ . المصدر السابق: ص ١٨.

١٦ . المصدر السابق.

١٧ . المصدر السابق: ص ٨.

١٨ . المصدر السابق: ص ٩.

١٩ . المصدر السابق.

٢٠ . المصدر السابق.

٢١ . المصدر السابق.

٢٢ . المصدر السابق: ص ١٠.

٢٣ . المصدر السابق.

٢٤ . المصدر السابق.

٢٥ . المصدر السابق: ص ١١.

٢٦ . المصدر السابق.

- ٢٧ . المصدر السابق.
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ١٢.
- ٢٩ . المصدر السابق.
- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق.
- ٣٢ . المصدر السابق: ص ١٣.
- ٣٣ . المصدر السابق.
- ٣٤ . المصدر السابق.
- ٣٥ . مستدرک الوسائل: ج ١٨، ص ٢١٦.
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ٢١٧.
- ٣٧ . المصدر السابق: ج ٢، ص ١٤٤.
- ٣٨ . وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ١٤.
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ١٥.
- ٤٠ . المصدر السابق: ص ١٩.
- ٤١ . المصدر السابق.
- ٤٢ . المصدر السابق: ص ٢١.
- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . المصدر السابق: ص ٢٣.
- ٤٥ . المصدر السابق.
- ٤٦ . مستدرک الوسائل: ج ١٨، ص ٢٠٥.
- ٤٧ . المصدر السابق: ص ٢٠٦.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . المصدر السابق: ص ٢٠٧.
- ٥٠ . المصدر السابق.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ٢٠٨.
- ٥٤ . المصدر السابق.
- ٥٥ . المصدر السابق: ص ٢٠٩.

- ٥٦ . المصدر السابق.
- ٥٧ . المصدر السابق.
- ٥٨ . المصدر السابق.
- ٥٩ . المصدر السابق: ص ٢١٠.
- ٦٠ . المصدر السابق.
- ٦١ . المصدر السابق.
- ٦٢ . المصدر السابق: ص ٢١١.
- ٦٣ . المصدر السابق.
- ٦٤ . المصدر السابق: ص ٢١٢.
- ٦٥ . المصدر السابق.
- ٦٦ . المصدر السابق.
- ٦٧ . المصدر السابق: ص ٢١٣.
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ٢١٤.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق.
- ٧١ . المصدر السابق.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٢١٦.
- ٧٣ . المصدر السابق: ص ٢١٧.
- ٧٤ . المصدر السابق.
- ٧٥ . المصدر السابق.
- ٧٦ . المصدر السابق: ص ٢٢٠.
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ٢٢١.
- ٧٨ . المصدر السابق: ص ٢٢٢.

الفصل الخامس: من عوامل تقدم المسلمين عشرة عوامل للتقدم

عشرة عوامل للتقدم

نذكر في هذا الفصل جملة من الأمور التي سببت تقدم المسلمين ذاك التقدم الهائل وإنقاذهم للعالم من براثن الكفر والجهل والمرض والغفلة والفوضى والحروب وما أشبه التي شملت العالم قبل بزوغ الإسلام. ولا بد - في سبيل إعادة العالم إلى استقراره ورفاهه وحرته وسلامته من جديد - من تحلي المسلمين بهذه الصفات والتي ذكرت في القرآن الحكيم في مئات الآيات، وفي السيرة الطاهرة في ألوف الروايات، كما طبقها الرسول (صلى الله عليه وآله)، وبعض خلفائه على المسلمين إبان حكمهم.

والأمور التي نذكرها في هذا الفصل عشرة:

أولاً: تجنب الملهيات المعوقة عن الانطلاق:

إن المسلم كان يتجنب الملاذ فلا يهتم بالحياة بقدر اهتمامه بإنقاذ الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ونذكر هنا جملة من الآيات المذكورة في القرآن الحكيم في هذا الصدد.

قال سبحانه: (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) (التوبة: ٢٠).

وقال سبحانه: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) (التوبة: ٢٤).

فترى في هذه الآية المباركة أن الواجب على الإنسان المسلم أن يتجنب كل المشتبهات من آباء وأبناء وأخوان وأزواج وعشيرة وأموال وتجارة ومساكن ويستعيز عن كل ذلك بالحب لله ولرسوله والجهاد في سبيله، وإلا فإنه ليس من الإسلام في شيء، ويسميه الله سبحانه وتعالى فاسقاً فيقول: (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) (التوبة: ٢٤).

حيث إن الله يأتي بأمره بسبب مؤمنين من هذا الطراز.

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) (التوبة: ٢٤).

فالمسلم الذي لا يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من هذه الأمور فهو فاسق في منطق القرآن خارج عن أوامر الله تعالى.

وقال تعالى: (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين) (النساء: ٧٥).

فالقِتال إما لأجل تطهير الأفكار عن الخرافة وتطبيق شريعة الله، وإما لأجل إنقاذ المستضعفين من براثن المستكبرين.

وقال سبحانه ليذكر المسلمين بما يجب عليهم: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوحهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) (التوبة: ٣٤ - ٣٥).

وهذه الآية الكريمة تعريض بالذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فاللازم على المسلم أن لا يكنز الذهب والفضة، بل ينفق الذهب والفضة في سبيل الله، حسب الموازين المقررة في الشريعة الإسلامية وجوباً واستحباباً.

ويقول سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) (التوبة: ٣٨ - ٣٩).

فاللازم على المسلم أن ينفر في سبيل الله سواء كان سبيل الجهاد، أو سبيل التبليغ، أو سبيل الإصلاح والهداية أو سائر السبل، ولا يجوز أن يتأقل إلى الأرض من جهة مال أو زوجة أو تجارة أو مسكن أو ما أشبهه، وإلا كان راضياً بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة، واللازم على المسلم أن يعلم أن الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة متاع قليل، وانه إذا لم ينفر في سبيل الله فإن الله سيعذبه عذاباً أليماً، وأنه يذهب ويأتي بعده غيره ممن لا يكون مثله.

ويقول الله سبحانه: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) (التوبة: ٤١ - ٤٢).

وفي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى بالنفر، سواء كان الإنسان خفيفاً أو ثقيلاً، خفيفاً من جهة الجسد أو ثقيلاً، شاباً أو شيخاً، مديناً أو غير مدين، بديناً أو غير بدين، واللازم عليه أن يجاهد بماله وبنفسه في سبيل الله، وأن لا يفرق بين السفر القريب والسفر البعيد والهدف البعيد والهدف القريب، وإن هؤلاء الذين يفرقون بين السفرين ويفرقون بين الخفيف والثقل إنما يهلكون أنفسهم وعند الله هم الكاذبون.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) (التوبة: ٤٤ - ٤٥).

فاللازم أن لا يستأذن المؤمن بالنسبة إلى الجهاد بماله وبنفسه سفراً وحضراً، والذي يستأذن فهو عند الله غير مؤمن وهو عند الله مرتاب القلب وإن كان يصلي ويصوم ويحج ويلتزم بكثير من لوازم الإيمان.

ويقول سبحانه وتعالى: (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین) (التوبة: ٤٦).

فالمسلم إذا أراد الخروج أعدَّ العدة وذلك دليل إرادته الحركة، ومن لا يعد العدة فهو مبغوض عند الله سبحانه وتعالى ويكره الله انبعاثه فيشبطه ويجعله قاعداً مع القاعدین.

ويقول سبحانه: (قل هل ترصُّون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، فترصُّوا إنا معكم متربِّصون قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدخلاً لولَّوا إليه وهم يجمعون) (التوبة: ٥٢ . ٥٧).

ففي هذه الآيات يذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين . الذين يستعدون للحركة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) حسب أوامره . إن لهم إحدى الحسنيين، إما حياة سعيدة، وإما جنة عرضها السماوات والأرض، وأما غير هؤلاء من الذين لا يتحركون يلازمون ملاذهم، فالله سبحانه وتعالى إما يعذبهم بأيدي المؤمنين أو يعذبهم بعذاب من عنده، ثم إن هؤلاء لا تقبل نفقاتهم سواء أنفقوا طوعاً أو كرهاً لأنهم كانوا قوماً فاسقين، والله سبحانه وتعالى إنما يتقبل من المتقين، ثم إن الله سبحانه وتعالى لا يتركهم وشأنهم ولا يقبل إيمانهم، وإنما يقول إن الله لا يقبل نفقاتهم لأنهم كفروا بالله وبرسوله، حتى أن صلاتهم ليست صلاة مقبولة عند الله، لأن إتيانهم بالصلاة في حالة الكسل، وإنفاقهم في حالة الكره منهم، فهؤلاء حتى إذا كانت أجسامهم جميلة وأولادهم كثيرين فإن ذلك من أسباب عذابهم.

(ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (التوبة: ٥٥).

ثم يقول الله سبحانه: (إنهم يخلفون بأثم منكم، لكنهم ليسوا منكم، بل إنهم قوم جناء، ولو أنهم وجدوا ملجأً يلجئون إليه أو مغارات في الكهوف أو مدخلاً أي أماكن يتمكنون من الدخول فيها لولوا إليه وهم يجمعون بصورة مسرعة حتى يتجنبوا الأخطار.

فانظروا إلى هذه الآيات الكريمة أي عمل تعمل بقلوب المسلمين؟ وكيف تجنبهم الملذات المانعة من تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى ومن إنقاذ المستضعفين من أيدي المستكبرين.

ثم يصف الله الذين لا يتصفون بهذه الصفات الموجبة للإنتلاق والحركة حتى يتجنب المؤمنون أن يكونوا مثلهم بقوله: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) (التوبة: ٨٧ . ٨٨).

نعم لا بأس على الذين لا يتمكنون، ولذا قال سبحانه: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ولرسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) (التوبة: ٩١). وهكذا كان شأن المسلمين السابقين تجنب الملاذ لأجل الله، ولأجل رسوله.

ثانياً: الاستهانة بالأخطار في سبيل الهدف:

قال سبحانه: (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (التوبة: ١٣).

حيث نفى سبحانه وتعالى في هذه الآية خشية المؤمن من شيء غير الله سبحانه وتعالى فالله أحق أن يخشوه إذا كانوا مؤمنين.

وقال سبحانه: (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبير بما تعملون) (التوبة: ١٦).

فاللزام على الإنسان المسلم أن يجاهد في سبيل الله، ولا يتخذ من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة يلج إليها ويخرج منها، بل يلزم أن يكون دخوله وخروجه إلى حكم الله ومن حكم الله سبحانه وتعالى، فصدوره ووروده يكون حسب القوانين الإسلامية فقط.

والأعمال الصالحة ليست بمنزلة الاستهانة بالأخطار والجهاد في سبيل الله، قال سبحانه: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) (التوبة: ١٩ - ٢٠).

فالمسلم هو الذي يستهين بالأخطار، ويجاهد في سبيل الله، ويترك ماله وأهله ويهاجر، وليس من يعطي الحاج الماء ويعمر المسجد الحرام (على ثوابهما) كمثل هذا الإنسان.

وقال سبحانه: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) (التوبة: ١١١).

وهذه الآية تدعو الإنسان إلى أن يخرج من نفسه وماله في قبال أن له الجنة، ولم يخصص النفس بشيء ولا المال بقدر، وإنما اللزام أن يبيع الكل فيقتل ويقتل، ومن الواضح صعوبة أن يبيع الإنسان نفسه وماله، كما أن من الصعوبة أن يقاتل فيقتل ويقتل.

وفي آية أخرى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبَعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم) (التوبة: ١١٧).

(إلى أن قال سبحانه): (وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطئاً يغيظ الكفار

ولا ينالون من عدو نبيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون (التوبة: ١٢٠ - ١٢١).

فالمسلم يجب أن يتبع الرسول في ساعة العسرة، ومن المعلوم أن ما يسميه الإسلام والقرآن (عسرة) هو أشد العسرات. كما ورد في التواريخ. كما أن الخوف أحياناً يصل بالإنسان إلى أن كاد يزيغ قلبه، وهذا أيضاً شيء يصعب تحمله على الإنسان، فاللازم أن يوقع الإنسان نفسه في مثل هذه المشاكل والمهالك إذا اقتضت طبيعة العمل ذلك.

والحرب والسفر وقطع الفيافي توجب أن يصيب الإنسان الظماً والنصب والمخمصة، وكل هذه الأمور صعبة وأخطارها تكون أحياناً جسيمة.

ثالثاً: الطاعة المطلقة للقيادة:

قال سبحانه: (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً) (النساء: ٦١).

فوصف المنافقين بأنهم الذين لا يطيعون الرسول، أما المؤمنون فانهم يطيعون الرسول في كل صغيرة وكبيرة. ثم قال سبحانه: (وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً) (النساء: ٦٤ - ٦٥).

(إلى أن قال): (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) (النساء: ٦٩).

فإن الواجب على المسلم أن يكون هكذا حتى أنه لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى الرسول في كل كبيرة أو صغيرة، وإلا لم يكن مؤمناً.

وقال سبحانه: (إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) (الأحزاب: ٥٦).

فالمؤمن مأمور بالتسليم للنبي (صلّى الله عليه وآله) في كل أمره.

وحيث كان المسلمون يسلمون لرسول الله في كل كبيرة وصغيرة، وكانت قيادة الرسول (صلّى الله عليه وآله) قيادة شعبية إلى ابعده حد مما يوجب التفاف المسلمين حوله سبب ذلك تقدمهم، ولذا نرى المسلمين يخوضون تحت لواء رسول الله أكثر من ثمانين حرباً في مدة عشر سنوات، أي بمعدل ثمانية حروب في كل سنة، وحرب وفي كل شهر ونصف وإذا لاحظنا أن الحروب والأسفار السابقة كانت تستغرق وقتاً كبيراً في الذهاب والإياب وقطع الفيافي، كما كانت تستلزم في كثير من الأوقات الجوع والعطش وما أشبه لعلمنا مدى حدود طاعة الجماهير لرسول الله (صلّى الله عليه وآله).

رابعاً: الرغبة الصادقة في الإنقاذ:

فقد كان المسلمون يتحرقون شوقاً لإنقاذ المستضعفين ونشر كلمة الله في الأرض.

قال سبحانه: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جِزَاءَ الْمُحْسِنِينَ) (المائدة: ٨٣ - ٨٥).

فأي شوق في النفس يوجب أن تفيض العين بالدمع بسبب معرفتها الحق؟ وطبيعي جداً بعد ذلك أن يندفع مثل هذا الإنسان إلى الأمام دون أن يلوى على شيء حتى يصل إلى الهدف، كما كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كذلك.

وفي آية أخرى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ) (التوبة: ٩٢).

فإن هؤلاء كانوا يريدون الجهاد، ولكن بعد الطرق وعدم التمكن من المشي وعدم توفر الراحة لهم كانت تسبب أن تفيض أعينهم من الدموع حزناً وأسفاً على عدم تمكنهم من الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى. خامساً: الأخلاقيات المثالية للقاعدة:

فقد كانت تسود القاعدة الأخلاقيات النموذجية سواء فيما بينهم، أو مع العدو، أو في أنفسهم، وكان ذلك مما أوجب دخول الناس في دين الله أفواجاً، فإن الإنسان بطبيعته يلتفت حول ذوي الأخلاق الرفيعة، بينما يتبرأ الناس من الذين لا أخلاق لهم بل أن الإنسان يتبرأ من نفسه إذا رأى في ذاته مواصفات سيئة.

وفي هذه الآيات المباركات تتجلى الأخلاقيات الرفيعة التي أمر الله بها فوفرها المسلمون في أنفسهم.

قال الله سبحانه: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَدْيَنَ) (التوبة: ٢٥).

فإن المحارب إذا رأى كثرة عدده تملكه الغرور والكبر، لكن حتى هذا الإحساس الباطني ممنوع في الإسلام كما يظهر من ذم الآية للمسلمين في يوم حنين لعجبهم بكثرتهم، فاللازم أن تكون نفوس المسلمين مطمئنة بنصر الله سبحانه وتعالى لا غروراً وكبرياء، ولذا قال بعد ذلك: (ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءَ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (التوبة: ٢٦ - ٢٧).

وفي آية أخرى يقول سبحانه: (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ قُلٍّ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة: ٦١).

فالله سبحانه وتعالى يصف النبي بأنه (اذن) وبأنه (رحمة)، وقد تحلى المسلمون بهذه الصفات الرفيعة اقتداءً برسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن المعلوم مدى التأثير الذي يخلقه (أذن) أو (رحمة) في المجتمع.

وقال سبحانه: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قريات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم) (التوبة: ٩٩).

(ثم قال): (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) (التوبة: ١٠٣).

فقد كان المسلمون يذلون الأموال في سبيل تقدم الإسلام، حتى أن بعضهم كان يعطي نصف ماله أو أكثر في سبيل تقدم الإسلام والمسلمين، ومن المعلوم أن صفة الكرم والبذل من الصفات التي توجب تقدم الأمة إلى الأمام، وفي قباهم البخلاء الذين كانوا مذمومين ولم يكن المسلمون الأوائل بخلاء إلا نادراً.

قال سبحانه: (إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً والذين يُنفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) (النساء: ٣٦ - ٣٧).

فالمختال الفخور والذي يبخل ويأمر الناس بالبخل ويكتم ما آتاه الله من فضله والذي ينفق أمواله رياء الناس، كل هؤلاء يعتبرون كافرين عند الله سبحانه وتعالى حيث قال سبحانه: (وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) (النساء: ٣٧).

وهؤلاء الذين ينفقون رياء الناس قرناء الشيطان حيث قال: (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) (النساء: ٣٨).

وكذلك قال سبحانه: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً) (النساء: ٤٩). فمن أخلاق المسلم أن لا يزكي نفسه، بل أن يرى نفسه دائماً دون المستوى المطلوب منه. وقال سبحانه: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) (التوبة: ١٢٨ - ١٢٩). فاللازم في الأخلاقيات الإسلامية أن يكون المسلم كالرسول عزيز عليه عنت المسلمين، حريص عليهم رؤوف رحيم بهم.

وقال سبحانه: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أرى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) (النحل: ٩٠ - ٩٢).

(إلى أن قال): (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) (النحل: ٩٥). فالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والتجنب عن الفحشاء والمنكر والبغى، والوفاء بعهد الله سبحانه وتعالى، وعدم نقض اليمين، وعدم كون المجتمع متفرقاً كالمراة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وعدم اتخاذ الإيمان دخلاً موجبة للمفسدة بأن يكون الإيمان منطلقاً لأمر نفسي سيئ. هو أن تكون أمة هي أرى من أمة. وعدم

الاشتراء بعهد الله ثمناً قليلاً هذه أخلاقيات رفيعة إيجابية تارة وسلبية أخرى، وقد كان المسلمون يتصفون بها وهي التي سببت تقدمهم ذلك التقدم السريع المتجذر الهائل.

وقال سبحانه: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمًا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) (النساء: ٥٨).

(إلى أن قال): (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) (النساء: ٦٠).

فالله سبحانه وتعالى يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، سواء كانت أمانات مالية أو أمانات أرضية أو أمانات علمية أو غيرها، وأن على الإنسان إذا حكم بين الناس أن يحكم بالعدل سواء الصديق أو العدو أو القريب أو الغريب أو الرحم أو غير الرحم أو الجار أو غير الجار وهكذا.

كما أن اللازم على الإنسان فيما لو وقعت له مشكلة أن لا يتحاكم إلى الطاغوت بل عليه أن يتحاكم إلى الله وإلى الرسول (صلى الله عليه وآله) وإلى المنصوبين من قبله.

وقال سبحانه: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (المائدة: ٢).

وقال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) (المائدة: ٨).

فاللازم على المسلم أن لا توجب عداوته لقوم أن لا يحكم بالحق وأن يعتدي، كما أن إخراجهم من دياره وصدده عن المسجد الحرام، حيثما يريد زيارته لا يوجب أن يعتدي أو لا يعدل، بل اللازم عليه العدل والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، والتقوى من الله سبحانه وتعالى في كل ذلك، فإنه إن لم يفعل ذلك كما أمر، فإن الله شديد العقاب.

وعلى الإنسان أن يكون قواماً لله (والقوام كما هو معروف صيغة مبالغة، يعني دائم القيمومة لأجل الله سبحانه وتعالى، لا لأجل المال ولا لأجل الرئاسة، ولا لأجل الأهل، ولا لأجل الشهوة، ولا لأجل المنصب أو ما أشبهه) (شهداء بالقسط) أي يشهد بالقسط ولا يسبب له شنآن قوم على أن لا يعدل، فإن العدل هو أقرب للتقوى. واللازم على الإنسان أن يتقي الله في كل هذه الأمور، فإن الله خبير بما يعمله الإنسان، وإذا عمل بهذه الأمور وكان مؤمناً فقد وعده الله سبحانه وتعالى مغفرة وأجرًا عظيمًا.

أما من كفر وكذب فأولئك أصحاب الجحيم كما قال سبحانه في ذيل الآية الثانية: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) (الفتح: ٢٩).

وقال سبحانه: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) (الحديد: ٢٢ - ٢٤).

فاللزام على الإنسان أن لا يهتم بالمصائب، ولا يفرح بما يأتيه، وأن لا يكون مختالاً فخوراً، ولا يكون بخيلاً، ولا يأمر الناس بالبخل.

ثم قال سبحانه: (لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورُسُله بالغيب إن الله قوي عزيز) (الحديد: ٢٥).
فالهدف المهم من إرسال الرسل أن يقوم الناس بالقسط، وأن يدفعوا المعتدي بسبب الحديد الذي فيه بأس شديد. وهذه كانت صفة رسول الله وصفة أصحابه. إلا من خرج منهم. فقد كانوا متصفين بهذه الصفات الرفيعة التي أوجبت تقدمهم إلى الأمام ذلك التقدم المعروف.

سادساً: عدم التمايز في الحقوق:

عدم ترفع بعضهم عن بعض، فالشخص بمجرد إسلامه يكون كسائر المسلمين في كل الشؤون من الصلاة والصيام والحج والنكاح والطلاق والإرث والجهاد والاشتراك في بيت المال وكونه طرف المشورة فيكون متساوياً في كل الجهات مع سائر المسلمين، بل إن الرسول (صلى الله عليه وآله) على عظمته كان يستشيرهم كما تقدم في قوله سبحانه: (شاورهم) (آل عمران: ١٥٩).

وفي قوله: (وأمرهم شورى بينهم) (الشورى: ٣٨).

وتلمح طرفاً من هذا التساوي في قوله سبحانه: (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير) (الأنفال: ٧٢).

(إلى أن قال): (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم) (الأنفال: ٧٤).

فكان المسلم يأوي المسلم في داره وينصره، ويواليه، وكلهم وحدة واحدة في كل الشؤون، كلهم سواء أمام القانون الإسلامي.

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائر السائر بالسهر والحمى) (١).

وفي رواية أخرى: (من سمع منادياً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم) (٢).

إلى غير ذلك من مظاهر عدم ترفع بعضهم على بعض فكان الشريف يزوج الوضع والغني يعاشر الفقير، والقوي يساوي الضعيف، وكانوا يتساوون في كل الشؤون، وبنفس هذا الخلق الرفيع صار المسلمون وحدة واحدة يقابلون العالم كله، وبذلك وغيره من الدساتير السماوية تمكنوا من ذلك التقدم السريع.

سابعاً: العدل والإحسان:

فقد قال سبحانه: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل: ٩٠).

وفي هذه الآية دليل على وجوب الإحسان أيضاً إضافة إلى العدل لأنه: أولاً: أردف بالعدل، والعدل واجب. ثانياً: وقع مأموراً به، ومادة (الأمر) تدل على الوجوب كما قرره الأصوليون. ثالثاً: قورن بالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى والثلاثة محرمات فما في مقابلهما واجب. بالإضافة إلى قوله تعالى: (يعظكم لعلكم تذكرون) (النحل: ٩٠). حيث يكون الظاهر منه الوجوب.

وقورن أيضاً بالآية التي بعدها، وهي قوله سبحانه: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) (النحل: ٩١-٩٢).

ومن الواضح أن الوفاء بالعهد واجب ونقض الإيمان والتفرق محرمان. وفي آية أخرى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعملون خبيراً) (النساء: ١٣٥).

فالعدل واجب ولو على النفس والوالدين والأقربين، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، فإن الله أولى بهما، وفي قبال ذلك اتباع الهوى، ومن تجاوز عن العدل أو أعرض عنه، فإن الله خبير بما يعمل وسوف يحاسبه في الدنيا وفي الآخرة. وفي آية أخرى: (وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) (النساء: ٣). وقال سبحانه: (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (الشورى: ١٥).

فالله سبحانه وتعالى أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بالعدل بين الجميع بالإضافة إلى الاستقامة وعدم اتباع الأهواء، كان ذلك خلق المسلمين لأنهم اتبعوا الرسول (صلى الله عليه وآله) في عدالته. إلى غيرها من الآيات الواردة في العدل بمختلف الألفاظ. وكذلك بالنسبة إلى آيات الإحسان.

قال سبحانه: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون) (البقرة: ٨٣).

فالإحسان بالنسبة إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والقول للناس جميعاً بالحسن هو الأمر الواجب الذي أخذ الله عليه ميثاق الأمم قبل المسلمين، وفي ذلك تعريض بأنه يجب على المسلمين أن يتبعوا ذلك كله، كما يدل عليه (لا تعبدون إلا الله) وقوله (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

وفي آية أخرى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) (النساء: ٣٦).

فإن الإنسان الذي لا يحسن يحسب في عداد المختال المتكبر الذي يفتخر بما عنده ويرتفع على الناس ومن الواضح أن المختال الفخور عمله حرام.

وفي آية أخرى: (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) (النساء: ٦٢).

وقال تعالى: (ما على المحسنين من سبيل) (التوبة: ٩١).

وفي آية أخرى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين) (العنكبوت: ٦٩).

إلى غيرها من الآيات الواردة في العدل والإحسان.

ثامناً: الوحدة والوفاق:

قال سبحانه: (واعتصموا بجلل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (آل عمران: ١٠٣).

(إلى أن قال): (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم).

وقال سبحانه: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) (الأنعام: ١٥٩).

وقال سبحانه: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) (الروم: ٣٠ - ٣٢).

فالمفروق يعتبر من المشركين، وهو خارج عن زمرة المسلمين الذين لهم الصفات السابقة من إقامة الوجه للدين والإجابة إلى الله والتقوى وإقامة الصلاة، إلى غيرها من الآيات المباركات.

تاسعاً: التعبئة العامة:

قال سبحانه: (انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) (التوبة: ٤١).

فليست الأمة الإسلامية: من يعمل بعضها ويترك بعضها الآخر العمل، وإنما هم وحدة واحدة في إقدامهم وفي إحجامهم وفي كل شؤون حياتهم.

وفي آية أخرى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منه مغفرةً وأجرًا عظيمًا) (الفتح: ٢٩).

وفي جملة من التواريخ أنهم كانوا (رهبان الليل أسود النهار) وقيام المسلمين بالليل كان تعبئة روحية تدفعهم، إلى الماضي قدماً، قال سبحانه: (بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً إن لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً) (المزمل: ١ - ٨).

(إلى أن قال): (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجوده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) (المزمل: ٢٠).

ففي هذه الآيات المباركات تعبئة نفسية كثيرة إلى جانب العمل - باستثناء الذين هم مرضى، والذين هم يضربون في الأرض لابتغاء فضل الله، والذين يقاتلون في سبيل الله، فإن هؤلاء لا يتمكنون من قراءة القرآن والقيام بالليل كاملاً كما يتمكن الآخرون، أما المرضى فهم غير قادرين وأما الضاربون في الأرض والمقاتلون فهم يعملون بما عبأوا به أنفسهم من ابتغاء فضل الله والمقاتلة في سبيل الله ..

عاشراً: الاستهانة بالظالمين:

الاستهانة بالحكومات القائمة وبالكفار، فإنهم كانوا ينظرون إليهم نظرة ازدراء وكانوا يرون أن الواجب عليهم تقويمهم عن الانحراف في العقيدة وفي السلوك وما أشبهه.

قال سبحانه: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) (التوبة: ١ - ٣).

فالله سبحانه يتبرأ من المشركين ويعلن أنهم لا يتمكنون من تعجيز الله سبحانه وتعالى والانفلات من يد المسلمين المطيعين لأوامر الله سبحانه وأنهم إذا تابوا كان خيراً لهم أما إذا تولوا فإن الله سبحانه وتعالى يبشرهم بعذاب أليم، يعني في الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال سبحانه: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) (التوبة: ٥).

(إلى أن قال): (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشكفي صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) (التوبة: ١٢ - ١٥).

وقال سبحانه: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (التوبة: ٣٢ - ٣٣).

وقال سبحانه: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين) (التوبة: ٣٦).

وقد ذكر الله سبحانه في القرآن كيف أباد الأمم السابقة الذين لم يطيعوا أوامر الأنبياء (عليه السلام) وانه سبحانه وتعالى يبىد الذين لا يطيعون أوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: (ألم يأثم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (التوبة: ٧٠).

وقال سبحانه: (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) (التوبة: ٦٩).

فهذه الآيات المباركات تعطي للمسلم روحاً قوية، وتدركه بأنه يتمكن من التغلب على الكافرين مهما كان لهم من الأموال والأولاد والقوة والشدة.

وقال سبحانه: (يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) (التوبة: ٧٤).

فالذين لا يطيعون الرسول ولا يأتمرون بأوامره يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا وفي الآخرة، ولا يتصوروا أن لهم في الدنيا ولياً أو نصيراً، وإنما الله سبحانه وتعالى ينصر أوليائه على أعدائه مهما كان الأعداء من القوة والمنعة.

وقال سبحانه: (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) (القصص: ٥٨ - ٥٩).

فالمسلمون كانوا يعلمون أنهم إذا ركزوا لواء العدل ونشروا الحق ولم يقبل الناس منهم، فإن الله من ورائهم يهلك أولئك الظالمين الذين لا يقبلون الحق.

وقال سبحانه: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُدَّبِحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نُمَنِّعَ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) (القصص: ٤ - ٦).

(إلى أن قال سبحانه): (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناهم وبنوهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) (القصص: ٣٩ - ٤٢).

فالمستكبرون والحكام الظالمون وجنودهم ووزراؤهم يأخذهم الله سبحانه وتعالى أخذ عزيز مقتدر ويجعلهم في الدنيا والآخرة لعناء ومقبوحين.

وقال سبحانه: (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (العنكبوت: ٤٠).

فقسم من الكفار أهلكهم الله سبحانه وتعالى بسبب الحاصب الذي كان يحصبهم بالحجارة، ومنهم من أخذته الصيحة إذ صاح عليهم الملك صيحة كبيرة فأهلكهم، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من أغرقه الله. ثم قال سبحانه: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (العنكبوت: ٤١).

فبيوت غير أولياء الله سبحانه وتعالى من العتاة والجبارة والظلمة والكفرة مثلها كبيت العنكبوت، وبيت العنكبوت من أوهن البيوت.

ثم قال سبحانه: (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) (العنكبوت: ٤٢ - ٤٣).

فالله بعزته يأخذ، وبحكمته يترك، وهذه أمثلة يضربها الله للناس حتى يعلموا أن الله قادر على كل شيء ومنتقم من الظالمين.

(إلى أن قال سبحانه): (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتةً وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنمٌ لمحيطةٌ بالكافرين) (العنكبوت: ٥٣ - ٥٤).

هذه أمور عشرة سببت تقدم المسلمين وهنالك مواصفات أخرى تحلى بها المسلمون فسببت حركتهم تلك الحركة السريعة التي أدهشت العالم.

١ . البحار الأنوار: ج ١٠٣، ص ١٧٣.

٢ . مستند الشيعة، للمحقق النراقي: ج ٢، ص ٣٩٧.

سر انتصار المسلمين

التطبيق العملي للقرآن عند المسلمين الأوائل

وقد كان المسلم في العصر الأول يعمل بالقرآن لا كبعض الأزمنة المتأخرة حيث يشتغل المسلم بعلمه وتفسيره وقراءته وتجويده وما أشبه تاركاً العمل، وإنما كان المسلم إذا سمع آيات القرآن مضى على تطبقها ولذلك نماذج كثيرة.

مثل ما ورد أن أعرابياً جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشهد الشهادتين وأسلم، ثم قال: يا رسول الله ما هو تكليفي الآن؟

فقال النبي (صلى الله عليه وآله) في جملة ما قال له: (تعلم القرآن): فأخذ أحد المسلمين يعلمه سورة الزلزلة وقرأ عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم: إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها يومئذٍ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: ١ - ٨).

فقام الأعرابي يريد الانصراف، فقال له المعلم المسلم: اصبر حتى أعلمك بعض السور الأخرى.
فقال الأعرابي: كفايني ذلك.

فقال: كيف؟

قال: إني لم أكن أحتاج إلى كل هذه السورة أيضاً حتى استقيم في طريق الإسلام، بل تكفيني آيتان فقط هما قوله سبحانه: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: ٧ - ٨).
فإني علمت أن الإسلام في هاتين الكلمتين المباركتين.

وهكذا كان المسلمون ينطلقون عن المنطلق القرآني، لهدم الفساد، وبناء الإصلاح.

ولقد كان المسلم يعلم أنه المنصور من قبل الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) (الصفات: ١٧١ - ١٧٣).

فالمسلم من جند الله ومن أتباع المرسلين فهو إذاً منصور وغالب، فلم يكن يهن ولا يحزن، وإنما كان يقدم ويتقدم، يهدم ويبني على أساس صحيح، وكان في ذهنه دائماً قوله سبحانه: (ولا تحنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (آل عمران: ١٣٩).

كما كان في ذهنه دائماً قول النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله): (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه) (١).
المسلمون قبل الإسلام وبعده

فبينما كان المسلمون قبل تشرفهم بالإسلام يخافون من كل شيء وأذلاء خانعين كما وصفهم القرآن الحكيم بقوله: (واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) (الأنفال: ٢٦).

إذا بهم يصبحون أعزة وسادة على من سادهم في الأمس من الفرس والروم.

وقد ذكر المؤرخون أن رسل المسلمين لما وردوا مجلس (يزد جرد) الملك الفارسي المعروف قال لهم يزد جرد: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي حتى لا تغزوكم الناس، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فقال له أحد الرسل: (أيها الملك إنك قد وصفتنا بصفة لم تكن بها عالماً فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلاً إلى آخر ما ذكره ابن كثير الدمشقي في كتاب البداية والنهاية).

وقد جاء في هذا الكتاب أيضاً: إنه بعث أمير الفرس يطلب رجلاً من المسلمين ليكلمه، فذهب إليه المغيرة بن شعبه فذكر من عظم ما رأى عليه من لبسه ومجلسه وفيما خاطبه به من الكلام في احتقار العرب واستهانتهم بهم وإنهم كانوا أطول الناس جوعاً وأبعد الناس داراً، وأقدر الناس قدراً، وقال: ما يمنع هؤلاء الأساورة حولي إن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجساً من جيفكم، فإن تذهبوا نخلي عنكم، وإن تأبوا نزركم مصارعكم.

قال: فتشهدت وحمدت الله وقلت: لقد كنا أسوأ حالاً مما ذكرت حتى بعث الله رسوله (إلى آخر كلامه).

وفي هذا الكتاب أيضاً أنه ذكر الوليد بن مسلم أن (ماهان) طلب خالداً ليبرز إليه فيما بين الصفيين فيجتمعاً في مصلحة لهم فقال ماهان: إنا قد علمنا إن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع فهلّموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاماً ما فترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها (الحديث).

وقد كان المسلمون يخافون الفرس والروم مخافة كبيرة لما جبلوا عليه من الخوف قبل الإسلام حتى أن الطبري ذكر: إنه عندما أراد المسلمون فتح فارس تخوفوا من الفرس وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم، وكان وجه فارس من أكرم الوجوه إليهم وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم (إلى آخر ما ذكره).

لكنهم بالإسلام تمكنوا من التقدم ومن جعل الفرس مسلمين وفتح بلادهم فأصبحت الشوكة الفارسية - الزردشتية - خبراً بعد عين، وصدق فيهم قول الله تعالى: (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) (سبأ: ١٩).

كما صدق قوله تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) (الأعراف: ١٣٧).

ومن الواضح، أنه لم يكن لأولئك المسلمين على الأغلب علم وتجربة، وإنما كان الإيمان وتلك الأخلاقيات الرفيعة التي ملئوا بها من مشاش رأسهم إلى أخمص قدمهم هو الذي يحركهم حتى قال ابن كثير: كان المسلمون يجيئون

بعض تلك الدور في بلاد فارس فيجدون البيت ملاً إلى أعلاه من أواني الذهب والفضة، ويجدون من الكافور شيئاً كثيراً فيحسونه ملحاً، وربما استعمله بعضهم في العجين فوجدوه مرّاً حتى تبيينوا أمره.

ذهول المؤرخين الغربيين من تقدم المسلمين

وحيث إن الغربيين والشرقيين لم يتمكنوا من التعمق في أسباب تقدم المسلمين . والتي ذكرنا جملة منها . تعجبوا من هذا التقدم الهائل يقول أحد مؤرخيهم وهو (جبون): (بقوة واحدة ونجاح واحد زحف العرب على خلفاء أغسطس في الروم، واصطخر في فارس، وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء والاحتقار منهما، في عشر سنوات من أيام حكم الخليفة الثاني الذي أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع وأنشأوا أربعة عشر ألفاً من المساجد لعبادة المسلمين، وعلى راس قرن من هجرة محمد (صلى الله عليه وآله) من مكة إمتد سلطان خلفائه من الهند إلى المحيط الأطلنطيكي ورفرف علم الإسلام على أقطار مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وإفريقيا وإسبانيا).

ويقول المؤرخ الأمريكي (ستودارد): (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان والبلاد منحلّة الشان فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقاً ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهداماً أدياناً قديمة كرت عليها الحقب والأجيال ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراس الأركان هو عالم الإسلام، كلما زدنا استقصاءً في سر تقدم الإسلام وتعالیه زادنا ذلك العجب العجاب بمرّاً فارتدنا عنه بأطراف خاسرة وقد عرفنا إن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيراً بطيئاً ملاقية كل صعب حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه في بطل النصرانية (قسطنطين) والبوذية (اسوكا) والمزدكية (قبا كسرى) وكل منهم ملك جبار أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد، وليس الأمر كذلك في الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية تجوب فيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل ربيعة المكان والمنزلة في التاريخ، فليسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في الأرض مجتازاً أفضع الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصراً مبيناً عجيباً، إذ لم يكده يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة من (البرانس) حتى (هملايا) ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط افريقية).

ويقول مؤرخ آخر هو (بيشر) في كتابه (تاريخ أوربا): (لم يكن هنالك في جزيرة العرب قبل الإسلام أثر لحكومة عربية أو جيش منتظم أو طموح سياسي عام، كان العرب شعراء خياليين محاربين وتجاراً لم يكونوا سياسيين إنهم لم يجدوا في دينهم قوة تثبتهم أو توحدهم، إنهم كانوا على نظام منحط من الشرك. وبعد مائة سنة حمل هؤلاء المتوحشون والخاملون لأنفسهم قوة عالمية عظيمة، إنهم فتحوا سورية ومصر وبلاد فارس، ملكوا باكستان الغربية وجزءاً من سنجاب، إنهم انتزعوا إفريقية من البيزنطيين والبربر وإسبانيا إلى حدود فرنسا في الغرب والقسطنطينية في

الشرق، ومخرت أساطيلهم المصنوعة في الإسكندرية وموانئ سورية في البحر المتوسط، واكتسحت الجزائر اليونانية، وتحدثت القوة البحرية للإمبراطورية البيزنطية. لم يقاومهم الفرس ويرير جبال الأطلس إنهم شقوا طريقهم بسهولة حتى صعب أن يقف في وجههم واقف ويعرقل سيرهم في الفتح والاستيلاء أحد، لم يعد البحر المتوسط بحر الروم، بل أصبح حوضاً عثمانياً لا سيطرة فيه لغير الترك ووجدت الدول النصرانية من أقصى أوروبا إلى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي).

ويقول أحد المؤلفين الشيوعيين: (إن الإنسان ليدهب إذا تأمل السرعة الغربية التي تغلب بها طوائف صغيرة من الرحالين الذين خرجوا من صحراء العرب مشتعلين بحماسة دينية على أقوى دولتين في الزمن القديم، لم يمض خمسون سنة على بعثه محمد (صلى الله عليه وآله) حتى غرز اتباعه علم الفتح على حدود الهند في جانب وعلى ساحل بحر الأطلنطيك في جانب آخر. إن خلفاء دمشق الأولين حكموا على إمبراطورية لم تكن لتقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل، وحتى نهاية القرن الأول للهجرة كان الخلفاء أقوى ملوك العالم، كل نبي جاء بمعجزات آيةً لما يقول وبرهاناً على صدقه، ولكن محمداً (صلى الله عليه وآله) هو أعظم الأنبياء وأجلهم إذ كان انتشار الإسلام أكثر آيات الأنبياء وأروعها إعجاباً وخرقاً للعادة، إن إمبراطورية أغسطس الرومية بعد ما وسعها بظلمها (تراجان) نتيجة فتوح عظيمة في سبعة قرون لم تساو المملكة العربية التي أسست في أقل من قرن. إن الإمبراطورية الإسكندرية لم تكن في اتساعها إلا كسراً من كسور مملكة الخلفاء الواسعة، إن الإمبراطورية الفارسية قاومت الروم زهاء ألف سنة، ولكنها غلبت وسقطت أمام سيف الله في أقل من عشر سنوات).

ويقول (بورفري) و(بلانونوف): (إن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار لم يكونوا عصائب لا تحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدن، فقد أحصى مؤرخ العرب الجيش الأول للمسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ثم أرسل إليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم سبعة آلاف وخمسمائة مقاتل، وأخيراً تنامى عددهم أربعة وثلاثين ألفاً، وأما عدد الروم فقال العرب: إنه كان مائة ألف وقيل ثلاثين ألفاً وقيل ثلاثمائة ألف مقاتل ولم يزد مؤرخ بيزنطية على أربعين ألفاً، وعلى كل حال كان العدد الأكبر لأعداء العرب وهكذا في حروب فارس).

المخبر لا المظهر هو سر الانتصار

ومن الواضح، أن المسلمين لم يكونوا يحاربون بالعدد والعدة، وإنما كانوا يحاربون بالإيمان والاندفاع وبروح الفضيلة والتقوى، فكانوا يتحلون بالمخبر دون المظهر، ولذا قال في كتاب (البداية والنهاية): كان المسلمون تزدريهم أعين الروم والفرس لما خرجوا لقتالهم، وكانوا يسخرون من سلاحهم ونبالهم وثيابهم ويضحكون. قال أبو وائل أحد الذين شهدوا القادسية: (كان الفرس يقولون للمسلمين: لا يد لكم ولا قوة ولا سلاح، ما جاء بكم؟، ارجعوا، قال: قلنا: ما نحن براجعين! فكانوا يضحكون من نبلنا).

وكان سعد قد بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعوهم إلى الله قبل الوقعة، فاستأذنا على كسرى فأذن لهم، وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم، وسياطهم بأيديهم، والنعال في أرجلهم وحيولهم

الضعيفة، وخطها الأرض بأرجلها وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ويقولون: كيف يجارب مثل هؤلاء جيوشاً كثيرة العدد والعدة؟

ويقول (ماكس): (يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف أن أعراباً منتمين إلى عشائر ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الأعداد والعتاد وكانوا يقابلونهم وهم كتائب منظمة).

الفرق بين الجيش الإسلامي وجيش الأعداء

نعم كم كان الفرق بين جيوش الإسلام الذين كانوا يريدون أحد الحسينين: إما الشهادة، وإما الفوز، وبين جيوش الروم والفرس الذين كانوا يقيدون أنفسهم بالسلاسل. أحياناً. لئلا يهزموا، ويجفرون لهم الأرض لئلا يندحروا أو ينسحبوا من ميدان القتال، ثم لا يغني عنهم هذا شيئاً فكانوا يهزمون انهزاماً عظيماً.

وقد نقل أحد مراجع التقليد أنه كان في ثورة (العشرين) في جملة من يحاربون البريطانيين في العراق، فرأى هذا العالم في فرقته جندياً من الجنود المسلمين يقول العالم: فقلت له: إن هناك ملكين يتحاربان: الملك الإسلام العراقي الشيخ محمد تقي الشيرازي والملك البريطاني وهو جورج فما شأنك أنت في المعركة؟ (قلت ذلك حتى أختبر نفسيته، ولم يكن الجندي يعلم إني من رجال الدين لأني كنت في لباس الجنود لا في لباس العلماء).

فلما قلت له هذا الكلام اغرورقت عيناه بالدموع وقال لي: يا هذا ما تقول؟ إنها ليست حرب ملكين ملك عراقي وملك بريطاني، وإنما هي حرب بين الإسلام والكفر، ووالله لو هزمنا في هذه الحرب لم تقم للمسلمين قائمة). فكان المسلم يجارب هكذا بينما كان الكفار يسلسلون أنفسهم، ويجفرون لهم الأرض لئلا يهزموا.

وقد كان المسلمون مندفعين أشد الاندفاع للتقدم، ومعرضين عن زهرة الحياة الدنيا. التي هي فتنة. على تعبير الله سبحانه وتعالى، حيث قال: (زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (طه: ١٣١).

وكانوا يسمعون قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل) (آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧).

وقوله سبحانه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (الأنبياء: ١٠٥).

وقوله سبحانه: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) (النور: ٥٥).

وقول رسول الله (صلى الله عليه وآله) للمسلمين. على ما في بعض التواريخ: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغارها وإن أممي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض) (٢).

وقوله (صلى الله عليه وآله): (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) (٣).

ويذكرون قول الله تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذ لكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (آل عمران: ١٦٠).

وقوله سبحانه: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) (البقرة: ٢٤٩).

الأعداء يلمسون الحقيقة المرة!

وقد شعر الأعداء بهذه الحقيقة لما رأوا من صدق المسلمين في قولهم وفي عملهم.

فقد روى (ابن كثير): إن هرقل لما انتهى به خير زحف المسلمين قال لأهل الشام: (ويحكم إن هؤلاء أهل دين جديد وإنهم لا لأحد بهم، فأطيعوني وصالحوهم بما تصالحوهم على نصف خراج الشام، وتبقى لكم جبال الروم، وإن أنتم أبيتم ذلك أخذوا منكم الشام وضيعوا عليكم جبال الروم ثم كان الأمر كما قال.

كما أنه قبل ذلك في غزوة حنين قال بعض كبار العشائر لقومه الذين أرادوا محاربة رسول الله (صلى الله عليه وآله): أطيعوني هذه المرة وخالفوني كل مرة، أطيعوني ولا تحاربوا محمداً (صلى الله عليه وآله) فإنه لا يقف شيء أمامه، لكنهم خالفوه وحاربوا الرسول (صلى الله عليه وآله) في حنين وكان مصيرهم الفشل على كثرة عددهم وعُددهم حتى أن جملة من التواريخ ذكروا أن عددهم كان فوق الثلاثين ألفاً، بينما جيش النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن أكثر من اثني عشر ألفاً، ولذا كتب أمراء المسلمين في اليرموك إلى الحاكم يعلمونه بما وقع من الأمر العظيم وما يقابلونه من خطر داهم وأن هناك احتمال فشل المسلمين لكثرة الأعداء وعددهم الذي لا قبل لهم به فكتب إليهم الحاكم: (أن اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً، وألقوا جنود المشركين، فأنتم أنصار الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفر به، ولم يؤت مثلكم عن قلة ولكن من تلقاء الذنوب فاحترسوا منها).

ولما استشار عمر الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض الحروب التي وقعت بين المسلمين وبين الكفار في العراق في وقعة نهاوند قال له علي (عليه السلام): (إن هذا الأمر لم يكن نصره وخذلانه بكثرة ولا قلة، وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعده وأمدّه حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع فنحن على موعد من الله، والله منجز وعده وناصر جنده)(٤).

نعم: لم يكن يهّم المسلمين . الذين اتصفوا بتلك الصفات الرفيعة . القلة والكثرة، وتفوق العدو عدداً وعُدداً، بل كان الإيمان والفضيلة والتقوى وما سبق من الصفات النبيلة التي كانوا يتحلون بها هي التي تدفعهم إلى الأمام . وقد قال علي (عليه السلام) . كما في نهج البلاغة . وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه: (وقد وكلّ الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذين نصرهم وهم أقلاء لا ينتصرون ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون حي لا يموت).

هذه كانت مواصفات المسلمين

ويظهر من كلام الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) . في وصف القوم الذين كانوا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) . يظهر منه وجه انتصارهم على الأعداء حيث يقول: (أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولّوا وُلّه اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أعمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك وبعض نجأ، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعززون عن الموتى، مره العيون

من البكاء، خص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غيرة الخاشعين، أولئك أخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظماً إليهم ونعص الأيدي على فراقهم(٥).
إلى آخر كلامه (عليه السلام).

الجرأة والإقدام

وقد كان المسلمون يخاطرون بأعمارهم، ويأتون بأعمال خارقة للعادة، وذلك ثقة منهم بنصر الله واعتماداً على وعده، حتى أنهم لما أرادوا محاربة كسرى في المدائن، كان الفاصل بينهم دجلة، فتحيروا فيما يعملون، لكنهم أخيراً خاضوا بحيولهم في هذا النهر الواسع العميق وكان بعضهم يتحدث مع بعض وكأنهم سائرون على البر ولما رأهم الفرس من الجانب الثاني من النهار قال بعضهم لبعض (ديوان آمدند). يعني جاء الجن والعمارة والغيلان، ثم كانوا يقولون (ديوانكان ديوانكان). يعني هؤلاء المسلمون مجانين وكان سلمان الفارسي يسير سعداً في الماء فجعل سعد يقول: (حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليه، وليظهن الله دينه، وليهزم من الله عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات) فقال له سلمان: (إن الإسلام جديد ذلت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر، أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا أفواجاً) ثم خرج جميعهم من الماء لم يغرق منهم أحد، وكان بعضهم يركبون حيولهم وبعضهم يسبحون في الماء بدون حيول، ومراد سلمان بقوله (إن الإسلام جديد) أنه فتى وله قوة وجدة وليس هرمًا وشيخاً لا يتمكن من التغلب على الصعاب، وكان الأمر كما قال سلمان رضوان الله عليه.

وقد روى المؤرخون أن المسلمين بلغهم أن (هرقل) نزل ب(مآب) في مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة. وهم العرب الذين اعتنقوا النصرانية. وكان المسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف، ولما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على (معان). وهي قرية في الطريق. ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نخبره بعدد عدونا فيما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمر فمضى له.

قالوا: فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال: (يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهوراً وإما شهادة).

فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة ومضوا.

النقلة البعيدة كما تصفها الزهراء (عليها السلام)

وقد وصفت الصديقة الطاهرة (عليها السلام) في خطبتها المشهورة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وما كانت عليه أعراب الجاهلية قبل ظهور الإسلام وما صاروا عليه بعد الإسلام بقولها: (فقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبيّ دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم ولنعم المعزى إليه (صلى الله عليه وآله)، فبلغ الرسالة صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسر الأصنام وينكث

الهام حتى انهزم الجمع، وولوا الدبر، وتغرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق، وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الحماص، وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أدلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (صلى الله عليه وآله) بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني بهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطاء. جناحها بأخصه، لهبها ويخمد بسيفه، مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله مشمراً ناصحاً مجدداً كادحاً(٦).

نعم هكذا كانوا قبل الإسلام، وهكذا صاروا بعد الإسلام.

وفي التواريخ: أنه جاء رجل إلى القائد الإسلامي يوم اليرموك فقال: إني قد تهيأت لأمرى فهل لك من حاجة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ قال: نعم تقرأه عني السلام وتقول: يا رسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً.

وقد قال أحد النصارى العرب للقائد الإسلام المحارب للروم: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال القائد: ويلكم أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال.

الإعراض عن زخارف الدنيا

وكان من عدم اهتمامهم بزخارف الدنيا، واستصغارهم للكفار، واعتمادهم على وعد الله سبحانه وتعالى أن (ربيعي بن عامر) أرسل إلى (رستم) قائد الجيوش الفارسية فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق (الوسادات) المزركشة المذهبة، والزرايبي (الطنافس) الرفيعة، وأظهروا اليواقيت، اللاليء الثمينة والزينة العظيمة، وعلى (رستم) تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وجلس على سرير من ذهب ودخل (ربيعي) بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه فقال رستم له: ضع سلاحك.

فقال: إني لم آتكم بنفسى وإنما جئتكم حين دعوتوني، فان تركتموني هكذا وإلا رجعت.

فقال رستم: إئذنوا له.

فاقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق بدون اعتناء بما يصيب تلك النمارق من الرمح.

فقال له رستم: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفنى إلى موعود الله.

قال رستم: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبي، والظفر لمن بقى.
فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وننظروا؟
فقال: نعم كم أحب إليكم: يوم أو يومين؟
قال: لا، بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.
فقال: ما سن لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.
فقال رستم: سيدهم أنت؟
قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد.. يجير أديانهم على أعلاهم.
فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعزّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟
فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتبيع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟
فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل ويصنون الأحساب).
وقد دخل بعض قادة الجيش الإسلامي أيضا على (رستم) وقعد معه على السرير فصاحوا عليه فقال: (إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم) فقال رستم: (صدق).
وهكذا لم يكن المسلمون يأبهون بزخارف الدنيا وبالعزة والفخفة.
وفي نهج البلاغة: إنه لقي الإمام (عليه السلام) عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه فقال لهم الإمام (عليه السلام): ما هذا الذي صنعتموه؟
فقالوا: خلّق منا نعظم به أمراءنا.
فقال (عليه السلام): والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم، وإنكم لتشقون به على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، وما أخسر المشقة وراءها العقاب وأريح الدعة معها الأمان من النار)(٧).
فالإمام (عليه السلام) لم يرض حتى بتظاهرة فرحية أمامه من مجموعة دهاقين.. فكم كانوا يستهينون بالدنيا وبزخارفها وبالأعداء وبجحافلهم؟
وفي التاريخ أن عبد الله بن عباس قال: دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟
فقلت: لا قيمة لها.
قال (عليه السلام): والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً.
ثم خرج (عليه السلام) فخطب الناس فقال: (إن الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة، فساق الناس حتى يؤأهم محلثهم وبلغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم، أما والله إن كنت لفي ساقتها حتى تولت بحدافيرها ما ضعفت ولا جبت).

وفي كلام آخر له (عليه السلام): (فطرت بانامها، واستبددت برهانها، كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز، الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله قضاءه وسلّمنا لله أمره)(٨).

يقتلون آباءهم وأبناءهم!

وفي كلام آخر له (عليه السلام) قال: (ولقد كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم وجداً في رد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون؟ فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه ومتبواً أوطانه)(٩).

ومراده (عليه السلام) بقتل الآباء والأبناء والأخوان والأعمام، أن المسلمين لم يكونوا يباليون بأرحامهم إذا كانوا في جيش الكفار فإن الإسلام قد قطع الرحم بين المؤمن والكافر، وإنما كانوا يحاربونهم حتى يستقيم الإسلام ويتقدم إلى الأمام.

الأعداء يعترفون!

نعم تلك الأخلاق الرفيعة التي نفخها فيهم القرآن الحكيم والتعلّم من رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو الذي سبّب تقدمهم أمام العالم وكأنهم من حديد، وكأن العالم من خزف، وقد روى أبو إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يثبت لهم العدو فواق ناقة (أي مدة حلبها) عند اللقاء فقال هرقل . وهو على أنطاكية لما قدمت الروم منهزمة . ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى .

قال: فأنتم أكثر أم هم؟

قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل مواطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام وننقض العهد ونغصب ونظلم ونأمر بالسخط وننهي عما يرضي الله ونفسد في الأرض . فقال الملك: أنت صدقتني .

أمير المؤمنين (عليه السلام) يصف طلائع المسلمين

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) (كما في نهج البلاغة) أمثال هؤلاء فقال: (كان لي فيما مضى أخ في الله، كان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، وكان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً، فإن قال قدّ القائلين (أي كفهم عن القول) ونفعهم ونقع غليل السائلين، وكان

ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجد فهو ليث غاب وصلّ واد، لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضياً، وكان لا يلوم أحداً على ما يجد العذر في مثله حتى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعاً إلا عند برئه، وكان يفعل ما يقول، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على ما يتكلم، وكان إذا يدهمه أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه. فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير(١٠).

العدو يستطلع أحوال المسلمين

وقد سأل هرقل رجلاً كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم؟

فقال أخبرك كأنك تنظر إليهم: هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بئس، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه.

فقال هرقل: لئن كنت صدقتني ليملكنّ موضع قدمي هاتين.

وقد وصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال: (جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيلاً عتاقاً، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر).

قال: فالتفت ذلك الأمير إلى أصحابه وقال لهم: أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به.

الكفار يفضلون ولاية المسلمين!

وقد كان المسلمون يتورعون عن أذى الناس، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين إلى ابعدهم، ومن هنا أحبهم الآخرون وإن كانوا غير مسلمين.

فقد روى البلاذري في فتوح البلاد قال: حدثني أبو حفص الدمشقي قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: (بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم.

فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جنود هرقل عن المدينة مع عاملكم.

ونخص اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب فنجهد.

فأغلقوا الأبواب وحرسوها).

وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم للمسلمين وأدوا الخراج.

نعم لقد كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، يحلون ما أحل الله، ويحرمون ما حرم الله، ولهذا نصرهم الله سبحانه وتعالى على أعدائهم.

أما المنافقون منهم فكانوا قليلين والرسول (صلى الله عليه وآله) والمسلمون لم يتمكنوا من ذلك التقدم الهائل بسبب المنافقين، فإن المنافق لا يزيد الأمر إلا خبالاً، وأما الذين آمنوا بالله ورسوله فكانوا كثيرين، وبهم فتح الله المدن وأقام العدل ونشر الإسلام.

الإمام علي (عليه السلام) يصف المتقين

وقد وصف المتقين . الذين كانوا كثيرين في أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) . الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لصاحبه همام، فقال في جملة كلامه: (فالمثقفون فيها هم أهل الفضائل، منقطعهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسمعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها وهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها وهم فيها معذبون، قلوبهم محزونة، وشروهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مريحة يسرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامح قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فكاف رقابهم.

وأما النهار فحلما علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، ويقولون قد خولطوا وقد خالطهم أمر عظيم، لا يرضون من أعمالهم بالقليل، ولا يستكبرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له فيقول: (أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون).

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وزهداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتحملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتخرجاً عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبیت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً لما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريباً أمله، قليلاً زلله، خاشعاً قلبه، قانعة نفسه، منجوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكروه، حاضرّاً

معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يجيف على من يبغض، ولا يأنم فيمن يجب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا يبايز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يضمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغى عليه صبر، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنى منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوّه بمكر وخديعة(١١).

ولذا نرى أن (فتوح البلدان) يروى أن (رتبيل) ملك رنج سجستان لما جاءته رسل يزيد بن عبد الملك يطالبونه بالخراج قال: ما فعل قوم كانوا يأتوننا خماص البطون سود الوجوه من الصلاة، نعالهم خوص؟ قالوا: انقرضوا.

قال: أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً، وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً. ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوات شيئاً. أجل لقد أثر القرآن وأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيهم فصاروا أولئك الأبطال زهاد بالليل، شجعان بالنهار، وتمكنوا من إيجاد موج في العالم غيرهم من يومهم إلى هذا اليوم. (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له) (الرعد: ١١). ومن الواضح أن الإنسان إن أراد الخير والرشد والصلاح والتقدم والخدمة وفقه الله، وإن أراد الإنسان غير ذلك تركه الله وشأنه وخذله ولم يكن له ناصر في الأرض ولا في السماء. وقد حصل المسلمون على تلك الصفات الرفيعة من جراء عملهم بالقرآن الحكيم وإتباعهم لسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله).

الاطمئنان بنصر الله

وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يثير في المسلمين الروح العالية الثابتة في كل مناسبة ويعددهم أنهم هم الذين يملكون زمام الأرض فيقول لهم: (اتبعوني تكونوا ملوكاً في دنياكم وتحظوا بجنات عرضها السماوات والأرض في آخرتكم).

مثلاً في حرب الخندق لما استعصت صخرة على المسلمين وكان المسلمون محاصرين من قبل الكفار يخافون أن يتخطفهم الناس في هذا الظرف العصيب جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمر بأن يرش الماء على تلك الصخرة العاتية وبعد قليل من الزمن جاء بمعول وضرب على الصخرة ضربة شديدة فانقذ منها النار، وقال (صلى الله عليه وآله): (الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام) (ومعنى ذلك أنه سيفتح المسلمون الشام) ثم ضربها (صلى الله عليه وآله) ضربة ثانية وقال: (الله أكبر وقصور المدائن) (أي أعطيت الإمبراطورية الفارسية).

ثم ضربها (صلى الله عليه وآله) ضربة ثالثة وقال: (الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن)(١٢).

بيد أن بعض المنافقين الذين كانت قلوبهم خواء سخروا من كلام الرسول (صلى الله عليه وآله) قائلين أن محمداً ييشرننا بفتح الشام وفارس واليمن. ونحن لا نأمن على أنفسنا.

لكن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان يعلم ما يقول: وكان ذلك بتسديد من الوحي وبواقعية هذا الدين الذي فيه من الوثوق بالنفس الشيء الكبير.

فكما يحق لصانع السيارة والطائرة والقطار والباخرة أن يقول: (إني سأغزو بصناعتي هذه كل العالم وإن الدواب والبعال والحمير والسفن الشراعية ستخلى مكانها لما صنعنا).

وكما يحق لمكتشف الكهرباء أن يقول: (إن الكهرباء هي التي ستغزو العالم وتدخل البيوت والمصانع في شرق الأرض وغربها وإن المصاييح النفطية والشموع ستخلى مكانها للكهرباء).

كذلك كان يحق للرسول (صلى الله عليه وآله) أن يقول بلسان القرآن الحكيم: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) (الفتح: ٢٨).

ويقول في آية أخرى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (الصف: ٩).

والعالم اليوم بحاجة إلى تلك الروحية النقية الوثابة المقدمة حتى تتمكن البشرية من بناء عالم جديد ملؤه الحرية والسلام والإيمان والرفاه.

الحلم وسعة الصدر

وإننا نجد في التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة من تلك الروح العالية والصفات الرفيعة ولنذكر مثلاً بهذا الصدد قصة أحد القادة الإسلاميين وهو مالك الأشتر (رحمه الله) فقد كان قائداً كبيراً للجيش الإسلامي، ولكنه بالرغم من ذلك كان يختار لنفسه الملابس المتواضعة، فعلى رأسه عمة من صوف، وعلى جسده قباء متواضع بحيث لا يتميز عن عداه.

وبينما هو في بعض الأيام يخرق سوق الكوفة، إذ استهزأ به رجل عادي جهلاً بمكانته، لكن مالك الأشتر لم يلتفت إليه ومضى في طريقه وبعد شيء من الزمن علم الرجل أنه هو مالك الأشتر فخاف وانحطف لونه وذعر لما كان يعرف من شدة بأسه وسطوته وجرأته وشجاعته وكثرة القادة المحيطين به، فانطلق الرجل يبحث عن مالك فلم يجده إلا في المسجد فحشا بين يديه يعتذر إليه فقال له مالك: هل تدري ما جاء بي إلى المسجد؟

قال الرجل: لا.

قال: إنما جئت لأستغفر لك ذنبك!!

إن هذا القائد والعشرات من أمثاله في التاريخ الإسلامي لدليل على سعة آفاق نفسيتهم، وكما قال علي (عليه السلام): (آلة الرئاسة سعة الصدر) (١٣).

فهم بينما كانوا شجعاناً في ساحات القتال كانوا شجعاناً في ساحات النفس، والعفو شيمة لهم، ولذا التفّ العالم حولهم التفافاً منقطع النظير، والعالم اليوم بحاجة إلى مثل هذه القيادة الرشيدة، وهذه الأخلاقيات الرفيعة وهذه القوانين الوضاعة حتى يتمكن الناس من استرجاع ما فقدوه بسبب الحضارات الغربية والشرقية.

- ١ . الخلاف، للشيخ الطوسي: ج٢، ص٢٥٩.
- ٢ . مسند أحمد: ج٥، ص٢٧٨.
- ٣ . بحار الأنوار: ج١٨، ص١٤١.
- ٤ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٢، ص٢٩.
- ٥ . المصدر السابق: ج١، ص٢٣٤.
- ٦ . الاحتجاج: ج١، ص١٣٦.
- ٧ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٤، ص١٠.
- ٨ . المصدر السابق: ج١، ص٨٨.
- ٩ . المصدر السابق: ص١٠٤.
- ١٠ . المصدر السابق: ج٤، ص٦٩.
- ١١ . المصدر السابق: ج٢، ص١٦٠.
- ١٢ . الكافي: ج٨، ص٢١٧.
- ١٣ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٤، ص٤٢.

تصوير القرآن لحالتي الإيمان والكفر

ملامح المؤمن في القرآن الكريم

ولنختتم هذا الفصل بذكر الآيات التي تذكر ملامح المؤمنين والتي بسببها تقدموا على العالم كما سنذكر بعدئذ الآيات التي تتناول الرذائل التي اتصف بها الكفار وبسببها تأخروا.

١ . قال سبحانه: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) (البقرة: ٢ - ٥).

٢ . قال سبحانه: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) (البقرة: ٢٥).

٣ . قال سبحانه: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (البقرة: ٢١٨).

٤ . قال تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) (البقرة: ٢٧٤).

٥ . قال تعالى: (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمننا فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (آل عمران: ١٥ - ١٧).

٦ . وقال سبحانه: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠).

٧ . قال تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) (آل عمران: ١٩١).

٨ . قال تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) (الأنفال: ٢ - ٤).

٩ . قال تعالى: (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم) (الأنفال: ٧٤).

١٠ . قال تعالى: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) (التوبة: ١٨).

١١ . قال تعالى: (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) (التوبة: ٢٠).

١٢ . قال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) (التوبة: ٧١).

١٣ . قال تعالى: (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) (التوبة: ١١٢).

١٤ . قال تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (يونس: ٢٦).

١٥ . قال تعالى: (إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجهه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدروون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها) (الرعد: ١٩ - ٢٣).

١٦ . قال عز من قائل: (ومن يأتيه مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) (طه: ٧٥).

١٧ . قال تعالى: (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (المؤمنون: ١ - ١١).

١٩ . قال تعالى: (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة إنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) (المؤمنون: ٥٧ - ٦١).

٢٠ . قال تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخزوا عليها صنماً وعمياناً أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويُلَقَّون فيها تحية وسلاماً) (الفرقان: ٦٣ - ٧٥).

٢١ . قال تعالى: (ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو مُحْسِنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى) (لقمان: ٢٢).

٢٢ . قال تعالى: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدِّقين والمتصدِّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيماً) (الأحزاب: ٣٥).

٢٣ . قال تعالى: (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) (فاطر: ٢٩).

٢٤ . قال سبحانه: (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) (الزمر: ٣٣ - ٣٤).

٢٥ . قال تعالى: (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) (الشورى: ٣٦ - ٣٩)

٢٦ . قال سبحانه: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (الأحقاف: ١٣).

٢٧ . قال تعالى: (إن المصدِّقين والمصدِّقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) (الحديد: ١٨ - ١٩).

٢٨ . قال سبحانه: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (الحشر: ٨ - ١٠).

٢٩ . قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً) (النساء: ٤٣).

٣٠ . قال سبحانه: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة: ١٨٣).

٣١ . قال تعالى: (والطيبات للطيبين والطيبات للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) (النور: ٢٦).

٣٢ . قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحد فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم) (النور: ٢٧ - ٢٨).

٣٣ . قال سبحانه: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (النور: ٣٠ - ٣١).

٣٤ . قال تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) (النور: ٣٢ - ٣٣).

٣٥ . قال سبحانه: (لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (البقرة: ٨٢).

٣٦ . وقال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) (الحجرات: ٩ . ١٠).

٣٧ . قال تعالى: (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون) (الأعراف: ٢٩).

٣٨ . قال سبحانه: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) (الأعراف: ٣١ . ٣٢).

٣٩ . قال سبحانه: (واجعلنا للمتقين إماماً) (الفرقان: ٧٤).

٤٠ . قال تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (التوبة: ١٠٥).

٤١ . قال سبحانه: (وما كان المؤمنون لينفروا كافةً فلولا نفر من كل فرقةٍ منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (التوبة: ١٢٢).

٤٢ . قال تعالى: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصبروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) (آل عمران: ١٣٢ . ١٣٦).

٤٣ . قال تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خيرٍ فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خيرٍ فإن الله به عليم) (البقرة: ٢١٥).

٤٤ . قال سبحانه: (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) (البقرة: ٢٢٠).

٤٥ . قال سبحانه: (وأقيموا الشهادة لله) (الطلاق: ٢).

٤٦ . قال سبحانه: (وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٍ إلى ميسرةٍ وإن تصدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) (البقرة: ٢٨٠).

ومن الواضح، إن الآيات المباركات التي وردت في الأخلاق الرفيعة والسلوك الإنساني الجميل كثيرة جداً وإنما ذكرنا هذه الآيات كنموذج فقط.

علامات الكافر في القرآن الحكيم

أما الملكات والصفات السيئة التي توجب تأخر الإنسان . مما اجتنبها المسلمون بدء الإسلام وكان الكفار متصفين بها ولهذا سقطوا أمام المسلمين، كما أن كثيراً من المسلمين اتصفوا بهذه الملكات والأعمال السيئة في هذا القرن، وبذلك سقطوا أمام الكفار . فهي كثيرة أيضاً في الآيات الكريمة ونحن نذكر منها كنموذج خمسين مورداً:

١ . قال سبحانه: (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصروهم ولئن نصروهم ليولنَّ الأدبار ثم لا ينصرون) (الحشر: ١١ - ١٢).

٢ . قال تعالى: (وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) (سبأ: ١٩).

٣ . قال سبحانه: (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) (غافر: ٢٨).

٤ . قال سبحانه: (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) (الزمر: ٣٢).

٥ . قال سبحانه: (ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) (المجادلة: ١٤).

٦ . قال سبحانه: (ألم تر إلى الذين نُهِوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك بما لم يحْيِكْ به الله) (المجادلة: ٨).

٧ . قال سبحانه: (إن المجرمين في ضلالٍ وسُعْرٍ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سَقْرٍ) (القمر: ٤٧ - ٤٨).

٨ . قال سبحانه: (قتل الخِزَّاصون الذين هم في غمرةٍ ساهون) (الذاريات: ١٠ - ١١).

٩ . قال سبحانه: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم) (محمد: ٢٢ - ٢٣).

١٠ . قال سبحانه: (فلا تطع المكذبين ولا تطع كل حلاف مهين هُمَّاز مَسَّاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عُتْلٌ بعد ذلك زنيم) (القلم: ٨ - ١٠ - ١٣).

١١ . قال سبحانه: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) (فصلت: ٦ - ٧).

١٢ . قال سبحانه: (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم) (الفتح: ٦).

١٣ . قال سبحانه: (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ) (الشعراء: ٦١).

١٤ . قال سبحانه: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) (النور: ٢٣).

١٥ . قال سبحانه: (إن الذين يجبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم) (النور: ١٩).

- ١٦ . قال سبحانه: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) (النور: ٢).
- ١٧ . قال سبحانه: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) (النور: ٤).
- ١٨ . قال سبحانه: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً) (الكهف: ٢٨).
- ١٩ . قال سبحانه: (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) (الإسراء: ٢٧).
- ٢٠ . قال سبحانه: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (الرعد: ٢٥).
- ٢١ . قال سبحانه: (ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً) (هود: ١٨ . ١٩).
- ٢٢ . قال سبحانه: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) (التوبة: ٦٧).
- ٢٣ . قال سبحانه: (إن شرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) (الأنفال: ٥٥).
- ٢٤ . قال سبحانه: (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) (الأنفال: ١٣).
- ٢٥ . قال سبحانه: (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون) (الأعراف: ١٧٩).
- ٢٦ . قال سبحانه: (الذين اتخذوا دينهم هواً ولعياً وغرَّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) (الأعراف: ٥١).
- ٢٧ . قال سبحانه: (والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (الأعراف: ٣٦).
- ٢٨ . قال سبحانه: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله) (المائدة: ٣٨).
- ٢٩ . قال سبحانه: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ أو يُنْفَوْا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) (المائدة: ٣٣).
- ٣٠ . قال سبحانه: (لا يُحِبُّ الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) (النساء: ١٤٨).
- ٣١ . قال سبحانه: (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) (النساء: ١١٩).
- ٣٢ . قال سبحانه: (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرمي به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) (النساء: ١١٢).
- ٣٣ . قال سبحانه: (والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) (النساء: ٧٦).
- ٣٤ . قال سبحانه: (إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) (النساء: ٣٦).
- ٣٥ . قال سبحانه: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) (النساء: ٣٧).

٣٦ . قال سبحانه: (ومن يعصي الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (النساء: ١٤).

٣٧ . قال سبحانه: (ولا يحسن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيطوِّقون ما بَجَلُّوا به يوم القيامة) (آل عمران: ١٨٠).

٣٨ . قال سبحانه: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حقٍ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذابٍ أليمٍ) (آل عمران: ٢١).

٣٩ . قال سبحانه: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ) (البقرة: ٢٧٥).

٤٠ . قال سبحانه: (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (البقرة: ١٩٠).

٤١ . قال سبحانه: (إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (البقرة: ١٥٩).

٤٢ . قال سبحانه: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار) (البقرة: ١٧٥).

٤٣ . قال سبحانه: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون) (البقرة: ٧٩).

٤٤ . قال سبحانه: (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) (البقرة: ٢٧).

٤٥ . قال تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما رحمت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (البقرة: ١٦).

٤٦ . قال تعالى: (وتأكلون التراث أكلاً لماً) (الفجر: ١٩).

٤٧ . قال تعالى: (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً) (الإسراء: ١٦).

٤٨ . قال تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) (الأحزاب: ٤٨).

٤٩ . قال تعالى: (فإذا مس الإنسان ضرٌّ دعانا ثم إذا حولناه نعمةً مِنَّا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين أولم يعلموا إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون) (الزمر: ٤٩ - ٥٢).

٥٠ . قال تعالى: (إن الإنسان خُلِقَ هلوغاً، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) (المعارج: ١٩ - ٢٣).

الفصل السادس: الأسس الخمسة لتقدم المسلمين

الأساس الأول : الدولة الإسلامية

أسس تقدم المسلمين

لقد كان من أسباب تقدم الإسلام ذلك التقدم السريع، وأخذه بزمام العالم في أول ظهوره أنه مبني على أسس، منها خمسة لها أسلوب خاص في الدستور والنظام الإسلامي وهي:

الأول: الدولة.

الثاني: الأمة.

الثالث: الأخوة.

الرابع: الشريعة.

الخامس: الحرية.

ونحن نلمح إلى كيفية هذه الأمور في الإسلام، ونرى أنها إذا أحييت كما قرره الإسلام يأخذ الإسلام بزمام المبادرة في العالم مما يسبب التقدم السريع للإسلام والصياغة الجديدة لعالم مليء بالمشاكل والأزمات.

الأساس الأول: الدولة الإسلامية

والدولة في الإسلام مبنية على أمور:

١ . العدل والإحسان

حتى مع الأعداء، وحتى في الأمور الطفيفة.

قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملل هو فليملل وليه بالعدل) (البقرة: ٢٨٢).

وقال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمكم شتان قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) (المائدة: ٨ - ١٠).

هذه الآيات المباركة تأمر بالعدل حتى مع الأعداء، وتبين أن الذي يعدل في كل حال هو الذي يعمل الصالحات، أما إذا لم يعدل فهو داخل في الذين كفروا وكذبوا بآياتنا.

وفي آية ثالثة: (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) (الشورى: ١٤ - ١٥).
إلى غيرها من الآيات المباركة.

نصوص كريمة:

كما أنه ورد في الروايات طائفة كبيرة تدل على وجوب العدل:

فعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (اتقوا الله واعدلوا فإنكم تعيرون على قوم لا يعدلون)(١).

وعن الحلبي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان، ما أوسع العدل إذا عدل فيه وإن قل)(٢).

وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحاً من المسك)(٣).

أقول: لأن العدل يصيب الروح، وهذه الأمور ماديات ومن الواضح أن ما يصيب الروح من الراحة مما يناله الجسد من الشهوات.

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ثلاث هم أقرب إلى الله عز وجل يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه إلى أن يحيف على من تحت يديه، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر شعيرة، ورجل قال الحق فيما له وعليه)(٤).

وعن الفضل بن شاذان، عن الرضا (عليه السلام) قال: (استعمال العدل والإحسان مؤذن بدوام النعمة)(٥).
وعن الصادق (عليه السلام)، أنه سأل عن صفة العدل من الرجل؟ فقال: (إذا غض طرفه من المحارم، ولسانه عن المآثم، وكفه عن المظالم)(٦).

وروي أبو البركات، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها)(٧).

(العدل ميزان الله في الأرض، فمن أخذه قاده إلى الجنة، ومن تركه ساقه إلى النار)(٨).

وروى سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت علياً (عليه السلام) يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أشد الناس ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له فأطاع الله فدخل الجنة، وأدخل الداعي النار بترك عمله واتباع هواه بعصيانه لله)(٩).

إرشادات إسلامية حول العدل والظلم

العدل ومعطيته:

عن أبي إسحاق الجرجاني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الله جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومدة من ليال وأيام وسنين وشهور، فإن عدلوا في الناس أمر الله صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته فطالت أيامهم ولياليهم

وسنينهم وشهورهم، وإن جاروا في الناس فلم يعدلوا أمر الله صاحب الفلك فأسرع بإدارته فقصر لياليهم وأيامهم وسنينهم وشهورهم، وقد وفى الله عز وجل بعدد الليالي والشهور(١٠).

لا يجوز لمن وصف عدلاً أن يخالفه إلى غيره:

عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن من أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره)(١١).

وعن قتيبة الأعشى، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة من وصف عدلاً وعمل بغيره)(١٢).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: في قول الله عز وجل: (فكذبوا فيها هم والغاوون) فقال (يا أبا بصير قوم وصفوا عدلاً بالسنتهم ثم خالفوه إلى غيره)(١٣).

الظلم في الدنيا

ظلمات في يوم القيامة:

عن الوليد بن صبيح، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله)(١٤).

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة)(١٥).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من أحد يظلم مظلمة إلا أخذ الله بها في نفسه وماله، فأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر له)(١٦).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: لما حضر علي بن الحسين (عليه السلام) الوفاة ضمني إلى صدره ثم قال: (يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة. ومما ذكر أن أباه أوصاه به قال: يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرًا إلا الله)(١٧).

وعن حفص بن عمار، قال: قال أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من خاف القصاص كفّ عن ظلم الناس)(١٨).

وعن علي بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي لا أجب دعوة مظلوم دعائي في مظلمة ظلماً ولأحد عنده مثل تلك المظلمة)(١٩).

وعن زيد بن علي بن الحسين، عن آبائه (عليهم السلام) قال: (يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من دنيا المظلوم)(٢٠).

وعن محمد بن عبد الله الأرقط، عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (من ارتكب أحداً بظلم بعث الله من ظلمه مثله أو على ولده أو على عقبه من بعده)(٢١).

أقول: الظلمة نواة تعطي الظلم فيقتطف الثمر إما نفس الشخص أو عقبه.

وعن السكوني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام):
(أعظم الخطايا اقتطاع مال امرئ مسلم بغير حق)(٢٢).

وجوب رد المظالم إلى أهلها:

عن سعد بن طريف، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد)(٢٣).

وعن شيخ من النخع قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): إني لم أزل والياً منذ من الحجاج إلى يومي هذا، فهل لي من توبة؟ قال فسكت، ثم أعدت عليه، فقال: (لا، حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه)(٢٤).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (من أكل من مال أخيه ظلماً ولم يرده إليه أكل جذوة من النار يوم القيامة)(٢٥).

وعن أبي عبيدة الحداد قال: قال أبو جعفر (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقه لم يزل الله معرضاً عنه ماقماً لأعماله التي يعملها من البرِّ والخير لا يشتها في حسناته حتى يرد المال الذي أخذه إلى صاحبه)(٢٦).

الظالم والمعين له والراضي بالظلم: شركاء!

عن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم)(٢٧).

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من عذر ظالماً بظلمه سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته)(٢٨).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي شر الناس من باع آخرته بدينه، وشر منه من باع آخرته بدينه غيره)(٢٩).

وعن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (من أعان ظالماً على مظلوم لم يزل الله عليه ساخطاً من معونته)(٣٠).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية ومن دونه بالغبلة، ويظاهر للقوم الظلمة)(٣١).

تحريم طلب الرئاسة مع عدم الوثوق بالعدل:

عن معمر ابن خلادته عن أبي الحسن (عليه السلام) أنه ذكر رجلاً فقال: إنه يجب الرياسة، فقال: (ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرق رعاؤها بأرض من دين المسلم من الرياسة)(٣٢).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من طلب الرياسة هلك)(٣٣).

وعن عبد الله بن مسكان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يتراءسون، فوالله ما خفت النعال خلف الرجل إلا هلك وأهلك) (٣٤).

وعن جويرية بن مسهر قال: اشتدت خلف أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: (يا جويرية إنه لم يهلك هؤلاء الحمقى إلا بخفق النعال خلفهم) (٣٥).

وعن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال لي: (يا أبا الربيع لا تطلبن الرئاسة ولا تكن ذنباً، ولا تأكل الناس بنا فيفرك الله) (٣٦).

وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله إن أشراركم من أحب أن يوطأ عقبه أنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي) (٣٧).

وعن قاسم بن عون، عن علي بن الحسين (عليه السلام) في حديث انه قال له: (إياك أن تتأس فيضعك الله وإياك أن تستأكل بنا فيزيدك الله فقرا واعلم إنك ان تكن ذنباً في الخير خير لك من أن تكون رأساً في الشر) (٣٨).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث المناهي قال: (ألا ومن تولى عرافة قوم أتى يوم القيامة ويده مغلولتان إلى عنقه فإن قام فيهم بأمر الله أطلقه الله وإن كان ظالماً هوى به في نار جهنم وبئس المصير) (٣٩).

٢. قلة الضرائب

حيث إن الضرائب الإسلامية عبارة عن (الخمس) و(الزكاة) و(الجزية) و(الخراج) كما ذكرنا تفصيله في فصل سابق، وذكرنا أنه بسبب قلة الضرائب كان حكم المسلمين أحب إلى أهل البلاد وإن كانوا كفاراً من حكم بني دينهم عليهم فإن الجزية التي تؤخذ من الكفار شيء قليل جداً.

ففي رواية زرارة، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: قلت له: ما حدّ الجزية على أهل الكتاب، وفهل عليهم في ذلك شيء موظف لا ينبغي أن يجاوز إلى غيره؟ قال فقال: (لا، ذاك إلى أن يجوز إلى غيره؟ فقال (عليه السلام): (الإمام، يأخذ منهم من كل إنسان منهم ما شاء على قدر ماله وما يطيق، إنما هم قوم فدوا أنفسهم من أن يستعبدوا أو يقتلوا فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يأخذهم بها، حتى إذا يسلموا) الحديث (٤٠).

وقال ابن مسلم، قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): رأيت ما يأخذ هؤلاء من هذا الخمس من أرض الجزية ويأخذ من الدهاقين جزية رؤوسهم أما عليهم في ذلك شيء موظف؟ فقال: (كان عليهم ما أجازوا على أنفسهم وليس للإمام أكثر من الجزية إنشاء الإمام وضع ذلك على رؤوسهم وليس على أموالهم شيء، وإنشاء فعلى أموالهم وليس على رؤوسهم شيء).

فقلت: فهذا الخمس؟ فقال: (إنما هذا شيء كان صالحهم عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله)) (٤١).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) في أهل الجزية يؤخذ من أموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية؟ قال: (لا) (٤٢).

وعن مصعب بن يزيد الأنصاري قال: استعملني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على أربعة رساتيق: المدائن البهقيادات، ونهر سير ونهر جوير، ونهر الملك، وأمرني أن أضع على كل جريب زرع غليظ درهماً ونصفاً، وعلى كل جريب وسط درهماً، وعلى كل جريب زرع رقيق ثلثي درهم، وعلى كل جريب كرم عشرة دراهم، وعلى كل جريب نخل عشرة دراهم، وعلى كل جريب البساتين التي تجمع النخل والشجر عشرة دراهم، وأمرني أن ألقي كل نخل شاذ عن القرى لمارة الطريق وابناء السيل، ولا آخذ منه شيئاً، وأمرني أن أضع على الدهاقين الذين يركبون البراذين ويتختمون بالذهب على كل رجل منهم ثمانية وأربعين درهماً، وعلى أوساطهم التجار منهم على كل رجل منهم أربع وعشرين درهماً، وعلى سفلتهم وفقرائهم اثني عشر درهماً على كل إنسان منهم، قال: فجببتها ثمانية عشر ألف درهم في سنة (٤٣).

فانظروا إلى هذه الجزية القليلة جداً والتي لا تتعدى ثمانية وأربعين درهماً كل عام على كبار التجار والأشراف وأصحاب الأرياف وثمانية وأربعين درهم تقارب أربعة وعشرين مثقالاً من الفضة، ومثقال الفضة كان رخيصاً جداً، فقبل أربعين سنة كان مثقال الفضة يعادل أربعة فلوس، فتكون الضريبة أقل من مائة فلس على كل إنسان ثري في كل سنة. وإذا علمنا أن كل فلس آنذاك كان ثمن ربع كيلو خبزاً ظهر قلة الجزية..

وفي رواية المفيد، عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، أنه جعل على أغنيائهم ثمانية وأربعين درهماً، وعلى أوساطهم أربعة وعشرين درهماً، وجعل على فقرائهم اثني عشر درهماً، وكذلك صنع عمر بن الخطاب قبله وإنما صنعه بمشورته (صلى الله عليه وآله) (٤٤).

وعن ابن أبي يعفور، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن أرض الجزية لا ترفع عنهم الجزية، وإنما الجزية عطاء المهاجرين، والصدقة لأهلها الذي سمى الله في كتابه فليس لهم من الجزية شيء). ثم قال: (ما أوسع العدل).

ثم قال: (إن الناس يستغنون إذا عدل بينهم، وتنزل السماء رزقها، وتخرج الأرض بركتها بإذن الله) (٤٥). أقول: الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إنما وضع الجزية على الرأس وعلى الأرض، لأن الأرض كانت مفتوحة عنوة والأرض المفتوحة عنوة يؤخذ منها الخراج سواء من المسلم أو من الكافر لأنها أراضي المسلمين كما ذكر في الروايات وذكرها الفقهاء في كتب مفصلة.

تسهيلات:

ثم إن الجزية لا تؤخذ من جماعة منهم، كما أنه يسمح لهم بإعطاء الجزية حتى من ثمن الخمر والخنزير. وإن كانا محرمين في الشريعة الإسلامية ويحرم التعامل بهما. وذلك للتوسعة عليهم وإلزامهم بما التزموا به.

وقد روي عن علي (عليه السلام) أنه قال: (الجزية على أحرار أهل الذمة الرجال البالغين، وليس على العبيد ولا على النساء ولا على الأطفال جزية، يؤخذ من الدهاقين وأمثالهم من أهل السعة والمال على كل رجل منهم ثماني وأربعون درهماً كل عام، ومن أهل الطبقة الوسطى أربع وعشرون درهماً، ومن أهل الطبقة السفلى اثني عشر درهماً

وعليهم مع ذلك الخراج لمن كانت له الأرض منهم من كبير أو صغير أو رجل أو امرأة فالخراج على الأرض، ومن أسلم منهم وضعت عنه الجزية ولم يوضع عنه الخراج لأن الخراج من الأرض(٤٦).
وقال (عليه السلام): (إنه رخص في أخذ العروض مكان الجزية بقيمة ذلك)(٤٧).
وعن أبي عبدالله (عليه السلام) أنه قال: (ومن استعين به من أهل الذمة على حرب المشركين طرحت عنه الجزية)(٤٨).

وعن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (من وضع عن ذمي جزية أوجبها الله عليه أو يشفع له في وضعها عنه فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين)(٤٩).
وعن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى يؤكل المعاهد كما يؤكل الخضر)(٥٠).
أقول: في هاتين الروايتين منع عن الإفراط والتفريط، بوضع الجزية أو أخذ الجزية زائداً وقد سمى النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك أكلاً للمعاهد.
وعنه (صلى الله عليه وآله) أنه نهي عن التعدي على المعاهدين.

وعن جابر الجعفي قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول في حديث: (لا جزية على النساء)(٥١).
وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (الجزية عطاء المجاهدين والصدقة لأهلها الذين سماهم الله في كتابه ليس من الجزية)(٥٢).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام): (أنه رخص في أخذ الجزية من ثمن الخمر والخنازير لأن أموالهم أكثرها من الحرام والربا)(٥٣).

وعن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن صدقات أهل الذمة وما يؤخذ من جزيتهم من ثمن خمرهم وخنازيرهم وميتتهم؟ قال: (عليهم الجزية في أموالهم تؤخذ من ثمن لحم الخنزير أو الخمر فكلما أخذوا منهم من ذلك فوزر ذلك عليهم وثنه للمسلمين حلال يأخذونه في جزيتهم)(٥٤).
إلى غيرها من الروايات.

الرفق في الجباية:

ثم إن أخذ الجزية منهم ليس بالعنف، فقد قال رجل من ثقيف . وكان من عمال أمير المؤمنين (عليه السلام) .: إستعملني علي بن أبي طالب (عليه السلام) على بانقياً وسواد من سواد الكوفة، ثم فقال لي والناس حضور: انظر خراجك فجد (وجد) فيه، ولا تترك منه درهما، فاذا (أردت أن تتوجه إلى عمالك فمرّ بي)، قال: فأتيته فقال لي: (إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج أو تبيع دابة عمل في درهم، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو)(٥٥).

وفي ختام هذا الفصل نذكر هذه الرواية حول الضرائب والمكوس: (قال نوف: بت ليلة عند أمير المؤمنين (عليه السلام) فكان يصلي الليل كله ويخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السماء ويتلو القرآن قال: فمر بي بعد هدوء من الليل فقال: يا نوف أراقد أنت أم راقق؟! قلت: بل راقق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين قال: يا نوف طوبى

للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وتراها فراشاً، وماءها طيباً، والقران دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم (عليهما السلام)، إن الله عز وجل أوحى إلى عيسى بن مريم قل للملأ من بني إسرائيل لا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلا بقلوب طاهرة وأبصار خاشعة وأكف نقية، وقل لهم: اعلموا إني غير مستجيب لأحد منكم دعوة ولأحد من خلقي قبله مظلمة ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج السيد المسيح يا نوف إن داود (عليه السلام) قام في مثل هذه الساعة من الليل، فقال: إنها ساعة لا يدعو فيها عبد ربه إلا استجيب له إلا أن يكون عشاراً أو عريفاً أو شرطياً أو صاحب عرطبة . وهي الطنبور . أو صاحب كوبة . وهي الطبل . (٥٦).

٣ . تيسير الشؤون

وذلك بقلة الموظفين وعدم الحاجب .

قلة الموظفين:

أما قلة الموظفين فقد ذكرنا في بعض كتبنا السياسية: إن الموظفين في الدولة الإسلامية قليلون جداً لأنهم مشرفون فقط، وإنما الأعمال بيد الناس، ويعني ذلك أنه إذا قامت الدولة الإسلامية في الزمن الحاضر كانت القطارات والمطارات والمعامل والمستشفيات والمدارس والشوارع وغيرها كلها بأيدي الناس، والدولة تشرف على أن لا يجحف بعضهم ببعض، وبذلك تبعد الدولة عن نفسها مشاكل كثيرة وتمكن من القيام بما ألقى عليها من الواجبات خير قيام.

لا حاجب في الإسلام:

وأما أنه لا حاجب فكلنا نعلم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد استولى على سبع دول في خريطة عالم اليوم، ولم يكن له حاجب وكان كل المسلمين يتمكنون من اللقاء به في أي وقت بل كان بعضهم يسيء الأدب ويتكلم معه من وراء الحجرات، ويصيح: (يا محمد اخرج إلينا) حتى ورد قوله سبحانه: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم) (الحجرات: ٤ . ٥).

وكذلك لم يكن لعلي (عليه السلام) . وهو رئيس أكبر دولة في زمانه . حاجب .

وقد ورد في جملة من الروايات النهي عن اتخاذ الحاكم حاجباً .

مثل ما كتبه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى عامله على مكة قثم بن العباس قال: (ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقاتك بها) (٥٧).

وفي رواية عن زيد الشحام قال: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: (من تولى أمراً من أمور الناس فعدل وفتح بابه ورفع ستره ونظر في أمور الناس كان حقاً على الله عز وجل أن يؤمن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة) (٥٨).

ومفهوم هذه الرواية أنه إن لم يفعل كذلك خوفه الله سبحانه وتعالى ولم يدخله الجنة، ومن الواضح أن التهديد بمثل ذلك معناه الحرمة .

البساطة الشاملة:

هذا بالإضافة إلى بساطة الخليفة والوالي والقاضي وسائر موظفي الدولة في كل شؤونهم من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، كما ذكرنا جملة من الأدلة على ذلك في بعض كتبنا السياسية وأمعنا إليها هنا في أحوال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأحوال علي (عليه السلام).

٤ . الشورى

حيث إن الدولة في الإسلام مبنية على الشورى في كل شؤونها، ومن الضروري تحكيم الشورى في الدولة الإسلامية وفي العالم أجمع، فيجب أن تكون كل الأمور . من القرية إلى العاصمة ومروراً بالمعمل والمصنع والمطار واتحاد الطلبة والمدارس والجامعات وغيرها . مبنية على الشورى، فإنها تظهر الكفاءات، وتقدم الضوابط وتزيل الروابط والرشاوي والمحسوبية والمنسوبة، وما أشبه، بينما الدكتاتورية بالعكس، فالشورى تنتهي بالاجتماع إلى القمة، والدكتاتورية تنزل به إلى الحضيض.

وفي الحديث: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان أكثر الناس استشارة.

كما تقدم أن علياً (عليه السلام) جعل من حق الأمة عليه أن يستشيرهم.

وفي أحاديث كثيرة إن من وظيفة المسلم (النصيحة) ويراد بها إعطاء المشورة والنصح لإمام المسلمين، كما أن من وظيفته النصح لغيره أيضاً ففي رواية عن علي (عليه السلام) أنه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أنسك الناس نسكاً أنصحهم جيئاً وأسلمهم قلباً لجماعة المسلمين)(٥٩).

وفي حديث قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من يضمن لي خمساً أضمن له الجنة، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: النصيحة لله عز وجل، والنصيحة لرسوله، والنصيحة لكتاب الله، والنصيحة لدين الله، والنصيحة لجماعة المسلمين)(٦٠).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أعظم الناس منزلة يوم القيامة أفشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه)(٦١).

٥ . توزيع الأموال بالسوية على المسلمين

المال يكون لجميع الناس حسب الكفاءات والأعمال، ثم إذا زاد المال على ذلك في بيت المال قسّم بين المسلمين على السوية.

قال سبحانه: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) (الحشر: ٧).

فقد منع الله سبحانه وتعالى أن يكون المال دولة بين الأغنياء كما نجده الآن في الدول الرأسمالية والدول الشيوعية على حد سواء، ففي الدول الرأسمالية يكون المال دولة بين الرأسماليين، وفي الدول الشيوعية يكون المال بيد الحكام

فقط، بينما الإسلام يرى توزيع المال حسب الكفاءة والعمل وإذا زاد شيء فإنه يكون لجميع المسلمين بل ولغير المسلمين من العجزة ونحوهم.

ففي رواية أن بعض القوم أشاروا على علي (عليه السلام) بعدم العدالة وعدم التقسيم بالسوية، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أتأمروني ويحكم أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن وليت عليه من أهل الإسلام؟ لا والله لا يكون ذلك ما سمر السمر وما رأيت في السماء نجماً، والله لو كانت أموالهم ملكي لساويت بينهم فكيف وإنما هي أموالهم؟)(٦٢).

وفي رواية أخرى، عن حفص قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: وسأل عن قسم بيت المال؟ فقال: (أهل الإسلام هم أبناء الإسلام أسوي بينهم في العطاء، وفضائلهم بينهم وبين الله، أجعلهم كبنی رجل واحد لا يفضل أحد منهم لفضله وصلاحه في الميراث على آخر ضعيف منقوص). قال: (وهذا هو فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله)) الحديث(٦٣).

وفي حديث آخر، عن أبي إسحاق الهمداني: إن امرأتين أتتا علياً (عليه السلام) عند القسمة إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً وكراً من الطعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم! فقال علي (عليه السلام): (والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق)(٦٤).

وُبُعْثَ إليه (عليه السلام) من البصرة من غوص البحر مخنقة لا تدرى قيمته، فقالت له ابنته أم كلثوم، أتجمل به، يكون في عنقي، فقال (عليه السلام): (يا أبا رافع أدخله في بيت المال، ليس إلى ذلك سبيل حتى لا تبقى امرأة من المسلمين إلا ولها مثل ما لك).

وقام (عليه السلام) خطيباً بالمدينة فقال: (يا معشر المهاجرين والأنصار يا معشر قريش اعلموا والله إني لا أرزئكم(٦٥) من فيئكم شيئاً ما قام لي عذق بيثرب، أفتروني مانعاً نفسي ومطيعكم؟ ولأسوين بين الأسود والأحمر).

فقام إليه عقيل بن أبي طالب فقال: تجعلني وأسود من سودان المدينة واحداً؟

فقال له: (إجلس رحمك الله أما كان ههنا من يتكلم غيرك؟ وما فضلك عليه إلا بسابقة أو تقوى)(٦٦).

إلى غيرها من الروايات التي تدل على استواء المسلمين بالنسبة إلى بيت المال الإسلامي لا كما يعتاد الآن في كثير من البلاد أو في أكثرها من انحصار المال في يد رؤساء الدولة والتجار الكبار ومن أشبهه في حين لا يجد كثير من الشعب حتى مسكناً، أو قوتاً ولباساً كافيين، ولا يجد كثير من الشباب من المال ما يتمكنون من الزواج إلى غير ذلك من مظاهر الطبقة التي نهى عنها الإسلام، فإن الإسلام دين الكفاءة لا دين الطبقة والقومية والعنصرية وما أشبهه.

فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) . وتبعه علي (عليه السلام) . يعفو عن المجرمين ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وكان الأعداء يقابلون الرسول (صلى الله عليه وآله) بالحقد والأذى فلا يدعوا عليهم، وإنما كان يقول: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)(٦٧).

فلم يكن أمره (صلى الله عليه وآله) العفو عنهم فحسب، وإنما طلب الهداية، وأراد لهم الخير. النبي (صلى الله عليه وآله) يعفو عمن حاول قتله:

وفي التاريخ: (منزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين والمسلمون قيام على شفير الوادي ينتظرون متى ينقطع السيل، فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً، فجاء وشدّ على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالسيف. ثم قال: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال: ربي وربك، فنسفه جبرئيل (عليه السلام) عن فرسه فسقط على ظهره، فقام رسول الله فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك مني يا غورث؟ فقال: جودك وكرمك يا محمد، فتركه وقام)(٦٨).

اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون!

وفي رواية: اشتد أذى المشركين للرسول (صلى الله عليه وآله) يوم أحد إذ قتل عمه حمزة، ومُثِّل بجسده الشريف، وقطعت كبده وأصابع يديه ورجليه، وجدع أنفه، وصلمت أذناه، وفعل به ما فعل وقتل العشرات من المسلمين فتقدم بعض الصحابة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) واقترحوا عليه أن يدعوا عليهم ليعذبهم الله بعذاب من عنده كما كان يعذب الكفار الأولين، لكن النبي قال: (إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة)(٦٩).

اذهبوا فأنتم الطلقاء:

وقد عفا الرسول (صلى الله عليه وآله) عن أهل مكة . عاصمة الشرك التي حاربت الرسول (صلى الله عليه وآله) أكثر من عشرين سنة بكل أنواع المحاربة . حيث إن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما انتصر عليهم قال كلمته المشهورة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)(٧٠).

لا هذا فحسب، بل إنه جعل راية لأبي سفيان وأرسله مع كتيبة إلى غزوة حنين وأعطى له تلك العطية الجزيلة التي تقدم ذكرها.

وهكذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) يعفوان عن المجرمين.

فالدولة الإسلامية . إذاً . مبنية على العفو وقد ذكرنا بعض النماذج الأخرى بهذا الصدد في هذا الكتاب.

٧ . الأولوية للكفاءات

أي ملاحظة الكفاءات في تولية الأمور لا المحسوبيات والمنسوبيات.

فقد روي في كتاب: (الحرية السياسية في الإسلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة له بغير حق فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه شيئاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم)(٧١).

وقال (صلى الله عليه وآله): (من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أَرْضَى الله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)(٧٢).

وقال (صلى الله عليه وآله) أيضاً: (من ولى والياً من المسلمين شيئاً من أمور المسلمين وهو يعلم أن في المسلمين من هو خير للمسلمين منه وأعلم بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله) فقد خان الله ورسوله)(٧٣). ويقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في عهده لمالك: (فول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ورسوله وإمامك، وأنقاهم جيئاً، وأفضلهم حلماً، ممن يبطأ عند الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممن لا يثيره العنف، ولا يقعد به الضعف).

ويقول (عليه السلام): (ثم ألصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف)(٧٤). ويقول (عليه السلام): (ثم اعرف لكل امرء منهم ما أبلى، ولا تضمن بلاء أمره إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه، ولا يدعونك شرف امرء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً، ولا ضعة أمرء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً).

ويقول (عليه السلام): (ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفياء إلى الحق إذا عرفه، لا يشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزيدهم إطرأ، ولا يستميله إغراء).

ويقول (عليه السلام): (ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة (المحاباة: الإعطاء مجاناً والأثرة: الاستبداد) فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة (أي يجمعان فروع الجور والخيانة) وتوَّخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً).

ويقول (عليه السلام): (ثم انظر في حال كتابك فولّ على أمورك خيرهم، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائلك أسرارك بأجمعهم بوجوه صلاح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجتري بها عليك في خلاف نصب حضره ملاء، ولا تقصر به العقلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك، ولا يضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل، ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك (والاستنامة السكون والثقة) وحسن الظن منك، فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة وتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء، ولكن اخترهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره)(٧٥).

إلى غيرها من الروايات الكثيرة في هذا الباب والتي تدل على لزوم العمل في الدولة حسب الكفاءات لا حسب المحسوبيات والمنسوبيات، وقد قال الله سبحانه: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) (الأعراف: ٨٥). فإن الإنسان إذا أحر ذا الكفاءة وقدم غيره عليه فقد بخر الناس حقهم كما هو واضح.

١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٣٣.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق.

٤ . المصدر السابق: ص ٢٣٤.

٥ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٣١٧.

٦ . المصدر السابق.

٧ . المصدر السابق.

٨ . المصدر السابق: ص ٣١٨.

٩ . المصدر السابق: ص ٣٢٢.

١٠ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٣٣.

١١ . المصدر السابق: ص ٢٣٤.

١٢ . المصدر السابق.

١٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٥.

١٤ . المصدر السابق: ص ٣٣٨.

١٥ . المصدر السابق.

١٦ . المصدر السابق.

١٧ . المصدر السابق: ص ٣٣٩.

١٨ . المصدر السابق.

١٩ . المصدر السابق: ص ٣٤٠.

٢٠ . المصدر السابق.

٢١ . المصدر السابق.

٢٢ . المصدر السابق: ص ٣٤١.

٢٣ . المصدر السابق: ص ٣٤٢.

٢٤ . المصدر السابق.

٢٥ . المصدر السابق.

- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٣٤٣
- ٢٧ . المصدر السابق: ص ٣٤٤
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ٣٤٥
- ٢٩ . المصدر السابق.
- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق: ص ٣٤٦
- ٣٢ . المصدر السابق: ٢٧٩ .
- ٣٣ . المصدر السابق.
- ٣٤ . المصدر السابق: ص ٢٨٠ .
- ٣٥ . المصدر السابق.
- ٣٦ . المصدر السابق.
- ٣٧ . المصدر السابق.
- ٣٨ . المصدر السابق: ص ٢١٨ .
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ٢٨٢
- ٤٠ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٢٢ .
- ٤١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١١٤ .
- ٤٢ . المصدر السابق: ص ١١٥ .
- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . المصدر السابق: ص ١١٦ .
- ٤٥ . المصدر السابق.
- ٤٦ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ١٢١ .
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . المصدر السابق.
- ٥٠ . المصدر السابق: ص ١٢٢ .
- ٥١ . المصدر السابق: ص ١٢٣ .
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق.
- ٥٤ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ١١٨ .

- ٥٥ . المصدر السابق: ج٦، ص٩٠ .
- ٥٦ . المصدر السابق: ج١٢، ص٢٣٥ .
- ٥٧ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٣، ص٢٣٥ .
- ٥٨ . وسائل الشيعة: ج١٢، ص١٤٠ .
- ٥٩ . مستدرک الوسائل: ج١٢، ص٣٨٦ .
- ٦٠ . المصدر السابق: ص٣٨٧ .
- ٦١ . المصدر السابق .
- ٦٢ . وسائل الشيعة: ج١١، ص٨٠ .
- ٦٣ . المصدر السابق: ص٨١ .
- ٦٤ . المصدر السابق .
- ٦٥ . أي لا أنقصكم .
- ٦٦ . مستدرک الوسائل: ج١٨، ص١٤٢ .
- ٦٧ . بحار الأنوار: ج١١، ص٢٩٨ .
- ٦٨ . بحار الأنوار: ج٢٠، ص١٧٥ .
- ٦٩ . كنز العمال: ج٣، ص٦١٥ .
- ٧٠ . وسائل الشيعة: ج١١، ص١٢٠ .
- ٧١ . كنز العمال: ج٥، ص٦٦٥ .
- ٧٢ . كنز العمال: ج٦، ص٢٥ .
- ٧٣ . كنز العمال: ج١٦، ص٨٨ .
- ٧٤ . مستدرک الوسائل: ج١٣، ص١٦٤ .
- ٧٥ . المصدر السابق: ص١٦٥ .

الأساس الثاني : الأمة الإسلامية

الأساس الثاني: الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية هي أمة واحدة في جميع الشؤون، فلا حدود جغرافية أو لونية أو لغوية أو غيرها، وإنما هي أمة واحدة، وكل فرد فيها متساوٍ كسائر الأفراد الآخرين.

قال سبحانه: (كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) (آل عمران: ١١٠).

وقال تعالى: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (آل عمران: ١٠٥).

وقال سبحانه: (وإن هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) (المؤمنون: ٥٢-٥٦).

فكل من فرق الأمة هو في غمرة حتى حين ويكون مصيره ما ذكره الله سبحانه وتعالى في عاقبة من خالف حكمه.

وقال سبحانه: (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون) (الأنبياء: ٩٢-٩٣).

إلى غيرها من الآيات والروايات.

نتائج وحدة الأمة

وإذا كانت الأمة واحدة أسقطت الحدود الجغرافية من بينها كما كان المسلمون كذلك في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي زمن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأسقطت الجمارك فلا جمارك بين قطر وقطر لأنها تصبح بلداً واحداً بالإضافة إلى أن المكوس حرام في الشريعة الإسلامية كما بيناه مكرراً، وحين ذاك يحصل الاكتفاء الذاتي في كل شيء مثلاً: أراضي السودان زراعية بينما أراضي الكويت نفطية، وهناك بلاد تزخر بالأيدي العاملة، فتتعاون هذه الثلاثة (الأرض - المال - اليد العاملة) لكي تؤمن قسماً من الاكتفاء الزراعي للأمة الإسلامية وكذلك تتوفر القوة الضاربة العسكرية حيث يكون المسلمون جميعاً يداً واحدة على من سواهم.

تكافؤ المسلمين في منظار الإسلام

وقد ورد في روايات كثيرة تكافؤ دماء المسلمين من غير فرق بين جميع أصنافهم، وإنهم يد واحدة على من سواهم، وإن أذناهم إذا أعطى الأمان أو الذمة للكفار قبل منه ذلك.

فعن ابن أبي يعفور، عن الصادق (عليه السلام) قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمنى (إلى أن قال):
(المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم)(١).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم فهذا يوجب القصاص في النفس وفيما دون النفس بين القوي والضعيف والمشروف والمشرف والناقص والسوي والجميل والذميم والمشوه والوسيم لا فرق في ذلك بين المسلمين)(٢).

وعن غوالي اللثالي، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (المسلمون بعضهم أكفاء بعض)(٣).
وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: ما معنى قول النبي (صلى الله عليه وآله) يسعى بذمتهم أدناهم؟ قال: (لو أن جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين فأشرف رجل فقال: أعطوني الأمان حتى ألقى صاحبكم وأناظره فأعطاهم أدناهم الأمان وجب على أفضلهم الوفاء به)(٤).
وعن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن علياً (عليه السلام) أجاز أمان عبد مملوك لأهل حصن من الحصون وقال: هو من المؤمنين)(٥).

وعنه أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: خطب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مسجد الخيف فقال: (رحم الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وبلغها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه وليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، والزموم لجماعتهم فإن دعوتهم محيطة من ورائهم والمسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم فإذا أمن أحد من المسلمين أحداً من المشركين لم يخفر ذمته)(٦).

وعن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ليس للبعد من الغنيمة شيء إلا من خرثي المتاع، وأمانه جائز، وأمان المرأة إذا هي أعطت القوم الأمان)(٧).
مضاعفات التمزق والتفرق

والحقيقة إن ما يصيب المسلمين من القتل من جهة الشرقيين والغربيين . سواء كان في ليبيا في أيام الاحتلال الإيطالي أو في السودان في أيام الاحتلال البريطاني أو في فلسطين أو في لبنان أو في سوريا أو في مصر أو في الأردن أو في العراق أو في إيران أو في باكستان أو في بنكلادش أو في أفغانستان أو في أرتيريا أو في الفلبين أو في برما أو في الهند أو في الجمهوريات الست الروسية أو في غيرها . فإنه مسبب عن تمزق الأمة الإسلامية وإذا عادت الأمة الإسلامية إلى وحدتها المقررة في الكتاب والسنة لم يقع أي شيء من ذلك، واصبح المسلمون يتمكنون من السير في بلاد الله العريضة دون أن ترفع الحدود الزائفة في وجوههم ولم يكن المسلم يحتاج إلى ما يسمى ب(كارت الزيارة) مما ابتدعه الاستعمار البريطاني في بلاد المسلمين حتى كان المسلم هناك غريب لأنه ليس من أهل البلد وكأن البلد ليس جزءاً من البلاد الإسلامية.

فمن الضروري إسقاط الحدود الجغرافية ونحوها حتى تعود الأمة إلى وحدتها السابقة وتحل بذلك كثير من مشاكلها الراهنة.

- ١ . وسائل الشيعة: ج ١٩ ، ص ٥٥ .
- ٢ . مستدرك الوسائل: ج ١٨ ، ص ٢٣٧ .
- ٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٨ .
- ٤ . وسائل الشيعة: ج ١١ ، ص ٤٩ .
- ٥ . المصدر السابق .
- ٦ . مستدرك الوسائل: ج ١١ ، ص ٤٥ .
- ٧ . المصدر السابق: ص ٤٦ .

الأساس الثالث : الأخوة الإسلامية

الأساس الثالث: الاخوة الإسلامية

الأخوة الإسلامية كما قال سبحانه وتعالى: (إنما المؤمنون إخوة) (الحجرات: ١٠).

فالعربي والفارسي والهندي والأندونيسي والتركي وغيرهم كلهم أخوة، لا تمايز بين أحدهم في أي شيء، وهم متساوون أمام القانون الإسلامي، فلا قوميات ولا إقليميات ولا لغات ولا ألوان تفصل بعض المسلمين عن بعض. وقد آخى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين الرجال بعضهم مع بعض، كما آخى بين النساء بعضهن مع بعض عندما ورد المدينة المنورة.

الإسلام يلغي العصبية الجاهلية

ولا تعصب في الإسلام إطلاقاً، فعن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربة الإيمان من عنقه)(١).

وقد نقل ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أيضاً، والمراد بمن تعصب له يعني أنه يرضى بذلك أو يأمر بذلك.

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)(٢).

وفي رواية أخرى عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كان في قلبه مثقال خردل من عصبية جعله الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)(٣).

نموذج عملي

ولا بأس أن نذكر هنا قصة أسامة فقد كان أبوه (زيد بن حارثة) عبداً تجري في عروقه دماء إفريقية، وكانت أمه (أم أيمن) جارية حبشية سوداء.

ومن بين هذين ولد (أسامة) الذي وصفه التاريخ بأنه كان (قصيراً، شديد السمرة، في أنفه نفطس، فخطفته قبيلة عربية في غارة من غارات الجاهلية.

وباعوه في سوق عكاظ فاشترته (حكيم بن خزام) وأهداه لعمته (خديجة) زوجة النبي (صلى الله عليه وآله)، فوهبت خديجة عبداً للرسول (صلى الله عليه وآله) قبل أن يبعث، فأعتق النبي (صلى الله عليه وآله) زيدا، وعندما تعرّف والد زيد على مكان ابنه جاء يطلب استرجاعه، لكن زيدا اختار صحبة النبي (صلى الله عليه وآله) على الرجوع إلى أبيه، فاتخذته النبي (صلى الله عليه وآله) بمثابة الولد.

فالنبي (صلى الله عليه وآله) لا يرى اللون ولا يرى القومية ولا يرى الخصوصيات التي هي من هذا القبيل، وإنما المسلمون أخوة، بل إن المسلم إذا سبق أن عمل سوءاً ثم أسلم فإن الإسلام يجبّ عما قبله (كما ورد ذلك في أحاديث متواترة).

النبي (صلى الله عليه وآله) يتوقف لأسود

وفي التاريخ أنه توقفت ناقة النبي (صلى الله عليه وآله) على رأس موكب الحجاج فتعطل الموكب كله (وفي بعض التواريخ أن الموكب كان يشتمل على مائة وثمانين ألف إنسان) وتطلع الناس ليروا من هو ذلك الذي ينتظره رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويعطل سير الحجاج من أجله؟ فإذا بهم يرون أن قد جاء غلام أسود أفتس قد ترك الجدرى آثاره في وجهه! وتحركت التفرقة العنصرية والطبقية في نفوس جماعة من الذين كانوا جديدي العهد بالإسلام فقالوا: أمن أجل هذا الغلام الأسود الأفتس يوقف النبي (صلى الله عليه وآله) السير؟! فإن أمثاله من العبيد السود في الجزيرة العربية (بلة) في إمبراطورية الروم والفرس. كان يحضر عليهم حتى لمس شراب أو طعام السادة، وكان يحضر عليهم دخول بيوت السادة، ومكانهم إنما هو في الاصطبلات والمراعي، ولم تكن توكل إليهم إلا الأعمال الدنسة بل كانوا يصارعون الأسود لتسلية السادة! وحتى مطلع عصر ما يسمى بالتححرر في أوروبا كانت هناك أسلحة خاصة لا يحق لغير النبلاء استخدامها، أما الدخول في المحلات العامة المخصصة للسادة، والركوب على المراكب الفارحة، والتعلم للقراءة والكتابة فكانت محرمة حتى على الطبقات السافلة من الأحرار فكيف بالعبيد؟ فما قيمة عبد أسود فتك الجدرى بوجهه في عالم ينقسم إلى سادة وعبيد، إلى أبيض وملونين، إلى روم وفرس وجزيرة عرب، وإلى قبائل وعشائر، وإلى أصحاب هذا الصنم، وينقسم السادة فيه أيضاً إلى طبقات ومراتب، وينقسم العبيد فيه إلى درجات وخصوصيات، أذناها وأوضعها مرتبة العبد الأسود! وأي مستقبل ينتظر هذا العبد الأفتس الأسود؟ إنه المستقبل المشرق! لأنه جاء في زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي يقول: (لا فضل لعربي على عجمي، ألا لافضل إلا بالتقوى)(٤).

نعم كان أسود سعيد الحظ، جاء في لحظة نادرة من عمر الدنيا، لحظة ظهور الإسلام، ولحظة انبثاق حضارة جديدة لا تقسم الناس إلى ألوان ولا إلى أصول ولا إلى أعراق، ولا تقسم الناس بسبب التقسيمات الجغرافية والقومية والقبلية وما أشبهه. إن ثورة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليست ثورة لأجل تحرير المستذلين والمستعبدين والمستضعفين فحسب، بل إنها تضعهم في الصف الأول، في صف كل المسلمين، من غير فرق بين عربهم وعجمهم، وشرقيهم وغربيهم وأوسدهم وأبيضهم.

أسامة قائداً للجيش

ولذا نرى أن النبي (صلى الله عليه وآله) عندما جهز جيشاً لمقاتلة الروم. إحدى القوتين العظيمتين في ذلك اليوم. جعل رئيس هذا الجيش (أسامة) وفيه كبار الصحابة والمهاجرين والأنصار وقال (صلى الله عليه وآله) مكرراً: (نفذوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنها)(٥).

وقد ذكر المؤرخون أن أسامة كان ذكياً منذ صغره ومنذ فاعاً نحو الأمام وكان عمره اثني عشر عاماً عندما تقدم للتطوع في غزوة أحد . وفي تلك الفترة كان الصبية يتزاحمون على التطوع في الجيش لما يعلمون من قيادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الصحيحة الصالحة المؤمنة المستشيرة المتصلة بالسماء، حتى أن بعضهم كان يحتال بأن يلبس حذاء عالي الكعب لكي يطيل قامته ويخدع المسؤول عن الفحص، وعندما نجحت حيلة أحدهم جاء أهل صبي آخر يحتجون عند النبي (صلى الله عليه وآله) لأن تطوع ابنهم رفض بينما قبل تطوع من هو في سنّه!، وقد رُفض تطوع أسامة في غزوة أحد ولكنه عاد في العام التالي وقبل طلبه في غزوة الخندق .

وفي موقعة حنين انهزم جيش المسلمين ولم يثبت إلا النبي (صلى الله عليه وآله) وعشرة من المسلمين كما ذكر التاريخ وكان أحد أولئك الثابتين: أمير المؤمنين (عليه السلام)، وبعض أولاد العباس، وكان منهم أسامة بن زيد وكان عمره إذ ذاك بين خمس عشرة سنة وسبع عشرة سنة (لهذا وغيره اثبت النبي (صلى الله عليه وآله) أن المهم الكفاءات لا سائر الموازين الجاهلية).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) على حبه لأسامة لا يعطيه أكثر من حقه بينما اشتبه أسامة مرتين في تاريخ النبي (صلى الله عليه وآله) كما يذكر المؤرخون، فقد أغرت المكنانة التي يتمتع بها أسامة عند النبي (صلى الله عليه وآله) . حتى كان يلقب بالحبيب ابن الحبيب . أغرت بعض المنحرفين باستغلالها لتعطيل سيادة القانون، فطلبوا من أسامة أن يشفع لوقف تنفيذ القانون في امرأة سرقت ولكن النبي نهاه في حزم وقال له: (لا تشفع في حدٍ) (٦) . وهكذا لقنه الرسول (صلى الله عليه وآله) إن القانون الإسلامي غير قابل للحرق، فمهما كانت محبة الرسول (صلى الله عليه وآله) له فليس معنى ذلك تعطيل شريعة الله سبحانه وتعالى لأجله، فإن الإسلام لا يقبل الوساطات والشفاعات والرشوات في تغيير قوانين الله سبحانه وتعالى .

وفي مرة أخرى يتلقى (الحبيب بن الحبيب) أسامة درساً من الرسول (صلى الله عليه وآله)، حيث أرسله الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى بعض الغزوات فجرد أسامة سيفاً على رأس رجل، فهتف الرجل قائلاً (لا إله إلا الله) ولكن أسامة لم يعتن بذلك لظنه أنه إنما يقول: (لا إله إلا الله) حقناً لدمه ونفاقاً فقتل الرجل وعاد وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالقضية، فغضب الرسول وقال: ماذا تفعل بلا إله إلا الله؟ يعني أنه لماذا قتلته بعد أن شهد الشهادة، والشهادة تحمي دم الإنسان وعرضه وماله .

واعتذر أسامة بأن الرجل إنما قالها ليهرب من الموت، فقد ظل على رفضه وعداوته حتى أدركه السيف فرد الرسول (صلى الله عليه وآله) عليه قائلاً: (هلا شققت قلبه)؟ (٧) . فإنه ليس في الإسلام إلا الظواهر، ولا حكم على القلوب وقد قال سبحانه: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمناً) (النساء: ٩٤) .

فإن القلوب بيد الله تعالى، حتى أن الإسلام إذا كان عن نفاق فإن كلمة الشهادة تحقن دم الإنسان وماله وعرضه، ولهذا لم يتعرض الرسول (صلى الله عليه وآله) لأشد المنافقين نفاقاً أمثال عبد الله بن أبي، وأبي عامر الراهب ونحوهما، كما لم يتعرض علي (عليه السلام) لأشد المنافقين أمثال ابن الكوا والأشعث بن قيس ومن أشبهه، فهذا هو الإسلام الذي يقرب البعيد حتى إذا كان كافراً مسلماً أو منافقاً .

أمة متآخية، وقيادة رشيدة

نعم هكذا كانت الأخوة الإسلامية تحت قيادة ذلك القائد العظيم وبمثل تلك القيادة الرشيدة وأولئك المسلمين المضحكين المتفانين . الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه . تقدم الإسلام ذلك التقدم الهائل وتمكن من إنقاذ البشرية من مظالم الحكام وقساوة القوانين إنه رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي كان لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبء والجارية فيقضي حوائجهم، وكان يخصف حذاء الرجل المسكين، ويخيط ثوب الأرملة، ويعود المريض حتى اليهودي الذي كان يؤذيه ويصب على رأسه في كل يوم طبقاً من الرماد ولم يكن (صلى الله عليه وآله) يغلق دونه الأبواب، ولا يحول دون مقابلته حجاب، ولا يغدى عليه بالجفان والألوان، ولا يراح عليه بالأطعمة والأشربة اللذيذة. وكان من أراد مقابلته (صلى الله عليه وآله) يقابله إما في داره المتواضعة أو في المسجد أو في الشارع أو في أي مكان آخر، لم يمتلك (صلى الله عليه وآله) قميصين قط ولا رداءين ولا إزارين ولا نعلين، وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف، وكان ينام أحياناً على حصير يؤثر في جنبه وأحياناً على عباءة تشي طيتين، وذات مرة طوتها زوجته أربع طيات فلما نام عليها بلغ من لينها ورفاهيتها أن استغرق في النوم فلما أفاق نهى زوجته عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة إلى وضعها الأول طيتين.

وكانت ثروة الجزيرة العربية وغيرها من البلاد التي خضعت له تأتيه كالسيل، ولكن ما دامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة وفيها الفقير والغني والجائع والشبعان فخير نظام تصل إليه هو النظام الذي يجعله في جانب الفقراء، فما كان (صلى الله عليه وآله) يشبع، وقد تقدمت جملة من الروايات في سيرته وأخلاقه (صلى الله عليه وآله).

ولو تكونت الأمة الإسلامية من جديد وعادت الأخوة الإسلامية على ما كانت عليه، وغدت الأمة تحت قيادة رشيدة متبعة لقيادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأمكن تخليص العالم من ويلاته وصياغة العالم صياغة جديدة يسود فيها كل خير ورفاه.

التفرقة الفظيعة في العصر الراهن

لكننا . مع الأسف . نرى تبدل الأخوة الإسلامية إلى الامتيازات والطبقات والعنصريات، فمثلاً: في العراق نرى الجنسية (ألف) والجنسية (باء) والجنسية (جيم) بالنسبة إلى العرب العراقيين، وجنسية (ألف) وجنسية (باء) وجنسية (جيم) بالنسبة إلى المواطنين الأكراد، وجنسية (عربي غير عراقي وغير مصري) وجنسية (عربي غير عراقي مصري) في عصر عبد السلام عارف حيث تمت الوحدة بين العراق وبين مصر. وجنسية (غير عربي) و(من لا جنسية له) اطلاقاً. فهذه عشرة أقسام من الأفراد في بلد واحد وكلهم مسلمون وكلهم أخوة، والأغرب من ذلك أن راديوات هذه البلاد تتلو ليل نهار: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات: ١٣).

(إنما المؤمنون إخوة) (الحجرات: ١٠).

(إن هذه أمتكم أمة واحدة) (الأنبياء: ٩٢).

لكنها مجرد شعارات لا عمل وراءها، فكل بلدة من البلاد الإسلامية لها أحكامها وخصوصياتها وقياداتها وتفرقاتها وامتيازاتها، فقد عدنا إلى ما كانت البشرية عليه قبل ظهور الإسلام، بل صرنا أسوأ وأسوأ وأسوأ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً) (طه: ١٢٤).

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين لإعادة حكم الإسلام دولة وأمة وأخوة وقانوناً حتى ينهضوا بأنفسهم وبالعلم أجمع إلى حيث الخير والرفاه، وما ذلك على الله بعزيز.

١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٩٦.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق.

٤ . كنز العمال: ج ٣، ص ٦٩٩.

٥ . بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٢٨٨.

٦ . وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٣٣.

٧ . بحار الأنوار: ج ٦٢، ص ١٣٩.

الأساس الرابع : الشريعة الإسلامية

الأساس الرابع: الشريعة الإسلامية

يجب أن تكون الشريعة الإسلامية هي السائدة في البلاد بدلاً عن القوانين الوضعية، والقوانين الإسلامية كثيرة جداً، إلا أننا نلجأ إلى بعضها هنا.

الحقوق الجنائية

مثل: حكم الحقوق فقد ورد في الحديث: (ولا تبطل حقوق المسلمين بينهم)(١).

وفي حديث آخر: (لثلاث يتوى حق امرء مسلم)(٢).

فإن الإسلام جعل للحق حرمة مهما كان صغيراً حتى (أرش الخدش) و(أرش الغمز) كما في رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) مذكورة في الوسائل، بل وفوق ذلك، فقد بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله) (خالد بن الوليد) مع جماعة في مهمة الدعوة إلى الإسلام إلى (بني جذيمة). وهم بنو المصطلق وكان قد سبق أن أسلموا. ولم يأمرهم بقتال، فأوقع بهم خالد وقتل منهم جماعة لثرة كانت بينه وبينهم، فبلغ الخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فبكى النبي (صلى الله عليه وآله) وقام وصعد المنبر ورفع يديه إلى السماء وقال ثلاثاً: (اللهم إني أبرء إليك مما صنع خالد بن الوليد)(٣).

ثم دعا النبي (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) فدفع إليه سفظاً. أي صندوقاً من الذهب. وأمره أن يذهب إلى (بني جذيمة) ويدفع إليهم ديات الرقاب، وما ذهب من أموالهم، فجاء علي (عليه السلام) وقسم المال كما يلي:

أولاً: دفع ديات المقتولين ظلماً إلى ورثتهم، عن كل واحد منهم ألف دينار ذهب.

ودفع إليهم ثانياً: ثمن كل جنين غرة أي أعطى عوض الجنين، إما عبداً وإما أمة.

ودفع إليهم ثالثاً: ثمن ما فقدوه من المبالغ والعقل.

ودفع إليهم رابعاً: ثمن ما ربما فقدوه مما لا يعلم بفقدوه، مما احتمل أن أخذه خالد أو من كان معه أو مما تلف أثناء القتال.

ودفع إليهم خامساً: ثمناً لروعة نسائهم وفرع صبيانهم.

ودفع إليهم سادساً: مقابل كل مال فقدوه مثله من المال.

ودفع إليهم سابعاً: بقية المال ليرضوا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله).

ودفع إليهم ثامناً: ما يفرح به عيالهم وخدمهم بقدر ما حزنوا.

ثم رجع علي (عليه السلام) إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأخبره بما فعل من توزيع الذهب بثمانية أقسام قائلاً: (يا رسول الله عمدت فأعطيت لكل دم دية، ولكل جنين غرة، ولكل مال مالاً، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لميلغة كلابهم وحبله رعائهم، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لروعة نسائهم وفزع صبيانهم، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم لما يعلمون وما لا يعلمون، وفضلت معي فضلة فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول الله. فتهلل وجه النبي (صلى الله عليه وآله) وضحك حتى بدت نواجذه، وقال: يا علي (أعطيتهم ليرضوا عني، رضى الله عنك) ثم قال (صلى الله عليه وآله): (يا علي إنما أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)(٤).
الحقوق السياسية

وقال علي (عليه السلام) في كتابه إلى مالك الأشر: (ثم الله الله في الطبقة السفلى، من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتزاً، فاحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلدة، فإن للأقصى منهم منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فانك لا تعذر بتضييع التافه لأحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، وفرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم. ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسالة نفسه وذلك على الولاية ثقيل، والحق كله ثقيل وقد يخفقه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم، واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتواضع فيه لله الذي خلقك وتعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك مكلّمهم غير متتبع فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في غير موطن (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي، ثم احتمال الخرق منهم والعبي ونح عنهم الضيق الأنف ييسط الله عليك بذلك اكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً وامنح في إجمال واعذار)(٥).

الأحوال الشخصية

ومثل: مسائل الزواج كالتعدد، والمهر، وحرمة اتخاذ الأخلاء والخليلات وما أشبهه.
ومسائل الطلاق: الطلاق الرجعي والطلاق الخلعي وطلاق المبارات وغيرها، واحتياج الطلاق إلى الشهود.
ومسائل الإرث: مثل للذكر مثل حظ الأنثيين، وطبقات الإرث: الطبقة الأولى والطبقة الثانية والطبقة الثالثة، ومسائل الحبوّة، وإرث الزوجة وغيرها.
قضايا المرأة

ومثل مسائل اشتراك المرأة في كل الشؤون مع الرجل بلا إفراط ولا تفريط وهي كثيرة وقد ألمعنا إليها في بعض كتبنا.
حق العامل والفلاح

ومثل مسائل حق العامل والفلاح بدون رأسمالية أو شيوعية تضغط على العامل والفلاح أو رب العمل أو رب الأرض على الموازين المقررة في الشريعة الإسلامية.

إحياء الموات

ومثل مسائل إحياء الموات، حيث إن الإسلام جعل (من أحيى أرضاً مواتاً فهي له) (٦) و(من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم فهو أحق به) (٧) في إطار عدم إجحافه بحق الآخرين على تفصيل ذكره الفقهاء في كتاب إحياء الموات.

وكذلك مسائل الحدود والديات، والقصاص، على التفصيل المذكور هناك.

القضاء الإسلامي

ومثل مسائل حل المنازعات بالأسلوب الإسلامي من جهة القاضي والشهود حيث تعتبر فيهم العدالة، وكذلك عدم وجود السجن، وعدم الغرامة، وعدم التبعية إلا نادراً جداً.

أصالة الحل

(وأصالة الحل) في عمل الإنسان لقوله (عليه السلام): (كل شيء هو لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه فتدعه من قبل نفسك) (٨).

أصالة الطهارة: (وأصالة الطهارة) في كل شيء إلا ما علم نجاسته لقوله (عليه السلام): (كل شيء طاهر حتى تعلم أنه قذر) (٩).

أصالة الصحة: (وأصالة الصحة) في عمل الإنسان لقوله (عليه السلام): (ضع أمر أخيك على أحسنه) (١٠). بل ورد في الأحاديث أن المرأة إذا قالت إنها ليست بذات زوج لا يلزم التحقيق في أمرها مثل خبر يونس قال سألته (عليه السلام) عن رجل تزوج امرأة في بلد من البلدان فسألها: لك زوج؟ فقالت: لا، فتزوجها، ثم إن رجلاً أتاه فقال هي امرأتي فأنكرت المرأة ذلك، ما يلزم الزوج؟ فقال (عليه السلام): (هي امرأته، إلا أن يقيم البيينة) (١١) وخبر عبد العزيز قال سألت الرضا (عليه السلام) قلت: جعلت فداك إن أخي مات، وتزوجت امرأته، فجاء عمي فادعى أنه كان تزوجها سراً فسألته عن ذلك فأنكرت أشد الإنكار وقالت: ما بيني وبينه شيء قط فقال (عليه السلام): (يلزمك إقرارها ويلزمه إنكارها) (١٢) وخبر ميسر قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ألقى المرأة في الفلاة الذي ليس فيه أحد فأقول لها: ألك زوج؟ فتقول: لا، فأتزوجها؟ قال (عليه السلام): (نعم هي المصدقة على نفسها) (١٣).

وخبر أبن بن تغلب، قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إني أكون في بعض الطرقات فأرى المرأة الحسناء ولا آمن أن تكون ذات بعل أو من العواهر؟ قال (عليه السلام): (ليس هذا عليك وإنما عليك أن تصدقها في نفسها) (١٤).

وخبر محمد بن عبد الله الأشعري قال: قلت للرضا (عليه السلام): الرجل تزوج بالمرأة فيقع في قلبه أن لها زوجاً؟ فقال (عليه السلام): (وما عليه؟ رأيت لو سألتها البيينة كان يجد من يشهد ليس لها زوج) (١٥).

إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية التي جعلها الشارع وقررها لاحترام الإنسان وعرضه وماله ودمه.

أصل اليسر وتوابعه

وكذلك (أصل اليسر) في الأحكام الإسلامية كما قال سبحانه: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة: ١٨٥).

وقال سبحانه: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (الحج: ٧٨).

وتبعاً لذلك اليسر فقد رفعت عدة أمور عن الإنسان، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رفع عن أمي تسعة أشياء: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطبقون وما اضطروا إليه والحسد والطيرة والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطقوا بشفتيه) (١٦).

وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (رفع الله عن هذه الأمة ما لا يستطيعون وما استكروهوا عليه وما نسوا وما جهلوا حتى يعلموا) (١٧).

وكذلك سقوط الحد مع الاشتباه، فقد ورد (إن الحدود تدرأ بالشبهات) سواء شبهة الحاكم أو شبهات الحكم أو شبهة من فاعل المنكر، كما أن الحد يرفع عن المستكره والمستكره والمضطر والمضطرة وما أشبهه.

فعن علي (عليه السلام) أنه كان يقول: (ليس على المستكره حد ولا على مستكره) (١٨).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رفع عن أمي أربع خصال: ما خطئوا وما نسوا وما أكرهوا عليه وما لم يطبقوا وذلك في كتاب الله تبارك وتعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) (البقرة: ٢٨٦) (١٩).

وعن علي (عليه السلام): (ليس على المستكره حد إذا قالت إني استكرهت) (٢٠).

وعن أبي بصير، عن الصادق (عليه السلام) قال: (قضى أمير المؤمنين في امرأة اعترفت على نفسها أن رجلاً استكرهها، قال: هي مثل السبية لا تملك نفسها، لو شاء لقتلها، ليس عليها حد ولا نفي) (٢١).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال في حديث: (ولا شيء على المرأة إذا كان أكرهها ولها مهر مثلها في ماله) (٢٢).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه أتى بامرأة أخذت مع رجل يفجر بها فقالت: يا أمير المؤمنين والله ما طوعته لكن استكرهني، فدرء عنها الحد (٢٣).

وفي رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (ادروا الحدود بالشبهات) (٢٤).

كما أنه: (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) (٢٥).

في بحث طويل يذكره الفقهاء..

والواقع: إنه لا توجد أمثال هذه الأحكام في أي قانون أو شريعة حسب تتبعنا لهما.

إلى غيرها من الأحكام الشرعية التي تسبب سهولة الدين ويسر الحكم ما أوجب التفاف الناس حول الإسلام.

القيمة الحقيقية للفقهاء الإسلامي

وأخيراً ننقل مقتطفاً من مقدمة كتاب (المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية في البلاد السورية) يشير إلى أهمية الفقه الإسلامي لدى علماء الغرب فيقول: (عقدت شعبة الحقوق الشرعية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق من جامعة باريس تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامي) برئاسة أحد العلماء الغربيين وهو أستاذ في التشريع الإسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس، ودعت إليه عدداً كبيراً من أساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهم من المستشرقين.. وفي ختام المؤتمر وضع المؤتمرون بالإجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي:

بناءً على الفائدة المتحققة من المباحث التي عرضت أثناء أسبوع الفقه الإسلامي وما جرى حولها من المناقشات التي تلخص منها بوضوح:

أولاً: إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها.

ثانياً: إن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة الفقهية العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ومن الأصول الحقوقية التي هي مناط الإعجاب وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

ولا يخفى إنا نعتقد أن الفقه الإسلامي مقدم على الفقه الروماني والفقه الغربي والفقه الشرقي في القوانين، وإن المقارنة تظهر هذا التقدم بكل وضوح وجلاء كما ذكرنا بعض البنود في هذا الصدد، وللتفصيل يراجع كتب معنية بهذا الشأن.

١ . وسائل الشيعة: ج ١٤، ص ٢١٠ .

٢ . مستدرك الوسائل: ج ١٧، ص ٤٤٧ .

٣ . المصدر السابق: ج ١٨، ص ٣٦٦ .

٤ . المصدر السابق: ص ٣٦٧ .

٥ . المصدر السابق: ج ١٣، ص ١٦٨ .

٦ . بلغة الفقيه: ج ١، ص ٢٧٢ .

٧ . المبسوط: ج ٣، ص ٢٦٨ .

٨ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٦٠ .

٩ . مستدرك الوسائل: ج ٢، ص ٥٨٣ .

١٠ . المصدر السابق: ج ٩، ص ١٤٤ .

١١ . وسائل الشيعة: ج ١٤، ص ٢٢٦ .

١٢ . المصدر السابق.

١٣ . المصدر السابق: ص ٢٢٨ .

- ١٤ . المصدر السابق: ص ٤٥٦ .
- ١٥ . المصدر السابق: ص ٤٥٧ .
- ١٦ . المصدر السابق: ج ١١، ص ٢٩٥ .
- ١٧ . مستدرک الوسائل: ج ١٦، ص ٥١ .
- ١٨ . المصدر السابق: ج ١٨، ص ٥٦ .
- ١٩ . المصدر السابق: ج ١٢، ص ٢٤ .
- ٢٠ . المصدر السابق: ج ١٨، ص ٥٧ .
- ٢١ . المصدر السابق .
- ٢٢ . المصدر السابق .
- ٢٣ . المصدر السابق .
- ٢٤ . المصدر السابق: ص ٥٨ .
- ٢٥ . وسائل الشيعة: ج ١٧، ص ٣٧٦ .

الأساس الخامس : الحرية الإسلامية

الأساس الخامس: الحرية الإسلامية

فإن الإسلام دين الحرية بجميع معنى الكلمة كما تقدم بعض الكلام حول ذلك، والحرية الإسلامية أكثر من الحرية الغربية عشر مرات أو أكثر، وقد استنبط الفقهاء من الآيات والروايات القاعدة الفقهية المشهورة (الناس مسلطون على أموالهم وأنفسهم) وهذه القاعدة تعطي ألوف الحريات للإنسان، فهو حر في أن ينتخب مرجع تقليده، وهو حر في أن ينتخب رئيس دولته، وهو حر في أن ينتخب نواب مجلسه، وهو حر في أن ينتخب إمام جماعته وهو حر في أن ينتخب قاضيه، وهو حر في أن يسافر، ويبنى، ويزرع، ويتاجر، ويكتسب، ويسبق إلى المباحات، ويستملك الأراضي.. خلافاً للغرب حيث إن معظم الحرية للرأسمالية، وخلافاً للشرق حيث إن الحرية للدولة فقط.

حرية الأديان الأخرى

بل إن للكفار في ظل الإسلام حرياتهم التي ليست لهم تلك الحريات في أديانهم أنفسهم أو قوانين حولهم. وقد روى ابن شهر آشوب في المناقب أنه كتب رسول الله (صلى الله عليه وآله) عهداً لحي سلمان بكازرون جاء فيه:

هذا كتاب من محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) سأله الفارسي سلمان وصيته لأخيه مهاد بن فروخ بن مهيار وأقاربه وأهل بيته وعقبه (إلى أن قال): (وقد رفعت عنهم جز الناصية والجزية والخمس والعشر وسائر المؤن والكلف)(١).

(إلى آخر الكتاب) قال: والكتاب إلى اليوم في أيديهم.

وفي رواية أخرى: (وقد رفعت عنهم جز الناصية والزنارة والجزية إلى الخمس والعشر وسائر المؤن والكلف بأيديهم على بيوت النيران وضياعها وأموالها ولا يمنعون من اللباس الفاخرة والركوب وبناء الدور والإصطبل وحمل الجنائز واتخاذ ما يجدون في دينهم ومذاهبهم)(٢).

(إلى آخر الكتاب) وفي آخره (كتب علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحضوره).

وقد ذكرنا فيما سبق أن الكفار الذين يعيشون في ذمة الإسلام يباح لهم أن يعملوا بدينهم وفي رواية: (ألزموهم بما التزموا أنفسهم)(٣).

تساؤلات حول تطبيق الإسلام

ولنختتم هذا الفصل بأجوبة لأسئلة حول تطبيق الإسلام يكثر الاستفسار عنها:

فلسفة توزيع القدرة

السؤال الأول: لماذا تُوزع القدرة بين الأحزاب؟

والجواب: لأنه بدون ذلك لا ضمان لبقاء الحكم، ولذا نرى أن البلاد الدكتاتورية تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولا ينفذ أن يكون في البلاد مجلس استشاري أو مجلس يسمى (مجلس الشورى) أو حتى مجلس البرلمان إذا لم يكن وراء المجلس الأحزاب الحرة.

واللازم في البلاد الإسلامية أن توزع القدرة بين الأحزاب الحرة الإسلامية المنتهية إلى المرجعية لما ذكرناه ولئلا يتمكن طرف من التعدي على الناس كما هو الشأن في الحكومات الدكتاتورية الاستبدادية. هذا بالإضافة إلى أن الأحزاب الحرة هو مقتضى ما طبقه رسول الله (صلى الله عليه وآله) من حزبي المهاجرين والأنصار وإلى أنه مقتضى منح الإسلام الحرية للناس، فلماذا لا يتمكن جماعة من تكوين الحزب بينما يكون للحكومة حزب؟

الرسول (صلى الله عليه وآله) يوزع القدرة

السؤال الثاني: إذا كان الأمر هكذا فلماذا لم يوزع الرسول (صلى الله عليه وآله) القدرة؟

والجواب: الرسول (صلى الله عليه وآله) وزع القدرة بين المهاجرين والأنصار، ولذا نشاهد أنه كلما ضغط عليه المهاجرون التجأ إلى الأنصار، وكلما ضغط عليه الأنصار التجأ إلى المهاجرين في قصص مذكورة في التاريخ، وقد ألمعنا إلى بعضها في هذا الكتاب وفي غير هذا الكتاب.

ويأتي هنا سؤال وهو أنه إذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) وزع القدرة بين الأحزاب فلماذا نرى أن إحدى القدرتين انسحبت من الميدان بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)؟

والجواب: إن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إنما انسحب من الميدان لأنه رأى أن الأعداء محيطون بالمدينة المنورة وغيرها من البلاد الإسلامية وإن أصل الإسلام في خطر، فتجاوز عن حقه، ولذا قال (عليه السلام) لفاطمة (عليها السلام): (إذا وضعت السيف فيهم لم تسمعي بعد ذلك هذا الاسم) أي اسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد قال (عليه السلام) لما خاطبه العباس وأبو سفيان في أن يبايعا له بالخلافة: (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وخرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح، هذا ماء آجن ولقمة يغص بها آكلها، ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه، فإن أقل يقولوا: حرص على الملك وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتيا والتي، والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه بل اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة) (٤).

لماذا شورى المراجع؟

والسؤال الثالث: لماذا شورى المراجع؟

والجواب: لأنه بدون شورى المراجع يكون محذوران:

الأول: المحذور الشرعي وهو أنه لا يحق لبعض المراجع الذين هم خلفاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووكلاء الإمام (عليه السلام) أن يستبدوا بالأمر، ولنفرض أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أرسل أربعة وكلاء إلى بلد ليكونوا حكماً فهل يحق لأحدهم أو لاثنتين منهم أو حتى لثلاثة منهم أن يدفعوا الآخرين أو الآخر عن حقه ويستبدوا بالأمر؟ وهكذا في زمان غيبة الإمام (عليه السلام) حيث يقول: (جعلته عليكم حاكماً) (٥).
فالفقيه حاكم من قبل الإمام (عليه السلام)، فإذا اختارهم الناس كان الواجب أن تكون بينهم شورى لإدارة الحكومة.

المحذور الثاني: إن من الطبيعي أن يعارض الفقهاء الخارجون عن الشورى وجماعتهم المقلدون لهم الدولة لأنهم يرون عدم شرعية بعض قوانينها، ومن الواضح أن الدولة التي بينها جماعة ويعارضها جماعة يكون مصيرها الفشل.
بين التقليد وشورى المراجع

السؤال الرابع: إذا كان شورى المراجع هو الذي يدير الحكم بأكثرية الآراء فماذا يكون حال التقليد؟
والجواب: يكون التقليد في الأمور الشخصية حسب رأي مرجعه، مثل الصلاة والصوم والحج والنكاح والطلاق وما أشبهه، أما الأمور العامة للبلاد. كالحرب والسلام وترجيح الاقتصاد الصناعي على الاقتصاد الزراعي أو بالعكس إلى غير ذلك من المسائل العامة. فإنها تكون حسب أكثرية المراجع فإن قوله تعالى: (وأمرهم شورى) (الشورى: ٣٨).

حاكم على أدلة التقليد على الاصطلاح الأصولي لأنه إذا حُكِّم الشورى حتى في المسائل التقليدية لا يبقى للتقليد مجال، أما إذا حكم التقليد بقي للشورى مجال، فبين الدليلين (حكومة) وإذا فرضنا أن المراجع أربعة اختلف الطرفان فلم تكن (أكثرية) أو كانوا خمسة فاختلفا وبقي أحدهم محايداً فهنا يكون دور القرعة. (والقرعة لكل أمر مشكل) كما في الأحاديث الواردة عن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).
لا ضرائب في الإسلام

والسؤال الخامس: هل تأخذ الدولة الضرائب؟

الجواب: لا، وإنما تكتفي بالضرائب الأربع المقررة في الإسلام: (وهي) (الخمس) و(الزكاة) و(الجزية) و(الخراج) وذلك لقلة الموظفين في الدولة الإسلامية ولأن الدولة الإسلامية إنما تكون مشرفة فقط ولا تتدخل في كل الشؤون فلا تحتاج الدولة إلى مال كثير، فكل الأمور بيد الناس كالمطارات والقطارات والمستشفيات والمعامل والمصانع وغيرها وعلى هذا فوارد الدولة من الموارد الأربعة كثير، ولا تحتاج الدولة إلى أكثر من ذلك، ولذا كان الرسول (صلى الله عليه وآله) وحلفاءه يقسمون الأموال الزائدة على الناس، مع أنهم لم يكونوا يأخذون غير هذه الضرائب الأربع.

جيش الدولة الإسلامية

السؤال السادس: وماذا تفعل الدولة الإسلامية بالجيش؟

الجواب: الجيش جيش شعبي على ما ذكرناه في بعض الكتب الإسلامية، وليس الجيش كالجيش في الزمن الحاضر مما يكلف الدولة ويكلف الأمة رهقاً.

الحدود الجغرافية

السؤال السابع: هل للدولة الإسلامية حدود؟

الجواب: أما الحدود بالنسبة إلى البلاد الإسلامية فلا، لأنه لا حدود بين البلاد الإسلامية لما ذكرناه سابقاً، وإنما كل بلاد الإسلام وطن واحد. وهذا ما يراد بالحديث القائل: (حب الوطن من الإيمان).

فالمراد الوطن الإسلامي لا الوطن بمعنى العراق أو مصر أو إيران أو ما أشبهه، وأما بالنسبة إلى خارج الدولة الإسلامية فحيث إن الأعداء يجعلون لبلدهم الحدود فالدولة الإسلامية مضطرة لجعل الحدود على بلدها وإلا فالأرض أرض الله تعالى، والمسلمون هم عباد الله لهم الحق في أن يسيروا في أرض الله كما يريدون، فالحدود في الدولة الإسلامية الكبيرة إنما هي من باب الاضطراب حتى لا تحدث الفوضى، ومن الواضح أن الضرورات تقدر بقدرها.

الإسلام يلغي المكوس

السؤال الثامن: هل في الإسلام مكوس؟

والجواب: لقد جعلت الدولة الفارسية والدولة الرومية وغيرهما قبل الإسلام (العشارين) الذين كانوا يأخذون العشر من البضائع، فلما جاء الإسلام أبطل ذلك وورد في الحديث أن الدواب تلعن العشارين وفي حديث عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (يقول الحمار في نهيقه: اللهم العن العشارين)(٦).

كما تقدم في بحث (الإيمان) إلى غيرهما من الأحاديث.

نعم هناك (١) فروق التجارة (٢) وفروق التضخم (٣) وخوف الضرر على البلاد الإسلامية إذا هاجمتها البضائع، أو هربت منها البضائع، وهذه الأمور جائزة شرعاً كما ذكرنا تفصيله في بعض كتبنا الاقتصادية وأما (المكوس) فهي غير هذه الأمور الثلاثة وهي محرمة في الإسلام.

هل توجد الجنسية والهوية في الإسلام

السؤال التاسع: هل توجد الجنسية والهوية وما أشبهه في الدولة الإسلامية؟

والجواب: كل هذه الأمور من مخترعات الغرب اخترعوها لتقييد الإنسان سواء في بلادهم أو في بلادنا أو سائر البلدان. ولم يكن من هذه الأمور أثر عند المسلمين من أول الإسلام إلى قبل مائة سنة، فإن الإسلام يعطي لكل إنسان الحرية في كل شؤونه باستثناء الشؤون المحرمة. كالمعاملة بالربا والاحتكار والزنا والقمار وما أشبهه. وإلا فالزراعة والتجارة والصناعة والثقافة والسفر والإقامة وال عمران وغيرها كلها محللة في الشريعة الإسلامية فلماذا الجنسية والهوية وما أشبهه؟

شروط تحقق (العنوان الثانوي)

السؤال العاشر: ما هي موازين (العنوان الثانوي) الذي قد يتفوه به العلماء في بعض الأمور؟

الجواب: يشترط في تطبيق (العنوان الثانوي) بالنسبة إلى الفرد أن يرى الفرد أنه دخل . حقيقة . في العنوان الثانوي حتى يطبق عليه حكمه، مثلاً: الصحيح يصلي بالوضوء والمريض يصلي بالتميم، والصحيح يصوم والمريض يفطر، فإذا أحسن الفرد بأنه مريض صح له أن يتيمم كما صح له أن يفطر، وقد قال رجل للإمام الصادق (عليه السلام) بأنه مريض فهل يفطر أم لا؟ فكتب إليه الإمام (عليه السلام): (بسم الله الرحمن الرحيم: (بل الإنسان على نفسه بصيرة)) (القيامة: ١٤).

أما العناوين الثانوية العامة لكل بلاد الإسلام فاللازم:

أولاً: أن يميزها شورى المراجع فلا حق لبعض المراجع أن يميز ذلك، كما لا حق لمجلس الأمة أو مجلس الوزراء أو من أشبه أن يميزوا ذلك لأن العنوان الثانوي لا ينطبق على جميع الأمة بسبب مجلس الأمة أو بسبب مجلس الوزراء أو بسبب مجلس الأعيان أو ما أشبه، بل اللازم أن يعينه شورى المراجع الذين هم وكلاء الأئمة والأمة مأمورة بالأخذ منهم لا الأخذ من سواهم.

وثانياً: أن لا يصبح ذلك قانوناً بل يكون خلاف القانون من باب الاضطراب والضرورات تقدر بقدرها. فكلما كان هنالك عنوان ثانوي ينطبق عليه هذان الشرطان فهو عنوان ثانوي حقيقي يجب على المسلمين إتباعه، أما إذا فقد أحد الشرطين فليس عنواناً ثانوياً ولا يجوز تطبيقه على البلاد الإسلامية. كيف تحلّ مشكلة الطوائف؟

السؤال الحادي عشر: كيف يكون الحكم بين الشيعي والسني؟

والجواب: في المجلس الأعلى للمسلمين في الدولة الإسلامية ذات الألف مليون مسلم يحكم أكثرية السنة على السنة ويحكم أكثرية الشيعة على الشيعة (من الفقهاء والعلماء الذين اجتمعوا في مجلس الشورى الأعلى). وأما بالنسبة إلى أمور المسلمين كافة فاللازم أكثرية المجلسين فإنهم هم الذين يحكمون، فإذا فرضنا أن في المجلس الأعلى عشرة من السنة وعشرة من الشيعة فإذا أرادوا الحكم على كافة المسلمين فاللازم ستة أو أكثر من السنة وستة أو أكثر من الشيعة، لا أن يكون المعيار الأكثرية المطلقة، مثلاً: كان هناك أحد عشر، عشرة من الشيعة وواحد من السنة فإن هذا غير منطبق على الموازين بل المنطبق على موازين الشورى ما ذكرناه وقد فصلنا هذا الأمر في كتاب مستقل، والأقلية من الشيعة أو من السنة في أي بلد من البلدان لا يضيق عليهم إطلاقاً وإنما كل طائفة من هاتين الطائفتين لهم قضاؤهم المستقل وصلوات جماعتهم وسائر شؤونهم، وقد كان الأمر هكذا في كثير من العصور الإسلامية كما شاهدنا بعض ذلك في لبنان وفي بغداد وفي الكويت وفي غيرها حيث كان هنالك القضاء الشيعي والقضاء السني، والأوقاف الشيعية والأوقاف السنية، والإعلام السني والإعلام الشيعي، وهكذا أما البحث الحر وحرية العقيدة وحرية الرأي وحرية التأليف فلكل شأنه في الإطار الإسلامي كما هو القانون العام لبلاد الإسلام على أن لا يتجاوز أحد على الموازين الإسلامية وهذا شيء سهل، وفي العالم المعاصر مثال لهذا الأمر: حركة المؤتمر التي حررت الهند عن البريطانيين مارست عملها مع أنه كان في الهند مائة وخمسون مذهباً، وسبعمائة لغة، وثلاثة آلاف قومية، وستمائة حكومة، ومع ذلك تمكن الجميع أن يتحركوا معاً ويجرروا بلادهم عن

السلطة البريطانية . وإن خرجت الهند من أيدي المسلمين التي حكموها أكثر من ألف سنة وقد كان ذلك خسارة كبيرة إلا أن الكلام في أن الطوائف تمكنوا أن يصادق بعضهم بعضاً ويحرروا البلاد من سلطة الأجنبي المستعمر . فليتصافق في البلاد الإسلامية السنة والشيعة لإنقاذ بلادهم من سلطة المستعمرين الغربيين والشرقيين ومن التبضع والتشتت وسيادة القوانين الأرضية بدل القوانين السماوية . وقد رأينا نحن المسلمين كيف أن الغربيين كانت بينهم الحروب الدينية والحروب الحدودية وما أشبه ثم تعقلوا وجمعوا أنفسهم حول موازين ثابتة وقوانين مضبوطة وتعاونوا فيما بينهم وجعلوا الشورى مكان السيف، وهكذا يجب علينا نحن المسلمين أن نجتمع أنفسنا بكل قومياتنا ولغاتنا وحدودنا واقليمياتنا ومذاهبنا المختلفة كما أمر الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (آل عمران: ١٠٣).

وقال سبحانه: (واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) (آل عمران: ١٠٣).

وقال تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (الأنفال: ٤٦).

إلى غيرها من الآيات والروايات الآمرة بالتعاون والتجمع وتحكيم الشورى بأكثرية الآراء في الإطار الإسلامي . الذي هو الكتاب والسنة والإجماع والعقل . والله الموفق المستعان .

١ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ١٠٠ .

٢ . المصدر السابق .

٣ . بحار الأنوار: ج ٢٨، ص ٣٤٩ .

٤ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ١، ص ٤٠ .

٥ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ٩٩ .

٦ . بحار الأنوار: ج ٥٧، ص ٣٥ .

الفصل السابع: من وحي السيرة النبوية رسالة العبادة والعمل

رسالة العبادة والعمل

من الضروري على القيادة (الجماعية طبعاً) التي تريد إنقاذ العالم في هذا اليوم أن تتصف بهذه الصفات التي نجدها عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنه (صلى الله عليه وآله) يمثل هذه الصفات تمكن من إنقاذ الناس من الجاهلية الأولى التي كانت مخيمة على كل عالم ذلك اليوم . من غير فرق بين الجزيرة العربية وبين دولتي الفرس والروم ..

وسنذكر هنا بعض هذه صفاته (صلى الله عليه وآله):

النبى (صلى الله عليه وآله) يعمل أجيراً وزارعاً وراعياً

فقد استأجرت خديجة النبى (صلى الله عليه وآله) على أن تعطيه بكرين ويسير مع غلامها ميسرة إلى الشام. وعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمر الظهران يرعى الغنم، وإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه.

قالوا: ترعى الغنم؟

قال (صلى الله عليه وآله): نعم، وهل نبى إلا رعاها(١).

وقال عمار (رض) كنت: أرعى غنيمة أهلي، وكان محمد (صلى الله عليه وآله) يرعى أيضاً، فقلت: يا محمد هل لك في (فخ) فإني تركتها روضة برق؟ قال: نعم فجننتها من الغد وقد سبقني محمد (صلى الله عليه وآله) وهو قائم يذود غنمه عن الروضة. قال: إني كنت واعدتك فكرهت أن أرعى قبلك(٢).

النبى (صلى الله عليه وآله) وحسن العهد

روي: أن عجوزاً دخلت على النبى (صلى الله عليه وآله) فألطفها، فلما خرجت سألته عائشة عنها فقال: (إنها كانت تأتينا في زمن خديجة وإن حسن العهد من الإيمان)(٣).

وعن أبي الحميساء قال: (بايعت النبى (صلى الله عليه وآله) قبل أن يبعث فواعدنيه مكاناً فنسيته يومي والغد فأتيته اليوم الثالث، فقال (صلى الله عليه وآله): يا فتى لقد شققت عليّ، أنا ها هنا منذ ثلاثة أيام!)(٤).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعد رجلاً إلى الصخرة فقال: أنا لك ها هنا حتى تأتي، قال: فاشتدت الشمس عليه، فقال له أصحابه: يا رسول الله لو إنك تحولت إلى الظل، قال: وعدته إلى ها هنا وإن لم يجيء كان منه المحشر...)(٥).

النبي (صلى الله عليه وآله) والقيادة الرفيعة

كان النبي (صلى الله عليه وآله) أحكم الناس وأحلمهم وأشجعهم وأعدلهم وأعطفهم.
وكان (صلى الله عليه وآله) إذا خطب حمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: (يا معشر المسلمين، ان أفضل الهدى هدى محمد (صلى الله عليه وآله) وخير الحديث كتاب الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة)(٦).
ويرفع صوته وتحمر وجنتاه ويذكر الساعة وقيامها حتى كأنه منذر جيش.

وعن أبي البختري، عن جعفر، عن أبيه (عليه السلام): (إن المساكين كانوا يبيتون في المسجد على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأفطر النبي (صلى الله عليه وآله) مع المساكين الذين في المسجد ذات ليلة عند المنبر في برمّة (٧) فأكل منها ثلاثون رجلاً ثم ردت إلى أزواجه سبعهن)(٨).

وعن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إن رجلاً من الأنصار أهدى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) صاعاً من رطب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) للخادمة التي جاءت به: أدخلي فانظري هل تجدين في البيت قصعة أو طبقاً فتأتيني به؟ فدخلت ثم خرجت إليه فقالت: ما أصبت قصعة ولا طبقاً، فكنس رسول الله (صلى الله عليه وآله) بثوبه مكاناً من الأرض، ثم قال لها: ضعيه ها هنا على الحضيض)(٩).

وعن هشام وغيره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ما كان شيء أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من أن يظل خائفاً جائعاً في الله عز وجل)(١٠).

وعن أنس بن مالك قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مر على صبيان فسلم عليهم وهو مغذ(١١).
وعن أبي ذر قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يجلس بين ظهراني أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه فبيننا له دكاناً من طين، وكان يجلس عليه، ويجلس بجانبه(١٢).

وسئلت عائشة ما كان النبي (صلى الله عليه وآله) يصنع إذا خلا؟ قالت: يحيط ثوبه ويخفف نعله ويصنع ما يصنع الرجل في أهله.

وعنها أنها قالت: أحب العمل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) الخياطة(١٣).

وعن ابن مسعود قال: أتى النبي (صلى الله عليه وآله) رجل يكلمة فأرعد فقال: هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القدر(١٤).

وعن أنس بن مالك قال: خدمت النبي (صلى الله عليه وآله) تسع سنين فما أعلمه قال لي قط هلا فعلت كذا وكذا، ولا عاب عليّ شيئاً قط(١٥).

وعن أبي سعيد الخدري يقول: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) حياً لا يُسأل شيئاً الا أعطاه(١٦).

وعن جابر بن عبد الله قال: غزا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إحدى وعشرين غزوة بنفسه شاهدت منها تسعة عشر وغبت عن اثنتين فبينما أنا معه في بعض غزواته إذ أعيا ناضحي تحتي بالليل فبرك، وكان رسول الله

(صلى الله عليه وآله) في آخرنا في آخريات الناس فيرجي الضعيف ويردف ويدعو لهم، فانتهى إليّ وأنا أقول يا لهف أمياه وما زال لنا ناضح سوء.

فقال: من هذا؟

فقلت: أنا جابر بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال: ما شأنك؟

قلت: أعيا ناضحي.

فقال: أمعك عصا؟

فقلت: نعم.

فضربه ثم بعته، ثم أناخه ووطئ على ذراعه وقال: اركب فركبت فسأيرته فجعل جملي يسبقه فاستغفر لي تلك الليلة خمساً وعشرين مرة فقال لي: ما ترك عبد الله من الولد يعني أباه.

قلت: سبع نسوة.

قال: أبوك عليه دين؟

قلت: نعم.

قال: فإذا قدمت المدينة فقاطعهم فإن أبوا فإذا حضر جذاذ نخلكم فأذني.

وقال: هل تزوجت؟

قلت: نعم.

قال: بمن؟

قلت: بفلانة بنت فلان بأيم كانت بالمدينة.

قال: فهلا فتاة تلاعبها وتلاعبك؟

قلت: يا رسول الله كنّ عندي نسوة حرق يعني أخواته، فكرهت أن آتيهن بامرأة حرقاء، فقلت: هذه أجمع لأمري.

قال: أصبت ورشدت.

ثم قال: بكم اشتريت جملك؟

فقلت: بخمس أواق من ذهب.

قال: قد أخذناه.

فلما قدم المدينة أتيته بالجمل، فقال: يا بلال أعطه خمس أواق من ذهب يستعين به في دين عبد الله وزده ثلاثاً واردد عليه جملة.

قال: هل قاطعت غرماء عبد الله؟

قلت: لا يا رسول الله.

قال: أترك وفاءً.

قلت: لا.

قال: لا عليك إذا حضر جذاذ نخلكم فأذني فأذنته فجاء فدعا لنا فجددنا واستوفى كل غريم كان يطلب تمرًا وفاءً وبقي لنا ما كنا نجد وأكثر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ارفعوا ولا تكيلوا، فرفعناه وأكلنا منه زماناً (١٧).

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا حدث الحديث أو سأل عن الأمر كرره ثلاثاً ليفهم ويفهم عنه (١٨).

وروي عن زيد بن ثابت قال: إن النبي (صلى الله عليه وآله) كنا إذا جلسنا إليه أن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (١٩).

البشاشة وحسن الخلق

وكان (صلى الله عليه وآله) كثير التبسّم. مع كثرة مهامه ومشكلاته. حتى عدوا من أسمائه (صلى الله عليه وآله): (الضحوك).

كما كان (صلى الله عليه وآله) حسن الخلق، مع كثرة همومه.

وروي أن رجلاً اعترض النبي (صلى الله عليه وآله) يسأله فصاح به الناس، فقال: دعوا الرجل أرب ماله (٢٠).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: دخل يهودي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعائشة عنده، فقال: السام عليكم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): عليك.

ثم دخل آخر فقال مثل ذلك، فردّ عليه كما ردّ على صاحبه.

ثم دخل آخر فقال مثل ذلك، فردّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما ردّ على صاحبه.

فغضبت عائشة فقالت: عليكم السام والغضب واللعنة يا معشر اليهود يا أخوة القروء والخنازير.

فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا عائشة إن الفحش لو كان ممثلاً لكان مثال سوء، إن الرفق لم يوضع على شيء قط إلا زانه ولم يرفع عنه قط إلا شانه (٢١).

وفي حديث أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأتيه الأعرابي فيأتي إليه له الهدية، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا فيضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكان (صلى الله عليه وآله) إذا اغتم يقول: ما فعل الأعرابي ليته أتاناً (٢٢).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية.

قال: ولم ييسط رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجله بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله (صلى الله عليه وآله) يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه قال بيده فنزعها من يده(٢٣).

قال أنس: مات نغير لأبي عمير وهو ابن لام سليم، فجعل النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: يا أبا عمير ما فعل النغير (النغير طائر يشبه العصفور).

وكان حادي بعض نسوته خادمه (أنجشة) فقال (صلى الله عليه وآله) له: يا أنجشة أرفق بالقوارير. وفي رواية: لا تكسر القوارير (تشبهاً للنساء بالزجاج)(٢٤).

وكان (صلى الله عليه وآله) له عبد أسود في سفر فكان كل من أعيأ ألقى عليه بعض متاعه حتى حمل شيئاً كثيراً، فمر به النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: أنت سفينة، فأعتقه.

وقال رجل: احملني يا رسول الله فقال: إنا حاملوك على ولد ناقه فقال: ما أصنع بولد ناقه؟ قال (صلى الله عليه وآله) وقال: وهل يلد الإبل إلا النواق؟

واستدبر (صلى الله عليه وآله) رجلاً من ورائه وأخذ بعضده وقال: من يشتري هذا العبد؟ يعني أنه عبد الله.

وقال (صلى الله عليه وآله) لاحد: لا تنس يا ذا الأذنين(٢٥)!

وعن زيد بن اسلم، أنه (صلى الله عليه وآله) قال لامرأة (وذكرت زوجها): أهذا الذي في عينيه بياض؟ فقالت: لا ما بعينه بياض، وحكت لزوجها فقال: أما ترين بياض عيني أكثر من سوادهما؟

ورأى (صلى الله عليه وآله) جملاً عليه حنطة فقال: تمشي الهريسة(٢٦).

عن ابن عباس: أنه (صلى الله عليه وآله) كسى بعض نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: إلبسيه واحمدي الله وجرّي منه ذيلاً كذيل العروس(٢٧).

وقالت عجوز من الأنصار للنبي (صلى الله عليه وآله): ادع لي بالجنة، فقال (صلى الله عليه وآله): إن الجنة لا يدخلها العجز، فبكت المرأة فضحك النبي (صلى الله عليه وآله) ثم قال: أما سمعت قول الله تعالى: (إنا أنشأناهن إنشأً فجعلناهن أبكاراً) (الواقعة: ٣٥ - ٣٦).

وقال (صلى الله عليه وآله) للعجوز الأشجعية: يا أشجعية لا تدخل العجوز الجنة وفراها بلال باكية، فوصفها للنبي (صلى الله عليه وآله) فقال والأسود كذلك، فجلسا يبكيان، فراها العباس فذكرهما له، فقال: والشيخ كذلك، ثم دعاهم وطيب قلوبهم، وقال: ينشئهم الله كأحسن ما كانوا وذكر أنهم يدخلون الجنة شباناً منورين وقال: إن أهل الجنة جرد مرد مكحلون.

وقال (صلى الله عليه وآله) حين قال رجل شعر:

أنت نبي الله حقاً نعلمه ودينك الإسلام ديناً نعظمه

نبغي مع الإسلام شيئاً نقضه ونحن حول ديننا ندندن

قال: يا علي أفض حاجته فأشبعه علي (عليه السلام) وأعطاه ناقه وجملة، وتمر(٢٨).

أقول: (ندندن) الدندنة هي كلام تسمع نعمته ولا يفهم.

وجاء أعرابي فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بلغنا أن المسيح (يعني الدجال) يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جميعاً جوعاً أفتري بابي أنت وأمي أن أكف من ثريده تعففاً وتزهداً، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثم قال: بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين (٢٩).

ورأى صهيياً يأكل تمرأ، فقال (صلى الله عليه وآله): أتأكل التمر وعينك رمدة، فقال يا رسول الله إني أمضغه من هذا الجانب وعيني تشتكي من هذا الجانب (٣٠).

ونهى (صلى الله عليه وآله) أبا هريرة عن المزاح فسرق نعل النبي (صلى الله عليه وآله) ورهن بالتمر وجلس بجذائه (صلى الله عليه وآله) يأكل، فقال (صلى الله عليه وآله): يا أبا هريرة ما تأكل، فقال: نعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله).

وقال: سويط المهاجري لنعيمان البدري: أطعمني وكان على الزاد في سفر فقال: حتى نجىء الأصحاب، فمروا بقوم فقال لهم سويط: تشترون مني عبداً لي؟ قالوا: نعم، قال: إنه عبد له كلام وهو قائل لكم إني حر، فإن سمعتم مقاله تفسدوا عليّ عبدي فاشتروه بعشرة قلائص ثم جاؤوا فوضعوا في عنقه حبلاً، فقال نعيمان: هذا يستهزئ بكم وإني حر، فقالوا: قد عرفنا خبرك وانطلقوا حتى أدركهم القوم وخلصوه فضحك النبي (صلى الله عليه وآله) من ذلك حيناً (لما سمع الخبر) (٣١).

ورأى نعيمان مع أعرابي عكة غسل فاشتراها منه وجاء بها إلى بيت عائشة في يومها وقال: خذوها يظهر للنبي (صلى الله عليه وآله) أنه أهداها له، ومرّ نعيمان والأعرابي على الباب، فلما طال قعوده قال: يا هؤلاء ردوها إن لم تحضر قيمتها، فظهرت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) القصة فوزن له الثمن، وقال لنعيمان: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحب العسل، ورأيت الأعرابي معه العكة، فضحك النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يظهر له نكراً (٣٢).

وروي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقول (إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً) (٣٣).

وعن حسن بن علي (عليه السلام) قال: سألت خالي هنداً عن صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال: إذا كان غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه وكان جل ضحكه التبسم (٣٤).

كرمه (صلى الله عليه وآله) وتيسيره الأمور للناس

وكان (صلى الله عليه وآله) أكرم الناس كفاً وكان يؤثر غيره على نفسه فيبيت جائعاً ليطعم غيره وقد قالت عائشة: كنا نأكل الأسودين (أي الماء والتمر) ونطعم الناس الأحمرين (أي الخبز واللحم).

وروي عن الصادق (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقبل إلى (الجرعانه) فقسم فيها الأموال وجعل الناس يسألونه فيعطيههم حتى أجزؤوه إلى الشجرة فأخذوا برده وخذشت ظهره حتى جلوه عنها وهم يسألونه فقال: أيها الناس والله لو كان عندي عدد شجر تامة نعماً لقسمته بينكم ثم ما ألفتيموني جباناً ولا بخيلاً (٣٥).

ولقد كان (صلى الله عليه وآله) يجيز الرجل الواحد بالمائة من الإبل (٣٦).

وقال أعرابي: إن محمداً (صلى الله عليه وآله) يعطي عطاءً من لا يخاف الفقر (٣٧).

وفي رواية (حول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه كان قد اقتدى بالرسول (صلى الله عليه وآله) فكان يجلس جلسة العبد، ويأكل أكلة العبد، ويطعم الناس خبز البر واللحم، ويرجع إلى أهله فيأكل الخبز والزيت وإن كان ليشتري القميص السنبلاني ثم يخير غلامه خيرهما ثم يلبس الباقي، فإذا جاز أصابعه قطعه، وإذا جاز كعبه حذفه، وما ورد عليه أمران قط كلاهما لله رضىً إلا أخذ بأشدهما على بدنه، ولقد ولي (صلى الله عليه وآله) الناس خمس سنين فما وضع أجرة على أجرة، ولا لبنه على لبنه، ولا أقطع قطيعة، ولا أورث بيضاء ولا حمراء إلا سبع مائة درهم فضلت من عطاياه أراد أن يتناع لأهله بها خادماً (٣٨).

وقد كان (عليه السلام) مديوناً لما استشهد بثمانمائة ألف درهم.

وفي حديث أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يحمل الناس من خلفه ما يطيقون (٣٩).

وقد ورد في الحديث أنه (صلى الله عليه وآله) قال: (رفع عن أمي تسعة: الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفته) (٤٠).

وروي: أن رجلاً أتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: ما عندي شيء ولكن اتبع علي فإذا جاءنا شيء قضيناها.

قال الراوي: فقلت: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه.

قال: فكره النبي (صلى الله عليه وآله).

فقال الرجل: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً.

قال: فتبسم النبي (صلى الله عليه وآله) وعرف السرور في وجهه (٤١).

وعن أنس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس.

وقال: فرغ أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت قال: فتلقاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد سبقهم وهو يقول: (لن تراعوا) وهو على فرس لأبي طلحة وفي عنقه السيف (٤٢).

عبادته (صلى الله عليه وآله) وتعاهده لعبادة أصحابه

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله وأبي جعفر (عليه السلام) قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا صلى قام على أصابع رجله حتى تورمت، فأنزل الله تعالى: (طه: ١).

وهي بلغة طي يا محمد.

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) (طه: ٢) (٤٣).

وروي: أنه (صلى الله عليه وآله) لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع من دندنتهم بذكر الله والتلاوة (٤٤).

- ٢ . المصدر السابق.
- ٣ . كنز العمال: ج ١٣، ص ٦٩١.
- ٤ . مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٤٦٠.
- ٥ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٥١٦.
- ٦ . مستدرك الوسائل: ج ١٢، ص ٣٢٤.
- ٧ . البرمة: القدر من الحجر.
- ٨ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٩.
- ٩ . مستدرك الوسائل: ج ١٦، ص ٢٢٦.
- ١٠ . الكافي: ج ٨، ص ١٦٣.
- ١١ . مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٣٦٤.
- ١٢ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢٩.
- ١٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٠.
- ١٤ . المصدر السابق: ص ٢٢٩.
- ١٥ . المصدر السابق: ص ٢٣٠.
- ١٦ . المصدر السابق.
- ١٧ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٣٣.
- ١٨ . المصدر السابق: ص ٢٣٤.
- ١٩ . المصدر السابق: ص ٢٣٥.
- ٢٠ . المصدر السابق: ص ١٨٧.
- ٢١ . الحدائق الناظرة: ج ٩، ص ٧١.
- ٢٢ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٤٧٧.
- ٢٣ . المصدر السابق: ص ٤٩٩.
- ٢٤ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٩٤.
- ٢٥ . المصدر السابق.
- ٢٦ . المصدر السابق.
- ٢٧ . المصدر السابق: ص ٢٩٥.
- ٢٨ . المصدر السابق.
- ٢٩ . المصدر السابق.
- ٣٠ . المصدر السابق: ص ٢٩٦.

- ٣١ . المصدر السابق.
- ٣٢ . المصدر السابق.
- ٣٣ . المصدر السابق: ص٢٩٨.
- ٣٤ . المصدر السابق.
- ٣٥ . المصدر السابق: ص٢٢٦.
- ٣٦ . المصدر السابق: ص٢٧٧.
- ٣٧ . المصدر السابق: ص١١٨.
- ٣٨ . المصدر السابق: ص٢٧٨.
- ٣٩ . بحار الأنوار: ج١٦، ص١٨٨.
- ٤٠ . مستدرک الوسائل: ج٦، ص٤٢٣.
- ٤١ . المصدر السابق: ج٧، ص٢٣٥.
- ٤٢ . بحار الأنوار: ج١٦، ص٢٣٢.
- ٤٣ . المصدر السابق: ص٨٥.
- ٤٤ . المصدر السابق: ص٢٠٤.

رئاسة الدين والدنيا

القيادة الرشيدة المتواضعة

عن أبان الأحمر، عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (جاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد بلى ثوبه فحمل إليه اثني عشر درهماً، فقال: يا علي خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً ألبسه، قال علي (عليه السلام): فجئت إلى السوق فاشترت له قميصاً باثني عشر درهماً وجمت به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنظر إليه فقال: يا علي غير هذا أحب إلي، أترى صاحبه يعيلنا؟ فقلت: لا أدري.

فقال: أنظر فجئت إلى صاحبه، فقلت: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد كره هذا يريد ثوباً دونه فأقلنا فيه فردّ عليّ الدراهم وجمت به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمشى معي إلى السوق بيتاع قميصاً فنظر إلى جارية قاعدة على الطريق تبكي فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما شأنك؟.

قالت: يا رسول الله إن أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بما حاجة فضاعت فلا أحسر أن أرجع إليهم. فأعطاهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) أربعة وقال: ارجعي إلى أهلك.

ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى السوق فاشترى قميصاً بأربعة دراهم ولبسه وحمد الله وخرج، فرأى رجلاً عرياناً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنة، فخلع رسول الله (صلى الله عليه وآله) قميصه الذي اشتراه وكساه السائل.

ثم رجع إلى السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصاً آخر فلبسه وحمد الله ورجع إلى منزله، وإذا الجارية قاعدة على الطريق، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما لك لا تأتين أهلك؟.

قالت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إني قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله): مري بين يدي ودليني على أهلك.

فجاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى وقف على باب دارهم، ثم قال: السلام عليكم يا أهل الدار فلم يجيبوه، فأعاد السلام فلم يجيبوه فأعاد السلام، فقالوا: عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فقال لهم: مالكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني؟!

قالوا: يا رسول الله سمعنا سلامك فأحببنا أن تستكشر منه.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها.

فقالوا: يا رسول الله هي حرة لممشاك.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الحمد لله ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركة من هذه، كسى الله بها عريانين، واعتق بها نسمة).

وعن ابن طريف، عن ابن علوان، عن جعفر، عن أبيه (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يورث ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة ولا شاة ولا بعيراً، ولقد قبض (صلى الله عليه وآله) وإن درعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها نفقة لأهله)(١).

وعن محمد بن قيس، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (خمس لا ادعهن حتى الممات:

الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي الحمار مؤكفاً، وحلي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنة من بعدي)(٢).

وعن جرير بن عبد الله: (إن النبي (صلى الله عليه وآله) دخل بعض بيوته فامتأ البيت ودخل جرير فقعد خارج البيت فأبصره النبي (صلى الله عليه وآله) فأخذ ثوبه فلقه فرمى به إليه وقال: اجلس على هذا، فأخذ جرير فوضعه على وجهه فقبله)(٣).

وعن جابر قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا خرج مشى أصحابه أمامه وتركوا ظهره للملائكة)(٤). وعن أنس بن مالك قال: (كنا إذا أتينا النبي (صلى الله عليه وآله) جلسنا حلقة)(٥).

وعن علي (عليه السلام) قال: ما صافح رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحداً قط فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده وما فوضه أحد قط في حاجة أو حديث فانصرف، حتى يكون الرجل ينصرف.

وما نازعه الحديث حتى يكون هو الذي يسكت.

وما رأى مقدماً رجله بين يدي جليس له قط.

ولا عرض له قط أمران إلا أخذ بأشدهما.

وما انتصر نفسه من مظلمة حتى ينتهك محارم الله فيكون حينئذٍ غضبه لله تبارك وتعالى.

وما أكل متكئاً قط حتى فارق الدنيا.

وما سأل شيئاً قط فقال: لا.

وما رد سائلاً حاجة إلا بها أو بميسور من القول.

وكان أخف الناس صلاة في تمام.

وكان أقصر الناس خطبة واقله هذراً.

وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل.

وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده.

وكان إذا أكل، أكل مما يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده.

وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاس، وكان يمص الماء مصاً ولا يعبه عباً.

وكان يمينه لطعامه وشرابه وأخذه وإعطائه كان لا يأخذه إلا بيمينه ولا يعطي إلا بيمينه، وكان شماله لما سوى ذلك من بدنه.

وكان يحب التيمن في كل أموره في لبسه وتنعله وترجله.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلم تكلم وترأ، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً.

وكان كلامه فصلاً يتيبته كل من سمعه، وإذا تكلم رأى كالنور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأته قلت أفلج الثببتن وليس بأفلج.

وكان نظره اللحظ بعينه.

وكان لا يكلم أحداً بشيء يكرهه.

وكان إذا مشى كأنه ينحط من صيب.

وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً.

وكان لا يذم ذوقاً ولا يمدحه ولا يتنازع أصحابه الحديث عنده.

وكان المحدث عنه يقول: لم أر بعيني مثله قبله ولا بعده (صلى الله عليه وآله)(٦).

وكان (صلى الله عليه وآله) يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة أو يسميه فيأخذه فيضعه في حجره تكريماً لأهله، فرمى بال الصبي عليه فيصيح بعض من رآه حين بال فيقول (صلى الله عليه وآله): لا ترموا بالصبي فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته ويبلغ سرور أهله فيه ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد.

ودخل رجل المسجد وهو جالس وحده فتزحج له، فقال الرجل: في المكان سعة يا رسول الله، فقال (صلى الله عليه وآله): (إن حق المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس إليه أن يتزحج له)(٧).

وروي: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم لبعضهم لبعض)(٨).

(وكان الأعاجم يتواضع بعضهم لبعض إلى حد الركوع).

وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل)(٩).

وروي عنه (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إذا أتى أحدكم مجلساً فليجلس حيث ما انتهى مجلسه)(١٠).

وكان صلى الله عليه وآله يأكل كل الأصناف من الطعام وكان يأكل ما أحلّ الله له مع أهله وخدمه إذا أكلوا ومع من يدعوه من المسلمين على الأرض وعلى ما أكلوا عليه، ومما أكلوا إلا أن ينزل به ضيف فيأكل مع ضيفه)(١١).

وكان يقول (صلى الله عليه وآله): (أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد)(١٢).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ما أكل رسول الله (صلى الله عليه وآله) متكئاً منذ بعثه الله عز وجل نبياً حتى قبضه الله إليه تواضعاً لله عز وجل، وكان (صلى الله عليه وآله) إذا وضع يده في الطعام قال: بسم الله بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه)(١٣).

وما ذم رسول الله (صلى الله عليه وآله) طعاماً قط كان إذا أعجبه أكله، وإذا كرهه تركه، وكان (صلى الله عليه وآله) ما عاف من شيء فإنه لا يجرمه على غيره(١٤).

وعن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): ما أكل نبي الله وهو متكئ منذ بعثه الله جل وعز، وكان يكره أن يتشبه بالملوك(١٥).

عدالته الاجتماعية (صلى الله عليه وآله)

عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: إن يهودياً كان له على رسول الله (صلى الله عليه وآله) دنانير فتقاضاه فقال له: يا يهودي ما عندي ما أعطيك فقال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تقضييني فقال: إذا أجلس معك فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتهددونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله (صلى الله عليه وآله) إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله يهودي حبسك فقال (صلى الله عليه وآله): لم يبعثني ربي عز وجل بأن أظلم معاهداً ولا غيره، فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله(١٦).

وعن عنبسه بن مصعب، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: (أتى النبي (صلى الله عليه وآله) بشيء فقسمه فلم يسع أهل الصفة جميعاً فخصّ به أناساً منهم، فخاف رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يكون قد دخل قلوب الآخرين شيء فخرج إليهم فقال: معذرة إلى الله عز وجل وإليكم يا أهل الصفة إنا أوتينا بشيء فأردنا أن نقسمه بينكم فلم يسعكم فخصصت به أناساً منكم خشينا جزعهم وهلعهم(١٧).

جوانب من حياته (صلى الله عليه وآله)

عن الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: مرت امرأة بدوية (بذيه) برسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يأكل وهو جالس على الحضيض فقالت: يا محمد والله إنك لتأكل أكل العبيد وتجلس جلوسه، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): ويحك أي عبد أعبد مني.

قالت: فناولني لقمة من طعامك فناولها، فقالت: لا والله إلا التي في فمك، فأخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) اللقمة من فمه فناولها فأكلتها، قال أبو عبدالله (عليه السلام): فما أصابها داء حتى فارقت الدنيا روحها(١٨).

وكان (صلى الله عليه وآله) إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيداً ثم مسح بفضل الماء الذي في يده وجهه.

وكان (صلى الله عليه وآله) لا يأكل وحده ما يمكنه وقال: (ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى، قال: من أكل وحده وضرب عبده ومنع رفده).

وكان (صلى الله عليه وآله) إذا شرب بدأ فسمى وحسا حسوة وحسوتين، ثم يقطع فيحمد الله ثم يعود، فيسمى ثم يزيد في الثالثة ثم يقطع فيحمد الله وكان له في شربه ثلاث تسميات وثلاث تحميدات، ويمص الماء مصاً ولا

يعبه عباً، ويقول: إن الكباد من العب، وكان (صلى الله عليه وآله) لا يتنفس في الإناء إذا شرب، فإن أراد أن يتنفس أبعده الإناء عن فيه حتى يتنفس... وكان يشرب في الأقداح التي تتخذ من الخشب وفي الجلود، ويشرب في الخرف ويشرب بكفيه يصب الماء فيهما ويشرب ويقول: ليس إناء أطيب من اليد (١٩).

وقال أنس بن مالك: كانت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) شربة يفطر عليها وشربة للسحر، وربما كانت واحدة، وربما كانت لبناً، وربما كانت الشربة خبزاً يماث فهيأتها له (صلى الله عليه وآله) ذات ليلة فاحتبس النبي (صلى الله عليه وآله) فظننت أن بعض أصحابه دعاه فشربتها حين احتبس، فجاء (صلى الله عليه وآله) بعد العشاء بساعة فسألت بعض من كان معه هل كان النبي (صلى الله عليه وآله) أفطر في مكان أو دعاه أحد، فقال: لا فبت بليلة لا يعلمها إلا الله من غم أن يطلبها مني النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يجدها فيبيت جائعاً فاصبح صائماً، وما سألتني عنها ولا ذكرها حتى الساعة (٢٠).

ولقد جاءه (صلى الله عليه وآله) ابن خولى بأناء فيه غسل ولبن فأبى أن يشربه، فقال: شرتان في شربة وإناءان في إناء واحد، ثم قال: ما أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأحب التواضع، فإن من تواضع لله رفعه الله (٢١).

وكان يحب الدهن ويكره الشعث ويقول: إن الدهن يذهب البؤس (٢٢).

وكان (صلى الله عليه وآله) يتطيب بالمسك حتى يرى ويبصه في مفرقه.

وكان يستحمر بالعود القماري، وكان يعرف في الليلة المظلمة قبل أن يرى بالطيب، فيقال: هذا النبي (صلى الله عليه وآله) (٢٣).

وكان لا يعرض عليه طيب إلا تطيب به ويقول: هو طيب ريحه خفيف محمله، وإن لم يتطيب وضع إصبعه في ذلك الطيب (٢٤).

وكان (صلى الله عليه وآله) ينظر في المرأة ويرجل جمته ويمتشط، وربما نظر في الماء وسوى جمته فيه، ولقد كان يتحمل لأصحابه فضلاً على تحمله لأهله، وقال ذلك لعائشة حين رآته ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها ويسوي فيها جمته وهو يخرج إلى أصحابه، فقالت: بأبي أنت وأمي تتمرء في الركوة وتسوي جمتك وأنت النبي وخير خلقه فقال: (إن الله تعالى يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيأ لهم وتحمل) (٢٥).

وكان لا يفارقه في أسفاره قارورة الدهن والمكحلة والمقراض والمرأة والمسواك والمشط.

وفي رواية: تكون معه الخيوط والإبرة والمخصف والسيور (٢٦).

وكان (صلى الله عليه وآله) إذا لبس ثوباً جديداً قال: (الحمد لله الذي كساني ما يوارى عورتى، وأتحمّل به في الناس).

وكان إذا نزع من مياصره أولاً (٢٧).

وكان (صلى الله عليه وآله) إذا لبس ثيابه واستوى قائماً قبل أن يخرج قال: (اللهم بك استترت، وإليك توجهت، وبك اعتصمت وعليك توكلت، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي، اللهم اكفني ما أهمني، وما لا أهتم به، وما أنت

أعلم به مني، عز جارك، وجل ثنائك، ولا إله غيرك، اللهم زدني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجهني للخير حيث ما توجهت) ثم يندفع لحاجته(٢٨).

وعن علي (عليه السلام) كان فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) عباءة وكانت مرفقته آدم حشوها ليف فثبتت ذات ليلة، فلما أصبح قال: لقد منعتني الليلة الفراش الصلاة (أي النافلة) فأمر (عليه السلام) أن يجعل بطاق واحد.

وكان له فراش من آدم حشوه ليف، وكانت له (صلى الله عليه وآله) عباءة تفرش له حيثما انتقل وتثنى ثنيتين، وكان (صلى الله عليه وآله) كثيراً ما يتوسد وسادة له من آدم حشوها ليف ويجلس عليها، وكانت له قطيفة فديكة يلبسها يتخشح بها، وكانت له قطيفة مصرية قصيرة الحمل، وكان له بساط من شعر يجلس عليه، وربما صلى عليه(٢٩).

وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره، وكان يستاك إذا أراد أن ينام ويأخذ مضجعه(٣٠). وفي حديث: أنه أعتزل (صلى الله عليه وآله) نساءه في مشربة (والمشربة العلبة)(٣١) فدخل عليه رجل وفي البيت أهب(٣٢) عطنة(٣٣) قرظ(٣٤) والني (صلى الله عليه وآله) نائم على حصير قد أثر في جنبه فوجد الرجل ريح الأهب، فقال: يا رسول الله ما هذه الريح؟.

قال: هذا متاع الحي(٣٥) فلما جلس النبي (صلى الله عليه وآله) قد أثر الحصير في جنبه فقال الرجل: أما أنا فأشهد أنك رسول الله ولأنت أكرم على الله من قيصر وكسرى وهما فيما هما فيه من الدنيا وأنت على الحصير قد أثر في جنبك.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أما ترضى أن يكون لهم الدنيا ولنا الآخرة(٣٦). وعن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أفطر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عشية خميس في مسجد قبا فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعس مخيض بعسل، فلما وضعه على فيه نحاه، ثم قال: (شرابان يكتفي بأحدهما من صاحبه لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله، فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذّر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله)(٣٧).

وعن طلحة بن زيد، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ما أعجب رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها جائعاً خائفاً(٣٨).

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أم سلمة (رض) فقربت إليه كسرة، فقال: هل عندك أدام؟ فقالت: لا يا رسول الله ما عندي إلا خل(٣٩). فقال (صلى الله عليه وآله): نعم الأدام الخل ما افتقر بيت فيه خل.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا مشى مشى مشياً يعرف أنه ليس بمشي عاجز ولا بكسلان (٤٠).

إكرام النبي (صلى الله عليه وآله) للناس

عن جرير بن عبد الله قال: لما بعث النبي (صلى الله عليه وآله) أتيته لأبأبعه، فقال لي: يا جرير لأي شيء جئت؟ قال: قلت: جئت لأسلم على يديك يا رسول الله.

فألقى لي كساءه، ثم أقبل على أصحابه فقال: (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) (٤١).

وعن عمار بن حيان قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتته أخت له من الرضاعة، فلما نظر إليها سرّ بها وبسط ملحفته لها فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت، ثم جاء أخوها فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال: لأنها كانت أبرّ بوالديها منه (٤٢).

حق الحيوان

روي: أن النبي (صلى الله عليه وآله) جلس يوماً يأكل رطباً فكان فأكل بيمينه وامسك النوى بيساره ولم يلقه في الأرض فمرت به شاة قريبة منه فأشار إليها بالنوى الذي في كفه، فدنت إليه وجعلت تأكل من كفه اليسرى، ويأكل هو بيمينه، ويلقي إليه النوى حتى فرغ وانصرفت الشاة حينئذٍ (٤٣).

وعن موسى بن جعفر، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال علي (عليه السلام): (بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتوضأ إذا لاذ به هر البيت، وفعرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنه عطشان فأصفي إليه الإناء حتى شرب منه الهر وتوضأ بفضله) (٤٤).

ورأى (صلى الله عليه وآله) ديكاً بدون دجاجة فقال (صلى الله عليه وآله) لصاحبه هلا اتخذت له أهلاً.

ونامت هرة على كفه (صلى الله عليه وآله) فلما أراد القيام قطع كفه لئلا تنزعج الهرة.

قضايا اجتماعية

عن سفيان بن عتيبة، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث:

إن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (من ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، ومن ترك مالا فلورثته).

فالرجل ليست له على نفسه ولاية إذا لم يكن له مال وليس له على عياله أمر ولا نهي إذا لم يجر عليهم النفقة والنبي (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) ومن بعدهما الزمهم هذا فمن، هناك صاروا أولى بهم من أنفسهم وما كان سبب إسلام عامة اليهود إلا من بعد هذا القول من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأنهم آمنوا على أنفسهم وعلى عيالاتهم (٤٥).

وعن داود بن عبد الله بن محمد الجعفري، عن أبيه: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان في بعض مغازبه فمر به ركب وهو يصلي فوقفوا على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسائلوهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله) ودعوا وأثنوا، وقالوا: لولا أنا عجال لانتظرنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فافروا منا السلام ومضوا

فانفتل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مغضباً، ثم قال لهم: يقف عليكم الركب ويسألونكم عني ويبلغوني السلام، ولا تعرضون عليهم الغداء، ليعز على قوم فيهم خليلي جعفر أن يجوزوه حتى يتغدوا عنده (٤٦). وعن بحر السقا قال: قال لي أبو عبدالله (عليه السلام): يا بحر حسن الخلق يسر. ثم قال: ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة.

قلت: بلى، قال: بينما رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذات يوم جالس في المسجد إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي (صلى الله عليه وآله) فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي (صلى الله عليه وآله) شيئاً حتى فعلت ذلك ثلاث مرات، فقام لها النبي (صلى الله عليه وآله) في الرابعة وهي خلفه فأخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت، فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً، ولا هو يقول لك شيئاً ما كانت حاجتك إليه؟ قالت: إن لنا مريضاً فأرسلني أهلي لآخذ هدبة من ثوبه يستشفي بها، فلما أردت أخذها رأيتني، فقام فاستحييت أن آخذها وهو يراني، وأكره أن أستأمره في أخذها فأخذتها (٤٧).

وعن عجلان، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه فأرسلت إليه امرأة ابناً لها، فقالت: انطلق إليه فأسأله فإن قال لك: ليس عندنا شيء، فقل: أعطني قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به إليه (٤٨).

وعن عبد الله بن طلحة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: أن رجل من بني فهد كان يضرب عبداً له والعبد يقول: أعوذ بالله فلم يقلع عنه، فقال: أعوذ بمحمد فأقلع عنه الضرب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يتعوذ بالله فلا تعيده ويتعوذ بمحمد فتعيده، والله أحق أن يجار عائذه من محمد. فقال الرجل: هو حر لوجه الله.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): والذي بعثني بالحق نبياً لو لم تفعل لواقع وجهك حر النار (٤٩). وعن الفضل قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) يريد حاجة، فإذا بالفضل بن العباس قال: فقال احملوا هذا الغلام خلفي قال: فاعتنق رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيده من خلفه على الغلام، ثم قال: يا غلام خف الله تجده أمامك يا غلام خف الله يكفك ما سواه (٥٠).
العفو العام

عن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتى باليهودية التي سمّت الشاة للنبي (صلى الله عليه وآله) فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت: إن كان نبياً لم يضره وإن كان ملكاً أرحت الناس منه. قال: فعفا رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنها (٥١).

وعن الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرّ في بعض طرق المدينة وسوداء تلقط السرّقين، فقبل لها: تنحي عن طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقالت: إن الطريق لمعرض، فهمّ بها بعض القوم أن يتناولها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): دعوها فإنها جبارة (٥٢). كما أنه (صلى الله عليه وآله) عفا عن قاتل عمه حمزة (وحشي)، وعن قاتل ابنته زينب (عليها السلام) (هبار)، إلى غير ذلك من أخبار عفوه (صلى الله عليه وآله).

- ١ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٤ .
- ٢ . المصدر السابق: ص ٩٩ .
- ٣ . المصدر السابق: ص ٢٣٥ .
- ٤ . المصدر السابق: ص ٢٣٦ .
- ٥ . المصدر السابق .
- ٦ . المصدر السابق .
- ٧ . المصدر السابق: ص ٢٤٠ .
- ٨ . المصدر السابق .
- ٩ . المصدر السابق .
- ١٠ . المصدر السابق .
- ١١ . المصدر السابق: ص ٢٤١ .
- ١٢ . المصدر السابق: ص ٢٤٢ .
- ١٣ . المصدر السابق .
- ١٤ . المصدر السابق: ص ٢٤٥ .
- ١٥ . المصدر السابق: ص ٢٦٢ .
- ١٦ . المصدر السابق: ص ٢١٦ .
- ١٧ . المصدر السابق: ص ٢٦٩ .
- ١٨ . بحار الأنوار: ج ٥٩، ص ٤٢٠ .
- ١٩ . المصدر السابق: ج ١٦، ص ٢٤٦ .
- ٢٠ . المصدر السابق .
- ٢١ . المصدر السابق: ص ٢٤٧ .
- ٢٢ . المصدر السابق .
- ٢٣ . المصدر السابق: ص ٢٤٨ .

- ٢٤ . مستدرك الوسائل: ج ١، ص ٤٢٣ .
- ٢٥ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٤٩ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٢٥٠ .
- ٢٧ . المصدر السابق: ص ٢٥١ .
- ٢٨ . المصدر السابق .
- ٢٩ . المصدر السابق: ص ٢٥٣ .
- ٣٠ . المصدر السابق .
- ٣١ . العلية: الغرفة .
- ٣٢ . اهب: الجلد .
- ٣٣ . عطنة: المتنتنة .
- ٣٤ . قرظ: ورق يدبغ به .
- ٣٥ . أي متاع الإنسان الحي .
- ٣٦ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٥٧ .
- ٣٧ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٢٠ .
- ٣٨ . الكافي: ج ٢، ص ١٢٩ .
- ٣٩ . المصدر السابق: ج ٦، ص ٣٢٩ .
- ٤٠ . مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٢٣٩ .
- ٤١ . المصدر السابق: ص ٣٩٦ .
- ٤٢ . بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٢٦٧ .
- ٤٣ . المصدر السابق: ج ١٦، ص ٥٤٢ .
- ٤٤ . مستدرك الوسائل: ج ١، ص ٢٢٠ .
- ٤٥ . الكافي: ج ١، ص ٤٠٦ .
- ٤٦ . المصدر السابق: ج ٦، ص ٢٧٥ .
- ٤٧ . المصدر السابق: ج ٢، ص ١٠٢ .
- ٤٨ . المصدر السابق: ج ٤، ص ٥٦ .
- ٤٩ . وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ٥٨٢ .
- ٥٠ . بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٨٩ .
- ٥١ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٥١٩ .
- ٥٢ . المصدر السابق: ج ١١، ص ٣٠٣ .

الفصل الثامن: تخلف المسلمين في القرون الأخيرة

مقدمة

السؤال الكبير الذي يتردد على كل الشفاه، وي طرح في كل الأندية هو: لماذا لم يتمكن المسلمون من النهوض حتى ينقذوا أنفسهم من براثن الشرق والغرب أولاً وحتى ينقذوا سائر البشر ثانياً مع ما للإسلام من المناهج الصحيحة والحريات الواسعة، على ما قال سبحانه: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) (التوبة: ٣٣).

وقال سبحانه: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (الأعراف: ١٥٧).

ومع أن جماعات كثيرة من المسلمين حاولوا ذلك فلم تجد تلك المحاولات؟ وليس هذا سؤالاً فحسب، وإنما نحن بصدد بيان العلاج للمشكلة بما نراه مناسباً لها، حتى نتمكن من صياغة العالم الجديد الذي يعمه الإيمان والحرية والسلام والرفاه.

والجواب على هذا السؤال يتلخص في عدة عوامل سنذكرها تباعاً.

العامل الأول

انحراف الحكومات التي تدعي الإسلام

وهذا ما شاهده المسلمون أولاً، والعالم ثانياً من المظالم التي اقترفتها جملة من الحكومات (الإسلامية) ! ابتداءً من معاوية ومن سبقه من الغاصبين وانتهاء بسقوط آخر خليفة عثماني في تركيا، فقد حمل أكثرية أهل العالم انطباعات سيئة عن الحكومة الإسلامية ظناً منهم أن (الحكومة الإسلامية) هي التي أدارها الأمويون والعباسيون ومن إليهم فرأى الناس (مسلمين وغير مسلمين) أن في قيام الحكومة الإسلامية إعادة للمأساة، ولذا أخذت الجلود تقشعر من اسم (الخليفة) و(الأمير) و(الحكم الإسلامي) وما أشبهه.

ومن الواضح أن ذلك لم يكن ذنب الإسلام، وإنما كان ذنب المسلمين الذين رضوا بأن يحكمهم مثل أولئك الحكام المنحرفين عن الإسلام وقد ورد في حديث تقدم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجوب عزل الحكام الظالمين لكن المسلمين . غالباً . خنعوا وخضعوا وقبلوا بحكم أولئك لأسباب مختلفة، فقسم طمعاً، وقسم خوفاً وقسم حياداً وصارت النتيجة:

أولاً: تلك المجازر العظيمة والمظالم الهائلة في كل البلاد الإسلامية.

ثانياً: تلوث سمعة الحكومة الإسلامية، فأصبحت الحكومة الإسلامية تحمل لون (الظلم) و(العدوان) و(الاستهتار) ونحو ذلك، واتسم الحاكم الإسلامي في أذهان المسلمين وغير المسلمين بالخليفة المستبد الذي يصادر أموال الناس ويقتلهم بغير ذنب وبدون محاكمة، ويهتك الأعراض، ويمأأ بيوته بالجواري والقيان والخصي، ويشرب الخمر، ويعربد ويلعب القمار، ويخاف منه حتى أقرب المقرين إليه، ولا يستشير من أحد شيئاً، ويقتل الصالحين ويترك الفاسقين ويعمل على تأخر البلاد والعباد، ومن الواضح أن مثل هذا الحكم لا يرغب إليه أحد.

نماذج من فساد الأمويين

ولا بأس بذكر جملة من الأعمال التي ارتكبتها الأمويون والعباسيون ويقاس على تلك الأعمال ما ارتكبه العثمانيون ومن إليهم من المآثم والموبقات، حتى يعرف مدى ثقل التركة التي ورثناها نحن المسلمين من هؤلاء مما سبب تنفر كثير من أهل العالم من حكم الإسلام مثلاً:

جرائم معاوية بن أبي سفيان

قال معاوية على المنبر في الكوفة: (ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا . إلى أن قال . وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم).

ويذكر الدميري في كتابه (حياة الحيوان): إن معاوية وجد رجلاً يزني بجاريته فقال له: ما جرأك على هذا!

قال الرجل: حلمك يا أمير المؤمنين! فعفا عنه وأعطاه تلك الجارية!

وقد احتال معاوية لكي يطلق رجل زوجته (ارينب) ليزوجها لابنه يزيد لما بلغه من جمالها.

وجرائم معاوية كثيرة من خدعه وحبيله، ومحاربه مع علي (عليه السلام)، وإرساله السم إلى المناوئين له ولو كان الإمام الحسن (عليه السلام) الذي قال فيه وفي أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)(١).

وخيانته بجعدة التي وعدا أن يزوجهها يزيد إذا قتلت الإمام الحسن (عليه السلام) بالسم، ورمي جنازة الإمام (عليه السلام) بالسهم على يد عامله مروان، وقتله مالك الأشر عن طريق السم، وقوله: (إن لله جنوداً من العسل) !

واستحلاله البلاد الإسلامية بقتل المسلمين وحرقتهم . كما أحرق ذات مرة في اليمن أربعين ألفاً من المسلمين . وإباحته قتل الأطفال ونهب الأعراض . كما فعل عامله في اليمن حيث قتل أولاد عبيد الله . وسبّه للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وللخيرة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وشربه الخمر علناً حتى أنه كان يهدى إليه زقاق الخمر . حتى خرقها أبو الدرداء في قصة مشهورة . واستخلافه ليزيد بالقسر (يزيد المعروف بكل موبقة وإثم) وحمله على رقاب المسلمين بالقوة مما أسفر عن أسوأ النتائج، وجعله الملوكية كسروية وقيصرية من دون استشارة من الأمة ولا إشراك لأهل الحل والعقد، وعلى سنن معاوية سار جملة من الأمراء مثل ذلك الأمير الذي قال: (إن السواد (العراق) بستان لقريش) وكان ينهب المال لنفسه ولذويه ويترك المسلمين وغير المسلمين جياً، ومثل الأمير الآخر الذي كان يشرب الخمر ويصلي صلاة الصبح أربعاً، ويستفرغ الخمر في مسجد الكوفة ويقراً في صلاته:

علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا

وغير ذلك من أمثال هذه المآثم والموبقات التي كان الخلفاء والأمراء يرتكبونها.

يزيد يسير على خطى أبيه

ولما وصل الأمر إلى يزيد أكثر من الآثام والموبقات بقتل ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عطشاناً، وقتل أصحابه معه، وتنكيله بجثثهم أسوأ تنكيل، وحرقت خيامهم، وذبح أطفالهم، وسبي نسائهم من بلد إلى بلد وهن عقائل الوحي، وقطع رأس الحسين (عليه السلام) ورؤوس أصحابه وأولاده وأنصاره وجعلها على رؤوس الرماح من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى الشام، ثم إحضاره الرأس الشريف في مجلسه، وشربه الخمر، ونكته ثانياً الإمام (عليه السلام) بقضيب كان بيده، وإنشاده الأشعار الإلحادية كقوله:

لما بدت تلك الرؤوس وأشرقَت تلك الشمس على ربي جيرون

نعب الغراب فقلت: صح أو لا تصح فلقد قضيت من النبي ديوني

وقوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا: يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من سادتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا خير جاء ولا وحي نزل

وكان يزيد شريفاً للخرم، لاعباً بالقمار، يعمل بدماء الناس وأعراضهم ما يشاء، يزني بأرحامه كعمته وغيرها، وقد هدم الكعبة بالمنجنيق في قصة مشهورة، وأباح المدينة المنورة. بلد رسول الله (صلى الله عليه وآله) والخيرة من المسلمين والصحابة الأطهار. جيشه فزنوا بالنساء حتى في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأجروا الدماء الغزيرة حتى في نفس المسجد، ونهبوا الأموال، وقتلوا الأطفال في قصة الحرة المشهورة.

دور الحجاج في الانحراف

وعلى خطى معاوية ويزيد: سار الحجاج فعندما دخل الحجاج الكوفة. كوالٍ من قبل الخليفة الأموي الذي كان بيده نصف العالم الإسلامي الشرقي إلى باكستان. أخذ معه مجموعة من الجلادين وأمرهم أن يقفوا شاهرين سيوفهم عند أبواب المسجد وأن ينفذوا أوامره ثم صعد المنبر وعمامته تستر وجهه وقد غصّ المسجد بالناس للاستماع إلى الوالي الجديد فقرأ الحجاج رسالة عبد الملك ثم سكت، ثم قرأ العبارة التي فيها سلام عبد الملك إلى أهل الكوفة مرة أخرى وسكت، وكان ينتظر من الناس أن يردّوا الجواب على سلام الخليفة ولكن من دون جدوى، وفي المرة الثالثة وضع عمامته فبان وجهه وأنشد هذا البيت:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

فلما وضعها عرف الناس أنه الحجاج المجرم المعروف فقد كانت له سوابق رهيبة في نفوس المسلمين ثم تكلم وقال: (ويلكم عبد الملك يبلغكم السلام ولا تجيبونه؟).

فوقف الناس احتراماً للخليفة خوفاً، وأجابوا: (وعليك السلام وعلى أمير المؤمنين السلام).

ولكن الحجاج استمر في كلامه قائلاً: (اسمعوا أيها الناس إن عليكم أن تجهزوا جيشاً للأهواز) وسكت.

فقام جماعة من الشباب واعتذروا.

فقال الحجاج للجلادين الذين كانوا ينتظرون أوامره بشغف: (إضربوا أعناقهم) وبعد لحظات كانت الرؤوس تتطاير في الهواء وكانت الجثث تملأ المسجد.

ثم قام جماعة من الشيوخ واعتذروا فأمر الجلادين فضربوا أعناقهم، وكل من أراد الهروب أخذه الجلادون الذين كانوا على أبواب المسجد فقتلوه.

وقد بدأ الحجاج الكلام قبل ضربه الناس بقوله: (ألا وإني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني أرى الدماء تترقق بين العمائم واللحى).

وبهذا الأسلوب خضع الناس للحجاج وأصبح هذا المجرم إلماً جديداً يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، يقتل وينهب، ويشرب الخمر ومعه في كل ذلك جلاوزته وزملاؤه.

ولم يكن الحجاج ليقصر على قتل المجرم، بل كان يقتل كل من أساء به الظن لا هذا فقط، بل كان يقتل الأبرياء لإرواء نفسه المتعطشة للدماء فكان يأمر بالشخص فيقتل، ثم يمدّ على جسمه السماط ويأكل ويقول: إني ألتذ

أن أرى أطراف السماط تتراقص أمامي على أجساد القتلى وأن أكل على مثل هذا السماط.

(الله أكبر) جريمة جزاؤها: القتل!

وذات مرة سمع الحجاج وهو على شرفة قصره رجلاً من المارة يقول: (الله أكبر) (الله أكبر) فدعاه الحجاج وعندما

مثل أمامه جرى بينهما الحوار التالي:

أين كنت؟

قال الرجل: في المسجد.

ماذا كنت تفعل؟

قال الرجل: أصلي العشاء.

والى أين كنت تذهب؟

قال الرجل: إلى البيت.

وماذا كنت تقول؟

قال الرجل: لم أقل شيئاً.

بل قلت: الله أكبر.

قال الرجل: نعم قلته.

قال الحجاج: ماذا قصدت من قولك؟

قال الرجل: لم أقصد شيئاً وإنما قصدت معنى الله أكبر.

قال الحجاج: لا، لا بد أنك قصدت شيئاً آخر.

قال الرجل: لا، لم يكن لي أي قصد آخر.

قال الحجاج: إنك قصدت الإثارة ضدنا، أليس كذلك؟

قال الرجل: لا والله.

فقال الحجاج: لا ينفك الحلف الكاذب، إن إصرارك دليل على قصدك الفاسد!

ثم أمر جلاديه أن يسجنوه تلك الليلة، وينكلوا به الى الصباح.

وفي الصباح رأى الناس على باب المسجد جلادين يجردون الرجل من ثيابه، ويطوفون به ركباً على حمار بشكل

معكوس وعند الظهر أوقفوه على باب المسجد وأمام مرأى الناس تقدم إليه الجلادون وشدوا جبهته بالجدار ثم

أخرجوا فكه الأسفل الذي تحرك بكلمة الله أكبر، ثم كسروا عظام وجهه وجمجمته بالفؤوس، ثم قطعوا رأسه،

وعلقوا المتبقي منه على باب المسجد مصلوباً.

سجون الأبرياء مقابرهم

وينقل التاريخ أن الحجاج وضع جماعة من الشباب الأبرياء في السجن، وأمر أن تسد في وجوههم منافذ النور

والهواء حتى لا يميزوا الليل من النهار، كما أمر أن لا يطعموهم الطعام إلا بعد مزجه بالرمال، وأن لا يسقوهم الماء

إلا بعد خلطه بالملح، فمات أحدهم، فرفض الحجاج أن يواروا جثته حتى تفسخت ومات الثاني والثالث والرابع

والخامس إلى الرجل السادس عشر وأخبروا الحجاج بذلك فلم يأذن بإخراج الجثث، وإنما أمر أن يهدموا السقف عليهم ليتحول السجن إلى مقبرة لهم وليموت الباقون مع رفاقهم. وهكذا كان.

صور رهيبة من سجون الحجاج

وكان سجن الحجاج يحتوي على مائة وعشرين ألفاً بين رجل وامرأة، عارين من اللباس، يعيشون تحت الشمس اللافحة نهاراً والبرد القارس ليلاً.

وكان قد أمر السجانين أن يكونوا على سور السجن فإذا أراد أحد أن يتكئ على الحائط في وقت الظل رموه بالنشاب من على السور حتى يتحول إلى الشمس.

وكان أحدهم إذا تكلم وتضرع يتلو عليه السجان قوله تعالى: (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) (المؤمنون: ١٠٨)

كما أن الحجاج زار ذات مرة السجن فلما ضج السجناء قرأ نفس الآية الكريمة.

وكان يأمر أن يعطي السجناء الخبز الممزوج بالرماد والماء الممزوج بالملح.

وكان سجنه يسبب تغيير لون الإنسان الذي يعيش فيه لمدة، حتى أن الأمهات لم يكن يعرفن أولادهن إذا زرهن بعد إصرار كثير لتغير وجوههم وعدم حلق رؤوسهم وقص أظفارهم، إذ كان كل ذلك ممنوعاً في داخل سجون الحجاج.

وكانت المرافق في السجن عارية مكشوفة، فكل سجين يجب عليه أن يتخلى حيث يراه الناس.

إلى غير ذلك من موبقات سجن الحجاج.

يخرج قلب الرجل ليرى هل هو أكبر؟

وينقل لنا التاريخ أن موظف ضرائب (جابي ضرائب) من قبل الحجاج دخل على إنسان وطالبه بركة أغنامه فقال له الرجل: ليس عندي زكاة لأن ماشيتي ماتت بسبب البرد.

فرجع الموظف إلى الحجاج، وبدل أن يخبره بالحقيقة ذكر أن الرجل يرفض الإيمان بالزكاة.

واستغل الحجاج الموقف وأمر بإحضار الرجل وقال له: كيف لا تؤمن بالزكاة؟

قال الرجل: والله إنني مسلم، ولا يسع المسلم إلا أن يؤمن بالزكاة.

فقال له الحجاج: إذا كيف قلت إنك لا تؤمن بالزكاة؟

قال الرجل: لم أقل ذلك إنما قلت ليس عندي ما يتعلق به الزكاة.

ولم يقتنع الحجاج فقال للرجل: لا بد أن يكون لك قلب أكبر من قلوب الآخرين ولهذا تجرأت على رد كلامي!

ثم صاح: أيها الجلاد اخرج لي قلبه!

وبعد لحظات كان النطع ينتظر الرجل حيث شدوا يديه، وربطوا رجليه، ثم مدوه وشقوا صدره وأخرجوا قلبه وقدموه إلى الحجاج وكان القلب لا يزال يضطرب.

ولما أخذه الحجاج ضحك ضحكة صفراء ثم قال: لا، لم يكن قلبه أكبر ردوا إليه قلبه وادفنوه.

وهكذا ذهب الرجل ضحية طيش هذا الجبار.

.. ويقتل منقذه!

وذات مرة غرق الحجاج في الفرات فنجاه رجل من الغرق، ولما خرج قال الحجاج: لماذا نجيتني؟

فأجابه الرجل: بأنه رأى إنساناً يغرق فأراد نجاته.

قال الحجاج: لا، إنك لم تنجني لأنني الحجاج، وإذا كنت تعلم أني الحجاج لم تكن تنجيني فأنت تستحق القتل ثم أمر بقتله.

ويحرق الأموات!

وفي التاريخ: أنه نبش اثنين وعشرين ألفاً من القبور الموجودة في ضواحي الكوفة، وأحرق بعض الجثث.

طرق مبتكرة في التعذيب

كما أنه كان يعذب الناس بالقصب، فكان يأمر بأن يقطع القصب نصفين، ثم يأمر أن تلف تلك القصبات من جهة القطع على جسم الرجل المغضوب عليه شداً محكماً ثم يأمر الجلادين أن يجروها قصبه قصبه حتى يتناثر لحم الرجل ويصيبه ألم كبير ويموت في مكانه.

إلى غيرها من الموبقات التي يندى لها جبين الإنسانية في كل زمان ومكان.

زياد وابنه يواصلان المسيرة!

ونحو الحجاج زياد بن أبيه وابن زياد، حيث أنهما أسرفا في القتل والتعذيب وشرب الخمر وانتهاك الأعراض.

وقصة قتل الإمام الحسين (عليه السلام) التي أمر بها يزيد.

وقصة منعه الناس من التحول في البصرة وأمره بقتل الذين خالفوا أمره حتى بلغ عدد المقتولين في يوم واحد ستمائة قتيل جمعت رؤوسهم على باب داره كتلة كبيرة مشهورة.

إعدام بلا إنذار

ولما أعلن ابن زياد النفي العام لأهل الكوفة نحو قتال الحسين (عليه السلام) رأى بعض جلاوزته في أزقة الكوفة

رجلاً فأخذوه وجاؤوا به إلى ابن زياد فقال له ابن زياد: لماذا لم تذهب إلى قتال الحسين؟

قال: والله إني لست من أهل الكوفة، إني من أهل الشام ولا أعلم شيئاً، وإنما دخلت الكوفة صباح اليوم ولي مأرب في هذا البلد، ولو كنت أعلم الأمر لهرعت إلى قتاله.

قال ابن زياد: إني أعلم أنك لصادق ولكن أيها الجلاوزة خذوه واقتلوه، واصلبوا جثته وعلقوا رأسه على باب القصر، حتى لا يجرأ إنسان على مخالفة الأمير.

وبعد لحظة كان الرأس معلقاً على باب القصر والجثة معلقة بجانبه.

سحب القتلى في الأسواق

وكذلك قصة قتله لمسلم بن عقيل (عليه السلام) وهاني بن عروة (رضوان الله تعالى عليه) وتعليق رأسيهما على

باب القصر، وأمره جلاوزته بسحب جثماتهما في الأسواق والأزقة من أرجلهما مشهورة.

إلى غير ذلك من موبقات وآثام هذا الجلاد الذي كان يحكم باسم الإسلام من قبل الأمويين.

الوليد يسبح في أحواض الخمر

وكان الوليد . الخليفة الأموي . يملأ الحوض بالخمر فيقع في الحوض هو وجواريه ويشربون من الخمر الموجودة في الحوض حتى يظهر النقص على حافظه.

الجارية تؤمّ الرجال

وكان يقارب جواريه ولا يغتسلون وإذا حان وقت الصلاة عمم الجارية المجنبة وأرسلها إلى المسجد لتؤم الناس صلاة الجماعة في المسجد.

الوليد يمزق القرآن

وقصة رميه القرآن وتمزيقه له مشهورة، فإنه ذات مرة تفأل بالقرآن الحكيم فخرج في رأس الصفحة قوله تعالى: (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) (إبراهيم: ١٥ - ١٧).

فغضب وجعل القرآن في الحائط وأخذ يرميه حتى مزقه قطعة قطعة، وهو ينشد هذا الشعر:

تهددني بجبار عنيد؟ فما أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

مفاسد خلقية

وتذكر بعض التواريخ أنه كان يزني بمحارمه، كما أنه كان يمارس الشذوذ الجنسي حتى مع أخيه في قصص مشهورة، وذات مرة أراد أن يزني ببنته فنهته مريبتها فأنشد:

من راقب الناس مات هماً وفاز باللذة الجسور

عيّات من جرائم العباسيين

ولما انتهى دور الأمويين ووصل الدور إلى العباسيين لم ينقصوا عنهم في عمل أو جرم بل زادوا عليهم في الجرائم والموبقات.

فقد زخر زمان العباسيين بالقتل الفردي والجماعي، والتمثيل، والتعذيب، وقطع الرؤوس، وانتشر فيه الإرهاب، والقتل على الظن والتهمة، واستئثار الحكام بالفيء ومصادرة الأموال بالإثم، والاستهانة بكرامات الناس، حتى أصبح السجن والضرب والقتل والتعذيب ومصادرة الأموال لأتفه الأسباب شيئاً عادياً وأصبح النظام إمبراطوريا وراثياً دكتاتورياً يرثه فاسق عن فاسق وخليع عن خليع ومجرم عن مجرم، وأصبح الولاة . كأسيادهم العباسيين . يعبثون بالناس وبالأموال، ويتصرفوا كيف شاءوا، يبنون القصور الشاهقة الوسيلة بأموال الكادحين، في الوقت الذي لا يجد فيه الناس حتى لقمة من الخبز، وانتشرت في قصورهم الجحون واللهو والطرب والخمر والميسر، وغصت بأدوات اللهو، وبالمغنيين والمطربين، وبالشعراء المتملقين المتعبدين للدرهم والدينار، واشتغل حكام الولايات باقتناء الجوارى . اقتداءً بأسيادهم . كما أنهم اتخذوا عادة إلباس الغلمان ملابس الفتيات، وإلباس الفتيات ملابس

الغلمان، وكان يرقص في مجالسهم العشرات والمئات من هؤلاء أمام الخاصة والعامة، وكانوا يتشبهون بنساء الناس والفتيات والغلمان.

ماذا جرى في فخ؟

وفي قصة (فخ) قتل العباسيون الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقطعوا رأسه ورؤوس أصحابه، وسبوا نساءهم إلى الخليفة العباسي، فلما وصلوا إليه والمجلس غاص بالناس أخذ الخليفة (وباسم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وباسم الإسلام) يقتل النساء بالسيف في مجلسه.

الجماجم تملأ خزينة الخليفة!

ولما مات أحد الخلفاء العباسيين قام غيره مكانه فسأل الخليفة الجديد بعض نساء القصر عن خزائن الخليفة السابق فدلته على باب سرداب، فلما فتح الخليفة الجديد الباب ودخل في السرداب رآه بهواً كبيراً جداً وهو ممتلئ بالرؤوس المسقطة وفي كل رأس ورقة معلقة بالأذن . بواسطة خيط . مكتوب عليها إسم صاحب الرأس وقد امتلأ السرداب بالديدان وتعفن جو السرداب بشكل يورث التقزز وشوهت الرؤوس والوجوه تشويهاً كبيراً وسالت منها الدماء والقيح، فغشي على الخليفة وأخرج من السرداب.

ثم قالت له تلك المرأة: إن الخليفة الذي سبقك كان يقتل الناس ويقطع رؤوسهم، ثم يضع رؤوس الكبار منهم في هذا السرداب وفي سراديب أخرى، وبهذا الشكل استقام الحكم له، فإذا أردت أن يستقيم الحكم لك فعليك باتباع سيرته.

وهكذا كان.

الإرهاب حتى مع الأصدقاء

وإذا علمنا كيف كان العباسيون يعملون مع أصدقائهم نعرف ماذا كانوا يعملون مع عامة الناس أو مع أعدائهم؟ فمثلاً: يذكر التاريخ أن (الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي) الذي كان من أخلص المقربين من هارون أمر هارون أن يجرد من ثيابه ويضرب ويهان ويلعن في مجلس عام ولم يكن ذنبه إلا أنه رقه بعض الترفيه عن الإمام الكاظم (عليه السلام) في السجن وخفف عنه بعض الآلام فلم يقيده كما شاء هارون، ولم يضيق عليه كما ضيق عليه من بعد ذلك السندي.

وكذلك ما فعله هارون بالبرامكة . الذين لم يقيم حكمه إلا على سواعدهم . حيث قتل رجالهم وصادر ممتلكاتهم وترك نساءهم حتى لم يجدوا لقمة عيش، ولا كسوة جلد، ونكل بكل من نطق باسمهم في قصص مشهورة في التاريخ.

الخوف يعم المقربين

والفضل بن الربيع . وكان من أبرز الساسة المقربين لهارون ومن أعمدة البلاط . يقول في قصة عن مدى خوفه من هذا الخليفة مع شدة قربه إليه:

كنت ذات ليلة في فراشي مع بعض جواربي، فلما كان نصف الليل سمعت حركة باب المقصورة، فراعني ذلك، فقالت الجارية: لعل هذا من الريح، فلم يمحض إلا يسير حتى رأيت باب البيت الذي كنت فيه قد فتح وإذا بمسرور الكبير خادم هارون الخاص قد دخل عليّ فقال لي: أجب أمير المؤمنين ولم يسلم عليّ فيئست من نفسي، وقلت: هذا مسرور ودخل علي بلا إذن، ولم يسلم، فليس هو إلا القتل وكنت جنباً ولم أجسر أن أسأله إنظاري حتى أغتسل فقالت لي الجارية: لما رأيت تحيري وتبليدي ثق بالله عز وجل وانفض فنهضت ولبست ثيابي وأنا أرحف خوفاً، وخرجت معه حتى أتيت الدار فسلمت على هارون حيث رأيته جالسا في بعض غرف القصر، وهو على فراش نومه فرد علي السلام فسقطت. حيث انهارت أعصابي من الخوف. فقال:

تداخلك رعب؟ قلت: نعم فتركني ساعة حتى سكنت (إلى آخر القصة).

ويظهر من هذه القصة مدى الخوف والإرهاب والاستهانة بكرامة الإنسان حتى لأقرب المقربين وان كان من أعمدة السلطة، فيدخل رسول من يسمي نفسه بالخليفة على أقرب المقربين إليه وهو نائم في حجرته مع جاريتته دون استئذان ويخرجه من بيته نصف الليل بدون أن يأذن له حتى في الاغتسال.

الرعب يحكم الجميع

أما سائر الناس فكانوا يرتجفون كالسعفة من هؤلاء الحكام الظلمة.

فقد نقل أن يحيى بن خالد البرمكي لما قدم إلى بغداد لتدبير عملية قتل الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام). الذي كان في سجنهم منذ مدة طويلة. فوجئ الناس به فاستولى الذعر والخوف، وانتشرت الإشاعات، وترقب الناس الشر.

ويذكر العلامة المجلسي (رحمه الله) في قصة هذا الرجل ما هذا نصه:

ثم خرج يحيى بن خالد بنفسه على البريد حتى أتى بغداد فماج الناس وأرجفوا بكل شيء.

فالناس في بغداد الوسيعة والتي بلغ نفوسها عشرة ملايين كما يقوله المؤرخون يرتجفون خوفاً وبموجون ويرجفون بكل شيء من مجيء أحد جلاوزة الخليفة.

وأخيراً.. يبيع دينه!

وقصة أخرى يذكرها أحد جلاوزة هارون وهو (حميد بن قحطبة) يقول: إن هارون لما كان بطوس استدعاه وسأله عن طاعته لأمر المؤمنين؟ فأجاب: إنه يفديه بماله.

ثم أجاب ثانياً: إنه يفديه بماله ونفسه.

وأجاب ثالثاً: إنه يفديه بماله ونفسه وعرضه.

وأجاب رابعاً: إنه يفديه بماله ونفسه وعرضه ودينه وهنا تهللت أسارير هارون لأنه كان يريد منه ذكر (الدين) وكلما كان يسأله منه ذات مرة ولم يجب بالدين كان يقطب وجهه ويرخصه أن يذهب حيث شاء، فلما ذكر اسم

الدين تهلل وجهه، فقال له هارون: خذ هذا السيف وأطع هذا الخادم.

فتناول حميد بن قحطبة السيف وذهب إلى بيت مغلق في وسطه بئر وفي البيت ثلاث غرف مغلقة، فقال له الخادم: افتح هذه الغرفة، ولما فتحها رأى فيها عشرين علويًا من ذرية علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهم مقيدون بالسلاسل والقيود، فطلب الخادم من حميد بن قحطبة قتلهم وإلقائهم في البئر الذي في وسط البيت . وكانت بئرا كبيرة واسعة عميقة . فجاء بهم وهم مغلولون إلى حافة البئر فجعل يضرب أعناقهم واحدا بعد واحد ويلقي جثثهم ورؤوسهم في البئر .

ثم فتح الغرفة الثانية بأمر الخادم ووجد فيها مثل هذا العدد فأمره بقتلهم ففعل بهؤلاء مثل فعلته بأصحاب الغرفة الأولى .

ثم فتح الغرفة الثالثة وفيها مثل ذلك العدد وأمره بقتلهم ففعل .

ولما أراد أن يقتل آخرهم . وهو شيخ كبير السن . قال الشيخ له: يا فلان ماذا تقول لجدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قال لك يوم القيامة لماذا قتلت ستين من ذريتي من غير ذنب؟

فارتجف حميد وأراد أن يترك قتله لكن الخادم زجره وقال له: (أطع الخليفة فيه) فقتله أيضا .

الأعمدة المخوفة

كما أن هارون كان يقتل الناس بالسم والسيف وقد قتل الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بعد سجنه ما لا يقل عن أربع سنوات، وإهانته له وتسليمه إلى السندي بن شاهك الجوسي الذي كان من أقسى جلاوزته، فسجن الإمام (عليه السلام) في المظمورة، وجعل على يديه ورجليه وعنقه قيودا ثقيلة حتى أن بعضهم ذكر أن القيود كانت تساوي أربعمائة كيلو غرام، كما أن السندي بأمر من هارون كان يضرب الإمام (عليه السلام) بالسياط بغير جرم ولا ذنب، وإنما كل ذنبه أنه حفيد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه الإمام الشرعي، والخليفة من الله سبحانه وتعالى على الخلق أجمعين، وأنه كان مشغولا على الدوام بالعبادة والزهد والفضيلة والتقوى إلى أن سقاه السم وقتله مسموما مظلوما، ثم لم يكتف بذلك وإنما أمر بوضع جثمان الإمام (عليه السلام) بكل إهانة على جسر بغداد ثلاثة أيام وكانوا يصيحون على الجنائز بنداء منكر، لكن لما تحرك الموالون للإمام (عليه السلام) في بغداد وخاف هارون من حدوث اضطرابات في البلاد أمر بعض أقربائه وهو سليمان بتدارك الموقف (وكان سليمان أيضاً من المجرمين الذين شهدوا فحاً وقاتل الحسين (عليه السلام) وأصحابه وأهل بيته) فجعلوا ينادون بخلاف ما نادوا أولاً قائلين (إلا من أراد أن ينظر إلى جسد الطيب بن الطيب الطاهر بن الطاهر فلينظر إلى جنازة موسى بن جعفر).

وشيعوا الإمام (عليه السلام) باحترام ظاهري حتى دفن (عليه السلام) في مقابر قریش .

وفي لهو هارون ومجونه وزناه وشربه الخمر وقتله للأبرياء ومصادرته للأموال قصص مشهورة مما سودت معه التاريخ .

إحياء رموز الضلال

والغريب في الأمر أن بعض الجاهلين، وبعض العملاء يقدسون أمثال هؤلاء الحكام الجائرين الظالمين الذين لم يأت في تاريخ الدنيا من المجرمين أسوأ منهم إجراما ويسمون المدن باسمهم (كمدينة المنصور) والشوارع بألقابهم (كشارع الرشيد) في بغداد وما أشبه بينما الواجب أن يفصح هؤلاء، وان لا يذكروا إلا بكل سوء يليق بهم. وهذا يشبه ما فعله عبد الناصر في مصر حيث أحى فرعون والفرعونية، فرعون الذي حارب الله ورسوله وارتكب الجرائم التي سجلها عليه القرآن الحكيم: (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) (القصص: ٤). وما فعله شاه إيران، حيث أحى الجوسية إلى غير ذلك من أمثال هؤلاء العملاء الذين لم يكن لهم هم إلا تحطيم الإسلام وإحياء الفرعونية والنمرودية والمزكية وما أشبه.

الخليفة يقامر ويطالب زوجته بالتعري!

وينقل التاريخ أن هارون قامر مع زوجته ذات مرة على شرط أن أيهما غلب فله ما أراد، فغلب هارون فقال لزوجته إني أريد أن تتعري عن جميع ملابسك ثم تمرى أمام الجنود والحرس والخدم عارية! وكلما أصرت الزوجة على ترك هذا الفعل المنكر والطلب الجنوني أصر هارون على ذلك ففعلت ما أراده هارون! ومن لم تكن له غيرة على زوجته، حتى أنه يطالبها بمثل هذا العمل الشنيع كيف تكون غيرته بالنسبة إلى سائر أعراس الناس!!؟

العهد الأسود

وفي بغداد كانت المخازي تملأ مجالس هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا يخافون الله سبحانه وتعالى ولم يكونوا يراعون شعور الناس.

وقد كثر الفساد في بغداد والفقير والمناوشات والثورات حتى يصح أن يسمى عهد هارون (بالعهد الأسود) على خلاف ما نفتح فيه الغرب وسموا عهده ب(العهد الذهبي) مغترين بقوله ذات مرة كذبا للسحاب: (اذهب فامطر حيث شئت فإن خراجك في يدي).

ولكن:

أولا: هذه الكلمة كذبة افتراها هارون فهل الأمر كان كذلك؟

وثانيا: هل الملك العريض يدل على شيء من الواقعية والعظمة . بله الإسلام والإيمان والفضيلة . وإلا فلو كانت سعة الملك فإن هولاء كان له ملك عريض وكذلك ملك جماعة من المجرمين الذين أذاقوا الناس الويلات.

جرائم المأمون

وهذا خليفة آخر هو: المأمون العباسي الذي اقتص من الجرائم والموبقات ما لا يحصى، وكان يقتل الناس بالسم والسيف علنا وسرا، وقد قتل أخاه الأمين، وجعل رأسه على باب داره، وأمر كل من يدخل داره أن يبصق في وجه أخيه الأمين.

وولى المأمون وزارة القضاء رجلا كان معروفا باللواط مع الغلمان حتى قال أحدهم في ذمه:

متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها إذا كان قاضي المسلمين يلوط

لكن الإنسان المنحرف لا يأتي إلا بالمنحرف.

وقضية قتل المأمون للإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) بالسسم غدرا وللحسن بن فضل بالسيف مكرًا ولغيرهما مشهورة في التواريخ.

المتوكل يستهزئ بأمير المؤمنين (ع) ويهدم قبر الحسين (ع)

وهذا خليفة آخر هو المتوكل كان يشرب الخمر ويرتكب الموبقات ويستهزئ بالإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عبر مخنثه (عبادة) فكان عبادة يجعل مخدة تحت ثيابه ويمشي في المجلس ويقول مستهزئاً (أنا الأنزع البطين، أنا أمير المؤمنين) استهزأً بأمير المؤمنين (عليه السلام) وذات مرة نهر ولد المتوكل (عبادة) عن هذا العمل فقال له: (لا تفعل هذا) وأخرجه من المجلس، فقال المتوكل مندداً بفعل ولده:

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى في حرامه

انظروا إلى هذا الإنسان الصلف الذي لا يستحي من ذكر عورات زوجته أمام الناس فكيف يكون حال أعراض المسلمين عنده.

وقد هدم المتوكل قبر الإمام الحسين (عليه السلام) في قصة مشهورة بواسطة يهودي من خدمه يسمى (ديزج). طرق مبتكرة للتعذيب

وقد صنع المتوكل تنورا في داخله أسياخ حادة فكان إذا أراد تعذيب إنسان ألقاه في ذلك التنور وأشعل فيه النار حتى يحترق ذلك الإنسان.

وكان يهين أكياسا مغلقة يملأها (بالأفاعي والعقارب)، وعندما كان يجتمع الأشراف والقادة والوزراء والعلماء في المجلس كان يفتح تلك الأكياس ويرمي بالحيات والعقارب على الحاضرين مما يسبب ذعرهم الشديد وفرارهم من المجلس، فيضحك المتوكل ضحكات عالية.

يُحضر الإمام الهادي (عليه السلام) في مجلس خمره!

وقد أحضر الإمام الهادي (عليه السلام) في مجلس خمره وقال للإمام (عليه السلام) إشراب الخمر، لكن الإمام (عليه السلام) أبي وامتنع فقال للإمام (عليه السلام): أنشدني الشعر (وكان يقصد أن يقرأ الإمام أشعار اللهو) لكن الإمام (عليه السلام) قرأ له أبيات جده علي بن أبي طالب (عليه السلام) تعريضا به وبمجلسه وجلالوته:

باتوا على قلل الأجدال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم واسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صائح من بعد ما دفنوا أين الأسرة والتيحان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمأة من دونها تضرب الأستار والكلل
فافصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود ينتقل
يا طالما أكلوا دهرا وقد شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

إلى آخر الأبيات.

الإسلام من هؤلاء براء

وهكذا سطر هؤلاء الجرمون الذين كانوا يسمون أنفسهم بـ(الخلفاء) سطورا سوداء في التاريخ، فظن كثير من الناس أن هذا هو الإسلام وأن عملهم مما يرضاه الإسلام، بينما عرف أصحاب البصائر أن هؤلاء منحرفون عن الإسلام وأنهم قفزوا على الحكم ظلما واعتداءً، وأن الإسلام ليس إلا دين (الشورى) و(العدل) و(العمل) و(النزاهة). ولذا قال أحد الشعراء مقارنا بين العباسيين والعلويين . أصحاب الحق الشرعي . :

منكم عليّة أم منهم؟ وصاحبكم شيخ المغنيين إبراهيم أم لهم

تبدو التلاوة من أبياتهم سحرا ومن بيوتكم الأوتار والنغم

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا مأمونكم كالرضا أن أنصف الحكم

وقد اتفق أن مات أحدهم وقام آخر مكانه فلما أخبر أحد الشعراء بذلك أنشد هذين البيتين:

الله أكبر لا صبر ولا جلد ولا عزاء إذا أهل البلا فقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

جنايات العثمانيين

وعلى سنن أسلافهم سار الخلفاء العثمانيون، فقد أشاعوا القتل، والتنكيل، والتعذيب والاستهتار بحقوق الناس، وسجن الأبرياء، وتعذيبهم ومصادرة الأموال وما قصة (جمال السفاح) في سوريا ولبنان ببعيدة عن الأذهان. وكانت قصورهم تروج بالقيان والحظايا والنساء ومن أشبهه.

وقد قتل خليفة عثماني في موقعة واحدة أربعين ألف إنسان ظلما واعتداءً مجرد أنهم يخالفونه في العقيدة والمذهب. كما كانوا يقتلون العلماء، وقضاياهم في العراق معروفة حيث قتلوا الناس في كربلاء والنجف والحلة وسبوا النساء المسلمات وهتكوا أعراضهن وأسروهن إلى غير ذلك من الموبقات.

الأمة تتخلى عن الحكام

وقد كانت هذه الجرائم وأمثالها هي السبب في تحطم الخلفاء العثمانيين أمام هجمة غربية واحدة كما كانت السبب في سقوط الإمبراطورية الأموية بمحجة من المسلمين . في قصة أبي مسلم الخراساني . وكذلك كانت وراء سقوط العباسيين عندما زحف عليهم المغول، فالأمة كانت مشمئزة من هؤلاء الحكام، وكانت تنتهز الفرص للإنتفاض عليهم والتخلص منهم، فلما سنحت الفرصة لم يساعدهم المسلمون، فسقطوا كالورق اليابس في عواصف الخريف.

ضرائب باهظة

وقد كان هؤلاء الحكام يأخذون الضرائب المرهقة من الناس.

مثلا: كانوا الأمويون يأخذون (الجزية) من الذين أسلموا بالإضافة إلى أخذ (الزكاة) منهم.

وكان العباسيون ينهبون الناس مهما وجدوا إلى ذلك سبيلا وقد ذكر أبو الفضل البيهقي في تاريخه: أن هارون أرسل علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان، فشدد هذا الوالي على الناس في أخذ الضرائب، حتى هيا ذات مرة

هدية كبيرة لهارون هي عبارة عن ألف غلام تركي، بيد كل واحد جامان ملونان من افضل معادن ذلك اليوم، مع الاستبرق والحير، وراء الغلمان ألف جارية من أفضل النساء وأجملهن، بيد كل واحدة جام ذهب مملوء من المسك والكافور والعنبر وأصناف العطور، ووراءهن ألف عبد هندي، ومائة وصيفة هندية، ووراءهن مائة عبد هندي، ومائة وصيفة هندية في غاية الجمال، مع هدايا وتحف، ومع هذا الموكب خمسة من الفيلة العظام الذكور، واثنان من الفيلة الإناث، وكلها مرصعة بالجواهر والذهب والأحجار الكريمة ووراءها مائة فرس خراساني ملبسة بالديباج، وعشرون عقابا، وعشرون كركسا، وألف جمل ملبسة بالديباج والإبريسم: ثلاثمائة منها مع المحامل ومع كل ذلك خمسمائة ألف وثلاثمائة من أقسام البلور، ومائة بقره وعشرون عقدا من أثنى الجواهر، وثلاثمائة ألف قطعة من اللؤلؤ ومائة عدد من الأواني البلورية لم تر مثلها عين، وألف قطعة بلورية أخرى من الجنس الرفيع، وخوابي كبيرة وصغيرة من البلور وغيره، وثلاثمائة قسم آخر من البضائع الثمينة، ومائتا معمل لصنع السجاد ومائتا معمل آخر محفورة!

وبهذه الكيفية ورد هذا الموكب بغداد، وكان هارون خارج بغداد لاستقبال الهدية وكان معه وزراءه وجلاوزته وضباطه وقواده والحيش، ولما رأى الناس هذا الموكب الهائل من الهدايا المبعوثة من قبل والي خراسان أخذوا يكبرون، ودقت الطبول وكان يوما مشهودا!!

النهب المنظم!

وقد جاء في كتاب (مواطنون لا رعايا) أنه: شرع السلطان سليم لأبنائه وحفدته انتهاب الشعوب، فإن جرجي زيدان يحدثنا في كتابه (تاريخ مصر الحديث): أن هذا السلطان بعد فتحه القاهرة والإسكندرية وحين أزمع الرجعة إلى بلاده نقل معه ألف جمل محملة ذهبا وفضة وأشياء أخرى وتولى الخلافة بعده ابنه السلطان سليمان فأعلن في فرمان رسمي: إنه المالك الحر لجميع أرض مصر، ووزعها إقطاعات على مزارعين دعاهم (الملتزمين) نظير خراج باهض، وكانت الرشوة طريق الوصول إلى قلب السلطان وكان الباشا الذي يريد خيرا بالشعب ويقنع بالإيراد العام ويجعل الغلبة في مجالسه للعدل يجذب على نفسه سخط مليكه، كان الباب العالي يطلب الرشوة من ولاته، وولاته يقتسرونها من الجماهير الجائعة وكانت عملة متداولة مشروعة.

الوالي يقاسم اللصوص

وينقل أن علي باشا الصوفي أحد ولاة السلطان سليمان كان يقاسم اللصوص سرقاتهم نظير حمايتهم مما أغرى الدهماء والخطيرين بأمن الناس، وكان الخلفاء يبيعون المناصب جهرة، فيحدثنا عبد الرحمن الرافي في كتابه (تاريخ الحركة القومية) ناقلا عن فلان: أن تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر إلى آخره مليء: بتعاقب الباشوات الأتراك على ولايتها، فكان الواحد منهم يشتري منصب الولاية من ديوان الآستانة، ويظل الباشا في منصبه لا عمل له إلا جمع المال واستصفائه من أهله بمختلف وسائل النهب حتى يغادر منصبه، وبهذا نرى أن الحكام الأتراك الذين يقاسمون اللصوص نظير حمايتهم ورعايتهم والذين يرشون ويرتشون في وضع القانون كانوا أساتذة علموا هذا الشعب المطيع السمسرة والرشوة الحرام.

هكذا أمر الإسلام

سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) :

ولنفس أمثال هذه القضايا بقضايا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي (عليه السلام).

فقد كانا يجمعان المال من الموارد الأربعة فقط: (الخمس) و(الزكاة) و(الجزية) و(الخراج) لا أكثر وكان الجمع بمنتهى اللطف واللين.

والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يبن لنفسه دارا إلا الغرف التي بناها حول المسجد لنسائه من الطين ونحوه وعلي (عليه السلام) لم يضع حجرا على حجر كما ورد في الروايات، وكان يرتجف في الليل الشاتي من البرد، كما أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يشد على بطنه الحجر من شدة الجوع.

ولما توفي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مدينا ثمانين ألف درهم كما أنه لما استشهد علي (عليه السلام) كان مدينا ثمانمائة ألف درهم كما ورد في الروايات.

أمير المؤمنين (عليه السلام) يوصي الجبابة

وإليكم ما يرويه محمد بن الحسين الرضي (رحمه الله) في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصية كان (عليه السلام) يوصي بها لمن يستعمله على الصدقات، فكان يكتب إليهم: (انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروعن مسلما، ولا تحتازن عليه كارها، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمت على الحي فأنزل بمائهم من غير أن تحالط أبياتهم، ثم امضي إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تحدج التحية (أي لا تسلم سلا ما ناقصا وسلاما كبيرا، وإنما سلام تواضع) ثم تقول: عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم فهل في أموالكم من حق تؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجع، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخفيه أو توعدده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما آتاك من ذهب أو فضة، فإن كانت له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له، فإذا أتيتها فلا تدخلها دخول متسلط عليه ولا عنيف به، ولا تمصّرن بهيمة ولا تفرزعتها ولا تسوءن صاحبها فيها، ثم اصدع المال صدعين، ثم خيره، فإن اختار فلا تعرضن إلى اختياره، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره فإن اختار فلا تعرضن لما اختار، ولا تنزل كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبل حق الله منه، فإن استقالك فأقله ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله في ماله ولا تأخذن عورا ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقا بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم، ولا توكل بها إلا ناصحا شفيقا وأميना حفيظا غير معنف ولا مححف ولا مغلب ولا متعب ثم أحدر إلينا ما اجتمع عندك نصيره حيث أمر الله به، فإذا أخذها أمينك أوصى إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها، ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولدها، ولا يجهدتها ركوبا، وليعدل بين صواحبها في ذلك وبينها، وليرفه على اللاغب، وليستان بالنقب والضالع، وليوردها ما تمر به من المياه ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرق، وليروحها في الساعات الحارة وليمهلها عند

النطاف وبالأعشاب حتى تأتينا بها بإذن الله بدنا غير متعبات ولا مجهودات، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله(٢).

فانظروا كيف كان الإمام (عليه السلام) يأخذ الصدقات من الناس؟

وكيف كان يوصي حتى بالحيوان؟

وفي رواية أخرى يرويها رجل من ثقيف استعمله الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على بعض البلاد قال (عليه السلام) له في جملة وصيته له: إياك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج، أو تبيع دابة عمل في درهم فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو(٣).

الرسول (صلى الله عليه وآله) يأمر الجباة بالرفق

وقبل ذلك كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يسهل مع الناس في الحقوق، فقد روى علي (عليه السلام)

أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى أن يحلف الناس على صدقاتهم وقال: (هم فيها مأمونون)(٤).

ونهى أن يشئ عليهم في عام مرتين وأنه لا يؤخذ بها في العام إلا مرة واحدة، ونهى أن يغلب عليهم في أخذها منهم وأن يقهروا على ذلك أو يضربوا أو يشدد عليهم أو يكلفوا فوق طاقتهم، وأمر أن لا يأخذ المصدق منهم إلا ما وجد في أيديهم، وأن يعدل فيهم.

توصيات متكررة

وفي رواية أخرى، عن علي (عليه السلام)، أنه أوصى مخنف بن سليم الأزدي وقد بعثه على الصدقة بوصية طويلة أمره فيها:

بتقوى الله تعالى ربه في سرائر أمور وخفيات أعماله، وأن يلقاهم ببسط الوجه ولين الجانب، وأمره أن يلزم التواضع ويحسب التكبر فإن الله تعالى يرفع المتواضعين ويضع المتكبرين، وقال له: (يا مخنف بن سليم أن لك في هذه الصدقة حقاً ونصيباً مفروضاً، ولك فيها شركاء فقراء ومساكين وغارمون ومجاهدون وأبناء سبيل ومملوكون ومتألفون، وأنا موفوك حقك، فوفهم حقوقهم وإلا فإنك من أكثر الناس يوم القيامة خصماً وبؤساً لأمره خصمهم مثل هؤلاء)(٥).

وفي رواية أخرى عن علي (عليه السلام) أنه كان يقول: (تؤخذ صدقات أهل البادية على مياههم ولا يساقون - يعني من مواضعهم التي هم فيها - إلى غيرها)(٦).

وقال (عليه السلام): (وإذا كان الجذب أحروا حتى يخصبوا)(٧).

١ - بحار الأنوار: ج ٣٩، ص ٢٩١.

٢ - نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٢٣.

٣ - وسائل الشيعة: ج ٦، ص ٩٠.

٤ - مستدرک الوسائل: ج ٧، ص ٤٢.

٥ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٣، ص٢٦.

٦ . مستدرك الوسائل: ج٧، ص٧١.

٧ . المصدر السابق.

العامل الثاني

المؤامرات الاستعمارية

العامل الثاني من أسباب تخلف المسلمين أن الحكومات . في العالمين: الغربي والشرقي . تبذل كافة الجهود لتحطيم الإسلام والمسلمين ولذا نجد أنه بالرغم من أن الهند والباكستان استقلتا في يوم واحد إلا أن الهند بقيت شبه مستقلة ديمقراطية (حسب الاصطلاح المعروف) وفيها نوع من الحريات والاكتفاء الذاتي، أما الباكستان . ذات الأكثرية المسلمة . فقد سقطت في أيدي الدكتاتوريين . بالمؤامرات المحاكة على طول الخط من الغربيين والشرقيين ، وانفصلت الباكستان الشرقية (أي بنغلاديش) عن الباكستان الغربية، وحكمت في الباكستان الدكتاتورية المطلقة إلا في بعض الفترات القصيرة من حياتها .

وهنا ننقل مقتطفات من كتاب (قادة الغرب يقولون) تاييداً لما ذكرناه من تصميم الغربيين والشرقيين على تحطيم العالم الإسلامي ونهب خيراته وإذلال شعبه:

الغرب يخطط للقضاء على الإسلام

سوف تشهد لنا: أقوال قادتهم أن للغرب وللحضارة الغربية بكل فروعها القومية وألوانها السياسية موقفاً تجاه الإسلام لا يتغير، إنها تحاول تدمير الإسلام وإنهاء وجود شعبه دون رحمة . وقد حاولوا تدمير الإسلام في الحروب الصليبية الرهيبة، فشلت جيوشهم التي هاجمت بلاد الإسلام بالملايين، فعادوا يخططون من جديد لينهضوا، ثم ليعودوا إلينا بجيوش حديثة وفكر جديد، وهدفهم تدمير الإسلام من جديد .

كان جنديهم ينادي بأعلى صوته حين كان يلبس بزة الحرب قادماً لاستعمار بلاد الإسلام:

أماه أتمنى صلاتك، لا تبكي ..

بل اضحكي وتألمي ..

أنا ذاهب إلى طرابلس ..

فرحاً مسروراً ..

سأبذل من دمي في سبيل ..

سحق الأمة الملعونة ..

سأحارب الديانة الإسلامية ..

سأقاتل بكل قوتي لحو القرآن ..

المسيحيون ينقضون عهودهم

وفي الأندلس تقول الدكتورة سيجريد هونكة (في ٢ يناير ١٤٩٢) رفع الكاردينال ديبدر الصليب على القلعة الحمراء الملكية للأسرة الناصرية، فكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم المسلمين على إسبانياً، وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على أوروبا طوال العصور الوسطى.

وقد احترمت المسيحية المنتصرة اتفاقاتها مع المسلمين لفترة وجيزة ثم باشرت عملية القضاء على المسلمين وحضارتهم وثقافتهم.

لقد حرّم الإسلام على المسلمين وفرض عليهم تركه، كما حرّم عليهم استخدامه العربية والأسماء العربية وارتداء اللباس العربي، ومن يخالف ذلك كان يحرق حيّاً. أ بعد أن يعذب أشد العذاب.

(وهكذا انتهى وجود الملايين من المسلمين في الأندلس فلم يبق في إسبانيا مسلم واحد يظهر دينه).

التعذيب في مصر

ويبدو أن دواوين التفتيش هذه قد انتقلت إلى بقاع العالم الإسلامي ليسلّطها حكام مجرمون على شعوبهم، فقد ذكر لي شاهد عيان بعض أنواع التعذيب التي كانت تنفذ في أحد البلدان الإسلامية (١) ضد مجموعة من العلماء المجاهدين فقال:

بعد يوم من التعذيب الشديد ساقنا الزبانية بالسياط إلى زنزانتنا، وأمرنا الجلادون أن نستعد ليوم آخر شديد. صباح اليوم التالي أمرنا الجلادون أن نخرج فوراً، كنا نستجمع كل قوتنا في أقدامنا الواهنة هرباً من السياط التي كانت تنزل علينا من حرس كان عددهم أكبر منا، وأخيراً أوقفونا في سهل صحراوي تحت أشعة الشمس اللاهبة حول كومة من الفحم الحجري كان يعمل الحرس جاهدين لإشعالها، وقرب النار مصلبة خشبية تستند إلى ثلاثة أرجل.

اشتعلت كومة الفحم الحجري حتى احمرت، فجأة سمعنا شتائم تأتي من بعيد التفتنا فوجدنا خمسة من الحرس يقودون شاب. عرفه بعضنا كان اسمه (جاويد خان). أحد علماء ذلك البلد.

امتلاً الأفق بنباح كلاب مجنونة رأينا عشرة من الحرس يقودون كلبين يبلغ ارتفاع كل واحد منهما متراً، علمنا بعد ذلك أنهما قد حرما من الطعام منذ يومين.

قرب الحرس الشاب (جاويد) من كومة النور الحمراء، وعيناه مغمضتان بخزام سميك، كنا نتفرج، أكثر من مائة سجين ومعنا أكثر من مائة وخمسين من الحرس معهم البنادق والرشاشات. فجأة اقترب من الشاب (جاويد) عشرة من الحرس أجلسوه على الأرض ووضعوا في حضنه مثلثاً خشبياً ربطوه إليه ربطاً محكماً بحيث يبقى قاعداً لا يستطيع أن يتمدد، ثم حملوه جميعاً وأجلسوه على الجمر الأحمر، فصرخ صرخة هائلة ثم أغمي عليه سقط أكثر من نصفنا مغمى عليهم، كانوا يصرخون متألمين، وعمّت رائحة شواء لحم (جاويد) المنطقة كلها. ومن حسن حظي أنني بكيت بكاءً مرّاً لكنني لم اصب بالإغماء لأرى بقية القصة التي هي أفضع من أولها.

حمل الشاب، وفكت قيوده وهو غائب عن وعيه، وصلب على المصلبة الخشبية وربط بها بإحكام، واقترب الجلادون بالكليبين الجائعين، وفكوا القيود عن أفواههما، وتركوها يأكلان لحم ظهر (جاويد) المشوي بدأت أشعر بالانخيار، إنه لا زال حياً والكلاب تأكل لحمه، فقدت وعيي بعدها.

لم أفق إلا وأنا أصرخ في زناتي كالمجنون دون أن أشعر: (جاويد جاويد أكلتك الكلاب يا جاويد جاويد). كان إخواني في الزنانة قد ربطوني وأحاطوا رأسي وفعي بالأرطة حتى لا يسمع الجلادون صوتي فيكون مصيري كمصير جاويد أو كمصير (شاهان خاني) الذي أصيب بالهستيريا مثلي فاصبح يصرخ (جاويد جاويد) فأخذه الجلادون وضعوا فوقه نصف برميل مملوء بالرمل ثم سحبوه على الأسلاك الشائكة التي ربطوها صفاً أفقياً، فمات بعد أن تقطع لحمه ألف قطعة وهو يصرخ (الله أكبر الله أكبر لا بد أن ندوسكم أيها الظالمون) وأخيراً أغمي علي. فتحت عيوني، فوجئت أنني في أحد المشافي، وفوجئت أكثر من ذلك بسفير بلدي يقف فوق رأسي قال لي: كيف حالك يبدو أنك ستشفى إن شاء الله، لو لم تكن غريباً عن هذه البلاد لما استطعت إخراجك فاجأني سائلاً: لكن بالله عليك قل لي من هو هذا جاويد الذي كنت تصرخ باسمه؟ أخبرته بكل شيء فامتقع لونه حتى خشيت أن يغمى عليه.

لم نكمل حديثنا إلا والشرطة تسأل عني، اقترب من سريري ضابط بوليس وسلمني أمراً بمغادرة البلاد فوراً ولم تتجح تدخلات السفير في ضرورة إبقائي حتى أشفى، حملوني ووضعوني في باخرة أوصلتني إلى ميناء بلدي، كنت بنياب المستشفى ليس معي أي وثيقة تثبت شخصيتي، اتصلت بأهلي تليفونياً، فلما حضروا لم يعرفوني لأول وهلة، حملوني إلى أول مستشفى، بقيت فيه ثلاثة أشهر في بكاء مستمر ثم شفاني الله تعالى. وأنهى المسكين حديثه قائلاً: بقي أن نعرف أن مدير السجون يهودي، والمسؤول عن التعذيب خبير ألماني نازي أطلقت تلك الحكومة في ذلك البلد الإسلامي يده يفعل في علماء المسلمين كيف يشاء.

جرائم الغرب في أرتيريا

استولت الحبشة على أرتيريا المسلمة بتأييد من فرنسا، وصادرت معظم أراضيها، وأسلمتها لإقطاعيين من الحبشة، كان الإقطاعي والكاهن مخلولين بقتل أي مسلم دون الرجوع إلى السلطة، فكان الإقطاعي أو الكاهن يشنق فلاحيه أو يعذبهم في الوقت الذي يريد.

وفتحت للفلاحين المسلمين سجون جماعية رهيبة يجلد فيها الفلاحون بسياط تزن أكثر من عشرة كيلو غرامات، وبعد إنزال أفضع أنواع العذاب بهم كانوا يلقون في زنانات بعد أن تربط أيديهم بأرجلهم، ويتركون هكذا لعشر سنين أو أكثر عندما كانوا يخرجون من السجون كانوا لا يستطيعون الوقوف لأن ظهورهم قد أخذت شكل القوس.

كل ذلك قبل استلام (هيلا سيلاسي) السلطة في الحبشة، فلما أصبح إمبراطور الحبشة وضع خطة لإنهاء المسلمين خلال خمسة عشر عاماً، وتباهى بخطته هذه أمام الكونغرس الأمريكي فسن تشريعات لإذلال المسلمين، منها: أن عليهم أن يركعوا لموظفي الدولة وإلا يقتلوا.

وأمر أن تستباح دماءهم لأقل سبب، فقد وجد شرطي قتيلاً قرب قرية مسلمة فأرسلت الحكومة كتيبة كاملة قتلت أهل القرية كلهم وأحرقتهم مع قريتهم، ثم تبين أن القاتل هو صديق المقتول الذي اعتدى على زوجته، وحاول أحد العلماء واسمه (الشيخ عبد القادر) أن يثور على هذه الإبادة فجمع الرجال واختفى في الغابات، فجمعت الحكومة أطفالهم ونساءهم وشيوخهم في أكواخ من الحشيش والقصب وسكبت عليهم البنزين وأحرقتهم جميعاً، ومن قبضت عليه من الثوار كانت تعذبه عذاباً رهيباً قبل قتله، من ذلك إطفاء السجائر في عينيه وأذنيه، وهتك عرض بناته وزوجته وأخواته أمام عينيه، ودق خصيته بأعقاب البنادق، وجره على الأسلاك الشائكة حتى يتفتت، وإلقاءه جريحاً قبل أن يموت لتأكله الحيوانات الجارحة بعد أن تربطه بالسلاسل حتى لا يقاوم.

وقد أصدر هيلا سيلاسي أمراً بإغلاق مدارس المسلمين، وأمر بفتح مدارس مسيحية، وأجبر المسلمين على إدخال أبنائهم فيها ليصبحوا مسيحيين، وعين حكاماً على مقاطعات أرتيريا، منهم واحد عيّنه على مقاطعة جمة فابتدأ عمله بأن أصدر أمراً أن لا يقطف الفلاحون ثمار أراضيهم إلا بعد موافقته وكان لا يسمح بقطافها إلا بعد أن تتلف، وأخيراً صادر ٩٠% من الأراضي فأخذ هو نصفها، وأعطى الإمبراطور نصفها الآخر، ونهب جميع ممتلكات الفلاحين المسلمين، وأمرهم أن يبنوا كنيسة كبرى في الإقليم فبنوها، ثم أمرهم أن يعمروا كنيسة عند مدخل كل قرية أو بلدة، ولم يكتف بذلك بل بنى دوراً للعاهرات حول المساجد ومعها الحانات التي كان يسكر فيها الجنود ثم يدخلون إلى المساجد ليبولوا فيها ويتغوطوا وليراقصوا العاهرات فيها وهم سكارى، كما فرض على الفلاحين أن يبيعوا أبقارهم لشركة (انكودا اليهودية).

وقد كافأ الإمبراطور هذا الحاكم على أعماله هذه بأن عينه وزيراً.

وكانت حكومة الإمبراطور تلاحق كل مثقف مسلم لتزجه في السجن حتى الموت أو تجبره على مغادرة البلاد حتى يبقى شعب أرتيريا المسلم مستعبداً جاهلاً.

جرائم اليهود في بنغلاديش

قتل الجيش الهندي الذي كان يقوده يهودي: عشرة آلاف عالم مسلم بعد انتصاره على جيش باكستان عام ١٩٧١م، وقتل مائة ألف من طلبة المعاهد الإسلامية وموظفي الدولة وسجن خمسين ألفاً من العلماء وأساتذة الجامعات وقتل ربع مليون مسلم هندي هاجروا من الهند إلى باكستان قبل الحرب، وسلب الجيش الهندي ما قيمته (٣٠) مليار روبية من باكستان الشرقية التي سقطت من أموال الناس والدولة.

أمريكا تخطط لتحطيم الإسلام

يقول (ابوجين روستو) رئيس قسم التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، ومساعد وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون لشؤون الشرق الأوسط حتى عام ١٩٦٧ يقول: (يجب أن ندرك أن الخلافات القائمة بيننا وبين الشعوب العربية ليست خلافات بين دول أو شعوب، بل هي خلافات بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لقد كان الصراع محتوماً ما بين المسيحية والإسلام منذ القرون الوسطى، وهو مستمر حتى

هذه اللحظة بصور مختلفة، ومنذ قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب، وخضع التراث الإسلامي للتراث المسيحي..

(إن الظروف التاريخية تؤكد أن أمريكا إنما هي جزء مكمل للعالم الغربي بفلسفته وعقيدته ونظامه، وذلك يجعلها تقف معادية للعالم الشرقي الإسلامي بفلسفته وعقيدته المتمثلة بالدين الإسلامي، ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف هذا الموقف في الصف المعادي للإسلام وإلى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها إن فعلت عكس ذلك فإنها تتنكر للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسستها).

إن (روستو) يحدد: إن هدف الاستعمار في الشرق الأوسط هو تدمير الحضارة الإسلامية، وأن قيام إسرائيل هو جزء من هذا المخطط، وأن ذلك ليس إلا استمراراً للحروب الصليبية. النبي يقود حرباً صليبية

يقول (باترسون سميث) في كتابه (حياة المسيح الشعبية): باءت الحروب الصليبية بالفشل، لكن حادثاً خطيراً وقع بعد ذلك حينما بعثت انكلترا بحملتها الصليبية الثامنة ففازت هذه المرة. إن حملة (النبي) على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى هي الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة.

وقد نشرت الصحف البريطانية صور (النبي) وكتبت تحتها عبارته المشهورة التي قالها عندما فتح القدس: (اليوم انتهت الحروب الصليبية).

ونشرت هذه الصحف خبراً آخر يبين أن هذا الموقف ليس موقف (النبي) وحده، بل موقف السياسة الانكليزية كلها، فقد قالت الصحف:

هنأ (لويد جورج) وزير الخارجية البريطاني الجنرال (النبي) في البرلمان البريطاني لإحرازه النصر في آخر حملة من الحروب الصليبية التي سماها لويد جورج (الحرب الصليبية الثامنة).

وقال راند ولف تشرشل: لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود.

الحقد الصهيوني ضد الإسلام

وعندما دخلت قوات إسرائيل القدس عام ١٩٦٧م تجمهر الجنود حول حائط المبكى، وأخذوا يهتفون مع موشي دايان: (هذا يوم بيوم خبير).

(يا لثارات خبير) وتابعوا هتافهم:

حطوا المشمش عالتفاح***دين محمد ولّى وراح

وهتفوا أيضاً: (محمد مات)، (خلف بنات).

وخرج أعوان إسرائيل في باريس بمظاهرات قبل حرب الـ ١٩٦٧ يحملون لافتات سار تحت هذه اللافتات (جان بول سارتر) وكتبوا على هذه اللافتات وعلى جميع صناديق التبرعات لإسرائيل جملة واحدة من كلمتين هما: (قاتلوا المسلمين).

فالتهب الحماس الصليبي الغربي، وتبرع الفرنسيون بألف مليون فرنك خلال أربعة أيام فقط، كما طبعت إسرائيل بطاقات معايدة كتب عليها (هزيمة الهلال) بيعت بالملايين لتقوية الصهاينة الذين يواصلون رسالة الصليبية الأوربية في المنطقة وهي محاربة الإسلام وتدمير المسلمين.

قادة الغرب يكشفون عداؤهم للإسلام

يقول لورنس براون: (إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي).

ويقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً: (ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق).

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: (إننا لن نتصر على الجزائريين ماداموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم).

وفي افتتاحية عدد ٢٢ أيار عام ١٩٥٢ من جريدة كينزيل اوزباخستان (الجريدة اليومية للحزب الشيوعي الأوزباخستاني)، ذكر المحرر ما يلي: (من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام).

ويقول ابن غوريون رئيس وزراء إسرائيل سابقاً: (إن أخشى ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد).

حطموا رجال الدين

ويقول الكاتب الصهيوني إيرل بوغر في كتابه (العهد والسيوف) الذي صدر عام ١٩٦٥ ما نصه بالحرف: (إن المبدأ الذي قام عليه وجود إسرائيل منذ البداية هو أن العرب لا بد أن يبادروا ذات يوم إلى التعاون معها، ولكي يصبح هذا التعاون ممكناً فيجب القضاء على جميع العناصر التي تغذي شعور العداة ضد إسرائيل في العالم العربي، وهي عناصر رجعية تتمثل في رجال الدين والمشايخ).

الخطر الحقيقي يكمن في الإسلام!!

ويقول لورانس براون: (كان قادتنا يخوفوننا بشعوب مختلفة، لكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل تلك المخاوف، كانوا يخوفوننا بالخطر اليهودي، والخطر الياباني الأصفر، والخطر البلشفي).

ولكنه تبين لنا أن اليهود هم أصدقائنا، والبلاشفة الشيوعية حلفائنا، وأما اليابانيون فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتهم، لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقي علينا موجود في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته المدهشة).

ويقول المستشرق غاردنر: (إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوربة).

ويقول البرمشاردور: (من يدري؟ ربما يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالمسلمين، يهبطون إليها من السماء لغزو العالم مرة ثانية، وفي الوقت المناسب).

(ويتابع) لست متنبئاً لكن الإمارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة، ولن تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها.

(إن المسلم قد استيقظ وأخذ يصرخ: ها أنذا، إنني لم أمت، ولن أقبل بعد اليوم أن أكون أداة تسييرها العواصم الكبرى ومخابراتها).

ويقول أشعيا بومان في مقال نشره في مجلة العالم الغربي من الإسلامي التبشيرية: (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي من الإسلام، لهذا الخوف أسباب، منها: أن الإسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل إن أتباعه يزدادون باستمرار).

ويقول أنطوني ناتنج في كتابه (العرب): (منذ أن جمع محمد (صلى الله عليه وآله) أنصاره في مطلع القرن السابع الميلادي وبدأ أول خطوات الانتشار الإسلامي، فإن على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهنا عبر المتوسط).

وصرح سالازار في مؤتمر صحفي قائلاً: (إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم).

فلما سأله أحد الصحفيين لكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم؟

أجابته: أحشى أن يخرج منهم من يوجه خلافاتهم إلينا!

العالم الإسلامي عملاق مقيد

ويقول مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢:

(ليست الشيوعية خطراً على أوروبا، فيما يبدو لي أن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفاً هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية في الحضارة الغربية، فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الثمين، وانتشروا في الأرض يزيلون منها قواعد الحضارة الغربية ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ، وقد حاولنا نحن الفرنسيين خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعب المسلم فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة. إن العالم الإسلامي عملاق مقيد، عملاق لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً، فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لانحطاطه وتخلفه، وراغب رغبة يخالطها الكسل والفوضى في مستقبل أحسن وحرية أوفر.

فلنعطي هذا العالم الإسلامي ما يشاء، ولنقوي في نفسه الرغبة في عدم الإنتاج الصناعي والفني حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف بإبقاء المسلم متخلفاً، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه فقد

بؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهماً ينتهي به الغرب، وتنتهي معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم).

انتشار الإسلام يفزعنا

ويقول مورو بيرجر في كتابه (العالم العربي المعاصر): (إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام يجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التي تؤدي إلى قوة العرب، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره، إن الإسلام يفزعنا عندما نراه ينتشر بيسر في القارة الإفريقية).

النار لا تزال تحت الرماد!

ويقول هانوتو وزير خارجية فرنسا:

(رغم انتصارنا على أمة الإسلام وقهرها، فإن الخطر لا يزال موجوداً من انتفاض المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي أنزلناها بهم لأن همتهم لم تخمد بعد).

الحروب الصليبية كانت تهدف لتدمير الإسلام

ويقول غاردنر: (إن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ القدس، إنها كانت لتدمير الإسلام).

سياسة عدائية تجاه الإسلام

(ويقول فيليب فونداس: إن من الضروري لفرنسا أن تقاوم الإسلام في هذا العالم، وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام، وأن تحاول على الأقل إيقاف انتشاره).

يجب إبادة خمس المسلمين!

ويقول المستشرق الفرنسي كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام) :

(إن الديانة المحمدية جذام تفسى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً واسعاً، بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه من الخمول والكسل إلا ليدفعه إلى سفك الدماء والإدمان على معايرة الخمر وارتكاب جميع القبائح، وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين فيأتون بمظاهر الصرع والذهول العقلي إلى ما لا نهاية، ويعتادون على عادات تنقلب إلى طباع ككراهة لحم الخنزير والخمر والموسيقى).

(إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور في اللذات أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين، والحكم على الباقي بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر!).

حتى الأموات لم يسلموا!

وقد هدم قائد الجيوش الإنكليزية في حملة على السودان قبر الشخص الذي سبق أن حرر السودان، هجم القائد الإنكليزي على قبره ونشبهه، ثم قطع رأسه، وأرسله إلى بعض الإنكليز، وطلب إليه أن يجعله مظفأة لسجائره!.

مع اليهود.. ضد المسلمين

وصرح الكاردينال بور كاردينال برلين لمجلة تابلت الإنكليزية الكاثوليكية يوم سقوط القدس عام ١٩٦٧م بعد أن رعى صلاة المسيحيين مع اليهود في كنيس يهودي لأول مرة في تاريخ المسيحية قائلاً: (إن المسيحيين لابد لهم من التعاون مع اليهود للقضاء على الإسلام وتخليص الأرض المقدسة).

اقتراحات لتحطيم المسلمين

وقال لويس التاسع ملك فرنسا الذي أسر في دار ابن لقمان بالمنصورة في وثيقة محفوظة في دار الوثائق القومية في باريس:

(إنه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال الحرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة باتباع ما يلي:

. إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فليعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملاً في إضعاف المسلمين.

. عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية أن يقوم فيها حكم صالح.

. إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة.

. الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه عليه، يضحى في سبيل مبادئه.

. العمل على الحيلولة دون قيام وحدة في المنطقة.

. العمل على قيام دولة عربية في المنطقة العربية تمتد ما بين غزة جنوباً وأنطاكية شمالاً ثم تتجه شرقاً وتمتد حتى تصل إلى الغرب).

قوة المسلمين في إسلامهم

(ولما وقف كرزون وزير خارجية إنكلترا في مجلس العموم البريطاني يستعرض ما جرى مع تركيا احتج بعض النواب الإنكليز بعنف على كرزون واستغربوا كيف اعترفت إنكلترا باستقلال تركيا التي يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب؟ أجاب كرزون: (لقد قضينا على تركيا التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم، لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة!).

فصفق النواب الإنكليز كلهم وسكتت المعارضة.

القضاء على القرآن.. أولاً

ويقول المبشر وليم جيفورد بالكراف:

(متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه).

ويقول المبشر تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن. وهو أمضى سلاح في الإسلام. ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تماماً يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً وأن الجديد فيه ليس صحيحاً).

العالم لا يستطيع الصمود أمام الإسلام

ويقول مرماديوك باكتول: (إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في العالم الآن بنفس السرعة التي نشرها بها سابقاً، بشرط أن يرجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع الصمود أمام روح حضارتهم).

انشروا الإلحاد بين المسلمين

(ويقول صموئيل زويمر رئيس جمعيات التبشير في مؤتمر القدس للمبشرين المنعقد عام ١٩٣٥: (إن مهمة التبشير التي نديتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً).

إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية.

لقد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السير في الطريق الذي سعيتم له ألا وهو إخراج المسلم من الإسلام، إنكم أعددتهم نشأ لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشئ الإسلامي مطابقاً لما أراده الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويجب الراحة والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة، فهو إن تعلم للحصول على الشهوات، وإذا جمع المال فللشهووات وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات، إنه يوجد بكل شيء للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه).

ويقول صموئيل زويمر نفسه في كتاب الغارة على العالم الإسلامي: (إن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية مزيتين: مزية هدم ومزية بناء، أما الهدم فنعني به انتزاع المسلم من دينه ولو بدفعه إلى الإلحاد).

وأما البناء فنعني به تنصير المسلم إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه).

تشجيع المدارس العلمانية

ويقول المبشر تكلي: (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني لأن كثيراً من المسلمين قد زرع إعتقادهم بالإسلام والقران حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية).

ويقول زويمر: (ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلا بد أن ننشئ لهم المدارس العلمانية ونسهل التحاقهم بهذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب).

إفساد الشباب والقادة

ويقول جب: (لقد فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محددة، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً من غير وعي وانتباه، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، لكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الإسلامي وعلى الشباب منهم خاصة كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني).

مزقوا وحدة المسلمين!

ويقول القس سيمون: (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية).

ويقول ارفوند توينبي في كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل) :

(إن الوحدة الإسلامية نائمة لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ).

ومما يذكر هنا أنه في سنة ١٩٠٧ عقد مؤتمر أوربي كبير ضم أضخم نخبة من المفكرين والسياسيين الأوربيين برئاسة وزير خارجية بريطانيا الذي قال في خطاب الافتتاح: (إن الحضارة الأوربية مهددة بالانحلال والفناء، والواجب يقضي علينا أن نبحث في هذا المؤتمر عن وسيلة فعالة تحول دون انهيار حضارتنا). واستمر المؤتمر شهراً من الدراسة والنقاش.

واستعرض المؤتمر الأخطار الخارجية التي يمكن أن تقضي على الحضارة الغربية الآفلة فوجدوا أن المسلمين هم أعظم خطر يهدد أوربة.

فقرر المؤتمر وضع خطة تقضي ببذل جهودهم كلها لمنع إيجاد أي اتحاد أو اتفاق بين دول الشرق الأوسط، لأن الشرق الأوسط المسلم المتحد يشكل الخطر الوحيد على مستقبل أوربة، وأخيراً قرروا إنشاء قومية غربية معادية للعرب والمسلمين شرقي قناة السويس ليبقى العرب متفرقين، وبذا أرست بريطانيا أسس التعاون والتحالف مع الصهيونية العالمية التي كانت تدعو إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

ديكتاتوريات عسكرية للقضاء على الإسلام

ويقول المستشرق وك سميث الأمريكي والخبير بشؤون باكستان: (إذا أعطي المسلمون الحرية في العالم الإسلامي وعاشوا في ظل أنظمة ديمقراطية، فإن الإسلام ينتصر في هذه البلاد، وبالديكتاتوريات وحدها يمكن الحيلولة بين الشعوب الإسلامية ودينها).

وينصح رئيس مجلة تايم . في كتابه (سفر آسيا) . الحكومة الأمريكية أن تنشئ في البلاد الإسلامية ديكتاتوريات عسكرية للحيلولة دون دعوة الإسلام السيطرة على الأمة الإسلامية، وبالتالي الانتصار على الغرب وحضارته واستعمارها.

محاولة إفساد الشباب

وقد حكى قادم من الضفة الغربية: إن السلطات الصهيونية تدعو الشباب العربي بحملات منظمة وهادئة إلى الاختلاط باليهوديات وخصوصاً على شاطئ البحر، وتتعمد اليهوديات دعوة هؤلاء الشباب إلى الزنا بهن، وإن السلطات اليهودية تلاحق جميع الشباب الذين يرفضون هذه العروض بحجة أنهم من المنتمين للحركات الفدائية، كما أنها لا تدخل إلى الضفة الغربية إلا الأفلام الجنسية الخليعة جداً، وكذلك تفتح على مقربة من المعامل الكبيرة التي يعمل فيها العمال العرب الفلسطينيون دوراً للدعارة مجانية تقريباً، كل ذلك من أجل تدمير أخلاق أولئك

الشباب).

التعذيب في سجون بغداد

نقل لي أحد العلماء الذين أدخلهم حزب البعث العراقي سجن (قصر النهاية) وهو قصر كان لـ(عبد الإله) وكان يسمى في أيام الملكين بـ(قصر الرحاب)، وعندما أطاح البريطانيون . كما هو المعروف . مشتركين مع الإسرائيليين بحكم الملكيين حيث مال الملكيون شيئاً ما إلى الأمريكيين عبر الانقلاب الذي قاده عبد الكريم قاسم سنة ألف وتسعمائة وثمان وخمسين ميلادية.. سمي هذا القصر بـ(قصر النهاية) أي نهاية الحكم السابق أو نهاية الإنسان تحويفاً، ثم اتخذ هذا القصر معتقلاً بعدما أضيفت إليه أقسام عديدة، والقصر مكان كبير جداً تحيط به أرض واسعة وأسوار عالية وحدائق تجعله صالحاً لأن يكون معتقلاً لأنه بعيد عن أنظار الناس ولا يسمع أصوات المعتدبين فيه أحد من الخارج.

قال هذا العالم: إن أقسام التعذيب النفسي والجسدي التي كان جلاوزة البعث يمارسونها مع العلماء والشباب المؤمن ومن إليهم لأجل نزع الإسلام عن قلوبهم كانت أكثر من مائة قسم، وكانوا قد عذبوه هو بنفسه (أي هذا العالم بالعثرات من هذه الأقسام) لأجل أن يعترف . زوراً وكذباً . بأنه هو وجماعة من علماء النجف وكربلاء من عملاء أمريكا، لكن العالم صبر وصمد أمام كل أقسام التعذيب حتى حكم عليه بالسجن عشر سنوات، ثم أخرج من قصر النهاية إلى المعتقل، وبعد فترة أطلق سراحه أيضاً بفضل الله سبحانه وتعالى.

الطائفة الأولى من التعذيب

وقد نقل لنا هذا العالم طائفتين من القصص: طائفة تتناول كفيات التعذيب، وطائفة تتناول طبيعة أعمال الجلاوزة في قصر النهاية، نتقلها نحن بإيجاز حتى نتعرف على مدى تحكم الغربيين . وبالأخص البريطانيين والإسرائيليين . بالمسلمين، وإنهم أخذوا يطبقون في البلاد الإسلامية حلمهم القديم في إبادة المسلمين وتعذيبهم وتفتينهم عن دينهم وإذلالهم.

فقد ذكر في الطائفة الأولى من أساليب التعذيب البعثية.

١ . إهانة المقدسات:

إجبار المعتقل على سب الله تعالى والرسول (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) والقرآن، والاستهزاء بالمقدسات، وقد ذكر أحدهم الزهراء (عليها السلام) بسب مقذع لا يمكن التفوه به.

كما أنهم كانوا يجبرون المعتقلين على الترحم على (يزيد) لأنهم يعرفون أن المسلمين يكتنون ليزيد بصورة خاصة العدا والبغضاء، وكذلك الترحم على (ابن زياد) و(ابن سعد) و(شمر) و(هارون) ومن إليهم من العباسيين، خصوصاً الذين كانوا أكثر عداً لأهل البيت (عليهم السلام) كالمتموكل.

٢ . اغتصاب أقرباء السجين:

يأتون بأقرباء المسجون من بنين وبنات لأجل أن يعترف المسجون بما يشاؤون، فإذا لم يعترف جاؤوا بأقربائه وهددوه بأنه إذا لم يعترف بما يريدون فإنهم يغتصبون ذويه، وأحياناً يكون القريب صغيراً، كبت لها ست أو سبع سنوات أو ولد كذلك وأحياناً ينتهي الأمر إلى الموت. وكان هذا العالم قد رأى مثل هذا الشيء بأعينه مرتين وأضاف إنهم يرتكبون ذلك أمام السجناء الآخرين بغية تخويفهم بأنهم إذا لم يعترفوا انتزعوا الاعتراف منهم بهذه الصورة.

٣ . تسليط الكلاب الجائعة:

تسليط الكلاب الجائعة على الإنسان المعتقل، وأحياناً كانوا يجوعون الكلاب ثلاثة أيام أو يومين ثم يربطون المعتقل ربطاً محكماً ويسلطون عليه كلبين أو ثلاثة أو أربعة فتنهش جسمه، وتأكل لحمه، وهو حي.

٤ . تعرية المرأة والاعتداء عليها:

تعرية المرأة عن ملابسها، وأمرها أن تقفز أمام الجلاوزة، وإذا لم تقفز ضربوها بالسياط الشائكة وأحياناً بالسياط الكهربائية، ثم يربطونها ويعتدون عليها وكذلك يعملون أحياناً مع الشاب فيعرونه من ملابسه ويأمرونه بالقفز ثم يعتدون عليه.

٥ . الاختلاط العاري بين الجنسين:

يعرون جماعة من النساء والرجال، ويجسسونهم في غرفة واحدة.

٦ . بتر الأعضاء:

بتر أعضاء الجسم كاليد والرجل والأنف والأذن وحتى مواضع الجنس وكذلك أيضاً: فقاً العين.

٧ . الغطس في حوض القذارات:

تغطيس الرأس في حوض من النجاسة، فإذا أحسوا بأنه على وشك الموت رفعوا رأسه وهكذا يكررون العملية مرات مما سبب ذات مرة موت المعتقل.

٨ . الموقد الكهربائي:

إجلاسه على الموقد الكهربائي وأحياناً يمددونه على السرير الحديدي المكهرب حتى يشتم المعتقلون من هذا المعذب رائحة اللحم المشوي، ويغمى عليه، وأحياناً ينتهي الأمر إلى موته.

٩ . شبيّ الجسد:

تقطيع اللحم من جسد المعتقل المعذب، وجعل بعض أجزاء جسده على النار، ويسمونه (الكّص)، ويطعمون المعذب وأصدقائه المعذبين مما ينتهي في أكثر الأحيان إلى إغماء المعذب.

١٠ . السرداب الرهيب:

إنزال المعتقل إلى سرداب رهيب فيه جثث الأموات، وشعور النساء، والأظفار المقلوعة، والعظام وما أشبه قال هذا العالم: أنزلوني ذات مرة في مثل هذا السرداب وكان السرداب مظلماً، وفي آخر السرداب شمعة صغيرة، ولما دخلت السرداب رأيت فيه أناساً جالسين فظننت أنهم مثلي، عذبوهم ثم جاؤوا بهم إلى هنا لانتهاؤ تعذيبهم، فسلمت

عليهم ولكنهم لم يردوا السلام، فتعجبت وظننت أنهم من الأمن يريدون تعذيبي أو تخويفي، فسلمت مرة ثانية فلم يجيبوا، وسلمت مرة ثالثة وسألت: من أنتم؟ هل أنتم من الأمن أو من السجناء؟ ولما لم يجيبوا لمست بعضهم وإذا به ميت جاؤوا به هنا لإرعاب السجناء، فخفت كثيراً، لكنني توكلت على الله تعالى، وذكرت اسم الله عز وجل، وأخذت أتصفح أولئك الجالسين، فرأيت بعضهم أمواتاً وقد أسندوا إلى الجدار لئلا يسقطوا، كما رأيت بعض الرؤوس المقطوعة المنفصلة عن أجسادها، ورأيت الأيدي والأرجل المكسورة، وكنت أشم الرائحة الكريهة جداً، فأصبت من جراء ذلك بالغثيان والدوران في رأسي وظننت إني سوف أقضي نحبي من كثرة ما أصابني من التقيؤ والاستفراغ، وبقيت هناك ساعات، ثم أخرجوني وأنا شبه مغمى عليّ وعالجوني بالمعقمات والأدوية المضادة للتسمم حتى رجعت إلى ما كنت عليه من الحالة الطبيعية.

١١. كهربية الأعضاء الحساسة:

إيصال الكهرباء إلى المناطق الحساسة من الجسم كأجفان العين، وتحت الأباط، والأعضاء التناسلية، والأذن، وما أشبهه، مما يحدث في المعذب ارتجاجاً شديداً، وأحياناً يصاب بمس من الجنون.

١٢. ضرب الأرجل:

شد الأرجل بجبل والضرب بالعصى الغليظة عليها عنيماً وأحياناً يستعملون ذلك مع المعذب حتى تدمى رجليه وتتورم ولا يتمكن من الجلوس والمشي.

١٣. القنينة الزجاجية:

إجلاس المعتقل بعنف على قنينة زجاجية كقنينة (البيبيسي كولا) أو ما شابهها مما يسبب له الإغماء غالباً.

١٤. ثقب الأعضاء:

ثقب الرجل أو اليد بآلة كهربائية وكذلك ثقب الأذن والأنف.

١٥. التعليق بالمراوح السقفية:

تعليق المعتقل بالمروحة السقفية من رجليه، ثم تشتغل المروحة بشدة، والجلالوزة يلتفون حول المعذب يضربونه بالسياط.

١٦. إحراق الشعر واللحية:

حرق شعور النساء ولحى الرجال، وإطفاء السجاير على مختلف مواضع الجسم، وأحياناً في داخل العين.

١٧. قلع الأظافر:

قلع الأظافر، وإدخال الأبر في الأنامل.

١٨. شق طرفي الفم:

شق الفم من الطرفين، يعملون هذا مع من يقولون أنه سبهم، أو صعد المنبر، ويبلغ للدين الإسلامي.

١٩. النفخ في البطن:

نفخ بطن المعذب بالمنفاخ حيث يدخلون المنفاخ الكهربائي في أسفله ثم ينفخون فيه فتتمزق أحشائه وأحياناً يموت من اثر ذلك بعد أيام قلائل.

٢٠ . الكيِّ بالنار:

الكيِّ بالنار، وذلك بان يدخلوا السلك الحديدي في النار ثم يضعونه على يد السجين أو رجله أو بطنه أو صدره، وأحياناً يدخلون هذا السلك من طرف من أطرافه ويخرجونه من الطرف الآخر، وبعد ذلك يتقيح الموضع مما يسبب الآلام الكثيرة للسجين.

٢١ . أرض الأوساخ:

إلقاء من يريدون تعذيبه على ارضية تصليح السيارات المملوءة بالزيت والأوساخ والتعفن.

٢٢ . تعليق المرأة من شعرها:

تعلق المرأة من شعرها بعد ربط الأيدي والأرجل، وأحياناً يعرونها تعرية تامة، ثم يعلقونها من شعرها أو من ثديها، الخ..

٢٣ . لسعات النحل:

يعرّون المعتقل ويضعونه في مكان ممتلئ بالنحل، فتتنقض عليه وتلسع مواضع من جسمه، وكثيراً ما يغمى على هذا المعتقل، وإذا لم يريدوا موته حقنوه بعد ذلك بالحقن المضادة.

٢٤ . الزنزانات الانفرادية:

حبس المعتقل في الزنزانات الانفرادية بحيث لا يتمكن من القيام ولا من المنام، وأحياناً يملؤون المكان بالماء الحار والبارد حتى يكون المعتقل الجالس مغموراً بالماء إلى نصف جسمه، وأحياناً يضعون المعتقل في أسطوانات خاصة عملت لهذا الغرض فيبقى المعتقل فيها واقفاً لا يستطيع الجلوس ولا التحرك، وأحياناً، يفتحون الباب ليجدوا المعتقل ميتاً.

٢٥ . نتف الشعر:

نتف شعر الرأس واللحية والحاجب والأهداب وما أشبهه بجهاز خاص، وكثيراً ما تنقلع بعض أجزاء اللحم مع الشعر مما يوجب ألماً مرّاً للمعتقل.

٢٦ . إزعاج النائمين:

إزعاج المعتقل في أوقات منامه بمكبرات صوت قوية، وبمصاييح كهربائية قوية، مما يسبب له إزعاجاً غريباً، ويخلق فيه الارتجاف الشديد وأحياناً يصبون على النائم ماءً حاراً جداً أو بارداً جداً مما يسبب له توتر الأعصاب.

٢٧ . كبس الأذن بالجدار:

كبس الأذن بالجدار بمسمار في حالة جلوس المعذب أو نومه أو وقوفه، وأحياناً يصاب المعذب بالانهيار فيسقط فتتخرق أذنه ويسيل الدم منها.

٢٨ . الرمي إلى الأسفل:

يربطون الرجل بجبل قوي أو سلك أو ما أشبه ثم يلقون المعتقل من طابق عال أو يرمونه في بئر مما يسبب له (التل) الشديد عند السقوط، وأحياناً يسبب ذلك قطع عصب الرجل أو انخلاع المفصل أو نحو ذلك.

٢٩ . قلع الأسنان:

قلع الأسنان أو كسرها بآلات حديدية وأحياناً يسبب ذلك كسر الفك أو اقتطاع اللحم مع السن.

٣٠ . قطع المعتقل عن العالم الخارجي:

حبس المعتقل في زنانات مظلمة وأحياناً مرطوبة وأحياناً مليئة بالماء، بحيث لا يرى السجين النور ولا يميز الليل من النهار، وأحياناً يسלטون أنبوباً من فوق رأسه يقطر الماء الحار أو البارد قطرة قطرة على الرأس مما يسبب للمعتقل إزعاجاً غريباً.

٣١ . التهديدات السافلة:

تهديد المعتقل بتهديدات سافلة أو إعدامه أو ما أشبه مما يسبب له ألماً نفسياً كبيراً.

٣٢ . وضع اليد في شق الباب:

وضع اليد في الباب وغلقه عليها، وكذلك أحياناً وضع الرجل.

٣٣ . عدم السماح بالنوم:

تعذيب المعتقل بعدم السماح له بأن ينام، وذلك بان يضربونه كلما أراد النوم أو يوخزونه بإبرة أو ما أشبهه، وأحياناً يصاب بالانهيار فيسقط على الأرض من شدة النعاس، وأحياناً ترتج أعصابه ارتجاجاً شديداً.

٣٤ . القيير المذاب:

وضع رجلي المعتقل أو يديه أو مؤخر رأسه في القيير المذاب وأحياناً يصبونه على جسده.

٣٥ . ربط اليدين عند الأكل:

ربط يد المعتقل عند الأكل أو الشرب ليحبر على الانحاء ويأكل ويشرب كالدواب، وأحياناً يربطون يده عند إرادته قضاء الحاجة مما يسبب أن لا يتمكن من تطهير نفسه بالماء.

٣٦ . غرس الأبر في اللسان:

سلّ لسان المعتقل، ثم غرس أبرة كبيرة فيه من خارج الفم، مع ربط يديه ورجليه لكي لا يتمكن من إخراج الابرة فيبقى لسانه مدلغاً خارج فمه مما يسبب له تعذيباً جسدياً ونفسياً في وقت واحد، وأحياناً يرشون على ذلك اللسان المجروح الفلفل أو الملح أو سائر المواد الحارقة الحادة، كما أنهم يجرحون بعض مناطق الجسم الآخر ويرشون عليه الخل أو الملح أو الفلفل أو ما شابه ذلك.

٣٧ . دحرجة السجين:

يعصّبون عين المعتقل ويربطون يديه ورجليه حتى لا يتمكن من التحرك ثم يدحرجونه من درج أو نحو حتى يسقط إلى أسفل، وتصيبه الرضوض والكسور والجراح.

٣٨ . المواد الحارقة:

صب الأسيّد أو المواد الحارقة الأخرى على بعض أنحاء الجسم للتشويه والإيلام، وأحياناً يصبون الأسيّد في عينه أو في فمه أو في بعض أعضائه التناسلية مما يسبب له إيلاماً شديداً.

٣٩ . الحقن بالماء الحار:

حقن المعتقل بالماء الحار الذي يغلي، مما يسبب له تورماً في داخل البطن، وحرقاً شديدة، وآلاماً كثيرة.

٤٠ . الكلب يعبث بالمعتقل:

شد المعتقل بكرسي، وإخراج (...) من ثقب في أسفل الكرسي ثم تسليط كلب معلم ليلعب به، فيوجب ذلك للمعتقل أشد الألم ويغمر عليه في كثير من الأحيان.

٤١ . كماشة على الأنف:

وضع كماشة على أنف المعتقل مما يسبب له ألماً شديداً، ولا يتمكن من التنفس إلا من فمه، وتتغير بذلك نبرة صوته، فإذا أراد أن يتكلم ضحك عليه الجلاوزة، وذلك مع شد يديه حتى لا يتمكن من إزاحة الكماشة.

٤٢ . صبغ نصف الوجه:

صبغ نصف الوجه مورباً أو عمودياً أو أفقياً بصبغ ثابت لا يزول مما يسبب للمعتقل آلاماً نفسية بسبب ضحك الجلاوزة عليه.

٤٣ . تعذيب السجين بزملائه:

ضرب معتقل بمعتقل آخر ضرباً عنيفاً، أو ضرب راس أحدهما براس الآخر، أو بالحائط، أو شد اليدين والرجلين وربط المعتقل بالأرض وإلقاء معتقل آخر بعد شد يديه ورجليه على ذلك المعتقل، وأحياناً يلقون خمسة معتقلين بعضهم فوق بعض، ويشدونهم بحبل حتى يسبب لهم ثقلاً وإزعاجاً وتعذيباً نفسياً وجسدياً.

٤٤ . مسحوق دي. دي. تي:

ملء عيون المعتقل بمسحوق (دي. دي. تي) الذي يستعمل لإبادة الحشرات، أو صب النفط في عين المعتقل، وأحياناً يمددون المعتقل ويفتحون فمه ويبول الجلاوزة أو يتغوطون في فمه مما يسبب له أذى كبيراً.

٤٥ . البول بدل الماء:

عدم إعطاء الماء للمعتقل، ثم تقديم بول أو ماء وسخ إليه حتى يجبر على شربه من شدة العطش، وأحياناً يمنعون الماء عن معتقل حتى يموت عطشاً خصوصاً في شدة القيظ في تموز.

٤٦ . تنظيف الأوساخ بالملابس:

أمر المعتقل بكنس المراحيض، وجمع القمامة بملابسه، وأحياناً يصبون فوق رأس المعتقل المربوط إناءً من القذارة والنحاسة، وأحياناً لا يتركون المعتقل يخرج من غرفته للتخلي فيجبر على أن يبول ويتغوط في نفس غرفته مما يسبب له تلوثاً وأذيةً وتعفنًا، وأحياناً يفعلون ذلك بعدة معتقلين في غرفة واحدة.

٤٧ . جرّ آلة المعتقل:

ربط آلة المعتقل بجلبل مع ربط نفس المعتقل بالحائط ونحوه، ثم جر الحبل، ونتره مما يسبب له أذى، وأحياناً يوجب له إغماءً.

٤٨ . الأموات في الزنزانة:

يأتون بالميت في قصر النهاية إلى بعض غرف المعتقلين ويتركونه في غرفة المعتقلين مما يسبب إرهابهم وإيذائهم بعفونته بعد يومين أو ثلاثة أيام.

٤٩ . حديدة في الفم:

وضع حديدة في فم المعتقل وربطه من وراء رأسه مما يترك المعتقل فاغر الفم ويسبب له آلاماً جسدية ونفسية.

٥٠ . تقليد البهائم:

ربط رقبة المعتقل بجل غليظ يسبب له إيلاًماً في رقبته، ثم يمسك أحد الجللاوزة طرف الحبل ويؤمر المعتقل بأن ينحني ويمشي على يديه ورجليه، ويصيح فإذا لم يفعل ذلك ضربه بالسياط.

إلى غير ذلك من الأقسام التي رآها هذا العالم رؤية العين.

الطائفة الثانية من التعذيب

قصص نقلها هذا العالم مما رآه في قصر النهاية.

قال: إنه ذات مرة جاؤوا بأربعة من الضباط، الشباب، وربطوهم بالحائط ثم قال أحد المجرمين في قصر النهاية لجملة من حملة البندقيات . وكان رئيساً لهم .: جربوا بندقياتكم على هؤلاء، وإذا بهم يمتطرون أولئك الضباط بوابل من الرصاص أجزت منهم الدماء الغزيرة وسلموا أرواحهم الى الله سبحانه في اللحظة.

وذات مرة حكم على إنسان بالإعدام، لكن بعد يوم رأيناهم وقد أتوا بأحد المجانين . وكانت آثار الجنون ظاهرة عليه . وأعدموه بالكروسي الكهربائي، وأطلق سراح المحكوم عليه بالإعدام، فتعجبنا من الحادث، وبعد أن خرجنا من قصر النهاية علمنا أن ذوي المحكوم عليه لما سمعوا بحكم الإعدام هرعوا إلى خير الله طلفاح (وهو خال صدام وأبو زوجته) وأرشوه بمائة ألف دينار، فاحتال الطلفاح للجمع بين أمر محكمة الثورة بالإعدام وبين نجاة السجين بهذا الأسلوب مما ذهب ضحيته مجنون بريء.

وفي ذات مرة اعتقل شاب وعذب ولما سألناه عن سبب اعتقاله؟ قال: إنه تزوج من فتاة وأراد رئيس الحزب في منطقته في بلد (كذا) أن يشترك معه في زوجته مما أدى الأمر إلى النزاع بينهما، فإتهمه البعثي بأنه قد حاز على أسلحة ضد الحكومة ودرس في داره سلاحاً، فقادوه إلى الاعتقال، قال العالم: وكان ذلك الشاب يبكي ويقول إنه لا يعلم ماذا تلاقي زوجته من ذلك الرئيس، بعد أن صفا له الجور.

إلى غير ذلك من القصص التي كان يرويها ذلك العالم، مما لو أردنا سردها لأصبح كتاباً ضخماً، وإنما أردنا الإلماع فقط، ليعرف: كيف أن الغربيين يحقدون على الإسلام والمسلمين حقداً لا يشابهه حقد مما سبب تدمير البلاد الإسلامية ومنها العراق . الذي ابتلي بحزب البعث عميل بريطانيا وإسرائيل ..

١ . وهي مصر وكان ذلك في زمان عبد الناصر.

العامل الثالث

العنف

عدم الرفق، واستعمال العنف في الكلام والعمل والكتابة مع سائر الناس كما نرى ذلك في بعض الحركات الإسلامية، ويحدثنا التاريخ عن جملة منها أيضاً كانوا قبل نصف قرن وكانوا يتصفون بمثل ذلك مما سبب عدم تمكنهم من النفوذ والتقدم والانتشار.

الرفق في النصوص الدينية

وقد ورد في الرفق روايات كثيرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام).

فقد روى معاذ بن مسلم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الرفق بمن والخرق شؤم) (١).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف) (٢).

وعن موسى بن بكر، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (الرفق نصف العيش) (٣).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الله رفيق يحب الرفق) (٤).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه) (٥).

وعن أبي المقدم رفعه، عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إن في الرفق الزيادة والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير) (٦).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ما زوي الرفق عن أهل البيت إلا زوي عنهم الخير) (٧).

وعن أبي الحسن (عليه السلام) قال: وقد جرى بيني وبين رجل من القوم كلام. فقال لي: (أرفق بهم، فإن كفر أحدهم في غضبه، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه) (٨).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام): (من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس) (٩).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إن الله رفيق يحب الرفق في الأمور كلها) (١٠).

وعن هشام بن الحكم، عن الكاظم (عليه السلام) أنه قال: (يا هشام عليك بالرفق، فإن الرفق خير والخرق شؤم، إن الرفق والبر وحسن الخلق يعمر الديار ويزيد في الرزق) (١١).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسين (عليه السلام): (يا بني رأس العلم الرفق وآفته الخرق) (١٢).

وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (ما ارتج امرؤ وأحجم عليه الرأي وأعيت به الحيل إلا كان الرفق مفتاحه) (١٣).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (الرفق رأس الحكمة، اللهم من ولي شيئاً من أمور أمي فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه)(١٤).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الرفق ييسر الصعاب ويسهل الأسباب)(١٥).

وقال (عليه السلام): (الرفق بالاتباع من كرم الطباع)(١٦).

وقال (عليه السلام): (رأس الجهل الخرق)(١٧).

وقال (عليه السلام): (ليكن شيمتك الوقار فمن كثر خرقه استزدل)(١٨).

وقال (عليه السلام): (لسان الجهل الخرق)(١٩).

الحلم(٢٠)

عن محمد بن عبد الله قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: (لا يكون الرجل عبداً حتى يكون حليماً)(٢١).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: (إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه)(٢٢).

وعن حفص بن أبي عايشة، قال: بعث أبو عبدالله (عليه السلام) غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج على أثره لما أبطأه فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فقال له أبو عبدالله (عليه السلام): (يا فلان والله ما بالك تمام الليل والنهار، لك الليل، ولنا منك النهار)(٢٣).

وعن انس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) (في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً، وأعظمكم حلماً، وأبركم بقرابته، وأشدكم من نفسه إنصافاً)(٢٤).

وعن الحسين بن يزيد، عن جعفر بن محمد، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (والذي نفسي بيده ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم)(٢٥).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (أول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل)(٢٦).

وقال (عليه السلام): (إن لم تكن حليماً فتحلم فإنه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم)(٢٧).

الرفق في الأمور

عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن لكل شيء قفلاً، وقفل الإيمان الرفق)(٢٨).

وعن أحمد بن زياد بن أرقم، عن رجل، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق، والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال، والرفق لا يعجز عنه شيء والتبذير لا يبقى معه شيء إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق)(٢٩).

وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لو كان الرفق خلقاً يرى ما كان مما خلق الله شيء أحسن منه)(٣٠).

وعن موسى بن بكر، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (الرفق نصف العيش)(٣١).

وعن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه)(٣٢).

وعن عمر بن أبي المقدام رفعه عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إن في الرفق الزيادة، والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير)(٣٣).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه)(٣٤).

١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٣.

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق: ص ٢١٤.

٤ . المصدر السابق.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق.

٧ . المصدر السابق.

٨ . المصدر السابق.

٩ . المصدر السابق: ص ٢١٥.

١٠ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢٩٤.

١١ . المصدر السابق.

١٢ . المصدر السابق.

١٣ . المصدر السابق: ص ٢٩٥.

١٤ . المصدر السابق.

١٥ . المصدر السابق.

١٦ . المصدر السابق.

١٧ . المصدر السابق: ج ١٢، ص ٧٣.

١٨ . المصدر السابق.

١٩ . المصدر السابق.

٢٠ . الحلم خاص في قبال الجاهل، والصبر أعم، ولذا يقال حلم فلان عن الجاهل، ولا يقال حلم عند المصيبة، وهكذا.

٢١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٠.

٢٢ . المصدر السابق.

٢٣ . المصدر السابق: ص ٢١١.

٢٤ . المصدر السابق.

٢٥ . المصدر السابق: ص ٢١٢.

٢٦ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ٤٧.

٢٧ . المصدر السابق.

٢٨ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٣.

٢٩ . المصدر السابق.

٣٠ . المصدر السابق.

٣١ . المصدر السابق: ص ٢١٤.

٣٢ . المصدر السابق.

٣٣ . المصدر السابق.

٣٤ . المصدر السابق: ص ٢١٥.

العامل الرابع

الاستبداد الحزبي

هنالك بعض التنظيمات تعاني من الاستبداد، فالقمة تتخذ القرارات دون استشارة القاعدة والوسط ولا استشارة سائر الناس، مما يوجب:

أولاً: عدم شد الوسط والقاعدة بالقمة، وكذلك عدم شد القاعدة بالوسط، ويسبب ذلك الانفراط المعنوي في النفوس، ويتبع الانفراط المعنوي الانفراط الخارجي، كما رأينا ذلك في بعض الأحزاب الإسلامية حيث تمزقت وحارب بعضهم بعضاً ووقع بينهم النزاع والتشاجر.

وثانياً: ابتعاد الناس وعدم تفاعلهم مع التنظيمات، لأن الناس لا يتفاعلون إلا مع من يتفاعل معهم، لا التفاعل معهم في الحاجات فحسب، بل في الآراء والأعمال أيضاً، فإن الناس يريدون من هو منهم وإليهم، وهم منه وإليه، ولا يريدون جماعة يعملون خارج نطاقهم، ويتكبرون عليهم، ويستبدون بالآراء دونهم، ولذا لا تتمكن أمثال هذه التنظيمات من تحريك الناس.

فالواجب على المنظمات الإسلامية وأشباهها . ممن يريد إنقاذ المسلمين . أمران: الاستشارة والتواضع.

روايات حول الاستشارة

وقد وردت في الاستشارة آيات وروايات، وقد ذكرنا بعض الآيات في السابق، أما الروايات فهي كثيرة جداً. منها: ما رواه ابن القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه (عليه السلام) قال: (قيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما الحزم؟

قال: (مشاورة ذوي الرأي واتباعهم)(١).

وعن السري خالده، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (فيما أوصى به رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام) قال: (لا مظاهره أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير)(٢).

وعن أبي الجارود، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (في التوراة أربعة أسطر: من لا يستشير يندم، والفقر الموت الأكبر، كما تدين تدان، ومن ملك استأثر)(٣).

وعن سماعة بن مهران، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لن يهلك أمرء عن مشورة)(٤).

وروى السيد الرضي في نهج البلاغة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة)(٥).

وقال (عليه السلام): (من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها)(٦).

وقال (عليه السلام): (خاطر بنفسه من استغنى برأيه)(٧).

وعن المفضل بن عمر قال: قال الصادق (عليه السلام): (من لم يكن له واعظ من قلبه، وزاجر من نفسه، ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه)(٨).

وعن المعلّى بن خنيس قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (ما يمنع أحدكم إذا ورد عليه ما لا قبل له به أن يستشير رجلاً عاقلاً له دين وورع)، ثم قال أبو عبدالله (عليه السلام): (أما أنه إذا فعل ذلك لم يخذله الله بل يرفعه الله ورماه بخير الأمور وأقربها إلى الله)(٩).

وعن معمر بن خلاد قال: هلك مولى لأبي الحسن الرضا (عليه السلام) يقال له سعد وقال: (أشّر عليّ برجل له فضل أمانة).

فقلت: أنا أشير عليك؟

فقال (عليه السلام): شبه المغضب: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد)(١٠).

وعن الفضيل بن يسار قال: استشارني أبو عبدالله (عليه السلام) مرة في أمر فقلت: أصلحك الله مثلي يشير على مثلك؟ قال: (نعم إذا استشرتك)(١١).

وعن الحسن بن الجهم قال: كنا عند أبي الحسن الرضا (عليه السلام) فذكر أباه فقال: (كان عقله لا توازن به العقول، وربما شاور الأسود من سودانه، فقليل له: تشاور مثل هذا؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى ربما فتح على لسانه). قال: (فكانوا ربما أشاروا عليه بالشيء فيعمل به من الضيعة والبستان)(١٢).

وعن عمر بن جميل، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من لم يستشر يندم)(١٣).

وقال: (من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ)(١٤).

وعنه (عليه السلام) قال: (لا رأي لمن انفرد برأيه)(١٥).

وقال (عليه السلام): (ما عطب من استشار)(١٦).

وقال (عليه السلام): (من شاور ذوي الأسباب دل على الرشاد)(١٧).

وقال (عليه السلام): (لا تشر على المستبد برأيه)(١٨).

وعن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال: (من استشار لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذراً)(١٩).

المعصومون (عليهم السلام) يستشيرون أصحابهم

ومن المعروف عند العامة والخاصة كثرة استشارة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأصحابه، وكان يقول لهم: (أشيروا علي)(٢٠).

وكذلك جعل الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من حق الأمة عليه أن يستشيرهم.

وكذلك وردت روايات في استشارة سائر الأئمة (عليهم السلام) لأصحابهم.

وفي حديث يرويه مهج الدعوات: إن موسى بن المهدي العباسي هدد موسى بن جعفر (عليه السلام)، قال: قتلتني الله إن أبقيت عليه.

قال: وكتب علي بن يقطين إلى أبي الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام) بصورة الأمر، فورد الكتاب، فلما أصبح أحضر الإمام (عليه السلام) أهل بيته وشيعته فأطلعهم (عليه السلام) على ما ورد عليه من الخير وقال لهم: (ما تشيرون في هذا؟).

فقالوا: نشير عليك . أصلحك الله . أن تباعد شخصك من هذا الجبار (٢١).

١ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٤٢٤ .

٢ . المصدر السابق .

٣ . المصدر السابق .

٤ . المصدر السابق .

٥ . المصدر السابق: ص ٤٢٥ .

٦ . المصدر السابق .

٧ . المصدر السابق .

٨ . المصدر السابق .

٩ . المصدر السابق: ص ٤٢٦ .

١٠ . المصدر السابق: ص ٤٢٨ .

١١ . المصدر السابق .

١٢ . المصدر السابق .

١٣ . مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٣٤١ .

١٤ . المصدر السابق .

١٥ . المصدر السابق .

١٦ . المصدر السابق: ص ٣٤٢ .

١٧ . المصدر السابق .

١٨ . المصدر السابق .

١٩ . المصدر السابق .

٢٠ . بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢١٨ .

٢١ . مستدرك الوسائل: ج ٨، ص ٣٤٧ .

العامل الخامس

الحياة المترفة للقادة

مجموعة من قادة الأحزاب والمنظمات الإسلامية يسلكون سبيل البذخ والترف، بسكنى القصور، وامتطاء السيارات الفارهة، والتزوج بالفتيات الجميلات ذوات المكانة المرموقة، وهيئة وسائل العيش المريحة، وبذلك ينفصلون عن عامة الشعب، حيث إن من طبيعة الناس عدم الاعتراف بقادة يسكنون الأبراج العاجية ويرفلون في النعيم ثم يتكلمون باسم الفقراء والمساكين وباسم الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى أن من يتكلم باسم الدين لا بد وأن يكون مثل الرسول (صلى الله عليه وآله) وخلفائه الطاهرين (عليهم السلام) في السلوك والعمل، فإذا رأى الناس رؤساء المنظمات والأحزاب والجمعيات الإسلامية يسلكون خلاف سلوكهم عرفوا أنهم ليسوا من الإسلام في شيء فانفضوا من حولهم، ويسبب ذلك فشلهم.

مثال القيادة النموذجية

ونحن نرى أن القائدين العظيمين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وسائر الأئمة (عليهم السلام) كانوا يعيشون عيشة متواضعة زاهدة قانعة (بما في هذه الكلمات من معنى). فقد روى قرب الإسناد، عن أبي عبد الله عن أبيه الباقر (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يورث ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة ولا شاة ولا بعيراً، ولقد قبض (صلى الله عليه وآله) وإن درعه مرهونة عند يهودي من يهود المدينة بعشرين صاعاً من شعير استلفها نفقة لأهله)(١). وإذا عرفنا: إن كل صاع ثلاثة كيلوات تقريباً كان معنى ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان محتاجاً. لغذاء أهله . إلى ستين كيلو من الشعير، مع العلم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان له عند وفاته تسع زوجات وكان حاكماً على سبع دول أو أكثر. في خريطة عالم اليوم.. وفي حديث: (قد مات رسول الله (صلى الله عليه وآله) مات وعليه دين)(٢). وقال قتادة: بلغنا أن علياً (عليه السلام) نادى ثلاثة أعوام بالموسم (من كان له على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعليه وآله) شيء فليأتنا نقضي عنه)(٣). وفي رواية: أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما توفي كان عليه من الدين ثمانون ألف درهم فأداها علي (عليه السلام).

وقد ذكرنا جملة من زهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بعض فصول هذا الكتاب.

وسار علي (عليه السلام) على سنن الرسول فقد حفظ التاريخ أنه (عليه السلام) لما استشهد كانت ممتلكاته النقدية سبعمائة درهم فقط حصلها من عطائه من بيت المال وقد جعلها ليشتري بها خادماً لبنته أم كلثوم أما ديونه فقد كانت ثمانمائة ألف درهم.

فقد روى (كشَف الحجة) عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قبض علي (عليه السلام) وعليه دين ثمانمائة ألف درهم فباع الحسن (عليه السلام) ضيعة له بمئتي ألف درهم فقضاها عنه، وباع له ضيعة أخرى بثلاثمائة ألف درهم فقضاها عنه، وذلك أنه لم يكن يذر من الخمس شيئاً وكانت تنوبه نواب) (٤).

أقول: أما الضيعتان فقد كانتا من غرس الإمام (عليه السلام) في مدة إقصائه عن الحكم، وقد وقّف علي (عليه السلام) أغلب الضياع كما يحدثنا بذلك التاريخ.

وعن الصادق (عليه السلام): أن الحسن (عليه السلام) وعليه دين وقتل الحسين (عليه السلام) وعليه دين (٥). وفي رواية السيد، عن الباقر (عليه السلام) أن علي بن الحسين (عليه السلام) باع ضيعة له بثلاث مائة ألف ليقضي دين الحسين (عليه السلام) وعدات كانت عليه (٦).

وفي رواية أخرى (فاهتمّ علي بن الحسين بدين أبيه حتى امتنع من الطعام والشراب والنوم في أكثر أيامه ولياليه) (٧).

وفي رواية عن الصادق (عليه السلام): قد مات رسول الله وعليه دين، ومات الحسن (عليه السلام) وعليه دين، وقتل الحسين وعليه دين (٨).

صور من زهد أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد اتبع علي أمير المؤمنين (عليه السلام) الرسول في زهده وقال هو (عليه السلام) في كلمة له: (والله لندياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم) (٩).

وفي حديث آخر: (من عطفة عنز) (١٠). وقد روى (المناقب) عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: (ولقد ولي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطعاً ولا أورث بيضاء ولا حمراء) (١١).

ومعنى هذا الحديث أنه لم يصنع الإمام لنفسه داراً، ولا أنه جمع مالاً، ولا إنه خص لنفسه أرضاً يقطعها باسم نفسه.

وروى المناقب أيضاً عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه كان يقول: (ما كان لنا إلا أهاب كبش أبيت مع فاطمة (عليها السلام) بالليل عليها ونعلف عليها الناضح بالنهار) (١٢).

إزار غليظ، وآخر مرّقع وفي رواية أنه رؤي علي (عليه السلام) وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم ورؤي (عليه السلام) وعليه إزار مرقوع فقيل له في ذلك؟

فقال (عليه السلام): (يقتدي به المؤمنون، ويخشع له القلب، وتدل به النفس ويقصد به المبالغ، أشبهه بشعار الصالحين، وأجدر أن يقتدي به المسلم) (١٣).

الإمام يخرق كم قميصه وفي رواية: (أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) نظر إلى فقير خرق كمّ ثوبه فخرق كم قميصه وألقاه إليه).

إن خرجت بغير ما دخلت فأنا خائن

وفي البحار عن الأصمغ قال توجه علي (عليه السلام) إلى أهل البصرة وقال: (يا أهل البصرة ما تنقمون مني؟ إن هذا لمن غزل أهلي (وأشار إلى قميصه) ثم قال: دخلت بلادكم بأشمالي هذه ورحلي وراحتي، هاهي فإن أنا خرجت من بلادكم بغير ما دخلت فإنني من الخائنين)(١٤).

الإمام (عليه السلام) يرتحف من البرد

وروى هارون بن عنتره عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالخورنق (وهو موضع بالكوفة آنذاك، والآن بظاهر الحيرة) وهو يردد تحت سمل قطيفة (أي الثوب الخلق البالي) فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال ما يعم وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟.

فقال (عليه السلام): (والله ما أرزكم من أموالكم شيئاً وإن هذا لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي من المدينة ما عندي غيرها)(١٥).

الإمام (عليه السلام) يحلّ أزمة المسكن

وفي المناقب نقلاً عن فضائل أحمد قال علي (عليه السلام): (ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعماً إن أدناهم منزلة ليأكل البر، ويجلس في الظل، ويشرب من ماء الفرات)(١٦).
يعني أن عنده الدار والمأكل والمشرب.

وفي رواية أخرى رأيتها في بعض الكتب إن كل أهل بلاد الإمام (عليه السلام) أصبحوا هكذا في عهد الإمام (عليه السلام) مع أن بلاده (عليه السلام) كانت واسعة جداً أخذة إلى ليبيا ومنتبهة إلى داغستان في الاتحاد السوفيتي.

يطعم الناس خبز البر، ويأكل خبز الشعير

وفي رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام): (كان (عليه السلام) ليطعم الناس خبز البر واللحم وينصرف إلى منزله ويأكل خبز الشعير والزيت والخل)(١٧).

لبن حامض، ورغيف صلب

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي بن أبي طالب (عليه السلام) العصر فوجدته جالساً وبين يديه صحيفة فيها لبن حازر أجد ريحه من شدة حموضته، وفي يده رغيف أرى قشار الشعير في وجهه وهو يكسر بيده أحياناً، فإذا غلبه كسره بركبته وطرحه فيه فقال (عليه السلام) لي: (أدن فأصب من طعامنا هذا). إلى أن قال .

فقلت لجاريتته وهي قائمة قريباً منه: ويحك يا فضة ألا تتقين الله في هذا الشيخ، ألا تنخلين له طعاماً؟

قال علي (عليه السلام) لي: (ما قلت لها؟).

قال: فأخبرته.

فقال (عليه السلام): (بأبي وأمي من لم ينخل له طعام، ولم يشبع من خبز البر ثلاثة أيام حتى قبضه الله).

يعني بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله).

قد اكتفى من دنياه بطمريه

وفي رواية نقلها العلامة المجلسي عن القطب الراوندي: أن علياً (عليه السلام) قال: (واعلم أن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، يسد فورة جوعه بقرصيه، لا يطعم الفلذة (أي الكسرة من اللحم) في حوله إلا في سنة أضحيته)(١٨).

المراد بالطمر: الثوب البالي الخلق، لأن الإمام (عليه السلام) . في كثير من الأحيان . كان يلبس قطعتين: معزراً ورداءً، وإن كان يلبس في بعض الأحيان ثوباً طويلاً، والمراد بالفلذة القطعة من اللحم، والمراد بالقرصين القرصان من خبز الشعير يتغذى بأحدهما ويتعشى بالآخر، فكان (عليه السلام) يأكل في كل يوم قرصين.

الإمام (عليه السلام) يسمع مقلياً في بيته

وروى الشيخ المفيد إن أمير المؤمنين (عليه السلام) سمع مقلياً في بيته فنهض وهو يقول: (في ذمة علي بن أبي طالب مقلى الكراكر).

قال: ففزع عياله وقالوا: يا أمير المؤمنين إنها امرأتك فلانة نُحرت جزور في حيتها فأخذ لها نصيب منها فأهدى أهلها إليها.

قال (عليه السلام): (فكلوا هنيئاً مريئاً)(١٩).

وإنما خاف (عليه السلام) أن يكون هدية من بعض الرعية، وقبول الهدية لوالي المسلمين خيانة (والكراكر) إحدى ثغفات البعير أو الصدر خاصة.

الإمام (عليه السلام) لا يملك ثلاثة دراهم

وفي المناقب أنه (عليه السلام) كان يأتي عليه وقت لا يكون عنده قيمة ثلاثة دراهم يشتري بها إزاراً وما يحتاج إليه، ثم يقسم كل ما في بيت المال على الناس ثم يصلي فيه فيقول: (الحمد لله الذي أخرجني منه كما دخلته)(٢٠).

ينجز أعماله بنفسه

وروى البلخي قال: أنه . يعني علياً (عليه السلام) . اجتاز بسوق الكوفة فتعلق به كرسي فتخرق قميصه فأخذه بيده ثم جاء به إلى الخياطين فقال: (خيطوا لي ذا بارك الله فيكم)(٢١).

ملا بس متواضعة

وعن العبدى قال: رأيت علياً (عليه السلام) اغتسل في الفرات يوم الجمعة ثم ابتاع قميص كرايبس بثلاثة دراهم فصلى بالناس الجمعة، وما خيط جربانه بعد.

وفي رواية الزمخشري: أنه (عليه السلام) اشترى قميصاً فقطع ما فضل عن أصابعه ثم قال لرجل: (حصه أي خط كفافه)(٢٢).

ذكر الله.. دائماً

وجاء (عليه السلام) ذات مرة إلى حلاق ليصلح لحيته وشاربه فأراد الحلاق أن يأخذ من شاربه، وكان (عليه السلام) مشتغلاً بذكر الله تعالى تتحرك شفثاه، فقال له الحلاق: يا أمير المؤمنين كف عن الذكر لحظة حتى يعتدل الشارب، فقال (عليه السلام): (الأمر أسهل من ذلك) ولم يترك الذكر حتى لحظة.

الإمام (عليه السلام) يعرض سيفه للبيع

وفي شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة عن أبي رجاء قال: أخرج علي (عليه السلام) سيفاً إلى السوق فقال: (من يشتري مني هذا؟ فوالذي نفس علي بيده لو كان عند علي ثمن إزار ما بعته)(٢٣). فقلت له: أنا أبيعك إزاراً وأنسكك ثمنه إلى عطائك.

فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه، فلما قبض عطاؤه دفع إليّ ثمن الإزار.

الهدايا توزع على المسلمين

وقال حكيم بن أوس: أتى إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) بأحمال فاكهة، فأمر ببيعها، وأن يطرح ثمنها في بيت المال.

وقال حكيم أيضاً كان علي (عليه السلام) يبعث إلينا بزقاق العسل فيقسم فينا ثم يأمر أن يلغوه.

وعن عاصم أنه أهدى إلى علي (عليه السلام) سلال خبيص له خاصة، فدعا بسفرة فنثره عليها، ثم أجلس الناس حلقتين يأكلون.

وعن أبي حريز قال: إن المجوس أهدوا إلى علي (عليه السلام) يوم النيروز جامات من فضة فيها سكر فقسم السكر بين أصحابه وحسبها من جزيتهم.

قال: وبعث دهقان إلى علي (عليه السلام) بثوب منسوج من ذهب فابتاعه منه عمرو بن حريث بأربعة آلاف درهم إلى العطاء يعني أنه إذا خرج عطاء عمرو أعطى الثمن للإمام (عليه السلام) حتى يقسمه على المسلمين.

علي (عليه السلام) يقتدي بالرسول (صلى الله عليه وآله) في شؤونه

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (كان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يحتطب ويستقي ويكنس)(٢٤).

وعن الصادق (عليه السلام) أيضاً: (كان أمير المؤمنين (عليه السلام) أشبه الناس طعمة برسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأكل الخبز والخل والزيت، ويطعم الناس الخبز واللحم)(٢٥).

فلسفة زهد الإمام (عليه السلام)

وقد ذكر هو (عليه السلام) في كلام له فلسفة هذا الزهد (كما في الكافي) قال: (إن الله جعلني إماماً لخلقه ففرض عليّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس كي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغني غناه)(٢٦).

الطارق المشبوه

وفي كلام له (عليه السلام) بعد ما ذكر قصة عقيل وردّه (عليه السلام) له بدون أن يعطيه شيئاً من بيت المال، قال: (وأعجب من ذلك - أي من رجاء عقيل - أن أعطيه أكثر من سائر المسلمين) طارق طرفنا بملفوفة في

وعائتها، ومعجونة شنائها كأنما عجنت بريق حية أوقيعها، فقلت: (أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت؟).

فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية.

فقلت: (هبلتك المبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟ أختبب أنت أم ذو جنة أم تحجر، والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة اسلبها حلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها)(٢٧).

تعاليم إسلامية

حب الدنيا رأس كل خطيئة

عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (رأس كل خطيئة حب الدنيا)(٢٨).

وعن محمد بن مسلم قال: سُئِلَ علي بن الحسين (عليه السلام) أي الأعمال أفضل؟ قال: (ما من عمل بعد معرفة الله ومعرفة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أفضل من بغض الدنيا فإن لذلك شعباً كثيرة وللمعاصي شعب فأول ما عصي الله به الكبر (إلى أن قال) ثم الحرص ثم الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا وحب الرئاسة وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة فصرن سبع خصال فاجتمعن كلهن في حب الدنيا فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفة ذلك. حب الدنيا رأس كل خطيئة والدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة)(٢٩).

وعن حفص بن غياث، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: في مناجاة موسى (عليه السلام): (إن الدنيا دار عقوبة عاقبت فيها آدم على خطيئته، وجعلتها ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان فيها لي، يا موسى إن عبادي الصالحين زهدوا في الدنيا بقدر علمهم بي وسائر الخلق رغبوا فيها بجهلهم، وما من أحد عظمها فقترت عينه بها، ولم يحقرها أحد إلا انتفع بها)(٣٠).

وعن درست، عن رجل، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (حبّ الدنيا رأس كل خطيئة)(٣١).

وعن الكراجكي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من أحب دنياه أضرّ بآخرته)(٣٢).

وعن إسماعيل بن أبي زياد رفعه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه سُئِلَ عن الزهد في الدنيا، فقال: (ويحك، حرامها فتنكبه)(٣٣).

ترك ما زاد عن قدر الضرورة

عن الحسن بن راشد، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ما لي وللدنيا إنما مثلي كراكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقام تحتها ثم راح وتركها)(٣٤).

وعن ابن بكير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (في طلب الدنيا إضرار بالآخرة، وفي طلب الآخرة إضرار بالدنيا فاضروا بالدنيا فإنها أحق بالإضرار)(٣٥).

عن غياث بن ابراهيم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) إن في كتاب علي (عليه السلام): (إنما مثل الدنيا كمثل الحية ما ألين مسّها، وفي جوفها السم الناقع يحدّرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل)(٣٦).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصيّة النبي (صلّى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، يا علي أوحى الله إلى الدنيا أخدمني من خدمني، وأتعبني من خدمك، يا علي إن الدنيا لو عدلت عند الله جناح بعوضة لما سقي الكافر منها شربة من ماء، يا علي ما أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يتمنى يوم القيامة إنه لم يعط من الدنيا إلا قوتاً)(٣٧).

قال: وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): (ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى)(٣٨).
وبإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمحمد بن الحنفية قال: (ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، وتبوأ خفض الدعة والحرص داع إلى الترحم في الذنوب)(٣٩).

وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك)(٤٠).

قال: وقال (عليه السلام): (كل مقتصر عليه كاف)(٤١).
قال: وقال (عليه السلام): (الزهد بين كلمتين من القرآن قال الله تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) الحديد: ٢٣ ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد استكمل الزهد بطرفيه)(٤٢).
ذم الحرص على الدنيا

عن يحيى بن عقبة الأزدي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها في الخروج حتى تموت غمّاً)(٤٣).
قال: وقال أبو عبدالله (عليه السلام): (أغنى الغني من لم يكن للحرص أسيراً)(٤٤).

وقال: (لا تشعروا قلوبكم الاشتغال بما قد فات فتشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت)(٤٥).
وعن زرارة ومحمد بن مسلم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أبعد ما يكون العبد من الله عز وجل إذا لم يهمله إلا بطنه وفرجه)(٤٦).

وعن حفص بن فرط، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من كثر اشتباكه في الدنيا كان أشدّ لحسرتة عند فراقها)(٤٧).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (حرم الحريص خصلتين ولزمته خصلتان: حرم الفناعة فافتقد الراحة وحرم الرضا فافتقد اليقين)(٤٨).

ذم الطمع فيها

وعن ابن خالد، عن أبيه، عن ذكره، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (بئس العبد عبد يكون له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله)(٤٩).

وعن الزهري قال: قال علي بن الحسين (عليه السلام): (رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس)(٥٠).

وعن سعدان، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قلت: ما الذي يثبت الإيمان في العبد؟ قال: (الورع)، والذي يخرج منه؟ قال: (الطمع)(٥١).

وعن محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصيته لمحمد بن الحنفية قال: (إذا أحببت أن تجمع خير الدنيا والآخرة فاقطع طمعك مما في أيدي الناس)(٥٢).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (أتى رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: علّمني يا رسول الله شيئاً، فقال: عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى الحاضر، قال: زدني يا رسول الله، قال: إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر)(٥٣).

وفي نهج البلاغة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع)(٥٤).

وعن معمر بن خلاد عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن آبائه، عن علي (عليه السلام) قال: (جاء خالد إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله أوصني وأوجز لعلني أحفظ، فقال: أوصيك بخمس: باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى الحاضر، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلّ صلاة مودّع، وإياك وما تعتذر منه، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك)(٥٥).

الزهد في الدنيا

عن الهيثم بن واقد الجريري، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من زهد في الدنيا أنبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام)(٥٦).

وعن أبي حمزة قال: ما سمعت بأحد من الناس كان أزهّد من علي بن الحسين (عليه السلام) إلا ما بلغني عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال: وكان علي بن الحسين (عليه السلام) إذا تكلم في الزهد ووعظ أبكى من بحضرته، قال أبو حمزة: وقرأت صحيفة، فيها كلام زهد من كلام علي بن الحسين (عليه السلام) فكتبت ما فيها ثم أتيت علي بن الحسين (عليه السلام)، فعرضت ما فيها عليه فعرّفه وصحّحه وكان ما فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم: كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين، وبطش الجبارين أيها المؤمنون لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في هذه الدنيا، وإحذروا ما حذرکم الله منها، وازهدوا فيما زهدكم الله فيه منها، ولا تركنوا إلى ما في هذه الدنيا ركون من اتخذها دار قرار ومنزل استيطان (إلى أن قال:)) وليس يعرف أيامها، وتقلب حالاتها، وعاقبة ضرر فتنها إلا من عصمه الله، ونهج سبيل الرشد، وسلك طريق القصد ثم استعان على ذلك بالزهد، فكرر الفكر، واتعظ بالصبر، وزهد في عاجل بهجة الدنيا، وتخافى عن لذاتها، ورغب في دائم نعيم الآخرة، وسعى لها سعيها)(٥٧).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن علامة الراغب في ثواب الآخرة زهد في عاجل زهرة الدنيا أما إن زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه مما حشم الله له فيها وإن

زهدي، وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الحياة الدنيا لا يزيد فيها وإن حرص، فالمغبون من غبن حظّه من الآخرة(٥٨).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا)(٥٩).

وعن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول: (جعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، ثم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يجد الرجل حلاوة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا)(٦٠).

وعن علي بن هاشم بن البريد، عن أبيه أن رجلاً سأل علي بن الحسين (عليه السلام) عن الزهد فقال: (عشرة أشياء فأعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإن الزهد في آية من كتاب الله، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)(٦١).

عن سفیان بن عيينه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (كل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط، وإنما أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة)(٦٢).

عن عبد الله بن القاسم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبها، ومن أوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة) وقال: (لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا وهو ضد لما طلبت أعداء الحق) قلت: جعلت فداك مما ذا؟ قال: (من الرغبة فيها) وقال: (إلا من صبار كريم، فإنما هي أيام قلائل إلا أنه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا، قال: وسمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حبّ الله فلم يشغل بغيره)، قال: وسمعته يقول: (إن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو)(٦٣).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) في حديث: (الا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ألا أن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطاً، والتراب فراشاً، والماء طيباً، وقرضوا من الدنيا تقریباً)(٦٤).

وعن عمرو بن سعيد بن هلال قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إني لا ألقاك إلا في السنين، فأوصني بشيء حتى آخذ به، قال: (أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، وإياك أن تطمع إلى من فوقك، وكفى بما قال الله عز وجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): (ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) (طه: ١٣١).

وقال: (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم) (التوبة: ٨٥).

فإن خفت ذلك فاذكر عيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنما كان قوته من الشعير، وحلواه من التمر، ووقوده من السعف إذا وجدته(٦٥).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): ما الزهد؟ قال: (تنكيب حرامها)(٦٦).

وعن أبي الطفيل قال: سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة، والورع عما حرم الله عليك)(٦٧).

وعن إسماعيل بن مسلم قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا بتحريم الحلال بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل)(٦٨).

وعن حفص بن غياث قال: سمعت موسى بن جعفر (عليه السلام) عند قبر وهو يقول: (إن شيئاً هذا آخره لحقيق أنه يزهد في أوله، وإن شيئاً هذا أوله لحقيق أن يخاف من في آخره)(٦٩).

وعن عبد الله بن الحسن بن علي، عن أمة فاطمة بنت الحسين، عن أبيها (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالشح والأمل)(٧٠).

وعن أحمد بن الحسن الحسيني، عن الحسن بن علي العسكري عن آباءه، عن الصادق (عليه السلام) أنه سئل عن الزهد في الدنيا، قال: (الذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عقابه)(٧١).

الذين يجعلون الدين.. وسيلة لنيل الدنيا

عن يونس بن ظبيان قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل يقول: ويل للذين يختلون الدنيا بالدين، وويل للذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وويل للذين يسير المؤمن فيهم بالتقية، أبي يغترون، أم علي يجترون؟ في حلفت لأتيحن لهم فتنة تترك الحليم منهم حيراناً)(٧٢).

وعن مسعدة بن زياد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه (عليه السلام): (إن الله تبارك وتعالى أنزل كتاباً من كتبه على نبي من أنبيائه وفيه أنه سيكون خلق من خلقي يلمسون الدنيا بالدين، يلبسون مسوك العنان على قلوب كقلوب الذئاب أشد مرارة من الصبر، وألسنتهم أحلى من العسل، وأعمالهم الباطنة أنتم من الجيف، أفبي يغترون؟ أم إياي يخادعون؟ أم علي يجترون؟ فبعزتي حلفت لأتيحن لهم فتنة تطافى خطامها حتى تبلغ أطراف الأرض تترك الحليم منهم حيراناً)(٧٣).

١. بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٩.

٢. علل الشرايع: ج ٢، ص ٥٢٨، المكتبة الحيدرية. النجف الاشرف.

٣. بحار الأنوار: ج ٣٤، ص ٧٤.

٤. المصدر السابق: ج ٣٦، ص ٣٣٨.

٥. المصدر السابق: ج ١٠٣، ص ٧٥.

٦. المصدر السابق: ج ٩٦، ص ١٤٥.

٧. مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٣٩٢.

٨. وسائل الشيعة: ج ١٣، ص ٧٨.

- ٩ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٤، ص٥٣.
- ١٠ . المصدر السابق: ج١، ص٣٧.
- ١١ . مستدرک الوسائل: ج٣، ص٤٦٧.
- ١٢ . بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٢٣.
- ١٣ . المصدر السابق.
- ١٤ . المصدر السابق: ص٣٢٥.
- ١٥ . المصدر السابق: ص٣٣٤.
- ١٦ . المصدر السابق: ص٣٢٧.
- ١٧ . مستدرک الوسائل: ج١٦، ص٢٩٩.
- ١٨ . المصدر السابق.
- ١٩ . بحار الأنوار: ج٣٦، ص١٠٨.
- ٢٠ . المصدر السابق: ص٣٢١.
- ٢١ . مستدرک الوسائل: ج١٣، ص٢٢٦.
- ٢٢ . بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٢٢.
- ٢٣ . المصدر السابق: ج٣٧، ص١٣٦.
- ٢٤ . الكافي: ج٥، ص٨٦، دار الكتب الإسلامية . طهران.
- ٢٥ . الكافي: ج٦، ص٣٢٨.
- ٢٦ . الكافي: ج١، ص٤١٠.
- ٢٧ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج٢، ص٢١٧.
- ٢٨ . الكافي: ج٢، ص٣١٥.
- ٢٩ . وسائل الشيعة: ج١١، ص٣٠٨.
- ٣٠ . المصدر السابق.
- ٣١ . المصدر السابق: ص٣٠٩.
- ٣٢ . المصدر السابق.
- ٣٣ . المصدر السابق.
- ٣٤ . المصدر السابق: ص٣١٦.
- ٣٥ . المصدر السابق.
- ٣٦ . المصدر السابق.
- ٣٧ . المصدر السابق.

- ٣٨ . المصدر السابق.
- ٣٩ . المصدر السابق.
- ٤٠ . المصدر السابق: ص ٣١٧.
- ٤١ . المصدر السابق.
- ٤٢ . المصدر السابق.
- ٤٣ . المصدر السابق: ص ٣١٨.
- ٤٤ . المصدر السابق.
- ٤٥ . المصدر السابق.
- ٤٦ . المصدر السابق.
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٢١.
- ٥٠ . المصدر السابق.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ٣٢٢.
- ٥٤ . المصدر السابق.
- ٥٥ . المصدر السابق.
- ٥٦ . المصدر السابق: ص ٣١٠.
- ٥٧ . المصدر السابق.
- ٥٨ . المصدر السابق: ص ٣١١.
- ٥٩ . المصدر السابق.
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٣١٢.
- ٦١ . المصدر السابق.
- ٦٢ . المصدر السابق.
- ٦٣ . المصدر السابق: ص ٣١٣.
- ٦٤ . المصدر السابق.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٣١٤.
- ٦٦ . المصدر السابق.

- ٦٧ . المصدر السابق.
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ٣١٥.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق.
- ٧١ . المصدر السابق.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٢٨٥.
- ٧٣ . المصدر السابق: ص ٢٨٦.

العامل السادس

العزلة عن الجماهير

من أسباب تخلف المسلمين وعدم تمكن المنظمات والأحزاب والجمعيات الإسلامية من النهضة ومن الوصول إلى الحكم (عدم الجماهيرية)، فإن هذه الأحزاب وأشباهاها لا تعمل إلا في حقل واحد تنتخبه لأجل تقديم الإسلام مثل تربية الشباب وتوعيتهم وإيصالهم إلى رتب رفيعة سواء في المجتمع أو في الدولة كجعلهم موظفين أو كتاباً أو خطباءً أو من إليهم، ثم يتركون الجماهير وشأنها، ومن الواضح أن الطلائع التي تقودها الأحزاب والمنظمات والجمعيات الإسلامية قليلة جداً (حتى وإن وصلوا إلى مئات الألوف)، بينما الجماهير هي كل شيء وهي إنما تلتف حول من أعطاهم الحاجات وشاركهم في أحزانهم وأفراحهم وحل مشكلاتهم أما من لم يعطهم ذلك فإنهم يتركونه وشأنه، وإذا تركوه وشأنه حصل له (التحجيم) فلا يتمكن من التأثير والتغيير.

وحاجات الجماهير كثيرة أمثال: تزويج العزاب، وتشغيل العاطلين، وعيادة المرضى، وتشجيع الجنائز، وزيارة المسافرين، والحضور في المراسم الاجتماعية والدينية . كمجالس الوعظ والإرشاد والأعراس والفواتح وصلوات الجماعة وما أشبه .، والمشاركة في بناء المساجد والمستشفيات والمدارس والحسينيات وغيرها، وإسعاف المحتاجين، والقيام بالخدمات الاجتماعية وإصلاح ذات البين.. إلى غيرها من الأمور التي تعطي للإنسان . الفرد أو المنظمة والهيئة والحزب إذا مارسها . (الصبغة الجماهيرية) وحينذاك تتعاطف الجماهير مع مثل هذا الفرد أو الجماعة وتتفاعل معه فكرياً ونفسياً وعاطفياً، أما إذا لم يقم الإنسان . فرداً أو جماعة . بهذه الخدمات فإن المجتمع يظل في ناحية وتبقى المنظمة أو الحزب أو الهيئة أو الجماعة أو الفرد في ناحية أخرى فلا تتمكن من تحريك الجماهير وتوجيهها إلى حيث تريد.

القران الكريم والجماهيرية

وقد ألمع إلى هذا القرآن الحكيم حيث يقول تعالى: (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (آل عمران: ١٦٤).

وقال عز من قائل نقلاً عن إبراهيم الخليل (عليه السلام) . في دعائه وتضرعه إلى الله تعالى أن يبعث في ذريته الرسول :: (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (البقرة: ١٢٩).

وقال تعالى: (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (البقرة: ١٥١).

الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يعلمنا الجماهيرية

وقد روى زيد بن ثابت: إنا كنا إذا جلسنا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) إن أخذنا بحديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا، وكل هذا أحدثكم عن رسول الله.

وروى سلمان الفارسي (رحمه الله) أنه قال: دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو متكأ على وسادة فألقاها إلي، ثم قال (صلى الله عليه وآله): (يا سلمان ما من مسلم دخل على أخيه المسلم يلقي له الوسادة إكراماً له إلا غفر الله له)(١).

وفي رواية جرير بن عبد الله قال: إن النبي (صلى الله عليه وآله) دخل بعض بيوته فامتأ البيت (يعني بالمسلمين) ودخل جرير فقعده خارج البيت، فأبصره النبي (صلى الله عليه وآله)، فأخذ ثوبه فلفه فرمى به إليه وقال: (إجلس على هذا) فأخذه جرير فوضعه على وجهه فقبله(٢).

ويروي ابن عباس يقول: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويحتلب الشاة، ويجيب دعوة المملوك(٣).

وفي حديث عنه (صلى الله عليه وآله): (لو أهدي إلي كراع لقبلت ولو دعيت إلى ذراع لأجبت)(٤). وعن أبي ذر (رحمه الله) أنه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل.

وعن ابن مسعود أنه قال: أتى النبي (صلى الله عليه وآله) رجل يكلمه فأرعد فقال (صلى الله عليه وآله): (هون عليك، فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القد)(٥). (والقد هو اللحم المجفف بالشمس، ومراده (صلى الله عليه وآله) أنه واحد من سائر الناس، فاللازم أن لا يعاشره معاشره المملوك، وإنما معاشره الأشخاص العاديين فلماذا الارتعاد عند التكلم معه؟ وقد قال سبحانه: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) (الكهف: ١١٠).

وروى أنس قال: (كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار العاري، وكان يوم خيبر ويوم قريظة والنظير على حمار مخطوم بجبل من ليف تحته أكاف من ليف)(٦). وكان (صلى الله عليه وآله). كما في جملة من الأحاديث. إذا مر على إنسان بدأه بالسلام، وكان (صلى الله عليه وآله) يسلم على الرجل وعلى المرأة وعلى الطفل حتى قال بعض أصحابه: أنه كلما أراد أن يُدعى النبي (صلى الله عليه وآله) بالسلام إذا التقى به، فإذا بالنبي يسبقه ويسلم عليه.

ومن كثرة تبسمه (صلى الله عليه وآله) مع الناس لقب (بالضحوك) كما في بحار الأنوار. وعن بن أنس: أن النبي (صلى الله عليه وآله) فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي (صلى الله عليه وآله) وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم امر له بعطاء(٧).

قال الأعرابي: لا.

قال النبي: ولم؟

قال: لأنك كريم لا تقابل السيئة بالسيئة.

ثم أمر له النبي باعطائه حمل بعيرين: حملاً تمرًا، وحملاً شعيراً.

ويروي أنس بن مالك قال: كنا إذا أتينا النبي (صلى الله عليه وآله) جلسنا حلقة (٨).

أقول: حتى لا يكون للمجلس صدر وذيل ويتصور بعضهم أنه في صدر المجلس وبعضهم أنه في ذيله.

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه ما صافح أحداً قط فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده.

وما فاوضه أحد قط في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف.

وما نازعه الحديث حتى يكون هو الذي يسكت.

وما روي مقدماً رجله بين يدي جليس له قط.

ولا عرض له قط أمران إلا أخذ بأشدهما.

وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى ينتهك محارم الله فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى.

وما سئل شيئاً قط فقال: لا.

وما رد سائلاً حاجة إلا بها، أو بميسور من القول.

وكان يعد الناس إذا لم يتمكن من قضاء حاجاتهم فوراً أنه (صلى الله عليه وآله) قال لعلي (عليه السلام) في وصيته: (تقضي ديني وتنجز عدااتي) (٩).

وكان أخف الناس صلاة في تمام إذا صلى جماعة (ملاحظة للمؤمنين).

وكان أقصر الناس خطبة إذا خطب (حتى لا ينزعج السامعون).

وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل حتى يستبشر الناس بقدمه إليهم.

وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده لثلاث يستحي من يريد الاستمرار في الأكل آخرًا أو يريد الإسراع في الأكل أولاً.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا تكلم تكلم وترًا وإذا استأذن استأذن ثلاثة.

وكان لا يكلم أحداً بشيء يكرهه قط.

وكان المحدث عنه يقول: لم أر بعيني مثله قبله ولا بعده.

وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً.

إلى غير ذلك من الصفات والتي ذكرنا بعضها أيضاً في موضع آخر من هذا الكتاب.

الإمام علي (عليه السلام): دروس في الجماهيرية

ووفق سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) سار علي (عليه السلام) في كونه جماهيرياً وفي قضاء حوائج الناس والمشاركة معهم في أمورهم وكونه كأحدكم كما قال ضرار بن ضمرة عنه (عليه السلام): (كان فينا كأحدنا).

الإمام (عليه السلام) يتوسط في مشكلة اجتماعية

وفي رواية يرويهما الكليني (رحمه الله) في الكافي، بسنده عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أتت الموالى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقالوا: نشكوا إليك هؤلاء العرب، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يعطينا معهم العطاء بالسوية، وزوج سلمان وبلالاً وصهيباً، وأبو علينا هؤلاء وقالوا: لا نفعل. فذهب إليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) فكلهم فيهم فصاحت الأعراب: أبينا ذلك يا أبا الحسن (عليه السلام) أبينا ذلك.

فخرج وهو مغضب يجزّ رداءه وهو يقول: يا معشر الموالى إن هؤلاء قد صيروكم بمنزلة اليهود والنصارى يتزوجون إليكم ولا يزوجونكم، ولا يعطونكم مثل ما يأخذون، فأبحروا بآرك الله لكم، فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (الرزق عشرة أجزاء تسعة أجزاء في التجارة وواحد في غيرها)(١٠). فإن هذا الحديث يدل على أن الإمام (عليه السلام) كان يتوسط بين الناس في الأمور، وكان يأمر الموالى بالتجارة ليحصلوا على الكرامة الاجتماعية فمن المعروف (إن الكرامة الاقتصادية توجب الكرامة الاجتماعية) وبالفعل ذكر المؤرخون أنهم سلكوا سبيل الكرامة الاقتصادية فحصلوا على الكرامة الاجتماعية وصاروا تجاراً فأخذ العرب ينظرون إليهم نظر عطف ولطف ومساواة، يتزوجون منهم ويزوجونهم.

الإمام (عليه السلام) يمشي مع جارية إلى قصاب وروى البحار: أن قصاباً باع اللحم لجارية فجار عليها، فبكت المرأة وخرجت، فرأت علياً (عليه السلام) فشكت إليه، فمشى علي (عليه السلام) معها نحو القصاب ودعاه إلى الإنصاف في حقها وكان يعظه ويقول له: ينبغي أن يكون الضعيف عندك بمنزلة القوي فلا تظلم الناس.

وهكذا كان الإمام (عليه السلام) يتوسط في حوائج الناس، ويحل مشاكلهم، ويقضي لهم ما يطلبون حتى أنه (عليه السلام) كان يمشي مع الجارية إلى القصاب!

الإمام (عليه السلام) في سوق التمارين ونقل (المناقب) عن أبي مطر البصري قال: إن أمير المؤمنين (عليه السلام) مرّ بأصحاب التمر، فإذا هو بجارية تبكي، قال: (يا جارية ما يبكيك؟).

قالت: بعثني مولاي بدراهم فابتعت من هذا درهماً فأتيتهم به فلم يرضوه، فلما أتيت به أبي أن يقبله.

فقال (عليه السلام): للتمار: (يا عبد الله إنما خادمة، وليس لها أمر فاردد درهما، وخذ التمر).

فقام الرجل ولكز الإمام (عليه السلام) في صدره.

فقال الناس: هذا أمير المؤمنين!

فرى الرجل (المراد برى أخذه الربو وهي علة تحدث في الرئة من شدة الخوف فيخرج التنفس بصعوبة) واصفرّ لونه، وأخذ التمر، ورد إليها درهماً ثم قال: يا أمير المؤمنين ارض عني.

فقال (عليه السلام): (ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك) أو قال: ما أرضاني عنك إن وفيت الناس حقوقهم(١١).

عملية إصلاح بين زوج وزوجة

وفي (المناقب) عن الإمام الباقر (عليه السلام) في خبر (أنه رجع الإمام أمير المؤمنين إلى داره في وقت القيظ، فإذا امرأة قائمة تقول: إن زوجي ظلمي وأخافني وتعدّي علي وحلف ليضربني. فقال: (يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار ثم أذهب معك إن شاء الله). فقالت: يشتد غضبه عليّ.

فطأطأ أمير المؤمنين رأسه ثم رفعه وهو يقول: (لا والله، أو يؤخذ للمظلوم حقه غير متعع، أين منزلك؟). فمضى (عليه السلام) إلى بابه فوقف فقال: (السلام عليكم).

فخرج شاب وهو لا يعرف الإمام علي (عليه السلام) فقال الإمام: (يا عبد الله اتق الله، فإنك قد أخففتها وأخرجتها).

فقال الفتى: وما أنت وذاك؟ والله لأحرقنها لكلامك.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف؟). فأقبل الناس من الطرق يقولون: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فسقط الرجل في يديه فقال: يا أمير المؤمنين أقلني في عثرتي، فوالله لأكونن لها أرضاً تطأني.

فأغمد علي (عليه السلام) سيفه الذي كان قد أخرجه من الغمد تخويفاً له وقال (عليه السلام): (يا أمة الله ادخلي، ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه)(١٢).

وهكذا يمشي الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام). وهو رئيس أكبر دولة في العالم ذلك اليوم تمتد من ليبيا إلى داغستان في الاتحاد السوفيتي. يمشي مع امرأة للإصلاح بينها وبين زوجها، ومع أن الشاب تعدى على الإمام (عليه السلام) فإنه (عليه السلام) تركه وشأنه ولم يعاقبه.

ما خرجت إلا لأعين مظلوماً

وفي حديث آخر ذكره الشيخ المفيد (رحمه الله) قال: ذكر الكوفيون أن سعيد بن قيس الهمداني رأى علياً (عليه السلام) في شدة الحر في فناء حائط فقال له: يا أمير المؤمنين بهذه الساعة؟ قال (عليه السلام): (ما خرجت إلا لأعين مظلوماً أو أغيث ملهوفاً)(١٣).

في ميضأة المسجد

وفي رواية أخرى رواها المفيد أيضاً، أنه (عليه السلام) توضع مع الناس في ميضأة المسجد فرحمه رجل فرمى به، فأخذ الدرة فضربه ثم قال له: (ليس هذا لما صنعت بي، ولكن يجيء من هو أضعف مني فتفعل به مثل هذا فتضمن)(١٤).

وهكذا كان الإمام (عليه السلام) يعيش كالأخرين، ويتوضأ مع الناس في ميضأة المسجد حتى يزاحمه الرجل ويلقيه إلى الأرض.

الإمام (عليه السلام) ينهى عن سير الرجال خلفه

وروى المجلسي عن الكافي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) على أصحابه وهو راكب فمشوا خلفه فالتفت إليهم فقال: (لكم حاجة؟).

فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكننا نحب أن نمشي معك.

فقال لهم: (انصرفوا، فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي).

وفي رواية أخرى: أنه ركب مرة فمشوا خلفه فقال (عليه السلام) لهم: (انصرفوا فإن خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى) (نوكا جمع أنوك بمعنى أحقق) (١٥).

الإمام (عليه السلام) في الأسواق

وفي (المناقب) عن زاذان: أنه (عليه السلام) كان يمشي في الأسواق وحده وهو يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن فيقرأ هذه الآية لهم: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) (القصص: ٨٣).

وقصة جلوس الإمام (عليه السلام) على دكان ميثم التمار وبيعه التمر أحياناً. فيما إذا كان ميثم غائباً. مشهورة. إلى غير ذلك من قصص رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) وسائر خلفائه الراشدين الذين كانوا يسعون في حوائج الناس ليل نهار، وكانوا شعبيين إلى أبعد حد، ولذا قال الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث يرويه الوسائل: (ولان أعول أهل البيت من المسلمين أشبع جوعتهم وأكسو عورتهم وأكف وجوههم عن الناس أحب إلي من أن أحج حجة وحجة وحجة حتى أنتهي إلى عشر وعشر وعشر ومثلها (ومثلها) حتى أنتهي إلى سبعين) وفي هذا الباب روايات كثيرة جداً معروفة في كتب الأحاديث وفي كتب الفقه.

.. اذاً.. فلكي تكون المنظمات والأحزاب والجمعيات الإسلامية جماهيرية يجب عليها أن تكون مع الناس ومنهم وإليهم، فتقضي حوائجهم، وتكون كأحدهم، لا أن تترفع أو تجبس نفسها في أطر خاصة، فإن ذلك يوجب انفضاض الناس من حولها فلا تصل تلك الأحزاب إلى الهدف وإن دام أمرها ستين سنة.

من اجتماعيات الإسلام

الحقوق الإلهية والاجتماعية

عن ثابت بن دينار، عن سيد العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: حق الله الأكبر عليك أن تعبدته ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسك أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.

وحق نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله عز وجل.

وحق اللسان إكرامه عن الحنا وتعويده الخير وترك الفضول التي لا فائد لها، والبرّ بالناس، وحسن القول فيهم.

وحق السمع تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لا يحلّ سماعه.

وحق البصر أن تغمضه عما لا يحلّ لك، وتعتبر بالنظر به.

وحق يديك أن لا تبسطهما إلى مالا يحل لك.

وحق رجلك أن لا تمشي بهما إلى مالا يحل لك، فبهما تقف على الصراط، فانظر أن لا تزل بك فتزدي في النار.

وحق بطنك أن لا تجعله وعاءً للحرام، ولا تزيد على الشيع.

وحق فرجك عليك أن تحصنه من الزنا، وتحفظه من أن ينظر إليه.

وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عز وجل وأنت فيها قائم بين يدي الله، فإذا علمت ذلك قمت مقام العبد الذليل الحقيير الراغب الراجي الخائف المستكين المتضرع المعظم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار، وتقبل عليها بقلبك وتقيمها بحدودها وحقوقها.

وحق الصوم أن تعلم أنه وفادة إلى ربك وفرار إليه من ذنوبك، وفيه قبول توبتك، وقضاء الفرض الذي أوجبه الله عليك.

وحق الصوم أن تعلم أنه حجاب ضربه الله عز وجل على لسانك وسمعك وبصرك وبطنك وفرجك يسترك به من النار، فإن تركت الصوم حرقت ستر الله عليك.

وحق الصدقة أن تعلم أنها ذخرك عند ربك ووديعتك التي لا تحتاج إلى الإشهاد عليها وكنت بما تستودعه سرّاً، أوفق منك بما تستودعه علانية، وتعلم أنها تدفع عنك البلايا والأسقام في الدنيا، وتدفع عنك النار في الآخرة.

وحق الهدى أن تريد به الله عز وجل، ولا تريد خلقه ولا تريد به إلا التعرض لرحمته ونجاة روحك يوم تلقاه.

وحق السلطان أن تعلم أنك جعلت له فتنة، وإنه مبتلى فيك بما جعل الله له عليك من السلطان، وإن عليك أن لا تتعرض لسخطة فتلقي بيدك إلى التهلكة وتكون شريكاً له فيما يأتي إليك من سوء (هذا في مورد التقية وأما في غيره فقد ورد إن أفضل من ذلك كلمة حق عند إمام جائر).

وحق سائسك بالعلم التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وأن لا ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عورته وتظهر مناقبه ولا تجالس له عدواً ولا تعادي له ولياً فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته، وتعلمت علمه الله جل اسمه لا للناس.

وأما حق سائسك بالملك فإن تطيعه ولا تعصيه إلا فيما يسخط الله عز وجل فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأما حق رعيتك بالسلطان فإن تعلم إنهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوتك فيجب أن تعدل فيهم، وتكون لهم كالوالد الرحيم، وتغفر لهم جهلهم، ولا تعاجلهم بالعقوبة، وتشكر الله عز وجل على ما آتاك من القوة عليهم.

وأما حق رعيتك بالعلم فإن تعلم أن الله عز وجل إنما جعلك قيماً عليهم فيما آتاك من العلم، وفتح لك من خزانته، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله، وإن أنت منعت الناس

علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه، ويسقط من القلوب محلك.

وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها لك سكناً وأنساً، فتعلم أن ذلك نعمة من الله عز وجل عليك فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقك عليها أوجب فإن لها عليك أن ترحمها، لأنها أسيرك، وتطعمها وتكسوها، وإذا جهلت عفوت عنها.

وأما حق مملوكك فأن تعلم أنه خلق ربك وابن أبيك، وأمك ولحمك ودمك لم تملكه لأنك صنعته دون الله، ولا خلقت شيئاً من جوارحه، ولا أخرجت له رزقاً، ولكن الله عز وجل كفأك ذلك ثم سخره لك واثمنك عليه واستودعك إياه ليحفظ لك ما تأتيه من خير إليه، فأحسن إليه كما أحسن الله إليك، وإن كرهته استبدلت به ولم تعذب خلق الله عز وجل ولا قوة إلا بالله.

وأما حق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتضلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها، وإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك فأن تعلم إنه أصلك فإنه لولاه لم تكن، فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله.

وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وإنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل، والمعونة على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعمل إنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه.

وأما حق أخيك فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوتك فلا تتخذة سلاحاً على معصية الله، ولا عدة للظلم لخلق الله، ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له، فإن أطاع الله وإلا فليكن الله أكرم عليك منه، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق مولاك المنعم عليك فأن تعلم أنه أنفق فيك ماله، وأخرجك من ذل الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها فأطلقك من أسر الملكة، وفك عنك قيد العبودية، وأخرجك من السجن، وملكتك نفسك، وفرغك لعبادة ربك، وتعلم إنه أولى الخلق بك في موتك، وإن نصرته عليك واجبة بنفسك، وما احتاج إليه منك، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق مولاك الذي أنعمت عليه، فأن تعلم إن الله عز وجل جعل عتقك له وسيلة إليه وحجاباً لك من النار، وإن ثوابك في العاجل ميراثه إذا لم يكن له رحم مكافأة لما أنفقت من مالك، وفي الآجل الجنة.

وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه، وتكسبه المقالة الحسنة، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله عز وجل، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية ثم إن قدرت على مكافأته يوماً كافيته.

وأما حق المؤذن أن تعلم أنه مذكرك لك ربك عز وجل، وداع لك إلى حظك وعونك على قضاء ما فرض الله عز وجل عليك فاشكره على ذلك شكر المحسن إليك.

وأما حق إمامك في صلاتك أن تعلم أنه تقلد السفارة فيما بينك وبين ربك عز وجل، وتكلم عنك ولم تتكلم عنه، ودعا لك ولم تدع له، وكفاك هول المقام بين يدي الله عز وجل، فإن كان نقص كان به دونك، وإن كان تمام كنت شريكه، ولم يكن له عليك فضل فوقى نفسك بنفسه، وصلاتك بصلاته فتشكر له على قدر ذلك.

وأما حق جليستك فأن تلين له جانبك، وتنصفه في مجارة اللفظ، ولا تقوم من مجلسك إلا بإذنه، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك، وتنسى زلاته، وتحفظ خيراته، ولا تسمعه إلا خيراً.

وأما حق جارك فحفظه غائباً وإكرامه شاهداً، ونصرته إذا كان مظلوماً، ولا تتبع له عورة، فإن علمت عليه سوءً سترته عليه وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه، ولا تسلمه عند شديدة، وتقبل عثرته، وتغفر ذنبه، وتعاشره معاشرة كريمة، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالفضل والإنصاف، وتكرمه كما يكرمك، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة، فإن سبق كافيته، وتوده كما يودك وترجره عما يهم به من معصية الله، وكن عليه رحمة، ولا تكن عليه عذاباً، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق الشريك فإن غاب كافيته، وإن حضر رعيته، ولا تحكم دون حكمه، ولا تعمل برأيك دون مناظرته، وتحفظ عليه ماله، ولا تخنه فيما عز أو هان من أمره فإن يد الله تبارك وتعالى على الشريكين ما لم يتخاونا، ولا قوة إلا بالله.

وأما حق مالك فإن لا تأخذه إلا من حلّه، ولا تنفقه إلا في وجهه، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمك فاعمل به بطاعة ربك، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع التبعة ولا قوة إلا بالله.

وأما حق غريمك الذي يطالبك فإن كنت موسراً أعطيته وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول ورددته عن نفسك رداً لطيفاً.

وحق الخليط أن لا تغره ولا تغشه ولا تخدعه وتتقي الله في أمره.

وأما حق الخصم المدعي عليك فإن كان ما يدعيه عليك حقاً كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حقه، وإن كان ما يدعي باطلاً رفقت به، ولم تأت في أمره غير الرفق، ولم يسخط ربك في أمره، ولا قوة إلا بالله.

وحق خصمك الذي تدعي عليه إن كنت محقاً في دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه، وإن كنت مبطلاً في دعواك اتقيت الله عز وجل وتبت إليه، وتركت الدعوى.

وحق المستشار إن علمت أن له رأياً حسناً أشرت عليه، وإن لم تعلم له أرشدته إلى من يعلم.

وحق المشير عليك أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه، وإن وافقك حمدت الله عز وجل.

وحق المستنصح أن تؤدي إليه النصيحة وليكن مذهبك الرحمة له والرفق.

وحق الناصح أن تلين له جناحك وتصغي إليه بسمعك، فإن أتى بالصواب حمدت الله عز وجل، وإن لم يوافق رحمته ولم تتهمه وعلمت أنه أخطأ ولم تؤاخذه بذلك إلا أن يكون مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على حال، ولا قوة إلا بالله.

وحق الكبير توقيره لسنه وإجلاله لتقدمه في الإسلام ولا تستجهله، وإن جهل عليك احتملته وأكرمه لحق الإسلام وحرمته.

وحق الصغير رحمته من نوى تعليمه، والعفو عنه، والستر عليه، والرفق به، والمعونة له. وحق السائل إعطاؤه على قدر حاجته.

وحق المسؤول إن أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله، وإن منع فاقبل عذره. وحق من سرك الله تعالى أن تحمد الله عز وجل أولاً ثم تشكره.

وحق أهل ملتك إضمار السلامة والرحمة لهم، والرفق بمسيئهم وتألفهم، واستصلاحهم، وشكر محسنهم، وكف الأذى عن مسيئهم، وتحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك وأن تكون شيوخهم بمنزلة أبيك، وشبابهم بمنزلة أخوتك.

وحق من أساء إليك أن تعفو عنه وإن علمت أن العفو يضر انتصرت، قال الله تعالى: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (الشورى: ٤١). وعجائزهم بمنزلة أمك، والصغار منهم بمنزلة أولادك.

وحق الذمة أن تقبل منهم ما قبل الله عز وجل منهم ولا تظلمهم ما وفوا الله عز وجل بعهدده (١٦). إنصاف الناس حتى من النفس

عن ابن محبوب، عن بعض أصحابه، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من أنصف الناس من نفسه رضي به حكماً لغيره) (١٧).

وعن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سيد الأعمال إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ في الله وذكر الله على كل حال) (١٨).

وعن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في كلام له: (ألا إنه من ينصف الناس من نفسه لم يزد الله إلا عزاً) (١٩).

وعن محمد بن مسلم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ثلاث هم اقرب الخلق إلى الله يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة، ورجل قال بالحق فيما له وعليه) (٢٠).

وعن جعفر بن إبراهيم الجعفري، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً) (٢١).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في آخر خطبته: (طوبى لمن طاب خلقه، وطهرت سجيته، وصلحت سريره، وحسنت علانيته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله وأنصف الناس من نفسه) (٢٢).

وعن معاوية بن وهب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة: أنفق ولا تحف فقراً، وافش السلام في العالم واترك المرء وإن كنت محقاً، وأنصف الناس من نفسك)(٢٣).

وعن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ألا أخبرك بأشد ما افترض الله على خلقه؟ إنصاف الناس من أنفسهم، ومواساة الإخوان في الله عز وجل، وذكر الله عز وجل على كل حال، فإن عرضت له طاعة عمل بها، وإن عرضت له معصية تركها)(٢٤).

وعن علي بن ميمون الصائغ قال: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: (من أراد أن يسكنه الله جنته فليحسن خلقه، وليعط النصفة من نفسه، وليرحم اليتيم وليعن الضعيف وليتواضع لله الذي خلقه)(٢٥).

وعن معاوية، عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (ما نصح الله عبد في نفسه فأعطى الحق منها وأخذ الحق لها إلا أعطي خصلتين، رزقاً من الله يسعه، ورضا عن الله يغنيه)(٢٦).

أحب لأخيك ما تحب لنفسك

عن أبي البلاد رفعه قال: (جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة فقال: (ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فإته إليهم وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم).

وعن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أوحى الله إلى آدم (عليه السلام) إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات).

إلى أن قال: (وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك)(٢٧).

وعن عثمان بن جبلة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله: رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر رجلاً حتى يعلم أن ذلك لله رضاه ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيب حتى ينفى ذلك العيب عن نفسه فإنه لا ينفى عيباً إلا بدا له عيب وكفى بالمرء شغلاً بنفسه عن الناس)(٢٨).

وعن أبي ذر، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (في حديث) قال: قلت: يا رسول الله أوصني قال: أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله.

قلت: زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً.

قلت: زدني، قال: عليك بطول الصمت.

قلت: زدني، قال: إياك وكثرة الضحك.

قلت: زدني، قال: عليك بحب المساكين ومجالستهم.

قلت: زدني، قال: قل الحق وإن كان مرّاً.

قلت: زدني، قال: لا تخف في الله لومة لائم.

قلت: زدني، قال: ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك ولا تجد عليهم فيما تأتي مثله ثم قال: كفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال: يعرف من الناس ما يجهل من نفسه، ويستحي لهم مما هو فيه، ويؤذي جلسه فيما لا يعنيه، ثم قال: يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق(٢٩).

وقال الصادق (عليه السلام): (من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضى رزق الله لم يحزن على ما فاته (إلى أن قال): ومن نظر في عيوب الناس ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه)(٣٠).
وقال (عليه السلام): (أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله)(٣١).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (كان بالمدينة أقوام لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فأسكت الله عن عيوبهم الناس فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس، وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم فتكلموا في عيوب الناس فأظهر الله لهم عيوباً لم يزالوا يعرفون بها إلى أن ماتوا)(٣٢).

كراهة الخرق وإساءة الخلق

عن ابن أبي ليلى عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من قسم له الخرق حجب عنه الإيمان)(٣٣).
وعن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لو كان الخرق خلقاً يرى ما كان في شيء من خلق الله أقبح منه)(٣٤).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): (أبي الله لصاحب الخلق السيئ بالتوبة، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله، قال لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه)(٣٥).
وعن سيف بن عميرة، عن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن سوء الخلق ليفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل)(٣٦).

وعن إسحاق بن غالب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من ساء خلقه عذب نفسه)(٣٧).
وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: أوصى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه: (الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل)(٣٨).

وعن الرضا، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (عليكم بحسن الخلق فإن حسن الخلق في الجنة لا محالة، وإياكم وسوء الخلق فإن سوء الخلق في النار لا محالة)(٣٩).
وعن مسعدة بن صدقة، عن جعفر عن أبيه (عليه السلام) قال: قال علي (عليه السلام): (ما من ذنب إلا وله توبة، وما من تائب إلا وقد تسلم له توبته ما خلا السيئ الخلق لأنه لا يتوب من ذنب إلا وقع في غيره أشد منه)(٤٠).

التحلي بمكارم الأخلاق

عن عبد الله بن بكير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إننا لنحب من كان عاقلاً فهماً فقيهاً حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفاقاً، إن الله عز وجل خص الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عز وجل وليسأله إياها).

قال: قلت: جعلت فداك وما هن؟ قال: (هنّ الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة والبر وصدق الحديث وأداء الأمانة)(٤١).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ألا أخبركم بخير رجالكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: إن خير رجالكم التقي النقي السمح الكفين، النقي الطرفين، البر بوالديه ولا يلجئ عياله إلى غيره)(٤٢).

وعن الحسن بن محبوب، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل ارتضى لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق)(٤٣).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الإيمان أربعة أركان: الرضا بقضاء الله، التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والتسليم لأمر الله)(٤٤).

وعن حماد بن عثمان قال: جاء رجل إلى الصادق (عليه السلام) فقال: يا بن رسول الله أخبرني عن مكارم الأخلاق فقال: (العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك)(٤٥).

وعن جرّاح المدائني قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): (ألا أحدثك بمكارم الأخلاق؟ الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً)(٤٦).

وعن المفضل بن عمر، عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) أنه قال: (عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عز وجل يحبها وإياكم ومذام الأفعال فإن الله عز وجل يبغضها، وعليكم بتلاوة القرآن. إلى أن قال. وعليكم بحسن الخلق فإنه يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وعليكم بحسن الحوار، فإن الله جل جلاله أمر بذلك، وعليكم بالسواك، فإنه مطهرة وسنة حسنة وعليكم بفرائض الله فأدوها، وعليكم بمحارم الله فاجتنبوها)(٤٧). أقسام الصبر

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيقال: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر فيقال لهم: على م صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله عز وجل صدقوا أدخلوهم الجنة، وهو قول الله عز وجل: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (الزمر: ١٠)(٤٨).

وعن الأصبغ قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرم الله عليك، والذكر ذكران: ذكر الله عز وجل عند المصيبة، وأفضل من ذلك ذكر الله عندما حرم الله عليك فيكون حاجزاً)(٤٩).

وعن أبي حمزة قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (لما حضرت علي بن الحسين (عليه السلام) الوفاة ضمني إلى صدره قال: يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، ومما ذكر أن أباه أوصاه به: يا بني اصبر على الحق وإن كان مرأاً)(٥٠).

وعن عثمان بن عيسى، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (اصبروا على الدنيا فإنما هي ساعة فإن ما مضى منه لا تجدد له ألماً ولا سروراً، وما لم يجيء فلا تدري ما هو، وإنما هي ساعتك التي أنت فيها، فاصبر فيها على طاعة الله، واصبر فيها عن معصية الله)(٥١).

وعن عمرو بن شمر اليماني، يرفع الحديث إلى علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر عند الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش)(٥٢).
وفي (نهج البلاغة): عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الصبر صبران: صبر على ما تحب، وصبر على ما تكره، ثم قال (عليه السلام): إن وليّ محمد من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإن عدوّ محمد من عصى الله وإن قربت قرابته).

قال: وقال (عليه السلام): (شتان بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره)(٥٣).

الصبر الشامل

عن حفص بن غياث، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (يا حفص إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) فأمره بالصبر والرفق، فقال: (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً وذري والمكذبين أولى النعمة) (المزمل: ١٠ - ١١).

وقال: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (فصلت: ٣٤ - ٣٥).

فصبر حتى نالوه بالعظائم، ورموه بها فضاقت صدره فأنزل الله تعالى عليه: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) (الحجر: ٩٧ - ٩٨).

ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله تعالى: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) (الأنعام: ٣٣ - ٣٤).

فألزم النبي (صلى الله عليه وآله) نفس الصبر فتعدّوا فذكر الله تبارك وتعالى فكذبوه فقال: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل الله عز وجل: (فاصبر على ما يقولون) (طه: ١٣٠).

فصبر في جميع أحواله، ثم بشر في عترته بالأئمة (عليهم السلام) ووصفوا بالصبر فقال جل ثناؤه: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) (السجدة: ٢٤).

فعند ذلك قال النبي (صلى الله عليه وآله): الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر الله ذلك له فأَنْزَلَ اللهُ: (ومتى كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) (الأعراف: ١٣٧).

فقال: إنه بشرى وانتقام، فأباحت الله تعالى له قتال المشركين فأَنْزَلَ اللهُ تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) (التوبة: ٥).

فقتلهم الله تعالى على يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأحبائه وجعل له ثواب صبره مع ما آذخ له في الآخرة، فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقر الله له عينه في أعدائه مع ما يدخر له في الآخرة). وعن العزمي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سيأتي على الناس زمان لا ينال فيه الملك إلا بقتل إلى أن قال: فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على العز آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بي) (٥٤).

وعن محمد بن علي بن الحسين بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) (في وصيته لمحمد بن الحنفية) قال: (ألقى عنك واردات المهموم بعزائم الصبر، وعود نفسك الصبر فنعم الخلق الصبر، واحملها على ما أصابك من أهوال الدنيا وهمومها) (٥٥).

وعن عبد الله بن ميمون، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه (عليه السلام) قال: قال الفضل بن عباس: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً) (٥٦).

وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: (إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمر من الخنظل إنه من صبر نال بصبره درجة الصائم القائم، ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدام محمد (صلى الله عليه وآله) (٥٧)). وقال (عليه السلام): (من لم ينجه الصبر أهلكه الجزع).

وعن الحسن بن محمد الديلمي، عن الصادق (عليه السلام) أنه جاءته إليه امرأة فقالت إن ابني سافر عني وقد طالت غيبته عني واشتد شوقي إليه فادع الله لي، فقال لها: عليك بالصبر، فاستعملته، ثم جاءت بعد ذلك فشكت إليه طول غيبة ابنها، فقال لها: ألم أقل لك عليك بالصبر، فقالت: يا بن رسول الله كم الصبر فوالله لقد فني الصبر، فقال: ارجعي إلى منزلك تجدي ولدك قد قدم من سفره، فنهضت فوجدته قد قدم، فأنت به إليه فقالت: أوحى بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ قال: لا، ولكن عند فناء الصبر يأتي الفرج، فلما قلت في الصبر عرفت أن الله قد فرّج عنك بقدم ولدك (٥٨).

تسكين الغضب

عن صفوان الجمال قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرج غضبه من حق، وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له)(٥٩).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل)(٦٠).

وعن داود بن فرقد قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (الغضب مفتاح كل شر)(٦١).

وعن ميسر قال: ذكر الغضب عند أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار، فأبما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه يذهب عنه رجز الشيطان، وأبما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسسه فإن الرحم إذا مسّت سكنت)(٦٢).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من كف نفسه عن أعراض الناس أقال الله نفسه يوم القيامة، ومن كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة)(٦٣).

وعن القاسم بن سليمان، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (في حديث) قال: سمعت أبي يقول: (أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل بدويّ، فقال: إني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلم، فقال أمرك أن لا تغضب، فأعاد عليه الأعرابي المسألة ثلاث مرات حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسأل عن شيء بعد هذا ما أمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلا بالخير، فقال: وكان أبي يقول: أي شيء أشدّ من الغضب إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة)(٦٤).

وعن عبد الأعلى قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): علمني عظة أتعظ بها، فقال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتاه رجل فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) علمني عظة أتعظ بها، فقال: انطلق فلا تغضب، ثم عاد إليه فقال: انطلق فلا تغضب ثلاث مرات)(٦٥).

وعن سيف بن عميرة، عن سمع أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (من كفّ غضبه ستر الله عورته)(٦٦).
وعن حبيب السجستاني، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (مكتوب في التوراة فيما ناجى الله به موسى (عليه السلام) يا موسى أمسك غضبك عمّن ملكتك عليه أكفّ عنك غضبي)(٦٧).

وعن أحمد، عن بعض أصحابه رفعه، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (الغضب ممحقة لقلب الحكيم).
وقال: (من لم يملك غضبه لم يملك عقله)(٦٨).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن هذا الغضب جرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليزلم الأرض، فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك)(٦٩).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من كَفَّ غضبه عن الناس كَفَّ الله عنه عذاب يوم القيامة)(٧٠).

وعن محمد بن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (مر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوم يتشايلون حجراً فقال: ما هذا؟ فقالوا: نختبر أشدنا وأقوانا، فقال: ألا أخبركم بأشدكم وأقواكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أشدكم وأقواكم الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرج منه سخطه من قول الحق، وإذا ملك لم يتعاط ما ليس له بحق)(٧١).

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال الحواريون لعيسى (عليه السلام): أي الأشياء أشد؟ قال: أشد الأشياء غضب الله عز وجل، قالوا: بما نتقي غضب الله؟ قال: بأن لا تغضبوا، قالوا: وما بدء الغضب؟ قال: الكبر والتجبر ومحقرة الناس)(٧٢).

وعن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين (عليه السلام) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآله: (ثلاث من كن فيه يستكمل خصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرج منه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له)(٧٣).

وعن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (أوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه يا بن آدم أذكرني في غضبك أذكرك في غضبي لا أحقق فيمن أحقق، وأرض بي منتصراً، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك)(٧٤).

١. بحار الأنوار: ج ١٦، ٢٣٥.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق: ٢٢٢.

٤. المصدر السابق: ج ٤٤، ص ١٢٢.

٥. المصدر السابق: ج ١٦، ص ٢٢٩.

٦. المصدر السابق.

٧. صحيح البخاري: ج ٤، ص ٦١.

٨. بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٣٧.

٩. المصدر السابق: ج ٣٥، ص ٣٣.

١٠. وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ٥.

١١. بحار الأنوار: ج ٣٧، ص ٤٨.

١٢. بحار الأنوار: ج ٣٧، ص ٥٧.

١٣. مستدرک الوسائل: ج ١٢، ص ٤١٦.

- ١٤ . بحار الأنوار: ج٣٦، ص١١٥ .
- ١٥ . المصدر السابق: ج٦٩، ص٢٩٩ .
- ١٦ . وسائل الشيعة: ج١١، ص١٣٨ .
- ١٧ . المصدر السابق: ص٢٢٤ .
- ١٨ . المصدر السابق: ص٢٢٥ .
- ١٩ . المصدر السابق .
- ٢٠ . المصدر السابق .
- ٢١ . المصدر السابق .
- ٢٢ . المصدر السابق .
- ٢٣ . المصدر السابق: ص٢٢٦ .
- ٢٤ . المصدر السابق .
- ٢٥ . المصدر السابق: ص٢٢٧ .
- ٢٦ . المصدر السابق .
- ٢٧ . المصدر السابق: ص٢٢٨ .
- ٢٨ . المصدر السابق: ص٢٢٩ .
- ٢٩ . المصدر السابق: ص٢٣٠ .
- ٣٠ . المصدر السابق: ص٢٣١ .
- ٣١ . المصدر السابق .
- ٣٢ . المصدر السابق: ص٢٣٢ .
- ٣٣ . المصدر السابق: ص٣٢٣ .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق .
- ٣٦ . المصدر السابق: ص٣٢٤ .
- ٣٧ . المصدر السابق .
- ٣٨ . المصدر السابق: ج٨، ص٥٠٦ .
- ٣٩ . المصدر السابق .
- ٤٠ . المصدر السابق: ج١١، ص٣٢٥ .
- ٤١ . بحار الأنوار: ج٦٣، ص٣٧٤ .
- ٤٢ . وسائل الشيعة: ج١١، ص١٥٥ .

- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . المصدر السابق.
- ٤٥ . المصدر السابق: ص ١٥٦.
- ٤٦ . المصدر السابق.
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق: ص ١٨٦.
- ٤٩ . المصدر السابق.
- ٥٠ . المصدر السابق.
- ٥١ . المصدر السابق: ص ١٨٧.
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ١٨٨.
- ٥٤ . المصدر السابق: ص ٢٠٧.
- ٥٥ . المصدر السابق.
- ٥٦ . المصدر السابق: ص ٢٠٩.
- ٥٧ . المصدر السابق.
- ٥٨ . المصدر السابق.
- ٥٩ . المصدر السابق: ص ٢٨٦.
- ٦٠ . المصدر السابق: ص ٢٨٧.
- ٦١ . المصدر السابق.
- ٦٢ . المصدر السابق.
- ٦٣ . المصدر السابق.
- ٦٤ . المصدر السابق.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٢٨٨.
- ٦٦ . المصدر السابق.
- ٦٧ . المصدر السابق.
- ٦٨ . المصدر السابق.
- ٦٩ . المصدر السابق.
- ٧٠ . المصدر السابق: ص ٢٨٩.
- ٧١ . المصدر السابق.

٧٢ . المصدر السابق.

٧٣ . المصدر السابق: ص ٢٩٠.

٧٤ . المصدر السابق: ص ٢٩١.

العامل السابع

التعامل مع السلطات الفاسدة

الحكومات في بلاد الإسلام مكروهة عند الشعوب عادة وخصوصاً في هذا القرن الأخير لأن هذه الحكومات مستبدة (أولاً).

وعميلة للغرب والشرق على الأغلب (ثانياً).

وسبع ضار . حسب تعبير الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) . بالنسبة إلى الأمة (ثالثاً).

وغير عاملة بقوانين الإسلام، وهو دين الناس (رابعاً).

وعليه فكل اقتراب من الحكومة يوجب انفضاض الناس من حول المتقرب فرداً كان أو هيئة أو جماعة أو جمعية أو منظمة أو حزباً أو ما أشبهه.

والأحزاب والتنظيمات الإسلامية على الأغلب تقترب من الحكومات . سواء حكومات بلادهم أو الحكومات المعادية لحكومة بلادهم . بأخذ المال منهم، ومدحهم، والمسايرة معهم، ولذا تنفصل عن الأمة فلا تتمكن أن تتفاعل معها وتوجهها كما تريد، وبعد ذلك لا ينفع صياح الأحزاب بأن الأمة جاهلة أو متوانية أو غافلة أو تسير مسيراً غير صحيح، فإن الأمة تعرف إلى من تقترب وعمن تبتعد.

الإسلام ينهى عن التعامل مع الحكام

ولذا نرى التحذير الشديد . من قبل النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) . عن العمل مع السلطان والاقتراب معه إذا كان فاسداً.

ففي الصحيح، عن موسى بن جعفر، عن آبائه (عليهم السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ما قرب عبد من سلطان إلا تباعد من الله) (١).

وفي حديث آخر، قال (صلى الله عليه وآله): (من نكث بيعة، أو رفع لواء الضلالة، أو كتم علماً، أو اعتقل مالاً ظلماً، أو أعان ظالماً على ظلمه وهو يعلم إنه ظالم فقد براء من الإسلام) (٢).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إياكم وأبواب السلطان وحواشيها، وأبعدكم من الله من آثر سلطاناً على الله فجعل الميتة في قلبه ظاهرة وباطنة وأذهب عنه الورع وجعله حيران) (٣).

وقال (صلى الله عليه وآله): (من أرضى سلطاناً بما أسخط الله خرج من دين الإسلام) (٤).

وقال (صلى الله عليه وآله): (إذا كان يوم القيامة ناد مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ من لا ق لهم دواة، أو ربط لهم كيساً أو مدّ لهم مدة احشروه معهم) (٥).

وقال (صلى الله عليه وآله): (الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا).

قيل: يا رسول الله فما دخولهم في الدنيا؟

قال (صلى الله عليه وآله): (اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على أديانكم) (٦).

وفي حديث أنه دخل على الصادق (عليه السلام) رجل فمّته له (أي حلف له) بالإيمان إنه من أوليائه، فوّلّى عنه وجهه، فدار الرجل إليه وعاود اليمين فوّلّى عنه، فأعاد اليمين ثالثة فقال (عليه السلام) له: (يا هذا من أين معاشك؟).

فقال: إني أخدم السلطان وإني والله لك محب.

فقال (عليه السلام): (روى أبي عن أبيه عن جده (عليه السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: إذا كان يوم القيامة ناد منادٍ من السماء من قبل الله عز وجل أين الظلمة أين أعوان الظلمة؟ أين من برى لهم قلماً؟ أين من لاق لهم دواة؟ أين من جلس معهم ساعة؟ فيؤتى بهم جميعاً فيؤمر بهم أن يضرب عليهم بسور من نار، فهم فيه حتى يفرغ الناس من الحساب، ثم يؤمر بهم إلى النار)(٧).

وروى الحسن بن علي بن شعبة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال لكميل: (يا كميل لا تطرق أبواب الظالمين للاختلاط بهم والاكْتِسَاب معهم، وإياك أن تعظمهم وتشهد في مجالسهم بما يسخط الله عليك)(٨). وعن يونس بن يعقوب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ملعون ملعون عالم يؤم سلطاناً جائراً معيناً له على جورهِ)(٩).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من ترك معصية الله مخافة من الله أرضاه الله يوم القيامة، ومن مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإيمان)(١٠). وقال (صلى الله عليه وآله): (شر الناس المثلث).

قيل: يا رسول الله ما المثلث؟ قال: (الذي يسعى بأخيه إلى السلطان فيهلك نفسه ويهلك أخاه ويهلك السلطان)(١١).

وقال (صلى الله عليه وآله): (من مشى مع ظالم فقد أجرم)(١٢).

وعن الباقر (عليه السلام) أنه قال: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثة)(١٣).

وعن صبيح الكابلي، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من سود اسمه في ديوان بني شيبان - أي بني العباس - حشره الله يوم القيامة مسوداً وجهه)(١٤).

وقال (صلى الله عليه وآله): (ما من عالم أتى باب سلطان طوعاً إلا كان شريكه في كل لون يعذب في نار جهنم)(١٥).

وقال (صلى الله عليه وآله): (من تعلم القرآن ثم تفقه في الدين ثم أتى صاحب سلطان تملقاً إليه وطمعاً لما في يديه خاض بقدر خطاه في نار جهنم)(١٦).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: (ومن أحب بقاء الظالمين فقد أحب أن يعصي الله، إن الله تبارك وتعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: (فقطعت دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (الأنعام: ٤٥)(١٧).

وروي في كشف الغمة، عن ابن حمدون قال: كتب المنصور إلى جعفر بن محمد (عليه السلام): لم تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجاب (عليه السلام): (ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجو، ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا تراها نقمة فنعزيزك بها، فما نصنع عنك؟). فكتب إليه: تصحبنا لتنصحننا.

فأجابه (عليه السلام): (من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك). فقال المنصور: والله لقد ميّز عندي منازل الناس، من يريد الدنيا ممن يريد الآخرة، وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا(١٨).

وعن صفوان قال: دخل على مولاي رجل فقال (عليه السلام) له: (أتتقلد لهم عملهم؟). فقال: بلى يا مولاي. قال: ولم ذلك؟.

قال: إني رجل عليّ عيلة وليس لي مال. فالتفت إلى أصحابه ثم قال: (من أحب أن ينظر إلى رجل يقدر أنه عصى الله رزقه، وإذا أطاعه حرمه فلينظر إلى هذا)(١٩).

وعن صفوان عن الكاظم (عليه السلام) أنه قال في حديث: (إن الله وعد من تقلد لهم عملاً أن يضرب عليهم سرادقاً من نار حتى يفرغ الله من حساب الخلائق)(٢٠). وعن محمد بن عذافر، عن أبيه قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (يا عذافر نبئت إنك تعامل أبا أيوب والربيع، فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟ قال: فوجم أبي).

فقال له أبو عبدالله (عليه السلام) لما رأى ما أصابه: (أي عذافر إنما خوفتك بما خوفني الله عز وجل به). قال محمد: فقدم أبي فما زال مغموماً مكروباً حتى مات(٢١).

وعن أبي بصير قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن أعمالهم؟ فقال لي: (يا أبا محمد لا، ولا مرة قلم، إن أحداً لا يصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا منه دينه مثله)(٢٢).

وعن ابن أبي يعفور قال: كنت عند أبي عبدالله (عليه السلام) إذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: جعلت فداك إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدة، فيدعى إلى البناء بينيه أو النهر يكر به أو المسناة يصلحها، فما تقول في ذلك؟ فقال أبو عبدالله (عليه السلام): (ما أحب إني عقدت لهم عقدة، أو وكيت لهم وكاءً وإن لي ما بين لايبتها، لا ولا مدة بقلم، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد)(٢٣).

وعن جهم بن حميد قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (أما تغشى سلطان هؤلاء؟). قلت: لا.

قال: (ولم؟).

قلت: فراراً بديني.

قال: (وعزمت على ذلك؟).

قلت: نعم.

قال لي: (الآن سلم لك دينك)(٢٤).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام)، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث المناهي قال: (ألا ومن علق سوطاً بين يدي سلطان جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً يسلمه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير)(٢٥).

قال: وقال (عليه السلام): (إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة واعوان الظلمة وأشباه الظلمة؟ حتى من برى لهم قلماً ولاق لهم دواة؟ فيجتمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في جهنم)(٢٦).
وعن صفوان بن مهران الجمال قال: دخلت على أبي الحسن الأول (عليه السلام) فقال لي: (يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً).

قلت: جعلت فداك أي شيء؟

قال: (إكراؤك جمالك من هذا الرجل) يعني هارون.

قلت: والله ما أكريته إلا لهذا الطريق (يعني طريق مكة) ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماي.

فقال لي: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لي: (أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟).

قلت: نعم.

قال: (من أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم ورد النار).

قال صفوان: فذهبت فبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون فدعاني فقال لي: يا صفوان بلغني أنك بعثت جمالك؟

قلت: نعم.

قال: ولم؟

قلت: أنا شيخ كبير، وإن الغلمان لا يفون بالأعمال!

فقال: هيهات هيهات! إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر.

قلت: مالي ولموسى بن جعفر؟

فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك(٢٧).

وقال (عليه السلام): (من ولى جائراً على جور كان قرين هامان في جهنم)(٢٨).

وعن سهل بن زياد رفعه إلى أبي عبدالله (عليه السلام)، في قول الله عز وجل: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) (هود: ١١٣).

قال: (هو الرجل يأتي السلطان فيحب بقاءه إلى أن يدخل يده إلى كيسه فيعطيه).

وعن محمد بن هشام، عمن أخبره، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن قوماً ممن آمن بموسى (عليه السلام) قالوا: لو أتانا عسكر فرعون فكنا فيه ونلنا من دنياه حتى إذا كان الذي نرجوه من ظهور موسى (عليه السلام) صرنا إليه). ففعلوا فلما توجه موسى (عليه السلام) ومن معه هارين من فرعون ركبوا دوابهم وأسرعوا في السير ليلحقوا موسى (عليه السلام) وعسكره فيكونوا معهم فبعث الله ملكاً فضرب وجوه دوابهم فردهم إلى عسكر فرعون فكانوا فيمن غرق مع فرعون) (٢٩).

وعن محمد بن سالم قال: كنا عند أبي جعفر (عليه السلام) على باب داره بالمدينة فنظر إلى الناس يرمون أفواجاً فقال لبعض من عنده: (حدث بالمدينة أمر؟).

فقال: أصلحك الله ولي المدينة وال فغدا الناس إليه يهنونه فقال: (إن الرجل ليغدى عليه بالأمر يهنى به وإنه لباب من أبواب النار) (٣٠).

وعن يحيى بن إبراهيم بن مهاجر قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) فلان يقرؤك السلام وفلان وفلان.

فقال: (وعليهم السلام).

قلت: يسألونك الدعاء.

قال: (وما لهم؟).

قلت: حبسهم أبو جعفر.

فقال: (وما لهم وماله؟).

فقلت: (وما لهم وماله؟) ألم أنهم؟ ألم أنهم؟ ألم أنهم؟ هم النار هم النار هم النار).

ثم قال: (اللهم اجدع عنهم سلطانهم).

قال: وفانصرفنا من مكة فسألنا عنهم فإذا هم قد أخرجوا بعد الكلام بثلاثة أيام (٣١).

وعن داود بن زري قال: أخبرني مولى لعلي بن الحسين (عليه السلام) قال: كنت بالكوفة فقدم أبو عبدالله (عليه السلام) الحيرة فأتيته فقلت: جعلت فداك لو كلمت داود بن علي أو بعض هؤلاء فأدخل في بعض هذه الولايات؟

فقال: (ما كنت لأفعل).

. إلى أن قال: جعلت فداك ظننت إنك إنما كرهت ذلك مخافة أن أجور أو أظلم، وإن كل امرأة لي طالق وكل مملوك لي حر وعليّ أن أظلم أحداً أو جرت عليه وإن لم أعدل.

قال: (كيف قلت؟).

فأعدت عليه الإيمان، فرفع رأسه إلى السماء فقال: (تناول السماء أيسر عليك من ذلك) (٣٢).

وعن حميد قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إني وليت عملاً فهل لي من ذلك مخرج؟
فقال: (ما أكثر من طلب المخرج من ذلك فعسر عليه).

قلت فما ترى؟

قال: (أرى أن تتقي الله عز وجل ولا تعد) (٣٣).

وعن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) في حديث المناهي قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من تولى عرافة قوم أتى به يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه، فإن قام فيهم بأمر الله عز وجل أطلقه الله، وإن كان ظالماً هوى به في نار جهنم وبئس المصير) (٣٤).

وعن مسعدة بن صدقة قال: سألت رجلاً أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوم من الشيعة يدخلون في أعمال السلطان يعملون لهم ويجبون لهم ويوالونهم؟ قال: (ليس هم من الشيعة ولكنهم من أولئك) (٣٥).
الاضطرار وحكم التقية

لكن يجب التنبيه على أنه إذا كان اضطراراً، لم يكن بالدخول بأس، سواء كان الاضطرار من جهة تقية كما قال سبحانه: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) (آل عمران: ٢٨).

أو كان الاضطرار من جهة رفع مظلمة عن الناس على شرط أن يعمل العامل معهم بكتاب الله وسنة رسوله وذلك من باب قاعدة الأهم والمهم.
وهناك روايات تدل على ما ذكرناه:

مثل ما رواه زيد الشحام قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) يقول: (من تولى أمراً من أمور الناس فعدل وفتح بابه ورفع ستره ونظر في أمور الناس كان حقاً على الله عز وجل أن يؤمن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة) (٣٦).

. وهذا الحديث يدل على المنع عن اتخاذ الحاجب كما هو معروف في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وهناك روايات أيضاً تدل على ذلك ..

وعن زياد بن أبي سلمة قال: دخلت على أبي الحسن موسى (عليه السلام) فقال لي: (يا زياد إنك لتعمل عمل سلطان؟).

قلت: أجل.

قال لي: (ولم؟).

قلت: أنا رجل لي مروءة، وعلي عيال، وليس وراء ظهري شيء.

فقال لي: (يا زياد لئن أسقط من حلق . والحالق الارتفاع . فاتقطع قطعة قطعة أحب إلي من أن أتولى لأحد منهم عملاً أو أطأ بساط رجل منهم إلا لماذا؟).

قلت: لا أدري جعلت فداك.

قال: (إلا لتفريج كربة عن مؤمن، أو فك أسره، أو قضاء دينه، يا زياد إن أهون ما يصنع الله عز وجل بمن تولى لهم عملاً أن يضرب عليه سرادقاً من نار إلى أن يفرغ الله عز وجل من حساب الخلائق، يا زياد فإن وليت شيئاً من أعمالهم فأحسن إلى إخوانك فواحدة بواحدة، والله من وراء ذلك، يا زياد أيما رجل منكم تولى لأحد منهم عملاً ثم ساوى بينكم وبينه فقولوا له: أنت منتحل كذاب، يا زياد إذا ذكرت مقدرتك على الناس فاذكر مقدرة الله عليك غداً) (الحديث)(٣٧).

وعن علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي استأذن لي على أبي عبدالله (عليه السلام)، فاستأذنت له عليه فأذن له، فلما أن دخل سلم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالا كثيراً وأغمضت في مطالبه؟.

فقال أبو عبدالله (عليه السلام): (لولا أن بني أمية وجدوا لهم من يكتب ويحجي لهم الفياء ويقاقل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم). قال: فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي مخرج منه؟

قال: (إن قلت لك تفعل؟).

فقال: أفعل.

قال (عليه السلام) له: فإخرج من جميع ما كسبت من ديوانهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدقت به، وأنا أضمن لك على الله عز وجل الجنة). فأطرق الفتى طويلاً ثم قال له: لقد فعلت جعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة، فرجع الفتى معنا إلى الكوفة، فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلا خرج منه حتى ثيابه التي كانت على بدنه، قال: فقسمت له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا إليه بنفقة.

قال: فما أتى عليه إلا أشهر قلائل حتى مرض فكنا نعوده، فدخلت يوماً وهو في السوق . أي الاحتضار . ففتح عينيه ثم قال لي: (يا علي وفي لي والله صاحبك) ثم مات، فتولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبدالله (عليه السلام) فلما نظر إليّ قال لي: (يا علي وفينا والله لصاحبك) فقلت: صدقت جعلت فداك هكذا قال لي عند موته(٣٨).

وفي رواية الكليني، عن الحسن بن الحسن الأنباري، عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: كتبت إليه أربع عشرة سنة أستأذنه في عمل السلطان، فلما كان في آخر كتاب كتبت إليه ذكرت إني أخاف على خيط عنقي، وإن السلطان يقول لي: إنك رافضي ولسنا نشك في إنك تركت العمل للسلطان للرفض، فكتب إليّ أبو الحسن (عليه السلام): (فهتم كتابك وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم إنك إذا دخلت عملت في عملك بما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم تصير أعيانك وكتابك أهل ملتك وإذا صار إليك شيء وافيت به فقراء المؤمنين حتى تكون واحداً منهم كان ذا بذا وإلا فلا)(٣٩).

وعن علي بن يقطين قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر (عليه السلام): (إضمن لي واحدة أضمن لك ثلاثة، أضمن لي أنه لا يأتي أحد من موالي في دار الخلافة إلا قمت له بقضاء حاجته، أضمن لك أن لا يصيبك حر السيف أبداً، ولا يظلك سقف سجن أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً).

وقال الحسن: ذكرت لمولاي (عليه السلام) تويّ أصحابنا أعمال السلطان واختلاطهم بهم؟ قال: (ما يكن أحوال إخوانهم معهم؟).

قلت: مجتهد ومقصر.

قال: (من أعز أخاه في الله وأهان أعداءه في الله وتولي ما استطاع نصيحتته أولئك يتقبلون في رحمة الله) (الحديث)(٤٠).

وفي رواية نصب المأمون الإمام الرضا (عليه السلام) ولي عهد له أنه (عليه السلام) لم يقبل منه إلا اضطراراً حيث قال المأمون له: أقسم لئن قبلت ولاية العهد، وإلا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت، وإلا ضربت عنقك، فقال الرضا (عليه السلام): (قد نهاني الله أن ألقى بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وإنما أقبل ذلك على أن لا أولي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً) فرضى بذلك منه فجعله ولي عهده على كراهية منه (عليه السلام) لذلك(٤١).

وفي رواية أخرى قال الإمام الرضا (عليه السلام): (فإني مجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على إنني لا أمر ولا أنهي ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل ولا أغير شيئاً مما هو قائم) فأجابه المأمون إلى ذلك كله(٤٢).

الاقتراب إلى السلطان يوجب تلويث السمعة

فحسب القاعدة، الحكومات في بلاد الإسلام مكروهة لشعوبها أشد كراهية إذ أنهم يرون أنها عميلة، وأنها لا تعمل بالإسلام، وأنها تهدر الحقوق والكرامات وتسحق القيم والموازين، ولهذا فإذا رأوا شخصاً أو منظمة أو جماعة أو هيئة أو جمعية أو حزباً يقترب من الحكومة يجتنبون عنه فلا يتمكن هؤلاء من تحريك الجماهير لإقامة حكم الإسلام ولو كانوا مخلصين حقيقة لأهدافهم.

من دخل مداخل السوء اتهم

وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ومن دخل مداخل السوء اتهم)(٤٣).

وعن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن)(٤٤).

وعن الحسين بن يزيد، عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (من دخل موضعاً من مواضع التهمة فاتهم فلا يلومن إلا نفسه)(٤٥).

وعن أبي الجارود، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن جده (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من وقف بنفسه موقف التهمة فلا يلومن من أساء به الظن)(٤٦).

وعن العقيلي في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن (عليه السلام) أنه قال فيها: (وإياك ومواطن التهمة والمجلس المظنون به السوء، فإن قرين السوء يغير جليسه)(٤٧).

وعن جامع البزنطي، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (اتقوا مواقف الريب، ولا يقض أحدكم مع أمه في الطريق فإنه ليس كل أحد يعرفها)(٤٨).

وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن)(٤٩).

وقال (عليه السلام): (من سلّ سيف البغي قتل به، ومن كاید الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن دخل مداخل السوء أتم)(٥٠).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن الصادق (عليه السلام) قال: قال النبي (صلّى الله عليه وآله): (أولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة)(٥١).

- ١ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ١٢٢.
- ٢ . بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ٣٨٠.
- ٣ . المصدر السابق.
- ٤ . المصدر السابق.
- ٥ . المصدر السابق.
- ٦ . المصدر السابق.
- ٧ . مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ١٢٤.
- ٨ . المصدر السابق.
- ٩ . المصدر السابق: ص ١٢٥.
- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . المصدر السابق.
- ١٢ . المصدر السابق.
- ١٣ . المصدر السابق.
- ١٤ . المصدر السابق: ص ١٢٦.
- ١٥ . المصدر السابق: ص ١٢٧.
- ١٦ . المصدر السابق.
- ١٧ . المصدر السابق: ص ١٢٨.
- ١٨ . المصدر السابق: ج ١٢، ص ٣٠٧.

- ١٩ . المصدر السابق: ج ١٣، ص ١٢٩ .
- ٢٠ . المصدر السابق .
- ٢١ . المصدر السابق: ج ١٢، ص ١٢٨ .
- ٢٢ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ١٢٩ .
- ٢٣ . المصدر السابق .
- ٢٤ . المصدر السابق .
- ٢٥ . المصدر السابق .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ١٣١ .
- ٢٧ . المصدر السابق .
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ١٣٣ .
- ٢٩ . المصدر السابق .
- ٣٠ . المصدر السابق: ص ١٣٥ .
- ٣١ . المصدر السابق: ص ١٣٦ .
- ٣٢ . المصدر السابق .
- ٣٣ . المصدر السابق .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق: ص ١٣٨ .
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ١٤٠ .
- ٣٧ . الكافي: ج ٥، ص ١١٠ .
- ٣٨ . المصدر السابق: ص ١٠٦ .
- ٣٩ . المصدر السابق: ص ١١١ .
- ٤٠ . مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ١٣٧ .
- ٤١ . وسائل الشيعة: ج ١٢، ص ١٤٨ .
- ٤٢ . مستدرک الوسائل: ج ١٣، ص ١٤١ .
- ٤٣ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٤٢٣ .
- ٤٤ . المصدر السابق: ص ٤٢٢ .
- ٤٥ . المصدر السابق .
- ٤٦ . المصدر السابق .
- ٤٧ . المصدر السابق .

٤٨ . المصدر السابق: ص ٤٢٣ .

٤٩ . المصدر السابق .

٥٠ . المصدر السابق .

٥١ . مستدرک الوسائل: ج ٨، ص ٣٣٩ .

العامل الثامن

عدم إرضاء الناس

إن كثيراً من المنظمات والأحزاب والجمعيات وما إليها تتكلم وتعمل باسم الناس بينما الناس لا يرضون بذلك. أولاً: لأجل أنها لا تأخذ آراء الناس، بل آراء حزبها وجماعتها على أحسن فرض، والناس لا يحتاجون إلى السادة بل إلى المستشارين، فإذا لم تأخذ الأحزاب بآراء الناس فلن يقبلوا أن تتكلم هذه الأحزاب باسمهم وتعمل باسمهم، ولذلك تحدث الفرقة بينها وبين الناس.

وثانياً: لأجل أنها إذا حصلت على مكسب فإنها تستبد بالأرباح ولا تشرك الناس فيه، سواء كان الربح مادياً أو معنوياً، والناس يريدون أن يتكلم باسمهم من يشركهم في الربح أيضاً. ثالثاً: لأجل أنها منفصلة عن الشعب . حتى إذا قسمت الأرباح واتبعت آراء الناس . فالناس بحاجة إلى من هو منهم لا من هو غريب عليهم.

الرسول (صلى الله عليه وآله) يرضي الجميع

ولذا نرى في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه كان يستشير الناس، لا طليعة القوم فقط بل وكافة الذين كانوا يتبعونه ويدخلون في الإسلام، سواء كانوا من قدماء المسلمين، أو جددهم، مهاجرين أو أنصاراً أو غيرهم، ثم إذا حصل ربح قسمه (صلى الله عليه وآله) بين الجميع ولم يكن يستبد بالربح أو يجعل الربح لجماعة دون جماعة أو لطيعة القوم فقط، بالإضافة إلى أنه (صلى الله عليه وآله) كان من الناس وإلى الناس، ولذا كان الناس ينضون تحت لوائه وكانوا يتبعونه وبذلك أيضاً استطاع أن يقدم المسلمين إلى الأمام.

قصتان من السيرة النبوية

وقد ضرب النبي (صلى الله عليه وآله) رقماً قياسيماً في إرضاء جميع الناس وتقسيم الغنائم بين الجميع والاستشارة من الجميع ولنقرأ هاتين القصتين:

أن أعرابياً جاء إلى رسول الله يستعينه في شيء قال عكرمة أراه في دم، فأعطاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئاً ثم قال أحسنت إليك؟ قال الاعرابي: لا ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فأشار النبي (صلى الله عليه وآله) إليهم أن كفوا، فلما قام النبي (صلى الله عليه وآله) وبلغ إلى منزله دعا الاعرابي إلى البيت، فقال له: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، فزاده رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئاً فقال: أحسنت إليك؟ فقال الاعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشير خيراً.

فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): إنك كنت جئتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بي يدي حتى يذهب عن صدورهم، قال فلما جاء الاعرابي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناك فقال ما قال وإنما قد دعونا فأعطيناك

فرعم أنه قد رضي أكذاك قال الاعرابي نعم فجزاك الله فقال النبي (صلى الله عليه وآله): (ان مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً. فقال صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بما فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قمام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها واستوى عليها ولو أني أطعتكم حيث قال دخل النار)(١).

ففي هذه القصة نرى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يترك حتى أعرايياً يسخط عليه، وإنه لما رضى الأعرابي عنه قال له (صلى الله عليه وآله): إذهب إلى أصحابي وقل لهم: إني رضيت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى يعرف الأصحاب إنه ليس هناك من ساخط. ولو واحد. على رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وفي قصة ثانية رواها الشيخ الصدوق عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) رأى في بعض طريقة جارية قاعدة تبكي، فقال لها النبي (صلى الله عليه وآله): ما شأنك؟

فقلت: يا رسول الله إن أهلي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لم بها حاجة فضاعت فلا أجسر أن أرجع إليهم.

فأعطاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أربعة دراهم وقال: ارجعي إلى أهلك.

ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثم رجع وإذا بالجارية قاعدة على الطريق تبكي فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله): مالك لا تأتي أهلك؟

قالت: يا رسول الله إني قد أبطأت عليهم وأخاف أن يضربوني.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مرّي بين يدي ودليني على أهلك.

فجاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى وقف على باب دارهم ثم قال: السلام عليكم يا أهل الدار، فلم يجيبوه فأعاد السلام فقالوا: عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فقال لهم: ما لكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني؟

قالوا: يا رسول الله سمعنا سلامك فأجبنا أن تستكثر منه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إن هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها.

فقالوا: يا رسول الله هي حرة لممشاك يا رسول الله(٢).

وهكذا نرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) مع تمكنه من أن يرسل بعض أصحابه لأجل حل القضية ذهب بنفسه لأجل ذلك.. فهو القائد الشعبي إلى أبعد الحدود..

إذاً فمن الواجب على الذين يريدون الوصول إلى الهدف النهائي . وهي حكومة ألف مليون مسلم ومن ورائها إنقاذ العالم من برائن المشكلات . أن يسلكوا هذا الطريق الذي سلكه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسلكه علي (عليه السلام).

١ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج٩، ص١٦ .

٢ . بحار الأنوار: ج١٦، ص٢١٥ .

العامل التاسع

الاستعلاء على الآخرين

السادة يلزم أن يكونوا متواضعين دائماً يرون صغار الناس كباراً وكبار أنفسهم صغاراً، وبذلك يلتف الناس حولهم. وفي كثير من الأحزاب والمنظمات وما أشبه نرى الأمر بالعكس فيرون صغارهم كباراً وكبار الناس صغاراً، وذلك يوجب تنفير الناس عنهم.

التواضع في النصوص الدينية

وقد ورد في أحاديث كثيرة تبعاً للآيات المباركات مدح التواضع، خصوصاً من الكبار فإن تواضع الصغير طبيعي، أما إذا كان الإنسان كبيراً فتواضعه يكون أعلى وأرفع.

ففي الآية الكريمة: (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً) (لقمان: ١٨).

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه) (١).

وعن أبي المقدم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (فيما أوحى الله عز وجل إلى داود: يا داود كما إن أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون) (٢).

وعن الحسن بن الجهم، عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه) (٣).

وفي وصية النبي (صلى الله عليه وآله) إلى علي (عليه السلام) قال: (يا علي والله لو أن الوضيع في قعر البئر لبعث الله عز وجل إليه ريحاً ترفعه فوق الأخيار في دولة الأشرار) (٤).

وفي رواية الحسن بن الجهم قال: سألت الرضا (عليه السلام) قلت له: جعلت فداك ما حد التوكل؟ فقال لي: (أن لا تخاف مع الله أحداً).

قال: قلت: جعلت فداك فما حد التواضع؟

فقال: (أن تعطي الناس من نفسك ما تحب أن يعطوك مثله).

قلت: جعلت فداك أشتهي أن أعلم كيف أنا عندك؟

فقال: (انظر كيف أنا عندك) (٥).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله، عن آبائه (عليهم السلام) قال: (إن من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلم على من تلقى، وأن تترك المرء وإن كنت محقاً، ولا تحب أن تحمد على التقوى) (٦).

وعن العسكري (عليه السلام) قال: أعرف الناس بحق إخوانه وأشدهم قضاءً لها أعظمهم عند الله شأنًا ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين) (٧).

وفي حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتواضع من غير منقصة، وجالس أهل الفقر والرحمة، وخالط أهل الذل والمسكنة، وأنفق مالا جمعه في غير معصية)(٨).
وعن الصادق (عليه السلام) قال: (كمال العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلا من خير)(٩).

وفي وصية الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) (كما في نهج البلاغة) عند موته قال: (عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة)(١٠).

وقال (عليه السلام): (بالتواضع تتم النعمة)(١١).

وقال (عليه السلام): (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتكالاً على الله)(١٢).

وروي: أن محمد بن مسلم كان رجلاً شريفاً مؤسراً، فقال له أبو جعفر (عليه السلام): (تواضع يا محمد) فلما انصرف إلى الكوفة أخذ قوصرة من تمر مع الميزان وجلس على باب المسجد الجامع وصار ينادي عليه، فأثاه قومه فقالوا له: فضحتنا، فقال: إن مولاي أمرني بأمر فلن أخالفه ولن أبرح حتى أفرغ من بيع ما في هذه القوصرة فقال له قومه: (إذا أبيت إلا أن تشتغل ببيع وشراء فاقعد في الطحانين) فهياً رحي وجمالاً وجعل يطحن(١٣).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (التواضع يكسبك السلامة)(١٤).

وقال (عليه السلام): (زينة الشريف التواضع)(١٥).

وعن هشام، عن الكاظم (عليه السلام) أنه قال: (طوبى للمتواضعين أولئك هم المرحومون يوم القيامة. إلى أن قال: .: طوبى للمتواضعين في الدنيا أولئك يرتقون منابر الملك يوم القيامة).

وقال (عليه السلام): (يا هشام إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، وكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار، لأن الله تعالى جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر آلة الجهل، ألم تعلم أن من شتمخ إلى السقف برأسه شجّه ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنه؟ فكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله، ومن تواضع لله رفعه الله. إلى أن قال (عليه السلام): .: واعلم أن الله لم يرفع المتواضعين بقدر تواضعهم ولكن رفعهم بقدر عظمتهم ومجده)(١٦).

وعن عبد الله بن جندب، عن الصادق (عليه السلام) أنه قال في حديث: (فإن أفضل العمل العبادة والتواضع)(١٧).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في الأشعار المنسوبة إليه:

واجعل فؤادك للتواضع منزلاً*** إن التواضع بالشريف جميل

وفي رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن من التواضع أن يرضى الرجل بالجلوس دون شرف المجلس، وأن يسلم على من لقي، وأن يترك المرء وإن كان محقاً، وأن لا يجب أن يحمده على البر والتقوى)(١٨).

وعن الجعفري، عن الصادق (عليه السلام) أنه قال في حديث: (ورأس الحزم التواضع)(١٩).

وروى لب الألباب، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وأذل نفسه في غير مسكنة، وأنفق من مال جمعه من غير معصية)(٢٠).

وعن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (اطلبوا العلم، وتزينوا معه بالحلم والوقار، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)(٢١).

عيسى (عليه السلام) يغسل أرجل الحواريين

وفي رواية قال: (قال عيسى بن مريم (عليها السلام) للحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي).

فقالوا: (قضيت حاجتك يا روح الله).

فقام فغسل أقدامهم، فقالوا: كنا أحق بهذا منك.

فقال: إن أحق الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هذا لكي تتواضعوا بعدي في الناس كنتواضعي لكم.

ثم قال عيسى (عليه السلام): (بالتواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل)(٢٢).

أمير المؤمنين (عليه السلام) يغسل يد الضيف

وفي رواية: أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ورد عليه أب وابن، فلما أكلا قام الإمام (عليه السلام) وأخذ الطشت والإبريق وأراد أن يغسل يد الأب فامتنع الرجل، فقال الإمام (عليه السلام): (بحقي عليك إلا ما تركتني حتى أغسل يدك) فغسل يده ثم أعطى الإبريق لمحمد بن الحنفية وقال له: (اغسل يد الابن فإن الله أبي أن يسوى بين الأب والابن، ولو جاء الابن وحد لغسلت يده، ولكن الأب يغسل يد الأب والابن يغسل يد الابن)(٢٣).

وفي رواية المعراج، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: قال الله تبارك وتعالى: (يا أحمد إن عيب أهل الدنيا كثير: فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه) (إلى آخر الحديث)(٢٤).

ولذا فاللازم على المنظمات الإسلامية التي تريد الوصول إلى الهدف وهو سيادة حكم الله في الأرض وإقامة حكم ألف مليون مسلم وإنقاذ العالم من براثن المشكلات أن يتحلى أفرادها بأكبر قدر من التواضع في مآكلهم وملبسهم ودارهم وأثاثهم ومركبهم وسائر شؤونهم وأن يقدروا الناس حق قدرهم فإن الناس إذا رأوا هذه الحالة المتواضعة ورأوا إعطاء كل ذي حق حقه التفوا حولهم وساهموا معهم في عملية الإنقاذ.

التواضع للناس

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يذكر إنه أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ملك فقال: إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً، أو ملكاً رسولاً، قال: فنظر إلى جبرئيل وأوصى بيده أن تواضع، فقال: عبداً متواضعاً رسولاً(٢٥).

التواضع في المأكل والمشرب

عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أفطر رسول الله (صلى الله عليه وآله) عشية خميس في مسجد قبا، فقال: هل من شراب؟ فأتاه أوس بن خولي الأنصاري بعس مخيض بعسل، فلما وضعه على فيه نحاه ثم قال: (شرابان يكتفى أحدهما من صاحبه لا أشربه ولا أحرمه، ولكن أتواضع لله فإنه من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر خفضه الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذر حرمه الله، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله)(٢٦).

وعن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (مرّ علي بن الحسين (عليه السلام) على المجذومين وهو راكب حماره وهم يتغذون فدعوه إلى الغداء فقال: أما لولا إني صائم لفعلت، فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع وأمر أن يتنوقوا فيه، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم)(٢٧).
ذم التكبر

عن حكيم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن أدنى الإلحاد قال: (إن الكبر أدناه)(٢٨).
وعن العلاء بن الفضيل، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم)(٢٩).
أقول: هذا من باب التشبيه.

وعن زرارة، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله (عليه السلام) قالوا: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر)(٣٠).

وعن ابن بكير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر فشكى إلى الله عز وجل شدة حره وسأله عز وجل أن يأذن له أن يتنفس فتتنفس فأحرق جهنم)(٣١).
وعند داود بن فرقد، عن أخيه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (إن المتكبرين يجعلون في صور الذر تطأهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب)(٣٢).

وعن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة ومملك يمسكها فإذا تكبر قال له: إتضع وضعك الله فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس وإذا تواضع رفعه الله عز وجل ثم قال له انتعش نعشك الله فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس)(٣٣).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في وصيته قال: (وإياكم والعظمة والكبر فإن الكبر رداء الله عز وجل فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة)(٣٤).

وعن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه (عليه السلام) إن علياً (عليه السلام) قال: (ما أحد من ولد آدم إلا وناصيته بيد مالك، فإن تكبر جذبته بناصيته إلى الأرض، ثم قال له: تواضع وضعك الله، وإن تواضع جذبته بناصيته، ثم قال له: إرفع رأسك رفعك الله، ولا وضعك بتواضعك لله)(٣٥).

وعن حسين بن مختار، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم: ثاني عطفه، ومسبل إزاره خيلاء، والمنفق سلعته بالأيمان والكبر إن الكبرياء لله رب العالمين)(٣٦).

وعن سعد بن طريف، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (الكبر مطايا النار)(٣٧).

وعن عبد الله بن القاسم، رفعه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يحشر المتكبرون يوم القيامة في خلق الذر في صور الناس يوطئون حتى يفرغ الله من حساب خلقه، ثم يسلك بهم إلى النار يسقون من طينة خبال من عصارة أهل النار)(٣٨).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أكثر أهل جهنم المتكبرون)(٣٩).

وعن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أحبكم إليّ وأقربكم مني يوم القيامة مجلساً أحسنكم خلقاً، وأشدكم تواضعاً وإن أبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون، وهم المستكبرون)(٤٠).

وعن ابن بكير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (كانت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ناقة لا تسبق، فسابق أعرابياً بناقته فسبقها فاكتأب لذلك المسلمون، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنها ترفعت، وحق على الله أن لا يرتفع شيء إلا وضعه الله)(٤١).

قال: (وفي حديث آخر) عن أبي عبدالله (عليه السلام): (ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة يجدها في نفسه)(٤٢).

(وورد أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مر في بعض طرق المدينة وسوداء تلتقط السرقين، فقبل لها: تنحي عن طريق رسول الله، فقالت: إن الطريق لمعرض، فهممّ بها بعض القوم أن يتناولها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله): (دعوها فإنها جبارة)(٤٣).

وعن الحسين بن خالد، عن عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام)، عن أبيه، عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (إن الله تبارك وتعالى ليينغض البيت اللحم، واللحم السمين، فقال له أصحابنا: يا ابن رسول الله إنا لنحب اللحم وما تخلو بيوتنا عنه فكيف ذلك؟ فقال: ليس حيث تذهب إنما البيت اللحم الذي تؤكل لحوم الناس فيه بالغبية، وأما اللحم السمين فهو المتجبر المتكبر المختال في مشيته)(٤٤).

وعن عمرو بن جميع، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (الجبارون أبعد الناس من الله عز وجل يوم القيامة)(٤٥).

وعن ميسر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن في جهنم جبلاً يقال له: الصعدا وإن في الصعدا لوادياً يقال له: سقر وإن في سقر جبلاً يقال له: ههب كلما كشف غطاء ذلك الجب ضج أهل النار من حرّه ذلك منازل الجبارين)(٤٦).

وعن ابن فضال عن حدثه، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من مشى في الأرض اختيالاً لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها)(٤٧).

وعن أحمد بن محمد، عن أبيه رفعه قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):
(ويل لمن يختال في الأرض يعاند جبار السماوات والأرض)(٤٨).

حدود التكبر المذموم

عن محمد بن سالم، عن أحدهما (عليهما السلام) قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
من الكبر).

قال: فاسترجعت، فقال: (مالك تسترجع؟) فقلت: لما سمعت منك، فقال: (ليس حيث تذهب إنما أعني
الجحود إنما هو الجحود)(٤٩).

وعن عبد الأعلى، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (الكبر أن تغمص الناس وتسفه الحق)(٥٠).

وعن عبد الأعلى بن أعين قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أعظم
الكبر غمص الخلق وسفه الحق).

قلت: وما غمص الخلق وسفه الحق؟

قال: (يجهل الحق ويطعن على أهله، فمن فعل ذلك فقد نازع الله عز وجل رداءه)(٥١).

وعن محمد بن عمر عن يزيد، عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنني آكل الطعام الطيب وأشم
الرائحة الطيبة، وأركب الدابة الفارحة ويتبعني الغلام فتري في هذا شيئاً من التجبر فلا أفعله؟

فأطرق أبو عبد الله (عليه السلام) ثم قال: (إنما الجبار الملعون من غمص الناس وجعل الحق).

قال عمر: فقلت: أما الحق فلا أجهله، والغمص لا أدري ما هو، قال: (من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك
الجبار)(٥٢).

وعن محمد بن مسلم، عن أحدهما (يعني أبا جعفر وأبا عبد الله (عليه السلام)) قال: (لا يدخل الجنة من كان
في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر).

قال: قلت: إنا نلبس الثوب الحسن فيدخلنا العجب، فقال: (إنما ذلك فيما بينه وبين الله عز وجل)(٥٣).

١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٥.

٢ . المصدر السابق: ص ٢١٦.

٣ . المصدر السابق.

٤ . المصدر السابق: ص ٢١٧.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق.

٧ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٢٩٥.

٨ . المصدر السابق.

- ٩ . المصدر السابق: ص ٢٩٦ .
- ١٠ . المصدر السابق .
- ١١ . المصدر السابق .
- ١٢ . المصدر السابق .
- ١٣ . بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ١٢٢ .
- ١٤ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٢٩٨ .
- ١٥ . المصدر السابق .
- ١٦ . المصدر السابق: ص ٢٩٩ .
- ١٧ . المصدر السابق .
- ١٨ . المصدر السابق .
- ١٩ . المصدر السابق .
- ٢٠ . المصدر السابق .
- ٢١ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٩ .
- ٢٢ . المصدر السابق .
- ٢٣ . بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ١١٨ .
- ٢٤ . مستدرك الوسائل: ج ١١، ص ٣٠٣ .
- ٢٥ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢١٦ .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ٢٢٠ .
- ٢٧ . بحار الأنوار: ج ٤٢، ص ٥٥ .
- ٢٨ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٩٨ .
- ٢٩ . المصدر السابق .
- ٣٠ . المصدر السابق: ص ٢٩٩ .
- ٣١ . المصدر السابق .
- ٣٢ . المصدر السابق .
- ٣٣ . المصدر السابق: ص ٣٠٠ .
- ٣٤ . المصدر السابق .
- ٣٥ . المصدر السابق .
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ٣٠١ .
- ٣٧ . المصدر السابق .

- ٣٨ . المصدر السابق.
- ٣٩ . المصدر السابق.
- ٤٠ . المصدر السابق.
- ٤١ . المصدر السابق: ص ٣٠٢.
- ٤٢ . المصدر السابق: ص ٣٠٣.
- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . بحار الأنوار: ج ٥٩، ص ٥٧.
- ٤٥ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٠٤.
- ٤٦ . المصدر السابق.
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق.
- ٤٩ . المصدر السابق: ص ٣٠٦.
- ٥٠ . المصدر السابق.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق: ص ٣٠٧.
- ٥٣ . المصدر السابق.

العامل العاشر

عرض الإسلام بصورة منقّرة

إن كثيراً من الأحزاب الإسلامية والمنظمات وما أشبهه يعرضون الإسلام بصورة منقّرة، مثل قولهم: إنهم يريدون (إحياء الخلافة) بينما (الخلافة) منقّرة في أذهان الناس . المسلمون منهم وغير المسلمين . لما فعله الأمويون والعباسيون والعثمانيون ومن أشبهه من الجرائم والموبقات . كما ذكرنا جملة منها في فصل سابق ..

التهديد بالعصا الغليظة!

بالإضافة إلى أنهم يقولون: إننا نريد تطبيق الحدود الشرعية من جلد الزاني وقطع يد السارق وما أشبهه كل ذلك بصورة مشوهة أيضاً، وحيث يتذكر الناس ما قرؤوه في التواريخ وما رأوه في بعض الحكومات التي تسمى بالإسلامية من القتل الاعتباطي والجلد الاعتباطي وقطع اليد والرجل الاعتباطي وما أشبهه مما تسبب اقشعرار جلود الناس من إعادة حكم الإسلام أي الإسلام الذين يقترون في أذهانهم بهذه الأمور.

البراهين الغامضة

ثم إن كثيراً من المنظمات يأتون بالاستدلالات العقلية على الأصول الدينية، والاستدلالات العقلية وإن كانت صحيحة إلا أنها للفلاسفة، أما الاستدلالات التي تنفع عامة الناس فهي الاستدلالات الواردة في القرآن والسنة.

بين الحلال والحرام

وكذلك يذكرون تحريم المحرمات، وإن الخمر حرام والزنا حرام والربا حرام.. الخ.. بدون توضيح أنه في قبال المحرمات توجد في الإسلام ألوف المحللات، بل المحرمات في الإسلام أقل من واحد في الألف، بينما المحرمات الموجودة في القوانين الوضعية في العالم الذي يسمى بالحرة أكثر من مائة في الألف.

فوارق بين الرجل والمرأة، وبين المؤمن والكافر

وكذلك يذكرون الفروق بين الرجال والنساء والمؤمن والكافر بصورة مزرية جداً، بينما نرى أن الإسلام كان بالعكس يوم طبق . كما في أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأيام علي (عليه السلام) . صحيح إن هناك فروقاً بين الرجال والنساء لكنها فروق طبيعية وقليلة، كما أنه من الصحيح توجد فروق بين المؤمن والكافر لأن الإسلام دين عقائدي، لكن الإسلام يعطي للكافر من الحرية والرفاه ما لا يعطيه العالم المسمى بالعالم الحر.

والحاصل: إنهم يذكرون القوانين الموجودة في الإسلام بصورة منقّرة جداً في كتبهم وخطبهم وما أشبهه، ويقولون مثلاً . إذا نحن وصلنا إلى الحكم نفعل كذا وكذا بالجرمين وبالأثرياء وبالحكام السابقين، مع العلم أن كل ذلك بالعكس مما يقوله الإسلام، أنظروا إلى سورة الإيلاف: (بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (قريش: ١ - ٤).

فالله سبحانه وتعالى يطلب من عباده الإيمان به في قبال أنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

وكذلك في الآية الكريمة: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (الأعراف: ١٥٧).

كما إنا نرى احتراماً غريباً للمرأة في القوانين الإسلامية واحتراماً للكافر لم تجد المرأة ولا الكافر في الأنظمة الغربية مثل ذلك الاحترام، بل إن الإسلام . كما في قصة خيبر وفي قصة علي (عليه السلام) . لم يأخذ من الكفار الذين أصبحوا تحت ظل الدولة الإسلامية إلا أقل مما كانت تأخذ منهم الدول الكافرة سابقاً، وإنما الإسلام يقول: (لكم دينكم ولي دين) (الكافرون: ٦).

إلى غير ذلك مما تقدم شطر منه.

والحاصل: إن كثيراً من الأحزاب والمنظمات الإسلامية يعرضون الإسلام بصورة مرعبة منقّرة، وهذا يسبب الإساءة إلى سمعة الإسلام.

إراءة البديل الأفضل

فاللزام أن تُربي المنظمات الإسلامية للناس برنامجاً سلوكياً أفضل بالنسبة إلى الحياة التي يريدونها للمجتمع الإسلامي، فإن الناس كما ينتخبون الفاكهة الأفضل والقماش الأفضل إذا دخلوا السوق، كذلك فإنهم يرون إن أي المبادئ والقوانين أفضل؟ فيتخذونه مبدئاً.

مضافاً إلى أن الناس يجب أن يعرفوا إن المبدأ المرتقب أفضل بكثير، حتى يغيروا مبدأهم الحالي إلى ذلك المبدأ، لأنهم يرون في مبدأهم الذي يمارسونه الآن راحة واطمئناناً، أما تغيير هذا المبدأ إلى مبدأ آخر . وإن كان أفضل في الجملة . فإنهم لا يستعدون له لما يعرفون من أن في تغيير المبادئ أخطار كثيرة.

وعليه فاللزام أن تُربي المنظمات الإسلامية المبدأ الإسلامي بجميع جوانبه، وإنه أفضل من المبادئ الغربية والشرقية التي تسود بلادهم حالياً، ومع الأسف: فهذا الشيء غير متوفر غالباً في الوقت الحاضر فعالباً لا يعرف الناس أن الاقتصاد الإسلامي أفضل، أو السياسة الإسلامية أفضل، أو أن الاجتماع الإسلامي أفضل، أو أن التربية الإسلامية أفضل وهكذا، بل يرون العكس، فإنهم إذا دخلوا بعض البلاد التي تسمى بالحررة يرون فيها الهدوء والاستقرار والسكينة والنظام والنظافة وعدم سفك الدماء وعدم مصادرة الأموال وعدم التعذيب في السجون وعدم الدكتاتورية والاستبداد، بينما إذا دخلوا البلاد التي تدعي الإسلام يرون الأمر بالعكس، فيظنون أن الإسلام صوم وصلاة وحج ومسجد وقرآن ودعاء أو نحوها، أما مناهج الحياة فإنها ستكون أفضل على الأسلوب الغربي، ولذا لا يتركون الاستمرار في السير على المناهج الغربية لمنهج إسلامي محتمل وقد رأوا أن تطبيق ما سمي بالمنهج الإسلامي في البلاد الإسلامية أسوأ من تطبيق المناهج الرأسمالية والديمقراطية ونحوها في البلاد الغربية وما إليها.

والإسلام إنما تمكن من التقدم في ابتداء ظهوره بسرعة فائقة لأن الناس رأوا منهجهم خيراً من المناهج السابقة التي كانت تسودهم.

مثلاً: أباح الإسلام التعليم لكل حيث كان التعليم محرّماً على العامة وخاصاً بطبقة معينة كما كان عند الفرس والروم.

ووفر الحريات حيث كانت ديكتاتوريات وقوانين كابته.

وأخرج الناس من ضيق الأرض إلى سعتها حيث كانت الأرض ضيقة على الناس وأعطى للمرأة الكرامة، حيث كانت المرأة مهانة ذليلة تعد كبضائع الدار، وقد نقل أنه كانت في قصور كسرى اثنتا عشرة ألف جارية خاصة به، فأى مهانة وذلة هذه التي تجعل من المرأة سلعة رخيصة؟ وفي الجزيرة العربية كانوا يئدون البنات ويقتلونهن ويحرمونهن من الإرث إلى غير ذلك، ويشبه ذلك ما كان في الروم من الازدراء بكرامة النساء.

كما أن الإسلام جمع كلمة الناس، حيث كان التناحر والتفرقة، وكانت الحروب سائدة بينهم سواء في الجزيرة العربية أو بين الفرس والروم أو غيرهم.

كما أنه منع القتل حيث كانت العادة سفك الدماء.

ووصل الأرحام حيث كانت مقطوعة.

وأسقط الحدود بين دولة ودولة وبين بلد وبلد وبين عشيرة وعشيرة حيث كانت ترفع الحدود في وجوه الناس.

وأباح للناس خيرات الأرض حيث كانت غير مباحة.

وجعل الحكم بسيطاً حيث كان معقداً إلى أبعد حد.

وجعل النظام في كل شيء حيث كانت الفوضى تسود.

وأمر بالنظافة حيث كانت القذارة ضاربة بأجزائها.. إلى غير ذلك مما سبب أن يرى الناس النظام الجديد خيراً من النظام القديم، لا مرة واحدة، وإنما مرات ومرات، ولذلك التفوا حول هذا النظام الجديد.

وعليه فاللازم على المنظمات الإسلامية التي تريد الوصول إلى الهدف المنشود أن يروا للناس برامج أفضل من البرامج السائدة فيما يسمى بالعالم الحر حتى يسبب ذلك التفاف الناس حول الإسلام، أما التبشير فقط بأن الأدلة الأصولية تدل على صحة الإسلام دون غير الإسلام أو على أنه توجد للمسلمين في الآخرة جنات دون غير المسلمين، فإن ذلك لا يسبب تحريك الناس تحريكاً عملياً حتى يثوروا ويبدلوا المناهج الحاضرة إلى مناهج لا يعلمون عنها هل هي أفضل أو لا؟ بل وكثيراً ما يظنون إنها ليست بأفضل. لما رأوا من التطبيقات الخاطئة عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن اليهم ولما يرون من التطبيقات الخاطئة في بعض البلاد التي تدعي أن حكماها يعملون بالإسلام..

العامل الحادي عشر

التطبيق المعكوس للأفكار

.. وليست المسألة مسألة المبادئ والتاريخ فقط، وإنما مسألة التطبيق أيضاً..

فقد رأى المسلمون والعالم أجمع المجتمع الإسلامي الأول . الذي بناه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) . مجتمع مبني على الألفة والثقة والتعاون والمحبة ووحدة الكلمة والاستشارة.. و.. لقد رأوا منهجاً سليماً، وتطبيقاً كاملاً لذلك المنهج.

بينما لا يجد الناس في كثير من المنظمات والأحزاب النموذج الذي تدعو المنظمة أو الحزب أو الجماعة أو الهيئة إليه، بل يرون العكس من ذلك.

مثلاً: المنظمة أو الحزب أو الجماعة تدعو إلى الشورى في الحكم، والناس يرون أن الاستبداد والدكتاتورية يسودان التنظيم فيقولون: هؤلاء يمارسون الدكتاتورية فيما بينهم قبل الحكم فإذا وصلوا إلى الحكم ماذا يصنعون؟

ويرون بينهم الاختلاف الفاحش في مستوى المعيشة، فبينما يرون الطبقات العليا من المنظمة والحزب يتمتعون بالدور والأثاث والسيارات والزوجات وما أشبه، يرون قاعدة الحزب محرومة من كل ذلك.

ويرون أن قيادات المنظمة والحزب أو ما أشبه يجلسون في الأبراج العاجية، ويأمرون الأفراد بالأعمال الشاقة من السهر وإلقاء أنفسهم في المهالك والمشاكل ونحو ذلك،... وكل ذلك مما يزهّد الناس في الانضمام إلى هذه الأحزاب وما أشبه (أولاً).

ويوجب عدم اطمئنان الناس بهم حتى يساعدهم في الوصول إلى الحكم (ثانياً).

نموذجية المجتمع الإسلامي الأول

بينما نجد المجتمع الإسلامي الأول على العكس من كل ذلك، فهو مجتمع يعيش أفراده في مستوى متقارب بل إن القيادة وطلبة القوم كانوا يعيشون عيشة هي أدنى مستوى من عيشة سائر الناس ومن هنا كان الناس يحسون بأنهم إذا انضموا إلى هذه الجهة وجدوا الاحترام الكافي والعيش المتساوي.

فقد كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يساعد الشباب على التزويج بنين وبنات.

كما أنه (صلى الله عليه وآله) زوج ابنته فاطمة (عليها السلام) تزويجاً أخفض مستوى من تزويج كثير من المسلمين لبناتهم، فقد ورد في بعض الروايات: إن مهر فاطمة (عليها السلام) كان ستة وثلاثين درهماً فقط.

الرسول (صلى الله عليه وآله) يعيش كالأخرين

والرسول (صلى الله عليه وآله) كان في طعامه ولبسه وركوبه وداره وسائر شؤونه كفرد عادي من المسلمين أو أقل حتى ورد: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يقسم الأموال على المسلمين، ويحرم نفسه وعائلته، حتى غضبن وأردن منه الطلاق وفي هذه القضية نزل قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا

وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) (الأحزاب: ٢٨ - ٢٩).

وقد ورد في تفسير القمي (رحمه الله) أنه لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من غزوة خيبر وأصاب كثر آل أبي الحقيق قالت أزواجه: أعطنا ما أصبت فقال لمن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل) فغضبن من ذلك فقلن: لعلك ترى انك إن طلقتنا لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا! فاعتزلهن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مشربة (أم إبراهيم) تسعة وعشرين يوماً ثم نزلت آية التخيير (المتقدمة) فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمنا كلهن وقلن مثل ذلك، ورجعن إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله).

أثر الحصير في جنب الرسول (صلى الله عليه وآله)

وينقل الراوي أنه دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) في اعتزاله لمن في مشربة أم إبراهيم فرأى النبي (صلى الله عليه وآله) عليه وآله) متكئاً على حصير قد أثر في جنبه فبكى الراوي وقال: يا رسول الله أنت هكذا؟ فأجابه الرسول (صلى الله عليه وآله) بأن الآخرة خير من الأولى . في قصة مفصلة مذكورة في التواريخ ..

الستر والسواران

وفي قصة أخرى: أن الرسول (صلى الله عليه وآله) رأى على باب بيت فاطمة (عليها السلام) ستراً وفي يدي الحسن والحسين (عليه السلام) سوارين فلم يدخل البيت . كما كانت عادته حيث كان يدخل بيت فاطمة (عليها السلام) أول ما يرجع إلى المدينة . وذهب إلى المسجد .

وتفطنت الزهراء (عليها السلام) إلى السبب فقلعت الستر ونزعت السوارين من يدي الحسن والحسين (عليه السلام) وأرسلتهما إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ففرح النبي (صلى الله عليه وآله) وقال: (فعلت فداها أبوها) (١) ثم قسم السوارين والستر على فقراء المسلمين .

الرسول (صلى الله عليه وآله) يرمى الأعداء

وكان (صلى الله عليه وآله) يعفو ويغفر، وقد حفظ التاريخ إكرامه لأعدائه، فقد جاء في (أعلام الورى) وفي (السيرة النبوية) أنه لما رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى (الجعرانة) ومن معه من الناس قسم بها ما أصاب من الغنائم يوم حنين وفيهم المؤلفة قلوبهم من قريش ومن سائر العرب ومن المنافقين .

قال محمد بن إسحاق: أعطى رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلاً من أبي سفيان، ومعاوية ابنه، ويزيد بن أبي سفيان، وحكيم بن حزام، ونصير بن حارث بن كلدة، والعلاء بن حارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، ومالك بن عوف، وعلقمة بن علاء، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وسهيل بن عمرو، وحويطب، وصفوان بن أمية، كل واحد مائة من الأبعرة .

ومن الواضح أن البعير في ذلك اليوم كان مثله مثل السيارة في هذا اليوم، فقد أعطى النبي (صلى الله عليه وآله) كل واحد من رؤساء القبائل والشخصيات البارزة . وأكثرهم إما كفاراً أو منافقون . مائة مائة من الآبال، كما أنه

(صلى الله عليه وآله) أعطى إبلاً كثيراً لجملة آخرين أمثال: طليق بن سفيان، وخالد بن أسيد، وشيبة بن عثمان، وأبي السنابل، وعكرمة، وزهير، والحارث، وخالد بن هشام، وهشام بن الوليد، وسفيان بن عبد الأسد، والسائب، ومطيع، وأبي جهم، وأحيحة بن أمية، وعمير، وعدي، وهشام، ونوفل، وعلقمة، وليد، وخالد بن هود، والعباس وغيرهم.

وهكذا نجد الرسول (صلى الله عليه وآله) يعيش كأحد الأفراد العاديين أو أقل حظاً منهم، كما نجده يراعي أعداءه كما يراعي أصدقاءه، بل يراعيهم أكثر مما يراعي أصدقاءه.

النبي (صلى الله عليه وآله) يتزوج ابنة القائد اليهودي

وهذه قصة أخرى . ذكرها هكذا بعض الكتاب الإسلاميين . في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله) فبعد غزوة الخندق اتجه النبي (صلى الله عليه وآله) لاستئصال اليهود من المدينة بعدما تبين أنهم يتحينون الفرص للإنقضاض عليها وبعدها نقضوا هم عهد الأمان وأعلنوا الحرب (كالتى قادها حي بن أخطب زعيم اليهود وقائدهم وصاحب الجهد الأكبر في تشكيل الحزب بين كل أعداء الدين الجديد ومحاصرة المدينة).

وفي تلك المرة هزم المسلمون اليهود، وكانت هزيمة اليهود ساحقة وعقوبتهم صارمة، وإذا كان قدر الإنسان هو الحرب فإن خير الحضارات هي التي لا تجعل الحرب نتيجة أحقاد مورثة، ولا ترتب على الحرب توارث الأحقاد والتفرقة، واليهود الذين رفضوا العالم ورفضهم العالم كان يمكن أن تسبب خيانتهم للمسلمين في محتهم أثناء الحصار عداوة تاريخية تضاف إلى الشحنة الدائمة الموجودة ضد اليهود بفعل انغزالهم واحتقارهم للجنس البشري فتخلق عداوة أبدية بين الحضارة الجديدة البازغة وبين اليهود ولكأن العالم قد أطبق عليهم فعلاً فهم مرفوضون في العالم المسيحي وقتها بحكم خيانتهم للمسيح، ثم يرفضون في العالم الإسلامي بحكم خيانتهم للنبي (صلى الله عليه وآله).

وهناك تألفت واحدة من إشراقات حضارة الإسلام، لفترة نبوية تستأصل كل إمكانية ظهور تيار معاد لليهود لأنهم يهود، أو لنمو احتقار لجنس اليهود.

ليست المشكلة أن نحارب اليهود ولا أن نبغض بعض اليهود، بل الخطأ هو أن تقوم حضارة تبغض اليهود كل اليهود وكل الوقت ولأنهم مجرد يهود، ولو بقيت معركة النبي (صلى الله عليه وآله) مع يهود بني قريظة في التاريخ مجرد ذكريات معركة وما أعقبها من قصاص صارم لولدت عداوة ربما تحول مع تدهور الحضارة إلى عنصرية متعصبة ضد اليهود، ولكن كيف تمتع اليهود بالمكانة السامية التي احتلوها في ظل الحضارة الإسلامية؟

بالطبع: للموقف الإسلامي أبعاده في صميم العقيدة التي تحترم وتؤمن كل الأديان السماوية التي سبقتها، ولكن الحضارات ممارسة كما هي قيم وتعاليم، وفي تلك الغزوة اتخذ النبي قراراً استأصل كل إمكانيات انحراف السلوك المتسامح، إذ تزوج صفيية ابنة قائد اليهود الذي قتل في تلك الحرب وألّد أعداء المسلمين الذي سعى جهده في تكوين الحلف المعادي لغزو المدينة وإبادة المسلمين.

رسول الله (صلى الله عليه وآله) قائد الجيش المنتصر يتزوج يهودية أسيرة تبيح له القوانين وعرف العصر أن تكون جاريته يستنفع بها كيف شاء، ولكنه ينقلها من الأسر إلى مرتبة الزوجة وفي نفس ليلة المعركة، حتى لا يبيت الجيش المنتصر إلا وهو يسلم على ابنة اليهودي (السلام عليك يا أم المؤمنين).

انتهت العداوة بانتهاء القتال لا تمييز ظالم ولا جنس سيد وجنس مقهور، لا شعب مختار ولا شعب ملعون. ابنة اليهودي أصبحت أمًا لكل المؤمنين وفي معسكر المسلمين وفي بيت النبي (صلى الله عليه وآله).

وكانت هناك أسيرة يهودية هي (ريحانة) رفضت الإسلام وأصرت على يهوديتها، وكان النبي (صلى الله عليه وآله) يجب أن تسلم حتى أنه كان إذا سمع صوت أقدام تسير نحوه قال:

لعل أحدهم جاء يبشرنى بإسلام ريحانة، أسيرة في بيت قائد الجيش المنتصر تصر على تحدي دعوته وتصر على التمسك بيهوديتها، ولا يفكر النبي (صلى الله عليه وآله) في إجبارها على التخلي عن عقيدتها.

نموذج من عطف النبي (صلى الله عليه وآله) على الأعداء

بل نجد أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما رأى أسيرات اليهود وهن متغيرات توجه إليهن وقال لهن: ما لكن هكذا؟

قلن: يا محمد (صلى الله عليه وآله) إن هذا العبد. أي بلالاً. مر بنا على قتالنا.

فغضب النبي (صلى الله عليه وآله) وتوجه إلى بلال قائلاً: (كأن الله نزع الرحمة من قلبك، أتمر بالنسوة على قتالهن؟).

ونلاحظ في هذه القضية أن الرسول (صلى الله عليه وآله) بنفسه يياشر تسلم الأسرى، بينما كان من الممكن أن يأمر غير بتسلمهم، كما هي العادة في كل حروب العالم قديماً وحديثاً. لأن الملوك والرؤساء ومن إليهم لا ينزلون إلى الميدان إلا نادراً. ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يسأل عن سبب تغير حالتهم وعندما أجبن غضب النبي (صلى الله عليه وآله) (رغم أنه من الطبيعي أن تمر الأسيرات على المعركة وعلى جثث قتالهن).

وأراد التنبيه على أنه لا يحق ذلك، فقال لبلال الكلمة الآتفة التي تقطر رقة وعطفاً وحناناً.

صفية في بيت الرسول (صلى الله عليه وآله)

وينقل التاريخ: أن إحدى زوجات رسول الله (صلى الله عليه وآله) أرادت إهانة صفية. بعدما دخلت بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخذت تسأل عن كل واحدة من الزوجات: أنت بنت من؟. وكان قصدها إيذاء صفية بأن تقول: أنا بنت حي بن أخطب فتتذكر النسوة عداوة أبيها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ومحاربهته للمسلمين. فاشتكت صفية إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) تلك الزوجة فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآله): إذا سألتك فقولي لها:

أبي موسى كلیم الله، وعمي هارون نبي الله، وزوجي محمد رسول الله.

التطابق بين القول والعمل

إذاً.. فمن الضروري على الجماعة الإسلامية التي تريد الوصول إلى الهدف أن تكون مطبقة للمناهج الإسلامية على نفسها حتى يرى الناس صدقها في قولها وفي عملها، لا أن يروا التناقض الحاد بين القول والعمل. قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (الصف: ٢ - ٣).

وفي كلام للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (لعن الله الأمرين بالمعروف التاركين له الناهين عن المنكر العاملين به)(٢).

رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف

وفي آخر هذا الفصل نقل كلاماً عن أمير المؤمنين (عليه السلام) يصلح أن يكون درساً لكل من يريد تطبيق الإسلام، قال (عليه السلام): (ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد، فوالله ما كنت من دنياكم تبرأ، ن ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً، ولا أخذت منها إلا كقوت أتان دبره، ولهي في عيني أوهى وأهون من عفصة مقرة (أي مرة). بل كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله.

وما أصنع بفدك وغير فدك؟ والنفس مظانها في غد جدث، تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعها يد حافرها لأضغظها الحجر والمدر وسد فرجها التراب المترام.

وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب الملوق.

ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن: هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشعب، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي (أي جائعة) وأكباد حرى (أي عطشانة) أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحوالك أكباد تحن إلى القدر

ءأفنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين (عليه السلام) ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟

(فما خلقت ليشغلي أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسله شغلها تقممها، تكثرش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى، أو أهمل عابثاً، أو أجر جبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة.

وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان!

ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات العزيرة (الزرع الذي لا يسقيه ماء المطر)

أقوى وقوداً وأبطأ خموداً، وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على

قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها).

(إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسلت من محالبك، وأفلت من حبالك، واجتنبت الذهاب عن مداحضك، أين القرون الذين غررتهم بمداعتك؟

أين الأمم الذين فنتتهم بزخارفك؟ ها هم رهائن القبور، ومضامين اللحود، والله لو كنت شخصاً مرئياً وقالباً حسيماً لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأمان، وألقيتهم في المهاي، وملوك أسلمتهم إلى التلف، وأوردتهم موارد البلاء، إذ لا ورد ولا صدر هيهات من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لجحك غرق، ومن ازور عن حبالك وفق، والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه، اغربي عني فوالله لا أذل لك فتستدليني، ولا أسلس لك فتقوديني).

(وأيم الله يميناً استثنى فيها بمشيئة الله . لأروض نفسي رياضة تمش معه إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مآدوماً، ولأدع مقلتي كعين ماء نضب معينها، مستفرغة دموعها. أتمتلى السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع؟ قرت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاوله بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية! طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتحافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهممت بذكر ربهم شفاهم، وتقشعت بطول استغفارهم جنوبهم، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)(٣).

ولما كان هذا الكتاب موجهاً إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة حيث حضر مأدبة قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو، ختم الإمام (عليه السلام) الكتاب بقوله: (فاتق الله يا بن حنيف، ولتكفك أقراصك، ليكن من النار خلاصك)(٤).

وفي كلمة أخرى للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مذكورة في نهج البلاغة أنه (عليه السلام) قال: (إن الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعة الناس، كيلا يتبيغ بالفقير فقره)(٥) (والتبيغ هو التهيج أي لا يهيج به الألم).

١ . بحار الأنوار: ج ٦٦، ص ٨٧.

٢ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٢، ص ١٢.

٣ . المصدر السابق: ج ٣، ص ٧٥.

٤ . المصدر السابق.

٥ . المصدر السابق: ج ٢، ص ١٨٨.

العامل الثاني عشر

التنافس السلبي

يلزم أن يكون بين الأحزاب والمنظمات والجمعيات والقوى الإسلامية تنافس إيجابي في العلم والعمل وبناء الحياة وجمع الكلمة ونحوها، لا أن يكون بينهم التنافس السلبي وتتبع عثرات الآخرين، وإظهار سيئاتهم بينما نجد في كثير من التجمعات الإسلامية التنافس السلبي وذلك مما يسبب تفرق الناس من أطرافهم ولا ينالون في النهاية بغيتهم من التحرير والتقدم إلى الأمام.

وقد ورد في أحاديث كثيرة الترغيب إلى ذم النفس وانتقادها، وعدم ذكر عيوب الآخرين، بل ذكر مدائحهم ومحامدهم.

كل ينفق مما عنده

وقد ورد عن عيسى (عليه السلام) أن جماعة من اليهود سبوه فقال فيهم خيراً فقال تلاميذه: يا روح الله إنهم يسبوك فتقول فيهم خيراً؟

قال: (نعم كل ينفق مما عنده).

أما أنا فأرى أسنانه البيضاء!

ومر عيسى (عليه السلام) ذات مرة بكلب ميت قد تعفن جسمه فقال كل واحد من التلاميذ فيه كلاماً سيئاً، لكن عيسى (عليه السلام) قال: (أما أنا فأرى أسنانه البيضاء).

توحيد الكلمة؛ خلق الأنبياء

وفي قصة أن مسيحياً مرّ على المدينة المنورة في إبان زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) لغرض له، ثم ذهب إلى الروم، وكان ملك الروم يتفحص عن الذين يأتون من المدينة حتى يسأل عن أحوال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلما سمع بقدم هذا الرجل طلبه وقال له:

هل رأيت محمداً (صلى الله عليه وآله)؟

قال: لا.

قال: هل سمعت من أخباره شيئاً؟

قال: لا، إلا خبراً واحداً وهو: إنه كان بين الأوس والخزرج. وهما قبيلتان عربيتان كبيرتان أسلمتا لرسول الله. حرب دامت مائة سنة، ولما جاء محمد (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة جمع كلمتهما وأخى بينهما.

فلما سمع ملك الروم ذلك قال: إنه نبي، فإنه من أخلاق الأنبياء جمع الكلمة وإن من أخلاق الملوك تفريق الكلمة.

الإغماض عن عيوب الآخرين في الروايات

ولنذكر بعض الروايات الواردة بصدده أنه يلزم على الإنسان أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وإن الإنسان يلزم عليه الاشتغال بعيب نفسه عن عيوب الناس، وأنه يلزم عليه أن يذم نفسه عوض أن يذم الآخرين.

وفي الحديث: جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة فقال: (ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فإته إليهم، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم)(١).

وفي حديث آخر، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أوحى الله إلى آدم إني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات . إلى أن قال :: وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضى لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك)(٢).

وفي حديث، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله: رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلهم، ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر رجلاً حتى يعلم أن ذلك لله رضا، ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيب حتى ينفي ذلك العيب من نفسه، فإنه لا ينفي منه عيباً إلا بدا له عيب، وكفى بالمرء شغلاً بنفسه عن الناس)(٣).

وفي رواية عن جابر الأنصاري قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مرّ بنا فوقف وسلم ثم قال: (مالي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس؟ . إلى أن قال :: طوبى لمن شغله خوف الله عز وجل عن خوف الناس، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه)(٤).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (كفى بالمرء عيباً أن يتعرف من عيوب الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيب على الناس أمراً هو فيه لا يستطيع التحول عنه إلى غيره، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه)(٥).

وعن أبي ذر، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث قال: قلت يا رسول الله أوصني؟ قال: (أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله).

قلت: زدني.

قال: (عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً).

قلت: زدني.

قال: (عليك بطول الصمت).

قلت: زدني.

قال: (إياك وكثرة الضحك).

قلت: زدني.

قال: (عليك بحب المساكين ومجالستهم).

قلت: زدني.

قال: (قل الحق وإن كان مرّاً).

قلت: زدني.

قال: (لا تخف في الله لومة لائم).

قلت: زدني.

قال: (ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي مثله).

ثم قال: (كفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال: يعرف من الناس ما يجهل من نفسه، ويستحي لهم مما هو فيه، ويؤذي جليسه بما لا يعنيه).

ثم قال: (يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق)(٦).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: (إن موسى (عليه السلام) لما أراد أن يفارق الخضر (عليه السلام) قال: أوصني، فكان فيما أوصاه قال له: إياك واللجاجة، وأن تمشي في غير حاجة، وأن تضحك من غير عجب، واذكر خطيئتك، وإياك وخطايا الناس)(٧).

وقال (عليه السلام): (أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله)(٨).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كان بالمدينة أقوام لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فأسكت الله عن عيوبهم الناس فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس، وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم فتكلموا في عيوب الناس فأظهر الله لهم عيوباً لم يزالوا يعرفون بها إلى أن ماتوا)(٩).

وعن الباقر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن أسرع الخير ثواباً البر، وإن أسرع الشر عقاباً البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه وأن يؤذي بما لا يعنيه)(١٠).

وقد قال الشاعر:

لسانك لا تبدي به سوءة أمرء
فكلك سوات وللناس ألسن
وعينك إن أهدت إليك معائباً
من الناس قل: يا عين للناس أعين

ويقول شاعر آخر:

ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن وهن الرجال فلن يهابا

وفي رواية الآمدي، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (الكيس من كان غافلاً عن غيره، ولنفسه كثير التقاضي)(١١).

وقال (عليه السلام): (أفضل الناس من شغلته معايبه عن عيوب الناس)(١٢).

وقال (عليه السلام): (أكبر العيب أن تعيب غيرك بما هو فيك)(١٣).

وقال (عليه السلام): (شر الناس من كان متتبعاً لعيوب الناس عمياً عن معايبه)(١٤).

وقال (عليه السلام): (عجبت لمن ينكر عيوب الناس، ونفسه أكثر شيء معاباً ولا يبصرها، عجبت لمن يتصدى

لصلاح الناس ونفسه أشد شيء فساد أفلا يصلحها ويتعاطى إصلاح غيره)(١٥).

وقال (عليه السلام): (كفى بالمرء شغلاً بمعايبه عن معايب الناس)(١٦).

وقال (عليه السلام): (لا تتبعن عيوب الناس فإن لك من عيوبك . إن عقلت . ما يشغلك أن تعيب أحداً)(١٧).
أنصف الناس من نفسك

ومن الواجب على المنظمات الإسلامية أن ينصفوا الناس فلا يجوز أن يضحّموا حسنات أنفسهم ويصغ . روا
حسنات الناس ولا أن يشتغلوا بعيوب الناس وينسوا عيوب أنفسهم.
وفي روايات أن من أصعب الأشياء إنصاف الناس.

فعن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سيد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من
نفسك، ومواساة الأخ في الله، وذكر الله تعالى في كل حال)(١٨).

وفي حديث آخر، عن الصادق (عليه السلام) قال: (ثلاثة من حقائق الإيمان: الإنفاق من الإقتار والإنصاف من
نفسك، وبذل السلام لجميع العالم)(١٩).

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (السابقون إلى ظل العرش طوبى
لهم).

قلنا: يا رسول الله ومن هم؟

قال: (الذين يقبلون الحق إذا سمعوه، ويبدلونه إذا سألوه، ويحكمون للناس كحكمهم لأنفسهم هم السابقون إلى
ظل العرش)(٢٠).

وفي رواية عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أنصف الناس من نفسك، وأنصح
الأمة وارحمهم، فإذا كنت كذلك وغضب الله على أهل بلدة وأنت فيها وأراد أن يترك عليهم العذاب نظر إليك
فرحمهم بك)(٢١).

وفي حديث: إن أحد الأئمة (عليهم السلام) ورد على أحد الحكام فقال له الحاكم: عطني، فقال له الإمام (عليه
السلام): (الناس ثلاثة أصناف: فمنهم من هو أكبر منك سناً، ومنهم من هو في سنك، ومنهم من هو أصغر
منك سناً، فاجعل الأكبر كأبيك، والأوسط كأخيك، والأصغر كابنك، فبرّ أباك، وارحم أخاك، وأحسن إلى
ابنك).

تحريم إحصاء عثرات المؤمنين

وفي جملة من الأحاديث تحريم إحصاء عثرات المؤمنين وعوراتهم لأجل تعييرهم بها.

فقد روي زرارة قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (أقرب ما يكون العبد إلى الكفر: أن يكون الرجل
مؤاخياً للرجل على الدين ثم يحفظ زلاته وعثراته ليعنفه بها يوماً)(٢٢).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: (من ستر عورة مؤمن ستر الله عز وجل عورته يوم القيامة، ومن هتك
ستر مؤمن هتك الله ستره يوم القيامة)(٢٣).

وعن الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه: لا تطلبوا عورات المؤمنين، ولا تتبعوا عثراتهم، فإن من اتبع عثرة أخيه اتبع الله عثرته ومن اتبع الله عثرته فضحه ولو في جوف بيته)(٢٤).

وعن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (من يتبع عثرات أحد من المؤمنين ليفضحه بذلك فضحه الله ولو في بيته)(٢٥).

وعن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من أحصى على أخيه المؤمن عيباً ليعيبه به يوماً كان من أهل هذه الآية، قال الله عز وجل: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم) (النور: ١٩) (٢٦).
وعنه (عليه السلام) أنه قال: (من أحصى على أخيه المؤمن عيباً ليشينه به ويهدم مروته فقد تبوء مقعده من النار)(٢٧).

وفي رواية أخرى، عنه (عليه السلام) قال النبي (صلى الله عليه وآله): (من أذاع فاحشة كان كمتدثها، ومن عير مؤمناً بشيء لم يمت حتى يرتكبه)(٢٨).

عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عليه السلام) قالوا: (إن أبا ذر عيّر رجلاً على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) بأمة فقل: يا بن السوداء . وكانت أمه سوداء . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): (تعيّره بأمة يا أبا ذر؟) قال: فلم يزل أبو ذر يمرغ وجهه في التراب ورأسه حتى رضي رسول الله (صلى الله عليه وآله) عنه)(٢٩).

الصفح المستمر

وفي حديث أن رجلاً سأل يعقوب (عليه السلام) لماذا تفضل ولدك يوسف على غيره من الأولاد مع أنهم أكبر منه سنّاً وأكثر قدرة؟

فقال يعقوب (عليه السلام): اصبر حتى يظهر ذلك لك، ثم دعا أحد الأخوة وقال له: إذا أساء إليك إنسان فماذا تفعل؟

قال: أقابله بالمثل، ثم دعا آخر وقال له مثل مقالته فأجاب كالأول، ثم دعا يوسف (عليه السلام) وقال له: إذا أساء إليك إنسان فماذا تفعل به؟

قال: أعفو عنه، قال: إذا أساء إليك مرة ثانية فماذا تعمل؟

قال: أعفو عنه.

قال: وإذا أساء إليك مرة ثالثة ماذا تعمل؟

قال: أعفو عنه.

فلما ذهب يوسف (عليه السلام) قال يعقوب (عليه السلام) لذلك الرجل:

لهذا السبب أفضله على غيره.

بل نجد في القرآن الحكيم أن الله سبحانه وتعالى يجعل القاتل أحقاً لولي المقتول ويطلب منه العفو عنه فيقول سبحانه: (فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) (البقرة: ١٧٨).

وفي النصوص تحريض على العفو، قال تعالى: (فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين) (المائدة: ١٣).

وفي آية أخرى: (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) (البقرة: ١٠٩).

وقال علي (عليه السلام) في عهده إلى مالك الأشتر: (ولا تندم على عفو، ولا تبجن بعقوبة) (٣٠).

وقال (عليه السلام): (أولى الناس بالعفو أقدروهم على العقوبة) (٣١).

بل ونجد في نهج البلاغة أن الإمام (عليه السلام) لما ضرب ابن ملجم أوصى به خيراً من رذائل الأخلاق: السفه وكون الإنسان يُتقشره

عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في رجلين يتسابقان، فقال: (البادئ منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم) (٣٢).

وعن الحلبي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (لا تسفهوا فإن أمتكم ليسوا بسفهاء) (٣٣).

وقال أبو عبدالله (عليه السلام): (من كافأ السفه بالسفه فقد رضى بمثل ما أتى إليه حيث احتذى مثاله) (٣٤).

وعن أحمد بن محمد البرقي، عن بعض أصحابه رفعه قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا يكون السفه والغرة في قلب العالم) (٣٥).

وعن الفضل بن أبي قرّة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: إن السفه خلق لئيم يستطيل على من دونه ويخضع من فوقه) (٣٦).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (إن من شر عباد الله من تكره مجالسته لفحشه) (٣٧).

وعن عيص بن القاسم، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن أبغض خلق الله عبد اتقى الناس لسانه) (٣٨).

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (شر الناس يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شهرهم) (٣٩).

وعن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (من خاف الناس لسانه فهو في النار) (٤٠).

تحريم الفحش ووجوب حفظ اللسان

عن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشاً لا يبالي قال ولا ما قيل فيه) (٤١).

وعن أبي جميلة يرفعه، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) (٤٢).

وعن الحسن الصيقل قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (إن الفحش والبذاء والسلطة من النفاق) (٤٣).

وعن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعائشة: (يا عائشة إن الفحش لو كان مثلاً لكان مثلاً لسوء) (٤٤).

وعن سماعة قال: دخلت على أبي عبدالله (عليه السلام) فقال لي مبتدئاً: (يا سماعة ما هذا الذي كان بينك وبين جمالك إياك أن تكون فحاشاً أو سخاباً أو لعاناً).

فقلت: والله لقد كان ذلك أنه ظلمني.

فقال: (إن كان ظلمك لقد أوتيت عليه، إن هذا ليس من فعالي ولا أمر به شيعتي، استغفر ربك ولا تعد).

قلت: استغفر الله ولا أعود(٤٥).

وعن جابر، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الله يحب الحيي الحليم الغني المتعفف، ألا وإن الله يبغض الفاحش البذيء السائل الملحف)(٤٦).

وعن الحسن الصيقل، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الحياء والعفاف والعي . أعني عي اللسان لا عي القلب . من الإيمان، والفحش والبذاء والسلطة من النفاق)(٤٧).

وعن سليم بن قيس، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذيء قليل الحياء لا يبالي ما قال لا ما قيل له فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغيه أو شرك شيطان).

قيل: يا رسول الله وفي الناس شرك الشيطان؟

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أما تقرأ قول الله عز وجل: (وشاركهم في الأموال والأولاد)(٤٨).

وعن أبي عبيدة، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (البذاء من الجفأ، والجفأ في النار)(٤٩).

تحريم القذف

عن عمرو بن نعمان الجعفي قال: كان لأبي عبدالله (عليه السلام) صديق يكاد لا يفارقه . إلى أن قال . فقال يوماً لغلामه: يا بن الفاعلة أين كنت؟

قال: فرفع أبو عبدالله (عليه السلام) يده فصبك بها جبهة نفسه ثم قال: (سبحان الله تقذف أمه، قد كنت أرى أن لك ورعاً، فإذا ليس لك ورع).

فقال: جعلت فداك إن أمه سنديّة مشرّكة.

فقال: (أما علمت أن لكل أمة نكاحاً تنحّ عني).

فما رأيت يمشي معه حتى فرّق بينهما الموت(٥٠).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قلت له: إن بعض أصحابنا يفترون ويقذفون من خالفهم، فقال: الكف عنهم أجمل(٥١).

وعن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: سألته عن الرجل يفتر على الرجل من جاهلية العرب، فقال: (يضرب حدّاً)، قلت: يضرب حدّاً؟ قال: (نعم إن ذلك يدخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وآله)(٥٢).

أسرع الشرّ عقوبة: البغي

عن أبي يعقوب السراج، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (أيها الناس إن البغي يقود أصحابه إلى النار)(٥٣).

وعن مسمع أبي سيار أن أبا عبد الله (عليه السلام) كتب إليه في كتاب: (انظر أن لا تكلمن بكلمة بغي أبداً وإن أعجبتك نفسك وعشيرتك)(٥٤).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: يقول إبليس لجنوده: (ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك)(٥٥).

وعن ابن القداح، عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن أعجب الشر عقوبة البغي)(٥٦).

وعن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن أسرع الخير ثواباً البر)(٥٧).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) في وصيته لأصحابه قال: (وإياكم أن يبغى بعضكم على بعض فإنها ليست من خصال الصالحين فإنه من بغى صير الله عليه بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله)(٥٨).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي أربعة أسرع شيء عقوبة: رجل أحسنت إليه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغى عليه وهو يبغى، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه)(٥٩).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (لو بغى جبل على جبل لجعله الله دكاً، أعجل الشر عقوبة البغي، وأسرع الخير ثواباً البر)(٦٠).

وفي رواية: دعا رجل بعض بني هاشم إلى البراز فأبى أن يبارزه، فقال له علي (عليه السلام): ما منعك أن تبارزه؟ فقال: كان فارس العرب وخشيت أن يغلبني، فقال: (إنه بغى عليك ولو بارزته لقتلته، ولو بغى جبل على جبل لهلك الباغى)(٦١).

التفاخر: من عمل الجاهلية

عن أبي حمزة الثمالي قال: قال علي بن الحسين (عليه السلام): (عجباً للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة، ثم هو غداً جيفة)(٦٢).

وعن السكوني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (آفة الحسب الافتخار والعجب)(٦٣).

وبهذا السند قال: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل فقال: يا رسول الله أنا فلان ابن فلان حتى عدت تسعة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أما أنك عاشرهم في النار)(٦٤).

وعن محمد بن حمران، عن أبيه، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال: (ثلاثة من عمل الجاهلية: الفخر بالأنساب، والطعن بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء)(٦٥).

وعن إسماعيل بن ذبيان يرفعه إلى أبي عبدالله (عليه السلام) قال: افتخر رجلان عند أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: (أنتفخران بأجساد بالية، وأرواح في النار، إن يكن لك عقل فإن لك خلقاً، وإن يكن لك تقوى فإن لك كرمًا، وإلا فالحمار خير منك، ولست بخير من أحد)(٦٦).

وعن الحسين بن مختار رفعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من وضع شيئاً للمفاخرة حشره الله يوم القيامة أسود)(٦٧).

وفي (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه)(٦٨).

لا للحسد نعم للغبطة

عن محمد بن مسلم قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): (إن الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر، وإن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)(٦٩).

وعن جراح المدائني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب)(٧٠).
وعن داود الرقي قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً) (الحديث)(٧١).

وعن السكوني، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كاد الفقر أن يكون كفرةً، وكاد الحسد أن يغلب القدر)(٧٢).

وعن معاوية بن وهب قال: قال أبو عبدالله (عليه السلام): (آفة الدين الحسد والعجب والفخر)(٧٣).

وعن الفضيل بن عياض، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط)(٧٤).

وعن أنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): (يا علي أنهارك عن ثلاث خصال: الحسد والحرص والكبر)(٧٥).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: (أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد) (الحديث)(٧٦).

وعن الحسن بن علي بن فضال، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (دب إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد)(٧٧).

قال: وقال (عليه السلام): (صحة الجسد من قلة الحسد)(٧٨).

إلى غير ذلك مما يعطي درساً بليغاً لكل فرد فكيف بالمنظمة والتجمع والحزب ممن يريد أن يتقدم الإسلام إلى الأمام؟

- ١ . الكافي: ج ٢، ص ١٤٦ .
- ٢ . المصدر السابق .
- ٣ . المصدر السابق: ص ١٤٧ .
- ٤ . المصدر السابق: ج ٨، ص ١٦٩ .
- ٥ . بحار الأنوار: ج ٦٨، ص ١٥٠ .
- ٦ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٣٠ .
- ٧ . المصدر السابق .
- ٨ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ٨٢ .
- ٩ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٢٣٢ .
- ١٠ . المصدر السابق .
- ١١ . مستدرک الوسائل: ج ١١، ص ٣١٥ .
- ١٢ . المصدر السابق .
- ١٣ . المصدر السابق .
- ١٤ . المصدر السابق .
- ١٥ . المصدر السابق .
- ١٦ . المصدر السابق .
- ١٧ . المصدر السابق: ص ٣١٦ .
- ١٨ . المصدر السابق: ص ٣٠٨ .
- ١٩ . المصدر السابق .
- ٢٠ . المصدر السابق .
- ٢١ . المصدر السابق: ص ٣١٠ .
- ٢٢ . المصدر السابق: ج ١، ص ٣٧٩ .
- ٢٣ . المصدر السابق: ج ٩، ص ١٠٩ .
- ٢٤ . المصدر السابق .
- ٢٥ . المصدر السابق .
- ٢٦ . المصدر السابق: ص ١١٠ .
- ٢٧ . المصدر السابق .
- ٢٨ . المصدر السابق: ص ١١١ .
- ٢٩ . بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ٤١١ .

- ٣٠ . نخبج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٨٤.
- ٣١ . بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ٤٢٧.
- ٣٢ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٢٥.
- ٣٣ . المصدر السابق.
- ٣٤ . المصدر السابق.
- ٣٥ . المصدر السابق.
- ٣٦ . المصدر السابق: ص ٣٢٦.
- ٣٧ . المصدر السابق.
- ٣٨ . المصدر السابق.
- ٣٩ . المصدر السابق.
- ٤٠ . المصدر السابق.
- ٤١ . المصدر السابق: ص ٣٢٧.
- ٤٢ . المصدر السابق.
- ٤٣ . المصدر السابق.
- ٤٤ . المصدر السابق.
- ٤٥ . المصدر السابق: ص ٣٢٨.
- ٤٦ . المصدر السابق.
- ٤٧ . المصدر السابق.
- ٤٨ . المصدر السابق: ص ٣٢٩.
- ٤٩ . بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ١١٢.
- ٥٠ . وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٣١.
- ٥١ . المصدر السابق.
- ٥٢ . المصدر السابق.
- ٥٣ . المصدر السابق: ص ٣٣٢.
- ٥٤ . المصدر السابق.
- ٥٥ . المصدر السابق.
- ٥٦ . المصدر السابق.
- ٥٧ . المصدر السابق: ص ٣٣٣.
- ٥٨ . المصدر السابق.

- ٥٩ . المصدر السابق.
- ٦٠ . المصدر السابق.
- ٦١ . المصدر السابق: ص ٣٣٤.
- ٦٢ . المصدر السابق.
- ٦٣ . المصدر السابق.
- ٦٤ . المصدر السابق.
- ٦٥ . المصدر السابق: ص ٣٣٥.
- ٦٦ . المصدر السابق.
- ٦٧ . المصدر السابق.
- ٦٨ . المصدر السابق: ص ٣٣٦.
- ٦٩ . المصدر السابق: ص ٢٩٢.
- ٧٠ . المصدر السابق.
- ٧١ . المصدر السابق.
- ٧٢ . المصدر السابق: ص ٢٩٣.
- ٧٣ . المصدر السابق.
- ٧٤ . المصدر السابق.
- ٧٥ . المصدر السابق.
- ٧٦ . المصدر السابق.
- ٧٧ . المصدر السابق: ص ٢٩٤.
- ٧٨ . المصدر السابق.

العامل الثالث عشر

محاربة العلماء

للعلماء مكانة خاصة في القلوب واحترام كبير من قبل الناس، فاللازم على المنظمات والأحزاب والهيئات الإسلامية التي تريد الوصول إلى الأهداف البعيدة - تطبيق حكم الله، وإنقاذ البشرية من ظلمات الجهل والمشاكل - أن لا يعارضوا العلماء، لأن معارضتهم تعني سقوط المعارضين، بينما نرى في جملة من الأحزاب الإسلامية أنها إذا ترعرعت وتمكنت من القيام على رجلها تتصور أنها قد صنعت كل شيء وأنها وصلت إلى ما تريد، فتأخذ في ذم العلماء وسبهم وتنفير الناس منهم والاتهام لهم.

نموذج حي

مثلاً حزب إسلامي في إحدى البلاد الإسلامية تجاوز أعضاؤه الألوف، فأخذ يهاجم العلماء في كتبه واجتماعاته ويصفهم بأنهم جامدون، متخلفون، لا يعملون للإسلام.. بينما يوجد في ذلك البلد أكثر من مائة ألف عالم في مساجده ومدارسه وسائر مرافقه الدينية، ومن الواضح إن هذا العمل يعود على نفس ذلك الحزب بالسوء، حيث إن أولئك العلماء لا يسكتون إزاء الاتهام والتهم، ولنفرض أن كل واحد منهم يصلي في ثلاثين نفر فقط، ويقوم هؤلاء الثلاثين برد التهم على ذلك الحزب، فمعنى ذلك: أن ثلاثة ملايين في ذلك البلد يكونون أعداء لهذا الحزب، وهل يتمكن حزب يحتوي على مليون إنسان أن يقابل ثلاثة ملايين؟

دعنا عن أن ذلك يسبب التمزق والتفرق مما يوجب عدم الوصول إلى الهدف، كما حصل ذلك بالفعل، ولذا نرى أنه مضى على عمر ذلك الحزب مدة مديدة ولم يصل إلى شيء يذكر.

إن التهم على العلماء عمل مخالف للإسلام (أولاً) وعمل ينم عن الغرور (ثانياً) ويسبب عدم النجاح والوصول إلى الهدف (ثالثاً) ولذا فمن الضروري على الأحزاب والمنظمات والهيئات والجمعيات الإسلامية أن يكفوا عن هذا الأمر بكل قوة وبكل صلابة، مهما رأوا من التخلف والجمود في الجانب الآخر - فرضاً - فإن التخلف لا يرتفع بالسب والتهم والاتهام والاستهزاء وما أشبهه، ولو فرض في جماعة تخلف فاللازم أن يرشدوا إلى الطريق التي هي أحسن.

قال سبحانه: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل: ١٢٥).

خصائص العلماء

وتفرض هذه المسألة نفسها بإلحاح أكثر عندما نرى العلماء يتحصنون بثلاثة أمور:

أولاً - الجماهيرية:

جماهيرية العلماء وخدمتهم للناس وتحركهم بين الناس، فإن العالم يكون باستمرار بين الناس - بحكم عمله - فهو يعقد لهم صيغة النكاح، ويصلي بهم، ويحضر مراسيم دفنهم، ومناسباتهم في الأفراح والأتراح، مما يجعله جماهيرياً، ولذا لا تجد عالماً غير جماهيري في بلد - إلا الشاذ النادر والشاذ النادر كالمعدوم (كما يقول العلماء) ..

وقد رأينا كيف فشلت جميع المحاولات التي قام بها (بهلوي الأول) في إيران، حيث حارب العلماء وأبعدهم وسجنهم وقتلهم، ولكن لم يمض زمان إلا واسترجع العلماء أنفاسهم لما كان لهم من الجماهيرية، وأخرج البهلوي وحلت عليه اللعنة إلى هذا اليوم.

وأأتورك أيضاً حارب العلماء محاربة لا هوادة فيها، لكنه ذهب، ورجع العلماء إلى مواقعهم. إذاً: فمحاربة العلماء من بعض الشباب الإسلاميين الذين يجوبون خدمة الإسلام خطأ محض وعدم معرفة للتاريخ. ثانياً. النصوص الدينية:

روايات كثيرة وردت حول احترام العلماء، وهذه الروايات مذكورة في الكتب، وتذكر على المنابر، وهي مغروسة في أذهان المسلمين جميعاً، ولذا فكل جماعة أو فئة أو منظمة أو فرد يقوم بمهاجمة العلماء فإن المسلمين يتنفرون عنه، ويرونه منحرفاً، ويعتبرونه في خط الاستعمار. لأن المستعمرين يريدون إبعاد الناس عن العلماء، فقد صرحوا هم مراراً (بأنه ما دام العلماء موجودين في المسلمين لن يتمكن من استعمارهم، فالواجب اتهامهم وأخذ الزمام من أيديهم حتى يتمكن من تسيير المسلمين إلى حيث ما نريد) ..

وقد ارتكز في أذهان المسلمين ذلك، ولذا يرون: أن كل مهاجم للعلماء هو في خط الاستعمار مهما برر تهجمه. أما الروايات فهي كثيرة جداً ونذكر هنا بعضها على سبيل النموذج والمثال:

فقد روى عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام)، عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاء أيحل ذلك؟ قال (عليه السلام): (من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له، لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال الله تعالى: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) (النساء: ٦٠). قلت: فكيف يصنعان؟

قال: (ينظر إن من كان منكم ممن قد روي حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً فإني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخفّ بحكم الله، وعلينا رد، والراد علينا كالراد على الله، وهو على حد الشرك بالله)(١).

وفي رواية أبي خديجة قال: بعثني أبو عبد الله (عليه السلام) إلى أصحابنا وقال: (قل لهم إياكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تدار في شيء من الأخذ والعطاء: أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا فإني قد جعلته عليكم قاضياً، وإياكم أن يخاصم بعضهم بعضاً إلى السلطان الجائر)(٢).

وروى الصدوق قال: قال علي (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (اللهم ارحم خلفائي . ثلاثاً . قيل: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي)(٣).

وعن إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ، فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان (عليه السلام): (أما ما سألت عنه أرشدك الله وثبتك . إلى أن قال .: وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله)(٤).

وفي رواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل)(٥).

وفي رواية ثانية: (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)(٦).

وفي رواية عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (من حكم بين اثنين فأخطأ في درهمين كفر، قال الله عز وجل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (المائدة: ٤٤).

فقال رجل من أصحابنا: يا ابن رسول الله إنه ربما كان بين الرجلين من أصحابنا المنازعة في شيء فيتراضيان برجل منا؟

قال: هذا ليس من ذلك، إنما ذلك الذي يجبر الناس على حكمه بالسيف والسوط)(٧).

وعنه (عليه السلام) أنه قال يوماً لأصحابه: (إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور، ولكن انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا فاجعلوه بينكم فإني قد جعلته قاضياً فتحاكموا عليه)(٨).

وعنه (عليه السلام) أنه قال: (ولاية أهل العدل الذين أمر الله بولايتهم وتوليتهم وقبولها والعمل لهم فرض من الله، وطاعتهم واجبة، ولا يحل لمن أمره بالعمل لهم أن يتخلف عن أمرهم)(٩).

وعن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال في حديث: (والفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول الله وما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على أديانكم)(١٠).

وعنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الجاهلين وانتحال المبطلين وتأويل الغالين)(١١).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك)(١٢).

وروى الآمدي في الغرر، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (العلماء حكام على الناس)(١٣).

إلى غيرها من الروايات الكثيرة الواردة في مدح العلماء مما سبب أن يتركز في أذهان المسلمين احترام العلماء. إلا من عرفوا منه الانحراف، ومثل هذا ينفذ عنه المسلمون بأنفسهم، ولا يعدونه عالماً حقيقاً..

ثالثاً. التاريخ النضالي:

إن التاريخ حفظ. منذ زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإلى اليوم. إن أكثر العلماء كانوا يجاهدون في سبيل الله، ويحاربون الضلال والجهل والكفر والفسق، وينشرون الدين في مشارق الأرض ومغاربها بألستهم وأقلامهم وسلوكهم، وإنهم ضحوا لأجل الإسلام.. فكم من عالم سقر وبعث عن وطنه؟ وكم من عالم أودي وسجن؟ وكم من عالم أحرق وطرد؟ وكم من عالم قتل وصلب؟ وهكذا. وقد عملوا كل ذلك عليه فلا بد أن يكون للعلماء مكانة رفيعة في النفوس.

شهداء الفضيلة

وقد ذكر العلامة الأميني (رحمه الله) في كتاب (شهداء الفضيلة) عشرات من العلماء الذين وقفوا أمام الظلم والطغيان حتى قتلوا وشردوا وأحرقوا وسجنوا وعذبوا. وللإلماع إلى ذلك نذكر جماعة من العلماء الذين استشهدوا

في هذا السبيل ممن ذكرهم (شهداء الفضيلة) أو (طبقات أعلام الشيعة) . للشيخ آقا بزرك الطهراني (رحمه الله) .
أو (أعيان الشيعة) للسيد الأمين (رحمه الله) . أو (روضات الجنات) . للسيد محمد باقر (رحمه الله) . أو غيرهم:
١ . الناصر الكبير:

الحسن بن علي الملقب بـ(الأطروش) و(الناصر الكبير) الجد الأمي للشريف الرضي خرج على الظلم والظالمين في
بلاد الديلم أيام المقتدر العباسي، وحكم مدة ثلاث عشرة سنة، واستشهد.
٢ . علي بن محمد بن إبراهيم:

علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بعلان أستاذ الكليني (رحمه الله) . صاحب الكافي ومن شيوخه الذين أكثر
الرواية عنهم . كانت له صلة بصاحب الزمان (عج)، قتل في أيام الغيبة الصغرى .
٣ . الحسن الأنطاكي:

الحسن بن سليمان الأنطاكي من علماء مصر في القرن الرابع الهجري قتله حاكم مصر .
٤ . بديع الزمان الهمداني:

بديع الزمان الهمداني أحمد بن الحسين بن يحيى الكاتب المشهور والخطيب الذائع الصيت . كان من أصدقاء
(الصاحب بن عباد) وكان صريحاً في الحق متكلماً منطقاً استشهد بالسم .
٥ . علي بن عبد الله الحلاء:

الحلاء علي بن عبد الله المعروف بـ(الناشئ الصغير)، ولقب بـ(الحلاء) لأن أباه كان يعمل حلية السيف، وعرف
بـ(الناشئ) لأنه ممن نشأ في فن الشعر واشتهر به . كان يقطن مصر، وكان ينظم الشعر، ومن أشعاره قصيدته
المعروفة المفتحة بالبيت التالي:

بآل محمد عرف الصواب وفي أبياتهم نزل الكتاب
قتل حرقاً بالنار من قبل أعدائه .

٦ . محمد بن هاني الأزدي:

محمد بن هاني الأزدي المعروف بـ(متنبئ الغرب) باعتباره من الأندلس الواقعة في غرب البلاد الإسلامية آنذاك،
استشهد قتلاً أو خنقاً على خلاف بين المؤرخين في كيفية شهادته .
٧ . أبو فراس الحمداني:

أبو فراس الحمداني العالم والشاعر المعروف الذي نقل عن الصاحب بن عباد أنه قال في حقه: (بدء الشعر بملك
وختم بملك) . وقصد بهما امرؤ القيس وأبا فراس . ،وقد حارب الروم عدة مرات وأسروه مرتين وقتل شهيداً في
سبيل الله سبحانه وتعالى .

٨ . سعيد بن حمدان:

سعيد بن حمدان الحمداني والد أبي فراس فقد قتل هذا أيضاً .

٩ . علي بن الفرات:

أبو الحسن علي بن الفرات قبض عليه وقتل في أيام الغيبة الصغرى.

١٠ . أبو الحسن التهامي:

أبو الحسن التهامي علي بن محمد العاملي الشامي، كان من العلماء والشعراء والأدباء في مفتح القرن الخامس الهجري، ومن قصائده المعروفة:

حكم المنية في البرية جاري ما هذه الدنيا بدار قرار

أراد بنو العباس قتله فاختفى وجعل يجوب القرى والبلاد متنكراً فراراً من ظلمهم حتى دخل مصر فظفروا به وعرفوه واعتقلوه وأودعوه السجن وعذبوه عذاباً شديداً، ثم قتل في السجن سرّاً، وقد احتمل إنه قضى نحبه تحت التعذيب.

ومن جميل ما ينقل عنه: أنه روي في المنام ف قيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي.

ف قيل له: بأي الأعمال.

فقال: بجملة أعمال منها قولي في الشعر:

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

حيث كنت أرثي ولدي الذي مات وتألمت لموته كثيراً.

١١ . ابن السكيت:

ابن السكيت الذي قتله الخليفة العباسي بشق قفاه وإخراج لسانه من خلفه، مما سبب موته.

١٢ . ثابت بن أسلم:

ثابت بن أسلم النحوي، من نوابغ الأدب وعلماء حلب، كان جريماً في الصدع بالحق، تولى خزانة الكتب بحلب، حمل إلى مصر وقتل صلباً.

١٣ . أبو القاسم القزويني:

أبو القاسم الشيخ عبد الكريم القزويني كان من العلماء البارزين وكان صادعاً بالحق، قتله الملاحدة في القرن الخامس الهجري.

١٤ . أبو الحسين الكاتب:

أبو الحسين بن طرخان أحمد بن محمد الكندي المعروف ب(الكاتب) كان صادعاً بالحق ومناهضاً للباطل يقول الحق ويستقيم عليه، قتله.

١٥ . الحسن بن المفضل:

الحسن بن مفضل بن سهلان، تولى الوزارة لسلطان الدولة الديلمي، وقتل في سبيل الله، وهو الذي بنى سور الحائر الحسيني في كربلاء.

١٦ . عبد الواحد الطبري:

أبو المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل، كان من كبار العلماء في أواخر القرن الرابع الهجري، وتلمذ عليه القطب الراوندي وكثيرون، عمد إلى ثورة فكرية تصحيحية في الإسلام، قتل غيلة وله من العمر فوق الثمانون.
١٧ . القتال النيسابوري:

القتال الشيخ محمد بن الحسن الواعظ النيسابوري صاحب كتاب (روضة الواعظين) وغيره، استشهد في سبيل الله على أثر جرأته في الصراحة بالحق.
١٨ . ابن القطب الراوندي:

الحسين بن قطب الراوندي قتل في سبيل الله من أجل مناهضته للضلال وصدوده للحق.
١٩ . الحسين بن علي الطغرائي:

الطغرائي الحسين بن علي، من أحفاد أبي الأسود الدؤلي، كان عالماً فاضلاً شاعراً مجيداً، تولى الوزارة مدة، ثم لصدوده بالحق ومواقفه قتل ظمناً عام خمسمائة وسبعة عشر وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره.
٢٠ . أمين الإسلام الطبرسي:

أمين الإسلام الطبرسي الفضل بن الحسن بن الفضل، صاحب تفسير (مجمع البيان) وغيره من الكتب المفيدة، كان يعيش في جو مختلف من الأديان والمذاهب، وكان طوداً في العلم، بطلاً في الإيمان صامداً في ذات الله. استشهد ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وحمل نعشه إلى مشهد الرضا (عليه السلام) ودفن هناك.
٢١ . يحيى بن أبي الفضل:

السيد أبو القاسم يحيى بن أبي الفضل شرف الدين الذي ينتهي نسبه إلى الامام زين العابدين (عليه السلام)، كان من أفاضل العلماء، عارضه الملك خوارزم شاه وقتله بالسيف.
٢٢ . الشهيد الأول:

الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الذي لا تزال كتبه وفتاواه وآراءه تدار في الحوزات العلمية في الفقه والأصولين، والحديث وغيرها. جاهد في الله حق جهاده حتى استبيح دمه فقتل وصلب وأحرق بالنار في قلعة دمشق عام سبعمائة وست وثمانين وله من العمر اثنان وخمسون سنة.
٢٣ . الشهيد الثاني:

زين الدين العاملي، تالي الشهيد الأول في المكرمات والفضيلة والكتب والفتاوى و(شرح اللمعة) و(اللمعة) لهذين الشهيدين مدار البحث من زمانهم إلى هذا اليوم، وكان مجاهداً في سبيل الله حتى ضاق به حكام لبنان وحكام الروم، وبجثوا عنه تحت كل حجر ومدر، وأخذوه في أيام الحج فقتل على ساحل البحر، وأهدى رأسه إلى ملك الروم، وترك جسده الشريف على الأرض.
٢٤ . الشهيد الثالث:

الشهيد الثالث الذي هو لقب جماعة من العلماء الأبرار الذين استشهدوا في سبيل الله ومن اجل الصمود للحق، ومن جملتهم: شهاب الدين التستري الخراساني، كان من أجلة العلماء أيام دولة السلطان طهماسب، هجم

الأزبكية على خراسان واستأسروا شهاب الدين وأخذوه إلى ما وراء النهر وعذبوه وآذوه وسجنوه ثم قتلوه بالخناجر والمدى وأحرقوا جسده الشريف في ميدان بخارى.

٢٥ . المحقق الكركي:

المحقق الكركي نور الدين علي بن عبد العال العاملي المعروف بالمحقق الثاني الغزير العلم صاحب الفضل الكبير، وكان في عهد الملك الصفوي وتولى شؤون السياسة للبلاد وإدارة العباد، وكان أمر المحقق الكركي نافذاً على الناس فوق أمر الملك، وكان الملك يعد من عماله وولاته، دس الأعداء إليه السم غيلة فمات على أثر ذلك مسموماً.

٢٦ . القاضي نور الله التستري:

السيد القاضي نور الله التستري المعروف، تولى القضاء في الهند، وكان مجاهداً صامداً حتى قتل في سبيل الله شهيداً، وكيفية قتله كما ذكرها المؤرخون: أنهم جردوه من ثيابه وضربوه بالسياط الحديدية الشائكة حتى تقطعت أعضاؤه واختلط لحمه بدمه.

٢٧ . الشيخ علي العاملي:

الشيخ علي الحر العاملي جد صاحب الوسائل وصهر الشيخ حسن صاحب المعالم، ومن أحفاد الحر بن يزيد الرياحي المقتول مع الحسين (عليه السلام) يوم كربلاء. كان عالماً زاهداً بطلاً صامداً في دين الله مجاهداً، دسوا إليه السم فمات على أثره.

٢٨ . السيد نصر الله الحائري:

السيد نصر الله الحائري العالم المدرس الشاعر المعروف في الروضة الحسينية بكربلاء المقدسة، كان مجاهداً في سبيل الله حتى قتل عام ألف ومائة وأربع وخمسين.

٢٩ . الشيخ صالح الحسيني:

الشيخ صالح الحسيني، من علماء لبنان وتلامذة آية الله السيد مهدي بحر العلوم. كان مجاهداً في سبيل الله صامداً صادقاً بالحق مزاولاً للأمر العامة حتى قتل صابراً محتسباً، قتله أحمد باشا المعروف ب(الجزار).

٣٠ . عبد الصمد الهمداني:

المولى عبد الصمد الهمداني الحائري، كان من تلامذة الوحيد البهبهاني وصاحب الرياض، وكان مجاهداً في سبيل الله عاملاً لرفع راية الإسلام حتى قتل عند باب داره في فتنة الوهابية واستباحتهم لمدينة كربلاء المقدسة . التي قتل فيها الألوف من المؤمنين والأخيار وفيهم العشرات من العلماء الفضلاء أمثال الشيخ محمد، والشيخ عين علي، والسيد صادق وغيرهم ..

وقد ذكر جملة من المؤرخين أن الوهابيين قتلوا في هذه الفتنة ثمانية عشر ألف إنسان.

٣١ . الميرزا محمد باقر الشيرازي:

الميرزا محمد باقر الشيرازي تلميذ الإمام المجدد الشيرازي، ومن شهداء نهضة (المشروطة) في إيران، كان يزاول الأمور العامة، يأمر وينهى ويكافح أعداء الإسلام حتى قتل في شيراز.

٣٢ . الشيخ فضل الله النوري:

الشيخ فضل الله النوري تلميذ الإمام المجدد الشيرازي وابن أخت العلامة المحقق الميرزا حسين النوري صاحب (مستدرک الوسائل) وصهره، قام بثورة تصحيحية للمشروطة البريطانية حيث قال: (إننا نريد مشروطة مشروعة لا مشروطة تخرج من قدر بريطانيا) ولذا قتلوه شر قتلة صلباً وبعد ذلك أخذوا يدوسون على جسمه حتى تلتطخ جسمه الشريف بالدماء الغزيرة، ونقل إلى قم حيث دفن فيها.

٣٣ . المجدد الكبير:

السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي الذي حارب الانكليز حينما أرادوا الدخول في إيران باسم (تجارة التبغ)، حرم استعمال التبغ وسبب ذلك إخراجهم من إيران في قصة مشهورة، دس البريطانيون إليه السم فمات من أثر ذلك.

٣٤ . الآخوند الخراساني:

الشيخ محمد كاظم الخراساني الآخوند، صاحب الكفاية والكتب الاخر التي هي مدار البحث والدرس في الحوزات العلمية من زمانه إلى هذا اليوم. حارب الاستبداد في إيران وأراد إرساء حكم (المشروطة المشروعة) حتى تمكن من طرد الملوكية الجائرة، دس إليه أحد أعوانهم السم على يد أحد خدمه وقتل مسموماً.

٣٥ . الشيخ محمد تقي الشيرازي:

الشيخ محمد تقي الشيرازي الذي أعلن وجوب مطاردة الاستعمار في العراق، وشكل أول حكومة إسلامية فيها، حارب الإنكليز على قوتهم العظيمة حتى تمكن من طردهم من العراق، وانتزع استقلال العراق منهم بالقسر. .. إلى غيرهم من العلماء الكثيرين الذين دونت أسماؤهم في التاريخ.

علماء مجاهدون

أما العلماء الذين لم يقتلوا ممن حاربوا الكفر والطغيان سواء في أيام الأمويين أو العباسيين أو العثمانيين أو في أيامنا فهم كثيرون جداً، ونذكر منهم بالنسبة إلى هذه الفترة الأخيرة:

السيد محمد المجاهد الذي تحرك في العراق إلى إيران لمحاربة روسيا الطاغية التي أرادت غزو إيران وهدم الإسلام واستعمار ديار المسلمين، ولذا لقب ب(المجاهد).

وهكذا: الشيخ النراقي، والسيد نور الله صاحب كتاب (العقل والقرآن) والسيد أبو الحسن الأصفهاني . المرجع الديني المعروف .، والشيخ ميرزا حسين النائيني، والسيد ميرزا علي الشهرستاني، والسيد محمد علي الطباطبائي، والمرجع الديني السيد حسين القمي . الذي حارب البهلوي وأخرج من إيران إلى العراق ..

والمرجع الديني السيد عبد الحسين شرف الدين . الذي حارب فرنسا وأفتى ضدها حتى أخرج من لبنان إلى مصر وكاد أن يقتل، وأحرقت مكتبته التي كانت تضم نفائس الكتب . وكذلك المرجع السيد حسين البرجرودي . الذي قاوم الظلم والطغيان في إيران مرتين: مرة أيام رضا خان البهلوي حتى حكم عليه بالإعدام ونجا بفضل الله سبحانه وتعالى ومرة في أيام المد الشيوعي ..

إلى غيرهم من العلماء الكثيرين سابقاً ولاحقاً.

ولهذا السبب نرى شدة تعلق المسلمين بعلمائهم في كل الأقطار الإسلامية حيث رأوا منهم على امتداد الخط:
نشر الإسلام والفضيلة والتقوى، ومحاربة الانحراف والفسق والعصيان والكفر والاستعمار. ومضادة العلماء
والتهجم عليهم لا يرجع ضرره إلا إلى المتهم حيث ينفذ الناس من حوله.
نسأل الله أن يوفقنا لجمع الكلمة وما ذلك على الله بعزيز.

- ١ . وسائل الشيعة: ج ١٨، ص ٩٩.
- ٢ . المصدر السابق: ص ١٠٠.
- ٣ . المصدر السابق.
- ٤ . المصدر السابق: ص ١٠١.
- ٥ . بلغة الفقيه: ج ٣، ص ٢٢٩.
- ٦ . مستدرک الوسائل: ج ١٧، ص ٣٢٠.
- ٧ . المصدر السابق: ص ٢٥١.
- ٨ . المصدر السابق: ص ٣١٢.
- ٩ . المصدر السابق.
- ١٠ . المصدر السابق.
- ١١ . المصدر السابق.
- ١٢ . المصدر السابق: ص ٣١٦.
- ١٣ . المصدر السابق: ٣٢١.

العامل الرابع عشر

التجارب الفاشلة

لقد وردت كلمة (الحزب) في القرآن الحكيم تارة بعنوان (حزب الله) وتارة بعنوان (حزب الشيطان) فقد قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (المائدة: ٥٤ . ٥٦).

وقال سبحانه: (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) (المؤمنون: ٥٣).

كما قال سبحانه: (استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) (المجادلة: ١٩).

وقال سبحانه: (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأتِيَ الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أبنائكم ولو كان فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً) (الأحزاب: ٢٠)، إلى غيرها من الآيات:
ولكن:

١ . باعتبار أن غالب الأحزاب التي ظهرت في البلاد الإسلامية كانت مرتبطة بالاستعمار وكانت خلاف الإسلام . كالحزب الشيوعي، والحزب القومي، والحزب البعثي، والحزب الديمقراطي، والحزب الوجودي وما أشبهه ..
٢ . وباعتبار أن غالب الأحزاب الإسلامية أساءت التصرف في كثير من الأحيان.. لذلك كله اختلطت (الحزبية) في نظر كثير من المسلمين بالصورة التي شاهدها، وصار ذلك سبباً في كراهية كثير من المسلمين الأحزاب والحزبيات، ونفورهم منها، وتطلعهم إلى نظام يخلو من الأحزاب ويسود فيه الوفاق والوئام.
الأحزاب بين السلب والإيجاب

لكن: يجب أن نعلم أن الحزب له جانبان: جانب إيجابي هو: إن الأحزاب . التي تتحرك في الإطار الإسلامي وتنتهي إلى المرجعية . مدارس سياسية لتربية الأمة وحقل عملي لتطبيق مبادئ الشورى.

وجانب سلبي وهو: إن الأحزاب ارتبطت في أذهان المسلمين بالتفرقة والتناحر وشق الصفوف وما أشبهه . ورغم وجود هذه المساوئ إلا أننا لا يمكننا إغماض النظر عن المحاسن، بل يجب إفراغ الأحزاب عن المساوئ وربطها بالمرجعية الدينية التي هي الإطار الشرعي الصحيح والموصى به من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) ولذا ذكرنا في موضع آخر: إن الصيغة الصحيحة للحكومة الإسلامية هي حكومة المراجع الفقهاء والتي ترتبط بها الأحزاب الإسلامية.

محاولة رد الاعتبار

... وحيث إن هذه السلبية حدثت في أذهان كثير من المسلمين فمن الضروري على القائمين بالأحزاب الإسلامية أن يهتموا غاية الاهتمام لإفراغها من السلبيات وإرجاعها إلى الخط المستقيم، فالحزبية مثلها مثل إنسان ساءت سمعته بتصرفات سيئة، فإنه إذا أراد أن يبدل سمعته إلى الحسن فاللازم عليه أن يبذل جهوداً مضاعفة. وعليه فمن الضروري على الأحزاب الإسلامية الاهتمام لإستفادة الإخوان والأصدقاء، وقبول العتاب، والاستشارة الدائمة، وذكر محاسن الناس، وإشراك الناس في الرأي، وعدم تتبع عشرات الآخرين، إلى غير ذلك. نحو كسب الأصدقاء

وهناك روايات كثيرة في جهة استفادة الإخوان والأصدقاء نذكر جملة منها:

فعن محمد بن يزيد قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: (من استفاد أخاً في الله استفاد بيتاً في الجنة)(١). وروى الصدوق . قده . عن أبيه قال: قال لقمان لابنه: (يا بني اتخذ ألف صديق، وألف قليل، ولا تتخذ عدواً واحداً، والواحد كثير)(٢).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (عليك بإخوان الصفا، فهم عماد إذا استنجدتم وظهور، وليس كثيراً ألف خليل وصاحب، وإن عدواً واحداً لكثير)(٣).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لا يدخل الجنة رجل ليس له فرط، قيل: يا رسول الله ولكل فرط؟ قال: نعم إن من فرط الرجل أخاه في الله)(٤).

وعن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: (أكثروا من الأصدقاء في الدنيا فإنهم ينفعون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما الآخرة فإن أهل جهنم قالوا: (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) (الشعراء: ١٠٠ - ١٠١)(٥).

وفي رواية أخرى عن الصادق (عليه السلام) قال: (استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن دعوة مستجابة). وقال: (استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة).

وقال: (أكثروا من مؤاخاة المؤمنين فإن لهم عند الله يداً يكافئهم بها يوم القيامة)(٦).

وعن علي (عليه السلام) كما في نهج البلاغة: (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم)(٧).

وعن علي (عليه السلام) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (المؤمن عز كريم والمنافق خب لئيم، وخير المؤمنين من كان مألّفه للمؤمنين، ولا خير فيمن كان لا يألف ولا يؤلف).

قال: وسمعت رسول الله يقول: (شر الناس من يبغض المؤمنين، وتبغضه قلوبهم، المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة البادون للناس العيب، أولئك لا ينظر الله إليهم ولا يزكّيهم يوم القيامة . ثم تلا هذه الآية: (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) (الأنفال: ٦٢ - ٦٣)(٨).

وفي رواية عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من استفاد أخاً لله تعالى زوجه الله حوراء، فقالوا: يا رسول الله وإن آخى أحدنا في اليوم سبعين أخاً؟

قال: أي والذي نفسي بيده، لو آخى ألفاً لزوجه الله تعالى ألفاً(٩).
وعن داود بن سليمان، عن الرضا (عليه السلام) قال: (من استفاد أخاً فقد استفاد بيتاً في الجنة).
وفي الاختصاص عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ومن جدد أخاً في الإسلام بنى الله له برجاً في الجنة
من جوهرة)(١٠).
وروى العلامة الكراچكي في كنزه أنه نشد لأمير المؤمنين (عليه السلام) :
وليس كثيراً ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير
وفي لب الباب، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة
في الجنة).

إلى غيرها من الروايات الكثيرة بهذا الصدد.

وعليه من الضروري على الأحزاب الإسلامية المرجعية التي هي بصدد إقامة حكم الله سبحانه وتعالى أن تفيد
الأخوان في الله سبحانه وتعالى، وأن تتجنب المشاكسات والمهاترات وما أشبه مما يسبب تفرق الناس عنهم
وينتهي أخيراً إلى أن يبقوا بلا أصدقاء أو مع قليل الأصدقاء أو مع كثرة الأعداء ولا يصلوا إلى الهدف، فإن
الهدف فوق كل شيء وكل شيء في طريق الهدف فهو طريقي.

ونتهي هذا الفصل بذكر كلام لعلي (عليه السلام) مما يجب أن تتخذه الأحزاب والتجمعات الإسلامية التي تريد
الوصول إلى الهدف درساً وعبرة وأسوة.

قال (عليه السلام): (فدع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم
الفضل ليوم حاجتك، أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين؟ وتطمع وأنت متمرغ في
النعيم تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزي بما أسلف، وقادم على ما قدّم
والسلام).

١ . وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٤٠٧ .

٢ . المصدر السابق.

٣ . المصدر السابق.

٤ . المصدر السابق.

٥ . المصدر السابق.

٦ . المصدر السابق: ص ٤٠٨ .

٧ . المصدر السابق.

٨ . المصدر السابق.

٩ . المصدر السابق: ص ٣٢٢ .

١٠ . المصدر السابق: ص ٣٢٣ .

الفصل التاسع: الإعداد للصياغة الجديدة

كيف نبادر إلى الصياغة الجديدة

ضرورة الإعداد

يقول القرآن الحكيم: (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدةً ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) (التوبة: ٤٦ . ٤٧).

إن انتصار أية ثورة في التاريخ وانتصار أي مبدأ في الحياة لا يمكن أن يأتي لشعب على طبقٍ من ذهب. إن في الثورة توضيحات، وقبل التوضيحات هناك العمل الطويل الشاق فالثورة من بدايتها إلى نهايتها عمل متواصل من أجل بلوغ الهدف.

والحياة صراع بين قوى الخير . التي يمثلها المؤمنون الصادقون . من جهة، وبين قوى الشر والضلال . التي يمثلها الكفار والمنافقون . من جهة أخرى.

هذه هي سنة الحياة وهي تتطلب من الإنسان أن يكون واقعياً مع نفسه ومع الواقع الخارجي، فلا يتمنى ويضمّر في قلبه شيئاً يريد تحقيقه دون عمل حثيث من أجله.

وقد دلت التجارب الحيوية إن أي شعب يريد الانتصار، فإن عليه الإعداد والاستعداد لتقديم الثمن لانتصاره، والثمن هو الوقت والراحة وكل شيء يملكه، وإن سنة الله في الأرض تقول: (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) (الأنبياء: ١٠٥).

وإن الحياة السعيدة للذين يجاهدون ويعملون، وإن نصيب القاعدين والمتخاذلين هو الذل والمهانة في الدنيا والآخرة، وسيروث هذه الدنيا عباد الله الصالحون الذين يعدون العدة.

لذا فإن على الأمة الإسلامية التي تجاهد من أجل الحق ضد الباطل . المتمثل في الأنظمة التي سادت عالم اليوم . أن تعد العدة وتبدأ المسيرة لكي تصل إلى أهدافها السامية.

الصراع بين جبهة الحق وجبهة الباطل

إن النضال الذي تخوضه الأمة هو بين جبهتين: جبهة تمثل الحق وهي الشعوب وقياداتها الصالحة، وجبهة تمثل الباطل وهي الأنظمة، والصراع بين الشعب والنظام صراع متناقض، فصراع الشعب مع السلطة إنما هو من أجل إسقاطها وإقامة حكم الله في الأرض، وصراع السلطة مع الشعب إنما هو لإخماد تحركه والتحكم به بقوة الحديد والنار وفتح المعتقلات على مصراعيها لاستقبال وخنق كل مؤمن تائر من أبناء الشعب، ونستطيع أن نقول إن الصراع بين الأمة والأنظمة إنما هو صراع بين رسالتين متضادتين هما رسالة السماء ورسالة الأرض التي وضعها

الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والمواجهة بين أية سلطة وشعب هي قمة الصراع بين تلك الرسالتين ذات المصلحتين المتناقضتين.

إن الصراع في هذه الحياة ضرورة تقتضيها طبيعة الإنسان وطبيعة الشعب المضطهد الذي يريد أن يتخلص من الأغلال المفروضة عليه، إن التناقض بين الإنسان وأخيه الإنسان قائم في اقتسام المغام والمصالح، فقد خلق الناس وهم على هذه الشاكلة: تناقض بين الشعب الذي يمثل جبهة الحق وبين الشعب الآخر المضلل الذي يمثل جبهة الباطل، عداوة بين حزب الله وحزب الشيطان يقول الله تعالى: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو) (البقرة: ٣٦). والعداوة بين الجبهتين ليست عداوة عنصرية أو طائفية، إنما هي عداوة بين نظام يمثل القيم والمفاهيم المنحرفة، وبين شعب يؤمن بقيم معاكسة لتلك القيم وهي القيم السماوية السامية وهذا التناقض نابع من طبيعة الأنظمة وتركيبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وطريقة تفكيرها، وسينشأ من البعد بين الأمة والأنظمة مواجهة حقيقية في يوم من الأيام، وهذه المواجهة سوف تحدد مستقبل الدولة الإسلامية وجغرافيتها السياسية بالنسبة إلى إنقاذ العالم، ومن الطبيعي أن نرى المواجهة أو نتظرها، فالشعب الذي يعيش أبنائه في أقبيبة السجون وتحت التعذيب ويلفهم الحرمان لا بد وأن ينتفض ويتخلص من الرق والعبودية في يوم ما ويخلص العالم معه.

وهنا تأتي مرحلة الإعداد وهي المرحلة الصعبة الشاقة في حياة أي شعب يطالب بالتححر والاستقلال.

لنأخذ بزماد المبادرة

إن الشعب الذي يهيئ نفسه للانتصار وإقامة الحكومة القائمة على مبادئ التوحيد يجب أن يثبت نفسه في ساحة المواجهة مع الأنظمة، أما إذا رفض المواجهة ولم يعد العدة لها ولم يخض الصراع مع النظام في سبيل تحقيق أهدافه فإن الصراع سيأتيه ويشمله شاء أم أبى.

إن الشعب الواعي والذكي والذي وصل إلى درجة من الوعي السياسي هو الذي يعترف بهذه الحقيقة في الحياة، ويجند طاقاته وإمكانياته لخوض المواجهة المصيرية مع الأنظمة.

وكذلك فإن أي شعب في دولة يحكمها الانحراف مهدد بالدخول معها في صراع من أجل إزالتها.

ونحن - المسلمون - يجب أن نكون على أتم الاستعداد، ومهيئين نفسياً لدخول الصراع مع الأنظمة القائمة، لكن لا بالحرب بل بالسلم، وإلا صار الصراع مفروضاً من قبل الأنظمة.

إن الكثير من الصراعات التي وقعت في العالم كانت حسب تخطيط وإرادة الآخرين من الحكام أو القوى العظمى فإذا لم نعدّ نحن أنفسنا تغلت المبادرة من أيدينا.

ومن الواجب أن تتخذ الأمة الإسلامية المبادرة في إدارة الصراع والمواجهة مع الأنظمة لتكسب المعركة وتتصر بإرادة الله تعالى.

لا.. للانتظار البارد

إن إنتظار خوض الصراع بين الشعب وجماهيره وبين الأنظمة لا يعني انتظاراً بارداً صامتاً ساكناً، وإنما انتظار الصراع يعني إعداداً دائماً ومستمراً من أجل ساعة المواجهة.

إن الكثير من جماهير الأمة تمني نفسها بالانتصار على الأنظمة وأن تتحرر من الأغلال والاستبداد والدكتاتورية. وقطاع آخر من الجماهير المؤمنة يُمني نفسه هو الآخر بخوض الصراع مع الأنظمة من أجل مصلحة رسالته وقيمه ومبادئه. وقطاع آخر ثالث يزعم أنه في يوم الصراع يستطيع أن ينتصر على العدو. ولكن القليل منا يعرف أن هذا الانتصار وهذا الانتظار ليسا بالتمني وإنما بالعمل الجاد والإعداد الدائم والمستمر للنهضة.

كيف نتصر في المعركة

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو أنه بماذا نتصر على الأنظمة؟
والجواب: إن انتصار الإسلام في العالم لأجل صياغة جديدة للعالم وإقامة الحكومة الإسلامية يتطلب أموراً ثلاثة لا بد منها وهي:

أولاً: الإعداد النفسي للصراع.

ثانياً: الإعداد البدني.

ثالثاً: الإعداد التنظيمي.

أولاً: الإعداد النفسي

فالإعداد النفسي للصراع عبارة عن صراع إرادة الأمة مع إرادة الأنظمة، بمعنى أن الشعب يملك الإرادة والعزيمة، وخصمه المتمثل في النظام يمتلك أيضاً تلك الخصائص.

وإرادة الشعب تتحدى إرادة النظام وعزيمته التي هي عزيمة البقاء، وهذا هو صراع الإرادة.

وعندما نقول بصراع الإرادة فإنما نقصد أن المسلم يجب عليه القيام بإعداد نفسه وشحن عزيمته، فإن قسماً كبيراً من عملية خوض الصراع مع النظام والانتصار عليه وبلوغ الهدف مرتبطة بالتهيئة النفسية وشحن الإرادة.

وعندما يتصف المسلم بالشجاعة والإرادة والإصرار على المواجهة رغم الظروف فإنه سينتصر حتماً. بإذن الله ..

وكمثال على ذلك: المواجهة الأولى مع أعوان النظام في الشارع أو في الأزقة أو فعن طريق الإضرابات العمالية والامتناع عن الذهاب إلى مؤسساته كل ذلك بحركة سلمية، هذه المواجهة تحتاج إلى شحن الإرادة والإعداد النفسي للإنسان لكي يستطيع المقاومة في هذه المرحلة ويكون مستعداً لتقبل ردود الفعل التي سيقوم بها النظام وأجهزته.

يجب على المسلم أن يتحلى بمثل هذه النفسية وأن يتمرن عليها، لأنه عندما تكون نفسيته معدة وإرادته حديدية فإن باستطاعته المقاومة حتى النفس الأخير.

وكذلك فإن انتظار المواجهة مع أعوان النظام في الشارع أو في المصنع أو المدرسة أو الجامعة أو الحوزة أو أي مكان آخر تعطي الإنسان دفعة وإرادة قوية بالإضافة إلى النفسية المهيأة لخوض المعركة والاستمرار فيها، وقد تكون مواجهة مع أعوان النظام في أحد الشوارع كافية لأن تدفع الآخرين للوقوف بوجهه وخوض الصراع في قرية من القرى أو مدينة من المدن، إذ أن المواجهة الأولى قد أعطتهم درساً في الإرادة والعزيمة والمقاومة.

كما أن التعلم على المناورات وكيفية خوض الصراع مع النظام تعطي شحنة من الخبرة والإرادة النفسية المعدة للمواجهة.

إن الظلم والإرهاب الذي يشيعه النظام يجب أن يجعلنا مؤمنين بضرورة مواجهة مثل هذه الإجراءات، وإعداد أنفسنا الإعداد الذي نستطيع أن نصمد ونقاوم ونحطم هذه القيود.

قال تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلاة) (البقرة: ٤٥).

والصبر في مرحلة المواجهة ينمي إرادة الإنسان، وكذلك الصلاة هي الأخرى تنمي الإرادة لدى المؤمن وتدفعه نحو الانطلاق دون خوف وجزع إذ أن الخوف لا ينبغي أن يكون إلا من الله (عز وجل).

قال تعالى: (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) (المائدة: ٥٤).

وعلينا نحن أبناء الأمة أن نتحدى الصعاب والعقبات في طريق الانتصار، فعملية الانتصار ليست سهلة كما يتصورها بعض الناس، بل إن من واجبنا خوض الأعمال الصعبة وتحدي ظروف السجن والاعتقال والتصفية والهجرة والنفي، ونعتبر كل هذه المسائل.

إزالة العقبات النفسية

ثم إن هناك عقبات نفسية كالجبن والاستسلام تمنع الإنسان من العمل، فإذا خاف الإنسان من هذه العقبات فإنه ليس باستطاعته التخلص من ربة القيود والأغلال المفروضة عليه، فعلى الإنسان أن يزيل هذه العقبات ويربي نفسه على الشجاعة والإقدام حتى يكون بمستوى خوض الصراع لأجل الإنقاذ.

إن تنمية المواهب والتربية الشخصية وصقل النفس ضرورات لا بدّ منها لتحقيق الانتصار.

إن النظام السائد في عالم اليوم يمتلك الوسائل الفتاكة لقمع المظاهرات وسجن المصلحين وتعذيبهم وأحياناً قتلهم ومصادرة أموالهم كما فعل المشركون بالرسول (صلى الله عليه وآله) وأصحابه فعلى الإنسان أن يصمم لتلقي كل ذلك.

وهناك حقيقة لا بد من معرفتها وهي أن المصلح يجب أن ينتظر من النظام المواجهة العنيفة، لذا فإن عليه أن يكون مستعداً في هذه المرحلة لتفويت الفرصة على النظام.

إن النظام كما علمتنا الثورة الإسلامية لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يتساهل مع الجماهير فإنه سيضع كل إمكانياته وقدراته في سبيل القضاء على المقاومة الشعبية لحكمه.

ثانياً: الإعداد البدني

دروساً نستفيد منها في تنمية إرادتنا، وإن القيام بالأعمال التربوية كالصوم وذكر الله تعالى والصلاة في جوف الليل من العوامل التي تجعلنا نمتلك الإرادة الحديدية التي لا تقهر.

أما الإعداد البدني للصراع فهو ضرورة من الضرورات التي يستطيع بها المسلم الانتصار على أعوان النظام، فاللازم أن تكون الأبدان صلبة وقوية تتحمل المجاهدة وتقوى على ما يقوم به النظام من أعمال الفتك والإبادة.

إن كلمة نعم في سؤال المسلم هل أنه يريد الإصلاح؟ ليست كافية لأن تغير تاريخاً ونظاماً وتبني حضارة، إنما الإعداد النفسي والبدني هو الكفيل بأن يسقط النظام ويقوم على أنقاضه النظام الإسلامي المنقذ للعالم، وإن الوسائل والإعداد الذي نتخذه يجب أن لا يكون قسرياً واهياً ينكسر ويتلاشى مع أول مواجهة. إنما يجب الإعداد إعداداً إيمانياً راسخاً في النفس، وأن تكون النفس مطمئنة ومسلّمة بضرورة الإعداد للمواجهة، ومستعدة لخوض الصراع حتى النصر أو الشهادة.

ومن جانب آخر يجب أن ندرّب أنفسنا على الوسائل التي تعطينا (النفس الطويل) في الصبر عند المواجهة، فلا نتنازل للأنظمة في خلال ساعات أو أشهر، بل يجب خوض المعركة ولو كانت طويلة، فطول المعركة يجب أن يلازمه الصبر وارتفاع درجة الإرادة في النفس وصلابة الأبدان لتحمل المشاق والمصاعب فإن هذه الأمور أساسية يجب أن يتدرب عليها المسلمون في كل مكان.

فاللزام إذن أن نتسلح بالروحيات العالية والأبدان القوية لخوض المعركة والتسلح بالإيمان يجب أن يكون متقدماً فإنه هو الذي يضمن صعود الإنسان واستقامته في المعركة نظراً لإيمانه بعدالة قضيته.

ثالثاً: الإعداد التنظيمي

فاللزام أن نعرف أن الحياة اليوم تعتمد اعتماداً أساسياً على التقنية في جميع المجالات، وهذه التقنية ليست فقط في الأدوات التي يقدمها الإنسان في حياته، بل في التعاون والتنسيق بين طاقات الإنسان نفسه أيضاً. وحضارة اليوم مبنية على التعاون في كافة الحقول والمجالات.

ونحن - المسلمون - الذين نتطلع إلى إقامة صرح الأمة الإسلامية وإنقاذ العالم يجب علينا أن نعد أنفسنا تنظيمياً في التنسيق بين خبراتنا، وطاقاتنا وتوجيهها التوجيه السليم في التخلص من الحكام الذين يقفون أمام تقدم الأمة . والحكام الديكتاتوريون هم عقبات الأمم التي تريد التقدم والتحرر والاستقلال ..

فإن بناء الحضارة في الوقت الحاضر يعتمد اعتماداً كلياً على التقنية وعليه فنحن كأمة تطمح إلى بلوغ أهدافها وإقامة حكومتها التي ستكون القاعدة لتغيير العالم حضارياً يجب أن نتبع الأسلوب العلمي والتقني فيما بين طاقاتنا حتى نحسن تفجير مواهبنا بشكل جيد في عملية الصراع، وضروري أن يكون هذا التعاون قبل مرحلة المواجهة وعندها، فقد يقوم شعب من الشعوب بالمواجهة مع نظامه ويقدم التضحيات الجسام ولكنه يفقدانه التعاون والتنسيق بين طاقاته تذهب تضحياته هباءً دون أن يستطيع الانتصار، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) (آل عمران: ١٠٣).

فيجب أن نعبئ طاقاتنا الفكرية وقدراتنا المادية وأن ننخرط في التنظيمات الإسلامية التي تبلور عملنا وجهودنا وتصبها في مجاريها السليمة تحت قيادة مراجع الأمة.

التنظيم الثوري

إن معرفة التنظيم الثوري والانخراط فيه ضرورة لا بد منها وقد قال علي (عليه السلام): (ونظم أمركم) (١).

وكذلك معرفة التنظيم الاجتماعي وغيره من التنظيمات التي تصب طاقات الإنسان وقدراته في قنواتها المناسبة وتستغلها في الواجبات التي يجب على الناس معرفتها والعمل بها، فاللازم الانخراط فيها وممارسة الأعمال والخدمات داخلها فإن: (يد الله مع الجماعة)(٢).

وهكذا فإن تنظيم عملنا وتنظيم أنفسنا والتنسيق فيما بيننا في مرحلة الإعداد شيء نحتاج إليه كما نحتاج إليه بعد الوصول إلى الهدف وإنما في هذه المرحلة إذا لم نعمل بإتقان وتنظيم فسوف تتأخر مرحلة الانتصار لربما إلى سنين طويلة، فعلى المسلم أن يتدرب على جميع الوسائل والأساليب في مقاومة الأنظمة حتى إذا جاءت ساعة المواجهة لا يكون كالنعامة التي تدس رأسها في التراب وذيلها لمهب الريح حتى يأخذها الصياد.

فعلينا أن نوجد هذا التعاون وتلك القدرة التنظيمية الواسعة بيننا ونعبيء طاقاتنا على هذا الأساس لكي تتوفر بعد ذلك عوامل وشروط الانتصار، وتصبح المواجهة حينها شيئاً سهلاً ومرحلة نعبرها بسلام ونكسبها أيضاً.

فمن الممكن أن تكون مرحلة الصراع وإدارته مع النظام أصعب من مرحلة ما بعد الصراع فيما إذا كسبنا المعركة، فمرحلة ما بعد الانتصار وما فيها من مصاعب ومؤامرات ضد الحركة الإسلامية سواء المؤامرات الداخلية أو الخارجية وكذلك بناء مؤسسات جديدة أسهل من مرحلة المواجهة، إذ سوف تكون كل القدرات حينها بأيدي الأمة فنستطيع أن نواجه بها الخصم، ناهيك عن اكتشاف الشعب لنفسه من جديد وفدائه اللامتناهي لمكتسبات ثورته.

والواجب على المسلم أن يلحق الحكام ما لقيه المسلم الأعزل . إلا من سلاح الإيمان . في أول الإسلام فصاروا عبدة للشعوب في نضالها ضد قوى السيطرة والظلم، أما أن لا نحرك ساكناً ولا نبذل جهداً فمعنى ذلك إنا لا نعترف بمواهبنا وقدراتنا وطاقاتنا، ومن ثم لا نستطيع أن نعرف نواقصنا ونكملها، وقد قال علي (عليه السلام) في حكمة بعثة الأنبياء: (ويثيروا لهم دفائن العقول)(٣).

١ . نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٣، ص ٧٦.

٢ . كنز العمال: ج ٧، ص ٥٥٨.

٣ . بحار الأنوار: ج ١١، ص ٦٠.

من أدوات إعداد الصياغة الجديدة

التعاون بين القطاعات

إن التعاون بين قطاعات الأمة بمستوى علماء الدين والخطباء والتجار والعمال والمهندسين والأطباء والطلبة الجامعيين والحوزيين والفلاحين والعمال وغيرهم واجب ضروري يجب أن نزرعه في أنفسنا، فإن التعاون بين هذه القطاعات سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى نتائج مثمرة بعد مدة من الزمن.

وهذا التعاون الذي نريد أن نوجده بين أفراد الأمة بعضهم مع بعض وبين المنظمات والمؤسسات الإسلامية وبين الشعب وقيادته المرجعية وكذلك القدرة التنظيمية داخل الأمة ليس شيئاً يمكن أن يوجد بين عشية وضحاها، إن القضية تحتاج إلى عمل جاد ومستمر بيننا جميعاً وخاصة بين الشعب والقيادة المرجعية التي ستقود الصراع.

إزالة الحواجز النفسية

وهناك حواجز كثيرة تفصلنا عن بعضنا البعض، وهذه الحواجز لا تظهر في فترة الاختلاط والصدقة والسفرات والرحلات السياحية إنما تظهر عندما نبدأ بالعمل الجدي.

هذه الحواجز التي تقف جداراً سميكاً يجب أن ننسفها حاجزاً بعد حاجز حتى نتحد وتلاحم الأمة ونستطيع بالتالي العمل والتنسيق جميعاً.

ويجب أن نشعر أنفسنا في هذه المرحلة بضرورة تحطيم الحواجز وذلك بمعرفة بعضنا لبعض الآخر، وتقييم كل منا للآخرين كي نكتشف طاقاتنا كشعب ونعترف بهذه الطاقات وتكون لدينا قناعة تامة بطاقتنا وقدراتنا وإن باستطاعتنا بلوغ الهدف وهذا هو أهم شيء نحتاجه.

دور الأخلاق في عملية التغيير

ويجب أن لا يخفى علينا شيء مهم وهو السلوك الأخلاقي السيئ وجوانب النفاق والحسد والكسل التي تقف عقبات كؤودة أمام عملية البناء والإعداد الذاتي للفرد والأمة.

فإن هذه الأنماط الأخلاقية الفاسدة يلزم أن نقلع جذورها من الأساس بيننا كأفراد وكأمة، حتى تكون نفوسنا صافية وخالية كي ننطلق للبناء الذاتي ونخدم الآخرين ونقيّمهم التقييم السليم، فلا نقيم الإنسان بسنه وبماله وجاهه ونسبه، بل أن هناك مقاييس إسلامية يقيم بها الفرد والتي تتمثل في تقواه وقدرته على القيادة والأخلاق التي يتحلى بها.

هذه المقاييس يجب أن لا نغفل عنها ونحن في مرحلة البناء.

الاعتراف بقيمة الآخرين

ومن الأمور الأساسية التي استطاع الإسلام أن يتقدم بها في هذا المجال هو اعتراف الإنسان بقيمة الآخرين.

ف . (قيمة كل امرئ ما يحسنه) (١).

كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقبله قال الله في كتابه الكريم: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٢).

إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث بجيش قوامه أربعة آلاف جندي وكان فيه كبار الصحابة وجعل عليهم (أسامة بن زيد) أميراً وقائداً وهو ابن السابعة عشر، فلم يتفوه أحد منهم بكلمة بأن يقول: إنه صغير السن ولا يمتلك الخبرة في أمور الحرب ولا يمتلك القدرة على القيادة وعلمه قليل بالنسبة لعلم الآخرين فشاب عمره سبعة عشر سنة يقوم بقيادة الجيش ويخضع له كل الجنود والضباط والمراتب بما فيهم كبار الصحابة. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على المقاييس الصحيحة التي يضعها الإسلام في تقييم المسلمين لأنفسهم التقييم السليم وتسليمهم للقيادة المتمثلة في الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وطاعتهم لمثله أسامة بن زيد. وهذه الأمور والمتطلبات لا نستطيع أن نوجدها فجأةً في مجتمعنا، وإنما يتربى المجتمع على هذه القيم والأخلاقيات السامية بصورة تدريجية.

وبهذا نستطيع أن نمي التنظيم الحقيقي الذي فتته الاستعمار داخل مجتمعاتنا. إن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) كان أمة في عصره، لذا استطاع أن يبني أمة قوامها الآن مليار إنسان بالإضافة إلى أنه (صلى الله عليه وآله) أصلح قسماً كبيراً من العالم غير الإسلامي فالديمقراطية والنظم والنظافة والعلم واحترام الإنسان كلها من آثار نبي الإسلام.

فعندما تتوفر عوامل الإعداد في الأمة ويكون هناك ارتباط وثيق بينها وبين القيادة الإسلامية التي تتوفر فيها الشروط والمؤهلات القيادية فإنها ستكون قادرة على التخلص من الاستبداد والتبعية ولنا في القيادة الإسلامية خير مثال.

لا.. للتفكير السليبي

ونحن المسلمين يجب أن لا نفكر بأننا غير مؤهلين للقيادة وأخذ زمام الأمور في العالم وبناء حضارة الأمة الإسلامية، بل علينا أن نطرد كلمة (مستحيل) من قاموس حياتنا وعندها سنستطيع إذا ما أخذنا المبادرة وتفهمنا الرؤية والبصيرة الصائبة أن نرجع إلى السيادة.

ضرورة التنظيم الأسري

وإن على أبناء الأمة أن يقوموا ببناء الخلايا التنظيمية في المجتمع والأسر أيضاً.

إننا بحاجة إلى تنظيم أسري وأن يكون بين الأسرة من ينظم شؤونها ويعمل على تربيتها وتفجير طاقاتها وإعدادها لخوض الصراع والمواجهة القادمة.

فالأسرة في الإسلام تعتبر خلية إيمانية واجتماعية وسياسية واقتصادية، ولكن الاستعمار بعد أن غزا مجتمعاتنا الإسلامية دمر هذه الخلية لأنه يعرف أن هذه الأسرة إن ظلت على طبيعتها وقدرتها وتركيباتها فإنها سوف تكون قادرة على مقاومة التيارات الخارجية.

والحقيقة أن النظم الاقتصادية المنحرفة في العالم تدمر الأسرة، لذا رأينا المصانع في العالم الغربي والشرقي كيف حاولت وبالدرجة الأولى إفساد وتمييع الأسرة، ذلك لأنها ليست فقط خلية اجتماعية تشترك في الأكل والنوم والمسكن وإنما هي خلية إيمانية واقتصادية واجتماعية وسياسية يتنامى فيها الأخذ والعطاء، فالأب حينما يكون

سياسيا وذا رسالة فإنه يحمل هذه الرسالة إلى أبنائه الذين هم بدورهم يحملونها للآخرين في داخل الأسرة والمجتمع وهكذا بالنسبة إلى سائر الفضائل.

لذا فإن الأسرة في المجتمع الإسلامي تتحول إلى أسرة إيمانية سياسية تحمل القيم والمفاهيم الإسلامية بجميع أبعادها حتى تستطيع أن تكون اللبنة الأولى للتنظيم وإقامة المجتمع الإسلامي مجتمع التوحيد والخير والصالح. الاهتمام بالعشائر

وهناك لبنة ثانية يجب أن يعمل على إيجادها، وهي التنظيم العشائري الإيجابي. فقد حاولت ثقافة الاستعمار أن تسلب خير ما عندنا وتعطينا شر ما عندها. فهذه الثقافة الإسلامية قد سلبت من التجمعات العشائرية والقبلية التي يجب أن تكون مجتمعة. والسؤال كيف يكون التنظيم العشائري إسلامياً؟ والجواب:

على هذه القبيلة أو العشيرة أن تجعل لها رئيساً بالمفهوم الإسلامي (لا بالمفهوم الجاهلي). وليس الواجب أن يكون رئيس القبيلة أو العشيرة ذلك الإنسان الكبير السن والأفضل في النسب وإنما يكون الأفهم والأعدل والأعلم والأقدر على القيادة، وحتى إذا كانت هناك انتخابات يجب أن ينتخب واحد من خيرة أبناء العشيرة أو القبيلة، وهؤلاء جميعاً يكونون قوة اجتماعية وسياسية واقتصادية فلو استطعنا أن نخلقها في مجتمعاتنا ونبنيناها على الأسس الإسلامية، فإننا سنستطيع أيضاً بناء التنظيم في المحيط الاجتماعي للشارع وفي الحي والقرية في لجان بعيدة عن أعين الأنظمة تمارس نشاطاتها في تنظيم الجماهير وتوجيهها. المجالس الحسينية

هناك تجمع وتنظيم أساسي لا يمكن التغافل عنه وعلينا أن نعيه أكبر اهتمامنا ألا وهو (التنظيم الحسيني) فمجالسنا الحسينية التي يقيمها أبناء الشعب في أيام عاشوراء وأربعين الإمام الحسين (عليه السلام) ووفاة النبي (صلى الله عليه وآله) والصدّيقة الطاهرة (عليها السلام) ومجالس الوفيات للأئمة عليهم السلام والمجالس الأسبوعية والشهرية التي تقام في المساجد والمدارس والبيوت هذه المجالس يجب أن تكون ضمن تنظيم حسيني في كل مدينة وفي كل قرية، وتكون هناك قيادات منتخبة وتنسيق بين المجالس في اختيار الخطباء، وتنظيم المواكب العزائية، واختيار الشعارات الإسلامية التي تنمي في نفسية الشعب روح الحركة والاندفاع نحو مقاومة الأنظمة. الرؤية الواقعية

ثم إنه يجب أن تكون جماهير الأمة المؤمنة واقعية مع نفسها وفي رؤيتها ومنظرها إلى الأحداث، وهذه الواقعية تكمن في أننا اليوم نخوض صراعاً مريراً لمواجهة أعدائنا في العالم وعلينا أن نحسم المعركة لصالحنا بإعدادنا الجيد لأنفسنا.

إن بيننا وبين الإعداد حاجزاً سميكاً وهذا الحاجز يكمن في سعة الصدر وضيقة فعلينا أن نربي أنفسنا على شرح الصدر: (ربي اشرح لي صدري) (طه: ٢٥)، وأن تكون قلوبنا منسجمة مع الأمة في العمل.

وهذا في الوقت الذي يجب أن يتحول ضيق صدرنا إلى عداوة مشحونة ضد الأنظمة: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (الفتح: ٢٩).

إن للإنسان أعداءً في المجتمع ولكن عليه أن يعرف عدوه الحقيقي هي الأنظمة الحاكمة التي كانت السبب في تكوين مثل هذه العناصر المنحرفة.

إن الأنظمة تريد أن تحطم قوة الأمة وهؤلاء الذين يحكمون المسلمين المعادون للأمة يعرفون بأن حزب الله هم الغالبون وإن هذا الحزب الإسلامي العالمي يهدد مصالحهم، لذا فإنهم يسعون إلى تحطيمنا بشتى الأساليب: بالسجون والمعتقلات، بالتعذيب الجسدي القاسي حتى الموت، بالإبعاد عن الوطن، بمصادرة الأموال، وغير ذلك من الممارسات اللاإنسانية.

إن الأنظمة تخاف من المجاهدين العاملين، تخاف من الطلائع المؤمنة التي هي طلائع الجيش الإسلامي المشيد لحكومة القرآن في العالم، فالأنظمة تعتبر الأمة عدوها الأول والرئيسي فتحاول وفي كل يوم أن تفتت هذه الأمة. فعلينا أن نستغل كل ساعة من ساعات حياتنا في مقاومة الباطل.

١ - نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ١٨.

٢ - سورة الحجرات: آية، ١٣.

العمل أساس التغيير والصياغة الجديدة

ماذا تعمل الأنظمة وماذا نعمل نحن؟

والأنظمة تعمل الكثير في سبيل الحفاظ على عرشها إنها تستورد الخبراء العسكريين، وخبراء (الأمن) وخبراء التمييز والإفساد، وخبراء التعذيب لمجتمعنا، وتبني السجون والمعتقلات لتحبس الثوار المؤمنين.

وأعمال الأنظمة هذه لا يمكن التخلص منها إلا بالعمل الجاد والإعداد المستمر من قبل أبناء الأمة حتى نكون في مرحلة نستطيع أن نقول للأنظمة (لا) وللإسلام وللحكومة الإسلامية (نعم).

وفي ذلك يجب أن يسبق بعضنا بعضاً.

(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (المطففين: ٢٦).

وعلى الفرد منا أن يقوم بجهود جبارة وأعمال بطولية تساوي أعمال و بطولات العشرات من أبناء الشعب الآخر حتى يكون هذا العمل الخالص لله ثمرة نجنيها بعد حين بإذن الله تعالى، قال تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً) (الأنفال: ٦٥).

وأخيراً

يجب أن تكون قناعاتنا كاملة بأن الإعداد للمعركة المصيرية ضرورة تقتضيها الحالة المأساوية التي نعيشها، فإن انتظار الفرج بدون العمل لا يغني الإنسان شيئاً.

قال سبحانه: (وقل اعملوا).

وقال تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم: ٣٩).

وفي هذه المرحلة يجب أن نترك ونتجنب النظرات الحزبية الضيقة، ونترقّع عن الخلافات، ولو كانت هناك خلافات بيننا فيجب أن تتحول إلى سلاح لأجل التغيير في مواجهة الأنظمة، وأن تكون قلوبنا مفتوحة للآخرين، وأن لا نفرق بين هذا وذاك وأن يكون المقياس هو (التقوى) و(حسن الإدارة) فإننا إن اتصفنا بأخلاقيات وسلوكيات فاسدة كالحسد والنفاق والنظرات الضيقة فلن نستطيع أن نؤسس حكومة عالمية ونظاماً أقوى من الأنظمة القائمة.

والله سبحانه وتعالى إنما يرفع العمل الصالح، أما العمل الذي يشوبه النفاق والرياء فيبقى في الأرض بل ينتقل إلى سجّين.

لذا فعلى الأمة أن تكوّن نفوس جماهيرها وتتحمل المشاكل وتجتاز العقبات، وأن تفكر في مصلحة الإسلام والأمة والعالم أجمع فإن: (آلة الرئاسة سعة الصدر)(١).

. كما قال علي (عليه السلام) . فعلينا بتربية أنفسنا وإعدادها وفق هذا المقياس.

إن المجتمع الذي يمتلك سعة الصدر ويبحث عن الكفاءات والمقاييس الصحيحة ولا يبحث عن العلاقات والارتباطات الحزبية الضيقة هذا المجتمع يتقدم على ذلك المجتمع الذي يفكر فقط و فقط في مصالحه الشخصية الضيقة.

وتربية الإنسان لنفسه على سعة الصدر، والتفكير الجدي وفي مصلحة الآخرين في مصلحة أمته والعالم وقبل كل شيء في إسلامه وقيمه من الأمور التي يجب أن يتحلى بها أبناء شعبنا بجميع فئاته وفصائله ففي ذلك خسران العدو واقتراب نهايته بإذن الله تعالى.

إننا نتطلع إلى مستقبل مشرق، وهذا المستقبل يتطلب منا الوحدة والتعاون والتنسيق بين طاقاتنا الفكرية وقدراتنا المادية، وتسخيرها في خدمة القضية الأساسية، وأن يكون ولاؤنا للقيادة الإسلامية المرجعية التي تتصدى قيادة الحركة ضد الأنظمة ولأئ إيماناً تابعاً من الشعور بالمسؤولية الإلهية.

فلتكن نفوسنا صبورة ورؤانا بعيدة، ولتكن أهدافنا وتطلعاتنا سامية، حتى تكون شخصيتنا قادرة على استيعاب المجموع وتجميع طاقاته وقدراته.

وليعلم المسلمون أن خوض ساحات العمل والإعداد للمواجهة من الأمور التي يتوقف عليها انتصارهم وعزتهم وإن الإعداد لخوض الصراع مع الأنظمة أمر لا بد منه وإلا فإن الأنظمة ستدوم سنوات أطول وإنها ستبدد المسلمين وقدراتهم أكثر فأكثر.

إن الخيال والحلم والتمني لا يصنع شيئاً، إننا إذا أردنا أن نصنع حضارة بالتمنيات فإننا سنكون واهمين فإن صنع الحضارة ليس بالحلم والتمني، فالإنسان لا يستطيع أن يصنع بالتمنيات والحلم حضارة أو دولة وإنما يكون صنع الحضارة وبناء الحكم بالمساعي والعمل الجاد من أجل بلوغ الأهداف.

(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) (النجم: ٣٩ - ٤٠).

(ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) (٢).

أما أن نجلس في بيوتنا ونقول: بأننا نستطيع تحقيق أهدافنا، فإن ذلك ما لا يقبله العقل ولا ينتهي إلى نتيجة فعلينا أن نسعى من أجل المقاومة وبقوة، ونقف أمام العدو ونصرخ في وجهه دون خوف أو تردد، وأن نقاطع دوائر الأنظمة وشركاتها وكل ما يرتبط بها وأن نترك الخدمة فيها.

فاللزام على الأمة أن تبذل جهودها في سبيل انتصار ثورتها وقيمها ومبادئها وتكوين حضارتها من أجل الله والله فقط، قال تعالى: (قل الله ثم ذرهم) (الأنعام: ٩١).

لا أن يكون تفكيرها مادياً يبحث عن المغام.

والشعب الذي يعد نفسه لانتصاره من الآن أفضل من الإعداد بعد عشر سنوات، لأن الإعداد اليوم سوف يعطي النتائج بعد فترة زمنية لا تتعدى فترة الإعداد بعد عشر سنوات بإذن الله تعالى.

إن الأناشيد والشعارات والعواطف لا تكفي، فمرحلة الشعارات والأناشيد يجب أن ترافق مرحلة الإعداد النفسي والجسدي والتنظيمي لشخصية الفرد والأمة.

ولو أننا ربينا أنفسنا ومجتمعنا الإسلامي على هذه المفاهيم والقيم فإننا سوف نحني ثمره هذه التربية في القريب العاجل إن شاء الله تعالى.

وإننا بعملنا الجاد وإعدادنا المستمر لمرحلة المواجهة سوف لن تخيب آمالنا وطموحاتنا، والله عز وجل مع الذين يعملون الصالحات لوجهه ومع الذين يكذبون في هذه الدنيا من أجل عزتهم وكرامتهم وتحكيم مبادئهم الخيرة. (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) (السجدة: ٢٨ - ٢٩).

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) (المجادلة: ٢١).

(إن ينصركم الله فلا غالب لكم) (آل عمران: ١٦٠).

(إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (محمد: ٧).

والحمد لله أولاً وآخراً

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

١ - نهج البلاغة، شرح محمد عبدة: ج ٤، ص ٤٢.

٢ - بحار الأنوار: ج ٩، ص ١٩٤.